د. صالح الفهدي

في ظلال القيم

عنـــــوان الـكتـــــاب : في ظلال القيم

اســــــم المـؤلـــــف : د. صالح الفهدي

الـنــاشـــــــــر : دار الفـرقـد

الطبعـــــة الأولـــــى : 2012

التنفيـــذ والإشـــراف : دار الفرقد

الإخـــــراج الفـــــني : وفاء الساطي

تـــــصميم الغـــــلاف: إسماعيل سويلم

جميع الحقوق محفوظة

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع

سـورية - دمشق

هـاتـف : 6660915 - 6618303 (00963-11)

ص . ب : 34312 فاكس: 6660915 (00963-11)

البريـــــــد الإلـكتـرونــــــــي : alfarqad70@ Gmail.com / hotmail.com / yahoo.com

الموقـــع علـــى شـــبكة الإنترنـــت: http://www.alfarqad.com

في ظلال القيم

في ظلال القيم، أو في حديقة القيم

هكذا شاء له الدكتور صالح الفهدي أن يكون، وهكذا رغبت في أن يكون؛ ولسنا نقف موقف الضدين من بعضنا، لكنني أردت له أن ينعت كتابه بالكل وليس بالجزء، فما أن ولجت عتبات الكتاب حتى وجدتني ألج حديقة غناء، متنوعة الأشجار، شهية الثمار، فرحت أقطف من ينعها قبل أن أتفيأ ظلاً من ظلالها فأستريح. تماماً هكذا كان شعوري عندما طفقت أقرأ هذا السفر، الكبير بعدد صفحاته، بيد أنني ما كدت أشعر بهذا الكم؛ ففي ظلاله ما يغني عن الالتفات إليه.

لقد عرفت الفهدي مسكوناً بهاجس القيم، محامياً لها، ومدافعاً عنها، في زمن بات يُشعره كأنه سيصبح ذات يوم فلا يجدها، فطفق يجرِّد نفسه لأجل تأصيلها، والبحث عنها في تفاصيل الحياة اليومية، فمنذ كتابه **قيم معطلة في المجتمعات العربية** [1]، ثم إسهاماته القيمة في ندوة **القيم العمانية ودور المواطن في التنمية**، التي أعدتها وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في منتصف العام الحالي 2011، بالإضافة إلى برنامجه التلفزيوني **قيم**، الذي أخذ يعده ويقدمه مؤخراً، لَيعطي دلالة قطعية بأنه إنسان قِيْمِيٌّ بامتياز؛ يقدم قيمه في غير شكل، ويسوقها في غير قالب، مستفيداً من طاقاته الفكرية والإبداعية وحضوره الكاريزمي، وهكذا يكون لعمري حَمَلَةُ الرسالات، ومؤدو الأمانات، المهمومون بهموم مجتمعهم، والمهووسون بمشكلات أفراده، والساعون لحلها مهما تضاءلت في الصغر.

---

(1) صدر عن دار الفكر بدمشق 2010م.

وهكذا بدا الكتاب مؤلَفاً من عدد كبير من الخواطر يبثها الفهدي بين تضاعيفه بعناوين شائقة، متناولاً في متونها القيم في أكثر من موقف، ومن أكثر من زاوية، بأسلوبه الشاعري الرقيق، متخيراً لعرضها اللغة الأليفة إلى المتلقي، القريبة من نفسه، وقلبه، وروحه، محاولاً اجتذابه إلى ما يود أن يقوله دون أن يشعره بوعظ، وإن لم تخلُ بعض خواطره من دعوة إلى قيمة معينة، لكنها الدعوة التي تشبه الدعوة إلى وجبة خفيفة تغذي ولا تتخم. فسَلَك في سبيل ذلك ألواناً من القول، فهو تارة يحكي موقفاً شهده بنفسه، منتقلاً به إلى قصة من القصص المأثورة، أو بيتاً من الشعر، مدعماً ما يقول بآية كريمة أو حديث شريف، ليقدم مزيجاً رائعاً من الأدب الرفيع الذي يجمع ضروباً من القول مؤتلفة غير مختلفة، كفيلة بجعل القارئ يأتي على عديد الصفحات المكونة للكتاب دون أن يغزوه الملل، أو ينتابه السأم.

وعلى ذلك، فإن **في ظلال القيم** أو **في حديقة القيم** كتاب يبتعد به صاحبه عن الشكل العلمي الصارم الذي يستوجب منهجاً دقيقاً في التوثيق والتقصي والبحث، فبدا مجموعة من الأحاديث التي تُشعر قارئها بأنه يستمع إلى كاتبها وليس قارئاً له، وهي درجة من القرب أبلغ مما لو كانت تشعره بالإجهاد الفكري الذي يتطلبه أحياناً بحث علمي موجَّه لقارئ نخبوي، وأحسب أنها طريقة أجدى تأثيراً بالنظر إلى مادة الكتاب وغايته الهادفة إلى الوصول إلى شريحة عريضة من شرائح المجتمع التي تشكل سواده الأعظم، وهي الغاية التي أثبتها برنامجه الذي قُدِّت مادته من هذا الكتاب المتلون والمتنوع، فكأنما يحول أفكاره المنسابة في سلاستها إلى ضروب من الأحاديث الخفيفة التي لا يعجزها التشكل في قوالب من الدراما تصيب الهدف في صميمه بشكل مباشر.

والآن، لابد من الوقوف على الكتاب وقفة تأنٍّ حتمية، نمحِّصه بالتدقيق الذي يلج من بوابة المفاهيم التي يؤسس بها منطلقَهُ للفظة القيم أو القيمة؛ فماذا يريد الفهدي بالقيم التي كرَّس – ولا يزال يكرِّس – نفسه بالاشتغال عليها في غير مشروع، على الرغم من أنه لم يقف على اللفظة مؤصلاً لها في المعاجم والمصادر التي عنيت بها؟ وإلى أي مدى سيخدمه منهجه هذا في بلوغ غاياته،

إذا ما وضعنا في الحسبان أن الكتاب أبقى من صنوف اشتغاله الأخرى؟ فقد بدا واضحاً أنه لا يريد بها تلك القيم التي تمتاح معانيها من التقويم والتأطير لمبادئ نظرية نؤمن جميعا بثباتها، على الرغم من اختلاف طرائق أدائها وتطبيقها. بيد أنه يريد بها الحياة بمجملها، في الكيفية التي نؤديها بها. فالمؤلف حرر الجوامد من قوالبها الصلبة ليطلقها حرة في دروب الحياة، تسير بين الناس متغلغلة في تفاصيل يومياتهم.

فكتاب **في ظلال القيم**، ينتقل بنا إلى واقع الحياة مباشرة، ليغمرنا في تجاربنا اليومية التي قلما تأملناها رغم مألوفيتها، مستخدماً رسماً دائرياً بينها وبين القيم التي يتحدث عنها وينشدها، فينطلق من هذه تارة ليعرج على تلك، كما يبدأ من تلك لينتهي بهذه، في حركة دائرية لا تنتهي، ولا تفصل بين حدودهما زوايا وأقطار، فكل منهما تنبع من الأخرى، بل إن قوامهما معا هو تلك الملاحظة المباشرة التي اتخذ منها مؤلف الكتاب وسيلة ومَعيناً لكتابة ظلاله القيمية. فهي زاده الحقيقي في إنجاز كتاب قدرت صفحاته بالمئات، آزرتها حافظته القرآنية والدينية والشعرية والقصصية. فيحكي كتابةً، ولم يكتب حكايةً، ويتحدث بالقلم عوضاً عن اللسان، ولربما لو أمكنه لحوَّل كتابه إلى مادة سمعية هو جدير بها، ولعل الأيام القادمة ستسعفه على ذلك.

فضلاً عن ذلك، فإنه لم يستعر من الخطباء منابرهم، ولم يتقمص لغتهم، بل ترك القول يسري عفوياً وتلقائياً كما يحتاجه المتلقي من الكاتب؛ نداً لند، وقريناً لقرين، وصاحباً لصاحب، فابتعد به عن التكلف، ورفعه عن التعقيد، وأدناه من الأفهام، وقربه إلى الأذهان، ليكون بذلك إلى تحقيق مبتغاه أقرب، وإلى بلوغ غايته أدنى وأوجب.

وبعد، فقد عرفت الفهدي تلميذاً مع زملاء له على مقاعد دراسية كنت ألقي عليهم دروسي منذ سنوات خلت، فصحِبته وصحبني، ومازالت الصحبة بيننا تقود خطاها بنا في دروب العلاقات الإنسانية النبيلة، حتى كان لي شرف الاطلاع على كتابه هذا، وشرف كتابة هذه السطور عنه، فمازال الفهدي يظن بي أستاذا يُرتجى منه تقويم أداء تلميذه، وقد عرفتُ أن التلميذ يعلو على أستاذه،

ولكنه رغم علوه ذاك، مازال يظن أنه بحاجة إلى شهادة من أستاذه الأول، فلا يطمئن إلا بشهادة في كل مرة، وكأنه تلميذ لن يتخرج أبداً، وكأنني أستاذ لن أتبدل ما بقيت، فرغبت في أن أحقق له حاجته، وأسدي له بغيته، بيد أنها ليست شهادة من الشهادات التي يظن، ولكنها كلمات هو جدير بمثلها، وجهده يستلزم من الموضوعية الحقة أن تضعه في مكانه الصحيح، وإن كنت قائلاً شيئاً، فإني لأرجو أن يحيل المقتبس إلى أصله، لتصفو له أفكاره، وتعود للأول أفضاله، فذلك أقرب إلى شكل الكتاب المتحقق، وأدنى إلى صورة العمل المدقق، فإن أمكنه ذلك، كان العمل إلى الكمال أقرب، وكان الجهد بالتقدير أوجب، وإلا فإن الاجتهاد جلي، والنية ظاهرة، وليسأل المغفرة بعدها ممن يأخذون عليه هذا المأخذ.

وأخيراً، فإن حديقة القيم هذه كانت مبهجة إلى الحد الذي يلوِّن النفس بألوان من الشعور الناتج من ارتياد غير المألوف من أشكال السلوك بحكم العادة والتعود، والطبع والتطبع، فكسر ما كنا نظنه غير قابل للكسر في النفوس الصلدة يخلف سكينة ورضاً، وبهجة وأنساً، وحباً للحياة وشغفا بالعلاقات النبيلة التي تربط بين أهلها، وأحسب أننا كنا بحاجة إلى العودة إلى دروس القيم من جديد، في قالبها هذا الذي تبناه المؤلف، في إطار إعادة لصياغة الكثير من المفاهيم التي رثَّت أثوابها، فاحتاجت إلى حياكة جديدة، ورونقاً أكثر ملاءمة لروح العصر بظروفه وملابساته، فهي مراجعة ضمن مراجعات عدة لابد أن تشق طريقها في الحياة لتستقيم لنا رؤاها من أجل مستقبل يحفظ الأصيل من قيمنا، فينطلق إنسان هذا الوطن مستفيداً من الآخر وهو يتكئ على قاعدة صلبة لا تتزعزع تحت أقدامه الطامحة إلى الإفادة منه في تقدمه وتطوره.

د. محمود بن مبارك السليمي

تمهيد

لكي يحقّق الإنسانُ شرطهُ الحضاري لا بدَّ له أن يتحلّى بخصائص وسماتٍ رفيعةٍ هي من الضرورةِ والأهميَّةِ بمكان كي يمارس دوره الحياتي الفاعل والمؤثر، وينال نصيبه من التطوّير والتجديد.

إنَّ فكرةَ "الجوهر قبل المظهرِ" لازمةٌ من لوازمِ الحضارةِ والتعاطي الإنساني مع الوجود، بل هي لبُّ الفكرةُ الوجوديّةُ للإنسانِ الذي خلقهُ اللّهُ من أجلِ أهدافٍ ساميةٍ أعلاها العبادة. يقول تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات/56

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ المؤمنون/115

والمسلمُ خليقٌ بالتّحلي بأرفع الخصائص وأنبل الفضائل، ذلك لأنّ الإنسانَ مخلوقٌ على الفطرةِ، والدِّينُ الإسلاميُّ دينُ الفطرةِ. ومن هذا المنطلقِ لا بدَّ أن يُظهر المسلمُ قِيمَ وأخلاقيات دينهِ في سلوكهِ وتعامله لكي يُبرهنَ على سموِّهِ الحضاري – الحضارة ترقّق الطباع. فهو صاحبُ رسالةٍ لا على صعيدِ الكلمةِ وحسب، بل على صعيدِ الفعل والممارسة أيضاً، وهذا أهمّ بكثير.

ويقاسُ رقيَّ المجتمعات، وحضارةَ الشعوب بأخلاقياتها. وفي هذا يقول الشاعر أحمد شوقي:

وإنّما الأممُ الأخلاقُ ما بقيت فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فالأخلاقُ معيارُ التفاضلِ بين الشعوب، ومقياسُ التمايزِ بينها. وسيظلُّ الإنسانُ، مهما علا في العمرانِ، وتفوّق في التقدُّم التقني، وتميِّز في العلومِ المبتكرةِ، وتفوّق في أساليب عصريَّةٍ مستحدثة، محتاجاً إلى الأخلاقيات. فهي مصدر القرار، وبوصلة السلوك.

وفي هذا المشروع الفكري، **في ظلالِ القيم**، الذي هو عبارةٌ عن حصيلةٍ من الفكرِ المستمدِّ من الملاحظاتِ الواقعيَّةِ، والتمحيص والإستنتاج والتَّدبُّر، نحوتُ إلى الخصائص والسّمات والطِّباع والأساليب الإنسانيَّةِ (الأخلاقيات في العموم) التي تشكّل العدّة الإنسانية التي لا غنى عنها من أجل الرقي والحضارة، وهي اللوازمُ الهامّة في عصر يصفهُ العالمُ ماسلو Maslow، وهو باحث أمريكي معروف، بأنّه "عصرُ انعدام المعايير، وعصر الفراغِ وعصرٌ بلا جذور، يفتقدُ النَّاسُ فيه الأمل، ويعوزهم وجود ما يعتقدون فيه ويضحون من أجله."[1]

لكنّما لدى المسلمِ ذخيرةٌ من الأخلاق، جاءَ بها الدِّينُ الإسلامي، هي العاصمُ له عن الزَّلل، والواقي له من الخطأ، وهي عدّته وعتادهُ في كلِّ العصورِ والأمكنة. فمن آثر أن يتمسَّك بها ويتحلّى فقد زانَ نفسهُ، وصان عقلهُ، ووقى فكره، ومن تركها وراء ظهره فقد تخبّط في التقليدِ، وضلَّ في أشباهِ الدُّروب.

في هذا الكتابِ إضاءاتٌ لكثيرٍ من القيمِ والمُثل التي تهدفُ إلى إعلاءِ شأنِ الأخلاق الجميلةِ، والطِّباعِ المحببةِ، والأساليب الرّاقيةِ، والنَّظراتِ الموضوعيَّةِ، آمل أن ينتفعَ منه القاريء، ويتدبَّر في أفكارهِ لعلّها تساعدهُ – ولو بالنَّزرِ القليل – على وضوحِ الهدف، وبلوغِ المقصدِ، واللّه سبحانهُ هو الهادي الكريم، وهو الموفّق الحكيم القائل: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ التوبة/105

إن التغيير في حدِّ ذاتهِ لهو عمليّةٌ معقّدة، وصعبة، إنّما ليس مستحيلاً، ففي الحديث الشريف" العلم بالتعلم والحلم بالتحلّم."[2] ولقد شهدتُ على أُناسٍ تغيّر الكثير من سلوكياتهم بالتكلّف بدايةً ثم سرعان ما جرى مجرى العادة فيهم، وهذا مصداقٌ لقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد/11.

---

[1] مع فهمنا لقصدية توصيف العالم الغربي بهذه المقولة.

[2] رواه أبو الدرداء رضي الله عنه.

وأخيراً...

الكلمةَ في النّاسِ كالبذرةِ تُبذر في الأرضِ. وفي الأرضِ تربةٌ صالحةٌ تنبتُ نباتاً حسناً، وتربةٌ بور، عقيم لا تُخرجُ نبتاً ولا زرعاً، وتربةٌ تنبت شجراً لا ثمر فيه...! قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ إبراهيم/24 و25.

سائلين الله أن يُسقط كلماتنا في التربةِ الصالحةِ لتنبت نباتاً حسناً بعونه تعالى..

د. صالح الفهدي

المؤلف

الحسُّ الجميل

طُبِعَ بعض النّاسِ بطبعٍ راقٍ أحسبهُ من نعمِ اللّهِ وفيضه. طبعٌ رقيقٌ، شيِّقٌ، أنيق هو طبعُ الحسِّ الجميل. طبعٌ يحملُ صاحبهُ على تركِ أثرٍ بالغٍ في نفسِ الآخر وإن كان لقاءه به عابراً أو كطرفةِ العين. وأقولُ كطرفةِ العينَ حينما تلقي صاحبهُ في سبيلٍ فتبدرُ منه إشارةٌ راقيةُ المعنى، تبينُ على ملامحِ وجههِ أو تنطقُ به شفاهه لكنّها تهبطُ كالثلجِ في قلبك فتشعرُ أن هذا الإنسان قد تركَ فيك بصمةً عميقةً – برغم حدوثها العارض – فتعودُ تتحدّثُ عن تلك الإشارةِ أو تحتفظُ بها لقلبكَ وأنت تأملُ أن يكونَ لك مثلَ تلك الإشارةَ المكثّفة المعاني تزيّن بها شخصك.

صاحبُ الحسِّ الجميلِ أنعمَ اللّه عليه بحاسّة استشعارٍ دقيقةٍ، رهيفة، يستشعرُ بالآخرين من حوله، ويوليهم جلَّ اهتمامه، ويوزِّعُ عليهم هبات لطفهِ ورقّته، فلا يشعرُ أحدٌ ما بأنّه أغفلهُ واهتمَّ بغيرهِ في حضرتهِ، بل كلَّ واحدٍ يشعرُ بأنه أولاه الاهتمام والعنايةَ واللّطف حتى يصلَ إلى إحساسٍ بأنّه قد خصَّه بهذا كلّه في حين يشعرُ الآخرين بذاتِ الشعور. أليست هذه نعمة عظمى تستحقُّ الشكر؟

هذا لا يعني أنَّ النّاس عندّه درجات وأنّه يفاضلُ بينهم بحسبِ العلاقاتِ والآثارِ والمشاعر، فكلّما تقرّب منه أحدٌ أحاطه بحسِّه الجميل فاستعشرَ مبتغاهُ، وأحسَّ بمقصدهِ، ولم يخيِّب ظنّه فيه...!

إن بعض الإشاراتِ، التي تصدرُ عن ذوي المشاعرِ الراقيةِ، تهزُّ الوجدان. ومن هذه الإشارات الجميلة، تلك العبارةُ التي يختزلُ بها سيدنا أبوبكر الصدِّيق حبّه لرسول اللّه ﷺ حين يقول : قدّمت اللّبن لرسولِ اللّه، فشربَ حتّى ارتويت...! يا لها من إشارةٍ يخفقُ لها القلب، وترقُّ لها الأحاسيس...! إذ كيف يشرب امرؤ فيرتوي الآخر؟ إنّها المحبّةَ الساميةَ الوضيئة...!

يخلبُ أصحابُ الحسِّ الجميلِ لبّكَ، ويملكونُ قلبكَ بلفتاتهم الرقيقة بالغةِ الآثر. وهي، وإن كانتَ بسيطةً، قد يستهجنها إنسانٌ لا يدركُ معناها العميق، ولا دلالتها البعيدة، إلا أنها عند من يستشعر قيمتها، ويدركُ معناها ثمينةً، قيّمةً.

لقد رأيتُ هؤلاءِ في مواقفَ عابرةٍ في الطريقِ أو الأسواق أو غيرها، وكانت إشاراتهم الحسيّة الجميلة التي لا تتعدّى الثواني في وقتها موجزةً عندي لما اكتنزت به قلوبهم من لطفٍ ورقّة. لقد رايتُ قلوبهم تتجلّى في تلك الثواني بيضاءَ، نقيَّةَ الصفحات.

وعايشتُ بعضهم، فوجدتُ أنّهم يُكسِبون المواقف التي تجمعنا حسّاً جميلاً. فكم فاجأوا قلبَي بكلماتهم الجميلةَ ورسائلهم اللطيفة – على بساطتها وعفويتها وتركيبها اللغويِّ غير المتكلّف – وإشاراتهم السخيَّة التي حملت القلبَ إلى وضعهم بسببٍ من هذه اللّفتاتَ الأنيقةَ محملَ التقديرِ الجمِّ والإعتناءِ اللّطيفِ.

وفي الجانبِ الآخر، عايشتُ من لا يحفلُ بإشارةٍ تخفقُ لها المشاعر ولا بلفتةٍ يرقُّ لها القلب، حديثهُ جافٌ، كأنّه الصحراء القاحلة، وفعلهُ آليٌّ تبحثُ بين ثناياهُ عن معنىً إنساني ذي دلالةٍ فلا تكاد تجد، وإشاراته ضحلةً، باردةَ المشاعر كأنّها لم تصدر عن صدرٍ يخفق، أو جسدٍ يشعر...! فكم يخسرُ هؤلاءِ من لذّةِ العيشِ، ورقيِّهِ...! فهل يحسّون إلاّ حينما يصدمهم من عاش يرتجي من ضحالةِ مشاعرهمُ قطراتُ ندى يبلُّ بها فؤاده؟

وكم يريحُ أصحابُ الحسِّ الجميلِ، الذين يستشعرون بالناسِ والأشياء والوجود، فينتقون منها أوهج اللحظات، وأعذب المواقف، ثم يتركون عليها بصماتهم التي لا تمحى، وكلماتهم التي لا تغيب، وإشاراتهم التي لا تنسى. فحريٌّ بهم أن يسعدوا... وأن يُسعدوا من يشعرُ بهم... وهل يشعرُ بهم غير أصحاب الأحاسيس الجميلة؟

أصحابُ العطاءات السّخيَّة

نحنُ مدينون في حياتنا لأشخاصٍ أهداهم الله نِعمَ الإحساسِ الشَّفيف، وكراماتِ اللّمسات الإنسانية الرقيقة. مدينون لهم لأنّهم ينعمون علينا بالكلماتِ الجميلةِ السيّالة، التي يحتاجُ إليها المرءُ حاجته للهواءِ الذي يتنفّسه. أولئكَ الذين لا يبخلون بمشاعرهم، ولا يضنُّون بأحاسيسهم تجاه مستحقّيها. أولئك الفيَّاضةِ نفوسهم بالحبِّ، والشعورِ العذب، لا يتركون سانحةً إلاّ ويغدقونها بالكلمات المنمّقةِ، الصادقة، ولا يهدرون فرصةً إلاّ ويعلّقون في أغصانها أحرفاً ناصعةَ البياضِ: اعترافاً بفضلٍ، أو شكراً لإحسان، أو ثناءً على علاقة...!

هؤلاءِ الذين يتحفوننا ببديعِ الخلجاتِ التي تتراقص في أفئدتهم، تلك التي يحسبها الناظرُ من أول وهلةٍ أفئدةً ساذجة، فما أعذب السذاجةِ لو نُظر إليها على أنّها العفوية الصافيّة المشرب...! تلك الخلجات التي تتغنى بها ألسنتهم، أو تتراقص بها أناملهم، أو تترقرق بها أعينهم وهي محاصرةٌ بما لا يقال.

مدينون لهؤلاءِ الذين يخجلوننا بالخروجِ من أطُر الرّسمياتِ – حين يكون الخروج فضيلة - فيظهرون لنا تواضعهم الجمَّ، ويبهروننا إبهارَ الإعجابِ بسلوكهم المهذَّب، وتعاملهم الرّفيع، فإذا تكلّموا لا تكاد تسمعُ نبرات أصواتهم، وخفضُ الصّوتِ من كمالِ الأدب، وإن مشوا راعوا رفيقهم فلا تسبقُ خطواتهم خطواته، وإن أبدوا رأيهم كانوا في غايةِ اللباقةِ والتّهذيب، حتى ليجبروك على أن تكنَّ لهم – قبل رأيهم – مشاعرَ الودِّ والإرتياح...!

مدينون لهؤلاء البشرِ الجميلينَ، الذين إن طلبت منهم عوناً قاموا به وفي وجوههم البشر، فكأنّك ترى الفَرّجَ إن استعنتَ بهم على عسر. وإن أوكلتَ إليهم عملاً أدّوه بإتقانٍ، وأبهروك به لأنّهم وضعوا فيه بصماتهم المتفرِّدة، وكلّلوه بجمالياتِ نفوسهم الصادقة، وما ذلك إلاّ لأنّهم نظروا إلى ما أوكلت به إليهم

فعمدوا إليه وكأنّه درّةٌ غير مصقولة تحتاجُ إلى صقل، وعملٍ يحتاجُ إلى كمالٍ والكمالُ هو غايةُ الإكمال لديهم...! فهم ممن يقول فيهم الشاعر:

إن جئتـــــه لرأيتـــــه مـــــتهلّلاً كأنّـك تعطيـهِ الـذي أنـت سـائله

هؤلاءِ الذين يصنعون المفاجآت الجميلةِ، والأعمال الاستثنائية التي تُبهركَ، وتستوقفكَ لأنّها أشياءَ أضحت ثمينةً دون مقابلَ. فالمقابل لديهم هو الحبُّ الذي صنعتَه في أنفسهم، ومعانيك المهذّبة التي أهديتها لهم، أمّا دون ذلك فلا شيء من توافه الدنيا ومتاعها الرّخيص.

وأنا أكتبُ عن هؤلاءِ، تذكّرتُ اللّفتات الإنسانيةِ الرقيقةِ من الجدّات، تلك النساء الكبيرات اللاتي يعلمننا دروساً في النظرات الإنسانية الإستثنائية، حين تنضدُ الواحدةُ منهن التّمرَ لفلانٍ من النّاس في حين أنّه لم يفكّر في الإحسانِ إليهنَّ، أو على الأقلِّ كان ساهياً، غافلاً عن التّوقف عند عواطفهن حتى ينبهرَ بهديّتهن المتواضعة التي جادت بها قلوبهن الكريمة دون مقابل.

يُبهرني هؤلاء النّاسِ العذبةِ قلوبهم، أولئك الذين يبادرون بوازعٍ من أنفسهم، دون أن ينتظروا محرّكاً يدفعهم، ولا طلباً يقدّم إليهم. كلماتهم تتسابُ صافيةً أنّى أحسَّت بالعاطفةِ، وأيديهم تمتدُّ أنّى شعرت بالواجبِ، وخطاهمُ أسبقُ إلى إسعادِ الآخرين أنّى سنحت لهم سانحة. هؤلاءِ هو القناديل التي نشعرُ بإمتنانٍ لها لأنّنا نستشعرُ جمال الحياةِ في ضيائها الوهّاج.

القلوب الضيِّقة

قلوبٌ ضيِّقةٌ تجعلُ الدنيا في عينيكَ كئيبة، جافّة...! وأينما تولّي وجهك تجدها تزدادُ حدّة كلّما ازداد الجوُّ شحوباً. تندهشُ وتستغربُ حين يفاجئك لومُ هذا، وعتبُ ذاك لأسبابٍ تافهةٍ اختلقها من لا شيء...! تدهشُ لأنّك لا تتصور أن الحال قد وصل بالنّاس إلى منزلةٍ أصبحوا لا يلتمسون فيها العذر عن الخطأ – إن حدث - ولا يتحكّمون في عواطفهم عند الحكم، ولا ينصتون لعقولهم عند التقييم، ولا يستمعون لضمائرهم وهي تحدّثهم عن فضائل ومحاسنِ من يرمونهم بالعتاب الغليظِ...!

يتربَّص أصحابُ القلوبُ الضيِّقةِ لأقرب الأقربين كي يصطادوا منهم الزلَّةَ والخطأ، وكي يوقعوهم في فخاخِ الذنبِ، ومصائدِ اللّوم والتقريعِ...! يتربّصون بهم دون أن يتمثّلوا الماضي الجميل، والروابط المتينةِ، والمشاعرِ الدافئةِ، والمواقف العظيمة منهم. كلّ ذلك يسقطُ في لحظةِ نكرانٍ وجحود. يسقطُ في لحظةٍ مكابرةٍ وعنادٍ. لا لشيء إلا ليحظوا بصبِّ الزّيتِ على قلوبِ هؤلاءِ الأحبابِ كي يحرقوها في ما بعدُ بالمواقفِ المبيَّتةِ والكلامِ الجاهزِ، الذي يفجأ الأقربين، ويصدمهم فلا يعودون قادرين على تفسير الموقف ولا على احتماله.

أصحابُ القلوبُ الضيِّقةِ ليسوا ممن تحسبهم أقربائك وأصدقائك فحسب، بل تجدهم وأنت تحاول أن تقطعَ الشارعَ بقدميكَ، أو تدلج بسيارتك في شارعٍ، أو تخرجها من موقف حين لا يُلقي إليك الكثيرون بالاً، تندفعُ السيّارةَ وراء الأخرى دون اعتبار أنهم في كلِّ ساعةٍ سيقفون مثل موقفك، وسيحتاجون مجالاً يُفسحُ لهم للدخول إلى الشارع أو الخروج منهم. لا يتمثلون ذلك أبداً فقد سيطروا الآن على الموقف. قلوبهم ضيّقة، لا تجعلهم يدركون أن الأرض تتسعُ لكلِّ البشرِ... ولو ضاقت عليهم لذهب بهم خالقهم الذي لم يعيهِ رزقهم. يصرخ هذا في وجهك، ويشير لك ذلك بإشارة السخطِ والتّذمر، ويرفع ذاك بوق عربته في أذنيك... وكأنّك وسط بحرٍ يلطمك موجه العاتي من كلِّ ناحية وأنت خائفٌ، وَجِلٌ...!

تذهبُ إلى عملك ليواجهك كثيرون من أصحاب القلوب الضيِّقة الذين يترصدّون الخطأ منك... فإن لم يظفروا بنوالهم اختلقوا لك الخطأ والعيب حتى ينالوا منك، ويوقعوا بك كي تعايش التجارب المريرة القاسية ... تركوا وراءهم مهمّاتهم التي ينالون مرتباتهم عليها، وأصبحوا ينالون مرتباتهم من الأوقات المهدورة التي يضيعونها بالمكيدةِ لك وحياكةِ الدسائس لك وكأنّك العدو الماكر لهم، اتبعوا قاعدة "إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب." ويا للبشر حين يلبسون أقنعةَ الذئاب، حينها يفوقون الذئاب ذاتها...! ويا لكثرةِ هؤلاءِ الذين ضاقت قلوبهم فأصبحت لا تتَسعُ لشيءٍ، ولا تتسعُ لمسامحةٍ ولطفٍ وحسن نظرٍ وحبْ...!

قال لي أحدهم: إن فلاناً قد اتّسع قلبه فأصبح "حملاً وديعاً" ودوداً، لطيفاً، حسن المعشرِ بعد أن كان "ذئباً شرساً." قلت له لأنّه فقد سلطته عليكم... فحينما علِم أنه سيغادرُ منصبه بعد أيّام تغيّرت حاله ولبس قناعاً آخر... وانظره إن منح منصباً آخر كيف يكون. ستجد أنَّ قلبه قد ضاقَ مرّة أخرى، وطغت عليه طبيعته الذئبية ولم يذكر الدرس الذي مرّ به. وهكذا لا تُرى سعة القلوبُ وضيقها إلاّ مع السلطةِ والمنصبِ والمالِ والجاهِ... وهي أيضاً مقياسٌ للدّين والأخلاق والخصائص الشخصية...

لا يحمل الحقد من تسمو به الرتب ولاينال العلا من طبعه الغضب

وتسأل نفسك: لماذا ضاقت قلوبهم، والأرض متّسع رحبْ؟! لماذا ضاقت قلوبهم وفي نفوسهم ما ينفّس عليهم من الدّين والأخلاق والقيم؟! أم أن هذه مجرّد قشور خادعة؟! مجرّد أغطيةٍ وأقنعةٍ وألبسة بينما الجوهرُ غليظٌ، فظٌّ لا يسرَّ لخير الآخرين... ضيِّقاً، حرجاً كأنّما يصعّد للسماءِ حينما يرزق اللّه عبداً من عباده..

إن القلـــوب إذا تنـــافر ودهـــا مثـل الزجاجـة كسرها لا يـشعبُ

القلوب الضيّقة تحاصرك. أينما تمضي تجدها تنظرُ إليك، وتحسُّ بها أحياناً أخرى فلا تراها. إن أصحابها مرضى ليسوا أصحّاء، ضاقت قلوبهم على بصائرهم فلم تعد تتسع لأحد. وفي المقابل أرادت أن يسع العالم قلبها الضيّق

وحـده. وابتغـت أن تلـك لـهـا الأرض وحـدها فـأين هـؤلاء مـن قـول رسـول الله ﷺ: "**لا يُبَلِّغُنِي أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِي عَنْ أَحَدٍ شَيْئًا فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ**." **رواه عنه ابن مسعود.** فليعلم أصحاب القلوب الضيِّقة أن الإيمان لا يدخل قلبَ مسلمٍ إلاّ اتّسع. فإن ضاق فلم ينل منه إلاّ القشور. وتلك هي الصور ذاتها التي نراها ونلمسها ونحترق بها من أثر القلوب الضيِّقة..!

المتواضعون

في الوقتِ الذي يظنُّون فيه أنفسهم لا يمنحونَ شيئاً للنّاس فإنَّهم يمنحونهم كلَّ شيء...! همُ الواهبون، المنعمون وإن كانت أيديهم خاليةُ الوفاضِ، وجيوبهم فارغة. هم المتصدِّقون للنّاس بأفضلِ مما تتركهم الأموال في أنفسهم حين لا يكونون بحاجةٍ إلى المالِ وإنّما إلى الخُلق الكريم، ذلك الخُلق الذي يرفُّ عليهم بأنسامِ التواضعِ الجمِّ، والأدبِ الرزين.

إنني لأعجبُ بالمتواضعين الذين لا يرى بعض النّاس في تواضعهم إلاّ تمسكناً، وضعفاً وهو الرفعةُ والجلال ذاتهما...! ألم يقل الشاعر:

تواضع تكن كالنّجمِ لاح لناظرٍ على صفحاتِ الماءِ وهو رفيعٌ

ولا تكُ كالدُّخانِ يعلو ويرتقي على طبقاتِ الجوِّ وهو وضيعُ

والنّاس واقعون في صورتي: النجم والدُّخان، بين إنسانٍ أعطاهُ اللّهُ الجاهَ والمال والمقامَ الطيِّب والرفعةَ في العيش إلاّ أنّه لم يعرف التكّبر فكان التواضعُ سمته البارزة. علم هذا الوجيه أنه لا المال ولا الجاه ينفعه عند الله والنّاس فسارَ سيرةَ المتواضعِ، الشامخ الرأس عن رزانةٍ وأدب.

وإنسانٍ متربُ اليدين، أعوز ليس له في الحياةِ من رفاهيةِ العيش، أو من مقاماتها الرفيع نصيب لكنّه جبّارٌ، متكبِّر، إذا حدَّث النّاس صغَّر خدّه عن كبرياءٍ خاويةٍ، وادعاءٍ زائف...! ويصلحُ هذا المثال هناك، وذاك هنا، أي أن يتواجد الغني المتكبر والفقير المتواضع وبينهما تقع بقيَّة من أصحابِ الكفاف والقناعةِ وبحبوحة المعاش.

المتواضعون الذين عرفوا قدرَ أنفسهم، وعجنوا قيمةَ الحياةِ، وثمنَ التعاطي الحسن مع النّاس هم الرّابحون، أمّا أولئك المتكبِّرون فلم يعوا في الحياةِ سوى دروسٍ مزيَّفةٍ أوهمتهم بأن التكبُّر هو حال الإنسانِ المطاعِ الذي لا يعصى له أمر.

لم تعلّمه الحياةُ أن المتكبِّر كان مصيره الخذلانُ المبين بعد الرِّفعة الواهمة. فكبرياءه لم تمنحهُ شيئاً من الحبِّ، لم تمنحهُ سوى الإستهجان بحالهِ الذي آل إليه، ودعاء النقمةِ عليه، والرّثاء له، إن وجد من يرثيه. فعلام يتكبَّر المتكبِّر في دنيا لا تساوي عند الله جناحَ بعوضة؟!

إنّك قد تذهبُ لموظف بسيط فلا ينهضُ من مكانهِ وهو يصافحك بأطراف يده الكسلى، ثم تخرجُ منه إلى موظّف رفيعِ المنصب فيتلقّاك بالبشر عند عتبات مكتبه، ثم يملأ قلبك بصفاءِ روحه المتدفّق من نهر التواضع. فهل كانَ بحاجةٍ إلى عونٍ منكَ عندما عاملك بالتواضعِ الجمِّ، والأسلوبِ المهذَب اللائق، وأبدى لك من لطافته وسعةَ صدره ورحابةَ خاطره ما أبدى؟! اللهم لم يدفعه لذلك سوى خُلقه الكريم وفطرتهِ النديَّة ونفسه العظيمة!

المتواضعونُ يبهرونك ببهاءِ وجوههم، ولطافةِ سرائرهم، وبشاشةِ قسماتهم، ورقَّةَ أسلوبهم، ورزانةِ أخلاقهم، ومزايا أدبهم. هم الأجلاّءُ في المجالسِ، والكبار في المحافلِ، والعظماءُ في السِّير. هم الذين يتركون البصمات التي لا تُمحى في النُّفوس، والآثار التي لا تزولُ في الذاكرةِ، والكلماتِ التي لا تبارحُ الأسماع. هؤلاءِ من يجبُ أن يحييّهم المرءُ، ويثني عليهم، ويشيدُ بهم في المحافلِ أنّى واتاه ذلك.

قال أحد المتواضعين: نظر بعض النّاس إلى تواضعي على أنّه تصغيرٌ لمقامي، وأنّه سذاجةٌ بعض الأحيان. قلت له: للسذاجةِ معنيان أحدهما، السّفه، وهو ما يعرفه النّاس، والثاني هو العفوية، وهو ما يجهله بعض الناس. فالعفويَّةُ هي وجُه تواضعك، وأيّما إنسانٌ طرحها عنه فتصنَّع فهو كائنٌ مركّب، لا ينتمي إلى نفسه، متناقضٌ مع ذاته، مزدوجٌ مع فطرته. فسر على طريق التواضعِ، فأنت رفيعٌ به، وخليقٌ بالانتسابِ إليه.

رسالة مفتوحة

أيّها الصَّديقُ المعلِّمُ المبجّل: لطالما بحثتُ عن كيفيةِ تحقُّق الموازنةِ الدقيقةِ في ما جسّدته مقولة "اعمل لدنياكَ كأنّك تعيشُ ابداً واعمل لآخرتك كأنّك تموتُ غدا." وهي ذاتها مأخوذةٌ من الآيةِ الكريمة: "وابتغ في ما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا." أقول: كنتُ أبحثُ عميقاً فيها فوجدتها تتحقّقُ فيك – حسب ما يصلني من الإشارات والدلالات، التي ألحظها في ما تأتّى لي ملاحظته – وآملُ أن أكونُ على صواب.

أن يصلَ الإنسانُ إلى هذه الخيوط الدقيقة، والحدود الرفيعةِ، في رسم العلاقةِ، ونسجِ الروابطِ مع الحفاظِ على توازنِ الكّفتين، فذلك أمرٌ عظيم لا يصلُ إليه إلاّ كل امرئ عظيمِ النّفس، واثق الخطى، راسخُ المبدأ.

وجدتُ فيك شموخَ النّفسِ. شموخها الذي قد يراهُ ضعيفُ البصيرةِ، هزيلُ العقلِ، أنّه غرور وكبرياءٌ غير محمود، بينما هو الرّفعةُ السّامية والأنَفَة الجليلة. شموخ النّفسِ الصادرِ عن سموِّ العقلِ ونضج فكره دلالةٌ على القدْر الكريمِ للنّفسِ، الذي قدره الله تعالى بقوله: "ولقد كرّمنا بني آدم..."

ووجدتُ فيك – مع شموخِ النّفس – حنوَّ الجانب، ورقّةَ القلب، فيدركُ ذلك من سبرَ غور نفسك، وأحسَّ بخفقان جوانحك، وعرف ما تحتويه سطور كلماتك، وما تنطوي عليه ثنايا أفعالك... فاختلط الشموخُ بسمتهِ ووقارهِ مع التواضع بحنوِّه ودفئهِ ويا لهُ من مزيجٍ إنسانيٍّ عظيم الأثر!

ورأيتُ فيك احترامَ الحياةِ وتقديرِ لحظاتها لحظةً لحظة. عرفت معناها وعلى إثرها وضعتَ نفسكَ في الطريق الذي يليقُ بك وتليقُ به. عرفتَ مبتغى الحياةِ ومقصدها فأدرجتَ نواياك في دروبها الوضيئةَ واخترت لنفسكَ منزلاً جميلاً فيها يتّسمُ بالصدقِ والعملِ الفاضلِ الحّسَن.

ورأيتُ فيك انتقاءَ الأصدقاءِ، فلا يخالطك إلاّ من ترى فيه صدقَ الشعورِ وعلوَّ الهمّةِ، واحترام النّفس، ودفءُ المودّة، يشاركك حبَّ اللّهِ، وحبَّ الفضيلةِ والقيم الرفيعةِ. أمّا موقفك ممن لا يتوافق مع هذه الخطوط السنيَّة فموقف النافرِ من زوبعةِ الغبارِ الملوَّثِ يخافُ أن تصيب مظهره بالدّرن، وباطنهُ بالسقم، وموقف المتنزِّه، المترفِّع بالكبرياءِ المحمودِ عن سفاسف الكلامِ ورذائلِ الأفعال، فهو الطاهرُ البدنِ، النقيُّ السريرةِ، وهو المستحقُّ للوفاءِ، وللعطاءِ وللوصل. فإن رأيتَ من الرّجلِ ما تحمدهُ له من شمائلَ تبعتهُ وسألت عنهُ وأخفضتُ له جناحكَ، وألنتَ له جانبكَ، وأخلصت له قولكَ، وأحسنت له لفظك، وانتقيت له عبارتك، وأقمت له في قلبكَ منزلاً رفيعاً، وجعلت له من وفائك حصناً رفيعاً.

ورأيتُ أن التجاربَ قد هذَّبت نفسكَ وصقلتَ أسلوبك فجعلت تسردُ في كلِّ مقامٍ تجربةً فريدة استخلصتها من عصارةَ أيامك، ووضعتها في دفتر دروسك حتى أصبحت مدرسةً للتجربةِ تنفعُ الناهل، وصرحاً للخبرة تفيدُ الدارس.

ووجدتُ فيك الذاكرَ للنعم، المعترفِ بالإحسانِ، وقد بانَ لي ذلك في تقديرك لمن تدينُ له بالفضلِ من معلّميك وما اجتهدتَ به لهم بعد أن أمكنك اللّه من الوسيلةِ كي تسعدَ حالهم، وتردَّ لهم الإحسانَ بالإحسانِ وهو فعلُ المحسنِ الكريم المنبتِ، الأصيلِ المعدن.

ورأيتُ فيك الرّجلَ الحازمَ الأمرَ، المهابَ الجانب، فإذا قصدتَ أمراً معوجًا أقمته بالحجّةِ، وأعدته بالحق، وإن أبصرت خللاً سددته بالنصيحةِ، أو رقعته بالأمر بما يستلزمُه الظرف، ويستدعيه الموقف.

ثم رأيتُ فيك حسنَ الذوق، الذي يظهرُ لي من هيئتك ومن حسن اعتنائك بمظهرك حتى لتبدو في عين من لا يعرفُ عنك رجلَ الدنيا في حين أنك لم تنسَ نصيبك من الدنيا في ما قسم اللّه لك، وأنك تحدِّث بنعمةِ ربك، وأنك تتزيَّن كي تعطي صورةَ المسلمِ الجميلِ الطلعةِ، البهيِّ المنظرِ، المشرق الوجهِ، الصبوح القسماتِ، الفارع القامةِ، الشامخ الرأس، السنيّ المحيّا، الأنيق الثوبِ، النظيف البدن، الزكيِّ الرائحةِ، فيمتزجُ مخبرك الطاهر بالإيمانِ بمظهرك المرادِ للإنسان.

ولولا ، أيّها الصديق المبجل، أن لي مساحةً محدّدة لمضيتُ في ذكرِ خصائلك الحميدةِ، وشمائلك الرفيعة. لكنني أبرزت بعض الشيء وما لا يدرك جلّه لا يتركُ كلّه. وقد قصدتُ أن أرسمَ خصالكَ وأذكرُ مناقبك علَّ من يقرأها يأمل أن يتحلّى بها ويتجلّى، ويتزيَّن بها ويتباهى. فهي والله صفاتٌ الإنسان المسل، . فهل يحلم بغيرها إنسانٌ رشيد...؟

الأيام المكرورة

يومٌ ليس سوى صورةٌ من سابقهِ، صورةٌ مكرورةٌ، كحلقةٍ واحدةٍ تدور حاملةً أغلب أحداثها. لا يحسُّ معها المرءُ بالجديدِ المتلوِّن، فكأنّما يحيا في صندوق مقفل. كيف يمكنُ تصوُّر حياةٍ كهذه؟ حياةُ بعضهم تشبهها، فهم لا يتوقون إلى الإنعتاق من نيرِ "الروتين" اليومي، وهم به مطمئنون، راغدون! فذاك في نظرهم العيشُ الهادىءُ، المتطامن، وإن كان خالياً من الإثارةِ والجديدِ المبتكرِ.

إن هذه الحياةِ ذات القالبِ الواحدِ إنّما هي في نظري فاقدةٌ لقيمةٍ ثمينةٍ هي قيمةُ الشُّعورِ بالتّغيير، بالتّحدي... بالجدّة. هي عندي أشبهُ بالبركةِ الآسنةِ التي لا يتجدّد ماؤها إلاّ لماماً، وإن تجدّد فبسلسالٍ خفيٍّ غير محسوس. هي كالأرضِ التي لا يصيبها الحرثُ، فتعتادُ على الزرعِ دون حرث، وتُنهَك ولا يعود فيها جديد تعطيهِ.

حياة دون تغيير، دون أفكارٍ تستفزّها، دون خطواتٍ تحرّفها عن مسارها إلى مساراتٍ فيها من الإبتكار الخلاّق ما يجعلُ منها حياةً متجدّدة، هي حياةٌ فقيرة، مبتسرةً، فاقدةٌ لمعنى الإشراق المتجدّد. وإذا كانت الشمسُ، مصدرُ الإشراق، تشرقُ كلّ يومٍ من موضع وتغربُ في موضع، فكيف يقنع الإنسانُ بأن يشرق يومه ويغرب في ذات الموضع؟!

اليومُ، الذي لا يكتسبُ المرء فيه حكمة، ولا يخرجُ منه بفكرة، هو يومٌ رتيب، ممل، أجوف! اليوم، الذي لا يخطو فيه الإنسان خطوةً في سلّم طموحاته النبيلةِ، هو يومٌ غير محسوبٍ من عمره! اليوم، الذي لا يشعر الإنسان بجدّته، وباختلافه عن سابقه، هو يوم مهدورٌ، ضائع! ذلك، لأن الإنسانَ إن ارتضى بـ الروتين أصبح رهينةً له... وعبداً طيِّعاً لصوره المكرورة.. أمّا إذا تمرّد عليه،

ومضى يبحثُ عن حكمةٍ في الأرضِ، أو فكرةٍ في كتابٍ، أو تجارب، فإنّه سيجدُ أنَّ لذَّة ذات طعمٍ مختلفٍ تسري في خُلدهُ، تبعث فيه ألواناً لم يعهدها من الرؤى والتّصوراتِ والمرامي.

تسألُ أحدهم، كيف هو يومك؟ فيجيب: لا شيءَ جديد. ولو تأمّل لعلم أن الجديد هو أن الشمسَ قد أشرقت من موضعٍ مختلفٍ، وأنّه كبرَ يوماً في عمره. هذان التغييران كفيلان بتغييرِ فكره ليصبحَ جديداً هو أيضاً! لكنّه أغلقَ على نفسهِ أبواب التغيير بتلك الكلمات. كان ردّه الفاتر، البائس كفيلاً بحجبِ ضوء الشمس عن بصيرته فكيف يرى الجديد؟

ترى، كم من النّاس يفكّرون في يومهم بأي ميزةٍ سيتميَّزُ عن سابقهِ من الأيام؟ كم منهم من يفكّر في إضافةٍ يضيفها لعملهِ، لحياتهِ، لشخصهِ؟ كم منهم يقفُ أمام نفسه فيقول: لستُ ملزماً أن تقودني الظروف كيفما أرادت، بل أنا من يصنعُ الظروف... أنا من يخطّط ليومه حتى أكون جديراً بحملِ الأمانة.

إن لم يستفزّ الإنسانُ نفسه بالأسئلةِ، فإنّه لن يغادرَ مكانه. فهو كمن يضع رجليه في نهر يمرُّ عليه الزّمن مرَّ الماءِ عليها، لا يفيدها بقدرِ ما يزيدها ضعفاً. أمّا اللّذة الحقيقية فيجنيها ذلك الذي يرى الفشلَ وراءَ الركون للنّجاحَ، وأنّ النّجاح الحقيقي لديه أن يستمرَّ في بحثه المغامر الدؤوب الذي يرى في اليومِ تحدّياً جديداً عليه أن يتصدّى له وهو باسمُ الوجهِ، فوّار الحماسة!

سلامة الصدور

ما أشدَّ إيلام الجرح، الذي يتركهُ فيك من لا يقدِّر ظروفك، ولا يجدُ لك عذراً في نفسه! لقد كثرت الخصوماتُ بين النّاس، وكثر الغلُّ في ما بينهم. وإنك لتجدُ نفسكَ في كثيرٍ من المواقفِ مبهوتاً حينما يستعرضُ أمامك فلانٌ من النّاس قائمةً مما خزَّن في قلبه وما كدَّسهُ عليك من الأخطاءِ والذنوب التي احتفظ بها لساعةِ المواجهةِ الضارية. كان يسيرُ ويجيء معك دون أن تبينَ منه بيِّنة أو يظهر منه عتبٌ لطيف. يقاسمك العيش حتى إن أوغر صدره عليك من أوغر أجال ذاكرته في الماضي، وقلّب في سجلاّت علاقتك به، ونبّش وحوّر فاستخرج قائمةً طويلةً مما تفسِّره نفسه اليوم بأنّه كان شيئاً مقصوداً استهدف الإساءة إليه، والإهانة.

فإذا خلت القلوبُ من اللُّطف والمحبّةِ، وتراكم فيها الغلَّ والحقدَ والحسد فأيُّ مأمنٍ منها يُؤتمن..؟! وأيُّ ملاذٍ إليها يُرجى؟ وكيف تكون الحياةُ مع قلوبٍ غير سليمةٍ، قلوب يوغرها النكران، وتلهبها نيرانُ الضغينةِ؟

إنّ في تاريخنا الإسلامي أمثلةً عظيمةً تحثُّ العبرةُ منها على سلامةِ الصدورِ، وخلوِّها من أمراض الحقد والشحناءِ والحسد... يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ الحشر/10.

ونستذكرُ في هذا المقامِ قصّة الصحابي، السليم الصدرِ، الذي كلّما ذكر هذا الموضوع ذكر معه، وتلك محبّة من الله له. تقول القصّة:

أن النبي، عليه الصلاة والسلام، قال لأصحابه: "يدخل عليكم الآن رجل من أهل الجنة فدخل رجل من الأنصار تنطف لحيته من الوضوء." تكرر ذلك ثلاث مرات في ثلاثة أيام، فأحب عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن يعرف خبيئة هذا الرجل، فبات عنده ثلاثاً فلم يره كثير صلاة ولا صيام، فسأله،

فَقَالَ: "مَا هُوَ إِلاَ مَا رَأَيْتَ غَيْرَ أَنِّي لا أَجِدُ فِي نَفْسِي لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاه." فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: "هَذِهِ الَّتِي بَلَغَتْ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لا نُطِيقُ." [أحمد: 12236]. أفرأيت كيف سمت به سلامة صدره حتى بشر بالجنة ثلاث مرات؟

فانظر لحال الكثير من الذين يدّعون الإسلام. تكثرُ العداوات في ما بينهم. ويكثرون المعاتبات المملة في غير طائل، كما يكثرون المماحكات لغير جدوى، إلا للقطيعة والهجران. لقد أصبح أكثرهم متربصاً، مترصدا أن يخطيء الآخر. فإن لم يُدعَ لعزيمةٍ هوّل الأمر وعظّمه، فهم ينتظرون من الإنسانِ أن يتصرّف وكأنّه حاسوبٌ آليٌّ عليه أن يستعرض كل المهام التي خزّنها في ذاكرته ويتصرف بموجبها. وقلّ بينهم من يلتمسون الأعذار... أولئك الصافية قلوبهم، السليمة صدورهم.. الذين إذا رزق الآخر رزقاً فرحوا له.. وإذا حدث منه ما سببه الغفلةُ والنسيانُ غفروا له، وسامحوه.

يقال إن الإمام أحمد بن حنبل قد ضُرب زمن المعتصم ضرباً مبرحاً فلما كان زمن المتوكل أحس الإمام بأذى في ظهره فإذا هي لحمة فاسدة التأم عليها الجرح، ولم يكن بُدّ من شق الظهر وإخراجها، قالوا: فلما أحس الإمام بألم المبضع وحرِّ الشَّق قال: اللهم اغفر للمعتصم ... فيا سبحان الله يستغفر لمن كان سببا في ألمه! فهل تقول هذا سوى القلوب الواسعةُ، السليمة؟

يقول الشاعر في هذا المقام:

لا يحمل الحقد من تسمو به الرتب ولاينال العلا من طبعه الغضب

ويقول آخر:

إن القلوب إذا تنافر ودها مثل الزجاجة كسرها لا يشعبُ

وأذكر أننا كنّا نتغنى في مقرراتنا الدراسيّة في مقاعد المدرسة أبياتاً جميلة تقول:

من اليوم تعارفنا ونطوي ما جرى منا
فلا كان ولا صار ولا قلتم ولا قلنا
وإن كان ولابد من العتبى فبالحسنى

القيم والمعاملات

لسنا هنا بصدد تعريف القيم. لكن القيم هي المعاملات ذاتها في حقيقتها، لا يمكن استقراءها منفردة، مجردة من السلوك الإنساني، والنشاط الاجتماعي، إنما هي الفعل ذاته في سلبيته وإيجابيته. لكنها ظاهرة جمعية، لا تخص فرداً بعينه بقدر ما تخص مجتمعاً، ولا يمكن أن يوصم مجتمع ما بسلوك فردي يعدُّ شاذاً على السياق الاجتماعي في غالبه.

من هنا، يبدو المجتمع في حراكه الحضاري، في انتمائه الثقافي، في سعيه نحو بناء مستقبله، مراهناً على القيم الرفيعة التي توارثها واكتسبها في حاضره.

والمجتمع لا يمكن له أن يتخذ خصوصية ثقافية، وصبغة تاريخية يتسم بها في ما يسمى (الهوية) دون القيم، التي تتولد من خلال المدارس والمجالس، والرموز الفكرية، والعقائد، والروايات، والممارسات العملية المهنية، وغيرها، يمارسها سواد العوام دون تدقيق في فلسفتها، ووقوف عند تفاصيلها وأبعادها، بينما يتوقف عندها أصحاب العقول الراسمة لمنهجية المجتمع والساعية للحفاظ على هويته، وبناء صروحه الثقافية.

هذا الأمر يستدعي الوقفات الجادة لدى هؤلاء بين كل فترة وأخرى لمراجعة ما يستجد من ظواهر قد تتحول إلى قيم بحكم تبنيها من فئات معينة غير واعية إن كانت سلبية، أو من فئة مستنيرة إن كانت إيجابية.. يجب التدقيق فيها والتفكير في تثبيتها أو إزاحتها لأنها تشكل داءً سرطانياً لا يمكن إزاحته إن تفشى في الجسد الاجتماعي لاحقاً.

هناك بالتأكيد مجموعة من الظواهر المتفشية في كل مجتمع تتحول إلى (بدعة) في المصطلح الفقهي، وقد رسم مسارها الشارع الكريم بقوله: "كل

بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار." التدقيق هنا مقصده البحث عن (البدعة) وإزاحتها كي لا تعلق بالجسد. كما البحث عن (السنة الحسنة) بقصد تثبيتها والتأكيد عليها.

ومهما يكن من تشابه بين مجتمعات يجمعها الدين أو الدين واللغة أو التاريخ معهما فإن لكل مجتمع (هويته) الخاصة، ابتداء من مفردات اللغة إلى ألوان العاطفة، إلى أطياف الأمزجة، إلى أشكال السلوك... إلخ.

أفكر كثيراً في قيمنا، وأقارن بينها دائماً في كل محفل وموقف بالسلوك. ولا يشكل هذا "المسح الإنطباعي" فكرة عامة، وإنما تجميعاً لصور قد تخرج نتيجتها في يوم من الأيام أو بالأحرى يخرج تحليلها. لكنني مضطر للقول إن مراجعة للقيم من الأهمية بمكان، خاصة في ظل هذا الزخم من التلقي الثقافي من ألوان هي عبارة عن "تخريب ثقافي" و "تمويه فكري" و "تشويه حضاري"، وفق خطة أقل ما يمكن وصفها أنها غير اعتباطية. هناك الكثير من الأنشطة أو الممارسات يمكن ابتكارها لتدقيق القيم وتحليلها وفرزها. ولن تعني أحداً طالما كان النظر الجاد وراء هذا الأمر.

غنيُّ النَّفس

أيَّةُ ثروةٍ في الأرضِ هذه التي تضاهي غنى النَّفس؟! لن تضاهيها ثروةُ المالِ أبداً. فهي الثروةُ التي قد ينالها فقيرٌ معدمُ المالِ، ويُحرمُ منها غنيٌّ فاحشُ الثراءِ المادي! وإنني لأعجبُ بأغنياءِ النفوسِ الذين يتسامونَ فوقَ المالِ، فلا يتركُ فيهم العوزُ أثراً، ولا يخلّفُ فيهم الفقرُ دليلاً، فهمُ الفخورون بأنفسهم، المجلّونَ لها، وهم الباذلون للمشاعرِ اللطيفةِ التي لن يستطيعَ غنيُّ المال شراءها من السوق! وهم المبتسمونَ في وجهِ القدرِ، الرّاضونَ بأحوالِ القضاءِ، القانعونَ بالعطاءِ قلَّ أو كثر! لا يدخلُ قلوبهم التّحسُّرُ لأمر فاتَ، ولا التوهُّم لأمرٍ يستحيلُ تحقيقهُ، فهم يعيشونَ الواقعِ، ولهذا لا يعلّقون إبتساماتهم ورضاهم وسعادتهم للغد الآتي، بل يبذلونها لكلِّ لحظةٍ يعيشونها ليومهم مع إجتهادهم لمستقبلٍ واعدٍ بحياةٍ أفضل فهذا الإجتهادُ – وليس التّوهم – حقٌّ لكلِّ إنسانٍ راشدٍ على وجهِ البسيطة. هؤلاءِ ينطبقُ عليه الحديث الشريف: "من أصبح آمناً في سربهِ، معافاً في بدنهِ، عنده قوت يومهِ فكأنّما حيزت له الدنيا بأظافرها." هم يرون الدنيا قد حيزت لهم بأظافرها لأن أسباب الحياةِ الأساسيةِ قد توفّرت لهم، أمّا غيرهم فأسبابٌ فوقها أسبابٌ قد توفّرت لهم ومع ذلك فهم يشعرون بعدم الرّضا... ويتأمّلون أن الغد سيكون حلواً... وإبراهيم ناجي يقول في "الأطلال":

قد يكونُ الغيبُ حلواً   إنّما الحاضرُ أحلى

لكنَّ حلاوة الحاضرِ لم يظفر بها سوى أغنياءُ النُّفوس، أمّا غيرهم فعلّقوا سعادتهم في الغيب، والغيبُ خارجَ حدود العقلِ وخلف مدى البصر. مَثَلُ أغنياءُ النفوس كمثل ذي المنبت العماني الخليل بن أحمد الفراهيدي فقد بعث إليه والي فارس والأهواز سليمان بن حبيب بن أبى صفرة وقد كان يدفع له راتبا بسيطا يعينه به، بعث إليه يوما يدعوه إليه، فرفض وقدم للرسول خبزا يابسا مما عنده

قائلا: ما دمت أجده فلا حاجه بي إلى سليمان. فسأل الرسول: ماذا أبلغه عنك؟ فقال:

أبلغ سليمان أني عنه في سعةٍ وفي غنىً غير أني لستُ ذا مالِ
شحاً بنفسي أني لا أرى أحد يموت هزلاً ولا يبقى على حالِ
الرِّزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتالِ
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المالِ

وهؤلاءِ ينطّبقُ عليه ما نسب لأبي فراسٍ الحمداني قوله:

إن الغني هو الغنيُّ بنفسهِ ولو أنه عاري المناكبَ حافي
ما كلُّ ما فوق البسيطة كافياً فإذا قنعت فبعضُ شيء كافي

والحياةُ كفيلةٌ بأن تُري الإنسانَ الصنفين: غنيُّ النفس وفقيرُها، مع فقرِ الأولِ مالياً وغنى الثاني به. وقد رأيتُ من أغنياءِ النفوسِ الكريمةِ ممن يجلُّ المرءُ الحكيمُ مقامهم، ويُعلي من منزلتهم، ويقرّبهم من قلبهِ، لأنّهم أصدقُ عاطفةً، وأرقُّ مودّةً، وألينُ جانباً، وأرهفُ جناحاً، وأعمقُ أثراً، وأبعدُ نظراً. هؤلاءِ هم الأحقُّ بالصداقةِ والأجدرُ بالمودّةِ، فهم لا يودُّون من أجلِ مصلحةٍ، ولا يحبُّون من أجلِ منفعةٍ، ولا يصادقون لتملّق، ولا يتحدّثون بتشدُّق! وكم هم من نقيضين لهم فقراءُ النّفوسِ وإن كانوا موسعي الثراءِ المادي.. فما أغناهُم الأخيرُ عن الأولِ، وما رفعت الثروةُ الماليةُ مقامهم وهم مدقعُو الحالِ في ثروةِ النفسِ وهي جوهرُ الإنسانِ وأساسه. إنّما قد يجتمعُ غنى النفس وغنى المالِ في إنسانٍ وهذا فضلُ اللّه على بعضِ عبادهِ، وحينها يعلو غنى النفس على غنى المال لديهِ بل إن المال سيكون خادماً لهذه النفس الغنيّةِ التي لن تكون لها سوى الأهداف الساميةً الجليلةِ التي تبتغي مرضاتِ اللّه هدفاً قبل كل شيء. وقد يجتمعُ فقرُ النفس مع فقر المال لدى إنسانٍ فتلك هي نقمةٌ وشؤم، فترى فقيراً مدقع الفقر يمشي مختالاً أو يتحدّث مطاولاً قامات البشرِ أو ناسجاً من خيوط الكذب والتحذلقِ أثوابا برّاقة، فتقول

في نفسك هذا فعلهُ وقد حرم غنى المالِ والنفس، فكيف بحاله لو أُتي المالَ وبقيت نفسه على حالها فقيرة؟!

جديرٌ بغنيِّ النفسِ أن يفتخرَ بنفسهِ، لأنّ مقامه العلياءَ لنفسٍ عظيمةٍ وهبها الله له فوهبته ما يستحقّه من الغنى، وبوّأته مقاماً يحسدهُ عليه – في أعماقهم – أغنياءُ المال!

العفوية

ما دخلت العفوية مسألة إلا حلّت عقدها، وأفردت لها سبيلا يسيراً إلى القلوب! العفوية علاج البروتوكولات (المراسم) المعقدة، التي تأخذ في الجانب المقابل أشكالاً وأنماطاً قد تكون ضرورية للتعامل في ظرف من الظروف، لكنها غير مستحبة على الصعيد الإنساني العاطفي، لأنها ترتبط بالمصلحة في غالبها، في حين تشكل العفوية لغة بسيطة في التعاطي الاجتماعي، ومنهجاً بسيطاً للأخذ بالقلوب إلى طرق شفافة، بسيطة الطروحات، واضحة المعالم.

وحينما نزلت ضيفاً في بلدة من البلدات العمانية كنت أحتفل في داخلي بهذه التلقائية العفوية في الناس في شتى اشكال التعامل، حيث تتبدى المعاملة في نمط بهيج، صادق، رفيع من الناحية الإنسانية تحضر فيه التفاصيل البسيطة ذات التأثير النفسي العميق، على مستوى الخطاب والتحاور والإحتفاء المادي وتحضر فيه القلوب على بساط رقيق من المشاعر الدافئة.

هناك، في تلك الأرياف البعيدة عن الضجيج، المحتفلة بنسقها الوشائجي الهاديء، لازلت أرى ذلك الفعل الذي يتلاشى رويداً، رويداً: عفوية التعاطي. تبصر وجودها في الكثير من العيون التي تحدق فيك بصفاء وسمت، وتلمسها في الأيدي السخية البذل، الكريمة العطاء، وتحس بها في النفوس الشفيفة، وتلقاها في الأمكنة الدافئة السعيدة باستقبالك، وكأنما تذكرك بمرتعك الأول، وموطن ميلادك النافح بالذكرى الطرية، والأشواق المؤنسة.

ستجد في هذه الأمكنة أشياء فيك، تتلاقى معك: العادات المخضلّة بالتقدير والحب، والقيم المنفوحة بالسَّمت والوقار، والتعاطي الشفيف القائم على إنسانية الفرد وليس على المصلحة. أشياء توقفك لأمد ليس بالقصير عندها للتفكر فيها والتأمل.

يا لهذه الأمكنة، ويا لتلك القلوب التي تفيض عفوية وتلقائية، حين تمنحك إياها راضية منشرحة، وأنت في غمرة سعادتك، فإذا ما غادرتها ستدرك أنها تركت أثراً جميلاً في نفسك، ومسحة لطيفة في مخيلتك... وستظل ماثلة فيك لأنها تواصل هادىء ورزين مع الماضي... ومع العفوية الشفيفة.

جزرٌ مبعثرة...!

ينتابني الشعور المر في بعض الأحايين بأننا نعيشُ كأفرادٍ في جزرٍ منفصلة، كلٌّ واحدٍ يستقلُّ بجزيرتهِ. الوجوه التي نعزُّها تتراجعُ للخلفِ، يتكادس عليها التراب، وهي تسكنُ هواتفنا المحمولة. هذه الهواتف الكيانات / العلب الصغيرةِ أشبهُ بأحياءَ يسكنُ فيها من نرتبط بهم بأيّةِ واصلة... بمجردِ ضغطة زرٍ يتدفق صوتٌ قديم، يبدو صاحبه كمن يتحدثُ من تحت الترابِ أو من كوكبٍ آخر.

كيف ترانا نعيش؟ سؤال مرٌّ! تجرفنا الحياةُ في تياراتها، ونحن لا نملك إلاَّ أن نتبعثَ ونميل معها كيفما شاءت. حياتنا أشبه بسفينةٍ يتقاذفها البحرُ لا يقرُّ لها قرار فتهدأ. وحين نذكرُ أخوتنا المنزرقين إلى دروب الحياةِ من ينبوعٍ واحد، نتخيلهم وهم يصارعونَ الأمواجَ لوحدهم.. أو يتعاملون مع شأنهم الخاص في غربتهم أو جزيرتهم المنفصلة.. نتلاقى مصادفةً بين أشهر وأشهر.. أو ربما سنوات.. لقاءات عابرة.. أين هي العاطفة الحميمية الغريزية التي من المفترض أن تكون قد أوجدت فينا شيئاً أشبه بالتّوحد العاطفي..؟!! هؤلاءِ الأخوة يبدون في كثيرٍ من الأحيان أشبهُ بالغرباءِ الذي جمعتنا بهم الحياةُ في رحلةٍ من الرّحلات وحسب.. وهاهم الآن في معتركٍ آخر، وعبثاً نحاول أن نجمع الشتات..

القضيةُ ليست قضيةُ مسافاتٍ أو امتدادات. ثمَّة ما يستقرُّ في النفوس من انشغالات توحي للنفسِ بالكفايةِ عن الآخر. أهو البعدُ الذي يخلّفُ هذا التجاهلُ في النفس، أو الصراع الإنساني وراء المصير وما يجلبه للإنسان من مسؤوليات ليس له منها فرار ؟

تموتُ العواطفُ، تختفي الوجوهُ رويداً رويداً. يموت الحبُّ. قلتُ الحبَّ، أجل فهذا الكائنُ الشيّقُ يفقدُ حماستهُ مع استمرار الحياةِ على وتيرةٍ واحدة. أمّا الوجوه والقلوب التي نعايشها يومياً فنبذل أقصى ما لدينا من إمكانيات نفسيّة كي نبقي فيها شموع الحبّ نيِّرة ونرفدها بزيوت الوصال.

قال لي أحدهم ذات مرّة: أشعرُ أنني أكافحُ الحياةَ، وكأن ليس لي أحد بالرغم من وجود إخوتي أو أبنائي.

هذا الشعور الداخلي بالكفاح المستقلّ هو إفرازٌ لغياب الصُّحبة الحقّة، أو الرابط الأخوي العطوف، المرتبط المصير. قليلٌ هو الذي يصرُّ عليك كي تبثّه همومك، ولا تسعى أنت إليه من أجل ذلك. قليلٌ هو الذي يصلكَ، ويتلمسُ أخبارك. لكن مع ذلك أعلمُ أن الكثيرين يلتمسون الأعذار لهم ولغيرهم.

أين أنت، يا زيدُ؟ سؤال يسألهُ عمرو. وإجابةُ زيد معروفة: في زحمة الحياة. هؤلاء، الذين يعيشون في زحمةِ الحياةِ، لا يستلذون بها.

كيف لنا إذن أن نحقق شرطنا الاجتماعي المتوافق مع اجتماعية طبعنا - حسب وصف إبن خلدون – ونقرّب جزرنا المنفصلة لتصبحَ سهوباً واحدةً كالتي كانت لسبأ في صورة تقارب البلدان والقرى من اليمن حتى بيت المقدس أو الشام؟

لكنَّ علّة قومِ سبأ هي علّة الإنسان. أضناهُ التقارب، فأراد أن تبتعدَ بينه والآخر المسافات، فحدثَ النكران، وأبدلت أشجاره اللذيذة الثمار بأخرى مرّة المذاق!

هذه هي مصيبةُ الإنسانِ فلمَ يشكو إذن؟!

داء مقيت...!

فاغرُ الفاهِ ثعبانُ الحسدِ، لا يكاد يستقر أو يسكنُ نفساً إلا أشاع فيها الإضطراب والتذمر والقلاقل. كلما أبصرت عيناه في الآخرين خيراً دلق الثعبانُ بؤبؤي عينيه، وحملق مفترساً، ثم قيّد اللسانَ فاندلع بدلاً عنها كحبلٍ طويلٍ مخيف، غليظ العقد، ورجع إلى الأغوار المظلمة فزمجر فيها وأرعد، وأرغى وتوعّد.

أيُّة بشريّةٍ هذه التي يفحُّ الثعبانُ في أحشائها، كلّما نظرت في عينيها وجدت في إنسانهما صورةً موحشة. أيةُ عينين هاتين اللتين تقشعرُّ حين تنظرُ في ثباتهما وتصيبك رعشة، ويهزّك خالجٌ مفزع، ويسري في أورادك الدم حارّاً؟

هذا الثعبانُ المترصّد في الأغوار والقافز في أيّة نأمةِ خيرٍ للآخرين، يأكلُ من نعماءِ أرزاقهم، ويشربُ من نجيعِ حظوظهم، ولا ينامُ إلا على قضقضةِ هياكل أحلامهم وطموحاتهم دون أن ينالها إلاّ ما الله كاتبه! ثعبانُ الحسدِ هذا الأفعوانُ المرعبُ وهو يطوقُ في الأحشاءِ التمنيات للآخرين بالسعد، ويوئد البسمةَ في مهدها، ويصعقُ الكلمة الخيِّرة عند تشكّلها!

الأرض الواسعةُ بمساحاتها الشاسعة، الرحبة، تستوعبُ البشر، وأرزاق الرحمنِ تصيبهم في عدالةٍ تامّة. لكن بعض القلوب ضيِّقة، تظنُّ أن رزقها قد ذهب لغيرها، وحظّها قد أهدي لغيرها. ولو أنصت لتلك الهمسات التي ألقاها رسولنا الأعظم في أذن أسامة بن زيد في قوله: "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك..." لو أنصت إليها لبرد فؤادهُ، وأنس خاطره، وسار في دربه آمناً مطمئناً وحقق شرط الإيمان. "قل لن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه." هذا هو الشرط "لن..." فكيف بالله يحيا من يدّعي الإيمان وثعبانُ الحسدِ يطول في أحشائه يوماً بعد يوم؟!

مكابرةُ النفسِ جهاد. وحملها على التنزّه هو الطريقة المثلى لتحقيق ذلك. وهذا لا يتمَّ إلا بالإيمان بالقدر إيماناً عميقاً، الأمر الذي يعني أن الوصول إليه شاق، مع أنه يتأتّى بالإرادة والفهم الصحيح للأمور ونتائجها.

آلا قاتل الله ثعبان الحسدِ، وألجمَ فاه، فكم تأذى أناس بسببه، وكم أصيبوا به في مقتل! وصاحبه لا يهدأ له أوار، ولا تستقر به سكينة إلاّ أن تكون الأرض يباباً وهي النتيجة التي تأدّت إليها حال الثلاثة الذين هرعوا فجراً لحصد الثمار! أو غوراً وهي النتيجة التي نالها صاحب الجنّة المباهي بها دون شكر لله...! أو الحفنة من التراب تلك التي حددها نبينا الكريم في قوله: "لا يملأ جوف إبن آدم إلاّ حفنة من تراب." والحديث على الرغم من عموميته إلا أن هؤلاء هم أولى الناس به!

إن المرء السليم العقل، الصافي السريرة، ليضيق ذرعاً بالحسدِ، ويمقت الحسّاد، وليس له سوى أن يستعيذ من شر حاسد إذا حسد!

ومع أن هذه الصفة عامة في بني البشر، إلاّ أن أحرى الناس بمحاربتها نحن المسلمين، الذين ظنوا أن الجهاد يكمن في محاربة أعداء الدين، فإذا بالنبي، ﷺ، معلم الأمة العظيم ينبههم إلى أن ذلك هو الجهاد الأصغر بينما الجهاد الأكبر هو جهاد النفس!

ولعمري فلو جاهد المسلمون أنفسهم وتخلصوا من داء الحسد، وقتلوا ثعبانه لأغناهم ذلك عن قتال أعدائهم أو التذمر منهم ليل نهار، ولخلصت أنفسهم عندها من شائبة كبرى!

هؤلاء كم عددهم؟

كم يبهرني هؤلاء الرجال الذين يتلمسون حاجات الناس ويتقصون رغباتهم من وراء السواتر! تلك السواتر المصنوعة من كرامة النفس وترفعها عن السؤال حتى وإن كانوا في شدة الإلحاف! كم يبهرني هؤلاء الرجال الذين إن تحدثت معهم في أمر من الأمور وثبت نفوسهم البيضاء إلى ما يمكن أن يبادروا به لإسعافك، ورفع ملمتك، وتخليص كربتك، يصدق في الواحد منهم بيت الشعر القائل: "إن جئته لرأيته متهللاً، كأنك تعطيه الذي أنت سائله." وهذا في حال مقصدك لسؤاله أم إن كنت بعيداً عن سؤاله وقد رميت من حديثك معه أن تحكي له عن حالك لربما يسعفك برأي أو يواسيك برؤية، حتى يفاجئك بأنه هو الذي سيسعى ليكون خلاصك من أزمتك، فيفرج عنك ما كان يقض عليك مضجعك، ويمض تفكيرك.

لقد أخبرني أحد الأصدقاء أنه كان يتحدث مع آخر عن مبلغ اقترضه من البنك وأن هذا القرض يقصم ظهره، ويعسر عليه أحواله، وفي اليوم التالي يسأله الآخر عن مبلغ القرض فيجيبه، فإذا به يخرج له مبلغ القرض كاملاً قائلاً له: إمض الآن لتقضي دينك! وأخبرني آخر أنه كان يتحدث مع صديق عن مشروع فيه من الخير ما يوسع عليه في شؤونه وشؤون أسرته ثم يشكي - دون أي قصد - أن المبلغ الذي سيحصل عليه من جمعية تعاونية لن يكفيه لإقامة المشروع فإذا بالصديق يفاجئه بالقول: سأخصص لك الجزء المتبقي من جمعيتي، أقم مشروعك والله معك!

هذان الرجلان كيف وصلا لهذه السماحة الطيبة دون سابق سؤال بل دون أية نية مضمرة في الحديث معهما لتوصيلهما للمبادرة بعد التلميح؟ أليست هذه هي النفوس السمحاء السخية التي تتغلب على شهواتها (وتحبون المال حباً جماً)؟

أليست هذه هي النفوس التي ترتقي بأصحابها عند منزلة الإيثار حين يرى الواحد أن الآخر هو المحتاج وقد تعلمنا منها درساً في إحدى معارك المسلمين حين طلب المثخن الجراح الظامىء ماءً ولم يؤثر نفسه به وهو في أشد الحاجة إليه لإنقاذ نفسه من الهلاك حينما سمع نداء الآخر وهكذا فعل الآخر حتى ماتوا جميعاً ولم يشرب واحد منهم!

أ ليست هذه النفوس هي التي تبني المجتمعات وتقيم دعائم الروابط العاطفية بين الناس وتوحد مصائرهم، وتعقد أواصرهم بالرباط القوي؟ ترى الرجل منهم فترى السماحة والبشاشة حتى ما تكاد تمضي في حديثك قبل سؤالك بادرك بالمفاجأة: إن ماله ونفسه معك فلا تحمل هماً، ولا تضق ذرعاً! الله الله على أصحاب هذه النفوس الجميلة التي تتغلب على رغائبها في المال والثراء في مقابل أن ترى الابتسامة تعلو شفة إنسان وشفاه أسرة بأكملها، تلك هي الغاية العظمى عندها. وحينما يكثر مثل هؤلاء، سنقول: نحن بخير!

خصائص

من أية زاوية ننظر إلى الإنسان. الكل سيدلي برأيه من وجهة نظر مختلفة ليرى أية زاوية هي التي يمكن أن تميزه، ويرجع ذلك إلى أن تلك الزاوية لها ارتباط وثيق بنفس الناظر منها، فلا يمكن أن تفتح شرفة ما عبثاً لولا أن صاحب المنزل قد رأى لها سبباً ما في نفسه. هذا يذكرني بقصة قرأتها منذ سنين للقاصة السويدية، سلمى لاجيرليف، بعنوان: "الخطايا السبع" ووضعت من خلالها هذه النظرات التي يحكم صاحبها بها لأنها تتلاقى مع ثيمة أساسية في أعماقه وبالتالي تكشف لنا من هو. ولكن...!

الإنسان، في نظري، كيانٌ متكامل، ليس من الناحية الجسدية، فالجسد مركب، وإنما من ناحية أخلاقياته التي توجه سلوكياته. ولهذا، فإن الحكم على إنسان ما يجب ألا يأخذ صفة متهورة تفقد مصداقية الحاكم. فعندما سأل سيدنا عمر بن الخطاب رجلاً بقوله: أتعرف فلاناً؟ قال نعم. قال له: هل صاحبته في سفر؟ قال الرجل: لا. فرد عليه سيدنا عمر: إذن أنت لا تعرفه! لكن علينا أن نحدد الوجهة التي ننظر بها نحو ذلك الإنسان، لأن تلك الوجهة تحدد لنا ما نريد أن نراه منه! لنقل أننا لجنة حكم تنظر في توظيف إنسان ما. علينا هنا أن نحدد النقاط الأساسية التي نريدها فيه انطلاقاً من صفة الوظيفة ذاتها، إذ أن هذه الأخيرة هي التي أعطت شروطاً أساسية لتصوير نوعية الموظف الذي يمكن أن يكون: هل سيضطر إلى نقل أحمال ثقيلة؟ فنراعي فيه صحته وقوة جسده. هل سيكون مراسلاً ينقل أوراقاً؟ فنراعي فيه رزانته وأخلاقه. هل هي وظيفة تحتاج إلى مؤهل معين؟ فنحكم عليه بسبب ذلك إضافة إلى شخصيته. ونحن مع ذلك نصدر حكماً من منطق مقابلتنا الشخصية له التي تنبئنا عن صفات جزئية تتطلبها الوظيفة. لكن أن نصدر حكماً على إنسان لم نره ولم نعاشره ولم نجرب علاقة ما معه، فهذا سيفقدنا مصداقية الحكم.

إنني لا أفتأ ناصحاً بالقول إننا لا يصح منا أبداً أن نطلق حكماً جزافاً على إنسان إلا على ضوء ما يبين منه عن قصد، مع أن العرب قالت: "المرء مخبوء تحت لسانه." وما يمكن أن يفيدنا بها تهوره الصادر من لسانه في رسم ملامح شخصيته إلا أن الحكم على الناس في مطلقه وأساسه لا يمكن أخذه بصورة جزئية إذا أردنا أن ننظر بعمومية نحو فرد من الناس، وربما وقعنا في أخطاءٍ عدةٍ تعلمنا منها: كنا نحكم على إنسان ما لموقف بدر منه، أو لأننا اتخذنا الموقف بناءً على كلام آخرين، أو حتى برؤيتنا لوجهه من خلال جهاز تلفاز، أو من خلال سماع صوته، فكان القائل منا الذي لا يعجبه صوت فلان يقول بكل طلاقة وبجرأة: لا يعجبني فلان! ولا يقول: لا يعجبني صوته! وهكذا، إن لم نكن قد تعلمنا عبر العمر، فإن التجارب تلزمنا أن نتعلم، أن نتخلى عن تلك النرجسية التي ننظر بها نحو أنفسنا. إنني لأغبطُ هؤلاء الناس الذي يفيضون سماحة وحلماً ورقة في مشاعرهم فإذا رأيت الواحد حسبت أنك تعرفه من زمن، وإذا قابلته قلت بينك وبين نفسك: لقد قابلت هذا الوجه في مكان ما. هؤلاء الناس المتحلّون بأعظم صفات الإنسانية ألا وهو التواضع يرفعون أنفسهم أو ترفعهم نفوسهم قدراً عظيماً بين الناس. هؤلاء يتركون في نفوسنا أثراً عظيماً لن يمحيه الدهر، وبسبب من ذلك فقد تُقتُ إلى أناس لا يربطني بهم سوى تواضعهم الذي ترك الأثر العظيم في نفسي وربما كان بسبب من حبي للتواضع الإنساني الذي يرفع نفس الإنسان. هؤلاء الرجال - وكثير منهم في مقام آبائنا - وددت أن أقبل جباههم العظيمة التي تتواضع وهي عالية! ما الذي يجبرها على التواضع سوى علو نفسها؟ إننا مجتمع أساسه التواضع، وستغيب أخلاقياتنا إن لم نتمسك به بل ونتشبث. فهو الذي سيحافظ علينا من الكبر والغرور. ألا إن أعظم صفة تنكس رأس الإنسان هي الكبر. وهي التي تردي الأمم وتفرغ الإنسان من محتواه. وصدق من قال: "من تواضع لله رفعه." وهل أحد منا لا يطمح أن يكون غاية مبتغاه التواضع لله؟!

قيمة الآخرين

كيف يمكن للمرء أن يحيا منقطع الآصرة عن الآخرين، يظن نفسه محوراً فاعلاً في وسطهم وهو بعيد عنهم كل البعد، كالموصوف "قريباً على بعد، بعيداً على قرب"، ويظن نفسه محركاً لكل شؤونهم وما هو إلا عجلة تتحرك لذاتها، قد تحرك حاجاتهم البيولوجية وتلبي حاجاتهم الفطرية من غذاء وشراب وغيره، لكنها لا تملأ نفوسهم أماناً واطمئناناً، ولا تشعرهم بأنفسهم ولا تحسسهم بأهميتهم لديه، يظن أن الرابطة هي رابطة المال الذي ينفقه كرب أسرة عليهم، بينما ذلك في الحقيقة حق عليه لهم، ويظن أن ولاءهم له قائم على كونه مدبر شؤونهم وأنهم بصفتهم أعضاء في هذه الأسرة عليهم الطاعة له، بل، والحب أيضاً!

إن الكثير من الناس لا يستشعر بقيمة من حوله حتى إذا فقدهم ندم على فراقهم وعلى ما كان منه من غمط لحقوقهم، وإساءة لإنسانيتهم، وإهدار لكرامتهم، فقد كان قادراً على الاحتفاظ بهم وهم جنبه. يقول المتنبي:

إذا ترحلّت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم

وهذا عين الصواب، الراحل هو المفرط في قيمة الآخرين الذين صبروا وانتظروا اللحظة تلو اللحظة من الدفء والحب من هذا الشامخ الذي لا يريد أن ينحني بقامته فيرويهم من ابتسامة قلبه، ودفء سريرته، هل يفعل الكبرياء بالإنسان أن يتعالى أمام الأعزاء فيسهل عليه أن يفقدهم؟ أخال أن كثيراً من هؤلاء الذين يظنون أنهم بذلك يبنون شخصياتهم إنما يهدمونها! يظنون أنهم يبنونها بإهدار كرامة الآخرين الأقرباء القريبين أولهم، ويبنونها بعدم الاكتراث حين يجرحون مشاعر الآخرين، الذين سيقضون وقتاً مديداً يعانون من جرح لا يندمل فجرح اللسان أعمق من جرح السيف!

إنـي لأرى كـثيراً مـن النـاس يريـد أن يظهـر أن لـه شخـصية عظيمـة، مـدبرة وحكيمة وأول ما يعـاني منـه أقربـاؤه، والـداه أو زوجتـه أو أبنـاؤه! يعـانون الأمـرَّين مـن عظمـة شخـصيته ومـن تـدبيرها ومـن حكمتهـا! كيـف وهـو الـذي يظـن أنّـه المحبـوب بينـهم والـرأس المرجـوع إليـه في كـل صـغيرة وكـبيرة في كـل شـأن مـن شؤونهم الظاهـرة! وأقول الظاهـرة لأن هنـاك مـن الـشؤون الباطنـة مـا يتـسامى هـذا المتعالي عن النـزول إليه، ومن أكبر الأخطاء أننا لا ننتبه لهذه الـتي نظنها صـغائر وهـي كـبيرة سـيما إذا كـانـت تـكـبر في جـو فـارغ مـن الـدفء والحنـان والعاطفـة. إنني لأرى هؤلاء الذين يتعاملون بـ "الرسميات" أي القواعد الصارمة حتى مع أقـرب أقربـائهم، فأشـفق علـيهم لأنهـم أسـاؤوا إلى أنفـسهم قبـل أن يـسيئوا إلى الآخـرين! وتصيبهم الصدمة حين ينفجر في وجوههم ذلك القريب الذي كانوا يحسبونه وفياً طيِّعاً لهم، ويسمونه بالخروج عن الطاعة والتمـرد علـى القيم والمثل الـتي بثوهـا في قلبـه – كمـا ظنّـوا - ومـا أسـكنوا في قلبـه إلا هـذا الـشحن المتواصـل مـن التعليمات الجافة التي لا يخفق لها قلب ولا تأنس لها نفس. ألا أيها النـاس تفكـروا في من حولكم، وأعيدوا اكتشافهم، فلربما تدركون قيمتهم قبل فوات الأوان!

إنسانيات (1)

في إحدى الأمسيات الإحتفائية القريبة، اقترب مني أحد الأشقاء العرب وعرَّفني بنفسه ثم أسهب في إطراء الشعب العماني ذاكراً تلك الميزة الرقيقة التي يتمتع بها العمانيون وهي العفوية والتلقائية في تعاملهم مع الآخر. قال لي: إن عاملاً عظيماً هو الذي يجعلني أتشبث بهذه الأرض ـ الناس. هؤلاء الناس الكرماء الذين لا يشعرون الآخر بأنه غريب عنهم، بل يتعاملون معه على أنه واحد من نسيج مجتمعهم، يبادلونه مشاعره الحميمة، ويحسسونه بأنه بين أهله وذويه، وهل أعظم حاجة عند الغريب من شعوره بالأنس في دار الغربة؟! هل من شيء أجمل لديه من كلمة طيبة أو ابتسامة رقيقة من مواطن تنسيه عذابات البين، وهموم الفراق، وصخب الحنين؟!

وتصادف أن حدثني في صبيحة اليوم الآخر موظف أجنبي مضى له أربعة أشهر في عمان، حيث قال كلمات عظيمة عن الناس هنا، ومنها أنَّه تفاجأ بهذه المعاملات الإنسانية الرقيقة التي يلقاها من المواطنين. قلت له: ليس للإنسان شرف في منصب أو مال أو جاه سوى أخلاقه لدينا، كم من أناس قد يملكون العناصر الثلاثة التي يظنون أنهم بالغون بها المجد والسعادة، ولكن رصيدهم الحقيقي عند الناس هو أخلاقياتهم، نحن ننظر إلى الإنسان على أنه عبد لهذا الإله العظيم خلقه فأكرمه ونعَّمه. ولهذا كانت نظرتنا نحوه مليئة بالإحترام والتقدير له. رد عليَّ قائلاً: ولولا ذلك لما شاهدنا هذه النهضة الراقية بكل معاني الجمال في ثناياها.

ألا إن أكرم شهادة هي التي يقولها غريب صادق المشاعر عن معاملة الناس له وهذه الشهادات يسمعها الكثيرون منا حينما يرقّ حديثهم مع الآخر القادم لأجل أن يساهم بعطائه في نهضة هذا البلد. وعلى الرغم من أن لدينا ما يقارب

النصف مليون أجنبي يزاول معظمهم وظائف مختلفة، وهو ما قد يفوت الفرص أمام العديد من مواطنينا، غير أننا نفرق بين الأمرين فلا خلط بين مزاولته لوظيفة وبين معاملتنا الإنسانية له، لأن المنطلقات هنا والإعتبارات تعود، أولاً، إلى تقديرنا لعطاء هذا الموظف وخبرته ومعرفتنا أنه لولا بصماته لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه. أما الإعتبار الآخر فهو الإيمان بأن ذلك الموظف الغريب إنسان في نهاية الأمر جاء ليعيش ومجيئه لم يكن قسراً وإنما لرغبة فينا للإستفادة منه. أما الإعتبار الأهم فهو المنظور الديني للمسألة أجمعها وهي ما أشار إليها الأستاذ العربي بقوله: أعجبت بتمسك العمانيين بالقيم الدينية، الأمر الذي أثر عليَّ بشكل عميق، فالحمد لله أن أكرمنا بالدين فجعلنا كرماء به، يتأثر بنا بسببه المسلم الوافد وغير المسلم. ألا إن أعظم رسالة يؤديها المواطن المسلم هي المعاملة الجميلة كيف لا ورسوله الكريم قال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق." وقال: "البِّر حُسنُ الخلق." وقال عنه الخالق عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم/4. فهل من شيء أكرم وأفضل وأشرف للإنسان من أخلاقه؟! هل من هدية يقدمها الإنسان للآخر أعظم من معاملته الإنسانية الصادقة؟ فشكراً لكلِّ إبنٍ وإبنةٍ لهذا البلد ممن ساهم في نقلِ الصورةِ الطيِّبةِ عنه، فقد عكستم طيب منبتكم، وعريق أخلاقكم، وصدق مشاعركم، وعراقة دينكم، فكانت بكم سمعة البلد زكية في عمان وخارجها، وأصبحتم تفتخرون بإنتسابكم لهذه الأرض العظيمة، في كل الأرجاء.

إنسانيات (2)

حديث شريف نظرت إليه مأخوذ القلب إعجاباً بما حمله في طياته من هذا المنهج الإنساني الكريم الذي جاء به الإسلام. من يتفكر فيه ويعمل به ينال السعادة حقاً. يقول فيه المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا ولا تنافسوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره الكريم - بحسب امريءٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه ومال. إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم." الله الله، ألا ما أعظم هذه الكلمات، وما أكرم هذا المنهاج، وما أحوجنا إليه، دعوني أطلب من نفسي وأطلب منكم أيها الأعزاء أن نطبق ما جاء في طيات الحديث أسبوعاً بل يوماً واحداً. فنبعد عن الظن بالآخرين، والظن هنا ما لا يوثق به أي التهمة، ويا كثر من يسيئون الظن بالناس ويتهمونهم بغير يقين ولا دليل سوى ما تحيك صدورهم المريضة. ولا نتحسس ولا نتجسس على بعضنا بعضهم ولا نتنافس من أجل مآرب حقيرة، ولا نتباغض في ما لا يساوي متاعاً ولا نتدابر بالخصام والعداوة، ولا نظلم أنفسنا ولا غيرنا فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، ولا نحقر غيرنا لأننا لو نعلم ما في تحقير الغير من الذنب والإقلال والتسفيه لما حقرناه، وإن من أعظم الأمورِ أن يحطَّ قدر إنسان أي إنسان! يقول هشام شرابي: "إن أعظم شيءٍ يحقَّر به الإنسان هو أن يقالُ عنه إنّه تافه!" دعونا نجرب ولننظر إلى أنفسنا في ما بعد كيف أصبحنا وماذا تغير فينا. ولسبب ما فإنني، حينما قرأت هذا الحديث العظيم، رجعت إلى "**الأربعين النووية**" للشافعي حتى أتأكد من أنه قد ضمنه في الأربعين حديثاً التي استخلصها بعد لأي. لأنني أرى أن "الأربعين النووية" رسمت منهجاً اجتماعياً عظيماً يرسم صورة

إسلامية راقية للتعامل بين الناس ويخط بها طريق المجتمع الراشد الفضيل الذي ترقى به الأخلاق، وتسمو به الشمائل.

ولو أننا نتدبر السنة النبوية بعد تدبرنا لكتاب الله لتوصلنا إلى طرق المعاملة الإنسانية النزيهة التي تجعلنا بحق بشراً كرماء الخصال، نزيهي المآرب، لا نتعامل مع الآخر إلا لله دونما بغية نبتغيها منه إلا احتساب الثواب من الله. ولهذا كان من السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه!

إن التلاقي لله هو الغاية الخاصة، وهي الهدف النهائي الذي يبتغيه المسلم. ولولا أن هدفه كان ذلك لما نظر إليه من تعامل معه عن قرب أو لمس منه نظراته الإنسانية النقية فدخل في قلبه الإسلام لسلوك المسلم معه، وكم تأثر غير المسلمين بتعامل المسلمين معهم لأنهم جعلوا الدين سلوكاً. ويروى أن الشيخ محمد الغزالي رحمه الله قال: "إن الأخلاق أهم من العبادات في الإسلام." سبحان الله. فهل يدرك المسلم ذلك قبل غيره؟!

الحديقة

نظرت إلى الحديقة الجميلة القريبة إلى الطبيعة بدروبها وقنواتها وقناطرها وتلالها، وعادت بي الذاكرة إلى ما يقارب العشرين عاماً. تذكرت ذلك المدرس الإنجليزي الذي خطط ونفذ هذه الحديقة بنفسه. كنت أراقبه يشتغل فترة ما بعد الظهر حين كان كثيرون يستسلمون للقيلولة. كان يشتغل تحت وهج الشمس الحارق. يخلط الرمل مع حصوات الوادي ويعجنهما بالإسمنت ثم يشكل بهما ما ارتسم في خياله من فكرة، ثم يذهب إلى الجبال ليستحضر الأحجار ذات الألوان البنية الفاقعة التي لها جمالية في الرؤية البصرية فتربط المكان بأصله الطبيعي وتبعده عن المختلق الذي وضع الإنسان عليه يده. يفرش الأرض في زاوية من الزوايا بحصوات سرعان ما يشكلها كربع دائرة ويرشها بالألوان لتظهر كأنها إطلالة شمس على الطبيعة. وحين ينجز هذا العمل الجبار بعد أشهر تبقى اللمسة الأخيرة فيذهب إلى وادي الخوض ليحضر الأسماك الصغيرة فينقلها إلى حديقته فيكون لها دور أفضل في تلك السواقي الصغيرة.

لم تكن الحديقة ملكاً لذلك المدرس، إنما هي جزء من أرض المدرسة، نذر وقته ليجتهد في إنشائها. وقد غادر منذ سنين طويلة ولم يعد وربما لن يعود. تأملت تلك الحديقة الصغيرة، وسألت: كم جيلا مر عليها منذ إنشائها على يد رجل واحد؟ أجبت نفسي: ربما يقارب عشرين جيلاً. كم من الأصدقاء تفيأوا ظلالها، كم منهم استرخوا من عناء يومهم الدراسي في كراسيها، كم منهم من خطا في مسالكها الصغيرة وهو يطلق خياله لفكرة ما. كم من الأفكار ولدت فيها، وكم من النفوس انشرحت بعد كدرها وهي تتنسم عبير ياسمينها وورودها، وكم من الآهات انفرجت من أسرها في أجوائها.

ترى، هل فكر الرجل وهو يشتغل بكل هذه الأسئلة الإفتراضية – آنذاك ؟ لم لا؟ هو لو لم يقصد ذلك لما نزع إلى ابتكارها في قطعة جرداء ليس فيها ما يثير الحس، ويوقظ الخيال. لقد تحرر الرجل من فكرة التملك والتاريخ، فالحديقة التي صنعها خلال أشهر تحت حرارة الشمس اللافحة لم تكن لتفيئه ظلاً أو لتطعمه ثمراً أو لتدر عليه دخلاً. كما أنه لا بد كان عالماً أن الأجيال القادمة لن تعرف أنه من صنعها وإن بقي اسمه مرفرفاً دون أي ملمح آخر عن شخصيته. لكني أخال أنه لم يكن يطمح أن يسجل التاريخ اسمه، ليذكره روادها. لكنه، كما كان في الصباح يزرع زرعاً عقليا في أذهان طلابه، كان في المساء يجتهد ليغرس لهم ما يثير حواسهم الجمالية، ويريح نفوسهم المتعبة، كي يفتح أفقاً بعيداً أمامهم، أفق المستقبل الناضح بالجمال.

الآن بعد هذه السنين – والمدرس الذي أنشأ الحديقة غائب في بقعة ما من هذه الأرض الواسعة – فقد كبرت تلك الشجيرات الصغيرة وغدت اشجاراً ظليلة، لها أغصان كثيفة، كما أن العشب قد تحدر من التلال البسيطة ليضفي على المنظر بهاء ورقة.. ولما تزل القناطر، كما كانت، تؤدي دورها التاريخي الجميل: التقريب بين وجهتين!

تواردت تلك الخواطر بذهني في هنيهات بسيطة وأنا أنظر للحديقة. ومضيت وأنا أسأل نفسي: كم هم الذين يتذكرون هذا الرجل حين ينظرون إلى هذه الحديقة الرقيقة اللمسات؟

لا وقت للكراهية...!

هل في الحياةِ متسّعٌ للكراهيةِ؟ أو هل في القلوبُ مجالٌ رحيبٌ ضلّت المحبَّةَ طريقها عنه فشغلته دواعي الضغينةِ وأسبابُ البغضِ؟ يبدو أن الكثير من طفيليات الكثير من القلوب تعيشُ على بغض الآخرين. فهي لاهثةٌ، متلهِّفةٌ لصنعِ التَّوافهِ من الأسباب كي تكره، حتى لتصبح على شفا حفرةٍ من الكرهِ للآخرين!

إنّك لتحترزُ في الكلامِ كي لا تزلَّ فتؤخذ على جريرةِ الخطأ القاتل، وتُمقتَ على زللِ اللِّسانِ، وتبغضَ على فرط اللفظِ، وتؤخذَ على جرمِ القولِ غير المقصود. فكيف بك تحيا إذن، وكيف بك تُقيم العلاقات مع النّاس وهم ينتظرونَ منك الهفوات، ويترصّدون بك الأخطاء، ويقلبون ألفاظك، أو أفعالك رأساً على عقب، ويسيِّرون حديثك إلى المقاصدِ التي شعروا بها لا التي عنيت أن تبلغها، ويعكسون وصاياك إلى مذّمةٍ قادحةٍ لهم. فكيف بك تحيا مع هؤلاءِ النّاس وأنت تتحرَّز أن يفهموا هذا اللّفظِ أو ذاك على هذه الشاكلة أو تلك؟! إنّك إذن كالجالسِ على طرفِ السفينةِ يحاذرُ أن يخطأ فيقعَ منها!

تقولُ القولَ السليمَ من وجهةِ نظرك ثم سرعان ما يفجأك أحدهم وقد طُوي الحديث وشغل النفسَ شاغلٌ آخر ليقولَ لك بأنّك قصدته في الحديث وأنت بعيدٌ كلّ البعدِ عن مقصده. وأنك ذممتهُ في قولك وأنت تعني أموراً أخرى ولم يخطر ببالك حينها أمره. ولربما لو جال أمره حينها لتناولته بشيءٍ من التعميم وأنت تُسدي النصيحةِ، وغطَّيت عليه بحيثُ لا يعرفُ المقصدَ من الكلام إلاّ صاحبه وهذه قاعدةٌ دينية حميدة.

كيف وصلَ الحالُ بالنّاسِ إلى (اقتناص) لحظات الكره، وكأنّهم يصطادون سمكةً ذهبيَّةً غاليةَ الأثمان، ويقتنصون لحظات الكره في الوقت

الذي أحرى بهم فيه أن يقتنصوا لحظات المحبّة والصداقة التي تربطهم بالآخرين، بعد أن ندر المحبُّون المخلصون والأصدقاءِ الأوفياءْ، ويقتنصون لحظات الضغينةِ بسرعةٍ فائقةٍ، لأدنى سببٍ، وأتفهِ شأنٍ، في الوقتِ الذي كان أجدرَ بهم فيه أن يضيفوا لبناتٍ في صروحِ العلاقات القويَّةِ الراسخة، في هذا العصرِ الذي وهَنت فيه العلاقاتِ، وانطوى النّاس فيه على شؤونهم الخاصة، وطغت الفرديَّةُ على الكثيرِ من مصالحهم؟ وهم مع شكواهم من هذا كلّه، ومع شعورهم به وتذمرهم منه يزيدون بلل الطّينِ على أنفسهم.

لقد ضاقت قلوبُ الكثيرِ من النّاسِ، وتزمّتوا إلى حدِّ الإفراط في حساسيةِ الشعورِ. فخلت قلوبهم من التّسامحِ، الذي تمتّع به أحد الصحابة، فقد كان مفتاحه إلى الجنَّةِ تسامح قلبهِ مع كلٍّ من أساءَ إليه أو أخطأ في حقّه، ولهذا قدّمه النبي، ﷺ كرجلٍ من أهلِ الجنَّةِ لا لكثرةِ عبادته ولكن لسماحةِ خاطره، وصفاءِ قلبه.

يروي ديل كارنجي قصَّة رجلٍ أسود جاهدَ كي يعلِّم الناس، فملأ هذا الهدف حياته، وشغل أوقاتهُ، حتى أنّ قلبه لم يكن ليتّسع لشيءٍ سوى هذا العمل الخيري الذي لا يعودُ عليه بريعٍ ماديٍّ وإنما برضىً نفسي. وذات يومٍ ثارت ثائرةُ البيضِ على السُّودِ فاقتيد إلى حبل المشنقةِ ووضع الحبل في رقبته، إلاّ أن أحد البيضِ طلب من جماعته أن يتركوا للرجلِ الأسود فرصةً أخيرةً للدفاعِ عن نفسهِ، فتحدّث الرّجل الأسودُ عن مشروع حياتهِ الذي نذر نفسه من أجله، مجاهداً عبر الوسائل المشروعةِ لتعليم الناس وأشهد بعضهم على أعماله السابقةِ، فدفعهم كلامه إلى إطلاقِ سراحهِ بل وتجميع مبالغ لإعانتهِ على مشروعه، وحين سأله أحد الناس في ما بعد: ألا تشعر بالكُره نحو هؤلاءِ النّاس الذين وضعوك على حبل المشنقة؟ ردّ عليه: لا وقت لديَّ للكراهية!

نعم، لو شغل النّاس حياتهم وهمومهم بأعمالٍ عظيمةٍ كعملِ هذا الرّجل، فلن يكون لديهم وقتٌ للكراهيةِ...! لو شغلوها بالأعمال الخيريَّةِ، أو غيرها من الأعمالِ المفيدةِ، الصالحةِ فلن يكون لديهم الوقتُ للكراهيةِ...! فلا يكرهُ إلاّ الشاعرون بالنّقصِ في قلوبهم، ولا يكرهُ إلاّ صغارُ النُّفوسِ، ولا يحملُ الضغينةَ إلاّ

ضيِّق الصدرِ ذلك الذي ليسَ له في الحياةِ إلاّ قلبٌ يكره، وليس له في الحياةِ أهداف عظيمة ومشاريعَ هامّة يريد تحقيقها. يقول أحد رؤساء الوزراء البريطانيين: "الحياةُ اقصرُ من أن نقصِّرها." والكراهيةُ أحد أسباب تقصير الحياة!

واقعية العلاقة مع المرأة...!

لا يزالُ الكثيرونَ يحسبونَ أنّ علاقتهم بالمرأةِ هي علاقةٌ منصفةٌ، عادلةٌ، معقولة بينما هم أبعدُ النّاس عن واقعيةِ هذه المفاهيم، وتطبيقاتها في عالم العلاقة...! يقولونَ شيئاً ويفعلون شيئاً آخر. وقد شهدتُ من هؤلاءِ الكثير، منهم من يخطبُ بالنّاس ويوّصيهم وينصحهم فإذا علمتَ عن علاقتهِ النقيضةَ لما يقول بزوجتهِ أصابتك الدّهشةُ وعمّك الإستغراب.

قال لي أحدهم إن داعيةً كان يدافعُ عن علاقةِ الرجلِ بالمرأةِ في الإسلامِ، علاقةُ العدالةِ والإنصافِ. ويذمُّ في المقابل العلاقة بينهما في الغربِ بشكلٍ خاص. قلتُ، أجل الإسلامُ أنصف المرأةَ، وحدّد حرِّيتها، لكن واقعية التطبيق عند الرجلِ المسلمِ في عموميته أو من يسمى "الرّجل الشرقي" في خصوصيته تبقى مسألةً ذات قصور! وأعلمُ أن بعض الحالاتِ لا يمكنُ تعميمها على الكلِّ، وأن تقدُّماً يجري في فهم العلاقةِ واستقامتها كلّما استنار المسلم وفهم دينه. لكن الكاتب لا ينتظرُ – في المقابل – أن تتحول كلَّ مسألةٍ إلى ظاهرةٍ حتى يكتبَ عنها. فالكاتبُ يعتمدُ في كثيرٍ من الأحيان على ملاحظاتهِ وقراءته للواقع في ضوء ما يسمع ويرى ويستنتج... محاولاً أن يلفت الانتباهَ إلى قضيَّةٍ أضحت مسلّمةً للمجتمعِ لا يثير نقاشاً حولها.

لا زالت مفاهيم مغلوطةٌ أو حواجزَ نفسيّة تحول، لدى العديد من الناس في مجتمعاتنا، دون إقامةِ علاقةٍ صحيَّةٍ مشتركةٍ بين الرجلِ والمرأةِ على أساسٍ من الحبِّ والفهم وليس على أساسٍ من القبول والرضى بالعيشِ تحت ظلِّ عواطف غير جيّاشّة. فما هو مخيِّمٌ لدى عقليةِ بعض الرّجال أن لهُم سلطةٌ على النساءِ، وهي سلطةٌ غير محدّدة بل مفرطة في كثيرٍ من الأحيان. فبعضهم يسوِّغ لنفسهِ عدم استشارتها في كثيرٍ من الأمور المصيرية الهامّةِ في حياتهما، وممارسةِ العنجهيّةِ عليها، وإصدارِ الأوامرِ القاسيةِ غير المبرّرةِ لها، واعتبارها شريكاً منفِّذاً بينما هو

شريكٌ آمرٌ، متسيِّد. وكثيرٌ من الآباءِ حرموا بناتهم من الزواجِ كي لا يخسروا رواتبهن، وإن وافق بعضهم فعلى شرطِ أن يتحوّل الراتب إلى حسابه. فأيُّ إنسانٍ هذا؟! وبعض الأخوةِ حبسوا أخواتهم في غرفٍ مغلقةٍ لأنّهن رفضن العيش كزوجاتٍ تحت أسقف أصدقائهم. فأيُّ بشرٍ هؤلاء؟! وبعض الأزواجِ أدمنوا الكلام البذيء، والأساليب المشينةَ مع زوجاتهم. فأي أزواجٍ هؤلاء؟!

المرأةُ كائنٌ لطيفٌ، رقيقٌ، عاطفيٌّ، حسّاس... إن لم يحسن الرّجل التعاملَ معها سيخسر أنسَ الحياةِ، ولذّة العيشِ بينهما ولئلا تكون حياته معها نوعاً من الحياةِ خاليةُ المعنى كبستانٍ فيه أشجارٌ مظلّةٌ لكن لا زهورَ فيها ولا ورود.

يؤسفني جداً أن أرى زوجاً لا يفهمُ طبيعةَ زوجته، ولا يحاول أن يتودّد إليها بالكلماتِ الجميلةِ، والمشاعر اللطيفةِ، ويشعرها بأنّها هي النصفُ في حياته، ليس النصف الجسدي – كما يفعلُ الكثيرون – ولكن النصف العاطفيَّ قبل كلّ شيء. ويؤسفني أن أجد رجلاً لا يحفلُ للمرأةِ، ولا يقدِّر قيمتها ودورها الفعّال في الحياةِ الزوجيّةِ. ويؤسفني من لا يبني علاقةً ذات ركائزَ من الحبِّ الجميلِ، والعشرةِ الحسنةِ بينه وبين المرأة. ويؤسفني أن أرى شاباً تحايل على شابّةٍ حتى أوصلها للزواجِ بحجّةِ الحبِّ حتى إذا رأى أنّها في دائرةِ ممتلكاته لم يعد يعيرها الاهتمام. وكأنّما كان مستعيراً للأقنعةِ فردّها بعد الزواجِ لأصحابها. هل المشاعرُ تستأجر؟ هل هناك محلّات تؤجّر الكلمات العذبة كما تؤجّر فساتين الأعراس المزركشة؟!

إذا أرادوا أن يتذكروا قيمة المرأة، فليذكروا قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 228]. وليذكروا قوله سبحانه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء/34].

علينا إذن أن نعترف بأن هناك قصوراً في إدراك المفاهيم الحقيقية للعلاقةِ بين الرجل والمرأةِ في مجتمعاتنا، ولا يدفعنا التّهورُ إلى الدفاعِ – كما هي عادتنا دون تمهل - فالمسألةُ حسّاسةٌ وهامّة وإلاّ لما كان آخر وصاياه ﷺ قوله: أوصيكم

بالنساءِ خيراً (ثلاثاً)... وإن كنتُ أنسى فلا أنسى موقف خطيبٍ يوعظ الناسِ في المنابر ثم يرمي زوجتهُ في دُجن الليلِ أمام بيت أهلها بعد أن لفظ عليها لفظ الطلاّق. أهي الرّحمة، أم النقمة؟

وأي الأزواجِ هؤلاءِ الذين لا يرونَ في المرأةِ إلاّ متعةً حسيَّةً، ولا يرون منها إلاّ متاعاً جسديّاً، ولا يرونَ منها إلاّ تكلمةَ نصف الدِّين تكملةً ناقصةَ المعاني، ولا يرونَ منها إلاّ ولاّدةً لأبنائهم، ولا يرونَ منها إلاّ قيّمةً على أمورِ بيوتهم وشؤون حياتهم. لا يرونَ الجانب الجوهري منها: المعنى الأنثوي الرقيق، والحسِّ الإنساني العميق، والطاقة الشعوريّة العظيمةَ الدفق، والينبوع العذب السلسال. فبأي عيونٍ ينظرون، وبأي عقول يتفكرون، وبأي قلوبٍ يشعرون؟ فهل يدّعون بعدها أنّهم رجالٌ ذوو عواطف وأحاسيسَ، وأنهم قد أنصفوا المرأةَ، وأنّهم قد أحلّوها المنزلةَ التي تستحق؟ لا والله ما خدعوا إلاّ أنفسهم!

الأسلوب عنوان المرء...!

يقلِّلُ بعضُ النّاس من قيمةِ الأسلوبِ، أو لا يكترثون به، وهو لعمري فاتحةُ القلبِ، والدليلُ إلى الشخصية، والمؤشِّرُ إلى العقل. أليس "المرءُ مخبوءٌ تحتَ لسانهِ"؟ فإن تكلَّم عرفتهُ من هو، وعرفتَ خصائصهُ، والأعمق أنك قد تطلّع على قلبه، إن كنت من أهلِ الفراسةِ والقراءةِ النفسيَّة.

إنّما المسألةَ لا تحتاجُ إلى كبيرِ عناءٍ كي "يقرأُ الكتابُ من عنوانهِ". فثمَّةَ أناس لا يكترثونَ للكلمةِ وهي تندلقُ من ألسنتهم، وفي الحديث: "هل يكُبُّ النَّاس في النّار إلاّ حصائدَ ألسنتهم؟" فالنوايا إن فسدت وبقيت في القلبِ دون أن تتحوّل إلى كلامٍ أو فعلٍ، فلها وضعها الذي لا تنالُ به العقاب، بل إنّ الفعلَ أو الكلامَ لو عاكس النوايا سيتحوّل إلى ثوابٍ كريم...!

قلتُ لا يراعي بعض النّاس قيمةَ الأسلوبِ وهم يتخاطبون مع الآخر، فيتحدَّثون مع هذا كما يتحدَّثون مع ذاك، ويخلطون بين الحابلِ والنّابل، يحملهم إلى ذلك معتقدهم وإيمانهم بأنَّ أسلوبهم هذا هو خصيصةَ شخصياتهم وهو جديرٌ بالتّخاطبِ مع أيٍّ كان، فليقبل من يقبل وليرفض من يرفض. لكن للآخرين مذاهب، فلكلِّ امرئ صفته هو الآخر، أخلاقه، سماته، طبعه، تفكيره، وهو يمتعضُ لهذه الكلمةِ ويرتاحُ لتلك، ويقبلُ هذا الأسلوبَ ويرفضُ ذاك، ويألفُ هذه الطريقةَ ويتذمَّر من تلك. وهكذا، إن عُوملَ النّاس وكأنّهم نسخاً متكرِّرة فذلك هو الخطأ المرتكب، والذنب المتعمّد. إن نبيّنا محمد ﷺ كان يخاطبُ الصحابةَ أو يعاملهم بحسب طبائعم. فهو يعرفُ في أبوبكرٍ الصديق رهافة جانبه، وفي عمر الفاروق صرامته، وفي عثمان حيائه. فقد دخل عليه الإثنين السابقين وهو في وضع من الجلوس لم يغيِّره. إنّما حين دخل عليه عثمان بن عفّان غطىّ ساقه الشريف قائلاً: إن عثمان لحييٍّ.

إن النّاس ليختلفونَ في خصالهم التكوينية فلكلَّ امرئ طريقةَ في المعاشِ، والرؤيةِ، والتفكيرِ، والذوق وهذا يستلزمُ مراعاةَ شعورهم وأحاسيسهم. فالرسالة القصيرة مثلاً لا تعمّم على كلِّ النّاس سواءَ، وبطاقةُ التهنئةِ لا تطبعُ عليها ذات العبارة التي تداولها النّاسُ، والحديثُ لا يمكنُ تعميمه إلاّ أن يكونَ حديثاً فيه من الحكمةِ والنفع. وقد شهدتُ على أناس لا يميِّزون في المجلسِ الواحدِ بين فلانٍ من النّاس وآخر. وهم يجرون في أحاديثهم وكأنّهم مع فريقٍ واحدٍ من النّاس والمجلسِ عامر بأطياف من الطبائع التي لا تهوى تلك الأحاديث، وهم ينادون كلَّ واحدٍ وفق أسلوبهم، وهو بلا شك تاركٌ أثراً في نفوس الآخرين الذين لا يرتضون خفّةَ الأسلوبِ، وانتقاص الهيبةِ.

إن من لا يقيمُ وزناً لنفسهِ، لا يمكنُ أن يقيمَ وزناً للآخرين وبالتّالي يصبحُ أسلوبه هو الطّاغي لا قيمة الآخرين، فلسانهُ تهرفُ بما يعرف وبما لا يعرف وهو يظنُّ أنّه يحسنُ إلى نفسه من حيث يسيءُ إليها، وهو يقلِّل من شخصهِ في نظرِ الآخرين من حيث يظنُّ أنه يرفعه.

وأذكرُ حكايةَ ملكٍ رأى في منامه أن أسنانه تسقط الواحدة تلو الأخرى إلاّ سنّاً أطول منها، فاستدعى مفسِّر الأحلامِ وأطلعهُ على الحلم فقال له مفسّر الأحلام: أنّك ستشهدُ موت أهلك جميعاً. فانخلع قلب الملك وأمر بقتله، واستدعى مفسِّراً آخر فقال له بذات الأسلوبِ فأمر بقتله. ثم استدعى مفسّراً ثالثاً فقال له المفسِّر: أنت أطول أهل بيتك عمراً. فكافأه. هذا الأخير قال المعنى ذاته، الذي قاله من سبقه إنّما بأسلوبٍ آخر.

وأنّ أحد السلاطين العمانيين في زنجبار شُفي من مرضٍ عضال. فاستدعى الشعراء ليؤنس خاطره بسماع أشعارهم، فقدِّم إليه شاعرٌ قدم على التوِّ فأنشده القصيدة الزينبية وهي ذات مطلعٍ غير مريح، قائلاً:

صرمت حبالك بعد وصلك زينبُ   والدّهرُ فيه تصرُّمٌ وتقلُّبُ

نشرت ذوائبها التي تزهى بها   سودا ورأسك كالثغامة أشيبُ

واستنفرت لما رأتك وطالما   كانت تحنُّ إلى لقاك وترهبُ

فلم يكد يكمل تلك الأبيات حتى اسكتهُ السلطان متذمّراً من هذا المطلع المشؤوم، فكأنّ جميع من في المجلس على رؤوسهم الطيّر. القصيدة رائعةٌ إلاّ أنّها في مجالِ الوعظ، وهذا ليس مكانها فلكلٍّ مقامٍ مقال. وحين هدأت سريرة السلطانِ استدعى شاعراً آخر، فأنشده – وقد تعلّم الدّرس، وفقه قيمة الأسلوب – قصيدة المتنبي:

المجدُ عُفي إذا عوفيت والكرمُ وزال عنك إلى أعدائك الألمُ
صحَّت بصحتك الغارات وابتهجت بها المكارم وانهلّت بها الدِّيمُ
وراجع الشمس نورٌ كان فارقها كأنّما فقده في جسمها سقمُ

فآنس السلطانَ منها وكافأه، فقد أصاب بها قائلها – وإن كانت لغيره – فجعلها درّة المجلسِ، وحين خرج الشعراءُ، سأل الأول الآخر كيف واتتك البديهة في أن تقول قصيدة المتنبي، فقال له : "تعلّمتها من وجه الذئب" أي أنني تعلّمت من درس إسكاتك فوثبتُ إلى ما يناسب المقام والموقف.

إنّه الأسلوب الذي اعتنى به بعضهم، وتجاهله بعضهم الآخر عمداً أو سهواً. الأسلوب الذي يشكلّ صورةَ المرءِ في نفس الآخر، ويطبعهُ فيه. به يُعرف وبه يعامل وعلى إثرهِ يحظى بالتقديرُ أو يستحقُّ التجاهل.

فن التسويات

في حياتنا الكثير مما يشكُلُ حَلّه، وليس ذلك لسببٍ فيه، وإنّما لسببٍ فينا. نحنُ الناظرين لكثيرٍ من الأمورِ على أنّها تعقيداتٌ لا تقبلُ إلاّ أصعب الحلولِ، وأعظم التضحيات، بينما هي في الواقع لا تتطلبُ سوى أيسرَ الحلولِ، وأهون التضحيات.

ذلك لأننا ننظرُ للحلولِ على أنّها إمّا سوداءَ قاتمةٍ أو بيضاءَ ناصعة، وليس بينهما منطقةٌ رماديّة وسطى... لأنّ عنادنا لا يقبلُ المنطقةَ الرماديّة في الحلول لكثيرٍ من المشكلاتِ الحياتية، ونحنُ هنا لا نتحدّث عن الشؤون العقائديّة التي بيّنها الشّرعُ وأوضحها الدينُ وارتضاها القلبُ والعقل معاً، إنّما عن أمورٍ أخرى يتوجّب أن نتنازلَ فيها عن كبريائنا الواهم حينما يكون التنازلُ فضيلةً، والقبولُ بأوسط الحلولِ عينُ الحكمةِ، وركيزةُ الصوابِ، ودليلُ الرجحانْ.

لقد خسر الكثيرون علاقاتٍ شتى، ومصالحَ متعدّدةٍ بسبب العناد والكبرياءِ في عدم القبول بالحلولِ الوسطى، حين أملوا شروطهم (إمّا هذا أو ذاك)... ولا شيء في المنتصف. لا شيءَ يأخذُ في الاعتبارِ رأي الآخر، أو يتركُ مساحةً للتحرّك (إمّا معنا أو ضدّنا). إمّا تقبل بشرطي أو ترفضه. وتكرّر أدوات الشرطِ التي لا تقبلُ التعاطي مع الحلول الوسط، وبالتالي تضيعُ الأواصرُ، وتتقطعُ العلاقات، وتخربُ المصالحُ، وتغيبُ المروءاتُ، وتُفقدُ المعاني الإنسانيةِ الجميلة.

ثمة في حياتنا ما يسمى بـ "فن التسويات"، وهو فنٌّ قليلٌ ما نرتهنُ إليهِ، وتصيخُ إليهِ عقولنا، وتسمعُ لصوتهِ نفوسنا التي يعميها الكبرياءُ في ساعةِ اتخاذ القرارْ، القرارُ الذي يرتهنُ للأضداد: شمالاً أو جنوباً، شرقاً أو غرباً، وليس بينهما جهاتٌ أخرى تضمنُ بقاءَ العلاقات، واستمراريَّةُ المصالح.

فن التسويات، هو فنُ العقلِ الحكيمِ، الراجحِ، الرّشيد الذي لا تهوي به الأهواءْ إلى مهاوي الكبرياءْ الجشعةِ المظلمة، ولا تردي به النزعات الإنسانيّة إلى أماكنَ سحيقةٍ ليس لها قرار وإنّما ذلك المتمهّل، الدارسُ لعقبى القرارِ، ونتيجةُ الأمرِ، وخاتمةُ الشَّرط.. فنُّ التسويات هو فن القلبِ الواسعِ، الرّحبِ، الصابرِ الذي لا ترهقهُ إملاءات الآخر، ولا تضيِّقُ عليه الخناقَ الحلولُ المتطرِّفةِ ذات اللّونينِ المتضادّين.

لنتذكرَّ قصّة ذهاب النبي، ﷺ لقضاء العمرة برفقةِ ما يزيد على ألف صحابي فعلمت به قريشاً فأعدّت العدّة لقتالهِ، ثم ما كان من أمرِ صلح الحديبية، واتفاقه مع قريشٍ على العودة إلى المدينة وتأجيل العمرة إلى العام الذي يليه، وإعادة من آمن إليهم، وعدم إعادتهم من كفر. قال يومها سيدنا عمر الفاروق: ما شككتُ في إسلامي كما شككت يومها حتى قال: كيف نعطي الدّنية في ديننا؟ وقد وقع في قلوبِ الصحابةِ يومها ما وقع، لكن الخاتمة كانت فتح مكّة ودخول الأفواج للإسلام.

هذه القصّةَ تعطينا دلالةً على أنّ البُعدَ العقلي للعواقب الإيجابية للتسويات هو بعدٌ حكيمٌ وإن كان غير منظورٍ من النّاحيةِ الزّمنية، وهذا ما يتحتّم وجود قلبٍ حكيمٍ صابرٍ لا يضيقُ بالزّمنِ، وعقلٍ يرى خلفَ الزّمنِ المنظور، يتصوَّر الأمورَ وهي تجري سيّابة كما يجري النّهرُ بين جبلين صلدين هما في الواقع مجسِّداتُ الحلول الجامدة.

لكن التسويات لا تكونُ في كلِّ الأمور، ولا تمتدُّ إلى مالا نهاية، إنّما الحكمةُ في هذا المقال هو إبداءُ المرونةِ، وإعمالُ العقلِ، والوصول مع الطرفِ الآخر إلى حلولٍ وسطى يقبلها العقلُ مع إبقاءِ العناصرِ الأساسيةِ الأخرى دون ضرر كالكرامةِ الشخصيةِ، والدرجةَ المقبولة للحقوق والواجباتِ، كي تستمرَّ الحياةُ استمرار الماءِ في جريانهِ بين جبلين دونَ عائقٍ.

الحوار

ما يبلغه الحوارُ بين الناسِ لا تبلغهُ وسيلةٌ أخرى. فهو الشريان المزدوجُ الذي ينقلُ الأحاسيس والأفكارِ بينهم. فإن تخلّوا عنه سقطت منهم إحدى قيم التّحضر، وإحدى مؤسسات الثقافة للمجتمع الإنساني الرشيد. وأعظم عُقد بعض البشرِ أنّهم حُرموا من نعمةِ الحوار الصحيِّ الذي يحترم كيانهم الإنساني، وحقّهم في الجدال والإختلاف والنقاش بصورةٍ تراعي حريّة الآخر ومشاعره. ولعلّ هذه العقدة هي التي سبّبت ما يسمّى 'الإنطواء الذاتي' و'الرّهاب الاجتماعي' وغيرهما من المشكلات النفسية.

في دواخل البشر محفّزاتٌ للإندماج الاجتماعي عن طريق إسماع (الصوت) للآخرين، بمعنى آخر القول: "أنا أفكر إذن أنا موجود." فالحوار وحده الذي يجعل الإنسان يفكر، والتفكير يهبه الشعور بالوجودية الحقّة.

إن كائناً بشرياً لا يحاور يعني أنّه لا يُفكّر، بل يفكّر له، أي كُفل عنه حق التفكير وكأنّه اليتيم الذي لم يبلغ الرشد. وسلْبه التفكير يعني سلبه الحق في وجوده كإنسانٍ له كيانه المكتنزُ فكراً وشعوراً وأحلاماً.

إنّ أكبر الأسباب لما يحدثُ من سوء فهمٍ للبشر يكمن في عدم وجود حوارٍ بنّاءٍ بينهم، وأشدّد على كلمة "بنّاءٍ" إذ لا يكفي أن يكون هناك حوارٌ، بل نيّة مسبقة. فإذا تمثّلنا النيّة بساقية نهرٍ ما، يكون الحوار هو الماء الصافي أو العكر. والنيّة تقودُ المجرى إلى غاياته لكن يتبقى الحوار، فإمّا حوارٌ حسنٌ، عندها يكون نهراً صافياً زلالاً، وإمّا حوارٌ صاخب تغيب فيه الحكمة والبصيرة، عندها يكون ماء النهرِ عكراً مليئاً بالوحل، حتى إذا تراكم الوحل في ساقية النهر يندفع الماءُ في مجرىً ليس مجراه، وعندها لن يكون له اتجاه. وهنا يكمن سرّ قوله تعالى في الحكمين الوسيطين لعلاقة زوجية شارفت على الإنفصام "إن يريدا

إصلاحاً يوفق الله بينهما." أي أن النيّة في حوارهما هي التي تقود الغاية في العلاقة.

كم علاقةٍ انقطعت، ووشيجةٍ انتهت، وعاطفةٍ ذبلت، وصداقةٍ غارت، ومشاعر بانت لسبب بسيطٍ جداً: عدم وجود حوارٍ جادٍ بين الطرفين. الحوار الجاد هو أن يبادر أحد الطرفين إلى الآخر فيسمع منه وجهة نظره بنيّة صادقة. وأقول صادقة أي نيّة هدفها الإصلاح وليس تجريم الآخر وتخطئته والبحث عن الأسباب التي تزيد من الإحتقان في العلاقة والضغينة في النفوس. فإن تأكّد من فهمه فهماً صحيحاً طلب منه أن يفهم هو أيضاً وجهة نظره فهماً صحيحاً كما فعل هو في المقابل، وبالتالي فإن توصّل الإثنان إلى طريق مسدود كان ذلك من منطلق (الفهم الصحيح للمواقف) وإن تقاربا كان ذلك من هذا المنطلق أيضاً. ومن هنا فإن العلاقة ليست كما يقال ستفتح صفحةً جديدة، وإنّما تُكمل مجراها في نهرِ الودِّ والتفاهم والثقة.

لقد ضاعت أعمارٌ، وفقدت سنون من أُناسٍ تفرّقوا بسبب صفة الكبرياء. فهم كالذين "أخذتهم العزّة بالإثم". سبّب عنادهم إنقطاع وشائج عن أُسرٍ بحالها، وسببت عزّتهم الواهمة خصومات لم تندمل جراحاتها طوال سنين ثم ورّثوها لأجيالٍ جاءت من بعدهم، فأين الحكمة هنا؟!

إن طائفةً في الهندِ لديها تقليدٌ بين أفرادها. كلما حدثٌ أمرٌ ما أجتمعوا له فتداولوا بينهم عصاً، كلّما وصلت إلى أحدهم وجب عليهم جميعاً – حسب التقليد – أن يستمعوا إليه بإنصات سليم، حتى يعتقد أنّه أوصل لهم ما يريد أو قال ما كان في خاطره أن يقوله. بعدها يعطي العصا لغيره. وهكذا يستمر التقليد. والحكمة هنا هي فهم الآخر عبر الحوار، وفهمه عبر النيّة الخالصة للتحاور معه.

والمرءُ ليغشاهُ الأسف لعلاقةٍ تنافر طرفاها، فلا يجتمعان ليتحاورا، يسلّمان أحلى سنوات العمرِ، وأغلى الذكريات بينهما إلى الرياح كي تنشره في ألسنةِ الناس حكايا يتسلون بها حينما يفرغون من أعمالهم. وحينما تتأتى فرصة ما، وللأسف فالفرص السانحة عادةً ما ترتبطُ بالمصائب – كفى الله الجميع شرورها – حينها قد يقترب الطرفان، كما قال الشاعر:

وقـد يجمـع الله الـشتيتين بعـدما يظنّـان كـل الظـنّ أن لا تلاقيـا

تجمعهمـا الـصدفة، والظـروف غـير المحبّبـة إلى كليهمـا، لكنّهمـا سيكتشفان فيها مدى غلظة قلبيهما، وفظاظة عقليهما، وصلابة موقفيهما التي لم تكن صلابة حق وإنما صلابة عنجهية وباطل. حينئذٍ سيجدان كم كانا قاسيين وظالمين لنفسيهما. ولكن ماذا ينفع الندم؟ أ بعد أن ضاعت سنوات العمر، وخربت المصالح؟

إذن، نحنُ بحاجةٍ إلى أن نتحاور في كلّ شؤون حياتنا الشخصية وغيرها. ذلك الحوار، الذي لا يبيّت ضغينة، ولا "يفسد للودِّ قضيّة"، ولا يستند إلى افتراضات سابقة، أو إشاعات مغرضة. حوار بشروط التحاور، وليس بشروط القسر على الرأي. نتحاور كي لا نضيّع سنوات جميلة من أعمارنا، فالحياةُ كما يقال "أقصرُ من أن نقصّرها" بهجرنا وانقطاع وشائجنا وعلاقاتنا بسبب سوء فهمنا... لأننا، في النهاية، لم نتحاور!

هديَّة ثمينة

في الزَّمنِ الذي تشتَّت رؤاهُ، وتبعثرت دروبه أصبح على الإنسانِ أن يفكِّر في كلِّ خطوةٍ يخطوها، ويتدبَّر كل أمرٍ ينويه تدبُّراً حصيفاً، وهو مع ذلك بحاجةٍ ماسَّةٍ إلى الدليل الذي يرشده إلى صلاح أمره، وسعادةِ حاله، بحاجةٍ إلى النّاصحِ الرّشيد المجرِّب كي يقوده وسط اضطراب الموجِ الطّامي إلى جزيرة السعادةِ المأمولة، وبرِّ الأمانِ المقصود.

وما أحوجُ الشبابِ في هذا الزّمنِ إلى ناصحٍ حكيم، يعرف لغتهم، ويُدرك مشاعرهم، ويتفهّمُ أحاسيسهم فيصوِّر لهم النَّصيحةَ بطريقةٍ تحبّبهم إليها، وأسلوبٍ يعرفُ كيف يدلّهم إلى مقاصدهم الدفينة في سويداءِ قلوبهم.

كم من الشباب الكثير ممن لا يدركون مبتغاهم، ولا غاياتهم فإذا أصغى إنسانٌ مجرِّب رشيد إليهم، واستكنه عمقهم، وحوى ما استقرَّ في دواخلهم، وما دارَ من هواجسهم، تحدَّث إليهم عمَّا أرادوا أن يصوِّروه لأنفسهم وما استطاعوا، وصوَّر إليهم قدراتهم كما لو أرادوا تصويرها فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا.. ثم تلا ذلك بالنصيحةِ النافعةِ الصائبة التي هي بمثابة البوصلة التي تحدِّد اتجاهاتهم، ومآل أمرهم، وعاقبة حالهم.

ذات مرّة غير بعيدةٍ جلستُ مع مجموعةٍ من الشباب اليافعِ، الذي أنهى توّاً مرحلته الدراسيّة قبل الجامعية وما إن وهبتهم سمعاً مخلصاً، وإنصاتاً مُطرقاً حتى تدفَّقوا بمشاعرهم يتناوبون في ما بينهم ويتناقلون أطراف الحديثِ فكان حبل حديثهم متصلاً لم ينقطع، فقد كان الحماس محفّزاً لكلِّ واحدٍ منهم كي يظلَّ الحديث منساباً فتحرَمُ الأنفس متعته الشيِّقة، وظلّوا على حالهم تلك وهم في أوج النشوةِ والحماسةِ يتحدّثون، حتى بدا لي أنّها قصَّةٌ واحدةٌ يؤلِّفها هؤلاءِ الثلاثةِ، وهي تنسابُ بأريحيّةٍ، دون تكلُّف بل إنّ فصولها مكتملة. تحدّثوا

عن المستقبلِ التعليمي والمهنيِّ (الغامض) وعن العلاقةِ (المشوَّشةِ) مع والدهم، وعن العلاقاتِ الأخرى، التي تشكِّلُ أوصال الحياةِ. وفي آخر الحديثِ تنفَّسوا الصعداء وكأنَّ عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن أفئدتهم، وهمّاً قد زال من قلوبهم، فبدوا وهم يستأذنون خفافاً، كطيورٍ طربة، استعذبت التغريد فاستمتعت بالتحليق الحر.

أن تمنحَ الشبابَ أذناً، أن توهبهم قلباً طيِّعاً، وإحساساً صادقاً فأنت تقدّم إليهم هديّةً ثمينةً لا تعادلها هديَّة، لا يعادلها المالُ، فالمالُ سرعانَ ما يتلاشى. لكن إصغاءك لهم، وإنسجامك مع مشاعرهم، واتّحادك مع أحاسيسهم هو ما يمكنُ حسبانه عطاء كريماً منك، ينصبُّ في رصيد حبّهم وامتنانهم لك.

الشباب بحاجةٍ إلى من يصغي إليهم في زمنٍ تعقّدت وشائجُهُ، وتداخلت طرُقه، وأصبح فيه المرءُ حائراً في أيِّ طريقٍ يسلك، وأيِّ اتجاه يسير لبناءِ مستقبلٍ مشرقٍ، ينتفعُ فيه بقدراتهِ، ويستثمر فيه آماله وتطلعاته.

لا يمكنُ أن تمضي حياةُ الشبابِ مشتَّتةً، تتركُ للصدفةِ كيفما اتَّفقت، وترهنُ للظروفِ حيثما شاءت قذفت بها إلى الناحيةِ التي تُريد، بل يجبُ أن يُلَملم شتاتها بالإنصاتِ إليهم – إنصاتَ المتواضعِ – وتوجيههم – توجيه الحكيم – ونصحهم – نصح المُحب – لاستثمار أوقاتهم، والإنتفاع بحيويتهم ونشاطهم. وعلى هذا النّهجِ ستورق أغصان الشباب ثماراً لذيذة المطعم، وسيكون لهذه الثمارِ أثرٌ جميلٌ في مستقبلهم، مستقبل الأمّة.

الكلمةُ... الكلمةُ

الكلمةُ عهدُ اللهِ للإنسانِ، هي الرابطُ الأبديُّ المتينْ، هي المشكِّلةُ الأولى للعلاقاتِ البشريَّةِ وهي الرّسولُ الأقدمُ والدائمُ بين اللّه والنّاس، وبينهم أنفسهم.

لا يمكنُ للإنسانِ أن يعي الحياةَ قبل أن يعي الكلمةَ، ولا يمكنهُ أن يحقِّق شرطَ إنسانيته دون أن يفهمَ قيمةَ الكلمة، ولا يمكنهُ التَّقدم في الفكرِ دون أن يعرفَ معنى الكلمةَ. فالمرءُ تختزلهُ الكلمةْ، وتختصرُ شخصه، وكما يقالُ "المرءُ مخبوءٌ تحت لسانهِ." والمرءُ يُعرفُ بالكلمةِ فهي المعرّف لشخصه، وما تحتويه نفسه وطواياها، وعقلهِ ونواياه. إذا تكلّم المرءُ عرفته من هو، وما هو خطّ شخصيتهِ، ولونَ تفكيره، فأقمتَ حكمك على منطوق لسانهِ، ودلّلت في برهانك على أسلوب كلامه.

عرف العربُ قيمةَ الكلمةِ، فأصبحتَ هي العهد الأثمن لديهم في المكتوبِ، الموثّق. عرفوها فكانت لديهم وثيقةً لا يمكنُ الإلتفاف عليها أو التدليس بها، أو تحريفها. عرفوا الكلمةَ فرأوا فيها صفحات وجوههم، ونقاء مروءتهم، حتى كان الحفاظ على الكلمةِ لدى أشرافهم تساوي قيمةَ حياتهمْ، إن التزموا بها دفعوا لها أغلى ما يملكون، مخافةَ أن يفقدوا من الشرفِ والمروءةِ ما يجعلهم عرضةَ لازدراء الناس وسخريتهم.

وترابطوا في ما بينهم بالكلمة. فإن تقدّم أحدهم لطلبِ القربى اكتفى بالكلمةِ التي هي أمتنُ ميثاقٍ لديه، وإن وُعِد أو وعَد كانت الكلمةُ هي الحبلُ القويُّ الذي يشدُّ به الفعل، ويعقلُ به الأمر في ما بينهم. فخيانة الكلمةِ هي خيانةُ العهدِ في ما بينهمْ.

لكن فقد الكثيرون قيمةَ الكلمة. ودرج في أمثالهم " بلّها – أي أغمس الكلمة – واشرب ماءها". وصارت لدى بعضهم كمواعيد عرقوبٍ لأخيه. وصارت

لدى آخرين " كلامُ الليلِ يمحوه النهارُ." وصارت لدى آخرين مجرّد كلمةٍ لاقيمةَ لها ولا ثمنْ.

وحينما فقدوا الكلمةَ فقدوا قيمةَ نخوتهم ومروءتهم. فقدوا جلال شخوصهم وبهاءَ أسمائهم. فقدوا هيبتهم وأضاعوا هيئتهم، فأصبحوا مهلهلين، ليس لهم من رزانةٍ ولا رصانةْ، يعدون النّاسَ فلا يوفون، ويقطعون لهم العهود فيخلفون، ويؤمّلونهم فيسوّفون. فاضمحلّت سمعتهم لدى النّاس عندما اضمحلّت الكلمةُ في نفوسهم، وصغرت هيبتهم عندما صغرت الكلمةُ في عقولهم.

في واقعِ الحياةِ بيننا، كم من يعدُ بالكلمةِ، وكم من يقطعُ بها ميثاقاً، وكم من يؤمّل فيها ولكنَّ المصيرُ خاوٍ، والنهايةُ جوفاء، والوعدُ باطلٌ، والعهدُ زائفْ! كم من يفاجئكَ وأنت تحسبهُ الأمينُ على الكلمةِ التي يبوحُ بها لسانهُ فتحسبُ أنّها صادرةٌ من عقلٍ راجحٍ، وقلبٍ ناضجْ، فلا ترى منه سوى التّسويفْ والآمالَ التي تبدو كسراب بقيعةٍ يحسبهُ الظمآنُ ماءً. ويفاجئك على العكس من تظنُّ أنّه لن يفي بالكلمةِ. فهو في ظنّك مواربٌ، مخادعٌ، مراوغ، لكنه يحقق لك العهد الذي قطعه، ويفيكَ بالوعدِ الذي وعد، وتقفُ أنت مشدوهاً بين خداعِ ذاك، ووفاءِ هذا، وكنتَ تحسبُ العكس.

المرء في ما ينطق من كلمةٍ. بها تحدّد شخصيته وتُعرف. فإن أحسنَ إلى ما ينطق وجعل الكلمةَ دليلاً على شخصهِ كان ذلك أدعى للاحترام، إن لم نقل التوقير والتقدير، وإن أساءَ إلى كلمته فقد أساءَ إلى شخصه.

* * *

ما قيمةُ الإنسانِ بلا كلمة؟ فالكلمةُ هي التي تحفظُ له شخصهُ، وتدلل على مواقفهِ، وترمزُ إلى أخلاقهِ. والكلمةُ، التي عمادها المنطقِ، وأساسها الصدق، وإن تلاعبُ بها كثيرون ولم تعد تشكّل لهم شيئاً يُذكر، تبقى مصدرُ التقديرِ والتّبجيل للإنسانِ، وموئلُ الإعتزاز والإفتخار بالنفس. فإن أدرك المرءُ السرّ الذي وراءها قدَّرَها، وجعل منها منارةً لدربه، وإن سفّهها فقد سفّه نفسه، وأرداها في مهاوي الذلّةِ والهوان. وكم هم هؤلاءِ النّاس الذين لا يعطون للكلمةِ حقّها وقدرها... كم؟!

في اللحظةِ التي رأى فيها أعرابي أحدهم يشارفُ على الموت، في الصحراءِ، نزل عن فرسهِ وسقاهُ الماءَ. لكن ما إن استعاد وعيه حتى غدر بالمنقذ وامتطى فرسه وتأهب للجري، في هذه اللحظةِ طلب المنقذُ طلباً غريباً، ليس أن يعيد إليه فرسه، ولا أن يترك له الماءَ، لكن ألا يُخبر أحداً بما فعله حتى لا تضيع المرؤة من النّاس. يا لهذا الرّجلُ الكريمِ المبدأ، الذي لم يتخلَّ عنه حتى في أصعب الظروف، وتخلّى عنه كثيرون في أسهلها!

الكلمة التي أكرمها الله فقال عنها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إبراهيم/24،

يرتبطُ الوعدُ بالكلمة. فالكلمة وعد، والكلمةُ مروءة، والكلمةُ ثقة، فإن سقطت الكلمة سقط الوعد والمروءةُ والثقة جملةً واحدةً. فكيف لمؤمنٍ أن يخون وعده وخيانةُ الوعد من صفات المنافق. وفي قوله ﷺ: آية المنافق ثلاث: "إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان." فهل يعي المؤمن أنّه بإسقاطهِ للكلمةِ الوعد والصدق والأمانة ينحدرُ إلى صفات المنافق؟

لكن كثيرين أسقطوا الكلمة بلا حياءٍ أو خجل. بل حتى الكلمةِ المكتوبة، درج في قولهم: " بلّها واشرب مائها." وإذا كان هذا حالها وهي مكتوبة، فكيف حالها وهي منطوقه؟ وفي الوقت الذي نلاحظُ فيه تراجع الكلمة في مجتمعاتنا المسلمة، تقوى الكلمة في الغرب، فيطلق عليها: "Word of the mouth"، أي الكلمة الشفهية. يتمسّكون بها، في كثيرٍ من الأحوال، ولدينا من التجاربِ ما يُثبت ذلك. ووالله إننا لأحرى أن نتمسّك بالكلمةِ أكثر بكثيرٍ منهم لأنّنا أهل أعظم دينٍ على وجهِ الأرضِ فكيف نوهنها، وكيف نسقطها، وكيف نسفّهها؟

لكن المصيبةَ أن بعض النّاس لا يدركون ثُقل الكلمةِ حين تنطق بها شفاههم، وأن الكلمةُ عهدٌ والتزام. ثم إنّهم حين يحين أوان الوفاءِ يدركون أن الوفاء أصعب من أن يطيقوه. فكيف لم يتصوّروه في بداياته إذن؟ فإذا تصوّر المرء أنه لن يكون قادراً على وفاءِ دينٍ ما في وقته، فلماذا يستدين أو يقطعُ عهداً بالوفاءِ؟ وإذا أدرك من البدايةِ أنّه لن يستطيع الوفاء بشرط الالتزام فكيف يقطعُ

الوعد على نفسهِ؟ إنّها مسألةُ مبدأ. لقد كان للكلمةِ وعدم الوفاءِ بها دورٌ كبيرٌ في الخلافاتِ بين الناس، وسببا للعداوات والضغائن. حتى أن الدائن سيتحوّل إلى عدو مقيت في عينِ المدين لأنّها طالبه بسداد دينه. ويتحوّل صاحبُ الحقِّ إلى خصمٍ لدودٍ لأنّه طالب الواعد بالوفاءِ بعهده الذي قطعه له ولم يطالبهِ بأكثر منه. فكيف يمكنُ للمجتمعاتِ أن تنمو وأن يسودُ الودُّ بين أفرادها إن لم يعِ أفرادها قيمة الكلمةِ، وقدرها، وأهميةِ الوفاءِ بها، ولو كان ذلك على حسابِ تضحياتٍ أخرى؟

مفاتيحُ القلوب...!

وجهُ الحياةِ بلا مشاعر، كوجهِ صحراء قاحلةٍ، لا ظلَّ فيها ولا شجر. وأنفسٌ بلا مشاعر هي أنفسٌ خاويةٌ لا يترددُّ فيها سوى الهواءِ، كتردّدِ الرِّياحِ المجلجلةِ في بيتٍ موحشٍ، مهجور. فمن يتمنى أن يعيش في صحراءَ كتلك، بنفسٍ كهذه؟! يستكثر الكثيرون ذلك. لكنّهم يعيشون، بالفعلِ، هذا الواقع. فحياتهم فارغةٌ من المشاعر. وهم لا يحيون في الحياةِ سوى أجسادٍ تعلو وتهبط..تسيرُ وتجيءْ. جدولٌ يوميٌّ من المشاويرِ، والأعمالِ، والعلاقاتِ التي لا تستدعي حضورَ المشاعر. وفي البيتِ لا تحضرُ المشاعرُ بين زوجٍ وزوجتهِ، بينها وبينه، بين والدٍ وإبنهِ أو إبنتهِ، بين أخٍ وأخيه أو بينه وأخته، بين صديقٍ وصديقه، وبين صديقةٍ وأخرى. إنّما يسودُ الكلام اليوميُّ المستهلك وهو يعيدُ الإسطوانةَ ذاتها عن فلانٍ أو فلانةٍ ما زاد عندهما وما نقص، وعن أسعار السّلعِ وما غلى فيها وما رخص، وما حدث في المشاويرِ والطرقاتْ، وما طرأ على الجوِّ من تقلُّباتْ، وأخبارُ العالمِ بحروبهِ واقتتالاتهِ. إنّما المشاعرُ هامدةً، خامدة لا يحرّكها ساكنٌ من بقعتها، ولا يناغش أجواء الرتابة والملل اللذين تحياهما مناغش.

تحت سقفٍ واحد، تعيشُ أسرةٌ واحدة، فإن لم تكنْ تفصل أفرادها عن بعضهم جدرانٌ إسمنتيّة، فإن جدراناً أسمكُ وأمتن هي التي تفصلهم عن بعض، هي جدرانُ المشاعر. لا يقرِّب القلوبَ انتفاءُ الجدرانِ الماديّةِ وإنما انتفاءُ الجدرانِ النّفسية. وهذه الجدرانُ لن تنتفي ولن تختفي إلاّ بالتعبير عن المشاعر، بالدخول في كنهِ القلوبِ، بجلوسِ النّفس إلى النّفس وليس بجلوس الجسد إلى الجسدِ، بتناقل الحسِّ الإنساني المحمَّل في النّفثات الحارةِ التي تأتي من أعماق النفسِ، بالحميميةِ الدافئةِ التي تحفِّز القلبَ على الحديث. كيف لأُسرة أن يستشعر أفرادها بالحياةِ وجمالها وهي فارغةٌ من المشاعر. أبٌ لا يتحدّث بقلبهِ مع أبنائه، وأمٌ لاهيةٌ لا تعيرُ إهتماماً لمشاعرِ أبنائها. وهما الإثنانِ لا يجدانِ مبرّراً قويّاً

للحديث حول المشاعرِ الدافئةِ بينهما. إنهم يعيشون في زنزانةً الوقت الذي يستطيعون أن يعيشوه في جنَّةٍ وافرةٍ من المشاعرِ الخصبةِ حيثُ ترعى قلوبهم فيها.

أسرٌ تطولُ كسلسلةٍ طويلةٍ، لكنها سلسلةٌ جدباءَ لا مشاعرَ تربطها، ولا أحاسيس دافئةٍ تقوّيها. ولا يفرضُ سوى (الواجبُ) التواصلَ بينها. إنّما ألف جدار يفصل بين قلوبها. لا تلتقي إلاّ في مناسباتٍ فاصلةٍ في تاريخها الأسريِّ، لقاءً جافاً عابراً. فما قيمةُ العلاقةِ الإنسانيةِ إن لم تقرِّبها رهافةُ المشاعرِ، ورقَّةُ الأحاسيس، ودفء الأنفاسِ؟!

وبين الأصدقاءِ يغيبُ حديثُ المشاعرِ، حديثُ القلوبِ إلى بعضها. فحياتهم ذهابٌ وإياب، حضورٌ وغيابْ. وبين هذين الطرفين نفوسٌ حيرى مكتومةٌ فيها ما فيها من الحاجةِ للكلامِ. فلمَاذا لا يبوحُ النَّاسُ بمشاعرهم، ويطلقون عنانها عند من يحبُّون؟ هل هو الحياء؟ أم الكبرياء؟ أم جفاف المشاعر؟ أم ضيقُ الوقت؟ أم اختلالُ المفاهيم؟ أم غلظةُ الطباع؟ هذه الصفاتُ، جميعها، حرّاسُ تلك الزنزانةِ الكئيبة. فإذا ما حطّم الإنسانُ جدرانها أمام من يحب وباح بسرِّ وجدانه، وطوايا نفسهِ سقط كل أولئكَ الحرّاس في لحظةٍ إنتصار بهيج.

وحينَ يغيبُ طرفٌ يقول الطرفُ الآخرُ ليتني قلت له كذا وكذا! أين كنت عندما كان معك؟ وأين كانت هذه المشاعر المكبوتةِ التي دُست عليها في حضوره ثم لمت نفسك عليها في غيابه؟ لقد غيّب هذا نفسه عندما تسبَّب في غيابِ من يحب، يقول المتنبي:

إذا ترحّلت عن قومٍ وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هُمُ

ويقول الروائي ماركيز وهو يتحدث عن إحدى شخصياته الروائية بعد أن مات زوجها: "رجت الله أن يمنحه لحظةً من الحياةِ على الأقل، كي لا يمضي دون أن يعرف كيف أحبّته فوق شكوكهما كليهما، وأحست بإستعجال لا يقاوم للبدء معه بالحياةِ ثانيةً منذ البداية لتقول له كل ما لم تقله، ولتفعل على أحسن وجهٍ كل شيءٍ أساءت صنعه في الماضي."

هذا هو حالُ الكثيرين مع من يحبُّون. إشتياقٌ ومشاعر فيّاضةً في غيابهم، وضحالةٌ وصمتٌ في حضورهم. فأين هو طعمُ الحياةِ إن لم يبحِ المحبُّ بسرَّ قلبهِ لمن

يحب؟ وأيةُ علاقةٍ هذه التي يرادُ لها الدوامُ والوفاءُ والإخلاص وهي خاليةٌ من حديثِ القلوبِ إلى بعضها بعضاً؟ أم كتب البشرُ على أنفسهم أن يتنقلوا عبر محطّاتِ الزّمنِ، ومراحلِ العمرِ محرومين من الأحاسيس الجميلةِ التي تجعل قلوبهم أشبهُ بحدائق غنّاء؟

يقولُ أحد الكتّاب البريطانيين في لقاءٍ إذاعي مع البي بي سي: "لم يعد للأسرة البريطانية وجود... كل ما تفعلهُ الأسرةُ إن إجتمعت هو مشاهدةُ التلفاز."

الحياةُ – بإختصار – ليس لها معنىً ولا قيمة إن لم تكنُ تكسيها المشاعرُ الجميلة بالأُنسِ والإبتهاجِ. فمن كبت مشاعرهِ، فقد حجرَ نفسه في زنزانةٍ موحشةٍ لن تسبِّب له سوى الإكتئاب في حياته لأنها قد فقدت طعمها لديه.

تغيير القناعات

تنقضي أعمارُ بعض النّاس وهم متشبِّثون بقناعاتٍ معيَّنة، تحوَّلت في نظرهم إلى ما أسموه "مبدأ". إنّما قد يكونُ هذا المبدأ ليس ضمنَ السياق الاجتماعي الملتزمِ بالأعرافِ والتقاليدِ، أو ليس ضمن الخُلُق الديني الذي نشأ عليه المجتمع. وقد يكونُ مساراً شخصيّاً متفرِّداً و... غريباً.

وحتى لا يُفهم هذا الكلامُ على غيرِ مقصدهِ، أقول: لا ضيرَ أن يكونَ لكلِّ إنسانٍ سيرةٌ متفرِّدة، ومواقفَ متميِّزة، وسلوكيّات تطبعَ شخصيته بطابع الخصوصيّة. هذا أمرٌ حسن، بل إن حكمةَ خلقه هي أن يكونَ "مستقلاً". يقول تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ مريم/95، لكننا نتحدَّثُ عن مراجعةِ هذه القناعاتِ، التي قد تكون ترسّخت في العقلِ، وتراكمت في الضميرِ بفعل فاعل في زمنِ الطفولةِ غير الواعيةِ، وبالتالي نشأت نفسها على هذه القناعة، وهي قناعةٌ تستغربها من أناسٍ ربما قد عهدت فيهم الرشد ورجاحةَ العقل، فتبهرك سلوكياتهم في أمرٍ ما، وتراها غير منسجمٍ مع شخصيّاتهم، ولربما لو كشفت عن صدورهم لقالوا لك إنها ليست قناعة وإنّما مجردُ أهواءٍ أو رغباتٍ. لكن دوامهم عليها، وإصرارهم على تكرارها يجعلك تصفها بـ "القناعة الشخصية". وقد لا تستغربها من آخرين لأنّها تنسجم مع السلوك العام في حياتهم إنّما تستهجنها في نفسك. ولا تجدُ لها مبرّرا سوى غياب الحكمةِ عنها.

تستغربُ مثلاً أن تجد بعض الناسِ يصرّون على معالجةِ الخطأِ بالخطأ ويمضون على ذلك طوال حياتهم. وتستغربُ من آخرين إنكارَ الآخر وإقصاءِ رأيه، أو معالجةِ الزلّةِ من الآخرِ بخصامٍ مستحكم الحلقاتِ لا يستطيعُ أحدٌ أن يفكَّ مغاليقها التي حشوهم غيضاً وضغينةٍ، أو فعلِ سلوكٍ شاذٍّ لا يتناسقُ مع مسارهم العام أو أنَّ هذا السلوك يسبِّب لهم (وربما لآخرين) أذىً نفسيّاً وجسديّاً. أو لا يستنكفون عن الحماقةِ مهما أدركوا أنّها خرابٌ نفسيٌّ، ودمارٌ عاطفيٌّ لا يحقق

لهم احتراماً وتقديراً لدى الآخرين. أو يدّعون المعرفةِ ويباهون النّاس بعلومهم فلا يوقظهم ما أيقظ لقاء غُلام أعرابي أبا العلاء المُعرِّي الشاعر. فقال له: من الشيخ يكون؟ قال أبو العلاء: أنا أبو العلاء المُعرِّي شاعركم المعروف.. فقال الغلام: أهلاً بالشاعر الفَحْل ذي القول الجَزل والرأي الفضل. أأنت القائل في شعرك:

إنّي وإن كنتُ الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعهُ الأوائلُ

قال أبو العلاء: نعم أنا القائل ولا فخر. فقال الغلام: قولُ طيِّب، وثقةٌ بالنفس واعتداد، لكن الأوائل وضعوا ثمانية وعشرين حرفاً للهِجاء، فهل لك أن تزيدَ عليها حرفاً واحداً؟ فسكت أبو العلاء وقال: والله ما سكتُّ في حياتي كمثل ذلك السكوت!

ما فعله الغلام هو خلخلةُ الثّقةِ المفرطةِ عن أبي العلاءِ، وتمزيقِ غشاءِ القناعةِ السميك الذي أحاط به نفسه بأنّه "الشاعرُ المعروف"، القادر على الإتيانِ بما قصر عن إتيانه الأوائل.

إنّما لا يزحزحُ قناعات بعض النّاس مزحزح، لا إدراكهم الخطأ، ولا اعترافهم في دواخلهم بالعيب الذي يعانون منه، ولا بما يسيرون عليه من نقصانٍ ملحوظٍ أو كبرياءٍ واضحٍ، أو خُلُقٍ شاذٍ بيِّن أو نصيحةٍ ثمينةٍ تهدى إليهم، أو مُحرجاً يرمي لوخز وجه الحياءِ فيهم. يغلقون أسماعهم عن المثلِ القائل: "رحم الله امرأ عرف قدر نفسه." ولو عرفَ المرء قدر نفسهِ لأنزلها المنزلةَ التي تستحقها، ولتلبّس بالشخصيةِ التي يجب أن يكونها، يقول المفكر الراحل عبدالله العلايلي في واحدة من شعاراته الجميلة: "ليس محافظة التقليد مع الخطأ، وليس خروجاً التصحيح الذي يحقق المعرفة."

إن مراجعةَ الإنسانِ لخصلةٍ أو سلوك، أو فكرةٍ أو "مبدأ" أو خُلقٍ أو رأي هو فضيلةٌ. والفضيلةُ كما هو معروف واقعةٌ بين رذيلتين...! وهنا يأتي دور العقل الذي يجب أن تُطلق طاقاته في التفكيرِ الذي يولّد قناعات ويرسّخ أخرى ترسيخاً سليماً لا يرتكز على إرث السلف في جميع شأنه وإنما على إجتهاد الخلف. التفكيرُ وحده هو القادرُ على زحزحةِ القناعات المتلبّدةِ التي أحاطت العقل بفطرياتٍ دبقةٍ لا يسهل إزاحتها إلاّ بالإجتهاد في المعرفة، والتخلّي عن كبرياءِ النّفس.

عقدة (الأنا)...!

إنَّ ما يبخس النّفس قدرها في مجتمعاتنا، تلك البدعةِ التي أضرَّت بالنَّفس ورؤيتها والمتمثلةِ في قول: "أنا، وأعوذُ باللّهِ من كلمةِ أنا." حتى صارت عبارة مقيتةً عند بعضهم فلم يستمرؤوها، ووسموا صاحبها، إن لم يكن جهراً فباطناً، بالكبرياءِ والغرور لا لشيءٍ إلا لأنَّها وردت على لسانه، حتى أضحت كالشوكةِ توخزُ قلب السامعِ كلّما قال محدِّثهُ "أنا"...! ولعمري، ماذا يقولُ إن لم يقل أنا؟

هذا الظنُّ بين قول الغرورِ وبين تبيانِ الحقيقةِ ليس مما لا يصعبُ تفنيده لدى السامعُ الأريب، فمن اتَّسم بالغرور والكبرياءِ، فإن سماتهُ هذه ظاهرةٌ لا تحتاجُ إليها كلمةُ (أنا) وإن كانت مساعدة لها. أما من يقولُ كلمةَ "أنا" على سبيل الاعتراف أو التدليلِ أو الشهادةِ فلا ضيرَ فيها إذا لم يخالطها رياءٌ أو زيفٌ.

قالت لي إحدى الأمهات، وكنّا في معرضِ الحديثِ عن التربيةِ والتعليم إنّ معلّمةً ضربت طفلها الصغير ذا الخمس سنواتٍ في ظهر كفِّه الغضِّ محتجَّةً عليه لأنّه قال: "أنا". قائلةً له وهي تضربه: "أنا من الشيطان." ولشدَّ ما أغضبني هذا الأمر وأثار امتعاضي.

هل يعرف هذا الطِّفل ذو الخمس سنوات شيئاً اسمه "الغرور" أو "الكبر" أو "الفخرُ بلا أساس"؟ هل ترى أن الطفل استفزّها كما استفزَّ المتنبي سيف الدولةِ حين قال:

سيعلمُ الجمعُ ممن ضمَّ مجلسنا   بأنني خير من تسعى به قدم

ألا تتولّد لدى هذا الطّفل عقدةُ "الأنا" في حياتهِ بسبب ضربِ هذه المعلمةِ له في نعومةِ أظفاره؟ ألاّ تتسبب هذه العقدةِ في نظرتهِ السلبيَّة تجاه نفسه في مستقبلِ الأيّام؟ قلتُ للأم: اذهبي واسألي حيث ترين المعلّمةَ بين زميلاتها المعلّمات واسألي: من معلّمةُ ابني فلان؟ ستجيبك، حتماً، بقولها: "أنا" لأنّه لا مفر من هذه الإجابة.

قولي لها: هل "أنا" – الآن – من الشيطان أم أصبح لها تفسيرٌ آخر لأنك أنت التي قلتها؟!

يا للغرابةِ من هذه البدعةِ في مجتمعاتنا! فكلّما قال قائلٌ أنا على سبيل الإقرار أو التدليل قال: "أعوذُ باللّه من كلمةِ أنا"، وهو بعيدٌ عن الغرور والكبر. وإن لم يقلها شعر من يسمعهُ بوخزٍ في داخلهِ يحدِّثه بأن المتحدِّث قد لبسه الغرور حينما قال أنا. وإذا تكررت شعر السامعُ بالإمتعاض. لقد اختلط الحابلُ بالنّابل، فأصبح تعقيب "أعوذ باللّه من كلمةِ أنا" يقال بمناسبةٍ أو غير مناسبة، فهو ملصق بـ "الأنا" وكأنّما يمحقُ حقّها في الوجودِ. وهو في الحقيقةِ يغمط النَّفس حقَّها في الحياةِ، وينتهكُ حريَّةَ الفردِ في إثباتِ وجوده، وإقرار قولهِ وفعلهِ من خلال "الأنا"... أناه الشخصيَّة.

كيف لقائلٍ أن يقول: أعوذُ باللّه من كلمةِ أنا ونبي هذه الأمة يقول: أنا سيّد ولد آدم يوم القيامةِ ولا فخر، ويقول وهو يحمِّس الصحابة في إحدى المعارك: أنا النّبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطّلب! واللّه يقول له في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الكهف/110، ويروى عن السيّدة عائشة أم المؤمنين قولها في حديثٍ أخرجه البخاري في صحيحه: كُنْتُ أَغْتَسِلُ أَنَا وَالنبي، ﷺ مِنْ إِنَاءٍ وَاحِدٍ مِنْقَدَحٍ يُقَالُ لَهُ الْفَرَقُ. فهل تصبحُ "أنا" من الشيطانِ إلاّ أن يخالطها غرورٌ، ويتلبّسها نكرانٌ، ويمازجها غرور؟

وكم قلتُ لمتحدِّثٍ أسمعه يقول: أعوذُ باللّه من كلمةِ أنا، لا تقل هذه العبارة. وقل: أنا وأنت نقصدُ الحقَّ. فالإنسانُ لا يدركُ أنّه يمارسُ عادةً سلبيّةً في حقِّ نفسه، وإن كان بعضهم يدرك ذلك فهو يخشى المجتمع، وما يقالُ في حقّه إن كرّر كلمةَ أنا دون كبرياءٍ أو زيف أو تحذلق. إنّما ليثق أن السامع الحكيم، الراجح الذهنِ لا يدور في خلده التفكير بأن محدّثه إن قال أنا فإنّه آثمٌ قلبه. وليس عليه أن يُقنع النّاس بأن نفسه خاليةٌ من الكبر، وليثق أن بعض الكبرياءِ – إن أخذ في جانبه الحَسن – فهو من شموخِ النّفس، وعزّتها، وهو خصلةٌ محمودة فلا ضير أن يقول أنا إن كان في معرض الحديث عن نفسه إقراراً أو تبياناً أو افتخاراً محموداً.

إن أذنُ السامع لتميِّزُ بين الصدق والباطلِ لمعرفةِ سيرةِ المتحدِّث وليس لمجرّد أنّه قال : أنا ، يميِّز بين ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ الأعراف/12، وبين ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ يوسف/69،الإثنانِ قالا أنا ، إنّما الأوّل شيطانٌ، والثاني نبي!

الثناءُ الجميل...

من جميلِ الأسلوبِ، وكريمِ الخُلُق، الثناءُ الجميلِ على الخصائلِ الجميلةِ، والفضائلِ الحميدة للنّاس. فالثناءُ الجميلُ يملأُ النّفس سعادةً، والقلب بهجةً، والروحَ طمأنينة. فلستُ أرى الصواب الأكيدَ في جملةِ "إفعل الخير ولا تنتظر الشكر." وإن كان فيها بعضُ النُّصح، أو قل المواساة، لكن الإنسانَ بطبيعتهِ يمتعض إن لم ينل شكراً لخيرٍ فعله، وإن كان امتعاضهُ داخليّاً لا يكون محسوساً، وهو يفرح بالثناءِ الجميلِ الصادقِ إن ناله وكأنّه حازَ على هديّةٍ أو حصل على وسام. نعم هذا هو الإنسانُ، كتلةُ المشاعرِ والأحاسيس التي تعلو أصواتها فوق صوت العقلِ في كثيرٍ من الأحيان.

ما حفّزني على هذا الموضوع – ولكلِّ موضوعٍ محفِّزات - أن امرأة إنجليزيَّةً، أطلقتُ عليها "سيِّدةُ الثناءِ" مضى لي قرابةَ العامين من معرفتها، وكلّما رأيتها في أيّةِ مناسبةٍ فإن الثناءَ الجميلَ سيّالٌ على لسانها للذين يهمُّنا أمرهم. حتى لتدهشنا بذكرِ مناقبَ حميدةٍ لم نكن نراها في أنفسنا أو هؤلاءِ القريبين منّا. ثم هي لا تضيِّع جميلاً صنعه لها إنسانٌ إلاّ وتشيدُ به عند الآخرين، وتنشرُ له سمعةً حسنةً بينهم، وهي إن أعجبها من المرءِ شيءٌ فلن تبخل عن البوحِ بإعجابها بهِ حتى وإن طال المدى. طوال عامينِ عرفتها فيهما وهي لا تتقنُ غير الثناءِ الجميل على النّاس المستحقّين.

قد يقول قائلٌ إن صاحب الثناءِ قد يقولُ ما يراهُ المثنى عليهِ مبالغاً فيهِ، فنقول: ذلك هو منظوره، وحقّه في ما يرى، فإن علمت أنّه من غير أصحاب المصالحِ التي ينشدُ الثناءَ طريقاً لها قرّبته وأحببته وإن علمت أنّه ليس من أهلها نفرتَ منه وبعدت عنه.

ما يؤلمني فجاجةَ طبع بعض النّاسِ، فهم المتكلّفون في سلوكهم، المتزمّتون في تحدّثهم، الخانقون على رقابِ أحاسيسهم إن أرادت أن تُثني. يقابلك بعضهم

منهم فلا تقعُ عيناهُ فيك إلاّ على ما يسرُّ قلبهُ ويضرُّ قلبك. فكم منهم حين يرى صاحبهُ يبادره بالقول: ملأ الشيبُ وجهك، أو زاد وزنك، أو نحل جسدك! فهؤلاءِ سلبيُّون، يعبِّرون عما يعتملُ في دواخلهم عن نواقصَ يعانون منها، وأسقامٍ يصارعونها. ولو شاءوا لوقعت أعينهم في الناس على الجميلِ، وأقول لو شاءوا لأن الأمر لا يتعلّقُ بالآخرين وإنّما بهم، فإن صفت نفوسهم، صفت نظراتهم للناس.

أيّها الشاكي وما بك داءُ كن جميلاً ترى الوجودَ جميلا

وكم بيننا من هؤلاءِ الشامتين، الناظرين في معايب الناسِ، إذا نطق لسان الواحد منهم لزوجتهِ فهو الساخطُ، المعيبُ لسلوكٍ أو كلمةٍ بدرا منها. أما الأشياء الجميلةِ فيها، فيدوسها قلبه، ويقلّل منها منطقه. وإذا تحدّث عن النّاس فلا يتحدّث إلاّ لأمر شانه منهم أو حسبه من منظوره مشيناً. أمّا وجوههم الجميلةِ، فهي المغطّاة بالسوادِ في ذاكرتهِ. وأينه من نبينا الكريم عليه افضل الصلاة والسلام الذي لم يدع ثناءاً حميداً إلاّ أثنى على من استحقّه من صحابتهِ بل وحتى الذين لم يرهم حين قال فيهم: "من أشد أمتي لي حباً ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله." رواه مسلم.

في الناسِ محامد وفضائل لا يكتشفونها بأنفسهم، ويتمنون أن يراها غيرهم فيهم. فينبِّههم على هذه العطايا الإلهية التي أودعها الله في سرائرهم. فإن جاءَ من لا يرى فيهم إلا المساويء أو يوهمهم بوجودها حطّم أجنحةَ أرواحهم، وكسَّر مجاديف أنفسهم. وفي هذا الشأن، أخبرني صديق أن ثلاثةً اتفقوا على أن يوهموا صديقاً لهم بالمرض، فأتوه متفرقين، فوصمه الأول بشحوب الوجهِ والثاني باصفرارهِ والثالث بالمرض الظاهر. فأيقن الرّجل أنّه مريضٌ دون جدال.

أمّا الثناءُ الجميلُ فقد انتشل أناساً من على فراشِ المرضِ، وجعلهم أصحّاءَ واثقي الخطى. يروي ديل كارينجي عن صديق له يعمل طبيباً أن معظم المرضى الذين يزورون عيادته وإن بدا عليهم المرض إلاّ أن المشاعرَ المحطّمة هي سبب أمراضهم. فلا تشفيهم أية علاجاتٍ سوى الثناءِ الجميل.

من يجعلُ الثناءَ الجميلَ طبعاً يصلحُ قلبهَ به وقلوب الآخرين، ويحيا حياةً ملؤها الرضى والطمئنينةَ والسعادةَ. قال الإمام الشافعي:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا
ولست بهياب لمن لا يهابني ولست أرى للمرء ما لا يرى ليا
فإن تدن مني تدن منك مودتي وإن تنأ عني تلقني عنك نائياً
كلانا غني عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

معنى الرقي

يبحثُ الكثيرون عن الرُّقيُّ وهم في هذا المنحى ألوانٌ وأذواقٌ وأخلاق، متفاوتون في النظرةِ، مختلفون في الرؤيةِ، مذبذبون بين المظهر والمخبر، كلَّ امرئ منهم يفسِّرُ الرّقيَّ بحسبِ ما علقَ في نفسه من فهمٍ، وسكنَها من اعتقادٍ، ورسخت من قناعة. يقول المتنبي في هذا:

علـى قـدر أهـل العـزم تـأتي العـزائم وتـأتي علـى قـدر الكـرام المكـارم

و تعـظم في عـين الـصغير صـغارها وتـصغر في عـين العظـيم العظـائم

إنّما هنالك مسلّماتٌ لا منازع فيها ولا مجادل. يظهرُ فيها الرقيُّ ساطعاً، جليّاً لا يواريه ظنٌّ، ولا يحجبهُ ساتر. فليس الرُّقيُّ أن تملكَ سيّارةً فارهةً، باهظةُ الثّمنِ، وأنت لا تحترمُ القانونَ والنّظامَ الذي يكفلُ حريّات الآخرين، وخذ لهذا مثلاً: حين يعترضُ شخصٌ ما طريق المارّةِ بإيقاف سيّارته الفخمةَ معرقلاً بحجّةِ الوجاهةِ المتمثّلةِ فيها فهو لا يعرفُ من الرُّقي شيئاً يذكر. فالرُّقي هو أن يضع القانون والنظامَ نصب عينيه، ويتبع التعليمات التي تضمنُ حريّته والآخرين على حدٍّ سواءْ. كم رأيتُ من النّاس من يوقف مركبته الأنيقةِ، العالية الثّمن في مواقفَ ليست مخصّصةً للوقوفِ كي يصلّي. فإن كان قد علمَ أن الدِّين هو الرقّي ذاته فعلامَ يُسفّه أبسط تعليماته وهي: "إعطاءُ الطريق حقّه"؟

الرقيُّ أن يعلمَ الإنسان قيمةَ الوقوف الثمينة في الطابورِ مصطفّاً برضى وصبر حتى ينتهي الآخرَ من مصلحته، متّبعاً قاعدة الدين الحنيف: "لا ضرر ولا ضرار". وليس الرقيُّ أن ينتهكَ أحدٌ ما حريّات الآخرين بالتّدخلِ الأنانيِّ كما فعلها أحدهم معي حين كنتُ أستفسرُ عن أمرٍ ما في أحد المصالح الحكوميّة، فما إن بدأتُ طرحَ استفساري حتى فاجأني دخول شخصٍ ما، مسلّماً وعارضاً استفسارهُ على الموظّف وكأنني لم أكنُ قطٌّ بشراً له ذات الحقوقِ والكرامةِ، واقفاً

بقامتـهِ المدهوشـةِ، وعينيـه الحـائرتين. فلمّـا اعترضـتهُ بقـولي: هـل لـي أن أُنهـي استفساري أولاً ثـم أتـرك لـك المجـال لاحقـاً بحكـم أنـني الآن حـين قـاطعتني في منتصف تساؤلاتي؟ فـردَّ مبهوراً وكـأنّه يـرى لأول مـرةٍ آدميّاً قبالتـه: نعـم... نعـم... وهـو الموقـف الـذي لم يكـنِ الأول ولـست أظنُّـه الأخيـر. وهـا أنـا أردّد مقـولتي الـتي قلتهـا سـابقاً: "الطـابور مؤشّـر حـضارة، فـإن رأيـت إنـسانـاً مـا يقـفُ في طـابور – مقتنعاً، راضياً – فقد سلك طريق التّحضُّر."

الرّقيُّ أن يرقى اللّسانَ بالبيـان، وأن لا يـصبحُ اللّـسان مـآلاً للكلمـات البذيئـةِ الـتي تـأنفُ عـن سماعهـا الأُذنـانِ، ولا مـسكناً للكلمـات الـسفيهةِ الـتي تحـطُّ مـن قـدرِ المرءِ، وتـسقطُ مـن قيمتـه الإنـسانيةِ في أنظـارِ النّـاس العقـلاءْ. "فـالمرؤُ مخبـوءٌ تحت لسانهِ". تعرفُ رقيّه من إنحطاطهِ إذا تكلّم. ولـيس الكـلامُ الجميـلُ، المفيـدُ الموزون هو دلالةُ الرُّقي فحسب، بل سلوكُ المرءِ في الحيـاةِ، وطريقـة معيـشته فيهـا وهذا أهمُّ بكثير. فكم من إنسانٍ "ينقّط لسانه عسلاً"، كمـا يقـال، في حـين أن حياته ضربٌ من الفوضى. فما أجمل أن يتواءم القولُ الجميلُ مع الـسلوكِ الأجمـل! حدَّثني أحد الأصدقاءِ، فقال: عرفت رجلاً ذا حجّةٍ باهرةٍ، وأسلوب منمَّقٍ، مقنـع فلمّا ارتبطت معه في مصلحةٍ وجدتهُ الكذوب، الأفّاق، المخلفُ الوعد.

الرُّقـي هـو الـسّمو في معاملـةِ الآخـرين معاملـةً لا تفاضـلَ فيهـا ولا تفريـق، بـل تحقيـق شـرط الإيمـان الـوارد في الحـديث الـشريف: "قـل لـن يـؤمن أحـدكم حتـى يحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسهِ." فـإن وصـلَ الإنـسانُ إلى هـذا المستوى مـن التّرفـعِ عـن المصلحةِ الشخصيَّةِ، المحدودةِ التي تتحقق على حساب مـصلحةِ الغيـر، فقـد وصـل الرّقـي. وإن امـتلأت نفـسهُ بالإنتهازيّـة، والتحيُّـزِ لمـصالحهِ، فقـد أسـقط شـرط الإيمان، فالإسلامُ لم يُعلِ، يوماً، شأنَ الفردِ على شأنِ الجماعةِ إلاّ عند الضرر.

لقد أعجبتني مقولةٌ لغاندي في شأنِ الرقـي، قالهـا عـام 1917 بمناسـبة افتتـاح المعهـد الـذي أسـسته (الآنـسة آنـي بوسـانت) متوجّهـا إلى الحـضور مـن مواطنيـه "إن الهندَ لا تستحقُّ الإستقلال مادام المارُّ في أحد شوارع بومباي أو كالكوتا معرّضـاً لأن يتلقى بصقةً على رأسه من إحدى النوافذ."

* * *

الرُّقيُّ كلمةٌ ثمينةٌ لكنّها فعلٌ أثمن. فليسَ ثمّةَ إنسانٍ راقٍ في أُسلوبِهِ، وفي هيئتهِ، وفي أخلاقهِ. فالّذي يُكرمُ نفسه يرقى، ولا يمكنُ لمن يضعَ نفسهُ مواضع المهانةِ، والإذلالِ، أن يدّعي الرُّقي. لا يمكنُ لمنْ يُلقي بنفسه في مهاوي الهلاكِ، وأوكارِ الغوايةِ، وجحورِ الشهواتِ أن يدّعي الرُّقي. لا يمكنُ لمن لا يعقلُ لسانهُ عن سفاسفِ القولِ، وتوافهِ الأمورِ، وعينهُ عن الفاحشةِ والفجورِ، ويدهُ على البطشِ والشرورِ أن يدّعي الرُّقي. لا يمكنُ لمن يبخسُ قدرَ نفسهِ، لا قدر الآخرينِ، وهو المذبذبُ، المشتّتُ، أن يدّعي الرُّقي. لا يمكنُ لمن لا يضعَ أهدافاً لحياتهِ، ومراميَ لطموحاتهِ، وهو المسلّمُ أموره للصدفةِ كيفما جاءت أن يدّعي الرُّقي. لا يمكنُ لمن يعيشُ دورةً مكرورةً لا تجديدَ فيها ولا تحديث بين مقهىً ليليٍّ أو سمرةٍ غير مثمرةٍ أو نادٍ غير نافع أن يدّعي الرُّقي.

الرُّقي، إذن، مبدأٌ متجانسُ الحلقاتِ، متشابكُ المفاهيمِ، لا تنفصل فيه حلقةٌ عن أخرى. فلا يمكنُ للإنسانِ أن يعاملَ زوجتهُ أو أولادهُ في البيت بأسلوبٍ سلطويٍّ، عمادهُ البطشُ والقهرُ، والخوفُ والذلُّ ثم يخرجُ للنّاس بمظهرِ الرّاقي، المتحذلقِ صاحبُ الأناقةِ واللياقةِ. وكم هم هؤلاءِ من يعيشون عالَمين مختلفين؛ تراهم في أحد العالمين أصحابُ رؤىً حديثةٍ، خلاّقةٍ، عصريّةِ القيم والنظرات، ثم إذا جمعتك الصدفةُ المقدّرة بهم في عالمهم الثاني رأيت صورةً مخالفةً عن العالمِ الأول فلم ترهم سوى أصحاب رؤى عتيقةِ البناءِ، متزمّةَ الفكرِ، باليةَ الأسلوبِ، بعيدة عن تلك المُثل والقيم التي يتشدّقون بها في عالمهم الأول.

هؤلاءِ المزدوجون يعيشون بيننا، ولولا أن حواجزَ تحولُ، وأخلاقاً تستر، وقوانينَ تحجب لرأيتَ معادن النّاس، وقد وجدتُ بعضهم في صدفٍ غير محسوبةٍ، وهي بالطبع بالنسبةِ لهم صدفاً غير محمودة.

الرُّقي حبُّ المحامدِ للنّاس، والفضائلِ لهم، وليس ثمّةَ حاسدٍ يكرهُ أن يزداد غيره فضلاً، ويمقت أن يُنعم الله لغيره نُعمى، أن يدّعى بعد ذلك الرُّقي. كيف يدّعيه والرُّقي هو السموُّ عن الأنانيّةِ المقوتةِ، والشخصانيةِ المنبوذةِ!؟ كيف يدّعي الرّقي وهو الضيّق الصدرِ، الكروبِ النَفسَ، الذي يكرهُ أن تنزلَ نعمةَ الله على عباده، والله يعلمُ كيف يقسم رزقه، بيده مقادير كل شيء يبسط

الرزق لمن يشاءُ ويقبضه عمن يشاءْ. وهو أجدرُ به أن يتغنى بقول الشاعر:

فــــلا نزلـــــت علــــيَّ ولا بارضـــــي ســـــحائب لـــــيس تنـــــتظمُ الـــــبلادا

الرُّقي صدقُ القولِ، وصفاءُ القلبِ، ونقاءُ السريرة، وليس لكاذبٍ، منافقٍ، غليظ الشعور أن يدّعي الرُّقي. كيف يدّعيهِ والرُّقي هو المنازلُ السنيّةِ، والمراتب العليّةِ لصاحبِ النفس الزكيّة؟

الرُّقي تواضع المرءِ ولينِ الجانبِ، فلا يحقُّ لمتكبِّرٍ مختالٍ أن يدّعي الرُّقي وهو مجوّف النّفسِ من أبسطِ القيم، محرومُها من أنبل المُثُل. فكم من يرى نفسهُ راقياً تصوِّر له نفسه ذلك وهو المتكبّر الزاهي بنفسه زهوّ الطاووسِ بريشهِ!

الرُّقي سموُّ الأهدافِ، وعلوُّ المطامحِ فلا يحقُّ لمن أعلى مطامحهُ فوق مصالح الوطنِ أن يدّعي الرُّقي. وليس من سعى لتحقيق مآربهِ دون مآربَ قومهِ ومجتمعهِ أن يدّعي الرُّقي. وليس لمن قدّم أهواءه على قيم دينهِ أن يدّعي الرُّقي. إنّما الرّاقي هو من يصنعُ للوطنَ أجنحةً، ويبني لأمّتهِ صروحاً، ويُعلي لدينهِ راياتٍ، وهو مع كل ذلك راض، سعيدْ.

* * *

ليس عيباً أن ينشدَ الإنسانُ المثاليَّةَ. فالمثاليةُ جدليةٌ، نسبيَّةٌ في تفاصيلها إلاّ أنّها تتشابهُ في خطوطها العامةِ، في قيمها، مفاهيمها، واعتقاداتها. والنظرةُ نحو العالمِ، نحو الآخر، تحدِّدها النظرةُ أولاً نحو النَّفس. فالنّفسُ هي وعاءُ الفكرةِ، وحاضنةُ الرؤيةِ. "إن الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم."

وكي يرقى المرءُ، يجبُ عليه أن يحدّدَ مرتكزات الرقيِّ - أشرتُ إليها أعلاه - ثم يتسلّحُ بالإرادةِ للتطبيقِ بعد الإيمانِ العميقِ بها. فلا تمنع الإنسانَ الذي ينشدُ الرُّقيَّ في فكرهِ موانعَ قبليّةٍ، ولا تثبّط الذي ينشدُ الرُّقي في أسلوب حياتهِ أعرافٌ أو تقاليد، إنّما هو يصنعُ أو يشكّل مسيرته الاجتماعية، بتغيير السلوكِ أو الأخلاق في نفسهِ أولاً كي يغيِّرها في الآخرين. وهنا قد ينتقدهُ الكثيرونُ إلاّ أن بعضهم قد يتفهّمونه. ثم يبدأ مسيرته في التغيير السلوكي شيئاً فشيئاً، ليس عبر

اللُّغةِ – وهي مغيِّر فاعل – وحسب، إنّما عبر الفعلِ الذّاتي المنبثق من الإيمان بفكرةِ التغيير الإيجابي الذي نطلقُ عليه "الرُّقيّ" هنا.

ليس الرُّقيُّ هو السلوكُ الذي يُعرف بـ "الرّسمي" بالدارج الاجتماعي، فيقالُ هذا إنسانٌ رسميٌّ لإنّه ملتزمٌ بأجندةٍ معيّنةٍ أو سلوكٍ لا ينهزمُ أمام المؤثرات الاجتماعية الممتزجة بالمجاملاتِ "المضيِّعةِ للوقت"، إنّما الرُّقي هو وضوح الرّؤيةِ، وجلاءُ الهدفِ، وسلامةُ الوسيلةِ، واستقامةُ الدّربِ، ورصانةُ الإرادةِ، ومتانةِ الإعتقادِ، مع الإنضباطِ في التطبيقِ، والتمسُّكِ بالنّظام.

فإذا توفرت هذه العواملُ للإنسانِ فإنّ شخصيّتهُ تبدأُ في الاستقلالية عن تلك الشخصيةِ الاجتماعية التي تُعتبر نسخةً من الشخصيات الأخرى التي لا تتمايز عن بعضها إلاّ في تفاصيل بسيطةٍ، غير مؤثّرة. هذه الاستقلالية تعملُ على الانفرادِ بأسلوبها الخاص، وتمايزها عن الآخرين. وهذا ليس بالضرورةِ معناه التغريدُ خارج السِّرب، وإنما المضيِّ مع السِّرب وفق محدّداتٍ معيّنةٍ، إذ قد يشتركُ في مؤسسات الهويّة الوطنيةِ، ويستظلُّ بـ "شمسيّةِ" الثقافة التاريخية، لكن تكونُ له صِيغهُ الخاصةِ، ومنهجيتهُ الحياتيةِ المتفرّدة على الصّعيد الفردي.

هذه الصيغ تتمثلُ في العوامل التي ذكرتها في الأسطر السابقةِ، ثم تبينُ في أفعال الناشدِ للرُّقي، واستهجانهِ للأفعالِ المضادة، ولكن يجبُ أن يتمتَّع مع ذلك بعقليةِ المغيِّر، الصبّورِ، المشفقِ على صاحبِ الفعلِ السلبي، المشينِ، أو غير المتَّفق مع المنظور الأخلاقي المستندِ إلى الدِّين الإسلامي – فهذا محور بحثنا واهتمامنا - ونظرتهِ الساميةِ للإنسان، فالمعلوم أن الدين الإسلامي هو دينُ الرُّقي الذي استند على تكريم الإنسانِ: "ولقد كرّمنا بني آدم..."

نخلصُ إذن إلى القولِ: لا رقيَّ بلا فهمِ الدِّين وتطبيق مبادئهِ، وقيمهِ، واتباعِ سنّتهِ الحنيفة السمحاءِ. واتباعُ الدِّين ليس شكلاً وليس قشوراً وإنما فهم قيمهِ وجوهره... وحينها يبدأ الرقي من الشهادتين إلى "إماطة الأذى عن الطريق..."

سخاء الصوت

أحب أن أستمع إلى المؤذن النَّدي الصوت، إلى القارئ العذب النبرات، إلى الخطيب البارع الأسلوب. أحب أن أستمع إلى هؤلاء حتى تستقر في نفسي الكلمة، ويسري في جوانحي الخشوع، وألوذُ بالصلاة مستغيثاً.

أتفكَّرُ في صوت المؤذن، فأبحث فيه عن نبرة يخفق لها جناني، وتستيقظ لها أحاسيسي، وتدخلني في أجواء الصلاة أذكاراً وتسابيح. أبحث عن الصوت البلالي الندي الذي يحرك في النفس هواجس الإيمان، وبواعث الفكرة الروحانية المقدسة. أبحث عنه في كل حنجرة تجلجل به، في صدى الصوت الذي ترجعه الريح، في الآفاق المنداحة أمامي، في حلقوم المكبرات الآلية علَّها تصلح نبرةً ليس فيها طراوة. أجتهدُ في الإنصات إلى الصوت المجلجل بالهتاف الديني الوحيد في سماواتنا، الهتاف الخالد الذي يكسر فينا حدة الغفلة، ويثنينا عن سهو الضلالة، الهتاف الذي يحتم الوقوف أمام قدسيته بكل خشوع.

ثم إتمامه داخل النفس بدعاء رقيق. قلت أجتهد في الإنصات إليه لكيما تخلل مسامات روحي كلماته الوضيئة حين يكون رخيماً، يمطر كالغيمة المترعة في النفوس الذبلى.

أبحث عن صوت القارئ الحسن لآي الله، ذلك الذي منحه الله عذوبة، فأصبح كأنما يندى شهداً على الأرواح التواقة إلى الإستماع لكلامه سبحانه الخالد، وإنني لأغلق المذياع حين لا ألقى بغيتي، لما يفاجئني قارئ يتصنع التجويد، ويتكلف التلاوة، لأنني – وكما أقولها دائماً – أحب أن أستمع إلى كلام خالقي من حنجرة ندية موهوبة، حنجرة أبي موسى الأشعري حين قال له النبي، ﷺ: "لقد أعطيت مزماراً من مزامير داؤد."

كيف يمكن أن أستمع للقرآن من قارئ لا يدفع الدمع إلى العين لرقته وصفائه؟! كيف يمكن أن يقرأ القرآن دون ترتيل حتى تفيض العين من الدمع؟!

وكيف يستشرف القلب أعتاب الحب بالكلمات دون أن يحملها إليه رسول؟ والرسول هو الصوت العذب الجميل. ولنتأمل هذا التأكيد الإلهي في فعل الترتيل: "ورتل القرآن ترتيلاً." إذ لم يكن الإكتفاء بالفعل الأولي وإنما جرى التأكيد عليه بالتفعيل. فلماذا لا يؤمن بعض الناس بأن للقرآن قارئيه - وأقصد قارئيه على رؤوس الملأ - وأن عليهم أن يدعوه لأهله؟!

أبحث عن خطيب، يمسك بزمام الخطبة وخيوطها فيوجهها أنى شاء... وكأنما نصبح نحن ركاب عربة يمسك الخطيب بزمام أحصنتها، فيقودها حيثما تأتى، ونحن راضون، ممتنون. أبحث عن خطيب يمسك بالخيوط النفسية الحساسة بيد لطيفة فيخرجها من ظلمة النفوس، ليجليها في وضح النور، يتقن التعاطي مع القضايا المطروحة فيبدع في تقديمها بأسلوب شائق، جاذب للإنتباه، لافت للحس، وهو نقيض ذلك الذي ما أن يبدأ حتى يسرح أغلب الجمع في مراتع أخرى، بل يغيب آخرون في سبات عميق. ولما كانت الخطابة فناً، فليس كل من اعتلى المنبر خطيباً. إنما الخطيب البارع هو الذي تسلم له مشاعرك ليرجفها وأنت تشعر بالراحة والطمئنينة رغم ذلك.

أبحث عن إمامٍ يبث صوته، وتجويده، وطمأنينة قلبه الخشوع في نفوس المصلين وراءه. أبحث عنه ليرتقي بالصلاة الجامعة إلى مراتب السكينة، والوداعة. أبحث إمام يصدح بالآي العظيمة باعثاً في المكان قبل القلوب حلاوة ونقاء.

أبحث عن هؤلاء دائماً وأبداً كيما أحقق شرط الصلاة، فتكون قرة العينِ، ورغد القلب، وهدأة النفس.

السلام... تحية ودستورا...

يمرُّ عليك بعضهم متجهماً، كأنما ارتسم العبوس على وجهه فصار له قناعاً. لا يبلل شفاهه بأحرف السلام، وهو أوجب الناس وألزمهم بإلقائها. وإذا ما أحسنا الظن به وقلنا ألقاها، فهي لا تكاد تصل إلى مسمعه، ناهيك عن مسمع الآخر. أما حينما يدخل مسجداً فسيجلجل صوته بها، رافعاً بها عقيرته، في حين كان من الأوجب عليه أن يلقيها بهمس كي لا يقطع أجواء الخشوع عند المصلين. أفلا يكون كالمعلم الأعظم نبي هذه الأمة الكريمة الذي إذا دخل سلم بتحية لا توقظ النائم ويسمعها اليقظان؟

وحينما جعلتها الشريعة في سموها، رمز تعايش، وأسكنتها في سويداء القلوب، كان هدفها منها أن تكون منهجاً راقياً للمجتمع الإسلامي، إنطلاقاً من إلقائها العابر، مروراً بتلاقيها بمخزون الضمير حيث يكون أثرها في النفس، أثر النجوم التي ترسم للساري الطريق في غسق الدجى. يرتسم الطريق حيثما كان رائحاً وغادياً يلقي السلام... طريق منير... تستأنس له السرائر، وتهدأ له الأفئدة... يهدي التائهين بسر التحية الكريمة إلى حياة صافية، سالمة، فإذا كان الإسلام عليّا... فقرر أن تحية السلام تلقى حتى على الطائش المستكبر... "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً." فما بالك بالوسط الأخوي المسلم الذي تسري فيه هذه التحية الراقية مسرى الدم في العروق فتخلق في نفوسه المحبة والتعاطف. "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام." حديث شريف. إذن فقد ألقي إلينا مفتاح المحبة وضيّعه أكثرنا وكأنهم رأوا فيه نافلة لا واجباً إجتماعياً، يعد مقوماً من مقومات المجتمع المسلم القويم. السلام باب إلى المحبة التي هي باب إلى الإيمان، الذي هو طريق إلى الجنة. فكيف يتجاهله مسلم وهو فاتحته إلى الجنة؟!

كيف بنا ونفوسنا تطفح بالسلام أن لا نلقيها على الصغير والكبير؟ إن منا من لا يحفل بعابر أو بواقف أو بجالس، فيمر عليهم متجهماً لا يلوي على شيء، وكأنما الأرض ليست بأرض إسلام ولا قلبه يخفق بنبضات مسلم. ما الشعور الذي ينتابنا حين يمر علينا من لا نشك في أنه سيلقي السلام فلا يلقيه؟! والله سبحانه يقول: "والذين يمشون على الأرض هوناً..." أو ليس تذمراً أو نقيصة؟ ولا اختلاط في تأدية السلام فإن له قواعد: "يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والقليل على الكثير." حديث شريف. بينما تحس في بعض الأحايين أن خلطاً يسود هذه القاعدة الأدبية الرفيعة، فيتوقع الراكب أن يسلم عليه الماشي، ويتوقع الماشي أن يسلم عليه القاعد... وهكذا. وهذا في ظني من باب التكبر في ظاهره إن صدر عن قصد.

وكثيراً ما تسمع أرباب أسر يوصون أبناءهم عند وداع الآخرين بالتحية الأجنبية: "باي باي". فإذا كانت هذه وصاياهم لأبنائهم، فكيف هي الحال بأنفسهم؟!

السلام ليست تحية جافَّة العبارة، شاحبة الأحرف، تصاحبها القسمات المتشنجة في الوجوه، وكأنما هي عبءٌ ثقيلٌ حمَّله الإسلامُ للمسلمَ، وإنما رمز للوداعة، للألفة، للمحبة، تصحبهُ بشاشة الوجه، ورقة القلب، ووداعة الحديث. فكيف بالسلام أن يلقى كسيف جارح؟! وهو إسم من أسماء الله الحسنى وهو طريق أمة الصراط المستقيم وهو منهج حياة المسلم في دنياه وأُخراه. وأعتقد جازماً أن المجتمع بخير طالما تبادل أفراده التحية بسماحة فؤادٍ، واتساع خاطر... وهو بعيدٌ عن ذلك حتى وإن ألقاها أفراده دون قلبٍ نابض بمعناها، ودون ارتسام لمنهجيتها، ودون تمعن في أثرها الحيوي كدستور سنَّتهُ الشريعة. والسلام عليكم.

مبدأ التحاور

لم يكد أحدُ العلماءِ أن ينتهي من محاضرته، حتى قام أحد الحضور، وعقَّب بأسلوب لم يستحسنه الكثيرون من الحضور وكنت أحدهم. فقد نفى علم الشيخ المحاضر "بالفكر السائد." وهذه مسألة أخرى، لأن الموضوع المطروح ليس موضوعاً يختص بالفكر المعبِّر عن ثقافة شعب بعينه، وتميزه عن غيره وإنما شأن إسلامي عام يمكن أن يقبل الخلاف فيه بحسب رؤية واجتهاد العلماء فيه. ولا يمكننا في هذا المقال أن نفنِّد ما نحن لسنا أهلاً له من مسائل الخلاف أو الإتفاق في قضايا الدين، وإنما يتركز هذا المقال في مبدأ التحاور بين البشر في قضاياهم المختلفة.

يدرك المعقِّب - لاشك – ويعي القيم التي وضعها المشرع وهو خالق الكون ومعلم الإنسان ما لم يعلم كأسس الحوار، في قوله تعالى: "فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظّا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر." وكان المعقِّب فظاً في تعقيبه وحواره. وقال تعالى: "وجادلهم بالتي هي أحسن." ولم يتخذ المعقب من الجدل الحسن طريقاً ولا مذهبا.

يقول سيدنا عمر بن عبدالعزيز: "ما سرني أن أصحاب رسول الله لم يختلفوا." وجاء في الأثر: "إن الإختلاف بين العلماء رحمة." وهذا أمر آخر.

وإذا وجب علينا فرضاً أن نهوِّن في خطابنا، ونرق في حوارنا، ونحسن في جدلنا مع غير المسلمين، فما بالك والأمر مع المسلمين بل مع علمائهم؟! فإذا كنا سنتحدث بهذا الأسلوب الفظ مع علمائنا المجتهدين (أصابوا أو أخطأوا فلن يحرموا من الأجر بحسب النوايا والله يعلم – دون غيره – عنها)، فكيف سيكون حوارنا مع غير المسلمين؟! ثم ما هي الصورة التي ستنقل عنا من خلال رجلٍ واحد يقوم ليتحدث بإسم (الفكر السائد في البلد)، أو ليس للبلاد علماء

أنيطت بهم مهام الفتوى والتحاور مع الآخر في حال الإضرار بما يسميه هو (الفكر السائد)؟ أعلم أن علماء لدينا كانت لهم آراء في بعض المسائل، لغيرهم رأي آخر فيها، وحينما يسألون فيها يضعون آراء أولئك العلماء الآخرين من مذاهب أخرى نصب أعينهم فيراعونها في إجاباتهم. فلماذا التنطع في الدين، والدين هو المعاملة، الدين هو الخلق؟ وليسأل المعقب ومن أراد بعده التعقيب بمثله – كما بدا في ما بعد – ليسألا نفسيهما، لماذا قام أغلب الناس فاسكتوهم وتحلقوا حولهم في ما بعد مقرعين ولائمين؟ لماذا لا يعتمد هؤلاء الإخوة طريقاً حسناً في الحديث عن الآخر المسلم، لقد سمعت بعضهم يذم في بعض العلماء (ويخشى الله من عباده العلماء)، لأنهم في نظرهم يرخصون في بعض المسائل التي يراها هؤلاء غير قابلة للترخيص، فأين سماحة الدين إذن، أين وسطيته، أين سره البليغ في الحوار والعقلانية والتسامح والتآخي... أين الإجتهاد وهو ركيزة من ركائز الدين؟

إنني – وقد شهدت هذا الموقف – لأدعو إلى الحوار اللطيف الحسن. لا يمكن أن نخلق حواراً ونحن نرعد ونزبد ونتنطع بحجة أن الحق هو الذي حملنا على ذلك. فما يحتاج الحق أبداً إلى ذلك لأنه حق. وكان يمكن للمعقِّب أن يحسن في تعقيبه ويتلطف، لا أن يدفع بعالم تجشم عناء السفر ليقدم اجتهاداته لعباد الله بغض النظر عن مسألة الإتفاق أو الإختلاف معه حول تلك الإجتهادات، فيذهب الشيخ وفي قلبه موجدة، وفي نفسه أثر من تذمر. وكان المعقِّب أبعد من أن يقول له القائلون أخطأتم، وأسأتم، فاعتذروا برسالة إليه. فأرجوكم، أيها الإخوة أن تلينوا من جوانبكم، وتتلطفوا في حواركم، وتتقربوا بأساليبكم، وتفيضوا سماحاً في نقاشكم، وتدركوا تمام الإدراك حديث النبي، ﷺ: "يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا."

ألا ما أمقت التسفيه... والمسفِّهون!

إن من أصعب الأمور على المرء أن يسفَّه، وأن يمارس الآخر عليه وصايا الفوقية، والتّميُّز، وأن ينصاع هو لما يمليه عليه من سفَّهَه، ومن أهدر حقه الإنساني في امتلاك القدرات والمواهب.

ألاحظ فئة من الناس تتميز دون غيرها بتسفيه الآخر، بجعله (صفراً) لا يملك ما يميِّزه عنهم، وأن عليهم واجباً مفروضاً (لتقزيمه)، وأنه مهما كانت له من نظراتٍ، أو مواقفَ، أو آراء فهي في نهاية الأمر لا تعني شيئاً – لديهم - ولا تؤثر في قناعاتهم.

فهم الذين يصوغون حكايتك من أساسها إلى رأسها، وهم الذين يشكِّلون شخصيتك من رأسك حتى أخمص قدميك، وهم الذين يسيِّسون فكرك من المبتدأ حتى المنتهى، وهم الذين يرسمون لك الخط الذي يجب عليك أن تسلكه، وهم الذين عليك الاعتراف لهم بالقدرات والميزات المتفوقة على غيرهم، وهم الذين عليك أن تجلعهم مآل الأمر ومنتهاه!

فأنت، إن أبديت لهم رأياً، فهو عندهم الرأي المعوِّج. وأنت، إن حاولت أن تتحدث أمامهم بما تراه من منطق، سيحاولون إقناعك بأنك أهدرت طاقاتك العصبية دون أن تسفر عن شيء. وأنت، إن حاولت أن تتكئ إلى برهان أو دليلٍ، أوهموك بأنك استندت إلى منسوخ. وأنت، إن أسهبت في التعبير عما يجيش في صدرك، لم يكن ذلك أمامهم سوى فرقعات عصبية، متشنجة. وأنت، إن كتبت أو رسمت أو صورت أو تخيلت أو حلمت... فأنت لديهم فاقد الشيء، وفاقد الشيء لا يعطيه!

هؤلاء مرضى !! نفوسهم مرضى.. فهم لا يطيقون أن ينطق الآخر بالصواب قبلهم، ويبدي الرأي الحكيم قبل أن يستأذنهم، وإن استأذنهم، فهموا ما أراد وأخرسوه، ثم تشدقوا لاحقاً برأيه !!

أجد نفسي في حِلٍّ من هؤلاء. حتى أولئك الذين لقنوني الحروف وكأنها الغَصَص، في حِلٍّ من دَيْنِ الاعتراف بحقهم عليَّ، وتذكرهم بالفضل، فليس كل من لقَّن حرفاً لامرئٍ صار له عبداً...(العبودية لله وحده). فالحرف الذي لقَّنه مع التسفيه ولَّد عقدة لازمت الملقَّنِ، المسفَّه طوال حياته، وأشعرته بأنه "قزم" وأن الآخرين لهم قامات تطاول السَّحاب. هؤلاء المسفِّهون ليس لهم من الهمِّ سوى طبع جبهات الآخرين بختم الفضل. فليس لي أن أقدِّر هؤلاء، وليس لي أن أستكين لتسفيههم لكل رأي أو موقف أو نظرة هي ملكي، هي عنوان شخصيتي، وأساس قوامي، وتوجهي.

ولهم ما يقولون، لكن عليهم أن لا يسفهوا كلام أحد... لأن الحياةَ مبنيّةٌ على اختلافِ الرؤى، وتعدّد المشاربِ، وتفاوتِ النظرات...!!

أصحاب الفأل السيء

أخبرني وهو في سرير المرض، وكنت أعوده، أن أحد (أصدقائه) قد زاره قبلي، وعبَّر له عن دهشته الشديدة للحال التي آل إليها صاحبنا المريض قائلاً له: إنك لست الرجل الذي أعرفه، لقد أصبحت ضعيفاً، هزيلاً، ممتقع الوجه، ويبدو أن المرض قد نال منك نائلته، وشفى منك غليله! فقلتُ له: ليس هذا بصديقٍ يعتدُّ به! هذا من الفئة التي تكتنفها السوداوية، والنظرة التشاؤمية، والفأل السيء، وليس ممن يُرغَّبُ في الإستماع إلى حديثهِ لأن نذير الشرِّ في أطراف لسانه. وأردفت قائلاً: إنك على خير ما يكون، وأنك ستقوم بعد قليلٍ معافاً بإذن الله. وبعد يومين وجدته مسروراً، منتعشاً، نسي المرض وكلام صاحب الفأل السيء!

وجدت الكثير من هؤلاء، وشكى لي الكثير منهم، ولاحظت تذمر الكثير، وهم لا ينتهون، ولا يتفكرون في أن الكلام الذي يتحدثون به أمام الناس إنما هو خبيثٌ، وأن أثره غائرٌ في النفسِ غور الجرحِ في الأحشاء!

يقابلون الرجل فيبادرونه بالكلمةِ الحارقةِ: لقد شيّبت، يا فلان، أو ضعفتَ، ويسمُّونه أباً، وهو لو كان قد كتب له الزواج راشداً لما أنجب من يضاهيهم عمراً. وذات يومٍ أخبرني أحد الغربيين عن عمره، فرددتُ عليه قائلاً: أن من يراك يحسبك أصغرُ بنصف عمرك الآن. فكاد أن يطير من الفرح وهو يسمعُ هذه العبارة المجاملةَ مني.

أو لسنا نحتاج إلى المجاملة اللطيفة ؟ أو لا يحتاج الناس من يضخَّ الحماسة في قلوبهم، لا من ينزعها منهم ؟! ثم ما الذي يجنيه من يطلقُ هذه العبارات الجارحة التي يظنّها (نكتة) مضحكة؟ وهي، في الحقيقة، كلمة سخيفة، جارحة.

إن من الناس من يقابل الآخر فيقول له: لقد شيَّبت بدل أن يقول له: ما شاء الله لقد ازددت شباباً، ويقول له: ضعفت وهزلت بدل أن يقول له: ما شاء الله،

إنك موفور الصحة، متعك الله بالعافية. ويقول له: لقد اصفرَّ وجهك، بدل أن يقول له: ما هذا النور الطافح بالبشر من وجهك. ويقول له: حالك لا يسرّ، بدل أن يقول له: يسّر الله لك أحوالك، وأغناك ورزقك. ويقول له: لقد ابيضَّ شعرك بدل أن يقول له: لقد ازددت بهاءً ونورا.

أصحابُ الذوق الرفيع في المعاملة الإنسانية كالنجوم التي يهتدي الساري بأنوارها. هؤلاء هم من ينفخُ الحياة بالنفثات الجميلة التي تبعث على النشاط والحماسة والرغبة في العمل، في همة وعزم لا يباريان.

إن النبي، ﷺ سمع إعرابيا يدعو ربه: اللهم خفف حملي، فقال له: بل قل، اللهم قوِّي ظهري.

على الإنسان أن يشدّ أزر الآخر بالابتسامة اللطيفة، بالبشاشة الفياضة، بالكلمة الدافعة، حتى ينطلق في حياته، وقلبه يفيض حبا وعشقاً لنفسه والناس.

كلمة شكر

ربتُّ على كتفه وقلت له: إنك تؤدي عملاً متميِّزاً. ردّ منفعلاً: ولكنني لم أنل كلمةَ شكرٍ في حياتي. ولم تكن إجابته تلك لتصدمني فقلّما يلتفت الناسُ للتعبير بكلمة الشكر إلى صاحب العمل المتميِّز. وقليلٌ منهم يعي قيمة الكلمة وأثرها في النفس.

ولستُ بحاجةٍ إلى طرح السؤال عن السبب الذي يكمنُ وراء هذا الحجب المتعمِّد لإذاقة الآخرَ لذَّة الشعور بالإفتخارِ لعملٍ قام به، فكثيرون يستثقلون إرجاع الفضلِ لأصحابه، ويستملحون نسبه إليهم، كما أنّهم يرونها كبيرةً هذه الكلمة البسيطة الأحرف، أن تندلق من أفواههم وكأنما يحسدون الآخر حين يستشعر السعادة وهي تسري في قلبه بسبب كلمةِ ثناءٍ أو تقديرٍ قالوها.

من الناس – عظماءِ النفوس – المترفعون عن كبرياءِ (الأنا) المفرطةِ، جبُلَ لسانه على شكرِ الآخر. وتعوّد قلبه أن يثني ويطري، فهو من أولئك الناس أصفياء القلوب، الذين لا يسترهم ساتر الحسدِ عن مقولةِ الحقِّ، ولا يثنيهم عائق الغبطةِ عن عبارات الإطراء. فيبعثون في النفوس أشجى العبارات، وأحلاها. وهم مع هذا صادقون لا يعتريهم النفاق، ولا يقتحم أفئدتهم التّملق، إنما يريدون بكلمات الثناء والشكر أن يدفعوا أصحاب الجهود المتميّزة إلى آفاقٍ أفضل، وأرحب، يريدونهم أن يبدعوا، ويتميّزوا في أعمالهم، ويرون فيهم المستقبلَ المتجلّي بصورته البهيّة.

كم من الناس يفتقدُ كلمةَ الشُّكرِ، كصاحبنا الذي انفعلَ. وكأنما تلك الحسرةُ ساكنة على أبواب فمه. وكثير من أمثالهِ، من يكتمونَ في قلوبهم، ويتذوقون طعم المرارةِ، ولو أدرك كلَّ واحدٍ فينا كلمةَ الشُّكر للهج بها لسانه. فإذا كان الخالق الغنيُّ عن الإنسان يقول (ولئن شكرتم لأزيدنكم) فكيف

بالإنسان المخلوق الفقير، أفلا يحتاجُ الناس إلى كلمة الشكر تعمُّ حياتهم، وتزكّي أعمالهم، وتطري جهودهم، وتدفع هممهم، وتشجّع إرادتهم؟

قال لي أحدهم، ذات مرّةٍ، بعثتُ إلى بضعةِ أفرادٍ أعجبني عملهم رسائل قصيرة كلمات شكرٍ بسيطةٍ، فكانت ردودهم تعبِّر هي الأخرى عن الأثر البعيد لتلك الرسائل وعن صادق الإمتنان منهم عليها، وعن الجهد الذي عاهدوا على أن يستمروا في بذله. كلَّ ذلك حدث لكلمةٍ قالها محفّزاً فيهم بواعث الحماس، ومشجعاً إيّاهم لمزيدٍ من الجهدِ، مثنياً على عملهم.

ومنذ سنواتٍ يأتيني صوتٌ أحد الإخوةِ كلّما قرأ مقالاً أعجبه. يبدؤني بعبارة: تعرفُ أنني أتّصل لأن مقالك أعجبني. ويتحاور معي في مضمون المقال. ليكنِ الصوت مختلفاً عن الأصوات التي لا تُسمع إلاّ معارضةً أو منتقدةً، فنحنُ بحاجةٍ إلى الإثنين. ولعمري، فإن الصوت الشاكرُ أدعى للقربى حينَ يكونُ واعياً، يحملُ في مضامينه الثناء مع التحاور العقلاني أو حتى الإختلاف!

قيمة الإستهلال

كما يرسلُ الفجرُ خيوطه نحو السهول والبطاحِ في نعومةٍ، وجمالٍ، ورقّة، مستهلاًّ يوماً جديداً في حياةِ الكونِ. الإستهلال في كلِّ شيء هو مبدؤه الذي تبنى عليه في ما بعد الرؤى، والتطلعات، والنظرات. كلّما استهللت يومك ببشرٍ، تلقّتك الحياة بحبور، ومسرّة (كن جميلاً ترى الوجود جميلا)، ترى بعينيك الوجود بألوان مشرقةٍ، برّاقة، تبعثُ في نفسك تفاؤلاً باسماً، فتكوّن لديك نظرةً راقية للأشياءِ من حولك. وكلّما استهللت صباحك بالمنغّصات، والتشاؤم اكفهرَّ الوجودُ في ناظريكَ، فرأيته كالحاً، لا يستقيمُ له حالٌ عندك.

أُنظر في قصائد العرب الجاهليين ترى أن استهلالهم بالغزل فيها مفتاح لمواضيعَ قد تكون نقيضةً لها، فالحبُّ والحرب قد يكونان نقيضين في عموميتهما، إلاّ أن الإستهلال بالغزل يفتح القلبَ، ويريحه، ويبعثُ فيه النشوة والسرور والإرتياح، ناهيك عن تقبُّل ما يليه من أطروحاتٍ، أي كان مقصدها، أو صورها. ولنا في ذلك مضرب مثل لقصيدة كعب بن زهير تلك التي ألقاها وقد آب تائباً أمام الرسول ﷺ حين أطلعها بقولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ مُتيَّمٌ إثرها لم يفد مكبولُ

وما سعاد غداةَ البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

أرجو وآمل أن تدنو مودتها وما أخال لدينا منك تنويل

فما كان من الرسول الكريم إلاّ أن خلع بردته الكريمة ليلبسها كعباً كوسام لا يناله أي أحد. أليس للإستهلال الغزلي الرقيق الذي استهلّ به قصيدته.

ونقيضاً لذلك فقد روي لي أن حاكماً شفي من مرضٍ ألمَّ به، فدعى الشعراء ليريح قلبه بما جاشت به قرائحهم بمناسبة شفائه، فقيل له أن شاعراً

جديداً يريد أن يتقدم بقصيدةٍ بين يديه، فدعا به فتقدم، فأنشده قصيدةً تسمىّ "الزينبية " وهي ذات نصحٍ ورشد، تنسبُ إلى الإمام علي بن إبي طالب رضي الله عنه، يقول في مستهلها:

صرمت حبالك بعد وصلك زينب   والدهر فيه تصرُّم وتقلبُ

فدع الصبا فلقد عداك زمانه   وازهد فعمرك منه ولّى الأطيبُ

ذهب الشباب فما له من عودة   وأتى المشيبُ فأين منه المهربُ

لكن الحاكمَ لم يمكّن الشاعر من إكمال صدر البيت الأول، حين رجّ المكانُ بصوته المدوّي ساخطاً، وآمراً الشاعرَ بالتوقف. ولم يكن ذلك إلاّ للإستهلال الذي لا يتناسبُ مع حاجةِ الحاكم لسماع ما يبهجه بعد شفائه. سكت الحضور وكأن على رؤوسهم الطير، حتى دعا الحاكمُ بشاعرٍ اعتاد على سماعه، فتقدم الشاعرُ منه، وأنشده قصيدة أبي الطيب المتنبي التي قال فيها:

المجد عوفي إذا عوفيت والكرمُ   وزال منك إلى أعدائك الألمُ

هلّت بطلعة الغارات وانكشفت   بك المكارم وانهلت بك الدّيمُ

وراجع الشمس نور كان فارقها   كأنما فقده في جسمها سقمُ

فسعدَ الحاكم لهذا الإستهلال الجميل الراقي، وسرّ له أيما سرور، حتى جعله يكرم منشده، ويتسامح مع سابقه الذي ألجم فاه بإكرامهما بنفس القدر.

وأنظر إلى الإمام، وهو يقرأ عليك في صلاة الفجر سور العذابِ، كسورة الزلزلةِ، في صوت أجشّ، أُحس شخصياً أن عليه أن يقرأ آياتٍ – وكل آيات القرآن كريمة – إلاّ أن قراءة الآيات، التي تحثُّ على العمل، أو طلب الرزقِ، أو تلك التي تحفل بالدعاء أو القصص، بدل آيات العذاب ومشاهدِ يوم القيامة، فالله سبحانه قدّم الرّحمة قبل العذاب.

وانظر إلى ليلة البناءِ، وهي الإستهلال الحميمي الزمني للحياة الزوجية، وتأمّل أثرها في العلاقة بين الزوجين بما يرقى أو يحط فيها من سلوك. وانظر إلى الطفولة، وهي استهلال عمر الإنسانِ، وأثرها عليه حتى ساعة مشيبه.

وانظر إلى المرء وهو يقابلك، واستشعر أي انطباعٍ سيتركه في دخيلتك، تجد أن لحظة المقابلة الأولى هي التي ستتركُ بصماتها الواضحة في العلاقة. ألم يقل الشاعر:

نقّل حياتك حيث شئت من الهوى   ما الحبُّ إلاّ للحبيب الأول

كلمات بسيطة...!

كلماتٌ بسيطةٌ، إنّما مبهرة، متواضعةٌ إنّما غنيّة، صغيرةٌ إنّما ساحرة، هي في القلبِ كالعشبِ الأخضرِ الجميلْ، وفي البيت كالأضواءِ الملوّنةِ الهادئة، وفي الأجواءِ كالأنسامِ اللطيفةِ العليلة، كلماتُ الثّناءْ، كلماتُ الشُّكرِ، كلماتُ التقدير، كلماتُ الصداقةِ الجميلةِ، والرّفقةِ الحميدة، والمعاملةِ الإنسانية.

كيف يمكنُ لرجلٍ يدّعي العلمَ، ويزعمُ أنّه خبير بواطنَ الأمورِ وظواهرها، وعرف الحياة وأحوالها أن يتجرّد لسانه، ويتعالى قلبه عن هذه الكلمات الراقية؟! كيف له وهو يدّعى فهم النّاس ونفسيّاتهم أن يكونَ ذا أسلوبٍ جافٍّ مع زوجتهِ، فيتّخذُ كلماتِ الأمرِ والنّهي، والزّجرِ معها أسلوباً متوحشاً وهي الرّفيقةُ، الرّقيقة، ذات القلبِ الذي يجبرُ كسرهُ الكلامُ المهذّب، الناضحُ بالإنسانيةِ، المخضلُّ بالحب؟! كيف لهذا الرّجل الذي شاءَ أن ينظرَ إلى الكلمات التي تعدُّ وسائطَ راقية للأسلوب العذب المغذّي للعلاقةِ الحميمة بينه وبين زوجته على أنّها كسرٌ للكبرياءِ، وتهشيمٌ لقامةِ الرّجولةِ الشمّاء؟! كيف لم ينظر إليها على أنّها الزهرات الرائعةِ التي تزيّن أسلوبه بألوان المحبّةِ الإنسانية الصّافية؟! كيف لم ينظر إليها على أنّها هي الرّقي والتّحضر والتّقدم؟!

إنَّ إنساناً ينظرُ إلى كلماتِ الشّكرِ والعرفانِ والإحسانِ والتقديرِ وغيرها نظرةَ كبرياءٍ خاويةٍ، إنّما لم يعِ التّحضر، ولم يصل في مدارجِ الرّقيِّ إلى المرتبةِ الإنسانيةِ السّامية، تلك المرتبة التي يصبحُ فيها الإنسانُ سخيَّ العطاءِ لا بمالهِ بل بقلبه، جواد اللّسانِ لا بتملّقهِ إنّما بصدقهِ، صافي السريرةِ لسلامةِ صدره.

وإنني لأمقتُ الرّجلَ الذي يمتدحُ من شاءَ، وأنّى شاءَ بالكلمات الجميلةِ، ثمَّ إذا اجتمع بزوجته لم يقطع لها نصيباً من تلك الكلمات (المبتكرةِ) التي ينثرها على هذه وتلك، وذاك وهذا. والزّوجةُ ليس لها حظٌّ من عطائهِ السّخي، وكرمه

المهدور سوى الزّجر والأمر والنّهي والوعظِ والإرشاد والنّصح والتعليم والتّصغير والتّحقير. وكأنّما هي داخل أسوارِ مدرسةٍ لا تعترفُ إلاّ بالجسدِ ككائنٍ ليس له شعورٌ، ومادةٍ ليس لها إحساس. أيّةُ حياةٍ يرتجيها الرّجلُ إذن من امرأة يصدر أوامره ونواهيه إليها ليل نهار؟ أيّ نفسٍ تنسجمُ معه، أو قلبٍ يهواهُ، أو خفقٍ يسكنُ إليه منه؟

هل عرفَ العلمَ؟ لا لم يعرف كنهه لأنَّ العلم هو الرّقي. هل فقه الدّين؟ لا لم يفقه، بل لم يعرف منه قِيمه، لأنّ الدّين رقيٌّ وسموّ. ماذا عرف إذن، وهو مضطرب في جوهرِهِ، غائبٌ عن صوابه. يقول المتنبي:

وما انتفاعُ أخي الدّنيا بناظرِهِ   إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمْ

إنّ رجلاً لا يستطيعُ أن يخلقُ من المرأةِ (ذات النفسِ الجميلةِ، والحسِّ العذب، والشعور الرّهيف) ملهماً لخيالهِ، وشعورهِ، وموحياً لنفسهِ، هو رجلٌ يبحثُ عن شهوةٍ تثيرُ له حواسه في إنسانةٍ أخرى. رجلٌ عاجزٌ عن فهمِ ما يريد قلبه، مستكينٌ لمبتغى جسده. ثم يدّعي التّحضر والإنسانية والرّقي بعدها.

البيوت التي تختفي منها هذه الكلمات التي أسميتها "الكلمات الساحرة"، ذات مرّة، هي بيوتٌ جافّة، رعناء. العلاقاتُ فيها مبنيّةٌ على الأجسادِ لا القلوب. إنّ رجلاً أو امرأة يتخاطبان بأسلوبٍ راقٍ هما أدعى للمحبةِ والتآلف من آخرين ليس لهما من الأسلوب سوى ذلك الجافُّ، المستأسد. إن قال أحد الزّوجين الأولين: من فضلك، أو لو سمحت أردت الشيء الفلاني. قال الآخران: هات الشيء الفلاني. وشتان بين الأسلوبين!

وما يدهشني قول بعضهم من الرّجال، خاصّة، إن هذه كلمات رسميّة. ولعمري، إنّهم لو سألوا عنها حين يقولونها لآخرياتٍ غير زوجاتهم لقالوا: إنها كلمات تقرّب القلوب، وتشجّع النّفوس، ويا لهذا التناقض!

لقد عنيتُ الرّجل في مقالي هذا أكثر بكثيرٍ مما عنيتُ المرأة، لأنَّ المرأةَ كالبستانِ والرّجل البستانيَّ، فإن بذر زهراً أنبت البستانُ زهراً، وإن زرعه سروا أنبت سروا، فهو البادىء ولا ريب. وما زرعَ يجنيه ويحصده. فكم من امرأة بدأت

راقية الأسلوب، مهذبة المنطقِ فشلت في مراميها مع زوجها. فأيّةُ روضةٍ هذه التي تعلّم زارعها ما يزرع، وتطلبُ منه ما تَنْبتْ؟! لكنَّ الرّجلَ، إن وصل إلى مرتبةِ الوعي بالكلامِ المهذّب الراقي، زرعَ كلماتهُ في أرضٍ جميلةٍ وادعةٍ، تعهدتها المرأةُ وهي باسمةٍ فسقتها ماءَ حبّها، وأنتجا معاً بيتاً ترفُّ عليه ظلال المحبّة، وتتمايلُ فيه غصون الودِّ المتبادل، وأصبحا بحق شريكي رحمةٍ وعاطفةٍ. ولايتحقق ذلك إلا عندما يعى الرّجل معنى الكلمات الساحرة وقيمتها في قلب المرأةِ ويتنازل عن هذا الوهم الذي غرّر به المسمّى بـ"الكبرياءْ"!

الطابور مؤشر حضارة

ما فتئت أردد أن الطابور مؤشر حضارة، الطابور دليل وعي وفكر خلّاقين، وحيثما أجد طابوراً منتظماً يقفز إلى ذهني تصور أن هؤلاء المنتظمين فيه بصبر وأناة هم أناس واعون لديهم حظ من الحكمة والمعرفة وتقدير الآخر. وحيثما أجد فوضى عارمة، تثيرها جملة من البشر أمام مصلحة معينة، فإنني أمتعض أيما امتعاض، تختنق أنفاسي، ولن أسمح لنفسي – وأنا غير مدفوع بضرورة قصوى – بالمشاركة في هذا النشاز اللاطبيعي، فلم أفكر يوماً أن أشارك في غير انتظام لقضاء مصلحة، ولم أتخيل أن أكون جزءاً من أفراد يتسابقون على قضاء مصالحهم دون أن يعتبر واحد منهم الآخر، في صورة غير حضارية، تترك في النفس انطباعاً مؤلماً.

الطابور في الغرب شيء يقدسه البشر، ويحترمونه. فهو دليل وعيهم وحضارتهم، وأي تجاوز عليه يعد، في عرفهم، انتهاكا للإنسانية ونشازا عن فطرتها، ولهذا لن يستغرب الخارج من تناغم المجموعات المنتظمة أن ترميه عيونه بسهام حارقة حتى يتكور بسببها خجلاً مفضوحاً أمام مرأى الجميع في مشهد لا يتمنى أن يحدث له ثانية إن كان حليماً ترده أحلامه. إن وراء الطابور عقولاً ونفوساً ساهمت في عزف هذا التناغم الطبيعي الجميل، فحتى الاشياء الأخرى لا تحرك ساكناً لكي تفسح المجال لموسيقى البشر أن تعزف ما يعتور القلوب من هدأة وحكمة.

إن من أعظم الأشياء التي تعلمتها من هؤلاء الناس احترامهم للطابور وتقديسهم له، ولهذا فقد تحقق لهم بفضل احترام الطابور التقدم في فكرهم العملي، لأن الطابور ليس اصطفافاً جامداً لأجساد بشرية، وإنما هو لبنات متراصة من الفكر، وقلوب منسجمة من التقدير، وعقول متلاحمة من المصلحة، ومبادئ راقية تحتفي بالوقت، الوقت الذي نضيعه نحن في كثير من شؤون حياتنا، حيث

يضيع بلا تخطيط، وحينما يأتي بعضنا لقضاء مصلحة دون تخطيط مسبق يصطدم بحشد من الناس فلا يروقه أن يقف منتظماً حتى وإن سبقه شخص واحد. فإذا به يعبر عن تبرمه وضيقه بإصداره كلمات أو حركات يقصد بها لفت نظر الآخرين إليه، أو أنه يريد التوضيح بأن وقته أهم من أوقاتهم، ولهذا فلن يعدم وسيلة في مضايقة الآخرين والقفز على أكتافهم بعد أن يلكز قلوبهم بتبرمه وضيقه. إن هذه السلوكيات مشينة لا تعبر عن فكر واعٍ، وعن نفس متسامحة، وعن قلب حليم. وانتسابها للمجتمع لا يقدم له خيراً وإنما يسيء إلى صورته، ويضعف الفكرة الحضارية لتقدمه.

أعرف أن الطابور في حد ذاته نتاج وعي وتقدير وتسامح، لكن مجتمعاتنا حتى وإن لم تدرك الكثير من المعرفة فإن لديها حظاً من تعاليم الدين الحنيف الذي أملى واجب تقدير الكبير واحترام الصغير. وإنني لن أنسى، كما قد يذكر الكثيرون، قصة الصحابي الجريح في إحدى المعارك حين طلب الماء وهو في لحظات الموت، فسمع آخر يطلبه فآثره عليه، فمضى الساقي إلى الآخر، فصاح ثالث فآثره الثاني عليه حتى مات الثلاثة جميعهم دون أن يشرب واحد منهم قطرة ماء. أين هذا الدرس العظيم منا؟ أينه من وعينا وفهمنا وإدراكنا في كثير من الحالات الواقعية؟

ولدى مجتمعاتنا أيضاً حظ من الإرث الثقافي عبر التقاليد الموروثة والعادات المستحبة، وفيها ما فيها من الإيثار وتقديم الآخر. ولهذا فقد وجب أن نستقي منها، من منابعها الأصيلة. ووجب التخلق بها حتى نتمكن من أن نصل إلى إدراك قيمة الطابور والالتزام بها حيث نقضي مصالحنا، ومنه سنتعلم قيماً ثمينة سندركها بعد ذلك.

* * *

الطابور ميزة من ميزات التحضر، وصورة من صور التعامل الإنساني الخلاق. فهو في جوهره تقدير للإنسان الآخر كما هو احترام للنفس ذاتها أيضاً. وللأسف الشديد، فإننا لم نعِ بعد تلك القيمة العظيمة في الطابور. وهذا راجع، في نظري،

إلى العامل الأول، وهو عدم وجود برنامج حضاري محدد واضح، الأمر الذي أنتج تشويشاً في الشخصية العربية بشكل عام وجعلها تقتحم حدود الآخرين وبرامجهم. أما العامل الثاني، وهو التعامل الإنساني، فهو كامن في النفس، لكنه كمون سلبي من هذه الناحية، فهناك إحساس لدى من يتعدى على دور غيره في الطابور بأنه يرتكب خطأً إنسانياً. لكنه، من الناحية الثقافية، لا يعير ذلك اهتماماً، لأن الأمر في أصله غير منظم. والهوس في الطابور نراه واضحاً في مقاصف المدارس حين يصبح شراء وجبة خفيفة أو عصير أو غيره دخولا في معركة موت أو حياة! فأين هي المدارس من مقاصفها؟! يلجأ المعلمون، بالطبع، إلى غرف مكيفة يأكلون فيها وجباتهم بكل هدوء ونظام وطلبتهم يتعاركون في المقاصف المدرسية ثم يعودون للفصل ممزقي الثياب ومغبري الوجوه ومخدوشي الأجساد، ليتلقوا العلقة الأخرى من مدرسيهم! والمشكلة، في حقيقتها، ترجع إلى عدم تعليم هؤلاء قيمة الانضباط، الذي يعلم الطالب من صغره احترام حقوق الآخرين وكرامتهم، الأمر الذي ينسحب على الكثير من تصرفاتهم السلبية لاحقاً.

وانظر إلى الكثير من الجهات الخدمية، تجد الناس كالشعر المنفوش لا تعرف منه ضفيرة تمسك بها، ولا تجد شعرة سليمة تتبع جذورها. الكل يريد أن ينجز معاملته على حساب الكل. ولهذا تتعطل المصالح وتتبدد الأوقات وتتشتت الجهود. وانظر إلى هؤلاء الذين يحيطون بماكينات الصرف الآلي لا تعرف وراء من تقف، إن كنت تقدر قيمة الآخرين، وتعرف معنى أن تقف في طابور! وفي إحدى محلات صرف العملة، كان الأجانب الآسيويون يقتحمون الواحد تلو الآخر طابوراً في طور نشأته. فكأن أحد الواقفين واقف لهم بالمرصاد. فلو رأى هؤلاء العاملون تقديسنا للطابور لما تجاوزوه، بل ربما أثر فيهم، كما أثر الطابور في الغرب في عدد ممن درسوا أو عملوا فيه. هناك تجد الطابور في محل للبريد منتظماً، هادئاً يمشي بكل سلاسة ومرونة، تجد المصطفين ممتدين خارج المحل والجليد أو المطر يتساقط فوق مظلاتهم، لكنهم لا يتأذون ولا يتذمرون والحال كذلك في المخابز أو أمام ماكينات الصرف الآلي أو في كل مكان فيه. وأعتقد

أننا يجب أن نبدأ نقاش الأمر لأنه انعكاس لثقافة، ودليل على مفاهيم معينة. للطابور معانٍ كبيرة يجب ألا نستهين بأهميتها أو نقلل منها. فهو برهان أكيد على احترام الآخرين وتقدير لإنسانيتهم. ولتكن البداية من المدارس التي يجب أن تعطي دروساً في الانضباط والسلوكيات والمعاملات والأخلاقيات، دروساً عملية يعي أهميتها المعلم قبل الطالب، والمدير قبل المعلم، ويحفل بها منهج أساسي للتربية والتعليم، مروراً بالمؤسسات الخدمية التي يجب أن تلزم المتعاملين بالتقيد بالطابور لإنجاز أية معاملة. والقصد، هنا، تربية شعور، وتغيير طباع، وتحسين سلوكيات كلها قابلة للتطبيق. وما علينا إلا أن نبدأ.

هذا جناهُ أبي عليّ...!

إلى أين تقودنا أسماء الجيل الجديد؟ ثمة وقفة حتمية على ظاهرة تمسُّ فكر المجتمع وأصالته. فإذا كان الاسم رمزاً لهوية، وإشارةً لمجهول، واستدلالاً إلى كائن، فإن ذلك يجعل من أمر دلالاته مغزى ومعنى، وحينما يكون الإسم هبةً ربانية، "يا زكريا إنا نبشرك بغلامٍ إسمه يحيى"، تكون له أهمية تجعله يحظى بهذه العناية الربانية العظيمة.

وأستغربُ من ذلك السبق الذي تحرزه القرى والأرياف لدينا على المدن في غرابة الأسماء! كيف، وهذه البيئات هي الأولى بالمحافظة على عفوية الأسماء وأصالتها، وهي المحفوفة بالنخيل، المترعة بالسواقي، المشنفة بالأنسام النديّة. والشباب هم الحريصون على انتقاء الأسماء الجميلة وذات الدلالة لأبنائهمْ (أو هكذا يفترض!). لن أذكر هنا بالطبع أية أسماء قد تشير بالبنان إلى أناس بعينهم، إنما أكتفي بالتعليق العام حولها. لقد دهشت حينما سمعت من أحد الشباب أن اسم طفلته "..." كان الاسم ذا أصول يهودية، فقال إن هذا الإسم لأم أحد أنبياء بني إسرائيل! ومن يدري لربما سيسمي إبنه "بنيامين" لأنه أخو سيدنا يوسف، الحجة موجودة! هذا ليس مستغرباً. وكم صعقتني الدهشة والحسرة، في آن، حينما علمت من شابٍ آخر أن اسم ابنه من مسميات الثورة التقنية في العالم الصناعي، وابنه الآخر من مستكشفات علم الفلك! وسألت آخر عن معنى اسم ابنته، فقال لي: لا أعلم. فقد اختارته زوجته. يا للغرابة!

وهناك الكثير من الشباب الذي صدموا وهم يواجهون الحياة بأسماءٍ غريبة أطلقها عليهم آباؤهم، مما سبب لهم من الحرجِ والخجل ما لا يطاق، فمنهم من وقف بشجاعة وثابر إلى تغيير إسمه (والطريق متاح)، ومنهم من استكان لهذه الخطيئة لأسباب متفاوتة، لكن المدهش في الأمر أن الشباب الذين تذمروا

بالأمس مما أطلقه آباؤهم عليهم من أسماء وضيعة، أضرت بشخصياتهم، يفعلون هم الأقسى والأمر بأبنائهم اليوم حينما يسمونهم أسماء شاذة عن سياق الدلالة الدينية أواللغوية أو البيئية أو المعنوية... بدعوى إحراز سبق في جدة الإسم، ويا له من إسم!

لماذا لا يسألون أنفسهم: بماذا سنجيب على أبنائنا لو سألونا عن تفسير دلالة أسمائهم، أو قرعونا عليها؟ وهل الإسم الجديد يعني الشذوذ عن السياق الحضاري لأمتهم ولغتها وثقافتها؟ أم أننا فشلنا في ابتكار أدوات الصناعة، وعوضنا ذلك بلصق منتجاتها على أبنائنا؟ هؤلاء الأبناء قد تقودهم أسماؤهم بحكم دلالاتها إلى فضاءات أو سلوكيات لم ينشؤوا عليها. فالأسماءُ تنقادُ إلى بيئاتها. وإلا كيف يرتاح الواحد منا لآخر يحمل نفس اسمه؟ وقليل من لا يلبس ملبوس قوم لا يقتدي بسلوكياتهم، ونحن نرى أمامنا ما يحدث.

هذه الأسماء التي لا تحمل معنى مبتكراً فيه من الدلالة ما ينفع الشخصيةَ، ولا تستلهم من شخصية (كارزمية) تاريخية أو دينية أو فكرية لها وقعها في التاريخ الإسلامي، وليس لها عراقة ذات خصوصية محلية ذات مغزىً جلي، هذه الأسماء تصيب أصحابها بالعقد النفسية ذات الأثر السيء في النفسْ. وللأسف فإن الآباء هم المتسببون لها، الجانون الحقيقيون. وهذا ما سيجعل الواحد من الأبناء يردد مقولة المعري متحسراً: هذا جناهُ أبي عليّ، وما جنيت على أحد!

ثقافة الرأي

كنا في جلسة ما. كانت الجلسة خليطاً من جيلين، شبان وبعض صبية، حين طرح عاقد الجلسة مسألة وطلب إبداء الرأي فيها. فأدلى كل منا بدلوه في شأنها، كل واحد أبدى وجهة نظره فيها تلاه الآخر متفاوتاً أو متفقاً مع رأيه، وكان عاقد الجلسة هو الذي تولى الإشارة بالبنان لمن حان دوره للإدلاء برأيه، حتى انتهى به الحال إلى ما قبل الصبية فتوقف ليعيد جمع الآراء وتمحيصها، وهنا قاطعته: لماذا لم تستشر أولئك الصبية؟ فأجاب بما معناه أن آراءهم لن تضيف شيئاً للمسألة. لكنني أصررت على سماع رأيهم إذ لم يكونوا أبداً — في ظني — مجرد خيالات! بل بشر لهم الحق في إبداء رأيهم، وفي اعتقادي أن رأياً قد يقوله أحدهم يمكن أن يبز آراءنا نحن الشباب، أو أن يفتح أمامنا سبل التفكير في حل مناسب أو يلفت أنظارنا إلى أمر ما... وهنا أكملت ما كان يقوم به عاقد الجلسة من استشفاف الآراء وتوجهت منادياً أسماءهم واحداً تلو الآخر، حيث سمعنا منهم ما سمعناه من الكبار حول المسألة مما وطد الاعتقاد لدي بأنهم كانوا يدركون ما كنا نتحدث به وأن لديهم من الآراء — على الأقل — ما يشابه أفكارنا وأطروحاتنا حول تلك المسألة المعروضة للرأي. وعلمت من أحدهم بعد ذلك أن عاقد الجلسة بعد أن انتهى دون أن يطلب آراءهم سرت همهمة من أحدهم قائلاً: لماذا لا نقول رأينا نحن؟ لكنها كانت خفية لا تكاد تبين. وتلك الهمهمة ذكرتني بالصبا حيث لم يكن لنا من المشاركة في الرأي أي نصيب، بل كان الصبية من أمثالنا يجمدون في ركن قصي من المجلس وعليهم أن يلتقطوا كل حرف يصدر عن الكبار دون أن يحركوا ساكناً، لأنهم في ما بعد وخارج إطار المجلس سيسألون — إن سئلوا — عن الاستماع وليس عن الرأي. وتلك في اعتقادي ثقافة أصابتنا — وإنني لموقن بأنها أصابتني — بعقدة الكبت في إبداء الرأي، حتى وصلنا في مرحلة من المراحل العمرية التي يطلب فيها رأينا ربما في المدرسة وحول

مسألة من المقرر الدراسي إلى الشعور بالخوف من الخطأ في التعبير عن الرأي، مع يقيننا بأننا نفهم الإجابة أو نحفظها عن ظهر قلب. في تلك الأيام، من طفولتنا، لم نكن نشارك بالرأي والمسائل التي كانت تعرض وإنما كان علينا الإنصات والإنصات وليس سواه. حتى الإجابات المقنعة على أسئلتنا الحيرى إن وجدت لطفاً من سامعها الكبير لم تجد طريقها إلى عقولنا، كنا في نظرهم صبية بعيدين كل البعد عن الإدلاء بأي رأي ولو طلبوا الرأي منا لعلمونا – على الأقل – أن ننخرط في العملية التشاورية منذ نعومة أظفارنا وأن نكون ذوي شخصيات فذة، لا تشعر بالقشعريرة لمجرد أنها تريد البوح عن رأيها. ويؤسفني أن أجد الكثير الكثير من الشبان يمارسون ثقافة الكبت على أراء الصغار، عاملين طوال الوقت بالمثل القائل: "أكبر منك بيوم، أخبر منك بعام!" وكأنما المعرفة تقاس بالعمر! وللأسف لم يحاولوا إصلاح ما عانوا منه هم ذاتهم.

وفي إحدى الحلقات النقاشية التي دعيت لها وكانت ختام برنامج تدريبي استمر لإسبوع بإحدى الولايات حيث كانت تلك الحلقة التي أدرت فيها النقاش آخر الحلقات، حفزت الجميع على المشاركة في الرأي وبدأت أصوات تظهر، وآراء تسمع. قال لي أحدهم بعد الحلقة – وهو مندهش – إنه لأول مرة يسمع فيها أصوات بعض المشاركين في البرنامج طوال ذلك الإسبوع التدريبي. وشعرت بسرور حين نما ظن في خاطري بأنني ساهمت في حل عقدة نفسية لهؤلاء الشباب، عقدة كنت من الذين عانوا منها في فترة طويلة من الطفولة والصبا...!

صور لا تسقطها الذاكرة

الذاكرة ملك الحدث، ثمة ما يصطدم بها عابراً لا يخلف أثراً، وآخر يحفر كالإزميل في الصخر العتيد. الذاكرة سجل مخلد تستوعب الصورة والكلمة والصوت والرائحة. وتبقى هي الرابط المتين بين اللحظات وبين أمشاج العلاقة الإنسانية أو بينها وبين الوجود.

صوت يجيء عبر الزمن البعيد الممتد من زمن الطفولة، حيث الذاكرة الطرية التي لم تثقلها عواهن الدهر، حيث سفوحها الخضراء مشرعة أمام الحلم، حيث امتدادها الجميل يفتح ذراعيه للطل والنسيم والكلمات العفوية الأولى. يأتي صوته بعد أن حركته بضع كلمات تصدرت إهداءً أدبياً من صاحبه إليه... حركته الكلمات. كانت بسيطة ومختصرة، لكن الحنين في الذاكرة يتخفى وراء الطبقة الخفيفة من النسيان، فتكون هبة النسيم الناعمة مؤثراً شعورياً يبعث في الذاكرة سرحات الماضي وتتدفق الصور.

تذكر في اتصاله تلك السنين الخوالي يوم أن كانا يرعيان الصحبة في رابية النداوة الطرية، يوم أن كانا يأتلقان نجمتين يجمعهما ذلك الشعاع المنبثق منهما، حتى مضى ربع قرن. يا للسنين التي لا ترحم في مسيرها! حثيثاً تغادر بالبشر وتدفعهم في بئر الزمن الذي لا قرار له. ثم جاءه صوت آخر كان قد التقى صاحبه لقاءً عابراً ومضى لا يلوي على شيء. لكن صاحب الصوت ظل يبحث عبر أوراق الزمن، حينما تهب أنسام الذكرى، ثمة ما خلد ذلك الموقف في ذهن صاحب الصوت. لم يلتفت إليه ذلك الذي التقى صاحبه ذات صباح ومضى. قال له صاحب الصوت عبر الرابط الهوائي (لم يعد الهواء فراغاً كما يسود في لغة الناس، لقد أصبح الهواء يضج بحياة الناس وذكرياتهم) قال له: لقد مرت علي آلاف الوجوه، وشهدت تقلب صروف الدهر إنما موقف واحد لم أنسه، جعل صورتك لا تغادر

ذاكرتي. صار يحاول من جانبه على الجانب الآخر أن يستكشف بنفسه في ما تحتويه الأغوار البعيدة من مواقف خالدة لكنه تعب من البحث. أوقفته الذاكرة عند حدود معينة. سأل ما الموقف الذي جعلك طوال ما يقارب العشر سنوات لم تنسني بسببه؟ قال صاحب الصوت: لن أنسى أنك دخلت علي، ذات يوم، دون أن أعرفك وسألتك حاجتك، وفاجأتني بجملتك المشهورة: جئت كي أسلم عليك ومضيت. لم أرك بعدها طوال هذه السنين. يقول: وقفت مشدوهاً، ووقفت أنت حتى الآن ماثلاً في ذاكرتي، في محل لم ينافسك فيه آخر.

يا الله! مواقف جميلة لأنها نادرة. هل مشاهد السلام الخالص على البشر أمر يندر حدوثه. ربما. فقليل من يمر عليك الآن ويلقي عليك السلام وهي تحيته. دعك ممن يأتيك قاصداً ليقول لك بصفاء سريرة ودون غرض أو مصلحة مؤجلة أنه جاء للسلام عليك. تأتيك أصوات لم تسمعها منذ زمن بعيد أو قصير، وتحادثها وأنت في نفسك ريبة بأن وراءها غرض معين وتفاجأ إن لم تبح بأمرها، تقول إنها تمهد له. وهذا ليس عيبك فذلك ما انطبعت عليه الذاكرة. مواقف السلام الخالص أضحت نادرة. ولهذا انطبع الموقف في صاحبه.

أصوات تأتينا من الماضي، لأن ثمة شيء يحركها، الذاكرة لا تسقط الأثر المنطبع فيها... وتجعلنا تلك الأصوات على رباط وثيق بماضينا... نعلم من ورائها أن الماضي ليس صفحة طويت، وإنما هي صفحة تنشر في أي وقت وأي حين دون استئذان...!

لِم لا...؟!

لِـم لا يبتـسمُ عنـدنا الموظّـف والموظّفـةُ، والمديرُوالمـديرةُ، والـسائقُ والبـائعُ والبائعـةُ، وموظّـفُ وموظّفـةُ البنـكِ، والمحاسـبُ والمحاسـبةُ، والطّبيـبُ والطبيبـةُ، والمعلّمـةُ والمعلّم، ووو... إلاّ قليلاً؟ هلْ لأن حـرارةَ الجـوِّ لـدينا تطغـى وتكـبسُ علـى حـرارةِ العواطـفِ؟! أم لأنَّ الابتـسامة مكروهـةٌ ومذمومـةٌ، وإن كانـت مـن بـابِ اللّطافةِ واللياقةِ؟ أو لأن التّجهمَ في وجهِ الآخر أمرٌ مطلوبٌ كي يضطرّ الأخير إلى الرجاءِ والالتماس؟ أينَ الابتسامة وهـي "صـدقةٌ في الـدِّينِ" وقـد كُبتـت في مكـانٍ مجهولٍ أو أُخفيت إلى الأبد؟

لم لا نـسمعُ عبـاراتُ التّرحيـب والمباركـةِ وأمنيـاتِ النّهـاراتِ الجميلـةِ، وآمـال الأعمارِ الـسعيدةِ منهم إلاّ نـادراً؟ فإن كـان لـك مـصلحةٌ قلّما يرحِّب بك الطّـرفُ الآخرُ مستهلّاً بعبارةِ ترحيبٍ جميلةٍ تضيء جوانـحَ صـدرك، وتُشعركَ بـأنَّ ثمّةَ مـن يقـدِّر وجـودك ككـائنٍ بـشريٍّ لـه دوره الفاعـلُ أيضاً في الحيـاةِ الاجتماعيـة ولـه إسـهاماتهُ في مجـالاتٍ أخـرى يحتـاجُ إليهـا هـذا الموظّـف الـذي يقـضي لـك الآن مصلحتك.

في مجـالاتٍ كـثيرةٍ رأيـتُ الكـثير مـن النّـاس لـدينا يعلـو جبهـاتهم الـتّجهُّم، وتطغى الشدّةُ والحزم وجوههم، فقلّما رأيتُ بائعاً مبتسماً، أو موظّفاً مرحِّباً، أو عاملاً ملاطفاً، وكأنَّ همـوم الحيـاةِ بأحمالها قـد حطّت علـى رؤوسـهم، والأرضُ ضيّقةٌ عليهم، حتـى شـعرتُ بـأنني أسـتجدي منـهم مـصلحتي الـتي أقـضيها بـأجر. وقلتُ في نفسي سبحان الله، نحمـد الله علـى أن خلقنـا علـى ملّـةِ الإسـلامِ، فلمَـاذا نحـنُ جفـاةٌ في الطِّبـاعِ، قـساةٌ في المـشاعرِ، غلظـاءُ في القـولِ، متزمِّتـون في القـسماتِ؟! أو لـيسَ الإسـلامُ وهـو أسُّ الحـضارةِ قـد لطّـف طبـاعُ العربـيِّ، وهـذّب أخلاقه، ورقّقَ قلبهُ بعد أن كـان يوئد أُنثاهُ وهي حيّة؟!

لِماذا لا تسمعُ عباراتُ "السلام عليكم" و"صباحُ الخير" أو "مساءُ الخير" أو غير ذلك من العبارات الإنسانية التي تسري في الخاطر سريان الماءِ البارِدِ في الأوردةِ العطشى؟ دخلتُ ذات مرَّةٍ على أحد المهندسينَ لحلِّ مشكلةٍ ما. وحينَ رأيتُه أيقنتُ من منظرِهِ أن مشكلتي قد تعقَّدت، وكأنَّه قد ظفرَ مني بما يمسكني من اليد التي تؤلمني كما يقال، وكان مظهرُ (الالتزام) متنافراً فيه عما يجبَ أن يكون عليه من السّماحةِ واللّطافةِ والتّرحيب.

فلم ينهضَ من كرسيِّه حين مددتُ إليهِ يدي مصافحاً، وكان متجهِّماً، وكأن الإسلامَ قد فرضَ على المسلمِ أن يكونَ متزمِّتاً في قسماتهِ، غليظاً في أحاديثه، حادّاً في نبراتهِ. فأين ذلك من قولهِ تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران/159.

إن بعض العاملين في مختلف المهنِ لدينا قد وضعوا الشمع الأحمرَ حجراً على العبارةِ الرقيقة والابتسامة اللّطيفةِ وكأنّها محرّمةٌ عليهم. فتجدُ نفسكَ، وأنت تقضي مصلحةً ما، أنّك تُدفعُ دفعاً، حتى أنَّ أحد الأصدقاءِ، وقد خرجَ من إحدى دورِ المصالحِ، أقسمَ باللّه أن لا يمضي قُدماً في قضاءِ تلك المصلحةِ كنتيجةٍ للإحباطِ النّفسيِّ الذي آل إليه.

إنَّ أخلاقيات التعامل مع الناسِ، كبشرٍ لهم مشاعر، هي أهمُّ من التّعاملِ معهم كزبائنَ أو مراجعينِ أو مرضى أو أصحابُ مصلحة. ويا للمفارقةِ، فهذه الأخلاقياتُ موجودةٌ في الغربِ ومنتشرةٌ في حين أنها – ونحنُ الأحرى بوجودها – نادرةُ الوجود، فلِمِ لا؟ إن تعليم الموظّف والموظفة والطبيب والطبيبة والمهندس والمهندسةِ والبائعِ والبائعةِ وسائق الأجرةِ وغيرهم وغيرهم الابتسامة في وجهِ الآخر صاحبِ المصلحةِ، وإطلاق عبارات الترحيب المهذبةِ إليه، والتلطفِ معه، أولى من (الشطّارةِ) في إنجازِ معاملتهِ أو تشخيصِ علّتهِ أو قضاءِ مصلحته بتجهُّم وعبوسٍ واكفهرار. فلِماذا لا نرى هذه الإشراقات على وجوه هؤلاءِ في مجتمعاتنا إلاّ نادراً، وديننا الحنيفُ دينُ اللّطافةِ والسماحةِ والرّقةِ والعطفِ؟ لمِ لا يكون أو

تكونُ كمن قال الشاعرُ العربيُّ فيه:

إن جئتــــــهُ لرأيتـــــــهُ مـــــــتهلّلاً   كأنّــك تُعطيــهِ الــذي أنــتَ ســـائلهُ

كثيراً ما أُقارنُ بين الموظّفة التي تقفُ على (نضد البيعِ) في الغربِ وعندنا. الأولى، تبتسمُ في وجهك وترحِّبُ بك وتسألك إن كنتَ بحاجةٍ لمن يساعدك على تكييس أغراضك. أما الثانيةُ، فلا تلفظ كلمةَ ترحيبٍ واحدةٍ بل – وفي أكثرِ الأحيانِ – تمزحُ مع زملائها أو زميلاتها في العملِ دون اكتراثٍ بوجودك إلى أن تلتفت إليك ولا تكادُ تنظرُ فتقذف في وجهك السعرَ. فلمَاذا لا يجعلُ كلَّ موظّفٍ وموظّفةِ الابتسامة شعارهُما، والترحيبَ استهلالهُما، واللّطافةَ سمتهُما، والبشاشةَ خصلتهُما، والإعتناءَ بالطرفِ الآخرِ على رأسِ أولويتهما؟! لِم لا؟ وكيفُ يكونُ المسلمُ مسلماً، إن لم يرقَّ طبعُهُ، ويتهذّب خُلُقُه، ويلطُف جانبهُ، ويتّسعَ صدرُهُ، ويتهلّل وجهُهُ، ويُكرمَ سائلهُ، ويتواضع جانبُه؟!

المتنطّعون

لا تجتمعُ المعرفةُ والتنطُّع في قلبٍ واحدْ. فالمعرفةُ رديفةُ التواضعُ، والتواضعُ حُليُّ المعرفةِ، أمّا التنطُّع فشتان بينهُ والمعرفةِ، فهو رديفُ الكبرياءْ، والكبرياءُ عدوُّ المعرفة.

إن العلمَ، إن شابهُ التنطُّع وهو الزّعمُ بإمتلاك ناصيةِ المعرفةِ، والشعورُ بالفوقية، والنّظرِ إلى الآخرين نظرة إشفاقٍ لجهلهم ما يعلم، فإنَّ العلم حينها يكونُ وبالاً على صاحبهِ، ونكالاً على غيره. يقول عمر بن عبدالعزيز: لايزال المرءُ يتعلم ويتعلم، فإذا ظنَّ أنّه قد علم فقد جهل. أي ارتكسَ في الجهلِ لتأكيدهِ العلم.

لقد استفزّني هؤلاءِ المتنطِّعون، الذين تشعُّ أعينهم بالزّهو لمعرفةٍ بسيطةٍ حازوها فظنّوا أنّها كلَّ ما احتواهُ إناءُ الوجود، وسلسلته ينابيعُ المعرفهْ. يقابلك أحدهم بالمعايبِ قبل المناقبِ في الأمرِ قائلاً لك في استهلالٍ غير حميد أنَّ الأمرَ تنقصهُ النواقصَ، وتعيبه المعايب. يقول ذلك دون أن يذكر المحاسن والشمائل التي تضمّنها الأمر نفسه، قاصداً من وراءِ ذلك بيانِ غزارةِ علمهِ، ورجاحةَ رأيهِ، وصوابَ حنكتهِ، ودقّةَ نقدهِ، وما ذلك في الحقيقةِ إلاّ الجهلَ، لأنّ العلم لا يخالطهُ الزّهو والغرور. من هؤلاءِ من إذا سألُته عن أمرٍ تشدّق بالإجابةِ عنه وإن كان يجهله. يقول إليستر ثورو: كيف لنا أن نعترف بجهلنا الذي يحتاجُ إليه نموِّنا حين نستخدم معرفتنا طول الوقت؟ ويقولُ أحدهم: — وقد زهى بعلمه — هاتوا لي فلاناً إن جاء زائراً على الفورِ فلديَّ الكثير مما أعارضه أفكاره التي ضمّنها كتابهُ. وكأنّه قد جهز سهامَ نقدهِ اللاذع، وشحذ أطراف لسانهِ القاطع. والعلمُ، لو علم هذا المتنطِّع، ليس الزهوَّ وإنّما التواضع، الذي يفرضُ على الإنسانِ خفض الجناحِ لا إطالةَ اللِّسان.

إنّ إبداءَ الرأي، وأدبياتِ الحوارِ، ومخالفة الآراءِ أمرٌ لا شكّ في أهميّتهِ، لكن أن لا يصدرَ من نفسٍ تشعرُ بالفوقيِّةِ والتعالي على الآخر لأنّها امتلكت شيئاً من العلم تظنُّ أنه فوق ما امتلك الآخرون، إنّما النفسيَّةُ المتواضعة كنفسيّةِ سيدنا موسى عليه السلام وهو يطلبُ من الخضرِ عليه السلام إتّباعه قائلاً: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ الكهف/66. ومنهجُ الأدبِ والتقدير ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾ الكهف/76.

نصحتنا بروفيسورة إنجليزيَّة، أنّه حين يعرضُ الواحدُ منّا فكرهُ في مؤتمرٍ ما، عليه أن لا يضيّع وقته في نقدِ أفكارِ المجتهدين السابقين أو مذاهبَ أخرى، بل يعرضُ فكره قائلاً: إنّها وجهةُ نظرٍ أخرى للنظرِ إلى الموضوع لأنه إذا نهجَ المنهج الأول، انبرى له متعصّبٌ للرأي المعارض بين الحضورِ فأدخلهُ في متاهاتٍ هو في غنىً عنها. والفكرةُ من هذا أن المرء يجبُ أن يؤمنَ بأنّ له فكرهُ وأنّ للآخرين أفكارهم أيضاً، ولا يعني اختلاف أفكارهم أنّهم لا يفقهون شيئاً.

إن اعتراف الإنسانِ بجهلهِ فضيلة، ففي الفقه والفتوى قاعدةٌ تقول: "من قال لا فقد أفتى." لكن بعض البشرِ، إن كانت لديهم محاولات في أدبٍ من الآدابِ أو علمٍ من العلوم، فإن عيونهم تزدادُ صرامةً، وقسماتهم تزدادُ حدّة، وشفاههم يرينُ عليها السخريةَ والإستهزاءَ حين يتحدَّث متحدِّثُ في مجال اهتمامهم، حتى أنَّ الغرَّ، حديثُ التجاربِ، ليشعرَ بالتوتّر وهو يرى أن وجوهاً تحاصرهُ وكأنَّ لسان حالها يقولُ مقولة أبو العلاء المعري:

إنـــي وإن كنـــتُ الأخـــيرَ زمانـــهُ لآتٍ بمـــا لم تـــستطعهُ الأوائـــلُ

إن لدى بعض متنطّعي المعرفة عبارات مغلّفة لكنّها مسمومة. تشفُّ أسنانهم عن بياضٍ، لكنَّ ذلك لا يعبّرُ عن معنى صفاءِ النّفس، فيدسُّون العبارات الحارقة في الآذان على هيئةِ نكتةٍ هازئةٍ محمومة. لقد رأيتُ بعضهم ممن غرّته معرفته ثقيل النّفس، وقد كنت أعهده خفيفها، ثقلت عليه المعرفة فثقل بها دمه، وكنتُ أعهده ليّنَ الطبعِ، رقيقَ الإحساسِ، عفويَّ الأسلوب، تغيّر كل ذلك لأنّه الآن

يعرفُ شيئًا حسبهُ كلّ شيء حتى إن رآى صاحبهُ بادرهُ بإظهارِ معرفتهِ، وإبرازِ علمهِ، وتفوّق فكرهِ. أحببتُ، ذات مرّةٍ، أن أشارك أحد هؤلاءِ في قراءةٍ مقال لي، فردَّ عليَّ بإرسالِ مقالةٍ له بحجَّةِ أن مقالهُ هو الأقوى والأكثر تعبيراً عن الفكرةِ المقصودة. فرددت عليه بالقول أن القوةَ والضعف أمران نسبيّان، يختلفان بين منطق هذا وذاك، فما يراه هذا قوةً، يراهُ آخر ضعفاً والعكس صحيح. وهذا ما تقاسُ عليه مقولة الشافعي: "رأيي صوابٌ يحتملُ الخطأ، ورأي غيري خطأٌ يحتملُ الصواب."

جاء في السِّير أنّ الخليل بن أحمد سُئل عن إبن المقفّع بعد أن اجتمع به: كيف رأيته ؟ فقال: لسانه أرجح من عقله. وسئل إبن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: عقله أرجح من لسانه. فعاش الخليل كريماً مصاناً، وقتل ابن المقفع شر قتلةً.

المتنطّعون أعداءُ المعرفةِ، وجهّالُ الحكمةِ. فالمرءُ الحكيم كلّما ازداد علمه، ازداد تواضعهُ، ورقَّ جانبه. يقول الشاعر:

قل للذي يدّعي في العلمِ معرفةً علمت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

فخيرٌ للمرءِ أن يُظهرَ الجهل كي يتعلّم، وأن لا يهرف بما لا يعرف، وخير له أن ينبذ التنطُّع كي يزداد رفعةً وقدراً في العلم، وفي ذلك يكمنُ سرَّ الكرامةِ، والتواضعِ والسعادة.

أسئلة ملحّة

لا يمكنُ أن يمضي الإنسانُ دون أن يعرف أين يتجه. ولا يمكنُ له أن يقرِّر أمراً دون أن يتصوَّر عاقبته. ولا يمكنُ له أن يختارَ شيئاً دون أن يُدركَ منفعته. هذه بديهيّات يدركها كل ذي عقلٍ، ويعيها كل ذي بصيرةٍ. إنّما هنالك أسئلةٌ أكبرُ منها تحدِّد إجاباتها الإتجاهَ والقرارَ والإختيار. هذه الأسئلةُ مصيريَّة قلّما يلتفتُ إليها الإنسانُ في لهاثِهِ اليومي وانغماسه الحياتيِّ في أمورٍ يجدُ نفسهُ منجرفاً نحوها لأنَّ التيّار يسوقه في مساقها، بل يظنُّ أن لا مفرَّ من السيرِ فيها والإستسلام لها.

السؤال الأهمُّ، هنا، هو: لِمَاذا خُلقتُ؟ وتتفرعُ الأسئلةُ الأخرى تفرّع الأغصانِ من جذع الشجرة. ما العبرةُ في الحياة؟ ما هي حكمةُ العيش؟ ما الذي يتوجّبُ عليَّ فعله؟ في أيّ اتجاهٍ أسير كي أضمنَ لنفسي نهايةً موفقة؟ كيف يمكنُ لي أن أرتب وقتي، وأوزعه؟ ما هو السلوك المناسب الذي عليَّ اتباعه؟ ما الذي يحدثُ إن سلكتُ هذا المسلك أو ذاك؟ وتتوالى الأسئلة، ويزداد اليقين، ويتهذب السلوك.

يشعر الإنسانَ، وهو يتأمّلُ في العمرِ، بقشعريرةٍ تسري في بدنهِ، وبهلعٍ ينتاب نفسهِ. فعمره الحقيقيُّ (العملّي) قصيرٌ جداً. عمرهُ، عمليّاً، هو ما بعد الرّشدِ، بل عمره يبدأ منذ مرحلةِ الشباب، التي يكون قد بدأ العملَ الحياتيَّ فيها وبدأ يتبنّى خطَّه في الحياةِ، ومسلكهُ في المعاشِ بنوعٍ من الاستقلاليّة، وهو ينتهي عمليّا في مرحلةِ الشيخوخةِ الخَرِفةِ بعد أن (ينكّس في الخلق). فإذا طَرح ساعاتِ نومه بين الشباب والشيخوخةِ فقد طرحَ ثلثَ عمره. وإذا طرحَ ساعات لهوهِ وانشغالهِ بالهامشيَّات واللّذائذِ، فربّما طرح نصف عمره الآخرَ. ولربما يكونُ عمرهُ العمليُّ الحقيقي المثمرُ في الحياةِ بين خمسةَ عشر عاماً إلى عشرين عاماً. هذه حساباتٌ شخصيَّة، لكنَ أليست الحقيقةُ قريبةٌ إليها؟ النتيجةُ في كلِّ الأحوالِ مروّعة مذهلةٌ صادمة.

إن الإنقاذ (السريع) للنفسِ، والوعي بأن الوقتَ هو ليس في الإسترخاءِ البليدِ، والمتعِ الشاغلةِ الملهيةِ، بل في تحقيقِ النافعِ من الشؤون الإنسانيّة، من علومٍ مختلفةٍ تقدّم للبشريّة خدماتٍ تحقق بها لنفسها مصيراً جميلاً. إن من الباحثين، في الغرب تحديداً، من قضى عمره العملي كلَّه أو جلّه في معملٍ أو مختبرٍ، لكنّه عاشَ مخلّداً في ما بعد، والأمثلةُ لهؤلاء لا تعدُّ ولا تحصى.

إذن، من لا يخطّط لنفسهِ تخطيطاً عمليّاً يضعُ فيه حسابات الدنيا والآخرةِ، فلن يحقق المصيرَ السليم الذي يتمناه المسلمُ الحقّ. ولو وضع معادلة (اعمل لدنياك كأنك تعيشُ أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)، لو وضعها موضع التطبيق العمليِّ الرشيد الواعي، لاستطاع أن يحقق السعادة في الدّارين.

لكن ثمة أناسٌ شغلتهم الدنيا فأهملوا الآخرة، ونسوا حكمتها، وعبرة معاشها، ولم يلتفتوا إلا إلى ساعات يقضونها في المقاهي دون نفع، أو أعمارٍ مهدورةٍ في أمكنةٍ ظلاميّةٍ تتراكمُ فيها ذنوبهم. وهكذا تمضي أعمارهم حتى تفاجئهم الحقيقةُ المرّة، حقيقةُ الموت!

العلم والسلوك

ما نفعُ العلمِ إن لم يهذِّب السلوك؟ وما نفعه إن لم يضف إلى الإنسانِ خُلقاً وأدباً، أو مهارةً ومعرفةً؟ ما نفعهُ إن ظلَّ الإنسانُ لا يبارحُ مكانه في التفكيرِ، والتدبير؟ إذن، فالعلمُ والمنفعةُ قرينانِ لا يفترقان. وإن افترقا، فإن ذلك يشبه انفصال عنصري الماءِ، فلا يعودُ ذا منفعةٍ للارتواءِ ولا لذّةٍ للاشتهاء.

إنك لتجدُ بعض النّاسِ يقولون إنّهم تعلّموا بحسب ما تدلُّ عليه شهاداتهم (والشهاداتُ في هذا العصر مقياسُ العلمِ!). فلا تجدُ تغيُّراً في سلوكهم، الذي عرفتهم به سابقاً، ولا تبدّلاً في أفكارهم، التي شهدتهم عليها، ولا تحوُّلاً في أسلوبِ معاشهم، ونظرتهم إلى الحياةِ وإلى النّاس، بل ربّما وجدتهم وقد غرّرت بهم ألقابهم العلميّةِ أو ماحصلوا عليه من الشّهادات. وهو ما كان يجب أن يُحدث العكس، فكلّما ازداد المرءُ علماً ازداد تواضعاً. فهو يقتربُ من المعرفةِ والمعرفةُ هي هِبةُ الله، والله يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ فاطر/28..

فما جدوى أن يحصلَ المرءُ على شهادةٍ لا تضيفُ إليه شيئاً يبينُ على سلوكه إيجاباً، وعلى خُلقهِ تهذيباً، وعلى مهارته نفعاً، وعلى أفكاره حداثةً وابتكاراً؟ وما هو العلمُ في نظره، وما هي المعرفةُ في رأيه؟

في الصيف الماضي، قالت لي إحدى الغربيات، وهي مديرةُ أحد مكاتبَ وساطةٍ للدراسةِ في الخارج، إن معظم من يأتيها من الشّباب يصرِّحون لها بأنّهم يريدون الشهادةَ فحسب. تقول، إنني لأودُّ حينئذٍ أن أنهي معاملتي مع هؤلاءِ. وإذا كانت امرأة غربيةٌ تتذمر من هذه المقولةُ، فكيف بالمواطنِ الذي يملك معهداً، أو كليّةً أو جامعةً، أليس هو الحريُّ بالغيرةِ والتّذمُّر والإمتعاض؟

العالمُ يقومُ، اليومَ، على المعرفةِ، وتنافس الأمم يقوم على رأس المال البشري صاحب المعرفة المكينة. ولئن كانت الشهادةُ مقياساً عصريّاً للعلمِ، فإنّها لن تجدي نفعاً في الواقعِ إن لم تصاحبها معرفةً تترجمُ ما درسه صاحب الشهادةِ وما وعاه حتى نال به وساماً علميّاً يتوّج معرفته به.

وإذا كنّا سنظلُّ مستهلكين، سلبيين، حتى في تقديم العلم والحصولِ عليه، فإننا لن نتقدمَ فكريّاً ولن نساهمَ، بالتالي، في دفع أوطاننا نحو الحداثةِ والتطوير.

إذن ما يجبُ أن يحدث هو عمليّتانِ أساسيّتان في حياةِ الإنسانِ، أولاهما: بناءُ قاعدةٍ خُلقيةٍ فيه أساسها أن العلمَ سلوكٌ إيجابيٌّ تؤسّسه المعرفةُ الإيجابية ويسعى إلى إحداث تطوُّرٍ إيجابي. ثانيهما: أن تلقّي هذا العلمِ، بهذا الفهم، يجب أن يتمَّ وفق طُرقٍ معروفةٍ، صادقةُ النوايا، بيّنةُ الأهدافِ، مضمونةُ النتائجْ. وهذه العمليةُ الأخيرة تساعدُ عليها مؤسسات العلم كالكليّات والجامعات المحليّة أكثرُ من الجامعات الخارجيّة. فإذا كانت الأهداف التجاريّة هي ما يسوق جامعات خارجيّة خاصّة، فإن المؤسسات المحليّة ،وإن كانت خاصةً لأصحاب الأسهم، لكن ما يجب أن يؤسسها ويميّزها هو العامل الوطني الذي لا ينازعهُ منازعٌ في الولاءِ أولاً إلى مصلحةِ الوطنِ الذي يوجب الحرص على تقديم علومٍ نافعةٍ بطرقٍ لا تنظرُ إلى المآربِ التجارية أكثر من نظرتها إلى المعرفةِ الناجعةِ وإلى وسائلِ تقديمها وضمانِ أن يستقي الطالبِ المثابر تلك المعرفة ويتزود بها.

التجديد في الفكر

كثيراً ما نحتاج إلى مراجعات في مجالات مختلفة، انطلاقاً من مقولة جميلة لعبدالله العلايلي هي: " ليس محافظة، التقليد مع الخطأ. وليس خروجاً، التصحيح الذي يحقق المعرفة." ليس في مواجهة التحديات يحدث ذلك، بل قبل كل شيء في تحديث الفكر، وتجديد النظرة، وتمكين النفوس من فهم ما اصطلح عليه الخلف وورثوه للسلف.

فالتجديد فكر مستنير يدل على وجود الحياة النابضة، والتقليد أو التقيد بما ورث دون تمحيص أو مراجعة بما يحتويه من شوائب، أو ما لا يصلح لزمن آخر، أو ما انتهت صلاحياته، دليل على موات النفس، ودليل على الرضوخ لنتاج آخرين. وكم لي من دعوة إلى أن نجدد، ونعيد قراءة التاريخ، ليس من أجل محاسبة التاريخ ذاته، بل لأجل صنع تاريخ جديد، نزيه مما علق به من شائبة أخلت في جانب من جوانبه، أو ساهمت في التشكيك بمصداقية مبدأ من مبادئه.

واستأنست كثيراً حينما وجدت من حوت زوادة أسفاره العلمية مبضع الجرأة، الجرة في النظرة نحو جانب أساسي من جوانب شخصياتنا التاريخية، في منحى من مناحيها العظيمة، وكان لقائي به مثيراً، رائعاً، كان النقاش مسهباً ولم تكن لنا مندوحة في الحديث عن الشؤون الشخصية، ولعل ذلك بسبب ما التقينا عليه من ضرورة إعادة النظر في الكثير من المسلمات التي يعد النظر فيها (فرائض) أساسية في أمور تطبيق العقيدة، غير شارح لك أن العقيدة هي مورد المجتمع الإنساني الفاضل، ولعلني أحسب أن لقاء كهذا كان تاريخياً، ووجدت أن صفة التاريخية جديرة به لأن الظروف لم تسنح لي بلقاء كهذا من قبل.

وكم من دارس في الفكر، في الفقه، في المجتمع، لكن من ينتج الحديث، من يبتكر التجديد، من يمحص المسلم به فيها، قليلون منهم. هل نسميها فطانة أو ذكاء، أو نسمي أولئك المولين ظهورهم لهكذا فعل خلاق مسالمون؟

إن فكراً مجدداً يعيد قراءة ما هو موجود، ويبحث عما انطمس من الفكر الذي يقوم عليه تاريخ الأمة ويبني عليه اجتهاداته لهو المطلوب لشريحة مستنيرة تريد من العلم أن يفتح مذاهب جديدة للتفكير، ولا يصبح سراجا معلقاً فوق عمود، كما تبدو الشهادة العلمية في إطارها الخشبية وراء الزجاج فاغرة الفاه!

وليس تشكيكاً، وليس تمرداً أن يتجدد الفكر، ليس خراباً أن يفكك المتعلمون ما اصطلح عليه على أنه متكامل البنية وهو من الأمور التي يمكن للمرء أن يتدخل في تشكيل اصطلاحها، وتعيين هيئتها، وتحديد فكرة عملها، بل الخراب أن تقف العقول عند نقطة لا تتجاوزها، تلك النقطة التي انتهى عندها السلف، لم يضيفوا لها شيئاً يذكر وتركوها كما هي خوفاً من أن يشكك أحد في نزاهتهم، أو ان يرميهم بالتمرد على التاريخ والمعتقد.

فالإصلاح هو أن يعمل التفكير مبضعه ليمحص في الفكر غير المنزل وغير الموحى، الفكر الذي يمكن تداوله لأنه إنتاج بشر. وهذا في ظني ما يدفع الأمة إلى ساحات فسيحة من التقدم والازدهار، بعيداً عن التحجر والتصلب.

إدراك الحكمة

ما يحدثُ من عوارضِ المحنِ آياتٌ قد تكون لها دلالات أبعدُ من حصرها في إطار التقلبات والدورات الزّمنية. والإنسانُ الحصيفُ هو ذلك الذي يتأمّل في ما يمرُّ عليه من ظروفٍ، أو يواجهه من مواقف فيربطها بوعي عميق بمسلكهِ في الحياة.

إنَّ ما يحدثُ للإنسانِ، في أحيان كثيرة، وإن لم يكن دائماً، لهو إشارةٌ ما تحملُ في طيّاتها رسالةً لا يمكنُ سوى للمنصتِ إلى عقله أن يقرأها. هذا "العاقلُ" وحده من يستطيع أن يقرأ الحدثِ ويربطه بمسلكٍ ما في الفعل أو التفكير أو القول.

وكم يمر على الإنسانِ من ابتلاءاتٍ يُقصد من ورائها اختباره، كما يقصدُ منها تنبيهه فهي ذات مضمونين: البلاءُ والتنبيه. وكلاهما إشارتان تقصدانِ العقلَ. البلاء ليس خاوٍ من الجوهرِ كفعلٍ عارضٍ ليس له دلالة، وإنّما في صميمه رسالةٌ ما لا يعيها سوى المرءُ الذي أحسنَ إلى نفسه ورآها بمنظار الرويّةِ والحكمةِ، فعقل أمرها، وتدبّر حالها وأيقن أن وراء ما حدثَ إشارةٌ ما وأن عليه أن يوجّه بوصلةُ حياته نحو اتجّاه آخر أو أن يكرّسه في ذات الاتّجاه إن كان موقناً بصوابه.

إنّما يخرجُ بعض البشرِ من الإبتلاء دون أن يترك أثراً في أنفسهم، أثراً من التفكّر والتغيير. يعودون لحياتهم الأولى أو يزيدون. بل يسوّغون لأنفسهم أنّ ما حدثَ إنّما هو عارضٌ عابرٌ لا يتعدّى كونه "تغيُّراً في المناخ" وهي سنّة الطبيعةِ – كما يزعمون...!

إنني لأرثي حال هؤلاءِ، وأجدُ أنّهم يتّبعون المظهرَ ويرمون الجوهر. فكيف يمكنُ تفسير حال من مرّت عليه محنةٌ، فأصابته وجلاً ورعباً، ورأى أنّ خاتمةَ

أمره ستكونُ فيها ، ثم إذا انجلت عنه الكربْ، وانكُشفت عنه الملمّة عاد يتفكّه أو يتندّر بما حدث. إنّ أمر هؤلاء الناس ليدعو، بحد ذاته، إلى العِبرة. يقول تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ النحل الآيات من 53- 55..

والكلامُ ينسحبُ إذن على من أنعمَ الله عليه، فيجحدُ صاحبها، حين يقول مقولة صاحب الجنّة، "ودخل جنّته وهو ظالمٌ لنفسهِ، قال ما أظنُّ أن تبيد هذه أبداً، وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً" الكهف، آيات35- 36. والنِّعم ليست بالضرورة ماديّة كالمال أو بشريّة كالبنون إنّما أيضاً معنويّة كالأمان والطمأنينة، ولهذا لا ينتظرُ الإنسانُ الحكيم المحنةَ أو البلاءَ حتى يجأر إلى الله متضرّعاً وإنّما يظلُّ مردّداً مقولة النبي سليمان: "ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمل صالحاً."

إن الحكمةُ تقضي أن ينظر الإنسانُ إلى الإشارات الخفيّةِ من وراءِ كلِّ حدثٍ يقع، فيفسِّره تفسيراً فيه من الدلالات ما ينتفعُ به لحياتهِ. إن امرءاً لا تنفكُّ المحنُ تمرُّ عليه تباعاً وهو لا يوليها اهتماماً لترديه العواقبُ الوخيمةُ في مهاوٍ ليس لها قرار. لا يدركُ هؤلاء الحكمةَ إلاّ كما أدركها فرعون حين غرق، وهي قشّةٌ للنجاةِ، لا حكمةُ متاب.

وآخرَ يعتبر من حادثةٍ مرّت عليه فيتدارك الأمر، ويسرع إلى لملمةِ شتاته في كليّةٍ واحدة يوجّهها نحو صلاح أمره لهو صاحبُ الحكمة. إنّما قلّة هم أولو البصيرةِ. ولهذا هم "ثلّةً من الآخرين"...!

تحوير الحقائق...!

النزوع إلى فكرة راسخة في الدماغ، والتحيُّز إليها، قد يدفع أصحابها إلى وصل ما لا يتصل بها، وربط مالا يرتبط، ثم يعملون على تحويرها بالشكل الذي يرونه مناسباً إلى فكرة مسطّحة في أذهانهم.

أقولُ هذا وأنا أستذكرُ مشهدَ عاقدِ القران (المأذون). هو يدّعي أن سبب عزوف الشباب في مجتمعاتنا عن الزواجِ هو تقليدهم للغرب. ليتني أعرف من أين استقى هذا وغيره هذه النتيجة التي صاغوها في خطب عصماء، في حين أن معظم الشباب يحدقون في صاحبهم الذي وفِّق في الزواج. وهذا الأخير وإن بدا في أكمل زينته، وأزهى بهاءه، إلا أنه في كثير من الأحيان مثخن بجروح القرض (البنكي) الذي أوصله إلى الجلوس أمام عاقد القران في نهاية الأمر بعد خبطات نفسية، وتشنجات عصبية، لكنه وصل – لاهثاً – في نهاية الأمر. وبالطبع، يضرب المأذون به المثل أمام أقرانه. ويراه حفيّا بالرجولة حين أكمل دينه. ولم يكن ليكمله في الحقيقة سوى بالإقتراض في معظمِ الحالات. في حين أن المأذون يرفع عقيرته متهماً الشباب بتقليدهم للحضارة الغربية في عزوفهم عن الزواج، (وددت لو هؤلاء كانوا يستندون إلى العلم وهو ما جعله الله سلطاناً !) بل أنني سمعت أحدهم يحوِّر في مصطلح الحضارة معالجاً إياه (بتصرُّفٍ كلاميٍّ حاذق) حتى ليحوِّله من "الحضارة الغربية" إلى "الحضيرة الغربية!" ولا أكتم سراً إن قلتُ إنني أحسست حينها بالغيظ والتَّذمر لما في هذا التحوير من إنكار للفضل مذموم، ولما يتوجبه الحقُّ من ذكر المحامد في حال وجودها، فالاعتراف بحسنات الآخرين منهج قرآني، يقول تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ آل عمران/113. ولعل أغلب، إن لم يكن جميع، ما حوله من أدواتٍ هي من صنع هذه التي أطلق عليها (حضيرة)، من هاتفه النَّقال إلى مكبِّر الصوت الذي يمسكه بيده. فيا لغرابةِ التوبيخ! ويا لنكران الجميل! ويا لتشويه الحقائق!

إن مسحاً طفيفاً يمكن إجراءه على عينة من الشباب – وقد فعلت ذلك بعد إحدى المناسبات المذكورة- يوضح للمرء أن فقدان الإمكانات المؤهلة تلك التي وردت في الحديث الشريف بلفظ (الباءة) هو السبب المباشر وراء عدم القدرة على الزواج وليس العزوف عنه، وشتان بين الأمرين! فكيف تأتّى لهؤلاء أن يتقولوا بغير ما هو مستتنتج من واقع؟ أليس في هذا التواء والتفاف على الحقيقة؟ الظروف المعيشية للشاب، عدم استقراره اجتماعيا، تكاليف الزواج الباهظة، فرص العمل القليلة... هي ظروف مباشرة وبديهية، إلا إذا كان هذا الخطيب (اللّسن) وأمثاله يريدون أن ينزعوا ما علق بنا من عيوب فيلقونها في ما أسماه (الحضيرة الغربية). هذه الخطابات المخدرة هي التي أوجدت فكراً مشوشاً عن الآخر. وليت من يلقي في مسامع هؤلاء المكلفين بنصح الناس النصائح أن يرحموا فكر الخلق من الخبطات العشوائية إن لم تكن مربوطة ربطاً محكماً بالعلم. قال أعرابي للنبي ﷺ بعد أن ترجَّل عن ناقته: هل أتركها وأتوكل يا رسول الله، فرد عليه ﷺ بل: اعقلها وتوكل!

النظرةُ نحو الأعمار

في مجتمعاتنا نظرةٌ عجيبةٌ نحو الأعمارِ، ورؤيةٌ غريبةُ أطوارِ تناقضها فيها مجتمعات غربيَّةٌ لا تقيسُ الإنسانَ بعمرهِ، إنّما بقدرتهِ على البذلِ والعطاءْ. في مجتمعاتنا (يشيّبُ) الناسُ قبل أن يشيبوا، ويُدفعوا للكبر قبل أن يكبروا، وهم في ذروةِ الشبابِ، وقمَّةُ الحيويّةِ، وعنفوانِ العطاءْ. وهذه واحدةٌ من المعضلات الثقافية التي، للأسفِ، لا يلتفتُ إليها الكثيرون ويَدَعونَ أن هناك ما هو أهم منها، وأعظم قيمة! شأنهم، في هذا، هو ذات الشأن الذي يقيسون به الكثير من الأمور الظاهريَّةِ، فيحكمون على المرء في ظاهره، وما يملكُ، وما يكونُ عليه منصبه. فإذا قلَّ مالهُ أو خرج من منصبه، لسببٍ أو لآخر، قلَّ جلاسهُ. فهم ليسوا سوى "رفاقُ مصالحِ" أينما تولِّي يولّون في أثرها مسرعين.

وإنك لتسمعُ الكثير ممن يعلّقُ على فلانٍ من النَّاسِ بأنه "شيبة". فما الذي يجعله مواصلاً رياضته التي يهواها؟ وأنك لتسمعهم يقولون إنَّ فلاناً من النّاس يكفيه ما أبلاه من سنينٍ في العمل، وهو قادرٌ على العطاءِ والجهدِ أكثر منهم. وتسمعهم يقولون لمن هو في سنّهم أو يقاربهم سنّاً نحن أبناؤك. وهكذا تسمعُ المقولةَ تلو الآخرى، وهي مقولاتٍ تتركُ أثرها البليغِ في نفسِ السّامع الذي لا يشعر بالإرتياحِ نحوها.

هل تكونُ هذه هي المقولة التي يُقصدُ بها التقديرُ أم مقولة "إنّك لتفورُ شباباً وحيويّة،" أو "ما أبهى وجهك المشرق المستنير،" أو "زادك الله صحَّةً وشباباً،" أو "أنت تزدادُ شباباً كلّما رأيتك." هذه العبارات وأمثالها هي التي تُسعدُ النّفس فلا تترك فيها أثراً سلبيّاً نحو الحياة. فذات مرةٍ، قلتُ لأحدِ الغربيين حين أبلغني أنه في منتصف الأربعين من عمره: "إنك تبدو ابن عشرين،" فقال لي فرحاً: "ستجعلني أحلّق بجناحين على الفور."

إن ذلك الذي لا يُتقنُ التعاملَ مع الآخرين، ولا يجيدُ أسلوبَ التخاطبَ معهم لايدركُ أنّه بأسلوبه هذا يؤثّر في نفسياتهم بشكلٍ عميق. فتتبدّل نظراتهم، وتضعفُ هممهم، وتذوي حماستهم. إنّه يطفيءُ الوهج في عيونهم. وهذه الثقافة العربية التي طغت، هي التي ولّدت بيت زهير بن أبي سلمى القائل:

سئمتُ تكاليف الحياةِ ومن يعشِ ثمانين حولاً لا أبالك يسئم

وهي ذات الثقافة التي دفعت ناظم الغزالي كي يشكو:

عيَّرتني بالشيبِ وهو وقارُ ليتها عيَّرت بما هو عارُ

إن تكن ذابت الشوائب مني فالليالي تزينها الأقمارُ

هذه الأبيات تلخِّصُ نظرة الثقافةِ إلى الظواهرِ وليس الجواهرِ، إلى المرئياتِ وليس المخفيّات. وبالتّالي وقع الكثيرون في إشكالية ربط الشعرِ الأبيضِ بالشيبِ، والشّيبُ معقودٌ بهرم الجسدْ، وهذا غيرُ صحيح. فالشعرُ الأبيضُ لا يعني الهَرم إنّما قد يشيبَ شابٌ في مقتبل شبابه، ويحتفظ شيخٌ مسنٌ بحيويته، ذلك لأنّ الشَّاب قد أعلّته علّته فأوهنت جسده أو ابتلي بالحماقةِ أوالشقاءِ، بينما احتفظ الرّجلُ المسنُّ براحةِ الخاطرِ، وصفاءِ النّفسِ، ونقاءِ السريرةِ فظلَّ شابًّا.

ثمَّ إن الهَرمَ هو هرمُ الجسدِ وليس الرُّوح، فالرُّوح لا تهرم لأنّها نفثةُ الخالق الذي لا يهرمُ ولا يفنى، أمّا الجسدِ فطبيعيٌّ أن يتقدم بحسب ما تنقضي عليه من السنين. وقد يملكُ المرءُ قدرته على نفسهِ فيظلُّ محتفظاً بنفسهِ الشَّابةِ الوقَّادة حتى وإن تقدّم به العمرُ، وقد يُوهن الشابَ نفسه فينعتها بالضعف والهشاشةِ أكثر من غيره فيقول "لقد شبت وكثر الشعر الأبيض في رأسي." فقرن بين الشيب وهو – في عرف المجتمع – مربوط بالوهن والضعف والسنِّ المتقدم بظهور الشعر الأبيض، وبالتالي فقد جنى على روح شبابه الوثّاب بيده.

وعلى الرّغم من أن لا نقيصةَ للمرءِ، لا سيما الرّجل، أن يذكرَ عمره. فهو أمرٌ ليس فيه عيبٌ ولا نقصانٌ ولا عارَ... هذه هي الحياةُ، وهذه أعمارُ الخلق، فلا هو ينقصها ولا يزيدها بإخفاءِ حقيقتها. إنّما أوجدُ عذراً لبعضِ النّاس الذين أضعفتهم ثقافةِ النظرة السلبية نحو أعمار الخلق، لا الذي يكتمها لمآربَ آخرى، أن يكتموا عن النّاس أعمارهم إذا شعروا بأن ثمّة شماتة حمقاءَ قادمة.

إن هـذه النظـرة لا توجـدُ في الغـربِ المتقـدِّم صـناعيّاً وعلميّـاً. لا يوجـدُ شـابٌ وشائب، ولا توجد فتاةٌ وعجوز. لم يحفلِ الغـربُ بهذه المظهريّاتِ فنظـرَ إلى النّـاس دون اعتبارٍ لأعمارهم. لقد رايتُ رجالاً ونساءً متقدمين في السنِّ كثيراً يعملـون إلى جانـبِ الـشبابِ فيساوونهم في الحيويةِ والعطـاءْ. فمـاذا ستسمع لـو رأيـت هـؤلاءِ في مجتمعتنـا؟ (أتـرك لـك التعليـق.) فهـم نظـروا إلى الجـوهر فتقـدموا ، ونظرنـا إلى المظهـرِ فظللنـا في أمكنتنـا أو تأخّرنـا. ويـا لنـا مـن هـذه النظـرات الـتي تـشغلنا في حياتنا وليس لها من منفعة!

تقويمٌ فارغ...!

يقول نيلسون مانديلا: إن أكثر شيء يقتلني هو أن أنهض في الصباحِ فلا أدري ماذا أفعل. يقولُ هذا وقد تجاوز الثمانين من عمرهِ. فلا شيءَ يُسعدهُ أكثر من جدولِ يومٍ مزدحمٍ بالعمل. لربما ينتابهُ هذا الشعورِ لأنّ شبابهُ بما يحتويهِ من طاقاتٍ وثّابةٍ ونشاطٍ حيوي، وجسدٍ قويٍّ معافى، كان مقيّداً في قارورةِ السِّجن فلم يكنْ يشبهُ سوى المارد الذي كبِّل بالأغلالِ كي لا يقود حزب المؤتمر الوطني إلى هزيمةِ العنصريةِ. لكن ما الذي يفعلُه كثيرون من الشبابِ الذين يستمتعون بالحريّةِ في هذه المرحلةِ الفعّالةِ من حياةِ الإنسان؟

في ثقافتنا الكثير من النماذج العظيمةِ في هذا الشأن وهي مضرب المثلِ للعملِ، ويجسِّد الحديث الشريف القائل، "إذا قامتِ الساعةُ وفي يد أحدكم غرسةً فليغرسها"، أهم القيم العمليةِ التي تُعنى بالعمل واستمراريته في حياةِ المسلم. إنّما الكثيرون – وهم في أوجِ شبابهم – ينظرون إلى التقاعدِ على أنّه انتهاءٌ للحياةِ العمليةِ وبدءُ مرحلةٍ من الإسترخاءِ، والخمول والكسلِ، ولسانُ حالهم يكرِّر القول: لقد أدّينا ما علينا وبقي الدور على الأجيال القادمةِ. وكأنّهم لم يسمعوا الشيخ الهَرِمَ، الذي كان يزرع، فقيل له: لِمَ تزرع؟ فقال: زرعوا فأكلنا، ونزرعُ ليأكل غيرنا. وكان أحرى بهم أن ينظروا إلى التقاعدِ على أنّه مرحلةٌ عمليّةٌ أخرى تكون الخبرةُ مهادها، والعقلانيةُ ركيزتها، والجهدُ عطاءها. فالتقاعد الحقيقي عن العمل هو الموتُ عينه. فإن شاءَ الإنسانُ التّعبد فالعمل أسمى العباداتِ، وإن شاءَ الاسترخاءَ فهو يتركَ نفسهُ نهبةً للكثير من الوساوسِ والأمراض الخفيّةِ السبب. فلا شيءَ يُطيلُ حياةَ المرءِ سوى العمل، العمل المرتبطُ بالصالحاتِ من الأعمال طبعاً.

وانظر إلى الكثيرِ من الشبابِ ماذا يفعل الواحدَ منهم. قيِّم أداءه في عملهِ، راقبْ يومه العملي كيف يقضيهِ، وعدِّدِ الأعمالَ التي يُنهيها والتي يؤجّلها إلى

الغدِ الذي لن يأتي حتى تتراكم في مكتبهِ الأعمال. أعلمُ أن كثيراً من معرقلات التجديد والتغيير العملي تعودُ إلى الثقافةِ السائدةِ في العمل، لكن مسؤولية الأداءِ الوظيفي الشخصي هي على كاهل الموظف، ثم قسّم وقتهُ اليومي بين عمل جادٍ، أو وقتٍ غير مثمرٍ يقضيهِ في شتّى المصالحِ أو يركنُ فيه إلى ما تهواهُ نفسه.

ثم تتبّع وقتهُ المسائي بعد أن استيقاظهِ من قيلولةٍ طويلةٍ مملّةٍ – تكملُ دورةَ النومِ المتأخّر – قيلولةٍ يُنشئ العالمُ فيها آلاف المشاريعِ الكُبرى. فماذا تجدهُ فاعلاً؟ أين هي مشاويرهُ وما هي مشاريعهُ؟ فإذا كان العمل الرسمي بالنسبةِ إليه معرقلاً – كما يزعم – فأين هي مشاريعهُ الشخصية التي يمكنه أن يُطلق فيها مهاراته وقواه ويديرُ فيها ولا يُدار؟ ولننصفُ فئةً من الشبابِ في هذا المقامِ، أولئك الذين أنشؤوا مشاريعهم الصغيرة أو الكبيرة فيومهم مقسومٌ بين نوعين من العملِ، وجهدهم موزّعٌ إلى ثلاثةِ أقسام: عملٌ رسميٌّ، مشروعٌ خاص، ثم وقتٌ خاصٌ للأسرةِ أو الأصدقاءِ أو للنّفس. وهؤلاءِ مثلٌ جميل، حتى إن شعر الواحدُ منهم أن مشروعه الشخصي يقتضي التقاعدَ من العمل الرّسمي قدّم طلبه الذي لن يعني له سوى تفرّغ للمشروع الخاص الذي أصبح قائماً على رجليهِ.

أمّا الشباب الهادر عمرهُ في جلساتٍ مكرورةٍ في المقاهي، أو البيوتِ، أو حوافِ الشوارع فهم لا يفعلون أكثر من هدرِ حماسِ الروح المتحفّزةِ للعملِ، وتقييد قدرات الجسدِ الفوّار بالنشاطِ، وبشكلٍ عامٍ، تكبيل مرحلةِ الشباب بأغلالَ ثقيلةَ الوطءِ. وساعةٌ بعد أخرى تنقص من أعمارهم. ويومٌ وشهر وسنة. ثم ما هو الناتجُ من تلك الجلساتِ؟ مشاريعَ، أفكارَ بنّاءةَ؟

إن مجتمعاتنا الناشئةِ لا تحتاجُ إلى جلساتٍ طويلةٍ غير مثمرةٍ، ولا إلى سمراتٍ وسهرات غير منتجةٍ إنّما تحتاجُ إلى مشاريعَ تخدمها، وأيادٍ تدفعُ عجلاتها. وأفكارٍ تؤسِّس دروب رفعتها ورقيّها. فالمسألةُ ليست حكراً على ما تمليهِ الإرادة الشخصية، وإنّما ما تمليه مصلحةُ الأمةّ والمجتمع.

نعم ليس أشدَّ على المرءِ الناضجِ الفكرِ، الذي يدركُ قِصرَ عمره الذاهبِ ثُلُثُه في السُباتِ من أن ينهضَ في صباحهِ دون أن يدري ماذا يفعل. وكم هي من صباحاتٍ مهدورةٍ تضيع دون عمل. وكم هي أشهرٌ وسنواتٌ تغور فارغةٌ من أيِّ

شيءٍ فلا تستحقُّ الذكر، ولا تحتفظُ بها ذاكرةُ الإنسانِ، اللحظة التي يكنزها العمل هي وحدها التي تتبوأُ مكاناً في الذاكرة.

فهلاَّ سجّلنا اليوم ما سوف نفعلهُ غداً في التقاويم الفارغةِ في هواتفنا المشبعةِ كلاماً أو في مذكراتنا اليوميّة الفاغرة الأفواه؟

واثق الخطا

أجملُ ما يثيرُ إعجابي في المرءِ ثباتَ خطاهُ. يمضي في أمره ببصيرةٍ، ويتبوأ مكانه بكفاءة، ويقدم رأيه بعد أن يشبعه دراسة وتمحيصاً.

قامتهُ شامخةٌ، ورأسهُ سامقٌ، ووجههُ بهي، وقلبهُ نقي. فهو الكلماتُ البيِّنةُ، في الكتابِ الناصعِ البياض، لا تشوبُ حياتهُ شائبة، ولا تكدِّر صفحاتها عيوب مخلِّة، ولا سقطاتٍ مذلَّةْ، وهو بين النّاس ذو مكانة رفيعة لأنَّه يحيا دون مخافةٍ من إفشاءِ سرٍّ، أو كشفِ خطيئة.

لقد شهدتُ بعض النّاس خطواتهم عاثرة، عاثرةٌ لأنهم أثقلوها بالأسرارِ والغموضِ والخطايا، فخافوا أن يكشفَ سرّهم، وتعلنَ خباياهم. هم يعيشون في صراعٍ مع القيم، وفي صراعٍ مع الخوفِ من الفضيحة، مع إبقاءِ جذوة الشهوةِ ملتهبة في الخفاءْ. فكأنّ حياتهم ورقٌ إن سقط عليه مطرُ الفضيحةِ تبلّل وذاب. يجاهدون كي لا تعرف بواطنهم، أو تنزع أقنعتهم. فهم، في الظاهر، يعيشون بقناعٍ، وفي الباطن بقناعٍ آخر. إنّهم باختصار يعيشون ألماً داخلياً عميقاً. وهم، لو أرادوا، لقلبوا الموازين لصالحهم. ولو أرادوا النور لمشوا فيه وهم واثقو الخطا، لا يخشون من ألسنةِ النّاس ولا من عيونهم. وهم بإمكانهم أن ينفضوا الوحل عن نفوسهم.

إن ثبات الخطا من سماتِ الإنسانِ النيِّر البصيرةِ، العاقلِ الراشدِ الذي يعلم أن لا سرَّ لديه إن كشف يجعله يشعر بالخجلِ والعار. إنه الإنسانُ الذي يمضي على هدىً من أمرهِ، ووضوحٍ من شأنهِ، ليس لديه ما يخفيهِ سوى الشأن الذي يوجبهُ الأدب، وتفرضهُ الأخلاق، وتقتضيه الشرائع، وتنصُّ عليه القوانين، وفي ما عدا ذلك هو ممن يقال عنهم أصحاب القلوب البيضاءِ، وممن يُنعتون بـ "الكتب المفتوحة." لا ترى في عينيه الغموض الذي تقرأه في أصحاب الخطا العاثرةِ،

ولا تشاهدُ في قسماته ما يدلّك على غير ما يعبِّر عنه، ولا تستقرئ في أفعاله نوايا غير حميدة، فإن تقوّل عليه قائلٌ مغرض واجهه بكلِّ ثقةٍ وطالبه بالدّليل غير هيّاب من فضيحةٍ، ولا كشف مستورٍ مُعيب. هو للحق أهلٌ.. وإن كادَ له مكَيد كانت نفسه أبيّةً، وعقله راجح لا يفقد رشده ويخرج من المحنةِ التي حيكت له قوياً عزيزاً. وإن امتحنه صديقٌ مقرّبٌ وجده من الأوفياءُ المخلصين. وإن شمتَ به شامتٌ يبقى شامخاً، كبيراً، وإن جادله جاهلٌ أعرض عنه. إنه الإنسان النقي الثوب، الطاهر النفس، السليم الخاطر. لا ينقصُ منه منقصٌ، ولايعيبه ذامٌ إلاّ كما قال المتنبي:

وإذا أتتك مذمّتي من ناقصٍ فهي الشهادةُ لي بأني كاملُ

في الجانبِ الآخر، أولئك الذين أوقعوا أنفسهم في الشبهاتِ، وفي شوائبِ الأمورِ فلم يستطيعوا أن يعيشوا كما يعيش أصحاب القامات الشامخة، والخطا الواثقة، فهم في خوفٍ من الخزي، ورعبٍ من الفضيحةِ، هؤلاءِ رهينو رغباتهم وشهواتهم لا يستطيعون أن يُخرجوا أنفسهم من عوالم الظلام التي يعيشونها إلاّ إذا حبسوا النفس الأمّارة بالسوءِ، وملؤوا أفئدتهم بالسنّاءِ المشرق للحياة، ورئاتهم بالهواءِ العليل للوجود وتنفسوا الصعداء من دون همٍّ ولا خشيةٍ سوى من خالقهم القدير.

أصحابُ الخطا الواثقة هم المستمتعون بالحياةِ، في نظري، لأنّهم تمسكوا بحكمة السلامة في العيش الكريم الذي لا تعبثُ به وطاويط الظلمةِ السادرةِ. وقد صدق الشاعر إبراهيم ناجي وأبدع حين قال:

واثق الخطوة يمشي ملكا ظالم الحسن شهي الكبرياء

عبق السحر كانفاس الربى ساهم الطرف كاحلام المساء

تطلّعات عمليّة

قلّما تسمعُ من قريبٍ أو من صديقٍ أنّه يعيشُ في بيئةٍ عمليَّةٍ متعاونة، أو سعيدةٍ وهانئة. واحد بعد آخر يخبركَ أنّه غير سعيد وأنه يجرُّ أقدامه جرّاً كل صباح ذهاباً إلى العمل. تسمعُ هذا، ولست أنت في ظرفٍ استثنائي عنهم، لا تعملُ أنت الآخر في بيئةٍ (مثالية) رغيدة، بل أنت واحد من أولئك. فما القضيّةُ إذن؟

أهو الصراعُ الأبدي بين الرئيس والمرؤوس بسبب السلطةِ؟ أم عدم القناعةِ الذي يغشى النّفس البشرية فيدفعها إلى الإمتعاض الدائمِ والتّذمر؟ أم هو الشعور المتعالي لدى المسؤول، ذلك الشعور الذي ينشرُ في نفسهِ الزّهو والكبرياء لأنّه بات قادراً على بسط يده على عدد من النّاس؟ أم هو المكانُ غير الملائمِ، أو الحوافز المادية والمعنوية غير المشجِّعة؟

كل هذه الأسباب قد تكون سبباً في كلّيتها أو في بعضها، إنّما يظلُّ الإنسانُ هو السبب الطاغي، والمؤثّر فيها. فثمّة أناسٍ آثروا عدم الإنتقال أو الإستقالةِ من أعمالهم ليس لأنّهم يحصلون على رواتب عاليةٍ، بل لأنّهم يحصلون على التقدير والإحترامِ والتشجيع من مسؤوليهم.

هذا في اعتقادي سبب مؤثر بشكلٍ عميق في نفسيةِ الموظّف: أن يشعره مسؤوله بقيمته كفردٍ منتجٍ في هذه المؤسسةِ أو الوحدة. كموظّف له عطاءاته وإسهاماته المهمّة في هذه البيئة العملية وأهدافها. وهذا الإشعار يتمُّ بطرقٍ مختلفةٍ أهمّها التواصل معه كإنسانٍ ومعرفةِ أفكاره ورؤاه. فلا يمكنُ اكتسابَ احترام الإنسانِ إلاّ بفتح قناة اتصالٍ إنساني عميقٍ معه، فالتّواصلُ يهدفُ إلى معرفته بشكل صحيح كإنسان لديه طموحات وتطلعات من جهة ولديه من هموم ومعضلات من جهة أخرى.

وهناك طرائق أخرى هي التفويض والتمكين والإستشارة والتقدير للموظف، ولعلّي في هذا المقامِ أستذكرُ قصّة العامل الذي بكى بحرقةٍ حين استشارهُ مديرٌ جديدٌ في أحدِ المصانع في أمرٍ ما. وحين سأله عن سبب بكائه

أجابه: بأن هذه هي المرّة الأولى التي يستشيره فيها أحد منذ ثلاثين عاماً هي مدّة خدمته في المصنع.

كثيرٌ من رؤساء الأقسامِ أو المدراءِ لا يحسنونَ التّعامل مع موظّفيهم، وعدم الإحسان إلى هؤلاءِ المرؤسين سيؤدي – بلا شك – إلى وجودِ بيئةٍ عملٍ غير صحيّةٍ، وغير إنسانية. كما يصبحُ المسؤول في مثلِ هذه البيئات مجسّداً للرغباتِ الشخصيةِ المحدودة، تلك الرّغبات التي تسقطُ من محيطها الرؤية العامة للمنظمة والأهداف التي تسعى إليها، فتطغى النظرات الشخصية، والرغبات المحدودة على رسالة المنظّمة، وبالتالي تحيلها إلى أهداف غير تلك التي رسمها لها مشرّعوها أو أصحاب رأس المالِ فيها.

قلتُ ذات مرّة في معرض إحدى الندوات التي أقامتها إحدى المؤسسات العربية، قلت لمحمود جبريل وهو رئيس مجلس إدارتها ضمن نقاشات الندوة: المشكلةُ هي أن الكثير من المدراءِ يحضرون مثل هذه الندوات، ويعلمون في دواخلهم أنّهم المسبب الرئيس للكثير من المشكلات، لكنّهم يفضّلون النمط التقليدي عند العودة إلى مكاتبهم لأنّ نفوسهم لا ترتضي – مثلاً- التفويضَ أو التّمكين لموظفيهم. فهم يحسّون أن ذلك انتقاصٌ من مسؤولياتهم وبالتالي من سلطاتهم على مرؤوسيهم، وأن ذلك يفقدهم (هيبتهم) لدى الآخرين. وهذه معضلةٌ نفسيةٌ يجب أن يُعالج منها هؤلاءِ المديرون لأنّها ليست لصالح العمل.

وفي تجربةٍ أحدهم إجتماعات أسبوعية برؤساء الأقسام والموظفين يقول: إن الفكرةَ لاقت استحساناً كبيراً من الموظفين قبل رؤساءِ الأقسام لأنّها أشركت الجميع في ما يدورُ داخل بيئةِ العمل، وأشعرتهم بأهميةِ آرائهم واقتراحاتهم، كما أنّها حفّزتهم إلى العطاءِ بشكلٍ أفضل كنتيجةٍ لذلك. وهذا ليس بسبب الاجتماعات وحسب، ولكن بكيفية إدارتها، والقدرة على التعاطي مع القضايا المطروحة فيها. فكم مديرٍ يجتمعُ بموظفيه!

وكي تكون بيئة العمل نقيّة وصحيّة، على المسؤول أن يوفّر لها الأجواء العملية المناسبة مستهلاً ذلك بما يقدّمه هو ذاته من عطاءات إنسانيةٍ راقية، قبل أن يحمّل الموظّف أو الإمكانات المادية المسؤولية الأولى. ولكن كي يتحقق ذلك، ويرى المدير أهميته وأولويته يجب أن تتحرّر العقول من الرؤى الضيّقة المحدودة وتتطلع إلى الأهداف العليا للمنظمة.

فلانٌ ذهَبٌ...!

مدحت أداءهُ وأثنيتَ على عملهِ، لكنَّك وقفتَ عند هذا الحدِّ وأنت تملكُ ما تكافئهُ به، فتدفعهُ – لو فعلت – إلى مراتبَ أفضلَ من الأداءِ، ومنازلَ أحسن من الإنجاز. قلت: إن فلاناً ذهَبٌ...! والذَّهبُ لامعٌ صقيلٌ يعجبُ البشرَ ويغريهم وأنت تعني أنّه عاملٌ مجدٌّ، مثابرٌ، صبور. مدحت سجاياهُ العمليةِ، وأشدت بمهارتهِ الوظيفيةِ لكنّك أخطأتَ في أربع.

الأولى: أخطأتَ لأنك حرمته من سماعِ إشادتكَ به ـ والإشادةُ في معرضِ العملِ محفِّزٌ كبيرـ واقتصرتَ بدلاً عن ذلك بالحديثِ إلى آخرين ممن ينقلون له – إن كانوا خلصاءَ محبِّين له – أو لا ينقلونَ – إن كانوا خصماءَ حاسدين له – ثم إنّه لن يحفِّزه النقلُ بقدرِ ما يحفِّزه الثناءُ المباشرْ.

أما الثانية: فأخطأتَ حينما ارتقى في نظرك حتى وصفتهُ بالذّهب. فلم تجزهِ بما يستحقُّ الذّهب مما أتيح لكَ، فلا هو شَعَرَ بنتيجةٍ ملموسةٍ هي عبارة عن زيادةٍ ماليةٍ في مرتّبهِ، ولا هو حصلَ على وسامِ الإجتهادِ، أو شهادةِ الثناءْ، ومرّ عليه ماسمع مروراً غير محسوس. فأيُّ ذهبٍ هذا الذي يبقى برّاقاً من دون عنايةٍ واهتمام وصقلٍ وتلميعْ؟

الثالثة: أنّك ربطّت مدحك له وثناءك عليه لأنّه "يعملُ ولا يتكلّم"، وهذا نموذجٌ يحبُّه بعضهم لأنّه لا يُقلق آذانهم بطلب التعديلِ، أو التغييرِ، أو التضجِّر من ثقلِ العملِ، وتكالب المسؤولياتِ عليه. ولأنّه "يعمل ولا يتكلّم" فهذه فضيلةٌ فيه لكنَّها أيضاً رسالةٌ لك، كان من الجميلِ أن تشعرَ بها، فلا يغرك سكوتهُ، آلا يقال: "إحذر من الحليمِ إذا غضب." يغضبُ الحليمُ لأنّ الصبر استبدَّ بهِ، وفاضَ كأسهُ، ونفدت طاقته الإنسانيةِ. فقد رآكَ تجزي "المتكلّمين، اللّحوحين ذوي الأصوات العالية" خير الجزاءْ.

أما الرّابعة، فإطراؤكَ إياه كان وبالاً عليهِ بدلاً من أن يكونَ مفتاحَ سعادةٍ له. فقد كان إعجابكَ بأدائه ومثابرته سبباً في عرقلتك إيّاه للسوانحِ من الفرصِ من أجل مستقبلٍ أكثرُ إشراقاً، أتمثّل ذلك في تدريبٍ أو تعليمٍ أو انتقالٍ لوظيفةٍ ذاتَ تحدٍّ جديد لقدراتهِ وذاتَ آفاقٍ أوسع لأحلامهِ وطموحاته. لكنّك آثرت أن تُبقيهِ إلى جانبك كي لا تعاني أعمالك من خلل، ثم كان خطؤك في المقابلِ أنّك دفعتَ بمن لا يستحقُّ التشجيعَ والتحفيزَ إلى هذه الفرصِ السّانحة بعذرٍ منك أقبحُ من الذنب أنّ وجودهم كعدمهِ، وهي فرصةٌ لإبعادهم. نعم، لكنّك منحتهم مكافأةً لم تكن لتحسبها عقولهم ولا تتخيلها أنفسهم في يومٍ من الأيامِ، فإذا بهم بسبب من مناقضتك المنطق يصبحون في مراتبَ أفضلَ بينما بقي (المسكينُ، المثابرُ، الذي لا يتكلّم) بين الحيطانِ ذاتها. حتى أنهكهُ الملل، وأضعفَ قواهُ الكدحُ، ونضبَ معينهُ من الأفكارِ، وطاقته من الحماسةِ والنشاط، وحتى تركته على حالتهِ ذلك ولا زلت تردّد "أن فلاناً ذهب."

هذا نموذجٌ من النّاسِ يعجبُهُ عملُ العاملينَ الأوفياء المخلصينَ الأسخياء، الذين إذا تكلّموا في حقٍّ من حقوقهم، سقطوا من عينيهِ البرّاقتين، وإذا أرادوا إبداءَ رأيٍ في مسألةٍ ما نظر إليهم شزراً. يتطايرُ من عينيه الشّر، ويناصبهم العداءَ إذا أشتاقوا لسماعِ أصواتهم، والخصومةَ إذا بانَ عليهم نصبُ المسؤوليةِ، وثقل واجباتها. فهم لديه النماذجَ الطاهرةِ التي لا تبارزها نماذجُ أخرى في عملها الذي لا يثير هسيساً ولا جعجعةَ. هم هادئونَ، صامتون، لا تسمعُ أصواتهم، ولا أنفاسهم، ولا خطاهم. يجيئون ويذهبون لا يحسُّ بهم أحد. يعملون دون ضجرٍ أو ملل. يثابرون بهمّةٍ لا تنفد، وجسدٍ لا يتعب. يفعلونَ كلَّ ذلك حتى ينتهونَ، فيغادرون دون أن يشعرَ بهم أحد ولا يذكرهم أحد إلاّ من أحس بالفجوةِ والنقيصةِ والخللِ بعد أن غادروا "والمرءُ – غير الحكيم - لا يشعر بقيمة الشيءِ إلاّ بعد فقدهِ." " حينها يقول: "لقد كان فلانٌ ذَهَبْ." ليت هذه الكلمةَ نفعته في وجوده، فكيف تنفعهُ وقد ذهب؟!

حياةٌ ذات معنى...!

يعيشُ بعضُ النّاس حياةً لا تسيرُ على هُدى. يدورُ فيها عمره دوراتٍ مكرورةٍ غير متجدّدة، ولا منظّمة، ولا مخطّطة، وهذا ما يؤثّر على نظرته في الحياة والوجودِ والإنسانِ الآخر.

إن نظرة الإنسانِ الأريب، ذلك الذي يدركُ قيمةَ الوقت، فيضعُ الأولويات بعد تفكيرٍ عميقٍ، ويحسب خطواتهِ قبل أن يخطوها، ويفكّر في يومه قبل أن يعيشه، وماله قبل أن ينفقه. إن نظرة هذا الإنسان تختلفُ عن الإنسانِ الذي يهبُ نفسه للمصادفاتِ، بشكلٍ جزافي، كأنما هو يائسٌ في الحياةِ. والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ الملك/22

والخطابُ هو للكيِّس المدرك لإجابة السؤال. إنما المعضلة هي في المفاهيم الخاطئة التي يستندُ إليها بعضُ النّاس حين يعلّقون ما سيجري لهم على الأقدار، وأنّ ما سيحدثُ لهم قد سبقَ علمه، وتقديره في اللوح المحفوظ، فاتّكؤوا إلى ثقافةٍ هزيلةٍ تجسدها بعض الأمثلةِ في واقعنا من مثل (إنفق ما في الجيب، يأتيك ما في الغيب) و(لا يغنى حذر من قدرْ) و(عش يومك) وهي وإن يكن لها وجهٌ حسنٌ، إلاّ أن بعضَهم قد أساءَ الإتكاء عليها حين جعلها رخصةً للخمول والتكاسلِ والدّعة.

إن هذه الثقافةُ الهزيلة هي التي حدت بالنبي، ﷺ في معرض ردّه على إعرابي سأله عن ناقته: هل أتركها وأتوكّل، بقوله: بل اعقلها وتوكّل! وهي التي اضطرَّ لمكافحتها سيدنا عمر بن الخطّاب بالدرّة حين ضرب بها أحد المتماوتين في دعائه قائلاً له: لا تمت علينا ديننا أماتك الله!!

لن يغيِّر الإنسانُ في المقادير شيئاً، وليس له دخلٌ بذلك، وهو إن سأل وشغل نفسه بها، فقد أضاع عمرهُ في ما ليس له شأنٌ به. لقد منحَ العقلُ والقدرة البدنية والوقت وسخِّرت له الأرض، وعليه أن يتعاطى مع هذه المعطيات بفطنةٍ وكياسةٍ، وهذا كلُّ شيء.

والعجبُ العجاب من أصحاب الحيواتِ المشتّتة، الذين سلّموا أنفسهم لليأس والقنوط، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ **وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ** ﴾ يوسف/87، اليأسُ أن يلقي الإنسانُ بنفسه إلى التهلكةِ، وأن يظّن بالله ظنّ السوء. هؤلاء تراهم مهلهلين، خرجوا من دائرة المجتمع الإنسانيّ الراقي، إلى مفازاتِ التقوقعِ، ومتاهات الانعزالِ، أماتوا أنفسهم قبل أن يموتوا، وشرّدوها دون أن يدركوا. ولربَّ ملكاتٍ كامنةٍ بين جوانحهم، ومواهب خامدةٍ في أعماق أنفسهم لو قذفوها أشعّةً لأنارت للإنسانية أنواراً برّاقةً، لكنهم شاؤا أن يحفروا لها القبور بأيديهم، لمعتقداتٍ استبدّت بهم ودفعتهم - مهزومين - إلى الجبّانات، ليعيشوا أمواتاً ليس لهم حظّ من الحياة سوى الطعام والشراب والهواء.

وليت بعضهم منهم قد اكتفى بذلك، وركن نفسه بعيداً، بل سممّ الآخر بزفيره، وقدح شكّاً بهمته، وحارب نجاحاته، فكم من متفوِّق سحق، وكم من متميِّز أعاق، وكم من مثابرٍ عثّر. فلم يفلتَ منه سوى أقوياء النفوس، الواثقون بأنفسهم وبقدراتهم، الذين لم يكونوا ليبصروا أمامهم سوى أهدافهم التي رسموها وآمنوا بها ومضوا كالفرسانِ الأفذاذ نحوها.

لا يمكنُ للإنسانِ أن يحيا بلا بصيرة، والبصيرةُ هي الهالةُ من النُّور التي يصنعها العقلُ الحاذق، الخلاَّق، والنفس العتيدة. لا يمكنُ أن يحيا الحياةَ بمعنى من لا يرسمُ لنفسهِ خطّاً يخطوه، ويصنعُ مبدأ ينتهجه، وحُلماً يسعى إليه.

الرؤية

لا يمكـن للمـرء ان يختط لنفسه دربا دون رؤية، وإذا افتقـد الرؤية يكـون الإظـلام في حـين إذا كانـت جليـة توطـدها الخطـا الواثقـة الـتي تـدفعها الإرادة ويغذيها الحمـاس. الرؤية: كلمة بسيطة في حروفها، لكنها عميقـة الاثـر بعيـدة المعنى واسعة المدى. لا يعي كثير من النـاس مـا هـي، ولهذا تجـد حيـاتهم حـائرة لا تكـاد تتلبث بشـيء حتى تنتقل إلى آخـر، ولا يكـاد يثبـت لهم رأي أو موقف حتى يتخـذون غـيره بحكـم مـتغيرات ليـست بـذات شـأن. الرؤيـة هـي عمـود الحيـاة وإكسيرها تتعلق بها معاني الإنسانية، فيكون عليها مصيرها ايجابا او سـلبا ومـا فقد الناس شيئا أكبر منها، ليس العمى بأثقل منها. فهو عمى الجوارح ولكـن العقل، إن تعطل وتبلد، فلن يعوض الانسان شيء عنه ابداً. سيدور المرء حينها في قالب فارغ ليس له نهاية، وسيمضي عمره خواء لا يجد في نهايته شيئاً يمكـن ان يقول إنه بناه بسبب من رؤيته.

وحينمـا نفتقـد الرؤيـة في كـثير مـن الأمـور نتخـبط فيهـا. ربمـا تبـدأ الامـور بشـكل، قد نسميه حماساً أو رغبة لتحقيق شيء، فيبدأ الامر مهولاً يُرى على أنه يمكـن أن يكون رؤية جلية واضحة، بينما يتكـشف في القـادم مـن الـزمن أنـه لم يكــن ســوى إرهاصــات رؤيــة. وإذا شـئنا النظـر إلى المـصطلح المتـداول عالميـا (استراتيجية) سنجد أنها هـي الرؤية ذاتها. رؤية بأبعاد ثلاثة متعارف عليها، لها مقوماتها وعناصرها، ولها دوافعها ومـصادر ديمومتهـا. المـشكلة الحقيقيـة في الـرؤى الـتي تتبناهـا في كـثير مـن الأمـور تفتقـد إلى أمـرين مهمـين همـا: التوحـد والديمومة. وهما أصل كل رؤية سليمة لها بعدها المترامي الذي يلقي بها أخيراً في قلب المرمى المستهدف.

نتبنـى الـكثير مـن الـرؤى ونبـدأ الاسـتعداد المكثـف لها فننفـق الـكثير مـن الأمـوال والجهـود علـى تأسـيس مقوماتهـا وتبـدو للعيـان أنهـا مـشروع طمـوح، ثـم

سرعان ما تضعف الإرادات وتختفي الكوادر كما تختفي الموازنات المعدة للغرض ذاته، وبالتالي فلا رؤية ولا مشروع.

وينطلق الأمران اللذان ذكرتهما كأعمدة للرؤية من بديهية الإيمان بالفكرة والتعلق بها والتماهي فيها والدفاع عنها، ولعل هذا هو الفرق في كثير من الرؤى التي يتبناها الغرب، كحقوق الإنسان مثلاً، أو إقامة مشروع أو مركز أو منتدى. القضية لديهم تستمر في حماسها وانطلاقتها، فيزداد مؤيدوها ويناضل من أجلها الكثيرون ولا يخبو حماسهم. والمشروع لديهم كما جاء بعد يقين تام بأهميته يستمر كذلك، والمركز لديهم حين يقوم تكون له ذات المخططات التي وضعت والمناهج التي رسمت لا يحيد عنها إلا في إطار المصلحة التي تقتضي ذلك. والمنتدى لديهم حين يعقد سيكون سلسلة متواصلة كل حلقة فيها توصل للأخرى، ثمة من يتابع شأنها ومقرراتها وأفكارها ومشاريعها بينما نجد نحن أنفسنا بعيدون عن ذلك كل البعد.

نحن بعيدون لأن فكر الترف هدم الإرادة في ضمائرنا وصعب علينا الأمر السهل وارتضينا الاستسلام دون صعود الجبال، هذا من جهة، من جهة أخرى، إيماننا بالقضية واجتهادنا فيها ونضالنا من أجلها، في الأعم، محض كلام لم يتبلور إلا في محاضر وأوراق. وحين تقفز الفكرة في بال أحدنا ينهض من مكانه ويبدأ مرحلة الاظهار. هنا لا تتضح معالم رؤية، بل معالم فكرة لم تتخمر، وبالتالي حتى لو ارتسمت بعض الصور أو الإرهاصات فإنها لا تدوم. وأعتقد أن هذه المعضلة حضارية، يجب علاجها وتبني مناقشتها في "رؤية" عامة تخلص إلى الأسباب ثم تمضي إلى الحلول بذات الحزم والحماس والجدية، لكن!

الانسكاب البارد...!

كأنياب الوحوش الضارية تنغرس في جلودنا كلما فتحنا نافذة الجرح، كالقذائف المسمومة تصفع وجوهنا، تردنا إلى زوايا السكون المقيت المذل، يندلق فينا سؤال بحجم كل الدماء المزهقة: أي عالم نعيش؟ الحضارة، المدنية، الحرية، الديمقراطقية، إشراقات حقوق الإنسان. تتساوق الكلمات فور أن تفتح شرفة أخبار العالم. ينبئك المذياع والتلفاز والصحيفة كل شيء مشرع أمام المفردات الدموية الساخنة، أمام هذا الانسكاب البارد للدم. "قَتل" بفتح القاف، "قُتل" بضم القاف "يقتل، قاتل، مقتول، مقاتل." تتغير الحروف ولكن يبقى مصدر الفعل الثلاثي المتوحش "قتل" ينبوع الشر في العالم الآن، في هذه اللحظة الراهنة، التي يرتفع فيها شعار حقوق الإنسان. فأي إنسان هذا؟ أي إنسان؟!

ما الذي سيخلفه تردد هذا الفعل الثلاثي المصدر في ثقافتنا؟ في نفسياتنا؟ في معطياتنا اليومية البسيطة؟ في اختراقاتنا للغد وتصوراته؟ ورسمنا لصورة المستقبل؟ نحن أمام أسئلة من (العيار الثقيل) الذي يشظي القلبَ، ويترك الأبواب مشرعة دون إجابات.

كل صباح، حاذر أيها الصديق أن تفتح المذياع، حاذر من ذلك الهاجس الدافع كي تتسلم تقريراً عما حدث ويحدث الآن في الراهن. حاذر من خفقان قلبك أن يتحول فيه الفعل الأرجواني المتوحش إلى سائل ثقيل يسد الشرايين. فكل ما تسمعه ليس إلا قائمة طويلة من الوحشية الإنسانية، أخباراً لا تبتدئ إلا بفعل "قتل". عبارات مضمخة بدماءٍ ساخنة، وكل ما يتكدس في العيون جثث. لم يعد للذاكرة من متسع سوى لتلك الأجساد المتناثرة المتطايرة... مع موسيقى جنائزية ذات إيقاع غامض موحش. ثمة وحش كاسحٍ يجتاح العالم في ثوب إنسان وملامح إنسان ولغة إنسان. الوحش يغتال الحلم والسكينة والابتسامة الندية ويكتسح الزقاق والدروب، ويهدم المدن.

في أي عالم نعيش؟ أي عالم؟ يفجعني هذا السؤال وأنا أنجرف في سيل من الدماء، وأتعثر فوق أكوام من الجثث. أصبحت أسكن في مقبرة. هل تحول العالم بفعل هذه الحروف الثلاثة إلى مقبرة؟ هل ترى "أديم الأرض إلا من هذه الأجساد؟" وليت ذلك كان وحسب، بل ابتكر هذا الوحش الإنسان لغة أخرى لإشباع نهمه، فهو يتخيل في أفلامه الكائنات الغريبة تغزو الإرض، أليست هذه خدعة رهيبة؟

الأحكام الحاسمة...!

يروق لبعض الناس أن يصدر أحكاماً حاسمةً جزافاً، تحمله العاطفة أو التَّحيز أو الهوى إلى ذلك، وهو إن فكر وجد أن حكمه الحاسم لا يستند إلى دليل.

وقد سمعت مثل هذه الأحكام من أناس يعتدُّ المرءُ بأقوالهم، فأنكرت ذلك في نفسي. فما الذي يحمل رجلاً ذا ثقافة ومعرفة إلى أن يصدر حكماً في الأدب، فيقول إن هذه القصيدة هي أجمل ما قيل في الشعر على الإطلاق... أو أن يقول إن فلاناً هو القاص الأول أو الشاعر الأول في بلده. وكان أحرى به أن يقول – في اعتقادي – إن فلاناً (لديَّ) هو من يتربع على عرش القصة أو القصيدة أو الأدب في هذه البلاد.

فحريّ القول إن أحكاماً مثل هذه من قبيل الأحكام التي تنطق بها العاطفة، والانفعال المتهور، وستترك أثرها على المجتهدين الآخرين، سيما وأن قائلها ممن تؤثر أحكامهم.

ولعمري، لو كانت الأحكام تقتصر على النصوص المبدعة، وعلى لحظة بعينها لكان أصوب للحقيقة، كأن يحضر المرء مهرجاناً شعرياً أو أمسية قصصية، فيقول حينما يغادرهما إن النص الفلاني كان في نظري هو الأمتع لي دون غيره، لا أن يقول إن فلاناً هو أشعر أهل عصره، كمثل قوله حين يخرج من معرض فني إن اللوحة الفلانية كانت أبلغ أثراً في نفسي من غيرها.

* * *

لقد أضرّت الأحكام الحاسمة بمصداقية بعضهم، فحجبتهم نظرتهم المحدودة، وآراؤهم المتسرعة عن رؤية الصورة بجلائها واتساعها، ولم يغادروا المحيط الضيق الذي وضعوا أنفسهم داخل إطاره راضين مستسلمين.

تحدثت مع أحد هؤلاء في يوم من الأيام، وذكرت له مسألة من الأثر وافقني عليها، ثم ذكرت له مسألة أخرى، عارضني فيها على الفور دون تأنٍ، قائلاً هذه غير صحيحة. وسألته، إلى ماذا استند إنكاره لصحتها. فارتبك وبصعوبة خرجت منه الكلمات مثقلة: إنها في اعتقادي غير صحيحة. والتفت إلى أحد الجلاس وقلت – على مسمع من صاحبنا وكنت مازحاً – إن هؤلاء حين تردد على ألسنتهم ما يتوافق مع فكرهم وسلوكياتهم يوافقونك على الفور، ولكنك حين تردد ما يفتح طريقاً آخر، أو رؤية أخرى يعارضونك على الفور أيضاً دون أن يمنحوا أنفسهم فرصة البحث عن صحة قولك من عدمه، ودون أن يقدموا الدليل على صوابهم وخطئك. وهذه في ظني إساءة لمصداقية الإنسان مع نفسه، وانتقاص لفكر الآخر.

إن الحقيقة هي جوهرة ثمينة لا يصل إليها إلا صاحب العقل الأريب، المتأني في فكره، المتعقل في بصيرته. والانفعال بالرأي أو التعصب لقول أو التحيز لفكرة وإصدار حكم حاسم لا مراجعة فيه هو من الأمور التي تبعث المرء على سلوك درب واحد، متصلب، غير مرن، ويابس غير لدن.

والشيء الأجمل هو ألا يصدر الإنسان حكماً حاسماً إلا بالإستناد إلى حجة أو برهان، فهو ما يعضد مصداقيته، وهو ما يرجح عقليته أمام مستمعيه.

النظرُ المحدود...!

أعجبتني حكايةً قصيرةً سردها كوفي عنان الأمين السابق للأمم المتحدة ذات يومٍ، يقولُ فيها: حين كنّا أطفالاً في المدارس في الخمسينيات من القرن الماضي، أحضرت معلمةُ الفصل وسيلةً بيضاء (ورقةً كبيرة) لا شيء فيه سوى بياضها الناصع، ثم نقطت نقطةً سوداء في وسطها، وسألتنا: ماذا ترون؟ قلنا: نرى نقطةً سوداء. فردّت: رأيتم هذه النقطة السوداء الصغيرةَ، ولم تروا هذا البياض الكبيرِ حولها.

حكايةٌ صغيرةٌ، قديمةٌ، لكنّها مؤثّرة. لم ينسها كوفي عنان لما يقارب النصف قرن. فهو يعلمُ مدى قيمة ذلك الدرس، وتلك الحكمة، ولهذا اتّخذها عنواناً له في قيادته للأمم المتّحدة إبّان فترة وجوده على رأسها.

إنما هذا شأن الكثيرين في الجانب المقابل، أولئك الذين لا يرون غير النقطةِ السوداءِ، ولا ترى أعينهم البياض الشفّاف الجميل. هل لأنَّ مقلةَ العينِ سوداء والبياضُ المحيطُ بها مجرّدُ إطار؟!

رؤيتهم لهذه النقطةُ السوداءِ – التي قد تتخايل أمام أبصارهم وهي وَهْم – يقلّب قلوبهم بشكلٍ فجائي، غريب، مستهجنْ. يتقلب القلبُ دون أن يستشير العقل، ودون أن يستذكر البياض الساطعِ، الكاسحْ، ودون أن يتذكّر مقبلاتُ الأمور، وحال الحياةِ بعد النقطةِ السوداءِ التي رأوها.

هؤلاءِ النّاس إن بدا لهم أمرٌ رأوا فيه النقطة السوداءَ دون أن يروا بياضه. فإذا مرضوا حزنوا للمرضِ، ولم يفرحوا لمحو السيئات، أو يستشرفوا الدواء. وإن ضاقت بهم الأحوال، تذمّروا من المعيشةِ ولم ينظروا لاتساع أرض الله، وينبوع الرزق السيّال، الخالد فيها. وإن لم يحرزوا نجاحاً في أمر، نكسوا رؤوسهم، ولم يتطلعوا إلى أبواب المحاولات المشرعةِ. وإن صادفتهم مشكلةٌ ما، تملّكت

أنفسهم، وحملوا الدنيا على رؤوسهم، وصاروا يضيقون بحملها، ولم ينظروا إلى الممكنات والاحتمالات والحلول. وإن أخطأ في حقّهم عزيزٌ، محوا سيرته الجميلةَ في قلوبهم محواً، وتسفيهاً بغلظةِ القلوبِ، وصلادة الكلمات، ولم يتمثّلوا سيرته الحسنةَ معهم، أو رفقته الطيّبة بهم.

النقطةُ السوداءُ داءٌ عظيم ابتلي به بعضُ النّاس، أو بلوا به أنفسهم، لن يقدروا على التّخلصِ منه إلاّ بالركونِ إلى الحكمةِ والعودةِ إلى العقل. ولعلني أذكرُ بيتاً كنتُ قد كتبتهُ في جدار غرفتي خلال أيام الدراسة الثانوية، ألجأ إليه كلّما عنّت لي معضلةٌ، أو مضى لي شأن مخافة الندم والتّحسر... يقول البيت:

لا تقل في ما جرى كيف جرى — كلّ شيء بقضاءٍ وقدر

وأردّد بيتين آخرين:

دع المقادير تجري في أعنّتها — ولا تبيتنَّ إلاّ خالي البالِ

فما بين طرفة عينٍ وانتباهتها — يغيّرُ الله من حالٍ إلى حالِ

أمّا الآن، فربما أتّفق مع الحكمةِ الجوهريّة للقضاءِ والقدرِ إلاّ أنّني بلا شك لن أستغني عن المهمّة الساميةِ للعقل، من أجل التمحيصِ والتدقيقِ والتحليل.

سألتُ أحد الأصدقاءِ الذين رأيتُ فيهم سعةَ الصدرِ وأخذ الأمور – في أوجِ تأزمها – مأخذ التيسير: ما الذي تتمتعُ به كي لا توتّرك المشكلات، ولا تقلقك الصعاب؟ قال: أفكّر دائماً في أسوأ الاحتمالات فأرى أن بمقدوري تحملها، وحينها تهون علي المشكلةُ فلا تقضُّ منامي، ولا تؤذي نفسي.

إن هذه النظرة تتطلبُ ما يسمّيه الإنجليز: "helicopter view" نظرة الطائرة العمودية"، وهي تعني، ارتفع إلى أعلى وانظر إلى ما تظنّه في نفسك "المشكلةَ العسيرة" لتراها صغيرةً لا تذكر، ثم ترى الجمال المحيط بها، فتنزلُ، فإذا أنت شخصٌ آخر، ترى الحياةَ بمنظورٍ أوسع وحينها سترى البياض الذي يحيط بها ومن يعيشون فيها، ولن ترى النقطة السوداء على الإطلاق.

أحكامٌ منفعلة

لا يحتاجُ الحكمُ على الآخرين سوى إلى تركِ اللّسانِ دون عِقال، وتركِ النّفس أن تتقوَّل فيهم ما تهوى وترغب. فمن السهولةِ بمكانٍ إطلاقُ الأحكامِ على عابرِ سبيلٍ، وإلصاقُ أيّةَ فكرةٍ عابرةٍ بمن شاءت له النّفس توصيفاً. هذه هي نزعةُ الإنسانِ، وتلك هي عواطفه، إلاّ من رجحَ عقلهُ، واتّسم شخصُه بالرّزانةِ، فلم تقدهُ أهواؤه إلى غير مبتغاهُ، ولم تسيّره نزعاته إلى غير ما اشتهاه.

يحكي "ستيفن كوفي"، مؤلف كتاب " العادات السبع" و"العادة الثامنة"، أنّ رجلاً ركب القطار هو وأبناؤه. فجلس جنبه ثم دسَّ رأسه بين يديه بينما ملأ أطفاله عربة القطار ضجيجاً وفوضى عارمة وهو لا يحرّكُ ساكناً. يقول كوفي: قلتُ في نفسي، لم يربِّ الرّجلَ أبناءه بأدب وخلق، وهو ضعيفُ الشخصيةِ كأبٍ لا يستطيع التّحكم بتصرفات أبنائه، ثم هو أيضاً لا يراعي مشاعرَ الآخرين الذين يتسبب أبناؤه في مضايقتهم. ثم مضى كوفي يكيلُ له الأحكام. لكنّه حين تحدّث مع الرّجل أخيراً أخبره أن زوجته أم أطفاله قد ماتت منذ قليلٍ في المستشفى ولهذا فهو متأسٍ أشدُّ الأسى على فقدانها، وبالتالي – كما استنتج كوفي – انشغل بهذا الوطء الثقيل عن التحكم بأبنائه. ولهذا – كما يقول كوفي – ندمت للأحكام التي أصدرتها عليه.

هذه قصّةٌ كم يقع الكثيرون في أمثالها، وكم يصدرون الأحكام السلبيّة أو الإيجابية، ربما دون أن يعرفوا حقيقة الأمرِ. والحقيقة قد تكون مقلوبةً عكسية تنبئ بغير ما ظهرت عليه. فكم يحكمُ النّاس لقولِ إنسانٍ لصالحه ضد آخر وكم يسيئون إلى آخرين جرّاءَ ما يدّعيه المدّعون عليهم، ويتعاطفون معهم لكنّهم لا يستمعون للطرف الآخر الذي قد يكون مظلوماً أو لا يكون قادراً على التعبير عن حجّته، عندما يكون الآخر صاحب لحنٍ في القولِ وقدرةٍ على خداعِ النّاس.

يميلُ الكثيرونُ إلى هوى النّفسِ، التي سرعانَ ما تجنحُ نحو الأحكام المنفعلةِ، التي ينقصها الدليلُ والبرهانُ الدّامغ. فكم منّا من حكم عليه النّاسُ بأنّه رآهم فتجاهلهم، أو مرّ دون أن يلتفت إليهم عامداً، أو لم يبدِ لهم مشاعرَ الودِّ التي يستحقّونها، وقائمةٌ تطولُ مما تصوِّره لهم نفوسهم، بينما الحقيقة أننا لم نرهم، ولم نقصد تجاهلهم، ولم نعمد إلى الإستخفاف بمشاعرهم، وربما قد ألهانا ملهٍ عن رؤيتهم أو التّحدث إليهم، لكنَّ الأهم أن قصد التجاهل لم يكن في خواطرنا قط.

الأحكامُ على الآخرين أمانةٌ كبرى ومسؤوليّة عظيمة على الفرد، فاللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ الحجرات/6، لكن كثيرين يطلقون أحكامهم جزافاً حتى إذا عرفوا الحقيقة ندموا، وقد يكون ندمهم بعد فوات الأوان. ومن المؤسف أنّه كلّما ظنَّ بعضهم أنّهم يلبسون أقنعةً لا تعرف بها وجوههم، ويتخذون ألقاباً تخفي أسماءهم، وهم مستترون في بقعةٍ لا يراهم فيها النّاس تلذّذوا بإصدارِ الأحكامِ كما تشتهي أنفسهم، وعربدوا في تهمهم جزافاً كأنّما يلغون في دماءِ الآخرين وأعراضهم وحرماتهم وكأنّهم في ملعبٍ لهوٍ، وميدانِ مرح. والله فوقهم رقيب، والكتبةُ على جنوبهم وشمالهم.

أخبرني أحد هؤلاءِ الذين يصدرون الأحكام جزافاً عبر المواقع الإلكترونية، أنّه أصدر حكماً قاطعاً في شأن أحدهم فلمّا تبيّنت له الحقيقةَ عرف أنّ حكمه باطل وأنّه ما كان عليه أن يقول ما يقول، استضغر نفسه. وأذكرُ، ذات مرّةٍ، أن مقالاً لي نُشر عبر هذه المواقع من قبل متضامنٍ معه. وحين كنت أقرأ التعقيبات وجدتُ بعضها لا يمتُ إلى متنِ الموضوع وفكرته لا نقداً ولا تعقيباً يستفادُ منه وإنّما قدحاً شخصيّاً دون دليل. وهذا هو حالُ الكثير ممن تقوّل عليهم بأقاويلَ يسوقها الهوى الأحمق، فلو كانت الآراء بنّاءةً لقرأوها واستناروا بها، لكنّ معظمها أحكام موغلةً في الباطل.

إن رزانةَ المرء في رجحان عقلهِ، وثباتَ نفسه، فإن تكلّم فعن بيّنةٍ ويقين، ورؤيةٍ وبصيرة، وإن صمت فعن حكمةٍ وإدراك، وإن حكم فعن حجّةٍ وبرهانٍ دون أن يخالطهُ الهوى، وتسفهه النزوات. هذا هو الإنسان الذي يستحق الاحترام، والجديرُ بالأحكام.

مشهد يبهج الروح

يلفت نظري حينما أراه بعض الصباحات وأنا متجه إلى عملي بينما يكون قد أبكر في شراء صحيفة الوطن من أقرب محطة بنزين. يمضي في طريقه لا يلوي على شيء، يكون منهمكاً في استطلاع آخر الأخبار، بينما عصاه تحت إبطه. أخاف عليه كثيراً وهو يقطع الشوارع الصاخبة أو تلك التي ترى خالية إلا من خطفة زوبعة ما لا يستطيع المرء تبين ملامحها لأنها سرعان ما تختفي كلمح البصر. وقد تخطف معها من يكون في الشارع دون رحمة. إذن فالساحرون الذين كانوا يخطفون البشر من بيوتهم أصبحوا يخطفونهم من الشوارع علانية.

قابلته، ذات مساء، وقلت له إن منظرك هذا يثير الإعجاب في قلبي، لكن أمراً واحداً هو الذي يشد انتباهي دون سائر أجزاء الصورة. إن عمر هذا الرجل، الذي يتأبط عصاه، ويبكر في الصباح لاقتناء الصحيفة، خمسة وثمانون عاماً، خمسة وثمانون عاماً! وهو يرى أن الصحيفة هي واسطته لما يجري في هذا العالم. رد عليَّ: الإعلام حر! وحين طلبت منه أن يفسر لي هذه الجملة المختصرة، قال: إن الإعلام يكتب في كل شيء. وذلك معنى كلمة الحرية في نظره. وسألته: ما الذي يجذب انتباهك في الصحيفة؟ قال: الآن، قضية العراق، وحدها العراق، تشغل بالي وتؤرق مضجعي.

تذكرت معلم القرية، الذي كان ينظر للجريدة في أيادينا كأنها شيطان رجيم، فيزحف نحوها رويداً رويداً وسرعان ما ينتزعها من أيادينا ويمزقها لأنها في نظره من صنع الكفار.

منظره يشبه منظر الكثيرين من الشباب وهم يدفعون أقدامهم دفعاً لشراء جريدة آخر الصباح، لكنما الفارق هو تلك السنون المديدة بينهم.

المشهد الذي بطله رجل في عمر متقدم يبكر كي يقتني صحيفة ليطلع على أخبار العالم. المشهد هذا جدير بالتوقف. نحن بإزاء التماهي الثقافي، إزاء

تشكيل نظرات، وإزاء بلورة مواقف الجانب القومي، والعروبي والعقائدي فيها أكبر من تلك الالتفاتة إلى الخصوصية الثقافية التي تشكل هويتنا. ونحن، هنا، لسنا بصدد انتقاد ما، فليس في الأمر ما ينتقد من وجهة نظر شخصية لأن اتساع النظر، وانطلاق الفكر إلى مناخات فسيحة لهو أمر جميل، إنما المشهد في حد ذاته يقف عند التعليق، فليس ظاهرة تستحق التحليل والتفسير. إنما هو موقف استثنائي، لكن على الصعيد الإعلامي الآخر، ومن خلال وسائل مختلفة، أصبح جيل الآباء والأحفاد ينظر بواقعية نحو الطرح الإعلامي، خاصة السياسي، الذي استطاع دون غيره من المسارات أن يثير جدلاً، ويبعث نقاشاً... بينما لا نجد أثراً لمسار ثقافي على صعيد الحوار الشعبي في مختلف شرائحه. ولعل هذا راجع إلى بروز المشهد السياسي على الواجهة نظراً لكونه يستأثر على الحدث الساخن الذي يلفت الانتباه، وهذا الأخير هو مطمح الوسيلة الإعلامية في الوقت الحاضر.

خلاصةُ الأمرِ أنَّ الإنسانَ في مراحلَ وعيهِ لا يمكنُ أن يعيش في معزلٍ عما يجري من أحداثٍ، فهو ضمنَ النسيجِ شاء أم أبى. فامتلاك المعلومةِ أصبح أمراً لا جدال حول أهميَّتهِ، بحكم أن القوّة في هذا العصر لمن يملك المعلومةَ الأهم والأكثر ثراءً. إن تفكيك صحن اللاقط الهوائي – كما فعل أحدهم – هو فعلٌ غير مجدي أبداً، إنّما المُجدي هو تصويبُ الاتجاهِ نحو المعلومةِ المفيدة المرسلةِ عبر الفضاء.

المواهب الدّفينة

تذكرت قصيدة للشاعر الإنجليزي، تومس جراي، (1716- 1771) بعنوان "مرثية كتبت في فناء كنيسة ريفيه". تذكرتها وصور كثيرة تتخايل في ذهني عن أولئك القاعدين في بيوتهم من الفتيان والفتيات لا تدرك مواهبهم، ولا يعلم ما الذي تنطوي عليه جوانحهم من ملكات، وهم عندي حين أتقصى درجات التشاؤم، "كالفراشة في بدلة الغطس القديمة"، يريدون أن يتنفسوا الهواء الطلق فلا يجدونه، وهواؤهم هو الطموح، الذي يشهدونه يموت رويداً رويداً في طواياهم، وهم على ما هم فيه من الضيق والكرب. إنني لأتخيل هذا العالم المجهول الذي أوصدت دون مطامحه الأبواب، وأغلقت دون مواهبه النوافذ، ولم يعد له من سبيل للعيش سوى ذلك الروتين الممل الذي يذيب عمره في براثن الإخفاق بسقوط الحلم. أتخيله غياهب لا يحتملها التصور البشري.

هؤلاء الفتية والفتيات، الذين يطمحون إلى الحياة عبر دروب العلم (وهو السبيل الذي نمجده أكبر من كل الأشياء) ليبرهنوا لا للآخرين بقدر ما لأنفسهم أن في ثنايا أرواحهم أجنحة محلقة إلى عالم أرحب من هذا العالم الذي قصت فيه أجنحتهم، وانتزع من ظهورهم زغب ريشهم، يريدون أن يكونوا شيئاً أبعد من هذا الذي يعيشونه لكي يحققوا ذواتهم التواقة إلى المعرفة، التي، بها، يصلون إلى حقائق الكثير من الموجودات.

إن "تومس جراي" يرثي لأولئك الراقدين في القبور فيقول في مقطع من قصيدته "لربما أرقدوا في هذا المكان المهجور قلباً كان يوماً مترعاً بشعلة السماء، أو أرقدوا يدين كان يمكنهما، لو أتيحت الفرصة، أن تقبضا على صولجان الملك، أو أرقدوا أصابع كانت، لو واتتها الظروف، أن تبث الحياة في القيثار، لكن حاملات العلوم والفنون لم تشأ أن تبسط صفحاتهن المليئة بثمرات الزمن أمام أبصار أولئك المساكين، فكان أن أطبق عليهم صقيع الفقر ليخمد

جذوة الإلهام في القلب المتفتح، ويشل الأيدي ويجمد الأصابع، فلا تقبض الأيدي على صولجان الحكم، ولا تمس الأصابع أوتاراً لتحييها بالنغم."

هكذا تبدو لي صورة أولئك المساكين من الفتيان والفتيات الذين لا يجدون فرصة لاستكمال دراساتهم على اختلافها، حيث تقف المادة والظروف حائلاً دون مطامحهم، كما لا يجدون السوانح أمام رغباتهم في تدفق ملكاتهم، فتموت فيهم. ترى كم قابلت من متحسر على مضي عمره وهو يقضم الأنامل على طرقه الأبواب حتى صارت يداه كما يقول دنقل "خفاشاً يتعلق في بندول." وكم أجد نفسي ذائباً متحسراً حينما لا يجد إنسان طموح فرصة يكمل فيها تعليمه، أو لا يجد من يستمع إلى أفكاره، أو لا يساعده على تنمية مواهبه، أوإثراء ملكاته.

إن الناس قد حملوا في ثنايا أرواحهم ملكات متفاوته لا تعلم إن وضعت أمامها السدود، وأرخت دونها الستور، وليس أثمر من المورد البشري للأمة إن أرادت أن تتطور أو تتقدم. فاكتشاف خصائص المورد البشري وما ينطوي فيه من المزايا والمواهب والقدرات هو السبيل الوحيد أمام المجتمع كي يزدهر. أما إذا صفقت الأبواب أمام الإنسان الطموح أو الموهوب، فتلك خسارة كبيرة للأمة لن تعلم مداها، ولا حجمها الصحيح. فلتفتح الأبواب أمام هؤلاء ولتصغ الآذان لهم، ولتأخذ بأيديهم الأيادي ليكونوا، هم لا غيرهم، بناة هذه الأمة ورعاة نهضتها.

عالم مثالي

يبدو أن المثالية لدينا تتوازى مع الخرافة أو ترتقي إلى الإسطورة. ويبدو أنها في عالم ليس واقعي، عالم لا يمت إلينا بصلة. أو نحن، الذين لا نمت إليه بصلة. المثالية التي يتخذها بعض الناس مقياساً للكمال ومبرراً لقصور عقل الإنسان وعدم قدرة الطموح للوصول إلى مراتبها العلية التي تشوبها الضبابية، وتغطيها السحب، وتحجبها الأنوار.

لفت سمعي، منذ أيام في إحدى البرامج الإذاعية، قول الضيف بعد أن سمع ملاحظة من متصل محورها: لماذا لا تخططون قبل التنفيذ؟ وكان قول الضيف حاسماً وقاصماً، حين قال: ذاك في العالم المثالي.

أجل في العالم المثالي وليس عندنا، لأننا ربما أدمنا فكرة المراوحة في المكان ذاته، ظللنا في ذات البقعة خوف التقدم خطوة لأنها مغامرة تتجاوز المألوف. أجل، في العالم المثالي لأنه لا يمكن لنا أن نخطط قبل أن ننفذ، لا نفكر قبل أن نخطو، لا نبصر قبل أن نتقدم... ولا نتمعن قبل أن نعلن أي قرار.

لقد خدرتنا هذه 'العوالم المثالية' حتى صرنا عاجزين عن التحرك قيد أنملة من أمكنتنا الأولى، نحس بالخدر يشل أعصابنا وعقولنا لأننا حشرنا بمفاهيم غير سوية عن المثالية. لماذا يسري هذا العجز فينا، لماذا لا نبادر، لماذا لا نعلن خطواتنا الجريئة في وجه كل شيء؟

لا تتحرك فخطواتك لن توصلك إلى شيء! لا تفعل ففعلك لن يحقق لك طموحاً! لا تفكر فتفكيرك لن ينتج شيئاً! هذه المثالية التي يريدها بعض الناس أن تظل في عقولنا، المثالية في كل شيء.

أعرف أن شيئاً واحداً هو المثالية بعينها في دنيانا: الوحي، وما دونه فليس مثالية أبداً. نستطيع أن نفكر بتلقائية، نستطيع أن نناقش بحرية، نستطيع أن

نبتكر، وهذا ما يجب أن تصل إليه عقولنا. أما أن نغلق الباب أمامنا، فنقول: لن نصل إلى ذلك الطموح لأنه قابع كالنجمة في عالم مثالي فذلك عقم يجب أن يجتث. أو أن نلقي تطلعات الغير أو أفكارهم أو تساؤلاتهم في البحر، لنقول له: ذلك في العالم المثالي أنت لست واقعياً، أنت تبدد وقتك في تساؤلات غبية لا يجب أن تسأل.

سأل الرجل: لماذا لا تخططون قبل أن تنفذوا؟ وكان من الأجدر أن تكون إجابة المسؤول: كان ذلك هو الخطأ الذي وقعنا فيه وكان علينا أن نتفاداه. فليس عيباً أن نعلن الخطأ، بل العيب أن نستمر فيه بإطلاق فكرة 'العوالم المثالية' التي لن تتحقق. وأعتقد جازماً أن الحضارة الحقيقية هي التي تفكر في المثالية من أجل أن تسعى إليها راسمة أهدافها متطلعة إلى مراميها. وما وصل إليه الآخرون، هو ذاته الذي نصفه نحن بالمثالية، يا للأسف!

تصحيح النظرة نحو الآخر (1)

ما نعنيه بالآخر أولاً هو المتعارفُ على تسميته "بالأجنبي" و"الغربي" على وجهِ الخصوص، وهذه عقدةٌ ما انفكت تلاحقنا لأسباب سنذكر بعضها لاحقاً، وما برحنا نحن أيضاً نلقي بكل همومنا وتخاذلنا على شماعتها. وقد استنزف ذلك منا الوقت الكثير الكثير لو أنفقناه في سبيل نهضتنا وتطوّرنا لكنا اليوم في صدارة الأمم.

ها نحن اليوم أمام ظاهرة العولمة، وهي الأخرى لم نحدد منها موقفنا الموحد. وقد برزت ثلاثة تيارات متباينة الآراء لمفكرينا العرب في مؤتمر عقد في القاهرة وشارك فيه نحو 40 شخصية فكرية وأدبية، قدمت بحوثاً من دول عدة. يمثل هذا الإختلاف في ظاهره مسألة صحية لأن تعدد الآراء هو ما يدفع إلى الإلتفات إلى جوهر الأشياء. لكنه، في باطنه، يشير إلى أن هناك نوعاً من الإختراق الثقافي قد تم بالفعل ونجح في أداء دوره بكفاءة. وبرز ذلك من خلال التيار الذي يسم ظاهرة العولمة بأنها ثورة معلوماتية، والذي دعا إلى ثقافة كونية لاتعترف بالثقافة القومية، وبالتالي لا تراث ولا حضارة ولا صلة، وإنما توحُّدٌ إنسانيٌّ محكوم ببرامج أخرى هي أقوى منا شأناً ونفوذاً، كما هو حال برنامج "الأمركة" الساعية إلى فرض الهيمنة عالمياً بما تبثه من قيم رأسمالية بحتة لاتعترف بالخصائص الثقافية المتباينة والمضادة لها ولفكرها الداعي إلى التحرير الاقتصادي. وهو كما يُرى مفهوم ظاهره الوجه المادي وباطنه الإختراق الثقافي اللامتناهي، والذي لا يمكن بأي حال من الأحوال مقاومته في حال إختراقه.

ولعل التكريس لمقولة متهافتة لم يصبح لها مذاق فعلي جرَّ إلى النكوص المستمر إلى الوراء والتقوقع في دائرة الرجاء بأن يعترف الآخر بفضل الحضارة العربية على علومه الطبيعية وعلى جرثومة نشأته. فما الذي تجديه مقولة أن

الغرب ينكر الجميل الذي أسدته له الحضارة العربية في سابق عهودها حين بلغت أوج نشاطاتها الحضارية الفاعلة، وما الذي تجديه أيضاً مقولة أن التقهقر الذي حدث للأمة العربية والإسلامية مردَّه إلى الغرب. لقد كرر التاريخ أمثال هذه المقولة، وإن يكن في ظاهر الأمر، سيما وأن في المقولة الثانية حجماً مسلماً به من التصديق المادي، بسبب الحملات الإستعمارية المتعاقبة والتي ربما انتهت "نظرياً". لكن الجوهر الحقيقي للأمور، والتمعن الصادق العقلاني، يحملان إلى توصيف السبب بأنه نفسي داخلي أدى تضعضعه إلى تراخي خطوطه الدفاعية تماماً كحالة الجسد الذي يفقد المناعة الذاتية ومقاومة الدخيل الآخر.

وكثيرٌ من المؤتمرات والندوات واللقاءات والطروحات وغيرها من الأشكال والقوالب الثقافية قد إنتهت إلى خلاصة مؤداها أن الآخر هو السبب في تثبيط الحضارة العربية وتنتهي كل التظاهرات التي صرفت عليها الأموال الطائلة عند هذا الحد. وهو كلام مكرور يتمتع بجاهزية فذَّة لا تبارى. ولا يمكن بأي حال من الأحوال تجاوز هذه النقطة إلى الفكر الذي ينتج عملاً حقيقياً يركن تلك المقولات جانباً ويتفرغ إلى المعمل والمختبر والمصنع والسوق والأفكار الجادة، التي تسوِّغ العمل الحضاري مستغلة كل العوامل - وهي في صالحها - الدين والتاريخ والفكر واللغة وجميع المقومات والخصائص الإنسانية الأخرى، هذا إلى جانب الثراء في المقومات الطبيعية التي حبا الله أرض الجزيرة العربية بها. لكنها – اللقاءات المختلفة - تقفل ملفاتها كما بدأتها، حتى أصبح العربي لا يستسيغ من أمثال هذه الجاهزية الباهته ولا يُلقي لها بالاً لأنها لا تحرك فيه دفيناً، ولاتدفع ساكناً، وقد أدى هذا بالتالي إلى تكريس الانهزامية وتحقير الآخر. كما أدى ذلك، بالطبع، إلى الإبتعاد عن الأسباب الحقيقية للنكوص. ولعل مرد ذلك الخشية النفسية من مواجهة الذات، ومحاسبة الضمير، "الضمير"، هذا المصطلح اللغوي العظيم والمرجع النفسي الكبير الذي يوسم بأنه ظل الله في الأرض، توفقنا فيه لغوياً ولم نتوفق فيه عملياً.

تصحيح النظرة نحو الآخر (2)

في المقال السابق تحدثنا عن جاهزية المقولات التي تخرج بها تظاهرات بعض المثقفين العرب والمسلمين حول إلقاء السبب الحقيقي وراء النكوص الحضاري للأمة على كاهل الآخر الذي عرفناه بالغربي. وأصبحنا لا نختلف على وجهته نحن بشرقنا وغربنا وشمالنا وجنوبنا كتلة شرقية وهو بوجهاته الأربع غرب. لا نختلف حول هذه النقطة أبداً ولا نختلف أيضاً في جعل الغرب شماعة نلقي عليها تخاذلنا وقصورنا، ونحن نعلم تمام العلم الذي لايشوبه شك بكل التآمرات التي انحدرت من الغرب بأشكال مختلفة وعميقة أيضاً. هذه مسلمات تاريخية بديهية لا تقبل الجدل. فالإستعمار المادي والنظري شتت الذات العربية، وكرست مفاهيمه الإمبريالية الانهزامية الذاتية حتى أوصلها إلى درجة التسليم بتفوق الآخر وعدم المقدرة على تحقيق الموازنة معه بأي حال من الأحوال، كما أنه أوصلها إلى التشرذم الحضاري - من جانبه الفكري السطحي - الذي فقدت معه عناصر قيامها، وعوامل نهضتها، فقطع حبال وصلها بالتاريخ عن طريق تشكيك المستشرقين في كثير من المسلمات التاريخية العربية، وتدخلهم اللامبرر. وبدون اتباع الأسس العلمية في الأبحاث تحملهم نوايا هدامة، فتضيع عليهم شروط البحث العلمي الصحيح، وتنفي عنهم المصداقية الفكرية وهم الذي ينتمون إلى الحضارة التي قامت بالعلم، أفلا تحملهم مقتضياته وأساسياته إلى إنتهاج الإساليب العلمية لبرهنة الحقائق، وما لهم يضربون عرض الحائط وجه كل من تسول له نفسه مبارزته بنفس السلاح الذي اعتقدوا أنه السبيل الحقيقي لنهضة الشعوب وتقدمها وهو المنهج العلمي العملي الدقيق حين أنكروا على المفكر الفرنسي المسلم روجيه غارودي جهوده واتهموه بالعنصرية ومعاداة السامية، والدلائل والبراهين لا تحصى على التخطيط الدؤوب الذي تحركه الصهيونية بحبال دقيقة، وهي مسلمات يعلمها العربي تمام العلم، ولكن ثمة سؤال أصبح

يلح عليه وهو: كيف يكون المخرج؟ يبحث عن التجاوز، عن نفي الارتهان إلى المسلم التاريخي الجدلي، يبحث عن الأفكار التي تنتشله من مغبة الاحتقان المعيشي، يبحث عن الإنفراج الذي يمكنه من القيام على قامته، ونحن هنا نقول إنه لامجال لذلك إلا بالخروج من دائرة تعليق الاخطاء إلى المواجهة. ليس مع الآخر وإنما مع الذات، وإظهار عيوبها، وتشريحها ثقافياً، وانتهاج الأسلوب السليم الذي تحمله نوايا صادقة وحقيقية في عملية النقاش تلك. هناك الكثير من الثوابت والكثير من المتحولات وهذه الأخيرة قابلة للنظرة الجادة التي تخدم الوضع الحضاري وتعيد التاريخ إلى نصابه الصحيح، ويؤكد المفكر العربي محمد عابد الجابري على أهمية "إعادة بناء الثقافة من داخلها وممارسة الحداثة في معطياتها وتاريخها، وفي ذات الوقت، اكتساب الأسس والأدوات التي لابد منها لدخول عصر العلم والتقانة وفي مقدمتها العقلانية والديمقراطية، وفي إعتقادي بأنه الطريق الأوحد إلى إعادة الشكل الحضاري بصورته الجديرة بالإعتبار بدلاً من جعل الآخر على طول الخط حبلاً لنشر الغسيل. يذكرني هذا بمقولة سيدنا عمر بن الخطاب لقائد جيشه، احترس من إختراق العدو، فإنهم إن ينتصروا عليكم فليس بسبب من قوتهم ولكن بسبب ضعفكم.

هكذا تبدو العقلانية أكثر تقبلاً من جاهزية الاتهامات، التي مع صدقها فإنها تثبط المعنويات، وتكرس الروح الضعيفة الخانعة، ولا تمد الشريان النفسي بأية منشطات حيوية تساعد القلب على إستعادة رتم نبضاته السليم. فليس من سبيل للانتشال من الغرق سوى إعادة الإنتاج الثقافي ورسم طريق موضوعي تساهم فيه الأفكار بدور كبير، وتخضع من خلاله "الأنا" لمحاسبة متعقلة، فاعلة، غير منحازة، وحين سنقفل ملفات الجدل الثقافي عند الانتهاء من إتهام الآخر ونركنها للتاريخ، فإن الإجابة القادمة كامنة بأي حال من الأحوال فينا دون أية مواربة أوخديعة، وهو المخرج الحقيقي.

عقول مضطربة...!

لا تريد الكثير من العقول أن تستشرف آفاقاً جديدة من التحضر، ولا تريد أن تخرج من بوتقة فهمها الضيق لتتوسع في الإدراك، ولا تريد أن تعلو قليلاً فوق سطح محيطها، الذي توهمت طوال أزمنة أنه واسع لترى من أعلاه بقليل كم هو محدود وضيق، ولا تريد هذه العقول أن تخرج عن الإطار الذي ورثته تركةً أو اتخذته طبعاً أو اقتنعت به شكلاً.

وإنما تريد أن تعيش في وهم رسم لها الزيف في شكل حقيقة جعلها تعتقد بأنها دائمة الصواب في نظراتها بينما الآخرون – بغض النظر عن مشاربهم ومذاهبهم – على خطأ في التقدير والإدراك والنظر. تريد أن تسير في الطريق الذي تراه، حتى وإن كان يمتد في غياهب الظلام، إلا أن لديها إيماناً بأنه سينتهي إلى فناء رخامي وليس إلى البحر. تريد أن تظل ممسكة بما تظنه المصير فتتصور الآخرين كالدمى تتراقص حين تحرك هي خيوطها من علٍ. تريد أن يقال لها إنك على صواب في كل نظرة من نظراتك، وإنك ترمين الحقيقة، وإنك بعيدة عن الوهم، وإنك سليمة الخيال، وإنك موضوعية ومنطقية... ويمتد المديح والتلفيق.

لقد تطورت أدوات العصر. نحن في عصر التنوير. لكنها لا تريد أن تعرف ذلك. نحن في عصر العلم، ولا تريد أن تستوعب ذلك. نحن في عصر التقنية، التي أعدها العقل الحاذق سلفاً، ولا تريد أن تفهم ذلك. إنما غايتها، التي تصدها عن تلك المعرفة، هي أن تبقى على وضعيتها بملامحها الثابتة دون تغيير. وإن حدث تغيير، فليس لقناعة بأهمية التغيير كأهمية عصرية، ومنطلق ثقافي، ووسيلة حضارية، بل لإعادة مركزة الذات للحفاظ على المحورية والشخصية التقليدية.

الكثير من العقول في المؤسسات العاملة – وهي مضرب المثل – لا تريد أن تفتح شباكاً على العالم الخارجي، فتتنسم من أنسام الأجواء المفتوحة، إنما تريد

ان تحبس نفسها في جدران مكاتب مغلقة، هي، في الحقيقة، أشبه بزنازين مرعبة!

لن أستغرب وجودها، لكن ما يدعو إلى الاستغراب هو كثرتها إلى جانب عنادها وإصرارها على البقاء في معتقدها وإطارها الشخصي. والمؤسف أننا نتحدث عن عقول تشرب بعضها من مناهج دول متقدمة، تمتلك أدوات حضارية تمكنها من تجاوز نفسها لتنظر إلى مصالح أرقى، لكن ما تمارسه هذه العقول في واقعها العملي أفظع مما يمكن أن يمارسه عقل متحجر لم يرَ أنوار حضارة أخرى، ولم يتنفس أجواء فكر مختلف، ولم يعش في ثقافة منفتحة المشارب... وهذه هي المصيبة! والمقلق، أن معظم أصحاب هذه النوعية من العقول هم من الشباب الناضج الذين يعوّل عليهم المجتمع في تجاوز مفاهيم معرقلة، لم يعد لها ضرورة عصرية. وربما حين يفتش المرء في الماضي يجد الكثير من المواقف المستنيرة الحداثية في زمنها هي جزء من إرثنا الحضاري قد شكلت نقاط تحول في تاريخنا لولاها لما وصلنا للحالة الحضارية الواعدة التي وصلنا إليها.

إنتاج الأفكار

في مجتمعات شتى، يدلل فيها العمل الأهلي لمجموعة من السكان لخدمة مشروع ما على ذلك الوعي في النهوض بفكر المجتمع وترسيخ مبادئ قيامه، وأسس نهضته. لكننا نفتقد مثل هذه المشاريع الأهلية الاجتماعية في مجتمعاتنا، في حين أن الكثير من الشباب ملتزمون بجلسات المقاهي أو الأماكن التي تعودوا على ارتيادها، دون نتاج شيء يذكر، في حين أن هناك الكثير مما يمكن عمله لصالح المجتمع، عمل يخص مجالاته الاقتصاديه أو الإعلامية أو التنموية وهذه في قدرة الكثير من الشباب الذين يملكون الوسيلة لتحقيقه ولكنهم لا يملكون الإرادة النافذة. إنني لأشفق على الكثير من شبابنا الطارح نفسه على جلسات المقاهي كل ليلة، ومثلهم الآخرين الذين ينتشرون مجموعات على أضواء الطريق – المفارقة أن الإضاءة إنما نصبت لتخدم العابرين أصحاب الفكرة المتحركة وليست الساكنة – الجلسة، في حد ذاتها، إن سخرت لما يخدم الإنسان نفسيا وعقليا وروحيا تكون ذات منفعة وفائدة. فقد خرج منها مثقفون وأدباء قدموا للحضارة الإنسانية أروع نتاجات الفكر والإبداع. لكن إن كانت مكرورة لا جديد فيها، فهي دورة فارغة لا تضيف شيئاً للمرء بل تضعه في حالة ركود فكري وعقلي.

لقد تذكرت مشهداً نشرته إحدى الصحف اليومية العربية يبرز فيه شباب عرب يلعبون الورق في حين تجمع عدد من الشبان الأجانب وراءهم للبحث في الإنترنت عن موضوع ما، وكانت الصورة شارحة بذاتها. وللاسف فهذه الصورة تتكرر كثيراً. ولا مناص من الفكاك منها إلا بوعي الفرد بدوره في مجتمعه، وتجاوزه الإنجاز، من خلال ساعات الدوام الرسمي، إلى العمل التطوعي.

لقد حاولت في فترة قريبة الاعتماد على عدة مجموعات من الشباب للمساهمة في عمل إجتماعي يستهدف التثقيف في موضوع ما. وكان أملي أن أرى

كل مجموعة تساهم في المجال الذي تشتغل فيه، إلا أن محصلة الحماس كانت ضعيفة وغير متوقعة مني. وأعتقد بأن الشباب لو سخروا إمكانياتهم في المشاريع الخيرية الهادفة والحيوية لتغير الكثير من شكل ملتقياتنا ومهرجاناتنا واحتفالاتنا، وهذا ما تدلل عليه بعض الأعمال البسيطة التي يقوم بها بعض الشباب المجتهدين لإظهار شكل محفل ما.

إن هذا الزمن هو زمن التقوقع، زمن العزلة، يخلو فيه المرء بجهازه فتتشكل ثقافته بمعزل عن الآخرين، فهو في تواصله فكرياً مع آخرين هم على الأرجح رموز لا يعلم عنهم إلا تلك الأحرف التي يتلقاها في تواصله معهم.

وثمة سائل يسأل: هل نلقي اللوم هنا على الشباب دون الأخذ بالأسباب الأخرى؟ وأقول إن علينا أن نتخيل بداية صنع المجتمعات كيف كانت، ونتذكر، على سبيل المثال، قصة النهوض الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية. سنعرف حينها قيمة الفكر الإنساني كمادة خام أساسية لصنع المشاريع. فعن طريقها، يُذلّل الكثير من الصعوبات، ويتوفر الكثير من المتطلبات، ويقوم للأمة شأن، وأي شأن!

ثقافة التآمر

بين رؤية تستنطق الوقائع وتستكشف البعد من ورائها، وبين أخرى تخشى المغامرة، يوصلها خمولها أو نقص عناصرها إلى محدودية الحكم، بون شاسع بين النظرتين وعوالم لا يمكن إدراكها إلا بالوعي.

كثيراً ما تؤثر علينا ثقافة التآمر، هذه الثقافة التي عطلت النمو في حركتنا على مختلف الأصعدة. تآمر ثقافي سياسي اقتصادي ديني... إلى آخره، بينما غابت ثقافة الإصلاح أو النقد. وربما لو حاولت أن تنتقد بموضوعية شأناً من الشؤون سينظر إليك على أنك تغرد خارج السرب. وتغريدك هذا خارج عن أصول التغريد ذاته، بل إن الفضاء الذي ترفرف فيه حافل بكثير من المكامن فارغة الأكسجين يمكنها أن تحاصرك في إحدى دوائرها.

ذات مرة حاولت أن أنقد (أقصد أن أبدي وجهة نظر معينة في عمل بعض الجهات في شأن من الشؤون)، وكان الرد من تلك الجهة شخصياً، أي أن أحد المدراء المسؤولين عن العلاقات أو الإعلام في تلك الجهة نظر إلى الموضوع كأنه تهكم شخصي على أشخاص بعينهم. وهذا قصور في النظر والدليل أن لا أحد يتطرق لفرد يترك العمل في مؤسسة كانت محل نقد بقدر النقد الذي يناله وهو يشغل المنصب. أما أحد الذين اتصلوا بي، ذات يوم، لتقديم الشكر حول وجهات نظر قلتها في بعض ما قدموه من أعمال، وبعد حوار جميل دار بيننا، أُفاجأ بمقال ينشره محدثي رداً على وجهات نظري تخالف تماماً ما دار بيننا من حديث وعلل ذلك بأنه وقع تحت "ضغوط الأصدقاء".

إذن، نحتاج إلى مبادئ قوية نؤمن بها وليس أقوى من هذه القاعدة التي قام عليها ديننا الحنيف: "الدين النصيحة" ركيزة عظيمة، لكن جربها على أحدهم (إلا من رحم الله). أذكر أن أحد الكتاب العرب امتدح المؤلف المشهور بول

كنيدي لتشخيصه الوضع في أمريكا وأوروبا واليابان والصين والهند، لكنه عاب عليه تشخيصه لأوضاع منطقة الشرق الأوسط فرآه "خروجاً عن وقار الأستاذية وهيبتها." وعلق على ذلك الكاتب المصري، الدكتور فؤاد زكريا، بقوله المشخص أيضاً: "إن المتأمل لتطورنا الفكري يشعر بأن هناك نوعاً من التناسب الطردي بين مدى تخلفنا ومدى إنكارنا حقيقة هذا التخلف، فكلما زادت أوضاعنا تدهوراً، ازددنا ميلاً إلى رفض الاعتراف بهذا التدهور، وازددنا شراسة في الهجوم على من يشير إليه – مجرد إشارة – ويصل الأمر في الحالة التي نحن بصددها إلى حد الخداع الذاتي بأجل معانيه."

وبالطبع، فإن هذه الظاهرة إن لم تكن سمة تلصق بالشخصية العربية، ولا تحاول التخلص منها بإدراك أن "الاعتراف بالحق فضيلة" وأن عليها أن تقاوم في سبيل اعتقاداتها وإن كانت مخطئة. وأعترف بأن هذا الأمر قادنا إلى سكون هامد، كما قادنا إلى التصرف بغير ما يجب أن نظهر به. إن ثقافة التآمر تسود أوضاعنا في جوانب شتى لا حصر لها، أما كيف نتخلص منها، فتلك هي مشكلتنا (الحضارية)!

أشد أعداء الإنسان

ليست الوحوش الضواري، ولا الأمراضُ الداهمة، ولا ملمّاتِ الحياةِ القاسية، ولا مِحنِ الطبيعةِ، أشدّ ضراوةً، وأغلظُ قسوةً من الإنسان! الإنسانُ هو أشدُّ أعداءِ الإنسان! وأعظمُ ما يخشاهُ الإنسانُ هو ابن جنسه: الإنسان! فهو الذي يقصدُ الإيذاءَ، ويضمرُ الحقدَ، ويُخفي المكرَ، ويدسُّ المكائدَ، وينوي الخديعة! هو لا غيرهُ المعمورُ بالغلِّ، الثائرِ بالغلواءِ، المفعم بالسخريةِ، المليء بالضغينة!

وأولُ برهانٍ على ما تقدّم أنّ أول أخٍ (إنسانٍ) قتلَ أخاهُ (الإنسان) بدافع الحقدِ، والغلِّ والحسدِ، فقابيلُ جسّد هذه الصفات، وهابيلُ جسّد التسامح، والعفو، وصفاء السريرة. وهكذا مضت الحياةُ الإنسانيّة بعدهما على هذا الأثر: إنسانٌ ظالمٌ، حاقد، يبسطُ يدهُ ليقتل! مقابل إنسانٍ متسامحٍ، يبسطُ محبّتهُ ليمحقَ غلواءَ الحقدِ، ويكفَّ بها مكيدة الغدر. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ البقرة/251

لا يحذرُ الإنسانُ من شيءٍ أكثر من حذره من الإنسان. فكم هم الأعداءُ في حياةِ كلِّ إنسانٍ، أولئك المعوِّقون للنجاحِ، المثبّطون للتقدم، المليئون بالبغضِ، الراغبون في الانتقام. ولقد نبّهنا الله سبحانه وتعالى إلى حقيقةٍ قمينةٍ بالانتباهِ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ التغابن/14..!!

إن حول النّاسِ أناسٌ لا همَّ لبعضهم إلاّ تنكيد غيرهم، وإضمارِ الشرِّ، والكيدِ لهم، والانتقامِ منهم، وعرقلة خطاهم، وتدمير سعادتهم، وتهديم أسقف بيوتهم على رؤوسهم. يعاني هؤلاءِ من خللٍ نفسيٍّ، ونقصٍ عقليٍّ، وعيبٍ شخصي. هؤلاءِ ليس لهم في الحياةِ أهدافا ساميةً، ولا مطامح نبيلة. فقد رضوا أن يمشوا في

الهامشِ ليكيدوا للناجحين، ويقرضوا الفتات الذي يسقطُ منهم، وليتهم دروا بأنّهم حين يفعلون ذلك إنّما يتحقّق عكس مرتجاهم، لقولِ الشاعر:

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طويت، أتاح لها لسان حسود

ويقول آخر :

لولا اشتعالُ النّار في ما جاورت ما كان يُعرفُ طيبُ عرف العودِ

وليتهم أدركوا أنَّ ما يستبدُّ بهم من مرضٍ، وما تهاجمهم من عِللٍ، إنما سببها ما يضمرونه من حقدٍ وغلٍّ وغضب على الآخرين. فكم هم أولئك الذين لم يتعدوا سنَّ الشباب إلاّ أنّك لا ترى فيهم نضرة الشباب، ولا حيويّته، بل تجاعيد الشيبِ، وتجهُّم الهرمِ. وما ذلك إلاّ لأن قلوبهم محشوّةٌ بالكيدِ والغدر لهذا، والغيظِ والحقد لذاك! ألم يقل الشاعر:

"من راقب الناسَ مات غمّا وفاز باللّذةِ الجسورُ

هؤلاءِ بيننا ولا سبيل إلى تصوُّر الحياةِ بدونهم فلن نكن واقعيين في إدراكنا لهذه الحقيقةِ، وحسبنا أن نملك زمام أنفسنا ونكبح جماح عواطفنا إن هي ثارت لسخريةٍ ساخرٍ أو لتهكُّم حاقدٍ، أو لنقدِ سفيهٍ، أو لتحقير جاهلٍ، أو لسخطِ متجهّم. فقاعدتنا في هذا تتجسّدُ في الحديثِ الشريف "ليس الشديدُ بالصرعةِ وإنما من يملك نفسه عند الغضب". فهو الأسلوبُ الذي يمكنُ عن طريقه حفظُ ماءُ الوجه عند الأنانيِّ الذي لا يرى غير نفسه في ما يتميّز فيه الآخرون من صفاتٍ رائعة بينما يصيبُ نفسه بالنُّقصان، ويردي شخصهِ بالخُذلان. ذات يوم، أراد حاقدٌ ساخر أن ينال من الأديب برنادشو في إحدى الحفلات، فسأله متهكّماً بصوتٍ عالٍ:ِلَماذا أنت دائم الكتابةِ عن المال؟ فردّ عليه برنادشو سائلاً: وأنت عمّ تكتب؟ قال المتهكّم: أكتبُ عن قضايا الأدب. فردّ عليه برنادشو: كل واحد منّا يكتبُ عما ينقصه.

أخبرني صديقٌ مقرّب أن مسؤوله في العملِ أضمر له مكيدةَ، لأنّه ناقمٌ على أقرباء له بعيدين، فلم يقدّر سنوات خدمته المديدة في العمل وتفانيه وإخلاصه وإضافاتهِ وأفكاره التي ساهمت في تطوير آليات العمل، فأبعده إلى موقعٍ إقليمي

بعيد، فعزَّ على الصديق أن يعامله مسؤوله بهذه الطريقة التي لا تليقُ به، ولكنه احتفظ بهدوئه ورزانته، ووطنّ نفسه على التأقلم مع وضعهِ الجديد، لكن مسؤوله مضى أبعد من ذلك في إيذائه فتجاهل ترقيته، بل أنعم بالترقياتِ على آخرين، كانوا تلاميذ لهذا الصديق حتى أصبحوا في مرتبةٍ أعلى منه. فثارت ثائرتهُ، وكتبَ خطاباً صبَّ فيه جام غضبه، لكنّه حين انتهى من كتابة الخطاب كانت ثورة نفسه قد هدأت، فتمعّن في الخطاب، فرأى أن سطوره حملت ما اعتمل في قلبه من غلواءِ الغضب ورأى أن يمزّقه ويكتب خطاباً آخر، بنفسٍ هادئةٍ. واستشارني الصديق في ما حمله الخطاب فوجدتُ أنّه قد سلك المسلك السليم الذي ينبغي له أن يسلكه كي يعكس شخصيته، فقد أثنى على مسؤوله وشكره على ما أسدى له من خدمات، وأبدى فخره بالأعمال التي ساهم بها لتطوير عمله، والإنجازات، التي كان له يدٌ في تحقيقها، ويسعده في الأخير أن يوافق رئيسه على تقاعده بعد أن اتخذ قراره وهو سعيدٌ به مطمئنٌ له.

وهذا يدلُّ على أن بعض الناس قد يصلُ إلى مقاماتٍ رفيعةٍ في المناصبِ، لكنّه بعيدٌ عن الرِّفعةِ في انتقامه من الآخرين، وحقدهِ عليهم وحسدهِم. وما يثير العجبِ أنه كلّما زادَ علوّاً في المنصب زاد حدّة في الحقدِ والغلِ والغضب. لربما يحسد الآخرين أو يعيقهم كي لا يصلوا إلى ما وصل إليه، لئلا يبدر من أحدهم ما لا يليقُ بمقامهِ من سلوكياتٍ، وما لا يوائمُه من عبارات. لكنّه يعبّرُ عمّا يجيشُ في نفسهِ. يقول أحدهم: ما إن نصِّب فلانٌ منصباً رفيعاً حتى تبدّلت نفسه، فأصبح يثورُ لسبب تافه، ويغضبُ لأمر سخيف، وينتقمُ لكلمةٍ غير مقصودة. غرّته نفسه بأنّه يمتلك قوّة ويستطيع إيذاء الآخرين، حتى نفرَ منه الصديق والقريب.

لا يمكنُ مواجهة حدّةَ مشاعر هذا الصنف من الناس بالقلق، ولا غلظة أسلوبهم بالغضب، ولا سخريتهم بالثوران، ولا حسدهم بالتفكير، ولا حقدهم بالتوتر، ولا انتقامهم بالتدبير للرد، إنّما مواجهتهم بالتجاهل والصفح والعفو. ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الشورى/40، فهم يستحقّون الشفقة لأنّهم مرضى القلوب. فالصفح والتسامح هو أساس الرسالة التي

حملها الأنبياءُ والرسلُ على سطح هذه الأرض لكلِّ الناس الذين اعترضوا على الحقِّ البيّنِ، وحادوا عن الصراط الواضح. هذه الرسالة كانت واضحةً عند فتح مكّة، هناك حيث بلاءُ النفوس، حينما دخلت جيوش المسلمين مكّة بقيادة رسولنا الكريم، وارتجف المشركون. لكن النبي العظيم يقول لهم مسامحاً وصافحاً: "إذهبوا فأنتم الطلقاء!" وقد سبقت ذلك مواقفه المتسامحة ﷺ، ومنها موقفه من اليهودي الذي كان يؤذيه برمي الشوك أمام عتبةِ بيته، فلمّا مرض اليهودي زاره النبي الحليم، ولم يغادر اليهودي دنياه في ذلك الموقف إلا ونطق بالشهادتين!

الأعداءُ يحيطون بنا، وأغلظهم من الأقاربِ الذين يظنُّ المرءُ أنّهم سندٌ له وعضد، وأنّهم أعطفُ الناسِ عليه وأرق. إنّما منهم من يكون أشد شراسةً في المكيدةِ، وأعمقُ أثراً في الغل، وأشدُّ إيغالاً في التحقير، وأبعدُ قصداً في الإيلام! فليس كلَّ قريبٍ بالضرورةِ قريبُ العواطف وليس كلَّ بعيدٍ بالضرورةِ بعيد المشاعر، فـ "ربَّ أخٍ لك لم تلده أمّك،" وربَّ "أقاربَ عقاربَ،" كما يقال في المثل الدارج. لكن تحتّم علينا نفوسنا، ورسالتنا في الحياة، ورقيّنا، وتحضّرنا أن نرقى بأنفسنا فوق الكيدِ والحقد والكراهية والبغضاء والغلِّ والحسد، ونرقى بصفحنا، بتعاملنا، بتسامحنا وما أعظمها من أخلاق! ونتطلع إلى أهدافنا السامية، ونواصل تحقيق نجاحاتنا المتوالية التي تزيدنا ثقةً بأنفسنا، وتزيدُ أعداءنا تعباً وإرهاقاً ومرضا!

آفة بعض الناس

حكاياتٌ تروى، وواقعٌ يعاش، وفي صميمهما آفةٌ بغيضةٌ ذات انتشارٍ واسعٍ في مجتمعاتنا كأنّها الدودةُ التي تنخرُ قواعده. الآفةٌ هي التفافُ بعضُ الخَلْقِ حولَ إنسانٍ ما، ليس لإنسانيتهِ، لكن للمنصبِ الذي يتبوّأه. وقد أخطأ الطرفانِ في التعاطي مع بعضهما بعضاً. الأول، وهو صاحبُ المنصب الرّفيع، أو واسطةُ المصلحةِ المنشودةِ أخطأ في سروره الواهم، وغبطتهِ الزائفه بهذا الإلتفاف الحاشد من النّاس حوله، والاحترام الجمُّ، والتبجيلُ المفرط الذي يغدقونه على شخصه. أمّا الطرف الثاني، فيمثل الكثي من الخلقِ الذين لم يروا في الإنسانِ خُلقه، وهي ركيزةُ دينه "الدينُ الخلق"، بل نظروا إليه مفرّغاً من معاني الفضيلة، نظروا إليه كواسطةٍ لتحقيق مصالحهم.. نظروا إليهِ كأداةٍ للوصول إلى أهدافهم وغاياتهم. وهم في ذلك مجاملون، أفّاقون، انتهازيّون، فقال فيهم الشاعر:

يعطيكَ ما فوق المنى بلسانهِ ويروغُ عنك كما يروغُ الثّعلبُ

كم من النّاس وقعوا ضحايا وَهْم السرور الواهم من هذه الالتفاف الحاشد من الخلق وهم في مناصبهم الوظيفية، وما إن تقاعدوا أو نُقلوا منها حتى ظهر لهم هذا الإلتفاف فقاقيعَ تتقاذفها رياحُ المصالحِ، فتتفجّرُ في الفضاءِ، تفجُّرَ الظنون الواهمة.

وحين أتصوَّر هؤلاء الناسِ – وهمُ كثر – في مجتمعاتنا أقولُ أين هم والدِّين! الدِّين الذي يبني الأخوّة ليس من أجلِ متاعٍ دنيويٍ رخيص، وإنّما من من أجل المحبّةِ في الله، من أجل إنسانيةِ الإنسان، ومن أجلِ الخُلق الفاضل. الدّين الذي يرقى بالإنسانِ فوق المصالحِ، وينزّهه عن الوقوعِ في المصالحِ الآنيّةِ الضيِّقة.

كم من أصحابِ المناصب، ممّن كان النّاس يلتفّون حولهم إكباراً وإجلالاً وهم لهذا سعيدون ومغتبطونَ، حتى إذا وقفت القافلةُ وسكن غبارها، اكتشفوا

أن الأصوات الكثيرة المتعالية التي كانت تصاحبُ مسير القافلةِ إنّما كانت مجرّد صرير لعجلاتها، وأن الأكفَّ التي كانت تصفّق إنما تفعلُ ذلك لإضافةِ إيقاعٍ لازم للقافلة، وأنّ الوجوه التي كانت تتسابقُ وسط غبار القافلةِ كانت مجرّد أقنعةٍ صنعها غبار القافلةِ، وتوهّم صاحبها. لقد كُشف سكون القافلة وانفثاءُ غبارها عن الحقيقة حقيقةَ وَهْم الوجوه الكثيرةِ والأصواتِ المتعاليةِ التي كانت تتسابقُ في رفعِ النبراتِ بالطّاعةِ والمحبّةِ والتقدير.

أحدهم كان النّاس – من هؤلاءِ – يلتفونَ حوله، فإذا ما دخل مكانٍ ما التفّ من حولهِ (الأصدقاء) وأطلقوا في وجهه الضحكاتِ المبتسرة، والمجاملاتِ الفارغة من الصدق. يتسابقون في خدمته، ويتعاركون من أجلِ أقربِ مجلسٍ عنده، فلا يكاد مجلسهُ يكفي الجمع الغفير في الأعيادِ والمناسبات. يقولُ لي الصديق راوياً، وحين أُحيل من منصبهِ وذهبتُ لمجلسه، الذي كان يفيضُ بالمهنِّئين المجاملين الكُثر، وجدته فارغاً يتردّد الهواءُ فيه مقلبّاً مرارةَ الرّجلِ وحسرته على واقعِ النّاس. وآخر من أصحاب المناصب الذين كان النّاس يتنافسون على الحصولِ على حظوةٍ منهم ورضا، دعاهم لمناسبةٍ لديه حين تبدّل حاله – ولا شيء ثابت سوى التغيير كما يقول أحد المفكرين - وتقاعدَ عن منصبهِ أو قُوعد، يقول الصديق قاصّاً، فدخلتُ إلى مكان المناسبةِ فوجدت الطّعام وقد وزّع أصنافاً وأفناناً فوق صفوفٍ طويلةٍ من الطاولاتِ بين وجبات أساسيّةٍ، ومقبّلاتٍ مختلفةٍ، وحلويّات مشكّلةٍ تحسُّباً للجموعِ الغفيرةِ، التي ستملأ جنباتِ المكانِ كعادتها، إلاّ أن الحضور لم يزد على أربعةِ أشخاصٍ. وآخر، ممن كان لو شاكتهُ شوكةٌ لهرع الخلقُ وهم يشكرون الله ويحمدونه على سلامة شخصهِ، هرعوا إليه بعد أن عرفوا أنّ ذلك العارض الذي ألمَّ به لن يفقده منصبه، وإلاّ ما كانوا ليتجشموا عناءَ المسافةِ لعيادته.

أيّةُ أخلاقٍ هذه، وأيُّ أناسٍ هؤلاء؟ أهمُ الناس الذين نرتجي منهم بناءَ مجتمعاتٍ رفيعةَ الأخلاقِ، عاليةُ الإراداتِ، قويّةُ الشكائم. أهم الناس الذين تتفوق بهم المجتمعات على غيرها وتتميّز؟ كيفَ للإنسانِ لدى هؤلاءِ – وهم كثرٌ بيننا – أن يكتسبَ التقدير والاحترامَ لمنصبٍ يتبوّأهُ أو لمالٍ يحصّله، أو لجاهٍ

يكتسي به وليس لإنسانيتهِ التي يشكّلها الخُلق النبيلِ، والفكرِ الحصيفِ، والنفسِ العفيفةِ؟ كيف يُنظر للإنسانِ من هؤلاءِ الناس وكأنّه "جسرُ مصالح" و"حبلُ غايات" و"قاربُ عبور" ولديهِ من الخصائص والسّمات الشخصّية ما هو أغنى وأثرى من هذه المطالبِ الآنيةِ، الضيّقة؟ يقول علي زيعور:"تشكّل المحاباة أو المسايرة مع الاغتياب وجهين لنفس الشعور الذي هو عدم احترام مشاعر الآخرين وعدم تحمُّل حريتهم في الإعتقاد والتفكير."

ذات مرّةٍ دخل إنسانٌ – لا ينظرُ إلى الآخرِ، بعين المصلحة، مهما علا منصبه – على رجلٍ ذي منصبٍ رفيع، فكان هذا الأخير يتوقّع منه – كما جرت العادة – أن يسأله حاجته، لكنَّ الأوّل قال له: جئتك مسلّماً وحسب. فدُهش صاحبُ المنصبِ وبان على وجهه السرور وقال له: أنت ثاني شخصٍ حسب ما تسعفني ذاكرتي جاء للسّلام. نعم النّاسُ للناسِ، أي أنهم يقضون مصالح بعضهم – كما تجري سنّة الحياة، وفق أنظمة وقوانين – إلاّ أن ذلك شيءٌ، والعلاقات الإنسانية الخالصة شيءٌ آخر.

بين إنسانيةِ الإنسانِ وبين المصلحةِ، تضيعُ الكثير من المعاني الساميةُ الرفيعة التي يغفلُ الخلق عن اكتسابها من صاحب المناصب الرفيعةِ. تضيعُ علومٌ وتجاربٌ وحِكمٌ وأخلاقٌ وسلوكيات، كان أحرى بالنّاس أن ينهلوا منها، ويتبادلوا الرأي بالإنسانِ مقروناً بقيمةِ منصبه، ومدى سلطتهِ، وحدود نفوذه لتحقيق مصالحهم الذاتية.

قال لي أحد الأصدقاءِ، وقد كُشف له زيفُ الكثير من علاقاتِ النّاس به: إنني أعيشُ وأنا في منصبي هذا حياةَ التّقاعدَ فلا أفرطُ في سروري بكثرةٍ من يلتّمون حولي من النّاس، ولا تغرّني مجاملاتهم، ولا وجوههم الباسمةِ، ولا كلماتهم المبهرجة، ولهذا المقصد اخترتُ بعض الأصدقاءِ ممن وجدتُ فيهم صدق النظرةِ إلى إنسانيةِ الإنسان، إلى خُلقهِ الكريم، وهم على الرغم من قلّتهم أعظمُ شأناً عندي من كثرةٍ تُشبهُ الفقاقيعَ التي سرعانَ ما تنفثئ بعد أن أترك منصبي. وحين ترك هذا الصديق منصبه العملي، لم يخسرَ صديقاً حقيقياً واحداً. هذا الصديق قد عمل بقول الشاعر:

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفت   له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ

لا تغرُّنك، إذن، كثرة الأصحابِ لصاحبِ منصبٍ أو جاهٍ أو مال. فهؤلاءِ ليسوا سوى طلاّبَ مصالحَ، ومنتهزي فرص، والأيامُ تُخبرُ، واللّبيبُ يعرفُ، والتجاربُ تُعلنُ، فلا يفعلُ المرءُ الحكيمُ إلاّ ما تمليه مبادئه السامية فذلك هو معينُ الرضا الذي لا ينضب.

قيمة التسامح

تأمّلتُ كلمة التسامح فوجدتها عذبةً في اللِّسان، سلسلةً في المنطوق، رقيقةً، ذات رنينٍ جميلٍ في السَّماعِ، لكنّها ثقيلةً على النّفس، يقبلها العقلُ كلمةً مجرّدةً لكنّه يجدُ كُلفةً في تطبيقها واقعاً. فما الذي يمنعُ كثيراً من البشرِ من تطبيقها، ورفضِ التخلُّقِ بها، وتحبيذِ الغلظةِ، والحدّةِ، والغضبِ، والكبرياءِ بديلاً عنها؟

إن "المسامحَ كريمٌ"، كما يقالُ في المثل، وكرمهُ هذا يصدرُ من نفسٍ زكيّةٍ، واسعةٍ لا تضيقُ مع أغلاط الناسِ، ولا تتكدّرُ مع سقطاتِ أنفسهم، ولا تهيجُ لإستفزازاتهم. إنّه كريمٌ لأن الكرمَ هو بذلُ العطاءِ في وقت الشدّةِ، والشدّةُ هنا حينَ يُغلظُ الناسُ في قولهم المهين، ونقدهم المشين، فيقابلهُ هو بعطاءِ التسامحِ والعفو، وهنا يعلو بمكانتهِ فوقهم مكانةً، ويسمو بخلقه مرتبةً يحسده عليها النّاس.

إن مصيبةُ أغلبُ البشرِ في أنّهم غير متسامحين، يهيجونُ للكلمةِ الخارجةِ – دون قصدٍ – عن مسارها، ويؤّولونها كما تصوّر أنفسهم الضيّقة، وعقولهم التي لا تؤمن بحقيقة أن عظمةِ النّفس تكمنُ في التّسامحِ فهو خُلقٌ لو تحلّى به المرءُ لعلى منزلةً، وارتفع قامةً بين النّاس!

ولو نظرت لأكثرِ خصوماتِ النّاس لقلت: إنّهم لو كانوا متسامحين لما تخاصموا. ولو عفوا لما كابدت قلوبهم من الضيقِ والبغضِ والحقدِ والمشاكساتِ ما كابدت، ولعاشوا كبارَ النفوسِ، لا تغيبُ الابتسامة عن شفاههم، ولا يفارقُ البِشْرُ وجوههم. يقول سيدنا، علي رضي الله عنه: من لانت كلمتهُ وجبت محبّته، وحلمك على السّفيهِ يكثرُ أنصارك عليه.

ويفهمُ أنّ من أنزلَ نفسه إلى مرتبةِ السّفيهِ، حطَّ من قدرِ نفسهِ، وخلطَ الناسُ حينها بينه وبين السّفيهِ. يخبرني أحدُ الأصدقاءِ أن رجلاً جاءه مدفوعاً

بكبرياءٍ زائفةٍ، ونفسٍ مغرورةٍ، يأمرهُ بفعلِ شيءٍ لا توافقهُ نفسه على فعلهِ، وحين يئسِ منه هذا الرّجل، رأى من رفضهِ إهانةً لشخصه، فوجّه إليه كلمةً مُهينةً، لكنّ الصاحبَ الذي يُخبرني ردّ عليه بالكبرياءِ الصادقِ، والأنفةِ الأصيلةِ: سامحك الله! ولقد كانت هذه الكلمة كالسهمِ الجارحِ على قلبِ ذلك الموهوم بعزّةِ نفسهِ. وحين أسمع رجلٌ سيدنا ، عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه بعض ما يكره، ردّ عليه: لا عليك، إنّما أردتَ أن يستفزّني الشيطانُ بعزّة السلطانِ، فأنالُ منك اليومَ ما تنالهُ مني غداً ، انصرف إذا شئت!

إذا استطاعَ أحدنا أن يستبدل الغضب بالحلم، والعجلةَ بالأناة، فإنّه لا شكّ سيكونُ في مأمن. ونستطيعُ أن نقرّر ردّةَ أفعالنا بشرطِ أن نتمهّل في الردِّ، وحينها سنفكّرُ بشيءٍ هام وهو أن لا نؤذي أنفسنا ، فإذا أيقنّا بذلك توقّفنا عن ردّة الفعلِ المنتقمةِ، وانتصرنا لأنفسنا بالتسامحُ، يقول الله العفّو الكريم: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الشورى/40.

كثيرٌ من الناسِ يترصّدون الأخطاءَ من أقربِ الناسِ إليهم، لا تعرفُ أنفسهم التّسامح إن أخطأ معهم أحد ، ولا تركنُ إلى العفوِ إن نالها أحدٌ بغير قصد. هؤلاءِ يكونُ التعاملُ معهم كما يورد ديل كارنيجي عن فقرةٍ وردت في نشرةٍ صادرة ذات يومٍ من الشرطةِ الأمريكية في إحدى المدن، تقول: "إذا سوّلت لقومٍ أنفسهم على أن يسيئوا إليك، فامحُ من نفسك ذكراهم، ولا تحاول الاقتصاص منهم، إنّك إذا تبيِّت نيّة الانتقام تؤذي نفسك أكثر مما تؤذيهم." هذا هو بالفعل ما سيحصلَ للنّفس، فالمنتقمِ يؤذي نفسه قبل أن يؤذي الآخرين.

وقصَّ عليَّ أحد المقرّبين قائلاً: إنّه كان يطلبُ القُربى من أناسٍ، لكنّ بعضهم كاد له المكائدَ كي يُثنيهِ عن مقصدهِ، ويردّه عن مبتغاه، ونفسهُ تجاهدُ كي تظفرَ بآمالهِ، وتحقق أحلامه في من كان يراها المرأة، التي يستطيبُ لها قلبهُ، ويسعدُ بها معاشه، فلمّا مكّنه الله وحقّق له ما أرادَ، لم يجد في نفسهِ ذرّةً من غرورِ الانتصارِ على الرّافضينِ، بل سامحهم وعفا عنهم، فصارت بينه وبينهم أُدمةً طيّبة، وسيرةً حميدة.

إنك لتكسبُ النّاس حين تعفو عن زلاّتهم، وتغفر أخطاءهم، وتفسّرها على أنّها غير مقصودة، وأنّها لن تنتقص من شخصك شيئاً، وأن تعلم أن الشيطان ينزغ بين النّاس ويدخل في دمائهم فلا تركنُ إلى وساوسه، وأغلبُ الناس يقرأون الآية الكريمة: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الحجرات/12، فيقولون: إنّ بعض الظنِّ فقط هو إثم.. محاولين تعضيدَ ظنونهم التي لا تدخل في باب الإثم، لكن أحرى بهم أن يتمثّلوا بالآيةِ من أوّلها فيقرأوها كاملة، حيث يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ الحجرات/12، إذن أكثر الظّنِ مبغوضٌ. يوردُ ابن كثير في تفسيره للآيةِ مقول سيدنا عمر بالخطاب التي قال فيها: وَرُوِّينَا عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَر بْن الْخَطَّاب رَضِيَ اللَّه عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "وَلا تَظُنَّنَّ بِكَلِمَةٍ خَرَجَتْ مِنْ أَخِيك الْمُؤْمِن إِلاّ خَيْرًا وَأَنْتَ تَجِد لَهَا فِي الْخَيْر مَحْمَلاً."

أتذكّر أن رجلاً كان يتحدّثُ في برنامجٍ إذاعيٍّ عن قيمةِ التسامح، ثم حين ذُكرِ اسمه تذكّرتُ موقفاً لهذا الرّجل يُقصيهِ عمّا يتشدّق به من التسامحِ. لقد هاجم من لم يوافقهُ في فكرهِ ومعتقدهِ، وظنّ به ظنّاً غير حميد. فإذا كان التسامحُ مطلوباً عند غير أتباعِ العقيدةِ الإسلاميةِ، فما بالك بالمسلم. والقاعدة التي تؤسس لذلك هي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات/13،

وهي تأتي – سبحان الله - بعد النّهي عن الظنِّ والتجسّس والغيبة. فالتسامح، إذن ليس شعاراً يُرفع وإنما واقعاً يُمارس مع المخالفين أولاً على نطاقٍ واسع، وهذا ينطلق من التوجيه السماوي: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ النحل/125، ويؤسفني أن أرى أُناساً يدّعون التسامحَ وهم أغلظُ النّاس قلوباً إن تعرّضوا لما يغضبهم لأنفسهم وليس للحقِّ، ويتّخذون من التسامحِ شعاراً برّاقاً فإذا خالفهم أحدٌ في الرأيِ خرجوا من العباءة

الزائفة التي كانوا يتلفعون بها فإذا بهم على حقيقتهم دون مواربةً ضيّقوا النفوسِ، مستعجلون في التُّهمةِ، متهوّرون في الظّن، وهكذا فلن تعرفَ حقائق الناس إلاّ عند التجارب فهي التي تُظهرهم على حقيقتهم..!!

التسامحُ خُلقٌ عظيم لا يتخلّقُ به إلاّ عظيم النّفس، واسعُ القلبِ، ذلك الذي يثق بنفسهِ عند الأهواءِ والمغرياتِ، فلا تستفزّه كلمةٌ طائشة، ولا فعلٌ متهوّر، وهو ثابتٌ كالجبلِ الشامخِ، الأصم أمام صغار النفوسِ، وأقزام القامات، أو هو عفوٌّ عند قدرتهِ على الإنتقامِ، أو متسامحٌ لما خالف رأيه من الآراءِ. هكذا ينالُ المرء عظمته، ويعلو شأنه. وهذا ما يجبُ أن يكون عليه المسلم.

التفاصيل الصغيرة

جاءني والانبهارُ بادٍ على وجهه، والدّهشة تغشى تقاسيم صفحته، وكأنّه قد اكتشف شيئاً كان بالنسبةِ إليهِ مجهولاً أو منسيّاً. عرض عليَّ بعض الصُّور. قال لي: تصوّر أن هذه الصور قد التقطُّها داخلَ البيت. وأكمل، لم أشعر من قبل أن جمالاً كهذا يسكنُ حولنا. ومضى منتشياً فعرضها على موقعٍ عالمي في (الإنترنت) مخصّصٍ لعرضِ الصور. لكنّه تركني وأنا أتأمل في ذهني تلك (التفاصيلُ الصغيرة) الجميلة التي تحيطُ بنا دونَ أن نشعر بها.

يروي ديل كارنيجي أنَّ مجرماً سيقَ إلى المشنقةِ، وفي الطريقِ تطلَّع إلى الجبال وكأنّه يراها لأوّل مرّةٍ، فقال: يا لجمال الطبيعة! لقد أحسّ بها الآن وشعر. ولكن كان ذلك في اللحظات التي سبقت حتفه. لماذا لا يلوي أغلبُ الناسِ إلى التفاصيلِ الصغيرةِ إلاّ بعد فقدانها؟ هاهو الشّاعرُ أمل دنقل في قصيدته "رباب" يتذكّرُ بعض التفاصيلِ الصغيرة لرباب قائلاً:

.... أو تمنحُ الرونقَ للأشياءِ

في لمستها الخبيرةْ

تكوي المناديل الحريريّة... والتنّورة

أو تمسح الغبار حول صورة!

يتذكّر ذلك بعد رحيلها... ويُكمل:

وها أنا بعد رحيلها المفاجيء

أعمى بلا بصيرة!

وهذا شأنُ أغلبُ البشرِ. يتذكّرون التفاصيل الصغيرةِ بعد فقدانِ مصدرها فلماذا يحدثُ ذلك؟ فيندمون حينها ندامة الكسعي لمّا طلّق زوجته، فقال فيه الشاعر متمثّلاً:

نـــــدمتُ ندامـــــةَ الكـــــسعيِّ لمّـــــا غـــــدت منـــــه مطلّقـــــةً نـــــوارُ

التفاصيلُ الصغيرةُ ليست في الأشياءِ من حولنا، ليست في زوايا المكان ولا في رونق الأشياءِ ولا في أفوافِ الزهور وحسب، بل هي في العبارات والحركات و"اللمسات الخبيرة"، بل هي أعمقُ في التقاسيم، والتعابيرِ الإنسانية الرقيقة، ساكنةٌ في معاني الابتسامة واللّفظةِ والجملةِ والفعلِ من الآخرينِ من حولنا. هؤلاءِ الذين قلما نُلقي بالاً لهم، ولا نحفلُ بتفاصيلهم الصغيرة التي يتمنّون أن نلتفت لها. ما الذي صنعَ الحبَّ سوى هذه التفاصيل الصغيرة التي ارتبط بها. دفاتر صغيرة من أوراقِ الوردِ وأزهارُ الياسمينِ ونفثاتُ العطرِ الدافئ ورقّةُ الكلماتِ وأناقةُ الملبسِ. هذه هي مكوِّناتُ الحبِّ الرقيق.

كيف يمكنُ لمخلوقٍ أن يشعرَ بجمالِ الحياةِ من حولهِ، دون أن يشعر بالتفاصيل الصغيرة وهي حوله؟ كم من الرّجالِ يشعرونَ بالمرأةِ وهي مكوِّناتٌ من التفاصيل الصغيرة؟ إن من يلتفتُ إلى الزّهرةِ التي ما إن تخرجُ عينيها من السّبخِ حتى يتعهدها بالسقي والرعايةِ، هو الجديرُ برؤيةِ التفاصيلِ الصغيرة في المرأة. وهي في الجانب الآخر مخلوقٌ أشفُّ نظراً من الرّجلِ، وأرقُّ طبعاً منه، فهي الأجدرُ منه برؤيةِ التفاصيلِ الصغيرةِ في الرّجلِ وتعهدّها بالرعايةِ والعنايةِ. أمّا حياةُ الكثيرين فخطوطٌ عريضة من الدروب، وكتلٌ غير مفصّلةٌ من الأفعال، حياةٌ لا يسكنون فيها إلى تفاصيل، ولا يلتفتون فيها إلى لمسات.

ما قيمةُ العلاقات الإنسانية بلا مشاعرَ رقيقة ولا نظرات وما زهوةُ البيتِ بلا زهور وما حلاوةُ الجدران بلا صور وما شكلُ الزّوايا بلا لمسات وما قيمةُ الخطابِ بلا عاطفة وما رقيُّ الأسلوبِ الإنسانيِّ بلا عفويّةٍ وصدق وما جاذبيةُ الشِّعرِ بلا وهج وما وزنُ العلاقاتِ بلا عاطفة وما قيمة النّظرِ خالياً من التّفكرِ وما قيمةُ الإيمانِ بلا تدبُّر! يقول الله عزّ وجل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ الحج/46. ويقول المتنبي:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرِهِ إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

وكيف يمكنُ لإنسانٍ ألا يرى في التفاصيل الصغيرةِ عظمة اللّه:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنّه الواحدُ

التفاصيلُ الصغيرةُ لا تسكنُ في الأشياءِ من حولنا وحسب، بل تسكنُ في الحركاتِ والسّكنات، في البشرِ من حولنا، في كلماتهم وملامحُ وجهوههم وحركاتهم... وما علينا سوى أن نكتشفها، ونسقيها بماءِ الحبِّ، ونتعهدها بالرعايةِ كي تنمو. فهي السعادة الحقيقية التي يبحثُ عنها كثيرٌ من الناسِ في الخارجِ: في البيتِ الآخرِ، والمرأةِ الأخرى، والقولِ الآخرِ، والصورةِ الأخرى. بينما التفاصيلُ الصغيرةُ من حولهم تكتنفُ ما يريدون، لكّن أعينهم عمياءَ عنها، وقلوبهم مقفلة دونها!

قناعات جامدة

لايريدُ بعضُ النّاس خلع الجلبابِ الذي ورثوه عن آبائهم، أو التزحزحِ قيد أنملةٍ عن مسلكِ حياتهم. لا يريدونَ أن يغيِّروا قناعاتهم مهما التفَّ الأقربون النَّاصحون حولهم و"أغدقوا" عليهم النصائح، و"ساقوا" لهم الأمثال. بل إن ذلك لا يزيدهم إلاّ تمسكاً بأفكارهم، وتشبُّثاً بقناعاتهم، وهو، لعمري، تعطيل للعقلِ، وتهميشاً للفكرِ، وظلماً للنَّفس! فالإنسانُ العاقلُ يزنُ النصيحةَ، ويفكرٌ في ما يُطلعُ عليه من معايب، فيأخذه مأخذ الجدِّ، ويجعلهُ في منزلةِ الاحتكامِ. أمّا الإنسانُ الذي تحكمه العصبيّةُ، فإنّه يصدُّ النصيحةَ صدّاً بما أوتيَ من قوة، ولا يتسللُ إلى عقلهُ حرفٌ من حروفها، ولا يسمحُ لنفسه التفكيرَ فيها، بل يواجهها بالهجوم المتواصلِ، بل واتهامِ الآخر على أنّه يريدُ النّيلَ منه وتسفيهِ منزلتهِ.

يتشبّثون بقناعاتٍ زائفةٍ يظنّون أنها سماتُ الحقِّ، فلا بطلانَ فيها، ويتمسّكون بسلوكياتٍ، يرون أنّها طرقُ المثالِ فلا يغشاها الخطأ. وهم في ذلك مخطئون، يكرِّسون الخطأ بتعصبهم لآرائهم، وتلك مصيبةٌ يضيفونها لأنفسهم ويظلمونها بها. فهم نقيض الداعي بالرّحمة على من أهدى إليه عيوبه بقوله: "رحم اللّه امرأاً أهدى إليَّ عيوبي!" لقد شهدتُ نماذجً من هؤلاءِ.

فمنهم من يظنُّ أن رأيهُ هو الصائبُ ورأي غيره الخطأ، ثم ينزِّه نفسهُ عن خطأ المسلكِ، وضعفِ التفكير، في حين أن القاعدةَ هي ما رسمها الإمام الشافعي بقوله الحكيم: "رأيي صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأً يحتمل الصّواب." أمّا صاحبنا فمتمسِّكٌ برأيهِ مهما اجتمعت حوله الآراء التي تقنعهُ بالخطأ، وتسوقُ له البراهينَ تلو البراهين لذلك، وهو مكابرٌ، عنيد لا يتزحزحُ عن قمّةَ اعتقادهِ. ومن هؤلاءِ نموذج الأبِ المرتدي عباءةَ الرأي المتحجِّر، أو الزّوج الحاملِ للفكرِ المتسلِّط، أو الإبنِ المغترِّ برأيهِ المكابر.

هـذا النمـوذج مـن النّـاس إمّـا أنّـه يعـاني في الأصـلِ مـن خلـلٍ في الشخـصيةٍ، أوعقدةَ نقصٍ في تركيبته النّفسيّة إثر حالةٍ ما في فترةٍ من حياتهِ ثم حين تواتيه الفرصةَ لمارسةِ السلطةِ يحاولُ ردم فجوةَ النّقص في نفسيّته بتخطئةِ الآخرين الذين يمارسُ عليهم سلطته، وجلدهم بما كان يُجلدُ به من سياطِ الكلام.. وإمّا أن يكون قد حملهُ الغرورَ لشعورٍ بالنّقص لعدم إمتلاك ميزةٍ أو صفةٍ ثم يحاول التعويضَ عنها بالتّحكمِ في مصائر الخلق الذين كُتبَ عليهم أن يكونوا في حِماه، ويأتمروا بأمره. ويمارس كلاهما استعبادَ الخلقِ، وسيدنا الفاروق يقول: "متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا!"

ومنهم من يرى أن ما ينفقه على أهله: زوجته وأبناءه هو غايةُ الرِّضا، وكمالُ الواجبِ، متجاهلاً أن هناك ما هو أسمى وأغلى من المادّةِ ألا وهو الحب الذي يجبُ أن يبثّه أنساماً باردةً في قلوبِ زوجتهِ وأبنائهِ وأهله. يتغاضى عن الحبِّ، ثم يحاسبُ الآخرين على تقصيرهم في حبِّه، فكيف لفاقدِ الشيء أن يُعطيهِ؟ وهل يمكنُ أن يُبادلَ إنسانٌ بالحبِّ وهو يعيشُ متمنناً على من يعيلهم بالفضلِ الذي يغدقهُ عليهم؟ أين الحكمةَ إذن من عقله، أين هو من المنطق؟

لقد خسر هذا الصّنف من النّاس علاقاته بالآخرين من حيث ظنَّ أنّها حريَّةُ رأيٍ، واستقلاليةُ سلوك. خسر العلاقات الإنسانيّة لأنه بناها على أساسٍ من الهيكلِ السلطويِّ، كما يحدثُ في المنظّمات ذات العلاقات العموديّة، التي لا ترتبط بعلاقاتٍ أفقيّة تتوسع فيها الاتصالات، وتذوب فيها الحواجز، إنّما تنحو منحى الصيغةِ التوجيهيَّة، الآمرة. خسرها لأنّه لم ينظر للجانبِ الآخرِ من حياةِ النّاسِ، حياةَ الشعورِ، ورقَّةَ الأحاسيسِ. فعاشوا معزولين في بيوتهم وهم بين أهلهم. ومشوا على أرصفةِ المجتمع وهم في وسطه. هذا لأنّهم آثروا التقوقع في جبِّ أفكارهم، ومحيط قناعاتهم، التي لم تغيّر فيها تجاربُ الحياةِ شيئاً، ولم تبدِّل فيها المعارفُ حالاً.

مراجعةُ القناعاتِ أساسُ المنطقِ، وركيزة التعاطي مع شؤون النّاس والحياة، فكما يقال: "لا شيء ثابت سوى التغيير." ويقول الراحل الشيخ عبدالله العلايلي: "ليس محافظة، التقليد مع الخطأ. وليس خروجا، التصحيح الذي يحقق المعرفة."

ولهذا، فقد خسر هذا النوعُ من النّاس الكثير بتشبّثهم بآرائهم، وتسفيههم آراء الآخرين.

إن رقي الإنسان يحتّمُ عليه أن يقدِّر آراءَ الآخرين، ويثمِّن معنى العلاقاتِ معهم، ويقدم للآخرين المرتبطين بمصيرهم منزلةً في اتخاذ القرار والمشورة والرؤيةِ، لا أن يحملهم على رأيه، ويدفعهم إلى الإيمان بقراره، ويفرضُ عليهم قناعاته البالية، وإذا خالفوه ذكّرهم بفضله الماديِّ عليهم.

الحلماء

الحليمُ سيِّدْ. فهو المالكُ عقلهُ، والمجلُّ قدْرهُ، والمنزَّهُ شأنهُ. لم أر حليماً إلا وهو رفيعٌ في أخلاقهِ، عالياً في شمائله. فقد جُبلَ على النّظرِ إلى الأمورِ بعينِ عقلهِ، لا تدفعهُ المواقفُ إلى عاقبةٍ لا يعرفُ منتهاها، ولا تجرّهُ الانفعالاتُ إلى جحورٍ ليس لها منافذ. إنّما هو مُحكمٌ أمره، عاقلٌ حبله، مُرسِنٌ نفسه. يحسبُه السّفيهُ مستفزّاً، تثيرهُ كلماتُ السّفاهةِ، وهو عليُّ المقامِ، ذو سمعٍ لا يرقُّ إلاّ لما يروقُ لعلوِّ شأنهِ، ولا يصغي إلاّ لما يعمرُ روحهُ بالجمالِ والخيرِ والحقّ. في حين، يتقطّعُ السّفيهُ غيظاً، ويتميَّزُ كمداً، وهو يرى الحليمَ سمحاً في العطاءِ، لا يستشيطُ لفعلِ جاهلٍ، ولا يستثيره فعلِ حاقد. كمن قال الشّاعرُ أمين تقيُّ الدّين فيه:

فحمدتُ رأيكَ عاقلاً متحفّظاً   تتتبَّعُ البرهانَ بالبرهانِ
تُدلي بحجةِ عالمٍ لا مدّعٍ   سفهاً ولا متصنّعٍ العرفانِ
أدب المناظرِ في الجدالِ وحكمةُ الشيخِ الحليم بحضرةِ الشبّانِ
الحربُ علمٌ والشجاعةُ خلَّةٌ   فالرأيُ قبل شجاعةِ الشُّجعانِ

إنّما غاب الحلمُ عن كثيرين. غمرهُ ترابُ الحياةِ العصريَّةِ، ودفنهُ الانغماسُ في ضغوطها. فكم ترى أينما ولّيتَ مستثار الأعصابِ وهائج الانفعالِ وطائش العقلِ ومنفلت العِقال... يحيطون بك! تنظرُ إلى الوجوه لتظفرَ بابتسامةٍ، فتطالعكَ الوجوهُ الشحيحةُ بوجومٍ شاحب. وتسبرُ أعماقَ النُّفوسِ، فإذا بغضبٍ يندلقُ منها، يكادُ لهيبهُ يذيبك. كثيرون انفلتوا من قيادِ حلمهم، يمشون بلا رسن، كخيلٍ جامحةٍ، لم يعدُ الرّسنُ يفيدها. يستشيطون غضباً لمجرّد كلمةٍ صادرةٍ أساءوا فهمها، أو فعلٍ أخطؤوا تقديره. هؤلاءِ كالعابرين على حوافِ الأرصفةِ، تسقطهم

أدنى عشرة، وتكبّهم أصغرُ حجرة. ولّوا ثوراتهم قياد أمرهم فقادتهم حيثُما شاءت، ظانّين بأن في قيادتها ثاراً لأنفسهم، أو تأكيداً لاعتبارهم، أو ردّاً لحقوقهم، لكنهم أخطأوا من حيث حسبوا أنّهم مصيبون، فالعواقبُ لا تأتي حميدةً من طيش، ولا تُجنى يانعةً من انفعال، بل من حُلمٍ ورويّةٍ، ورأيٍ وتحسُّب، وعقلٍ وأناة.

وإنني لأذكرُ قصّة المرأة التركيّة التي كانت تصطفُّ في طابورٍ بسيارتها أمام مغسلةٍ للسيارات في يومٍ شتوي، يغمرُ الجليدُ فيه الشوارع، فإذا بسائقٍ آخر يتعدّى دورها بسيارته، فتنزل وهي منفعلةٌ لتتشاجرَ معه، فإذا بها تصفعهُ، وإذا به يترنّحُ من جرّاءِ صفعتها فتنزلقُ قدمهُ، ويسقطُ، فيضرب رأسه حدِّ الرّصيف، فيموت. فهل كان في حُسبان هذه المرأةُ الطائشةَ اللُّبِّ أن تقتله حينما نزلت؟ طبعاً لا. لكن الحلُم غابَ فحضر الطّيشُ والانفعال. حضر الشيطان وذريّته. غابت القوّة، وحضر الجُبن. وذلك من قول رسولنا الكريم: "ليس الشديد بالصّرعةِ، إنّما الشديد من يمسك نفسه عند الغضب." تذكرت قصّتها، وأنا أقرأ وأشاهدُ فعلةَ الشرطي البريطاني أثناء قمّة "مجموعة العشرين G20" حينما دفع متظاهر يُدعى آيان توم لينسون Ian Tom linson. كان يضع يديه في جيبيه، عندما دفعهُ، من وراءه، دفعةً قويّة، أودت به للإصطدام بالأرضِ الغليظةِ، فمات بعد خمس دقائق، فقد كان مصاباً بأزمة قلبيّة. فهل كان في نيّة الشُّرطي أن يقتل الرّجل؟ بالطّبعِ لا – في أغلبِ الظّن – لكنَّ الحلم غابَ فحضر الانتقام والغلُّ والتّهور. وأذكرُ من سنواتٍ أنني تتبّعتُ في الشّارعِ شابّين يقودُ كلاًّ منهما سيّارته، فأخطأ أحدهما بحق الآخر، خطأً غير مقصود حين أراد التجاوز في الوقت الذي تعبرُ فيه مركبة الآخر الشارع فكاد أن يصطدم به، لكنّه بدلاً من أن يقابل إشارات الغضب منه، أستفزّه بحركةٍ غير سويَّة، ولم يقابله الآخر بالحلم، كما قال الشاعر أحمد فارس الشدياق:

لكنّما شأن الحليم العفو عن زلاّت معترفٍ طغت زلاّته

فصار الشارعُ حلبةٍ صراعٍ، وميدانُ ثأرٍ لكليهما، وتحوّلا إلى ممثلين طائشين أمامي، يحاول كل منهما أن ينالَ من الآخر، وكان أحدهما يصطحبُ

أسرته. غاب عنهما الحلم، وحضرت السّفاهة. وكاد أن يقتل بعضهما بعضاً بالاصطدام، وحينما وجدا أن هذه الطريقة لا تفعل، أوقفا سيارتيهما، فأوقفت سيّارتي وراءهما عالماً بأنّهما لن يلتقيا بالأحضان، وإنّما باللّكمات. وقبل أن يشتبكا، فاجأتهما بالقول: كم هو الصباحُ جميلٌ، أفتضيّعان جماله بالعراك والخصام؟ انتبها فالحياةُ أصغر من أن نصغّرها بالكراهيةِ والبغضاء والمقت. وأثيبا إلى رشدكما، فقد رأيت منكما ما رأيت، وشهدت فعلكما، فأنتما مشتركين في الخطأ. عاد إليهما الحلم فاحتضنا بعضهما بعضاً، في الوقت الذي حضرت فيه الشرطة بعد أن سبق أحدهما الاتصال بها، لكنّهما قالا للشرطي: شكراً، فقد أصلح بيننا هذا الأخ، وتفرّقا.

كم هم طائشو الألبابِ، منفلتو العقال، تراهم في الشوارع وقد عقدوا العُقد على جبهاتهم، يعلّلون ذلك بضغوط الحياةِ، وأزماتها، وتعقيداتها، لكنَّهم لو فقهوا لعلموا أن الحلمَ مفتاحَ كل عقدةٍ، وطريقُ كل صابر. وليس فاقدُ الحلم هو من فقد عقالَ عقله، وأمْرَ نفسهِ وحسب، بل الفاقد رشده ورزانته. فكم من أناسٍ تقيمُ لحلمهم وزناً، ولرزانتهم ثقلاً، حتى تراهم في مواقفَ أو مواضع، فيستحيلُ ذلك الحلمُ إلى سفاهةٍ، وتتحوّل الرزانةُ إلى ضِعةْ. كان ثمة رجل، ممن أُجلّهم، عددته حليماً في شمائله، رزيناً في شخصه، حتى جمعتني الصدفة به، وقد أذهبتِ الصهباءُ عقله، وغيّب الخمر حلمه. فقد تبع مقولة إيليا أبوماضي:

أدر على الجلاّس أكواب الهوى في راحتيك سلافه وعصيره
فيخفُّ في الرّجل الحليم وقاره ويراجع الشيخ المسنَّ غروره

ومنهم رجلٌ كنت أحسبُه ذا حلم ورشدٍ، فإذا بي أرى صغائر الأمورِ تستفزّ عقله، وتفقدُه رشده. فأقولُ إنّما الحكم على الرّجالُ لا يكون في الظاهر، إنّما التجاربُ هي خيرُ مسبارٍ لدفائن طبائعهم. وظننتُ في أحدهم ثقل الشّخصيّة، وهيبةَ الجانب، فإذا بي أراه على شفا حفرةٍ من التضعضع والهزال في الطّباع، مستنفرُ الطّبع، مستجيشُ الإحساس، لا يكادُ لسانك يفرطُ بكلمةٍ دارجةٍ ذات نيّةٍ حسنةٍ أمامه، حتى تكون كافيةً لإستثارتهِ وتعليقه اللاّذعْ. فمثلُ هذا صعبُ

المعشر، لا يُؤمنُ جانبه لأنّه غادرُ الطّبع، أمّا الحليمُ فهو الذي يؤمنُ جانبه، ويطمئنُّ لسماحته، وطول أناتهِ وصبره.

وهكذا ترى في النّاس حلماً يفقدونه حالما يفقدون رشدهم، ويغيِّبون عقلهم، فتقول لهم مقولة العرب: "أين عَزَبَ حِلْمُك؟" أي أين بعد؟ وتسألُ نفسك: ما الذي حدا بفلان كي يفقدَ حلمه، ويضيّع رزانته، ويخفَّ ثقله، وهو دليلُ الناسِ، ومضربَ مثلهم، وقدوةَ مسلكهم؟ يقول الشاعر مهيار الديلمي:

إذا ضلَّ فهم الدليل الحليم ... هدى الناس منه دليلٌ جهول

متى خفَّ أو طاش أعمدته ... ويحمدُ وهو رزينٌ ثقيل

إن المرء إذا تخلّى عن حُلمه صار أحمق، وذهبت رزانتهُ، وخفَّ وزنه، وضاعت هيبته، وقلّت مروءته، أمّا إذا جعل الحلمَ له طبعاً، فغشيته خصيصته، وسرت فيه صفاته، فهو المصونُ الشّرف، العالي القدر، الرّفيع الشّأن، لسانُ حالهِ يقول مقولة الشاعر:

يخاطبني السفيه بكل قبح ... فأكره أن أكون له مجيبا

يزيد سفاهة فأزيد حلما ... كعود زاده الإحراق طيبا

فلا ضغوط الحياةِ تغيِّبُ الحلمَ، ولا أرزاؤها ومحنها تفقدُ الرّشد، ولا مضايقات النّاس وأحقادهم تضيّع الأناة، طالما وعى المرءُ أنَّ في الحلمِ هيبةَ شخصهِ، ومناطَ أمره، فيه السموُّ والسيّادة، والعلوُّ والرّيادة، وإنّ الحلم ليكسي أناسٍ بكسيةٍ زاهية، فتجلّهم قدراً لأنَّ السفهاءَ لم ينالوا منهم شيئاً. وأذكرُ من هؤلاءِ رجلاً اتّصف بالحلمِ والكرم، هو معنُ بن زائدة، حفظنا قصّته مع الأعرابي الذي راهن على إغضابه فدخل عليه وقد اكتسى بجلد شاةٍ مقلوب، وأهانه فلم ينل منه شيء بل كان معن يُكرمه حتى عجز الأعرابيُّ، فقال معجباً بعد يأس:

سألت الله أن يبقيك دهراً ... فما لك في البرية من نظير

فمنك الجود والإفضال حقا ... وفيض يديك كالبحر الغزير

فقال معن أعطيناه أربعة على هجونا فأعطوه أربعة على مدحنا، قال الأعرابي: بأبي أيها الأمير ونفسي فأنت نسيج وحدك في الحلم، ونادرة دهرك في الجود، ولقد كنت في صفاتك بين مصدق ومكذب فلما بلوتك صغر الخبر الخبر، وأذهب ضعف الشك قوة اليقين، وما بعثني على ما فعلت إلا مائة بعير جعلت لي على إغضابك.

فقال له الأمير: لا تثريب عليك، ووصله بمائتي بعير، نصفا للرهان والنصف الآخر له، فانصرف الأعرابي داعيا له، شاكرا لهباته، معجبا بأناته. وكم من النّاس يتّصفون بحلم معنٍ، فلا تضيقُ قلوبهم لجاهل، ولا تغضب لسفيه بل ترتفع وتعلو. وهؤلاءِ هم عبادُ الحليمِ الذي أنعم عليهم بطبعِ الحلم فوسعت قلوبهم سفاهة الجهلاء!

المواقف المحرجة

تصدُرُ من بعضِ النّاسِ مواقفَ تؤذيهم أنفسهم فلا يستطيعونَ لها دفعاً، ولا يقدرون لها منعا. مواقفَ محرجةٌ لها أسبابها الكامنةِ وراءها. وهنا لا أتحدَّث عن المواقف المحرجةِ الطارئة التي قد تحدث لأيٍّ منّا في المعاش اليومي، ليس له ذنبٌ فيها أو تعمّد، وإنّما تلك المواقف التي تقودُ إليها نوايا الإنسان المتعمدة، وعاداتهِ المشينةِ، وطريقة أسلوبهِ المتهوِّر، غير المهذّب في التخاطبِ مع الآخرين. مواقفَ ينزلُ فيها قدرُ الإنسانِ إلى مداركَ لا تليقُ به كإنسان، أو مواقفَ لا تجدرُ بمن عرفوا بالرزانةَ، والرجاحةِ، وحسنُ الرأي، وأذكرُ هنا عبارةً جميلةً تقول: "من وضع نفسه في محلِّ شبهةٍ فلا يلومنَّ أحداً إن أساءَ الظنَّ به."

هذه نتيجةٌ أوليّة طبيعية، وإنطباعٌ بديهيٌّ تفرضه الوهلةُ الأولى، تطرأ عليك وأنت ترى أناساً في مواضع لم تكن تتصوَّر أنّك تجدهم فيها، أو أنّهم يصرُّون على أن يمارسوا عاداتهم التي تتنافى مع قيمٍ أو قوانين المجتمعات التي يعيشون فيها دون أن يخطرَ في عقولهم بأنّهم يُلقون بأنفسهم في مواقفَ غير حميدةٍ ستجلبُ لهم عاجلاً أو آجلاً الحرجَ أمام أنفسهم وأمام الآخرين. وقد ترى كثيراً من النّاسِ ممن تكنُّ لهم التقديرَ في مواقفَ لم تكن تأملُ أو تتصوَّر أن تجدهم فيها، مواقفَ قد تمرُّ عليها مرور الكرام على مأدبةِ اللئامِ – كما يقال أو كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ الفرقان/72.

كنتُ أرى أحدُ العربِ في المجتمعِ الإنجليزي وهو يوقع نفسه يوميّاً في فخِّ الإحراجِ غيرَ متهيِّبٍ لما سيقعُ عليهِ من لومٍ، ولا ما تقولُ له الأعينُ التي تحدجهُ شزراً. فكلَّ يومٍ يقفُ بسيّارتهِ في غير المواضع المخصَّصة لوقوف المركبات، وكثيرٌ من المرّات يقف في مواجهةِ عربات الإنجليزِ الذين ينظرون إليه نظرة استنكارٍ، فهو لا يريدُ أن يكلّف نفسه عناءَ الوقوف في المواقف المخصصّة لأنّها

في نظرهِ بعيدة (وفي البُعد سلامةٌ لو فهم). وكم تعرَّض من إحراجٍ لأنّه يعيق حركة المرور ولكنّه لا يرعوي، ولا يُراجعُ نفسه، ثم عرجَ إلى طريقةٍ أخرى، حيثُ يقفُ على محاذاةِ الطريقِ وقد اقتطعت سيّارته جزءاً منه، حتى رأيتُ رجالَ الأمنِ وهم يحذّرونه أمام الجميعِ من الوقوف حيثما وقف ويوصونه أن يقفَ في المواقف المخصَّصة. وبالطبع استدار بسيّارتهِ أمامهم ووقف حينها في المواقف البعيدةِ، لكن ماذا فعل في اليوم الثاني؟ أترى الإحراج قد علّمه درساً أدبيّاً لا ينساهُ؟ أتراهُ احترم نفسهُ فاحترم القانون؟ أتراه راجع أخطاءه؟ لم يحدث شيئاً من هذا، بل عاد ليقف في جهةٍ أخرى من الشارع ساداً بسيارته طريقَ المُشاة، وصديقهُ العربيُّ الآخر يحلُّ محلّه في وجه العربات الأخرى.

قالَ لي أحد الذين يحترمون أنفسهم: لقد حدثت لي مواقفَ محرجةٌ رسخت في ذهني منذ أعوام، وها هي ماثلةٌ في ذهني كلّما حفّزتني نفسي أن آتي مثلها، كأن أتجاوز الناس في الطابور، أو أن أخالف قانون الشارع. المرءُ الكيِّسُ الحكيمُ يتذكّرُ هذه المواقف، فلا تسوقهُ أقدامهُ إلى إتيانها مرّةً أخرى لأنّه وعى الدرسَ وفهمه بشكلٍ جيّد.

وهناك من النّاس، من لا يمسكُ لسانهُ عن الهَرج، مما يوقعهُ في الحرجِ، فهو متخبِّطٌ في أيّ حديثٍ، خائضٍ مع الخائضين في كلِّ أمرٍ، وكلَّ خبرٍ حتى يوقعَ نفسهُ في البلايا. كان أحدهم يهرطقُ في عرضِ إحدى الفتياتِ ويُفاخرُ بما لا يفخرُ به الإنسان الشريف، صاحب اللِّسانِ العفيفِ، والعقلِ الحصيف وهو لا يظنُّ أن من يتحدَّثُ معه هو أحد القريبين منها، فكان أن أوقعهُ لسانهُ في المحظورِ، وساقه إلى عاقبته، فدُبِّرت له المواقفَ، وحيكت له المكائد حتى لاقى الهولَ والنكالَ مما جرّه إليه لسانهُ، ودفعهُ إليه طبعهُ السيء. وآخرَ فلتَ منه عقالَ لسانهِ فلا يُقيمُ للناسِ وزناً على مختلفِ ألوانهم وأشكالهم، فهو رامٍ هذا بكلمةٍ في غير محلِّها، وسائقٍ إلى ذلك مثلاً لا قيمةَ له، وساردٍ إلى جمعٍ من النّاس طرائفَ يظنُّها تسرِّي عليهم مجلسهم في حين أنّها تصيبهُ بالحرجِ لأنّها جاءت في غيرِ مقامها، وجرتَ في غير مجراها. وأخرى تُخوضُ في أعراضِ النّاس، وما أشنعها من عادة، ونبينا الكريم ﷺ، يقول: "هل يَكُبُّ الناس في النار إلاَّ حصائدَ

ألسنتهم؟" وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: "إن الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه. ألا إن لكل ملك حمى. ألا إن حمى الله محارمه. ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب."

وهاهو الإمام الشافعي يُسدي للناس نصيحةً ثمينةً، ستظلُّ لها فاعليتها في معاشهم، وتعاطيهم مع شؤونهم اليومية، يقول:

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى وحظُّك موفورٌ وعرضكَ صيِّنُ

لسانك لا تذكر به عورةَ امرئ فكلّك عوراتٌ وللناسِ ألسنُ

وعينك إن أبدت إليك معايباً لقومٍ فقل يا قومِ للناس أعينُ

فعاشر بمعروفٍ، وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتي هي أحسنُ

فما بالُ أناسٍ تغيبُ الرزانةُ من نفوسهم، وهم يدركون ذلك، ويوقعون أنفسهم في الحرجِ ولا يتعلّمون من تجاربهم، ولا يستفيدون منها، بل يستمرئون العادةَ القبيحةَ، والسلوك المشين، فيُلقي هذا عليهم كلمة جارحةً، ويخرسهم ذاك بأخرى ساخطةً، ويشكو على سلوكهم ذاك، ويذم عاداتهم آخر، فيذكرون في المجالسِ ذكراً ذميماً، ولا يقيمُ لهم الناسُ وزناً، ولا يجلّونهم مرتبةً، ولا يُبدون لهم أيّ تقدير، وما ذلك إلاّ ثمار ما حصدت ألسنتهمُ، وما زرعتهُ أيديهم.. فهل قوّم الحرج ألسنتهم، وأعانهم على صلاحِ أنفسهم؟

عش أنيقاً...!

لِمَاذا لا يكترثُ بعضُ النّاس بحُسنِ المظهرِ، وأناقةِ الهندامِ، ولياقةِ الهيئة؟ لربّما اعتنوا بمظهرهم في مرحلةٍ معيّنةٍ ثم أهملوه بعد ذلك، أو أنّهم لم يعتنوا بهذه القيمةِ الهامّةِ من قيمِ الظهورِ الشخصيِّ العاكسِ لمحتوى الفكرِ والإعتقاد. الإعتقادُ السائدُ لدى بعضهم أن الجوهرَ مقدّمٌ على المظهرِ، ولهذا لا يعتنون بمظهرهم. وهم صادقون في الأولى، مخطئون في الثانية. ترى الشّاب وقد شارفَ على الزّواجِ وهو مهتمٌّ بالأناقةِ، وحسنُ المظهرِ حتى إن ظفرَ بمطلبهِ، ونالَ مبتغاهُ أهملَ حالهُ، وأضاعَ هندامهُ، كأنّه كان ممثلاً في مسرحيّةٍ، خلعَ بعدها ملابسَ التمثيلِ، وأزاحَ عنه رونق ظهوره، وسحرَ شخصيته. وترى الشّابةَ وقد تأنّقت في زينتها، ولباسها، حتى إذا تزوجت وأنجبت أهملت نفسها، وكأنَّ الفصلَ قد انتهى، ولم يعد في العمرِ متّسعٌ للزينةِ، وحسنُ المظهرِ. صورةُ ذلك الشاب وهذه الشّابةِ نموذجان لفئةٍ من النّاس، ونموذجان منهم. لكنّك أيضاً قد تجدُ الرجل المسنَّ فلا ترى عليه آثارُ العمرِ لأنّه مهتمٌّ بطريقةِ ظهوره فيعجبك مظهرهُ، وحسن اهتمامهِ بنفسه، وطريقةَ أناقتهِ، ولياقته، ثم تشمُّ عطرهُ فيزدادُ إعجابكَ به، فتستمعُ إلى رصانةِ لسانهِ، وعذوبة حديثه، فترى صفحةَ روحه الوثّابة، المنشرحة وهي تنعكس في مراياه الخارجيّة. لقد اشترك الجوهرُ والمظهرُ فأحسنا إلى ظهوره الشخصي وأكسباهُ تقدير الآخرين وإعجابهم. لم يُعقِ السنُّ ولا المالُ ولا الوقتُ هذا الرّجلَ عن حسن تمظهره، واهتمامهِ بهيئته. وترى المرأةَ وهي أمٌّ لأطفالَ فتحسبها الشّابّةُ اليافعةُ التي لم تلد بعدُ، وما ذلك إلاّ لحسنُ اهتمامها بنفسها، وحسن مظهرها، ورقّة ذوقها.

ثم أنظر لمظهرِ بعض الطلاّب وهم في فترات الاستعداد للامتحانات، والمذاكرات للاختبار، تجد الكثيرين منهم وقد أهملوا مظاهرهم، كأنّما استسلموا لداءٍ أو انتابهم كسل، ولم يدروا بأنّ الاهتمام بالمظهرِ، وحسنُ التأنُّق

في كل وقتٍ محفّزٌ نفسيٌّ للعطاءِ، ومجدّدٌ للنشاطْ. وقد أسعدني أحد الأصدقاءِ حين قالَ لي: "لقد كنتُ مثلُ هؤلاءِ، أُهملُ نفسي قبل الاختبارات، حتى سمعتُ نصيحتك فاتّبعتها، ورأيت بالفعلِ انعكاساً إيجابياً على نفسي." نعم كنتُ أقول لهذا الصديق أو غيره: كن في أحسنِ هندامك في كلِّ أوقاتك، حتى وأنت ذاهبٌ للاختبارِ، البس أحسن أثوابك إليك، وعطّر نفسك بأزكى العطور إلى نفسك، وانظر إلى الجميل من الأشياء متعمّداً وراغماً نفسك، وارسم الابتسامة على وجهك بلا مناسبة... سترى أثر ذلك في نفسك وأنت تجيبُ عن أسئلةَ الامتحان. ولعلك تُدهش حين ترى صديقاً أهمل حاله فتسأله مدهوشاً إن كان قد انتابه مرض فيقول لك: إنّه في إجازةٍ من عمله. فهل يرتبط حسنُ المظهر بالعمل وحسب؟

وإذا كان الله جميلٌ، فهو يحبُّ أن يرى الجمالَ في عباده. جاء في تفسير القرطبي عن النبي، ﷺ أنه قال: "من أُعطى خيرًا فلم يُر عليه، سمي بغيض الله، معاديًا لنعم الله." وروى النسائي عن مالك بن نضلة الجشمي قال: "كنت عند رسول الله ﷺ جالسًا، فرآني رَثّ الثياب، فقال ﷺ : (ألك مال؟) قلت: نعم يا رسول الله، من كل مال، قال ﷺ: (إذا آتاك الله مالاً فليرَ أثره عليك) ." وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إن الله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده."

وإذا كان أمرُ الله باتخاذ الزينةِ عند كلّ مسجدٍ بقوله: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٍ﴾ الأعراف/ 31. فهذا يعني اتخاذ الزينةِ كل اليومِ لأن الصلوات الخمس تقسم اليومَ بأكمله. فكيف بمن يحافظُ على الصلاةِ أن يُهملَ مظهرهُ، ولا يكترث بهندامه؟ أو كيف بمن يهتمُّ بمظهره خارج البيت، فإن دخل بيته أهملَ في مظهره، وكأنَّ التزيّن مشترطٌ للناس خارج البيتِ وحسب؟ وكيف لأزواجٍ لا يتزيّنون لزوجاتهم ثم يريدون منهم أن يتزيّنّ؟ تقول إحدى النساءِ، وقد بان على جسدها أثرُ الإهمال: لِمن أتزيّن وزوجي لا يكترث بزينتي؟ وعدم إكتراثهِ هذا لبُعْدِ عن إدراك الجمالِ، وأثر المظهرِ الحَسن في النفسِ، وحينها تعطّلت حواسهُ التي وجدت لأجل الإحساس بالجمال والذوق والرقّة. وهنا يسيءُ الرجلَ إلى حياتهِ الزوجيّة بإهمالهِ لمظهره، وحسن هندامه. فتهملُ المرأةُ نفسها.

فيجدها الرجل (المتهوّر) حجّةً للزواجِ بأخرى. كيف وقد كان هو السببُ وراءَ ذلك؟

لقد رأيتُ رجالاً كبارَ السنِّ، مشرقي الطلعات، يبينُ البهاءُ في وجوههم، ويظهرُ التأنُّقُ في ملبسهم فأعجبتُ بهم، ووجدتُ في المقابل شباباً لم أر فيهم أثرَ الشبابِ من حسنِ المظهرِ، ولُطف التأنُّق، وحلاوةَ الملبس شيئاً. نعم للمالِ دورٌ في هذا، ولكن قبله وأهمُّ منه الذوقُ. فقد تجدُ غنياً مهلهلَ الثياب، رثَّ الهيئة، وقد تجدُ فقيراً أنيقَ الملبس، مشرق الطلّة. وقد تدخل بيتَ فقيرٍ فترى الذوقَ في جنباته وفي حسن أثاثه – على بساطته – وقد تدخل بيت غنيٍّ فتجدُ الفوضى تعمُّ أركانه. إنّه الذوقُ الذي يرقى بالنّفس ويحملها إلى مراتبَ الحضارةِ. ونحنُ أولى من غيرنا في أن نُظهرَ نعم اللّه علينا: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى/11. يروى أن رجلاً أتى النبي صلى اللّه علية وسلم ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه الرسول ﷺ كأنه يأمره بإصلاح شعره، ففعل ثم رجع، فقال رسول اللّه صلى اللّه علية وسلم: "أليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان." ووجد آخر رأسه أشعث، فقال: "أما وجد هذا ما يسكن به شعره؟" ووجد آخر عليه ثياب وسخة، فقال: "أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه؟"

لقدَ وقعت القلوبُ أسارى للجمالِ، وحسنُ المظهر، وإشراقةُ الوجهِ، وأناقةُ الهندامِ. فتلك هي أدوات سحرِ الشخصيةِ الجذّابةِ. وقد صدقَ من قال: " قل لي ما تلبس أقل لك من أنت." فعش أنيقاً، تدم صديقاً!

أهل المصالح

المعاني الإنسانيَّةِ في أنقى فطرتها هي رباطٌ وثيقٌ يجمعُ معادنَ الناس ويصهرهم بعضهم ببعضٍ في نهرٍ صافٍ، عذب المشرب، وهي قائمةٌ على رقيّ العلاقةِ، وسموِّ الفهم لقيمها. أما حين تبرزُ المصالحُ وتطلُّ برأسها منتظرةً إقتناص الفرصةِ المناسبةِ، فذلك ما يكدّر علاقات النّاسِ، ويدفعهم إلى التباغضِ وإلى عدم الثقةِ، وغيابِ المروءاتِ، وتلاشي النخوات.

المصالحُ هي ما يحقِّق به النّاس أهدافهم، ويصلحون به أمور حياتهم، ويسيّرون عليه شؤونهم والمصلحة ككلمةٍ لا غبارَ عليها، إنّما الغبارُ فيمن يخلطُ الحابلَ بالنّابل فيها !! يخلطُ العسلَ الشهيَّ المذاقِ بالعلقمِ المرِّ..!! يغلّفُ الرغبةَ الشخصيةَ الضيّقةِ بالابتسامة الواسعة..! ويحني ظهرهُ احتراماً بصورةٍ لا تخفى عن العاقلِ أنّ بها إيغالاً في الذلّةِ كي يحقّق غايته، كما قيل قديماً وتداوله النّاس:

صلى المصلي لأمر كان يطلبه فلما انقضى الأمر لا صلى ولا صاما

ومن المؤسفِ، أن تنحو طبيعةَ أناسٍ كثر منحى هذه الطبيعةِ التي تغلِّب المصلحةَ الذاتيةَ، فلا يلقون بالاً إلى مشاعرِ من يوصلهم إلى مصالحهم، ولا يلتفتونَ إلى جميلهِ أو إحسانهِ، ولا ينظرونَ لصفاتهِ الإنسانيةِ اللّطيفةِ فيه، بل كان أقصى أهدافهم هو الوصولِ إلى ما خطّطوا له، ونووا عليه ثم أدبروا يسعون في أمورهم تاركين وراءهم خيبةً وحسرةً ممن كانوا لهم عضداً وسنداً. يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: "إن البشر يقتحمون هذه الساحة المائجة، وغرائز الأثرة أيقظ ما تكون في دمائهم، إن حوائجهم وحوائج أسرهم وأرحامهم هي التي يرون في أثناء هذا السباق الطويل. أما التراحم والإيثار والبّر، فقلّما تبدو صورها النبيلة لأعينهم وترك النّاس تصرعهم هذه المشاعر المشبوبة قتلٌ لكل ما في الإنسانية من فضائل." بل إننا نزيدُ في هذا بالقولِ إن بعض البشرِ لا يلقون بالاً

لأرحامهم أو حتى أسرهم في بعض الأحوال. فأيُّ طبعٍ قد تطبّع عليه هذا الصنف من النّاس، وأيّة غرائزَ تتلجلج بين جوانحهم؟

إنّه لا ضيرَ أن يكونَ بين الناسِ مصالح فهم واسطتها، وأدواتها، ولكن أن تكون هذه المصالحُ غايةً في حدِّ ذاتها، فتلك رذيلةٌ لا يمكنُ أن تتصف بها الطبيعةُ الإنسانية الراقية، ولا يمكنُ لإنسانٍ راقٍ أن يحملها في نفسه. يخبرني أحد الأصدقاء أنّه لا يكشفُ للناسِ في العادةِ هويّةَ شخصيتهِ، وهو لهذا سعيدٌ لتعاملِ النّاس معه على أساسٍ إنسانيّ، أما لو عرف بعضهم من يكون، فإن العلاقةَ يسودها على الفور تغيُّر في التعاملِ، وتملُّق في الحديثِ، وتصنّعٌ في الودِّ، وهذا ما لا يرتاحُ له لأنّه أخرج العلاقة من مفهومها الإنساني الشفيف، إلى مفاهيم ضيّقة يكون التعاطي فيها مبنيّاً على أساسِ الأصلِ والنّسب والمكانةِ والوجاهةِ والمالِ. إلاّ أن بعضَ من يعرفون يظلّون – لأصالةِ معادنهم، ولعلوِّ أنفسهم – محافظين على العلاقات الإنسانية الراقية.

ذات يومٍ تلقّى أحد الناسِ اتصالاً من طرفٍ آخر، قال له صاحبُ الصوت: لقد مرّت عشرُ سنواتٍ منذ أن دخلتَ مكتبي بغرض السلامِ، ثم لم أرك بعدها، قلتُ لعلّ فلاناً قد جاءَ يمهّد لمصلحةٍ، لكنّك لم تأت، وقد مرّت عليّ آلافُ الوجوه ولم أنس وجهك، فردّ عليه: إنني لا أبني علاقاتي مع الناسِ على أساس المصالحِ وإنّما على أساسِ المغزى الإنساني الجميل، والنّاس عندي ليسوا مكاسبَ ماديّة وإنّما مكاسبَ روحيّة، وعلاقتي بهم واسطتها تناقلُ التجربةِ، والمعرفةِ، والأخلاقِ الفاضلةِ، والآدابِ الجميلةِ، والمشاعرَ الصافيةِ اللّطيفة.

إن من النّاس من يشبهُ طائراً كلّما حطّ على غصنٍ، ترنو عينهُ على الغصنَ الآخر، وهو في طبيعتهِ منسجم، إنّما التشبيهُ لظاهرِ الحركةِ والفعلِ، وأذكرُ أن شخصاً اتّصلَ بي فلم يكد يحصلُ على مبتغاهُ مما أراد معرفته، حتى انقطع، فلمّا تعرقل في أمرٍ اتصلَ بي ثانيةً، فقلت له: لم انقطع تواصلك؟ قال لي، تواصلت مع فلانٍ فقد وجد بغيّته معه، ثم سمعتُ من ثانٍ وثالثٍ ورابع يحدّثونني عن طبيعة هذا الرّجل. طبيعةُ لا تدفعُ صاحبها لتخزين أرقام وأسماءِ بعض النّاس إلاّ في مجموعةِ المصالحِ. ولعلّ بعض الناس ينخدعون في هذه الأنماط فيمنحونها

أكثر مما تسأل، ويعطونها أوسع مما تريدُ ثم حين تقضي بغيّتها، وتنال مطمحها تفزعُ إلى آخر كي تمارسَ الدورَ ذاته، وهكذا فهي في مسرحيّةٍ مستمرّةِ العرضِ ليس لمشاهدها من ختام.

اتّصل بي أحدُ الأصدقاءِ وهو ضائقُ الصّدرِ يخبرني أنّ زوجتهُ متذمرةٌ من أن أختها لا تتصلُ بها إلاّ عند المصلحةِ، أمّا السؤال عنها أو الاطمئنان عليها فلم يكن ذلك ما تدفعها نفسها لفعلهِ في يومٍ من الأيامِ، حتى وهنَّ يسكنَّ في حيٍّ واحد. فقلتُ له: أخبرها تلتمسُ لأختها عذراً وأنا أُخفي في نفسي ما أخفيهِ من الاستنكارِ المكبوت.

كم من النّاس من اغترَّ ببعض النّاس حين ظنّوا أنّهم نِعم الأصدقاءِ، ونعم الأخلاّء، وهم في الحقيقة لا يسعوون إلاّ وراء مصالحهم الشخصيّة حتى إذا خرج أولئك من مناصبهم أعرضوا عنهم. فكم تغصُّ مجالسُ أصحابَ المناصبِ بالنّاس من كلِّ حدبٍ وصوبٍ لأمرٍ هيّنٍ، فإذا خرج صاحبُ المنصبِ من منصبهِ خلا مجلسهُ من الناس.

أصحابُ المصالحِ هؤلاءِ هم لابسو أقنعة، وأحدهم كما يخبرني أحد الأصدقاءِ سقط قناعهُ في لحظةِ وداعهِ، يقول كنت أقولُ له وأنا أودّعهُ: هل تأمر بشيءٍ فردَّ عليَّ – وقد سقط قناعه – بكل فجاجةٍ: الحاجةُ لك قائمة ما دمت في هذا الكرسي. فيا لهذا الرّجل، ويال لطبعهِ البغيض... يقول الصديق: فثرتُ في وجهه وقلت له: أمّا وأنّك قد جاهرت بما كنت تجاهدُ على كتمانه بين جوانحك فأقول لك قولاً مجاهراً يناسبه وهو: أنني لن أسمح لك بلقائي ودخول مكتبي ثانية، فقد أسأت لنفسك، وخرّبت علاقةً تعززت بالودِّ والتَّصافي.

لقد ضاقت مجتمعاتنا بطلاّب المصالحِ ذات العلاقات القصيرة الأجل، وكثر أصحابها حتى أن حدس المرءِ سرعان ما يذهب لمحادثةٍ يتلقاها أن صاحبها يبتغي تحقيق مصلحةٍ لا سلامٍ صافٍ لا يشوبه شيء وهكذا شأنُ الزّيارة. أليس لنا أن نشعرَ بالأسى ونحنُ نلمسُ هذه الطباع المشينةِ تنتشر في مجتمعاتنا، طباعٌ لا ترى في الإنسان فكراً وخُلقاً وتجاربَ ومعارف، بل كتلةُ مصالحَ ماديّةٍ وحسب!

إن العلاقات الإنسانية إن لم تُبنَ على أساسِ الإيثارِ، وعلى القاعدة الإسلاميةِ التي وضعها نبينا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام أساساً للإيمان "لن يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه." إن لم تُبن على هذه الأسس فرباطها ضعيف، ولن يقوم لها شأنٌ أبداً. إن ذلك لن يتحقّق إلاّ عندما تكون قاعدتها المتينة هي: حب الله، فذلك الإلتقاءُ وحده يكفل قيام علاقاتٍ لا تقيّم الناسَ على أساس مالٍ أو جاهٍ أو منصبٍ أوعرقٍ أو نسب وإنّما على أساسِ ما وضعهُ الله في الناسِ من أخلاقٍ رفيعةٍ، وفضائلَ جليلةٍ، وسجايا حميدةٍ، ومواهبَ وطاقاتٍ متميِّزةٍ. وهكذا تسمو المجتمعات، ويتآلفُ البشرُ، وتتعزز العلاقاتُ، وتنتشرُ المروءاتُ، وتزدهر الأوطانْ.

صنّاع المفاجآت

صنفٌ جميلٌ من البشر، مرهفو الأحاسيس، رقيقو المشاعر، يعرفون معنى الفرح، وكيفيّةِ صنعهِ، ويبتهجون لمرأى تقاسيمه وهي ترتسمُ على وجوهِ من يصنعون لهم الفرح. أولئكَ هم صنّاع المفاجآت (السّارة).

نأى الوصفُ عن هؤلاءِ الجميلين، وقلَّ الثناءُ عليهم، وهذا من نكران الغالبيةِ لإحسان القلّة. أولئك الذين يعرفون اللّحظات التي يظهرون فيها، ظهوراً قصيراً لكنّه مؤثّر. مؤثرٌ إلى درجةِ البكاءِ مما صنعوا. وما صنعوا سوى السّحر الذي يسري في القلبِ في لحظةٍ يحتاجُ له القلبُ كي ينتعش، وتحتاجُ له العيون كي تبصرَ إشراقاتٍ في الحياةِ والناس كانت مغلقةً عنها. صنّاع المفاجآت الجميلةِ هم أناسٌ أهداهم الله اللّفتات المؤثرة التي يلتفتون بها نحو من يشعرون أنهم بحاجةٍ إليها، كمن يضعُ يدهُ على جرحٍ فيشفى، ودواءَ على داءٍ فيبرأ. ومنحهم الهدايا الثمينة التي تجعلهم في مراتب الأحاسيس الراقية بالآخرين.

يعرفون كيف يتركون بصماتهم في النفوس، راسخةً لا تتلاشى، وكيف يكيِّفون الظروف، وكيف يستغلُّون المناسبات، لتكون انعطافةً في حياة الآخرين، ونقلةً في مشاعرهم، في الوقت الذي لا يدركُ فيه الآخرون أنّ هناك – على الطرفِ الآخر – من يحضِّرُ لهم المفاجآت السعيدة، التي ستغشاهم بعد لحظةٍ من الزّمن بغشاءِ السعادةِ والطمأنينةِ والحب.

إنّهم يعرفون ماذا يحبُّ القريبون إليهم، وما الذي يناسبُ أذواقهم، وما يتّسقُ مع هيئاتهم، وماذا يفضّلون، ولأيِّ شيءٍ يتوقون، وبأي شيءٍ يحلمون، ولهذا فإنّهم يجتهدون كي يضعوا – على قدرِ ما يستطيعون وما تساعفهم به ظروف الوقت أو المال – أمام مرآى هؤلاءِ في لحظةٍ يُزاحُ فيها الستارُ، فيظهرُ الحبُّ جليّاً، والودادُ ساطعاً.

كم من صنّاع المفاجآتِ من يخصِّصُ لحيظاتٍ ليُسعدَ بها آخرين! كم منهم من يضيّق على نفسهِ كي يحضّر مفاجأة أشبهُ بالسّحر! وهنا أذكر الفكرة الجميلة لبرنامج إنجليزي عنوانه "60 دقيقة". يقوم أحد صنّاع المفاجآت بالاتّفاق مع شركةٍ متخصّصةٍ لتغييرٍ جذريٍّ في بيتِ قريبٍ له أو حبيب في مدّةِ ساعةٍ من الزّمن. يوظّف لها عشرات العاملين. وإذا كنت أنتظرُ شيئاً فليس سوى اللّحظة التي ينبهرُ فيها الذي صنعت من أجله المفاجأة. حينما يتلكّأُ في الكلامِ، والدموع تنهمرُ من عينيه في لحظةِ انبهارٍ غير واعٍ لاستيعاب المفاجأة. كم هؤلاءِ الذين ينبرون فجأةً إلى مسرحِ الحياةِ ليقدّموا مفاجآتٍ سعيدةٍ لأناسٍ بحاجةٍ إليها، فيحوّلوا مسار حياتهم، ويغيّروا أوضاعهم، وينقلوهم من حال البؤسِ والحرمانِ إلى مراتبِ الحياةِ الكريمة! أُولئك الذين لا يصنعون المفاجآت لأجل مصلحةٍ أو منفعة وإنّما لأجلِ إسعادِ أنفسٍ، ومسرّةِ قلوبٍ، وابتهاجِ صدور... وهذا حسبهم في ذلك الصنيع النبيل!

من أجملِ الأشياءِ أن يشعرَ بك الآخرون، فلا ينتظرونَ المناسبات التي (تدفعهم) إلى تحضير شيء وإن كان مجاملةً لك، بل ليقولوا لك شكراً، أو يعوّضوك عمّا كنت تستحق، في أيّ وقت، فلا مناسبةَ محدّدة للشكرِ، ولا ظرف معيّن للسعادة. ذات مرّةٍ لم يكرّم أحد المجتهدين في حفلٍ ما بالرّغم مما بذله من جهود لإقامةِ الحفلِ، وترك ذلك أثراً في نفسهِ لم يشعر به المنظّمون – وما أكثر تجاهل المنظّمين – فلمّا عاد إلى بلدتهِ، إذا بأصدقائهِ يقيمون له حفلَ تكريمٍ مفاجئ، يُبرأ ما اعتمل في نفسهِ من بعض التّذمر... وكأن لسان حاله يردد أبيات الشاعر العباسي أُسامة بن منقذ:

وكتـــابٌ منـــك فاجـــأني كبـــشيرٍ جَـــاءَ بـــالظَّفرِ
ردَّ لـــي شـــرخ الـــشّبّاب ومـــا غَالـــت الأيَّـــامُ مـــن عُمُـــري

وحين أحدث أحد الممثلين مفاجأةً بحضوره عرضاً مسرحيّاً من بطولتهِ في أمسيةِ زواجهِ، قابله الآخرون بمفاجأته أمام الجمهور بإغداق الثناءِ والهدايا عليه حتى انهمرت دموعه على المسرح. وفي مناسبةِ أُخرى كانت المفاجأة من نصيب رجلٍ صاحب تضحياتٍ جميلةٍ، وأيادٍ سخيّة، ومجهوداتٍ تطوعيّةٍ ثمينة، وذلك

ممن التفتوا إليه، وثمّنوا صنيعه، وأدركوا أنّ أبسط الأمور هو تكريمه المفاجئ. وهو غير حاسب لذكرٍ أو ثناء. فكان للمفاجأة وقع جميلٌ عليه.

إنّما بعض النّاس لا يكترثون لمن يتسحقُّ منهم الالتفاتة، والنظرةَ الرقيقة، بصنيعٍ مفاجيءٍ يشعره باهتمامهم، ويجزيه شكرهم. أولئك الذين لا تبينُ منهم أدنى إشارةٍ للشكرِ، وأبسطُ عبارةٍ للثناءِ نحو الذين يحيطون بهم، ويكرّسون حياتهم لأجلهم، وينفقون الأعمار من أجل إسعادهم. أولئك الذين يمنحون لوجودهم معنى دون أن يشعروا حتى إن فقدوهم شعروا بقيمتهم. قد يملكُ هؤلاءِ المالَ، وقد يملكون الذوق، وقد يعرفون في دواخلهم العطاء والبذل الذي يقدمه من حولهم لكنّهم يبخلون بأحساسيسهم عليهم، هؤلاء حياتهم جافّة، ومشاعرهم ضحلة، وهم بحاجةٍ إلى يقظةٍ تعيد إليهم رشدهم، إن كان في ضمائرهم بعضُ حياة. إن صنّاع المفاجآت الجميلة يلقنون دروساً راقيةً لهؤلاءِ، ويعلمونهم أن معنى الحياةَ هي أن تشعرَ بالآخرين، وأن تجتهدَ لإسعادهم أو، على الأقلِّ، لتقول لهم، عبر مفاجأةٍ سارةٍ معنويّةٍ أو ماديّة، شكراً لكم، إننا مدينون لكم بالثناء، إنّكم تستحقون منّا هذه الالتفاتةَ المتواضعة.

عقولٌ صغيرة

يوزنُ المرءُ بعقلهِ لا بكتلةِ لحمهِ وعظمه. فرزانةُ المرءِ، وثقلَ شخصهِ لا تقارنُ مع ثقلَ وزنهِ، وحجم عضلاته. لكنّما أصحابُ العقولِ الصَّغيرةِ كثرٌ رغمَ تسترّهم وراءَ هيئاتٍ وصورٍ لا تنمُّ عن ذلك. إنّما التجاربُ، والمواقفُ، والتدابيرُ وحدها من يفصحُ عنها، ويدلّلُ عليها. فقد تجدُ الرّجلَ فيبهركَ منظره، وتعجبكَ هيئته، ويروقك كلامه، فإذا بك تراهُ صاحبَ عقلٍ صغيرٍ في أقلِّ تدبيرٍ، وأبسطِ موقفٍ، وأضعفِ حالة. فتبدرَ منه كلماتٌ لا تتوافقُ مع ما رسمت له من صورة، ووضعتَ له من منزلة. حينها يسقطُ من عينكِ، وتزهدهُ في قلبك. يقول زهير بن أبي سلمى:

وكائن ترى من صامتٍ لك معجبٍ زيادته أو نقصه في التّكلمِ

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبق إلا صورةَ اللّحمِ والدّمِ

أقولُ إن أصحابَ العقولِ الصّغيرةِ كثرٌ لأنَّهم متّسمون بشتىَّ السّماتِ التي تدلّل على صِغَرِ عقولهم. فمنهم أولئكَ المتّسمون بالنّظرات المحدودةِ الذين لا يرونَ الحقيقةَ إلاّ في أنفسهم، ولا يؤمنون إلاَّ بما يتوافقُ مع مصالحهم، ويدرجُ مع توجهاتهم، وفي سبيلِ ذلك فهم يمقتون أيَّ نجاحٍ لا يُنسَبْ لهم. ويحنقون لأيِّ إنجازٍ لم يكن لهم فيه قيادةٌ وريادة. ويبغضون أيِّ مجتهدٍ لأنّهم ليسوا "هم" فيه. فكم وأدوا من فضائل، وكم عرقلوا من اجتهادات، وكم ثبطوا من مكافح، وكم استصغروا من إنجاز...!

وهم أولئك الذين يجرونَ خلف التوافه. تلك التي يأنفُ عقل الإنسانِ الرّاجح، الرّزين عن تتبعها، وإعطائها ما لا تستحقُّ من الوقتِ والمشاعرِ. فكم يذوبون تحسُّفاً وراءَ أمرٍ تافه! وكم يحرقون من عُمُرٍ وراءَ سخافةٍ من السّخافاتِ، أو نشرِ وشايةٍ من الوشايات، وما ذلك المسعى إلاّ دلالةً على ما يعتملُ في قلوبهم من حسدٍ

وغل! فلا يشفي صدورهم سوى النّكال بالآخرين، وقلبِ حياتهم إلى التّعاسةِ، وتركهم يرسفونَ في الهمومِ والمصائب! أحدُ هؤلاءِ يُرى وجهه وكأنّه من أهل الصلاحِ والخُلق، لكن حين يرى المرءُ صِغر عقلهِ يحتقرهُ. فهو الساعي كي لا يبرزَ جهدٌ غير جهده. وهو المكافحُ كي لا يظهر شخصٌ غير شخصه. أخبرني أحد الأصدقاءِ بأنَّ ساعياً من ذوي العقولِ الصغيرةِ رأى موظّفاً يتحدّثُ إلى إحدى الموظّفات فجرى هلِعاً ينشُر قصّةَ علاقةٍ افتعلها عقله الصغير، وكادت تتسبّبُ في خراب أُسرتين، وتهدمُ سقفين. وشخصٌ آخر يتمثّل بالشِّعرِ والحكمةِ حتى لتحسبه صاحبَ عقلٍ حكيم، وتدبيرٍ عظيم، فإذا هو ذو عقلٍ صغيرٍ لحماقتهِ، وسرعةِ غضبه.

ومنهم من يصغي السّمع لواشٍ، أونمّام يتلفّعُ رداءَ النّاصحِ أو صاحب التقديرِ والتّبجيل، وما هو إلاّ حامل سُمٍّ، وناصب شَرَك. لكنَّ أصحابَ العقولِ الصّغيرةِ ذوي آذانٍ كبيرةٍ لا تحجرُ على كلمةٍ نابيةٍ، أو وشايةٍ مغرضةٍ أن تدخلَ قنواتها، وتجري في مجاريها حتى تصل إلى موطنِ العقلِ الصّغيرِ الذي يستشيطُ غضباً، فتصدرَ من اللّسان - وهو المعبّر عنه - كلماتٌ لا تليق مع هيئاتها، وعباراتٌ لا تتّفق مع مظاهرها. يقولُ الأحنف بن قيس: "أنا للعاقلِ المُدبر أرجى منّي للأحمق المُقبل." وأذكرُ أن خبيراً أجنبيّاً من إحدى دولِ أمريكا الجنوبيَّةِ كان ينعتُ رئيس مجلس إدارة إحدى المؤسسات بأنّ عقله صغير، ذلك لأن هذا الأخير كان يتركَ آذانه قبل بابه مشرعةً للواشين الساعين إليه بالتّوافهِ من الأمور. وقد صدق، فهذا الرّجل كان يخسرُ العاملين المخلصين لديه تِباعاً، لأنّه كان يركنُ إلى اتهامهم لأدنى أمرٍ، وأسخفِ شأن.

أصحابُ العقولِ الصّغيرةِ، أولئكَ الذين يريدون أن يمارسوا ما لديهم من سلطةٍ لإذلالِ موظفيهم، وإذاقتهم وبالَ العملِ معهم، فلا يكادُ موظّفٌ أن يتنفّس في دوائرَ سلطتهم مخافةً عقولهم الصغيرة، فهم يعدون أنفاسهِ ونبضاته وخطواتهِ وكلماته وحركاته. قال لي أحد الأصدقاءِ: لقد كنتُ أُؤدّي عملي بكلِّ راحةٍ ويسر لأنّ رئيسي صاحبُ عقلٍ كبير طالبني بالإنجاز قائلاً: يهمّني ما تُنجز، ولا يهمُّني متى تحضر لعملك أو متى تغادر.

لقد تجسّد لي أصحاب العقولِ الصّغيرةِ وأنا أخرجُ من أحد المراكزِ التّجارية في موقفٍ بطلهُ واحد من الممارسين لكمال الأجسام (وذكرهُ ليس للتعميم) يمشي كرجلٍ آلي، يبينُ عليه الزّهو، فهو عريضُ المنكبينِ، مفتولُ العضلاتِ... في حين تدفعُ زوجته خلفه العربة المحمّلة بالمؤونة، وهو يُهدد إبنه بفقأ عينيه، ثم ينعتهُ بالحمار على مرأى ومسمعٍ من النّاس. قلتُ في نفسي: بماذا أغناك كلَّ هذا العَضَلِ المفتولِ عن العقل المغفول؟! رأيت هذا ممثلاً لصاحبِ العقلِ الصّغير الذي يُري في الظّاهر شكلاً وفي الدّاخل شكلاً آخر. يقول المتنبي:

وما الحسنُ في وجه الفتى شرفاً له إذا لم يكن في فعلهِ والخلائقِ

قيمة الاعتذار

الاعتذار قيمةٌ جليلةٌ من قيم الأدبِ والأخلاق، وأسلوبٌ راقٍ من أساليبِ التعاملِ الحضاريِّ بين النّاس، لا يتوفَّرُ إلاّ في شخصيّةٍ متّزنةٍ، عاقلةٍ، ناضجة، ولا يغيبُ إلاّ عن شخصيةٍ متهوِّرةٍ، متعصِّبةٍ، حمقاء. بالاعتذار يزيدُ قدرُ المرءِ، لا ينقص كما يعتقدُ بعضُ الحمقى، ويعلو لا ينخفض كما يحسبُ بعضُ المتزمّتينَ.

إنّما المعضلةُ التي نعانيها في مجتمعاتنا هي ندرةُ الاعتذار، والإجحافِ في حقِّ هذه القيمةِ الرفيعة، والاستخفاف بقدرها. فكم هم المخطئون المعتذرون في مجتمعاتنا؟ وكم هو المعترفون بذنوبهم وأخطائهم؟ قلّة نادرةٌ كما أحسب. في البيوت، كم يخطيءُ الرّجالُ، ويقترفون من ذنوب في حقِّ الآخرين ولا يعتذرون، كأنّهم قد حصلوا على حقِّ الخطأ المطلقِ على غيرهم، وبعد أن يعوا أنّهم قد أخطأوا لا يعتذرون، لا لزوجةٍ، أخطأوا في حقّها، ولا لأبناءْ. أمّا بين الأسر فكم من المماحكات قامت، وكم من الخصومات نشأت، ثم يتبيّن خطأ أحدهم على الآخر، لكن لا مبادرةَ من المخطيءِ على الاعتراف بخطئهِ والاعتذار. لقد حسب أنّه بإعتذاره سيقلّل من قيمتهِ، ويفقدُ هيبته، وينقصُ شأنه، فيقال عنه إنّه ذلَّ نفسه لأنّه اعتذر. ووالله لا يعتذرُ إلاّ الكريم! وبين الأصدقاءِ كم من يخطيء لكنّه لا يعتذر، بل يكابرُ، ضارباً بالعلاقةِ الثمينة، والعواطف الدفينة عرض الحائط لمجرّدِ امتناعهِ عن الاعتذار الصادقِ. فكم نحن فقراءُ في ثقافةِ الاعتذار! كيف يريدُ الآباءُ من أبنائهم أن يتعاملوا بطريقةٍ حضاريّةٍ مع الآخرين دون أن يعلّموهم أن المرء إذا أخطأ وجب عليه أن يعتذر، وأن المرء كبيرُ القدرِ إن اعترف بالخطأ ؟ كيف نعلّمهم أن "الاعتراف بالحقِّ فضيلة"، دون أن يكون للاعتذار واقعٌ فعليٌّ في حياتنا؟!

في ثقافتنا يخطئ الأبُ بحق زوجته وأبنائه، ويخطئ المديرُ في معاملة موظفيه، ويخطئ الرئيس في التعامل مع مرؤوسيه، ويخطئُ المعلّم في تربية

تلاميذهِ، وقليلٌ منهم من تدفعهُ نفسهُ للإعتذار. بل عكس ذلك، ينتظرُ الكثرةُ منهم اعتذارَ من أخطاؤا بحقهم، أو أن يصفحوا عنهم دون اعتذار، أو أن يواصلوا الحياة معهم، وكأنَّ شيئاً لم يحدثْ. وهذه ثقافةٌ عقيمة يجب أن تصحّح، وأخلاقياتٌ مريضة يجب أن تقوّم. ولو حاسبوا أنفسهم حساباً صادقاً، وأنصفوها لأنصفوا الآخرين، لأنّهم حينها يكونون قد وضعوا الآخرين موضعهم فيشعرون بالألم الذي سبّبوه لهم، ويحسّون بالأذى الذي ألحقوه بهم، فيدفعهم ذلك إلى الاعتذار، والاعتذار الصادق النوايا، الممزوج بالإحساس بالذّنبِ، الذي يبينُ عليه أثرُ الندامة.

وها أنت يشترط عليك كثيرون خاصموك، وقاطعوك لأسبابٍ إبتدعوها حينما يريدون الرّجوع، أن لا تأتي على سيرةٍ ما جرى في الماضي كي لا تظهر أخطاءهم فيضطرون إلى الاعتذار لك. إذن فكيف يكون الصفاء؟ وكيف ينزاحُ من القلوبِ ما تراكم فيها من طبقاتِ الخصام القديم؟ وكيف تفتحُ صفحةٌ جديدةٌ من العلاقةِ وفي القلوبِ ما فيها من شعورٍ بالامتهان والضغينة؟! إن التسامح قيمةٌ رفيعة ولكن الاعتذار هو ما يجعلُ هذا التسامحَ في محلّه، بل يجعلهُ صادقاً، لا شائبةَ فيه، ولا كدر بعده. فأنت تشعرُ بأن إنساناً أخطأ في حقّك، عاداكَ، وخاصمك، ونشرَ عنك ما نشرَ بين النّاس ثم يأتيك الآن بقلبٍ باردٍ ليقول لك: نفتحُ صفحةً جديدةً بلا ذكرٍ لما حدث ولا اعتذار فكيف تكون مشاعرك؟ لربّما ستسامحه، ولكن هل تعود علاقتكما إلى سابق عهدها بصفاوتها دون اعتذار صريح؟

يكابرُ بعض النّاس - مع علمهم أنّهم أخطأوا – كي لا يعتذروا، لأنّ عزّتهم الزائفة، وكبرياءهم الواهم تمنعانهم من الاعتذار. ذات مرّةٍ، قلتُ لأحدهم، لقد أخطأتَ في الموضع الفلاني وقلتَ كلاماً لا يليقُ بك قوله، وكان الخطأُ واضحاً شهد عليه آخرون فظلَّ يسوقُ المبررات العقيمة، التي يطابقها قول: "عذرٌ أقبحُ من ذنب"، والعذرُ هنا ليس الاعتذار عن أسف وندامةٍ وإنّما محاولة تبرير. وآخر أخطأ في مقامٍ آخر، وعرف خطأه، لكن لم يدفعهُ خطؤه إلى الاعتذار على الرغمِ من معرفةِ الكثيرين به، وإنّما ظلّ يتصرّف وكأن شيئاً لم

يحدث! فهل حسب هذا أن للناسِ قلوبٌ من صخر؟ بل إن من الصخر ما يتفجّرُ منه الماء! وأخرى ترسلُ رسالةً قصيرةً تأسفُ لسوء تصرفها لأخرى ثم حين تقابلها هذه الأخيرة لا يبينُ منها أيُّ إشارةٍ على الاعتذار. وهكذا يتصرّف الكثير من الناس. فأنت تضيّع وقتك في لومِ هذا الجنس من النّاس، تمثلاً بقول الشَّريف الرّضي: "وضاع عَتْبُ مسيءٍ ليس يعتذر...!" إنّما الاعتذار عن الخطأ فضيلةٌ. ولولا ذلك لما اعتذر أبو ذر الغفاري، رضي الله عنه، حينما غضب عليه النبي، ﷺ بعد مقولته لبلال: يا ابن السوداء، قائلاً عليه أفضل الصلاة والسلام له: إنك إمرؤٌ فيه جاهليّة. فبكى، وقال: يارسول الله استغفر لي. ثم طرح رأسه في طريق بلال ووضع خدّه على التراب قائلا لبلال: والله يا بلال لا أرفع خدي عن التراب حتى تطأه برجلك. أنت الكريم وأنا المهان! فأخذ بلال يبكي. وأقترب وقبّل خدَّ أبي ذر ثم قاما وتعانقا وتباكيا. هذا هو الاعتذار الصادق، الذي يزيلُ كدر النفس، ويُجلي كربتها.

وهذا نموذج جميل للاعتذار، نعم يخطئ المرء، وأيُّ إنسانٍ لا يُخطيء؟! ولكن أن يشعر بالخطأ فلا يعتذر، أن يجرحِ الآخرين فلا يعتذر، أن يسيءَ إليهم ولا يعتذر، وفوق ذلك يريدُ أن يفتحَ صفحةً جديدةً مع هؤلاءِ دون اعتذار، دون اعترفٍ بالخطأ، كي لا يهبطَ قدره، ويفقد كبرياءه، وينزلَ عن سلطانهِ الواهم... فذلك هو الخطأُ الفادح، بل المرض النفسي الثقيل!

في الغربِ يعتذرون لأدنى شيءٍ في العلاقات العابرة بين الناس، ونحن هنا نتحدث عن التعاملات الخارجيّة، لأنّ عاداتهم جرت على ذلك. وهذه خصلةٌ طيّبة، لكنّنا نتجاوز في حياتنا عن سفاسف الأمور، وصغائرها، التي لا تذكر في معاملات الناس، ونذكرُ ما يضربُ علاقاتهم في مقتل، تلك التي لا تستمرُّ طبيعيّة إلاّ بالاعتذار الصادق الذي يزيحُ الضغائنَ من النفوس، ويجلو الزّعل الداخلي. يقول ديل كارنيجي: "إذا عرفنا أننا مخطئون وسلّمنا بالهزيمة لا محالة فلماذا لا نسبق الشّخص الآخر إلى التسليم بذلك؟ أليس من الأفضل أن نكون نحن من نوجه النقد لأنفسنا بدل أن يوجهه لنا الشخص الآخر؟" مضيفا: "كل أحمق يستطيع الدفاع عن أخطائه، أما أن تسلم بأخطائك فهذا هو سبيلك إلى الارتفاع فوق درجات الناس وإلى الإحساس بالرقي والسمو."

لقد دفعت المماطلةُ كثيراً من الأقوام إلى اتخاذ مواقف واهمة، يقول الله تعالى في هذه النوعيةُ من البشر: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ البقرة/206، هؤلاء سيعتذرون يوم لا ينفعُ الاعتذار﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التحريم/7،وهنا نقصدُ بأن عزّة النفس الواهمة هي خصيصةٌ من خصائص النفسِ، إلاّ أن الإسلامَ قد وضع العزّة في الموضع الصحيح المحدّد في قول الباري عزّ وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ فاطر/10.

إن الاعتذار ثقافةٌ لها آدابها وسلوكياتها المحكمة، فلا يصحُّ اعتذارٌ مجاملٌ، مداهنٌ، غير صادق. إن الأب والأم والمعلّم والمعلّمة والمدير والمديرة وكلّ مسؤول ومسؤولة يجب أن يعتذروا إذا أخطأوا، بل كلّ مخطيءٍ من كبيرٍ أو صغيرٍ يجب أن يعتذر، هذا ما تحتّمه ثقافة الاعتذار، إن هم أرادوا أن يكونوا حضاريين، راقيين في تصرفاتهم. فالاعتذار بلسمٌ يداوي الجروح النفسيَّة، فكم شفى سقماً، وكم أبرأ همّاً، وكم أزاحَ موجدةً، وكم أخمد لهيباً، وكم أسكن ثورة! وقلوبُ أغلبُ المجروحين ليست جامدةً، بليدةً لا تقبلُ الاعتذار الصادق وإن كان قد لحقها من الأذي النفسي ما لحقها، وفي هذا يقول بشّار بن برد :

إذا اعتذر الجاني إليَّ عذرته ولا سيّما إن لم يكن قد تعمّدا

قيمة الحياء

الحياءُ عفَّةٌ وجمال، ورزانةٌ واتّزان، ما تحلّى به امرؤٌ إلاّ زانهُ، ولا تخلَّى عنه أحد إلاّ شانه. هو نعمةٌ جليلةٌ، وسمةٌ فضيلة، يعلو بها المرء شأناً، ويسمو بها مقاماً. الحياءُ زينةُ الإنسانِ، التي تُكسبهُ إنسانيّته، وحليتهُ، التي تزهو بها رصانته، إذا تركها، يكون أقربُ إلى البهيمة منه إلى الإنسان!

الحياءُ هو السدُّ المنيعُ أمام النّفس (الأمّارةِ بالسُّوءِ) للجاذبيّة نحو الرذائل والمفاسد، وهو الحائطُ الرّفيع أمام المكارهِ والنّقائص والعيوب التي تحطُّ من قيمتها، وتبخسُ من قدرها. وقد أكرمنا الله بالحياءِ فكان "الحياءُ من الإيمان" كما جاءَ في الحديثِ الشريف، لذا قام الإسلامُ على الحياء.

وإذا كنّا في هذا الوقت أحوجُ ما نكون إلى الحياءِ والالتزامِ به فذلك لإنتشار المغرياتِ عبر وسائلَ مختلفة. فإن كثيرين رأوا في الحياءِ إنتقاصاً من الشَّخصيّة، وعيباً في الشّخص، حتى أعابت بعضُ الأمّهاتِ على أبنائهن أنّهم يستحون فلا يقاربون النِّساء. وأعاب بعض المعلّمين والمعلّمات على طلاّبهم أنّهم حييّون. فذات مرّة، تلقّى أحدُ الآباءِ تقريراً من معلّمةٍ تشيدُ فيه بابنه ولكنّها تنتقدُه لأنّه حييّ. فكتبَ لها الأبُ قائلاً: هناك فرقٌ بين الإنطوائيّةِ – وهي سمةٌ غير حميدةٍ تحتاجُ إلى علاج نفسيٍّ – وبين الحياء وهو سمةٌ فاضلةٌ يحتاجُ منّا إلى الثناءِ عليه، والإشادة به فقد كان رسولنا الأكرم "حييّاً"، أي كثير الحياء... بل كان أشدّ حياءاً من العذراءِ في خدرها." كما روى أبي سعيد الخدري، حينما مرّ النبي، ﷺ على رجل ينصح آخر في الحياء: أي يعاتبه فيه لأنه أضر به، فقال له: "دعه فإن الحياء من الإيمان."

لكنّ الحياء ضعفَ لدى كثيرٍ من الفتيان والفتيات في مجتمعاتنا العربيّة. وأبرزُ شاهدٍ على ذلك المراكز التّجاريّة والأسواق والشوارع. لقد تعلّقتِ العيونُ في

العيون، وانتهكت الستور، وبعد الكثيرون عن فضيلةِ الحياءِ الذي يحتّم غضّ البصر، لأن الحيّاءَ في مفهومهم عيب في الشّخصيّة. وهو، لعمري، إن كان عيباً فهو أجملُ العيوب وأكرم للإنسانِ أن يكون فيه هذا العيب بدل أن يريقَ ماء حيائه في الشوارع والأسواق!

لا يمكنُ أن يمشي زوجٌ وزوجتهُ في سلامٍ واطمئنانٍ في مركزٍ من المراكز التجارية دون أن تكون العيون مسلّطةً كسهامٍ حادّةٍ على زوجته. هذا ديدن الكثيرين، ولذلك أصبح الزّوجان يشعران بأنّهما محاطان بغابةٍ من العيونِ تراقبهما، وترصدُ تحرّكاتهما أينما ذهبا. إنّ الرّجلَ لا يزينهُ سوى أدبهُ، والحياءُ ركيزةُ الأدبِ. فمهما كبرَ سنّه، وظهرت عليهِ ملامحُ النّضجِ فإنّ أخلاقهُ وسلوكه هي التي تشكّل معيار شخصيّته:

حياءك فاحفظه عليك وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

وفي ذلك أخبرني أحد الأصدقاءِ أن ابنته ذهبت للتّبضُّع في أحد المراكز التجاريّة المعروفة، وإذا برجلٍ طالت لحيتهُ، وبانَ فيها وقار بياضها الذي لم يعكس جوهره يقتربُ منها، وكانت كلّما بعدت زاد في تقرُّبه والتصاقهِ... حتى صاحت في وجهه: إستحِ على وجهك. فهل يليقُ بإنسانٍ حرٍّ كريم أن يضعَ نفسه موضع الخسَّةِ والدناءةِ كما فعل هذا الرّجل وهو يلاحقُ فتاةً في سنِّ إبنته؟ وتخبرني شابّةً أنّها وقفت لتعبرَ الشّارع فإذا بسيّارةٍ فيها شباب – وما أغلاها من كلمة – تقفُ في الشارع ليطالعوها لا ليفسحوا لها الطريق وقد غضّوا أبصارهم. ومن أغربِ ما حكاهُ لي أحد الأصدقاءِ أنّه سافر إلى دولةٍ عربيّةٍ ودخل مطعماً فيها برفقةِ زوجتهِ فإذا بعيون الشباب تحاصرهما، بل تجمهر بعضهم في مقاعد، ووجّهوا قبلتهم نحوهما وظلّوا يحملقون فيهما وكأنّهم يراقبون مخلوقات فضائيّة، كيف تأكل، وماذا تقول.

والمرأةُ حليتها وزينتها الحياءَ، فإن سقط عنها فقدت عنصراً عظيماً من قدرها، ولهذا فلا تلوم أحداً من أصحابِ الخُلُقِ الدنيءِ إن أساءَ إليها. ذلك لأنّها لم تستحِ، فكم من البناتِ من هنّ يفصحنَ عن مفاتنهنّ دون حياءٍ في المجمّعاتِ والأسواقِ والشّوارعِ والطّرقات. ألسن هنا صريحات الدّعوةِ لمفسدة؟ فعلامَ يصرخنَ

في خبثاءِ النفوس، ومرضى القلوبِ إن ألقوا على مسامعهن بعض الكلماتِ الوضيعة؟

هذا المشهدُ لا يوجدُ في الغرب. ليس لأجلِ الحياءِ وإنّما لأجل الحريَّةِ الشّخصيَّة. لذلك أصبح، من الشّاذِ والغريبِ، أن ينظر أحدٌ إلى أحد. لذلك هربَ الكثير من العرب سائحين أو طالبين مقاصدَ أخرى لأسبابٍ منها عيونُ النّاسِ، وإشاراتهم، وكلماتهم.

إن الحيّاءَ ليبدأ في البيتِ، وأربابُ الأُسرِ هم الأسوة. لقد شاهدت وسمعتُ أبناء يتحدّثون أمام آبائهم في أمورٍ يخجلُ المرءُ من سماعها، وتأنف أذُن الإنسانِ الكريم منها. والآباءُ يستمتعون، يتفاعلون، يظنُّون أن ذلك جزءٌ من العلاقة الصحيّةِ بالأبناءِ، أو أنّها دليلٌ على نضجِ أبنائهم، وما هو واللّهِ إلاّ خللٌ في التّربيةِ، ونقص في الأدب. إنّ الأباء والأمهات إن لم يضعوا حدوداً لما يجبُ أن يقال أو يسمع أو يشاهد، فإنّهم يضرُّون أبناءهم. ولكن كيف يكون ذلك إن لم يكونوا أنفسهم قدوةً وأسوة؟ فقد سمعتُ بعضهم يتحدّث في كلِّ مجلس بكلِّ ما يجري على ألسنتهم من سفاسف الكلام غير محترزين بأن في المجالسِ أبناء أغراراً، قاصرين عن فهم مقاصدِ الكلامِ، أو أنّ قولاً مثل هذا لا يجبُ أن يقال، فتسمعهم يلقون النُّكت والطرائف دون حدود. حتى أن السامع الراشدَ لتضيقُ نفسهُ، فقد يكون له أبناء حاضرون يربأ بهم أن يستمعوا لسفاسفِ الكلامِ، ويشاهدوا ما يُعيبُ النظرِ، وتأنفُ عنه النّفس في تلك المجالس. أما الأوّلون، فليس غريباً أن ترى أبناؤهم وقد تخلَّقوا بأخلاقهم المشينةِ، وتطبَّعوا بمثل طباعهم الوضيعة.

إن بعضَهم إن تكلّمَ، لا يراعي من يكونُ في حضرتهِ. فهو يحسبُ أنّ ما يقوله – وقولهُ تفاهة – مثارُ اهتمامٍ ومتعةٍ للآخرين. زرنا ذات مرّةٍ شاباً جاءَ معالج من الخارجِ فكان مجلساً عامراً بالنّاس للاطمئنانِ عليه، لكنّه تكلّم بكلامٍ أسقطهُ من عيونِ الحاضرين، فقال في بعض كلامه: إن قدمي قد أصبحت سليمة حتى أنني دخلتُ مسابقةً في أحد المراقص وكنت فيها متميّزاً. نعم لقد جال صاحبنا وصال في ميادينِ الوغى، ورمى بروحهِ في الهيجاءِ، رافعاً سيفهُ الصّقيل في وجهِ الأعداء!

إن الحياءَ قطرة، إن سالت نضب معينُ الحياء. وحينها يصدقُ على ما قيل "إن لم تستحِ فافعل ما تشاء." وأغربُ شيءٍ ونحن في مجتمعاتٍ مسلمةٍ أن تجدَ الحياءَ مُراقاً من الوجوهِ. ويا للغرابةِ حين يستحي إنسانٌ من آخرَ ولا يستحي من الله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: 108]. فهم يخشون أن يراهم بعض معارفهم أو أصحابهم في المراقص أو الحانات أو أماكنِ الشّبهةِ ولكنّهم لا يستحون من الله وهو يراهم من فوقهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق:14] وقال تعالى﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ الأنعام:91، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:1].

إن قيمة الحياءِ إن لم تُفعّل في حياةِ الإنسانيّةِ، فإن المفاسدَ تستشري، والمكاره تنتشر، والعيوب تكثر، والمصائب تزيد. يقول الشاعر:

إذا لم تَخْشَ عاقبةَ اللّيالي ولم تَسْتَحْ فاصنعْ ما تشاءُ

فلا واللهِ ما في الْعَيْشِ خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

فلا قيمةَ إذن لإنسانٍ – رجلاً أو امرأة – دون حياءَ يكون زينته وحليته، ومقياس رشده، وعلامةَ نضجه. وعليه لأجلِ ذلك أن يتفكّر في المنهجِ السليم الذي يجب أن يسلكهُ أهل بيتهِ. لأنّه لو غارَ عليهم لقبض نفسه عن الآخرين، وعَمَرَ قلبَه بالحياء.

بين الحقيقة والوهم

ما بالُ بعض النّاس، بل أكثرهم كلّما عرضَ لهم عارضٌ من أمرٍ، أو مشكلٌ من مشاكلٍ، ركنوا فيهِ إلى ما يوافقُ أهواءهمَ، ويتّسقُ مع رغباتهم، مبتعدين عن الحقيقةِ، والمنطقِ، والصواب؟ هؤلاءِ كثرٌ بيننا. فقد يُغريكَ بعض منهم بحديثهِ إن تكلّم، أو بهيئتهِ إن ظهر، لكنّه يسقطُ من عينيكَ إن جادلتَه في أمرٍ، أو ناقشتَه في مسألة. يكون عندئذٍ المتشبّثُ برأيهِ وإن كان ضلالاً، والمتمسّكُ بقناعتهِ وإن كانت واهمة.

أغلبُ الأمورِ - في ما لا يمسُّ ثوابتَ الدّين - تقبلُ الجدل، ولهذا وضع الإمام الشافعي لنفسهِ – ولغيره- قاعدةً، هي بمثابةِ الحكمةِ في هذا الإطار، حين قال: "رأيي صوابٌ يحتملُ الخطأ، ورأيُ غيري خطأٌ يحتملُ الصواب." لكن يروقُ لهذا الصنّف من النّاس أن يعيش ملتفّاً على الحقيقةِ التفاف سيقانِ الشّجرِ على كلِّ ما يصادفُ طريقها من جذوعٍ نخرةٍ أو جدرانٍ صلبة. لقد اتّبعوا ما صوّرتهُ لهم (عينُ الرّضا) في ما يحبّون، وأعرضوا عما صوّرتهُ لهم (عين المقت) في ما يكرهون، وهذا في معرضِ قول الشاعر:

وعين الرّضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٍ ولكنَّ عينَ المقتِ تبدي المساويا

قلتُ لأحدهم من جنوب أفريقيا، وقد رأيتهُ يُشعلُ سيجارة: إن السيجارَ يعرّضُ حياتك للخطر. فردّ عليّ بالقول: كلّ شيء يمكنُ أن يعرّض حياتك للخطر إبتداء من السيارةِ والشارع. قلتُ له: أنتَ تُدركُ الحقيقةَ ولكنّك تلتوي عليها. وقلتُ لطبيب: طبيبٌ وتدخّن! قال: كي أروّح عن نفسي ما أعانيه من قلق. قلتُ له: أنت تدرك الحقيقةَ وتوهمُ نفسكَ بالضلال. وقلت لعربيٍّ أخبرني أن زوجتهُ الأولى خطبت بنفسها ضرّتها (أي زوجةً ثانية) وهي راضيةٌ، وسعيدةٌ لهذه الخطوة (المباركة)، قلتُ له: إنّك واهمٌ في هذا الإعتقادِ، وأنت تُدرك حقيقةَ أن المرأةَ لا

يمكن لها ـ إلاّ استثناء لا يكادُ أن يُذكر ـ أن تخطبَ ضرّةً لها تقاسمها الزّوجَ والمعيشةَ. وهذا ما حدثَ فبعد فترةٍ قصيرةٍ طلّق الزوجة الثانيةَ بضغطٍ من الأولى التي كان يقول إنّها خطبتها راضيةً سعيدة. وقلتُ لعربيٍّ آخر: أنّك تعرفُ أنّ هناكَ ما هو أعظمُ من المالِ، وأرفعُ درجةً منه كي تمنحهُ لأسرتكَ وهو المشاعرُ الدافئة، والتعاملُ الشفّاف، والمشورةُ الصادقة، والأحاسيس اللّطيفة... لكنّك توهمُ نفسكَ بأنَّ كمالَ الأمرِ هو في ما تهبه لهم من المالِ. إذن، الإنسانُ– على اختلاف لونهِ وجنسه وعِرقهِ- كارهٌ للحقيقة في المعظم، نافرٌ من عواقبها.

لقد آثر الإلتواء على الحقيقةِ، والتمسُّك بالوهم على كثيرٍ من النّاس، فنغّص ذلك حياتهم وحياةَ من يرتبطون بهم، يقول ديل كارنيجي: "إننا قلّما نُعنى بالحقائقِ، وإذا حدث أن حاول أحدنا استخلاص الحقائق فإنه يتصيّدُ منها ما يعضّد الفكرةَ الرّاسخةَ في ذهنه، ولا يبالي بما ينقصها، أي أنّه يسعى إلى الحقائق التي تسوِّغ عمله، وتتسقُ مع أمانيه، وتتفق مع الحلول السطحية التي يرتجلها." ويستندُ الكاتبُ إلى قول أندريه موروا: "كل ما يتّفق مع ميولنا ورغباتنا الخاصة يبدو معقولاً في أعيننا. أما ما يناقضِ رغباتنا، فإنه يشعلها غضباً. فهل من المستغربِ والحال هذه أن يصعب علينا الوصول إلى حلِّ مشكلاتنا، أو لسنا نسخر من الذي يحلُّ مسألةً حسابية بسيطة مفترضاً أن اثنين زائد إثنين يساوي خمسة؟ ومع ذلك فإن كثيراً من الناس يجعلون حياتهم سعيراً بإصرارهم على أن مجموع اثنين واثنين هو خمسة، وربما خمسمائة. فما هو العلاج؟ العلاجُ أن نفصل بين عاطفتنا وتفكيرنا، وأن نستخلص الحقائق المجرّدة بطريقةٍ محايدة."

هذا هو في اعتقادي هو الحلُّ الناجع، فعواطفُ الإنسانِ في الغالب تقوده في طريق في حين أن تفكيرهُ – إن استقلّ وركنَ إلى الحقائق – يقودهُ في طريق آخر... يقول الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ {الأنعام:116}.

ولربّما كان على الإنسانِ أن يرى الصوابَ في ما تكرهه عواطفه، ولا تستطيبُ له نفسه، وفي هذا يقول المتنبي:

ومن نكدِ الدّنيا على المرءِ أن يرى عدواً له ما من صداقتهِ بدُّ

وكم تعرّضنا لتجاربَ مع أناسٍ كنّا نعدّهم أصحابُ فطنةٍ ورأي فلمّا طرقنا باب النصحِ إليهم قلبوا الأمورَ رأساً على عقب. ولم تسعفهم فطنتهم ولا سداد رأيهم – الظاهر – على تقليبِ النّصيحةِ، والتفكير فيها باستقلاليةٍ عن العواطفِ قدر المستطاع وذلك باستخلاص الحقائق وتحليلها ثم اتخاذ القرار بها. لكنني أصبحت أفكّر في ما قالتهُ لي أمٌّ حكيمةٌ تعلّمت من تجاربِ الحياة: "إنّ من تسديهِ النصيحةَ سيعدّك خصيماً." وإن كنتُ لا أعتقد بأن كلَّ من تسديه النصيحةَ يصبحُ خصمك. لكنّ أكثر الناس كذلك. ولهذا يتوجّب الحذرُ في من تُسدي إليه النصيحةَ، وكيفَ يكونُ نصحه. فبعضهم يريدون منك أن تعيش معه حياةً تواكبُ أهواءهُ وإن كانتَ مضلّة، وتنسجم مع عواطفه وإن كانت بليدة. فإن تحدّثت إليه ناقداً أو ناصحاً قابلك بالحنقِ والغضبِ، وأعرض عنك، وحسبك قد تمرّدت عليه، وخنتَ عشرته، وطعنت ظهره.

لا يُغريكَ في (بعض) النّاس تديُّنهم الظاهر، فهم في معرضِ التجاربِ أبعدُ الناسِ عن تطبيقِ الدّين، وفي أبسط أسس التعاملاتِ أفقرُ النّاسِ، فالمظهر، والشعائرُ التي يؤدّونها كأنّها في وادٍ وما يمارسونه في الحياةِ في وادٍ آخر، لأنّهم ابتعدوا عن الحقيقةِ وأوهموا أنفسهم بأن الحقَّ – كل الحقِّ – إلى جانبهم. وهذا لأنّهم لم يستطيعوا الفصلَ بين عواطفهم وبين الحقائق أو التفكير. وهؤلاءِ رأينا نماذج منهم وخبرنا تجاربهم حين عرضت لهم مشكلات. فقد رأيناهم يتخبّطون في الأمرِ، ويتصوّرون الأشياءِ بشكلٍ خاطيء. خدعوا أنفسهم وأضلّوها ولم يؤدّ ظنّهم هذا سوى إلى تفاقم الأزمات، وتفاقم المشكلات.

إن الإنسانَ، إن لم يستخلص الحقيقةَ من كل أمرٍ قبل أن يقطع فيه، بغضِّ النظرِ عما توافق مع عواطفهُ وأهوائه، فإنّه لن يُدركِ الصوابَ، ولن يعرف الاهتداءَ إلى الحقِّ. فالحقُّ لا تقودُ الأهواءُ إليه، ولا تخرّصاتِ النّفس، بل التفكيرُ المستقلُّ، والعزمُ الثابت... ولهذا الأمرِ أهلهُ الجديرون به.

بين المنطقِ والسُّخرية

منطقُ الحُجَّةِ أداةُ العقلِ، وسبيلهُ إلى البيانِ والتبيين، لتمييزِ ما بين الشكِّ واليقينْ. فإن امتلكَ الإنسانُ المنطق وتقلّده لم يكن بحاجةٍ إلى مهاتراتٍ تُنزلهُ إلى الدّرك الأسفلِ من الخطابِ، وتُعميهِ عن هدفهِ البيّن الواضحْ. أمّا أن يدّعي المنطق ويُجريهِ مجرى السُّخرية والإستهزاءِ، فذلك أسلوبٌ لا يجلبُ إليه إلاَّ ارتداد السخريةِ والتّهكُّم. والإنسانَ، إذا ما ازدوجت شخصيَّته، وكانَ قوله غير فعلهِ، أو مارسَ ما يُعلنُ محاربته، فهو مستغرقٌ في ذاتيَّةٍ تائهةٍ لا تدري لها وجهة، ولا يُعرفُ لها مرفأ.

وقد وجدتُ أن في مسعى بعضِ النّاسِ للتعبيرِ عن مكنوناتهم أنهم يعمدون إلى السُّخريةِ اللاّذعة من الآخرين الذي يقعون في دائرةِ انتقادهم ، فتبدّت لي كلماتهم الهازئةِ وقد حادت عن طريقها، وحينها تنبعث من (بين السُّطور) لغةٌ أخرى لها دلالتها، ونفسيَّةٌ مختلفةٌ لها مقاصدها، تريدُ أن تقولَ شيئاً آخر، أو ترمي لهدفٍ خفيٍّ غير الذي تعبِّر عنه، أو تُدرجُ فيه انتقادها، أو سخريّتها. وفي الحقيقةِ، فإنّها تعاني من صراعاتٍ نفسيَّةٍ داخليَّةٍ، أو تعتملُ في داخلها همومٌ معيّنة، هذه الهموم وتلك الصراعات تطغى على منطقِ الغاية، فيغلبُ الهوى رجاحةَ الفكرةِ، ويتحيَّزُ العرقُ إلى العرق، وينصرُ إبن العشيرةَ عشيرتهِ ولا يعدُ الحقُّ باحثاً عن ضالّةٍ ينشدها، بل واقعاً في ضلالة أوقعَ فيها نفسه. وحينها ينطق لسانه قائلاً:

وإن أكثر ما في الأمرِ سخريّةً   أني بدأتُ ألاقي النُّصحَ من خدمي

ماذا في النُّصحِ إن كانَ فيه حقٌّ؟ لكن هل جرّه إلى قول ذلك إلاّ أن من يسديهِ النصح هم خدمه، فيرى الأمر "الأكثر سخريّةً". ونقرأُ كتابات بعض النّاس فنجدُ أنّهم لا يميِّزون بين تجريحٍ وموضوعيّة، ونقدٍ وهزء، وحقٍّ وباطل،

فلا ترى في الكلامِ إلاّ سطحيّة ساذجةَ المعاني، وابتذالاً واضحَ العبارات، سخيفَ الغايات. تقرأ الفكرة، لكنك تجدُ صياغةً غير قويمة، فتدركُ أن "وراء الأُكمةِ ما وراءها." فتتمتم - وأنت تتخيّل نفسيات هؤلاءِ النّاس - ببيت مصطفى وهبي:

الساخرون بكلِّ شيءٍ بينما لا شيء إلاّ وهو منهم يسخرُ..!!

وقد تابعتُ لكاتبينَ منذ فترة "مهاترات" و "سخريات" متبادلة أحالت منطق الكلام لديهما إلى غثاثةٍ، وفكرته إلى خشاش. وليتهما تحاورا بأسلوب يحترمُ الكلمةَ، ويراعي المنطق، ويصون الموضوعية، وينتصرُ للحق. لقد غلبتَ أهواؤهما على أمانةِ الكتابةِ، فأبعدتهما عن منطقِ الصواب، ونسيا أنهما يسمّمان قارئاً بما كتبا، ويضيّعان عليه وقته، ويحطّان من قدرهما عنده. وأذكرُ أن معقّباً في إحدى الندوات المسرحيّةِ أسهبَ في تجريح طاقمِ مسرحيةٍ ما، ولم يتحرّز الموضوعيّة، بل كان لاذعَ الطَّرحِ، هازئ الكلام، يهوِّل من مبالغتهِ، ويبالغُ في فجيعتهِ، فكأنّه سيبويه الذي لم تعرف ابنته كيف تصفُ له جمال السّماء. وإذا به يظهرُ ذات يومٍ مقدِّماً لبرنامجٍ بدا فيه بعيداً عن أبجديات التَّقديم، فاقداً للحضورِ، مغيّباً لأبسط قواعدِ المهنة، أفقر النّاس لساناً في اللّغةِ التي هوّل في المنافحةِ عنها. فأين هو من سخريَةِ الآخرين، وشماتتهم بعد أن سلَّ سيف التجريحِ صارماً فيهم؟! وقد سمعتُ من معقّب في أحد البرامجِ المرئيَّة على قضيّةٍ ما، يُلقي التُّهمَ جُزافاً على الآخرين، وينبري كأنّه الفارسُ الباسلُ، نسيجُ وحدهُ في الشّجاعةِ، ودهشتُ لأنني رأيتهُ يمارسُ ما يتّهمُ الآخرين به علناً. وذات يومٍ، دسَّ أحد الأدباءِ كلمةً ساخرةً في أذنِ شاعرٍ انتهى لتوِّه من إلقاء قصائدهِ، فظلّت تلك الكلمةُ تتردّد في ثناياه سنواتٍ طويلة، كبعوضةٍ تطنُّ في الأذن. واستمعتُ ممن يدّعي لنفسه لقبَ "مثقّف" سخريَّةً ما بعدها سخريَّة بثوابت وحقائق، يغرّر بها فكرهُ الجاهلُ محوها وإعادة ترتيبها، والبحثِ لها عن إجاباتٍ أُخرى، ثم يطعنُ في إحصائيّات علميَّة مرصودةٍ، ويختلفُ معها لهوىً في نفسه وليس لدليلٍ أو بيِّنةٍ تقارعها وتكشف خطأها.

وهؤلاءِ يكشفون عن خللِ نفسيٍّ يعانونه، وصراعٍ داخليٍّ يعتملُ فيهم، لكنّ أمرهم مكشوفٌ، ومرضهم محدّد، يصح فيهم قول دكتورة علم النفس، ماري لويس: إن من يستخدم أسلوب السخرية هو شخص يشعر بنقص في شخصيته، ويريد لفت الانتباه، ولا يملك فكراً يريد أن يوصله من وراء هذا الأسلوب سوى أنه يريد التجريح والشتم، وصاحب هذا الأسلوب هو شخص فاقد لحس المنطق وهو مفرغ من الداخل أيضاً." وهذه هي ذات النّفسيّة، التي تحدّث عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ الحجرات/11.

هؤلاءِ السّاخرون يفتقدون إلى أدبياتِ التّعاملِ مع موضوعية الكلمةِ، وعلم المنطق، حين لا يرون منطقاً يعلو منطقهم، ولا فكراً يبزُّ فكرهم. فهم يرون أنّ أفواههم لا تنطقُ إلاّ بالصوابِ وغيرهم لا "يهذي" سوى بالخطأ، ولا يسقطون هم إلاّ "درر" القولِ، في حين "يلغطُ" غيرهم بالغثِّ، ولا يستندون هم إلا إلى قوي الحجّةِ وغيرهم ألسنةَ الهوامش. وفي هذا مكمنُ خطئهم، وأساسُ عيبهم، وعينُ علّتهم.

إن كلمةً لا تمتطي ظهرَ المنطقِ هي كلمةٌ ضالّة. وإن مقصداً يتخلّلهُ الهوى، وتقودُ دفّتهُ النوازع فتحيدهُ عن موضوعيته هو مقصدٌ خادعٌ. وإن نقداً لا يتحرّزُ أدبياتِ الحوارِ، ولا يتخلّق بمبادئ الفكرِ الراقي، الناشدِ تصوير الرأيِ في أدبٍ جم هو نقدٌ فقد قيمته حين فقد التواصل الإنساني الخلاّق، وغلّب الذاتيّة، وأقفلَ دونه فرضيّات الصحّةِ لرأيٍ غير رأيه. الكلمةُ مطيّة، فإن أحسنَ قائلها إليها بالإخلاصِ لها سارت إلى مقصدها دون حادٍ. والإخلاصُ للكلمة تنقيتها من شوائبُ النوازع التي تلوّثُ كساءها. ولذلك كانت الكلمة ذات ثقلٍ كبير في مبدأ الدِّين "قل خيراً أو اصمت." و"إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة." حديثان شريفان.

إن بعضَ من يحسبون أنّهم قد أوتوا مفاتيحَ الكلمِ، وأئتمنوا على خزانات المعرفةِ خدعوا أنفسهم. فكم منهم من سخرَ من آخرين لأنّهم في ظنّه بعيدون عن المنطقِ وهو القريب، بينما تكمنُ وراءَ الجدرانِ شواهدُ وحقائقَ، تقول لهم:

قل للذي يدّعي في العلمِ معرفةً عرفت شيئاً وغابت عنكَ أشياءُ

فقد منعهم التّجرّدُ من طلب الحكمة سخريّتهم من الآخرين، والله سبحانه وتعالى يحذّر: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ص/26، والمؤسفُ أنَّ كثيراً ممن يعدّون أنفسهم حداة الرّكب، يفتقدون إلى أمانة الكلمة. فتغرِّر لهم أنفسهم السُّخريةَ من غيرهم، وتصوِّر لهم أنّهم قد اعتلوا قمماً لا ينازعهم فيها منازع، ولا يطاولهم مُطاول، وما هي إلاّ قممٌ هشَّة. والحقُّ في ذاتهِ لا يحتاجُ إلى سخريّة، فإن خالطته ضاع، وإن شابتهُ فسد. وكم من مُصيب في الحجَّةِ، يقصدُ الحقَّ، حملته نفسه على التّهكُّمِ والتلفيقِ والتحقير... غوى. فلا نصيحة خالصة تُقبلُ مع الاستعلاءِ والاستهزاءْ. ولا حوارَ يُبنى بالتقزيمِ والاستغباءْ. ولا حقيقةَ تُرجى بالتحقيرِ والإقصاءْ. وفي الحديث: " فإذا رأيت شحًا مطاعًا، وهوىً متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك."

وإذا كان على المرءِ أن "يلتقط" الحكمةَ من المجنون، فهل يسخرُ من العاقلِ في رأيٍ رآه، أو فكرةٍ اعتقدها، أو مسلكٍ حسبه مستقيماً؟ كيف تمضي الكلمةُ إذن في مجراها النّفسي وقد تفسّخت عن كسائها الأدبي، ورونقها الأخلاقي والتصقت بها نفايات عفنة؟ وما نفعُ العلمِ إن لم يُحمل المتعلِّم إلى تقديرِ الكلمةِ، واحترامِ قدسيّتها؟ وقد تساءل المتنبي قبل:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوارُ والظُّلَمُ

إذا فلا خير في امرئٍ تقوده أهواؤه كيفما شاءت، ونوازعه كيفما مالت. فهو متبجِّحُ المعرفةِ إلاّ أنّه خاوي الضمير، فما نفعُ المعرفةِ بلا ضميرٍ حيٍّ يعي شرطها، ويبصرُ دربها؟ منذ فترة اضطر مستشار لرئيس الوزراء البريطاني جوردن براون يدعى داميان ماكبرايد للإستقالةِ لأن أهواءه قادته إلى خيانةِ قيمة

الكلمة، ولم تُعنه المعرفة المتراكمة، والخبرةُ السياسيّة الكبيرة على التّحكم بقياد الكلمة لأن السّخرية بالآخرين وتشويه سمعةِ قياداتٍ من حزب المحافظين هي التي طغت عليه فلم ير أمامه سواها. وهكذا، كثرٌ أولئكَ الذين لا يقيمون وزناً للكلام. فأصبح التراشقُ بالعباراتِ السّاخرةِ بديلاً للحوارِ الهادئ، وأصبحت المهاترات اللّفظيّة، والتلفيقات الخارجة عن حدود الأدبِ سلوكاً حينما يعبّرون عن آرائهم، فكيف بهم يرمون النّاس بالحجارةِ وهم يسكنون بيوتاً من زجاج؟ كيف يقيِّم وزنُ "أديبٍ"، أو "مثقّفٍ" أو "كاتب" أو غيرهم وهم يتشدّقون بإمتلاكِ معرفةٍ، وحيازةِ منطقٍ، ومعرفةٍ حقيقةٍ لا حظَّ للآخرين فيها؟ وكيف تُقبلُ منهم الكلمة، ولسانهم يلعلع بقول المعري:

إنِّي وإن كنتُ الأخير زمانهُ   لآتٍ بما لم تستطعهُ الأوائلُ

وقد اسكتهُ صبيٌّ يافع قائلاً له: إن من سبق قد جاء بثمانيةٍ وعشرين حرفاً في اللُّغةِ فزد عليها حرفاً واحداً. فسكت المعري، كما لم يسكت من قبل.

تعالي بعض النفوس

ثوبُ الزّهوِ شائه، وطبعُ الكبرياءِ مضلِّل..! وإنَّ المرءَ ليخسرُ من قيمتهِ، وقدرهِ حينما يزهو، ويختال..! فينحدرُ من مرتبةِ التقديرِ، إلى منزلةِ التحقير..! وقد تعذرُ الجاهلَ لجهلِ نفسهِ وهي تصوِّرُ لهُ عظمةَ قدرهِ، وعلوَّ كعبهِ، وهو لا يملكُ حظّاً من العلمِ، ولا شيئاً من المعرفة، لكنّك لا تعذرُ المتعلّمَ الذي تفترضُ أن أوّل ما يتعلّمهُ هو حسنُ التأدُّبِ والتخلُّق بالمحاسن، قبل اكتساب العلم. قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الإسراء/85..!

كثيرون ممن يحسبونَ أنّهم أعلمُ النّاسِ، وأعرفهم بكلِّ شيءٍ، وأقدرهم على امتلاكِ الحجّة، وفصل الخطاب... إذا سئلوا عن شيءٍ لا يعرفون له ردّاً ومع ذلك لا تحملهم أنفسهم على الاعتراف بجهلهم الإجابةِ، بل يمضُّون السامعِ باللّغو الذي لا يمتُّ للإجابةِ بشيء. وإذا طُلب رأيهم في أحدٍ من الناس أو شأنٍ من الشؤون، أطلقوا لألسنتهم العنان دون جماح لتقول ما شاءت وهم غير جديرين برأيٍ أو مشورة. فينتقدون هذا، ويقيِّمون ذاك، ويُعلنون المواقفَ، ويطلقون الآراء، ويكيلون الاتهامات. وهذه معضلةٌ يعاني منها كثيرون؛ معضلةُ إعلاءِ النفسِ فوق الآخرَ بغيرِ أهليَّةٍ ولا جدارة.

إنّ من علاماتِ رصانةِ الشخصيَّةِ، وهيبتها حسنُ الأدبِ، ولطفُ المقالةِ، وسماحةِ الخاطرِ، وتحرِّي الحجَّةِ، وسعةِ الخاطرِ، وتواضع الجانبِ، فإذا سادت فيها هذه الصفات، تحوّلت إلى طباع، وحينها سيرى أثر ذلك في معاملة الآخرين على غرار "عامل الناس كما تحبُّ أن يعاملوك." وادّعاءُ العلمِ بالشيءِ دون العلم به خداعٌ وتضليل واستهزاءٌ بالنفسِ وتقليل. والقاعدةُ الفقهيّة هي: "من قال لا أعلم فقد أفتى." إنّما هي تندرجُ في صميم المنطقِ لصون الحقيقة، والحفاظِ على قدرِ النفس، وعدم الزجِّ بها في أحراشٍ لا تستطيع الخروج منها. قال لي أحد

الأصدقاء: استضفتُ في برنامج تلفزيوني فإذا بالمُحاور – وهو غير ضليعٍ بالعلمِ الذي يحاورُ فيه – يسألني سؤالاً تتطلّبُ الإجابةُ عليه ذكرُ أرقامٍ فأجبتهُ دون مواربةٍ : لا أعرفُ الإجابة. وعلى الفورِ بثَّ فاصلٌ إعلاني، سألني المذيعُ المحاورُ خلاله: كيف لا تعرفُ الإجابةَ وأنت المسؤول الذي يفترضُ أنَّ هذا الشأن يقعُ تحت مسؤولياتك ؟ فقال له الصديق: كيف بك تريدني أن أجيب على سؤالٍ لا أملك الإجابةَ عليه؟ الإجابةُ تتطلّب ذكرَ أرقامٍ وأنا لا أملكها الآن.

وإذا كان هذا الصديقُ قد وجِّه إليه سؤالٌ فنفى معرفته بالإجابة، فما بالك بمن كان المذيع المعروف يحاورهُ حول إصدارٍ من إصداراته فإذا به يُقحمُ نفسه في شأنٍ ليس لذكرهِ مناسبة، بل إنّ ذكره بعث الاستغراب والإستنكار من فوره. وما بالكَ بشاعرٍ مغمورٍ، أراهُ أول مرّةٍ على الشّاشةِ، وهو يقدحُ في شاعريَّةِ آخرين، متهماً إيّاهم بعدمِ الوعي؟ وما رأيك بمذيعٍ لمجرّدِ أنّه وجدَ له جناحين يطيران به لأقربَ غصنٍ يقلّل من شأنِ من كانوا سبباً في ظهوره؟ وما رأيكَ بمحاورٍ يتسلّقُ جذع النخلةِ، حتى إذا وصلَ إلى الرُّطبِ، بدأ يرمي النوى في أعينِ من حملوه إلى قمّتها؟ وما رأيك بالوجوه الجديدة التي سرعان ما إن تطلَّ على الناسِ حتى تحسب أنّها جاءت بالجديدِ الذي حسب المعري أنّه جاء به وأن الأوائل أصبحوا في عداد الماضي، بل وأن الناس كلّهم لا يملكون الحقّ والمنطق الذي يملكون؟!

المدهشُ أنّك ترى فتىً مغموراً، أو فتاةً غرّةً ما إن يطلّون برؤوسهم حتى تسمعُ منهم نقداً ليس في محلِّهِ، وجدلاً ليسوا من أهله. فتتمنّى لو أنهم اقتصروا على العنايةِ بمواهبهم، واشتغلوا على صقلِ قدراتهم بدلاً من إضاعةِ الوقتِ في ما لا يفيدهم بشيء، وعملوا على تصحيح أخطائهم، ورتق عيوبهم. لقد قال أمثال هؤلاءِ مقولتهم، وردَّ عليهم المتنبي قائلاً:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ　　فهي الشهادةُ لي بأنّي كاملُ

إن النّعرةَ والجموح في بعض النفوس هي التي تدفعها إلى التقليل من شأنِ الآخرينِ، وتقزيمِ مواهبهم وقدراتهم، ويؤسفني أن أقول إن بعضاً ممن يَنسبون أنفسهم إلى الأدب والثقافةِ (مع سعةِ مفهومها) هم من هذا الصنّف. فحينما تغرّر

بأحدهم نفسه أنّه قد أصبح عَلَماً في جنسٍ من أجناسِ الأدبِ، أذنِ للسانهِ أن تقدح ما شاءت في الآخرين. ولعلَّ بعض العبارات التي يستخدمونها منفِّرة، وباعثةً على الإستغرابِ، فهي بعيدةٌ عن المنطق، المنطق الذي يدّعون امتلاكه وهم عنه بعيدون. لم يُعرَّف أحد الكتّاب المسرحيِّين وصاحبُ موقعٍ في ندوةٍ تطبيقيَّة فثارت ثائرته، وانتقم لنفسهِ من مدير الندوة بما يحلو له من كلماتٍ ساخرة. ولم يعرّف أحد الشعراءِ المغمورين في أمسيةٍ أُخرى فهمهم وغمغم. وهاجَ أحد الجهابذة، حين نودي بلقب الدكتور، واضطربَ قائلاً: وهو يُشير إلى أحد تلامذته الحاصلين على الدكتوراه أيضاً: إذا كنت أنا دكتور، فماذا يكون هذا الحمار؟ بل إن بعضهم ليقاطعُ مؤتمراتٍ أو ندواتٍ أو يثيرُ الفتن من أجلِ خطأٍ مطبعي في لقبهِ، أو زلّةٍ غير مقصودةٍ في اسمه، أو إيجازٍ مختصرٍ في سيرته. فأين هؤلاءِ من أسلافٍ لم يزدهم العلمُ إلاّ تواضعاً، واحتراماً لأنفسهم؟! لقد التقيتُ ببروفيسور عربي في المملكةِ المتّحدة، حضر متأخراً في احتفالٍ من الاحتفالات فلم يجد كرسيّاً في الصفِّ الأوّل حيث كان محدّداً له أن يجلس، فجلس في الخلفِ بكلِّ سعادةٍ ورضا. قلتُ في نفسي: هل معيشة هذا الرجل في الغرب لثلاثةِ عقودٍ قد بدّلت من طبعه. هناك، حيث يصطفُّ المفكّرُ والعالم المعروف مع أصغر طلاّبه في طابورٍ لطلب فطيرة!

النفوس التي تدفع أصحابها إلى التّمردَ على الأخلاقِ، هي نفوسٌ فاسدة، غير ضليعةٍ برأي، ولا جديرةٍ بمشورة، والعلم الذي لا يزيدُ صاحبهُ تواضعاً كالثمرةِ الفاسدةِ البذرةِ والطّعم، وإن بدت ناضجةً في شكلها، فما ذلك إلاّ خداع القشور. وإذا كان الرأي يجبً أن يقال فإن له لغةً ومنطقاً وحجّةً وأدباً ووسيلةً لا تخدشُ الآخرين، ولا تقلّل من شأنهم، ولا تزدري قيمتهم، فحينها يُقبل ويرتضى، بل ويكون لصاحبه مقاماً عالياً، وقدراً كبيراً.

رسالة إلى مُحاور

الحوارُ خُلقٌ من الأخلاقِ، وفضيلةٌ من الفضائل. به يقاسُ المرءُ، وبه تُفنَّدُ محاسنهُ من مساوئه..! إن أركبهَ ظهرَ التواضعِ فلح، وإن أركبه ظهرَ الكِبر خسر. وإنّك لتقرأ ما يستقرُّ في نفسيَّةِ المرءِ، وما يشفُّ عن طبيعتهِ حين يحاور، فترى أخلاقُه الرفيعةَ أو المشينة، وحينها تعرفُ صاحبك، فتدركُ ماهيّةَ طبعه.

لقد فقدَ الكثيرون في مجتمعاتنا أدبياتِ الحوارِ الراقي، وغابت عنهم أو غيّبوا ضوابطه وأخلاقياته. وما ذلكَ إلاّ لأن طباعَ الحدّةَ في النفوسِ تطغى، فتتغلبُ الأهواءُ، وتغيب قضيّةُ الحوارُ، وتضيعُ خيوطه، وتبرزُ "الأنا" العليا، فتكتسحُ مصداقيّة المسعى، وتضيّع مقصدَ الحوار. وحينها لا يجدُ الحقُّ مكاناً لنفسهِ، ولا يجدُ المنطقُ متّسعاً لعقله. وعندها "يتّسعُ الثقبُ على الخارقِ"، كما يقولُ المثل، فلا تغدو المسألة قضيّة يرادُ بها حقّ، وإنّما حقٌّ يرادُ به باطل. يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ القصص/50.

لقد شهدتُ بعض النّاسِ ممن يظنّ النّاسُ فيهم التّواضعَ، ويصفونهم بدماثةِ الخُلقِ، وهم كذلكَ ما لم يدخلوا في حوار. فإن دخلوا في حوارٍ، طغتَ عليهم أهواؤهم، وسادت أمزجتهم، فزكّوا أنفسهم بما ليس فيها، ووقعوا في سقطاتِ اللّسانِ، وزلاّت الكلامِ ما يُخرجهم من الشخصيةِ التي عُرفوا بها، فكم سمعتهم يلقون التُّهم جزافاً في المتحاورينَ معهم، وكم أدهشني تطاولهم عليهم بما يأنفُ اللّسانُ عن ذكره.

وشهدتُ آخرَ، وقد غرّرت به نفسه، وظنَّ أنّه أعلمُ من في الأرضِ، وأوسعهم معرفة. فإذا حاوره محاورٌ، حقّرهُ، وسفّهه، وقزّمه أمام الجمعِ كي لا يطاولَ قامته، فيمضي في تعنيفهِ وتأليبِ رأيهِ، حتى أخذ الحوار الشكّل الذي يصفه عبد الله البردوني:

و تمــادى الحــوار في العنــف حتّــى   اســكتت ضــجّة الــصباحِ الحــوارا

لكنَّ ضجّة المحاور المغرور – لا ضجّة الصباح - هي التي اسكتت الحوار. يجادلُ في مسائل قطعيَّةَ الثبوت، ذاتَ مرجعيّةٍ لا تبديلَ لها، غير عاملٍ بقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ النساء/59،ولذلك يُصبحُ من الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ البقرة/11و12، وجدتهُ يتربَّصُ بمحاوريهِ كما يتربَّصُ الذّئبُ بقطيعٍ من النعاج. يريدُ أن يقتنصَ أخطاءهم، ويقلّلَ من شأنِ رأيهم، ويسفّهَ من أدلّتهم، كأنّه لا يريدُ الانتصارَ للحقِّ، بل لنفسه، فأين هو من مقولة الشافعي: "ما ناظرتُ أحداً إلاّ تمنيت من الله أن يُظهرَ الحقَّ على لسانه." أيُّ محاورٍ هذا الذي يتمنى أن يُظهر الله الحقَّ على لسانِ خصمه، سوى ذلك المتجرّد من هوى نفسه؟ فلسانُ هذا المحاورُ يلعلعُ ببيت المتنبي:

ودع كــل صــوت غــير صــوتي فــإنني   أنــا الطــائر المحكــي والآخــر الــصدى

وشهدتُ آخر، لم تُكسبهُ وجاهةَ مقامهِ ورجاحةَ عقلٍ وتواضعَ نفسه، فنظرَ إلى محاوريهِ نظرةً دونية، ولسان حالهِ يقول: من أنتم حتى تحاورونني، بأيِّ حقٍّ تسمحُ لكم أنفسكم التطاولَ على جنابي، وكأنَّ الناسَ لا يعلمُون شيئاً، حتى إنّ ردَّ عليه أحدَهم يدافعُ عن نفسهِ، أسمعهُ المتشدِّق، المُعجبُ بنفسهِ، كلاماً لا يليق.

وعجبتُ من تحاورِ أسماءَ معروفة، تركوا القضيَّة – مركز الحوار – جانباً، وأخذوا يسفّهون ويسخرون من أسمائهم الشخصيَّة، ويسخرُون من عيوبِ بعضهم الخَلقيَّة. ولشدِّ ما صغروا في عيني، وقد كانوا قاماتٍ سامقة. هل يتركون الحوار الهادئَ، الهادف، ويلجؤون إلى السُّخرية؟ أيُّ أدبٍ إذن يمتهنون، وبأيِّ خلقٍ يتحلّون، وأية وجاهةٍ يدّعون؟! وحضرتُ في مجلسٍ سَفّه فيه أحدَ الحضورِ عالماً، فعجبتُ ممن يدّعي الدِّين كيف لم يفقه أدب الحوار، والدّين قام على الحوار،

ويكفي قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ النحل/125، فإذا كان هذا خُلق الحوار مع الكافر، فكيف يكونُ مع المسلم؟! وحضرتُ أمسيّةً شتمَ فيها شاعرٌ ناقداً، وليتَ ذلك قد حاور العالم، وهذا قد حاور الناقد، لكنّهما آثرا التسفيه والشتيمة.

إن إحدى أكبر مشكلاتنا تكمنُ في فقداننا أدبياتِ الحوار، فقلما ينشأُ حوارٌ لا يصاحبه ارتفاع الأصواتُ، فيكثرُ الصّخبُ، وتعمُّ الفوضى، وتتوتّرُ النُّفوسُ، وتثورُ العواطف، وتطغى العصبيات. وإذا كان الله قد علّمنا أدبيات الحوارِ في قوله: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ فصلت/34، وضرب مثلاً في عدّة قصص منها قصة أصحاب الجنتين، والرسلُ الثلاثة، وقصة سيدنا موسى والخضر عليه السلام، وسيدنا موسى وهارون وحوارهما مع فرعون وغيرها، إلاّ أننّا لم نستفد من هذه الدروس. فكثيرون منّا إن ابتدأ الحوارُ – والحوارُ ملازمٌ دائمٌ للتواصل الإنساني – سرعانَ ما يعزُّ على النفسِّ أن تنهزم حتى ولو أدركت الحقَّ في باطنها.

إن العُقد التي خلّفها الكثيرُ من الآباءِ لدى أبنائهم عميقةً ومزمنةً وذلك لأنّهم سفّهوا عقولهم، وقزّموها أمام قاماته، ورأوا في محاولةِ أبنائهم الحوارَ معهم انتهاكاً للسيادةِ الأبويّةِ، وتجريحاً شخصياً لهيبتها. فأرادوا لأبنائهم أن يعيشوا على قطراتِ الكلام التي تسقطُ من أفواهِ آبائهم، ويطعمون فتاتَ آرائهم وأفكارهم، ولهذا تربّوا – والعقدُ هذه فيهم – على تسفيهِ الآخرِ، وتقزيمه، والحطِّ من قدره. ولو أنّ أبناءهم ومعلّميهم قد أشركوهم في الحوارِ، واستمعوا إليهم، وقدّروا فيهم ملكاتهم، وثمّنوا مساهماتهم، لاستطاعوا أن يخلقوا جيلاً قادراً على الحوار السليم، الهادفِ، المنطقي، الواعي.

وإنني لأستغربُ الردودَ في كثيرٍ من المنتدياتِ الإلكترونيّة على موضوعٍ ما، فما أن يطرحُ أحدهم موضوعاً هادفاً للحوارِ وإذا بك تقرأُ ردوداً لا تفقهُ أدبياتِ الحوارِ، ولا تقيسُ قيمته. فينحدرُ الكلامُ من السمينِ إلى الغثِّ، ومن الرجاحة

إلى الحماقةِ، وإذا بكَ تجدُ نفسكَ وكأنّك أمام شخصيّة واحدة، تتعدّد أساليبها إنما تتّفقُ معانيها. وهذا دليلٌ على أنَّ الحوارَ لدينا لم يأخذْ مجراهُ الصحيح في التربيةِ الاسريّةِ، أو في التعليم أو بالأصحِّ في التعلُّم. يقول الشيخ سلمان العودة: "ان الكثير من الناس مازالوا غير مدركين لأهمية الحوار أوغير مقتنعين بنتائجه وأنه ضعف، وأنا أؤمن أنه قوة."

حدّثتني بروفيسورة إنجليزيّة: لقد كان من أخطائي أنني كنتُ أحاور ببطلان آراءٍ سابقةٍ، وأضيّعُ وقتي كثيراً في محاولةِ هدمها، وترجيحِ كفّة رأيي، لكنّني اكتشفتُ، في ما بعد، مدى الخطأ الذي أقعُ فيه، فصرتُ أطرحُ رأيي تاركةً آراء الآخرين قائلةً: هذه وجهةُ نظرٍ أخرى للنظرِ إلى العالم. وهذا المثلُ وإن لم يدخلْ في صميم الحوارِ إلاّ أنّه خلقٌ من أخلاقِ الاختلافِ العلمي الحضاري، ووسيلةٌ من وسائلِ كسبِ النّاس بتقديرِ آراءهم.

كثيرةٌ هي الحوارات التي لا تفضي عندنا إلى شيءٍ نافع، ذلك لأن المشاركينِ لم يحدّدوا قضيّتها، ولم يُنصتوا جيداً، ولم يتّسموا بالتواضع، ولم يتحلّوا بالصّبر، ولم يتسلّحوا بالدليلِ، بل يحلوا لهم أن يقحموا أنفسهم وسط الحديثِ وقد دفعتهم إلى ذلك طباعهم الحادّة التي لم ترد أن تستفيدَ من طرحِ الآخر، والمؤسفُ أن هذا الكلام لا ينسحبُ فقط على السوادِ الأعظم من الناس في مجتمعاتنا، بل على الكثير من مثقفينا، ومفكرينا، بل على بعض علمائنا. فكم هي القضايا التي أضاعت أوقاتهم متحاورين وهي فروع. فما نفعُ الأمّةِ بحوارهم؟ وكم هي المسائل التي اختلفوا عليها وهي خلافيّة تقبلُ تباين الآراء؟ إنّما غالوا فيها، وأطالوا، وضيّعوا أوقاتهم وأوقات أمتهم في أمورٍ لا تدفعُ بها نحو التّقدم بل تقهقرها نحو الوراء.

عرفتَ إذن أيّها المحاورُ كيف أنّك حينما تفتحُ قضيّةً للنقاشِ يلوذُ المجتمعونِ إلى الصّمت، لقد عرفوا قدرَ أنفسهم، بينما أنت لم تعرف قدرها. فلكم تتوقُ نفسك — وهو يعرفون عنك ذلك — أنّك تريدُ أن تجرّهم إلى مصيدةٍ بسوء نيّة، ولو خلصت نيّتك، لاشتركوا في حوارك. لقد امتنعوا عن حوارك لأنّك أردت أن تكرههم على رأيك، وما أشدّ كربتك وغيرك يتكلّم، فلا تتركه يُنهي كلامه

بل تقطع عليه حبل أفكاره، لتثبتَ له سفاهةَ نفسه، وغباوةَ عقله. لقد امتنعوا عن الحوارِ معك لأنك ترفعُ صوتك مباهياً، مزكّياً نفسك، بينما كنتَ قادراً على الإقناع بهدوءٍ ورويّة. لقد امتنعوا عن الحوار معك لأنّك لم تُحسن ما وهبك الله من نعمةِ الفصاحةِ واللّحنِ في القولِ، فوظّفتهما لتطيحَ بالضعفاءِ الذين لم يعرفوا كيف يصوغون أفكارهم التي تتلجلجُ في أذهانهم. غلبتهم ظاهراً، لكنّهم – لعجزهم عن مجاراةِ لسانك – موقنون بأنّهم على حقٍّ. وددت لو يحدث العكسُ بعد كلِّ هذا بأنَّ قراءتك لهكذا موضوع – كاستماعك إلى متحاور– لا لتُعملَ فكركَ فيه، أو تتأمّل في طرحهِ وإنّما لتطيحَ بقصتكَ على صاحبه... حتى لو كان يتحدّثُ عن أدبِ الحوار!

كلمة

كلمةٌ واحدةٌ تُسقِطُ أو ترفع، تُحي أو تُميت. كلمةٌ من حرفين أو أكثر لكنَّ أثرها عميق سلباً أو إيجاباً. لكن كثيراً من النّاس يجهلون، أو يتجاهلون فعلَ الكلمةِ في القلبِ فيميتونه بكلمةٍ ويقتلون فيه الإرادة، ويطفئون فيه الطموح، ويثيرون فيه نزعات البغض والحقد والكراهية، ويشعرونه بالهزيمةِ، ويكرّسون فيه الإحباط، أو أنّهم – بكلمةٍ أيضاً - يُحيونهُ، ويشعلون فيه شموع الهمم، وقناديل الفرح، وألقِ الآمال، وبريقِ الثقة.

أناسٌ كثيرون يسيئون إستخدامِ الكلمةِ، ولا يلقون لها بالاً وهي تندلقُ من أفواههم، وهي في الأصلِ ليست كلمة إنّما سهمٌ يشقُّ القلبَ، ويفتحَ فيه جرحاً عميقاً. يقول أحد الأصدقاء، قال لي أحد زملائي في الدراسةِ: أنت مغرور. ولم أنس هذه الكلمة طوال عشرين عاماً مضت. فقد ظلّت تتردّد في نفسي. لقد ظلمني بهذه الكلمة، التي قالها دون أن يعرفَ حقيقتي. يقول النبي، ﷺ: "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات. وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً فيلقى بها في جهنم." هكذا تندلقُ الكلمةُ من شفاهِ كثيرين دون أن يترسّموا بأن أثرَ هذه الكلمة السيّئةِ أثرٌ بليغ، أو أنّهم يقصدون بها التّحطيمَ، والتهديم، فهم بذلك يعبّرون عمّا يعتملُ في صدورهم من الحقدِ على الآخرين.

إن كلمةَ "غبي" أو "فاشل" أو "مهزوم" أو "ظالم" أو "مجادل" نماذج لكلماتٍ محبطةٍ، تريدُ من الإنسانِ الآخر أن لا تقومَ له قائمة، إلاّ إذا تحلّى بروحٍ عاليةٍ واستطاع أن يتجاوزها. وهذا طبعٌ مقصور على نفوسٍ قليلة. أما سوادُ البشرِ ـ وإن كان منهم متعلّمون ومثقفون ـ فتسقطُ هذه الكلمات على قلوبهم سقوط الشُّهُب على الأرض فتثيرُ فيها فجواتٍ عميقةٍ تظلُّ علاماتها واضحة. وانظر لكلمات

معاكسة، انظر لكلمة "رائع" أو "جميل" أو "مشرق" أو "ذكيّ" أو "بديع" أو "عظيم"، ستجد أنّها كلماتٌ ذات أثرٍ إيجابي ليس في السّامع وحسب، بل على القائل أيضاً. لأن الأثر الجميل الذي تُحدثه كلمته الإيجابيّة في السّامع سيرتدُّ عليه بالإيجاب، وسيسعدُ لأنّ الكلمة المحفّزةَ قد صدرت عنه.

وإذا كانت مجتمعاتنا تقوم على قيمٍ متينةٍ، مؤسّسةٍ على نهجٍ ربّاني من مثل قول الله عزّ وجل: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ الإسراء/53، وقوله تعالى ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ البقرة/83، وقوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فاطر/10. فلماذا لا يقول النّاس حُسناً؟ ولماذا لا يشجّعون ويحفّزون ويدفعون، بل يسعون إلى تثبيط الهمم، وتحطيم الطموحِ، وكسرِ الإرادات بكلمةٍ واحدةٍ فقط؟ أحسب أن ذلك سببه الغلُّ الكامنُ في النفوس، والنَّقصُ الواسعِ فيها، والمرضُ الرّابضُ في أحشائها، والعجزُ عن الارتفاعِ بها إلى مصافِ النفوس الكبيرة، وحصرها في أفكارٍ ضيِّقةٍ، مشوّشةٍ، مهزوزة.

يُروى عن امرأة غربيّةٍ أنها حينما تقابلُ كل إنسانٍ، تعرفه أو لا تعرفه، تقول له: "إنّي أُحبُّكم!" ونحن نسمعُ في بلدٍ من بلدان الغربِ معظمُ النساءِ العاملات في الأسواق، ينادين الزّبن بكلماتٍ لطيفةٍ، وبالطّبع هي كلماتٌ منسجمةٌ مع ثقافتهن، يقلنها بنيّة حسنةٍ، غير مشوبةٍ بغرض. ولكن في المقابلِ لا نجدُ حتى كلمة "مرحباً" من العاملاتُ أو العاملين في أسواقنا ومراكزنا التجارية، بل لو بادرتهم بالسّلام لما ردّوا عليك إلاّ القليل، وببرودٍ شديد.

كم من أُناسٍ أسقطتهم كلمة، ورفعتهم كلمة! وإذا كانت "الكلمةُ الطّيبةُ صدقة"، كما يقول رسولنا الكريم، فإنّها ضعفت في مجتمعاتنا، بل لتسمع الكلمات المحبطات أكثر. يقول أحد الأصدقاء: إنّ الكثيرين ممن يقضون مصالح النّاس، حينما يُعرضُ لهم أمرٌ للموافقةِ عليه، فإنّهم يبحثون عن كلمةِ "لا" بدل كلمة "نعم" ولهذا فهم لا يرون في القوانين إلاّ ما يُعيق، ويعارض، ويثبّط، ويوقف الآخرين. لا يرون فيها الجوانب الإيجابية والإستثناءات والمخارج،

والحلول. وهكذا في شؤون الحياة، أناسٌ تحضرُ مناسباتٍ، أو جلساتٍ، أو منتديات لأجلِ أن تقولَ كلمةٍ سالبةٍ، سبق وأن رسخت في النفس وجاءَ بها صاحبها، وهي ذات حملٍ ثقيلٍ عليه، أتعبهُ حتى وصل، وتعبَ وهو يتململُ في كرسيِّه، حتى تواتيهِ الفرصة، فيلقيها ويمضي. وأذكرُ في هذا الصّددِ أننا أقمنا ذات مرّةٍ ندوةٍ كنّا نعمل أشهراً من أجل الإعدادِ لها وهي لشأنٍ عام. وفي يوم النّدوةِ جاءنا أحد هؤلاءِ أصحابُ الحملِ الثقيل، وقال: إن هذه الندوة هي عرضُ عضلات ومضى. وروى لي عميد إحدى الكلّيات أن أستاذاً قطع مسافةً ليحضر لهذا العميد أمسيةً أراد منها أن يسفّه بحثه أمام الحضور.

يروي الدكتور طارق سويدان قائلاً: ألقى شيخنا الفاضل (الشيخ علي الربيعي) حفظه الله تعالى سؤالا على ثلاث وثمانين طالبة في دورة من الدورات عبَّرت كل واحدة منهن عما تفعل بها الكلمة السلبيّة، فانظروا ماذا قلن؟ حفظهن الله جميعا وبارك. لقد كانت إجاباتهنَّ تتلخص في التالي: إنّها (تدمِّر العقل، تثبط العزيمة، تهبط الهمة، تسبِّب فشلا ذريعا، تتحوَّل إلى واقع عملي، تخرب العقل، تسجنه، تعيق العقل عن التفكير، تعطله، تقيد الشخص، تغلق العقل، تدمر خلايا العقل، تسبب إحباطاً، تغلق الاستيعاب، تحبط الإرادة، تهوي بنا في النار، فشل ذريع، يصدقها العقل اللاواعي، تمنع الاستيعاب، أمر للعقل بما تحمله هذه الرسالة وعليه التنفيذ العملي، تفقد الثقة بالنفس، الانتكاس، مرض الجسم، تقييد الفكر، تحطيم المعنويات، التردد في اتخاذ القرارات، السيطرة على التصرفات، تجعل الإنسان يعطي أقل من إمكانيته، التخلف وعدم القدرة، اليأس، التردد، وأخيراً الرسوب.

هذا أثر الكلمةِ المحبطةِ على النّفس، بل لها آثار أعمقُ من أن يتبيّنها الإنسان، فهي تترسّب في العقلِ غير الواعي، وتبعث إليهِ برسائلَ خفيّةٍ، لاذعةٍ، محبطةٍ من آنٍ إلى آخر، حتى وإن نسي الكلمة، إلاّ أنّها باقيةٌ في أعماق الضمير، تحرّك فيه مثبّطات العزيمةِ، والهزيمة، وتثيرُ فيه قوى الإحباط، وهو لا يدري سبب ذلك ويحسبهُ مرضاً عضويّاً.

يقول الدكتور يحيى الغوثاني، قال لي أحد الآباء: لي ولد ذاكرته جيدة وكل يوم يحفظ ويسمع لأستاذه صفحة ونصف الصفحة بشكل ممتاز، وختم بهذه الطريقة (جزء عم وتبارك) فلمّا وصل إلى جزء الذّاريات سألني يا بابا: ما رأيك؟ هل أحفظ من أول الجزء وأنزل أم من آخره؟ قلت له: يا بني احفظ من أول الجزء من الذاريات وأنت نازل قال لماذا يا أبي؟ قلت له: لأن سورة الحديد صعبة. وبالفعل بدأ ولدي بالحفظ فحفظ سورة الذاريات والطوروالنجم والقمر والرحمن والواقعة بشكل ممتاز كعادته كل يوم صفحة ونصف الصفحة فلما أن وصل إلى سورة الحديد مكث فيها شهرا ونصفا ولم يستطع أن يحفظها. لقد ترسّبت إذن الكلمةُ المحبطة "صعبة" في الذّهن أو العقلِ اللاواعي وفعلت فعلتها.

ويروي لي أحد الآباء يقول: إنني أردت إيقاظ ابني وابنتي فقلتُ لهم: إن إدارة المدرسةَ ستعاقبكم إذا تأخرتم عن الطابور، فتململوا في فراشهم. ثم انتبهت إلى أنني أقول لهم كلاماً سالباً، فغيّرتُ الأسلوب، وقلت: إنّكم أذكياءَ ونشيطون، والنشطاءِ والأذكياء هم الذين يذهبون مبكرين إلى المدرسة. فنهض الإثنان.

كم يشتكي الموظفون من كلمات الإحباط التي تنهالُ عليهم من مسؤوليهم، وكم منهم من غادر جهة عمله دون رجعةٍ لكلمةٍ جرحته، وكم منهم من مات العزمُ فيه، وخمد الطموح لديه لأنّ مسؤوله إنسانٌ مريض فنقل إليه داءه! وكم من النّاس ما أن تلقاه مرّةً حتى يلقي كلمةً في وجهك ترسخُ فيك، فإن كانت محبطةً سقطت في نفسك سقوط السِّكينِ في الماء. وإن كانت مشجّعة جعلتك ترى النجومَ المضيئة وسط النّهار فتدرك أن زينةَ السماءِ لا تنطفيء ليل نهار! واحكم على المرءِ بما تخرجُ منه من كلمات. "وهل يكبُّ الناس في النار إلاّ حصائد ألسنتهم؟" حديث شريف. وحينها ستعلم من يوقدُ فيك شموع الأمل، ومن يحطّم مجاديفك ويمزّق أشرعتك. فذلك إنسانٌ سليم، وهذا إنسانٌ مريض يريدُ أن ينقل إليك مرضه بـ "كلمة"!

لا

طُبعتِ الكثيرُ من النُّفوسِ لدينا بختمِ "لا". وقد استحالت على مرَّ الزّمن مغاليقَ للقلوبِ، وأقفالَ للعقولِ، وسيماء للوجوه، لم تستطع أن تتحرَّر منها، لأنّها مجبولةٌ عليها، ومجذوبةٌ إليها، وممهورةٌ بها، إذا كان الأمرُ لا يعنيها مباشرةً، أو يحقِّق لها منافعها. وهذه خصيصةٌ خبرتها في كثرةٍ غالبةٍ لدينا.

إنّ الـ "لا" ماثلةٌ في أعينهم قبل أن تنطقها ألسنتهم، وإن شفاههم لتبدأ في رسمها قبل أن تدلقها كما تُطلقُ قنبلةً مفرقع. وهي تتخايلُ في خطوط الوجه، كما يتخايلُ الشبحُ في المكانِ المُوحش. إنّها الكلمةُ السالبةُ التي من السّهلِ قولها، ولكن من الصّعب – في كثيرٍ من الحالات – معرفةِ عواقبها، وإدراك خواتيمها.

إنَّ الـ "لاّ القبيحة" هي ضدُّ الـ "لا الجميلة"، وهذه ندعو لها حينما تكون للحريَّة، للحقِّ الإنساني، للسعادةِ، للخير، لكن "لا" السالبة، القبيحة هي تلك التي تغشى كثيراً من النفوس في مجتمعاتنا، خاصَّةً حينما يتعلَّقُ الأمرُ بإنجازِ منفعةٍ، أو تحقيقِ مصلحةٍ، أو فعلٍ فيه سعادةَ الآخرين. كثيرون يرفعون الـ "لا" شعاراً في كثيرٍ من المناسبات دون مبرِّر. لماذا؟ وايُّ سببٍ يدفعهم للاعتراض؟ ليس من سببٍ وجيهٍ إلاّ أنّهم يحبُّون قول "لا". يتلذّذون بها، يستمتعون بها حين تنطقها شفاههم المزبدة، تشفي صدورهم من غلّها حينما تندلقُ منها، كأنّها القيحُ السّام الذي كان يذيق أمعاءها الوصب. قال لي أحدُ الأصدقاءِ معلقاً على بعض المشتغلين في الإدارةِ: إنَّ هؤلاءِ النّاس لا يعرفون إلاّ قول "لا"، فهي أوّل الكلمات التي تُطلقها أفواههم؟ وأضاف، حينما قال لي أحدهم لا، لا لأمرٍ من الأمور، قلتُ له: لو عُدت إلى الأوراقِ، إلى القانون لوجدت "نعم" وقد أجاز هذا الأمر الذي ترفعُ في وجههِ قول "لا" منذ أوّل وهلة. وهذا شأنُ كثيرين، ما أن تحدِّثهم في شأنٍ من الشؤون الذي تنشد تحقيقه حتى يعاجلونك بقولِ لا. ولكن لِماذا نتعجِّب؟ أليست

بيوتنا عامرةٌ بقول "لا"؟ الرّجلُ يرفع "لا" سريعاً في اقتراحِ زوجتهِ، أو طلبها، حتى قبل أن يعي ويسمع ما تقولُ، ويناقشها في رأيها، ويختبر حجّتها. فهو المقتدي بالمثل الشعبي: "الحرمة شاورها وخالفها." أي ارفع في وجهها فور أن تقول رأيها "لا". ويرفعُ "لا" في وجه ابنه أو ابنته مقاطعاً حديثهم، دون أن يستمع لمحتوى كلامهم. ويقول "لا" ولا يبرِّر، وحين يُسأل يردُّ: لا يعني لا. فهل تُفسَّرُ الكلمة بذاتها إلاّ أن يكون صاحبها عنيداً مكابراً؟ وفي أسواقنا تتردّد كلمة "لا" فيطلقها البائع للزبون ببسالة: حين يسأله عن سلعةٍ ما، بدلاً من أن يقترحَ له سلعةً أُخرى أو يدلّه على محلٍّ آخر. إذن فـ "لا" هي إشارةٌ للتسلّط لدينا – في مثل هذه الظروفِ - وعلامةٌ على ممارسةِ النفوذِ، ورايةٌ للتملُّك، ورمزٌ للرجولة! وهي تعبِّر عن نفوس سالبةٍ، ضيِّقةٍ لا تريدُ سماعَ غير أصداء رأيها. فهذا يُرفضُ زواجه، وذلك تردُّ معاملته، وتلك يردُّ طلبها. وكلّ هذه الـ"اللاءات" بغير سببٍ وجيه، أو حجّةٍ مقنعة. حتى توالت الأجيال عندنا وهي تقلّد من سبقها في قول "لا". يقول الدكتور مصطفى أبو سعد في كتابه "تعديل السلوك": معروف عن الأطفال أنهم أكثر ميلاً للتقليد وأكثر ذكاء في استعمال أسلحة غيرهم، والآباء مشهور عنهم استعمال "لا تلمس" "لا تفعل" "لا ترفع صوتك" لا...لا... لا." وهنا - في اعتقادي - بدايةُ الخلل.

وفي هذا الشأنِ أضربُ مثلين متنافرين، يدلاّن على اختلافِ الثقافةِ بين مجتمعٍ غربيٍّ وعربي، وكلا المشهدين يضمّان مشاركين في الحقل الأكاديمي، أي على درجةٍ عليا من التعليم. في الأوّل، حضرتُ فيه ندوةً عن أحد الشعراءِ الأعلامِ في بلدنا، ورأيتُ فيها أحد الحضور من قومٍ (لا) وهو يتذمّر، ويكابدُ المرارةَ من مقدّمي الأوراق وقد كان عميد كليّته. وحينما استضفتُ هذا الأخير، سألتهُ عن شأنِ الأوّل، فقال لي: صرّح لدى أحد الأصدقاءِ أنّه سيحضرُ للتقليلِ من شأني أمام الحضور. وحضرتُ محاضرةً تحدّثت فيها بروفيسورة من جامعة (مانشستر) كانت تتحدثُ فيها عن أحد المناهجِ البحثيَّة، وكان من بين الحضور بروفيسورةٌ إنجليزية أخرى تعدُّ مرجعاً في هذا الحقل ولها إسهاماتٌ فيه، وكنتُ أرى المراعاة والتقدير من المحاضرةِ للمستمعة، في حين كنتُ أرى الابتسامة

الدائمةَ في الثانية وهي تستمعُ للمحاضرة، دون أن تحدّ من بصرها، أو تحشدَ تقطيبة من خطوط جبينها، أو تسكب في أوراقها "اللاءات" السلبيَّة، وقد تذكرتُ المشهدَ الأول الذي حدث في مجتمعنا فبدا التّحسُّر في وجهي. تذكّرتُ أن "لا" هي كلمةٌ ملصقةٌ بالجملِ التي ننطقها، وقد لفت ذلك إبن بطوطة حينما زار قلهات فقال: "وكل كلمةٍ يتكلّمون بها يصلونها بـ "لا" فيقولون مثلا: تأكل لا، تمشي لا، تفعل كذا لا!" ولقد استمرّت هذه الـ"لاّ"، فصارت عفويّة، دارجةً عند بعضهم، وسالبةً عند بعضهم الآخر.

ولكم يحزُّ على نفسِ المرءِ أن يسمعَ الـ "لا" السلبيَّة وهي تأتيه من بني جنسهِ، ابن وطنه، وقد هرع إليه يسألهُ النجدةَ في مسألةِ، والمساعدةَ في أزمة، ويعلمُ أنَّه قادرٌ على قول"نعم"، هذه الكلمة التي ـ حينما تقالُ في المقامِ المناسبِ، والموقف الملائم ـ يكون لها أثرُ السِّحرِ العجيب، إذ تسري في القلبِ كما يسري الماءُ الزلالُ بعد الظمأ، فتبعث فيه الحبور والغبطة، والرضا والإنشراح. فما ضرَّ أناسٌ لو استبدلوا الـ"لا" "بنعم" حين يعلمون أنَّ الأولى مبعثَ غمٍّ، ومغلاقُ خيرٍ، بينما الثانية فرجةُ سعادةٍ، وروضةُ سرور. يقول الصحفي حسين شبكشي:

من الواضح أن لكلمة «لا» مساحة ضخمة وحيزا هائلا في حياتنا يجعلها عنصرا أساسيا في تكوين آرائنا وأفكارنا."[1]

إن الـ"لا" في بعض المواقفِ حميدةً ولازمةً، إن هي قصدت الحقَّ والمصلحة، ورمت إلى البرِّ والمنفعة، ولكن أن يتّخذها بعض الناسِ سدّاً منيعاً أمام إسعادِ إنسانٍ أو مجتمع، أن يطلقونها شوهاءَ دون حجَّة، فهي السَّالبةِ الشائهة. وكذلك هي الـ "نعم". ولكن تخفّفت أكثرُ النفوس لدينا بقول "لا" اتقاء لأيٍّ ضررٍ قد يلحقُ بها إزاءَ قول"نعم" وهرباً من المسؤولية. ونبيّنا الكريم يقول: "لا يؤمنُ أحدكم حتى يحبُّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسه." فكيف يقولُ إنسانٌ "لا" لغيره في الموضع الذي يريدُ أن يقال له فيه "نعم"؟

---

[1] صحيفة الشرق الأوسط، 23 مارس 2009، العدد 11073.

لو أدركوا قِصَر الحياة!

يطيبُ للإنسانِ أن يرمي وراءَ ظهرِهِ حقيقةَ الحياةِ، لأنَّ إدراكَه هذه الحقيقة إنّما يشكّل له – حسب ظنّه – تنغيصاً للمعيشةِ، وتنكيداً لمسرّاتها، وهو العكسُ تماماً. وأقلُّ الناس عدداً من يفهم حقيقتها، ويعي قِصرها فيكيِّف إمكاناته وفقَ مقاييسها، ويبسطها حسب أطوالها.

لو أدركَ أغلبُ النّاسِ قِصرَ الحياةِ لما شغلهم طولُ الأمل، وطولُ الأملِ مهلكةٌ للنفس، ومكدّةٌ للعقل: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الحجر/3، وفي هذا يقول النبي، ﷺ: "أشد ما أخاف عليكم خصلتان: اتباع الهوى، وطول الأمل. فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأمّا طول الأمل فحبُّ الدنيا."

لو أدركوا قِصر الحياةِ لما حمّلوا أنفسهم فوق طاقاتها حتى ثقلت عليهم فانكفأت، ثم غارت قوائمها في وحلِ المشقّةِ، يقول المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسادُ

وهذا يعني عدم التجانسَ بين الطموحِ والإمكانيات، أي عدم الواقعيَّة. نعم ليكن الإنسانُ طموحاً، فهذا مشروع، إنّما في حدودِ الإمكانيات الواقعيَّة. فما ضيَّع الكثيرون إلا أنّ طموحاتهم لا تتعاملُ مع الأدوات الواقعية، فأرادوا أن يبنوا قصوراً في السّحابِ، وهم من سكّان الأرض.

لو أدركوا قِصرَ الحياةِ، لتخلّوا عن الشحناءِ والبغضاءِ ولتصافوا. فالحياةُ، التي ظنّوها مُلكاً مخلّداً، زائلةٌ لا محالة وفي لمحةٍ من البصرِ. فكم همُ الفرقاءُ في هذه الحياةِ ممن تملأُ قلوبهم الضغينة والحقدُ والحسد لكلٍّ هدف يسعى إليهِ بطريقةٍ ما، وقليلٌ من يعرفُ سرَّ الحياةِ، ويفهم أنَّ التسامحَ كنزٌ من كنوزها. يتباغضُ الإخوةُ الذين ولدوا من رحمٍ واحدٍ، وجمعتهم ذكرياتُ طفولةٍ واحدة فلا

يصبحون إلاّ أعداءً، يتباغضون لغرضٍ تافهٍ لا يساوي صورةً واحدةً من ذكرياتهم الطفوليّة الجميلة. ويتنافسُ التجّارُ لسلعةٍ رخيصة لا يساوي ثمنها شيئاً أمام سماحتهم، ويتلاسنُ أصحابُ الفكر لرأي مخالف لا يُصلح من حال المجتمع شيئاً، ويتهاجى الشعراءُ لهوىً في النّفسِ لا يرفعُ حتى من قيمة الإبداعِ درجةً، ويتحاربُ السّاسةُ لسلطةٍ نافقةٍ لا تضيفُ للسلامِ في الأرضِ مرتبةً. أهي طبيعةُ الحياةِ، أم ظلمُ الإنسانِ لنفسه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ الشورى/8.

لو أدركوا قِصرَ الحياة لامتلأت أنفسهم بالسَّماحةِ، والصَّفاوةِ، والإيثارِ، والودادِ، والسَّخاء، ولامتلأت بكلِّ خُلقٍ حسنٍ، وكلُّ طبعٍ محمودْ. يقول ﷺ: "والله ما أخشى عليكم الفقر ولكني أخشى عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم، فتهلككم كما أهلكتهم!" التنافسُ هو (محورُ الشرِّ) وهو أصلُ البلاءِ، لأنّه لا يبنى على ما قاله أحد السّلف: "علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي، وعلمت أن عملي لن يقوم به أحد غيري فعملت به، وعلمت أن الله مطلع عليَّ فاستحييت أن يراني في معصية، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت نفسي للقاء ربي."

يقول أحد رؤساء الوزراء البريطانيين: "الحياةُ أقصرُ من أنّ نقصِّرها." والناس في ممارسةِ هذا التقصير فنّانون، مبدعون، لا يحتاجون إلى معلّم، أو موجِّهٍ، فهم دائماً على شفا حفرةٍ من الخصومةِ لأحقرِ مسألةْ، متحفّزون للعتابِ المرِّ لأوضعِ زلل، مستعدون لقطع العلاقاتِ مع أقربِ الناس إليهم لأتفه سبب، متوفّزون للضغينةِ لأدنى ذريعةْ، مهيّؤون للشكوى لأبسط قضيّة، متنمّرونَ على الصّديقِ إن أخطأْ، مكشّرو الأنيابَ للقريبِ إن نصح، منقلبونَ على الخليلِ إن لاطفَ أو مزح، ينصبون الأفخاخ كي يقع فيها من يقع حتى يشبعوه جلداً بسياط الجرمِ والخيانةِ والمكيدةْ. فيا لظلمِ الناسِ لأنفسهم. وليتهم أدركوا قِصر الحياة، لقالوا ما قالته امرأة من قومِ نوحٍ، حين قيل لها إن أقواماً سيأتون أعمارهم بين الستين والسبعين: "لو أدركتُ هؤلاءِ القومِ لقضيتُ هذا العمرَ في سجدةٍ واحدةٍ لله!"

متعلمٌ جاهل...!

العلمُ ليس عباءةً مزركشةً، أو رداءً منمّقاً، ولم يكن رياءاً أو سمعة، أو صنعةً أو مهنة. العلمُ خُلُقٌ وسلوكٌ، بذلٌ وأثر، جهدٌ بيِّنٌ في العطاءِ الإنساني. كيف لمتعلّمٍ يدّعي العلمَ وهو أبعدُ الناسِ خلقاً، فماذا جنى من العلمِ، وماذا حملَ من المعرفة؟ إنّك لتجدُ بعض من يدّعي العلمَ ينظرُ إليك شزراً وأنت تُبدي رأيكَ في أمرٍ من الأمور، فكأنّك ترى نفسك في صفحةَ عينيه السّفيه، الذي لا يُدركُ ما يقول، والجاهلَ الذي لا يعي ما يُبدي، وكأنّك تقرأُ ما يدور في قلبهِ وهو يقلّبُ أنظاره فيكَ، وهو سارحٌ بعيدٌ عنكَ، وما أن تنتهي من مقولتكَ حتى يُلغي رأيك، ويصادرُ فكرك، ويحاولُ إقناعكَ بأنّك لا تفهمُ شيئاً في الحياةِ، ولا في شؤونها، وأنّك مهما حاولت التطرّقَ في مسألةٍ من المسائلِ فأنتَ ضعيفُ الحجّةِ، هشُّ الرأي، هزيلُ الفكرة.

أحدُ هؤلاءِ حين تجمعني الأيامُ بهم أتركُ لهم الميدان رحباً لتسرحَ فيه خيول آرائهم (النيِّرة) وأفكارهم (الصائبة) وحجّجهم (البليغة)، فأتحاشى الدخولُ معهم في جدل، أو التورّط معهم في نقاش، لأن ثمّة تجارب أقنعتِ العقلَ أنّهم لن يستمعوا ولن يصغوا. ولهذا كان شرطُ فهم القرآن الكريم الاستماعُ والإنصات: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف/7، هذا هو شرطُ التّلقي والوعي، وهو سائد في شؤون الناسِ الأخرى، فكم سمعتُ من هذا الصِّنف المدّعي للعلمِ من يحقّر الآخرين، ويستصغر آرائهم، ويسفّه أفكارهم، فإذا تورّطوا معه في نقاشٍ سفّه بهم وحقّر، ليس لأنّه يملكُ الحجّة وهم لا يملكون، بل ملك بلاغةَ الكلامِ وهم لا يملكون. فلم يُحسن لما منحه الله إيّاه من نعمة كي يتواضعَ. فالتواضع الجم هو الذي منع الصحابي عبدالله بن عبّاس أن يُجيبَ على لغزٍ طرحهُ النبي، ﷺ للصحابه، يقول: "كُنتُ أعلمُ أن الإجابةَ هي

النّخلةَ ولكنني فضّلتُ السكوت تقديراً للصحابةِ وهم أكبر مني سناً." يقولُ إمرسون: "إنني أعلمُ أن كلّ إنسانٍ هو أفضلُ مني في شيءٍ، فلهذا أتعلّمُ من كل الناس." ولدينا في الأثرِ ما هو أبلغُ من قول إمرسون، هو المثل القائل: "خذوا الحكمة ولو من أفواه المجانين." فإذا كان بعض المتحذلقين لا يأخذونها من العاقلين، فكيف يأخذونها من المجانين؟ والحكمة ضالة المؤمن كما ورد في الأثر.

الجاهلُ ليس من لا يحملُ شهادةً أو لقباً أكاديمياً أو مهنيّاً. الجاهلُ صاحبُ السلوكِ المشينِ، والخُلقِ الوضيعِ، والرأي الصفيق. والمتعلِّم ليس ذلك الذي علّق صورةَ التخرّجَ في مجلسهِ أو في أبرزِ الأماكنِ ظهوراً، أو ذلك الذي تنهالُ عليه التّهاني في الصّحف، المتعلّم هو من يعلو خُلقهُ، ويسمو أثره، وتذكر فضائله، ويُثنى على شمائلهِ، ويُحمدُ تواضعه، ويجلُّ رأيه، ويُحتذى بخطوهِ، ويكونُ له في الحياةِ صوتاً ذا أثرٍ ونفعٍ في حياةِ الخلق. يقول المتنبي:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرِهِ إذا استوت عنده الأنوارُ والظُلَمُ

إنّك لترى في أوساط مجتمعك متعلّمين جهلاءَ، متعلمين ليس لهم من العلمِ إلاّ لقباً يتمدّدُ بكسلٍ قبل أسمائهم، وشهادات مؤطّرة، وصوراً معلّقةً. فسلوكهم ينبؤك أنّهم لم يعرفوا من العلمِ إلاّ القشور، ولم يجنوا من المعرفةِ غير الحواشي.

رأيتُ رجلاً في منتدىً من المنتدياتِ وقد ثقل عليه اللّقب، كما غلبَ عليه هندامه الزّائف، فلمّا عرفتُ سرَّ تواجدهِ وقد طوى المسافاتِ عانياً تكامل لديَّ مظهرهُ مع مخبره، فلم يأتِ من أجلِ اكتسابِ معرفةٍ وتحصيلِ علم في تلك الأمسيةِ، بل جاءَ عانياً ليكيدَ لأحدَ الباحثين الذين يقدّمون أوراق الأمسية. وإنني أرثي لحال بعض من يدّعون الثقافةَ ويحملون بين جوانحهم المشاعرَ الفوقيّةِ المتعاليةِ التي تفيضُ من أعينهم، فكم من قاصٍ وشاعرٍ ورسّامٍ وغيرهم ما إن زهوا بما حصلوا عليه من الشهرةِ، واغترّوا بما وضعوا فيه أنفسهم من مستوى، حتى ضربوا الحُجبَ والستائرَ بينهم والآخرين، وسكنوا الأبراجَ العاجيّة، فطعنوا الناس بسهام نظراتهم، وجلدوهم بسياطِ ألفاظهم. إنّ من الخير أن لا يحضرَ هؤلاءِ منتدى أو مجلساً (وحضورهم نادر على كلِّ حال) فحضورهم ليس سوى

عبء ثقيل على الأمسياتِ أو الفعالياتِ أو الجلسات لأنّهم أضحوا ميّالين للنقدِ السلبيِّ في عموم كلامهم. وكم شهدتُ منهم من أوجزَ مقدّم الأمسية التعريف بهم فثارت ثائرتهم، ولم يلزموا الأدب، فأساءوا إلى أنفسهم من حيث ظنّوا أنّهم أحسنوا إليها. وحين كان الأديبُ الشهير، أو الكاتبُ اللّامع غنيٌّ عن التعريف أو كما يقال: "علمٌ في رأسهِ نار" لا يحتاجُ إلى تعريفٍ، فما الذي يدفعهم كي يثوروا إلا نقيصةٍ شعروا بها في دواخلهم.

إن العبارات التي يتفوّهُ بها متفرّجٌ عفوي، أو قاريءٌ غير متخصص لهي أبلغُ عندي في أكثرِ الأحيانِ من متفرّجٍ ممتهنٍ، أو قاريءٍ متخصّصٍ في النّقدِ، إذا كان ممن يتظّاهرون بعلمهم، ويتباهون بأفكارهم، ويوصلون إلى الآخر فكرةَ أنّهم قد بلغوا الذُّرى بما علموا من ذلك الفنِّ أو صنف الأدب، وأنهم ملكوا زمام الحقيقةِ في ما أثار من موضوعات. فالعلمُ، إن شابهُ الغرورُ أو التسّفيه، فقد قيمته، وخفّ وزنه. فالعلمُ يقودُ للحقيقةِ، والحقيقةِ تقودُ للتواضع، لأنّ التواضعَ هو في أغلبهِ خشيةُ اللهِ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ فاطر/28، والخشيةُ عطشٌ متواصلٌ لاكتسابِ العلم.

نقطةُ تحوُّل

التّجديدُ أهمُّ عنصرٍ من عناصرِ الشّعورِ بالحياة، فكيفَ لبركةٍ من الماءِ أن لا يأسنَ ماؤها إذا لم يتجدّد ماؤها، ويُبدَّل بماءٍ آخر؟ وهكذا هي حياةُ النّاس. التّجديدُ يُضفي حياةً أخرى قد تختلفُ كليَّةً على الحياةِ السَّابقة. حياةً قد تنفصلُ في شكلها ومضمونها عن حياةٍ سابقة. وما ذلك إلاّ لأن أصحابها وقفوا عند نقطةِ تحوُّلٍ، وقرّروا أن يغيِّروا تاريخهم بعد وصولهم إلى مرحلةٍ من المراحل. ولم يكونوا محتاجين سوى لتحليلِ وضعهم، تحليلاً عقلياً، وحقّقوا التوازن الدقيق في أمورهم على شاكلةِ قول المتنبي:

ووضعِ الندى في موضعِ السيفِ بالعلا   مضرٌ كوضعِ السيف في موضعِ الندى

أمّا من ارتضى سكونيَّةَ الحياةِ، وهمود الرُّوتين اليوميِّ الرّتيب، وجريانِ الأحداثِ في مسارٍ لا يتغيَّر ولا يتبدّل، فذلك إنسانٌ راكدُ العقلِ، آسنُ الفكرِ، ميِّتُ النفسِ، خاملُ الجسدِ، مهزومُ القرارِ، لا يعيشُ إلاّ ليأكل، يقودهُ جسده في كلِّ مكانٍ لأنّ الجسدَ قد تعوّد الطّرق ذاتها، ولا يتحرّك دماغه، فهو لا يستفزّهُ بأسئلةٍ، ولا يوقفهُ بقرارات حازمةٍ صارمة.

سألتُ أحدَ الشّبابِ وقد كنتُ أعهدهُ في مرحلةٍ مبكِّرة من التعليم صبيّاً مجتهداً، مثابراً، سألتهُ، وهو يعملُ في وظيفةٍ زهيدةٍ متواضعةٍ، وكنتُ أشهدُ عملهُ في شركةٍ كبرى وقضى ردحاً من الزّمنِ فيها مثابراً ثم حينما ابتعثَ إلى الخارجِ سوّغت له نفسه أن يتركَ الأهدافَ الكبرى إلى أهدافٍ دُنيا، وغاصَ فيها، حتى وجدَ نفسه وقد أُعيدَ إلى وطنه بعد أن أقيل. وهاهو يعملُ موظفاً بسيطاً في وظيفةٍ صغيرة، سألته: هل لديك مخططٌ لتنتقل إلى عملٍ آخر؟ لكنَّ إجابتهُ أبانت عن نفسهِ الخاملةِ الهامدة. قال: "أنا راضٍ بالوضع، فنحنُ بطبيعتنا كسالى، نحبُّ الإجازات، وهذا العمل يمنحني الإجازات الكافية." لقد حكم

على نفسهِ، إذنِ، بالتقوقعِ في دائرةٍ يوميَّةٍ مكرورةٍ، لا جديدَ يثيرُ فيها حِسَّاً، ولا لونَ يضيفُ إليها بُعداً. وعلى النقيضِ من هذا أخبرني صديقٌ أنّه وصلَ إلى مرحلةٍ ما، شعرَ فيها بأنّه لم يعد لديهِ ما يضيفه لعمله، أو لحياته، فقرَّر أن يواصلَ دراستَهُ كي يغيِّر مسارهِ اليوميِّ، وطبيعةَ عمله، وها هو الآنَ يتبوأ مكانةً مرموقةً بسببِ هذا القرار. وكتبَ إليَّ صديقٌ إنجليزي ردّاً على رسالتي التي أستفسرُ فيها عن أخباره بعد أن كنتُ أعيشُ في بيته منذ ما يقارب العقدين... قال: "قرّرت أن أغيِّر حياتي بتغيير مهنتي. فقد كنتُ أعملُ في مستشفى لذوي الإعاقات." عدتُ إلى الجامعة ودرستُ نظم المعلومات، وأخذتُ العديد من الدورات، وأنا الآن أرأس فريقاً وأُؤلف كتاباً حول الحاسب الآلي. فرقٌ بين هذينِ وذاك. ذاك يحبُّ عملاً فيه إجازات، ويدعو ربّه: "اللّهم لا تغيِّر عليَّ عملي حتى لا أصابُ بصدمةٍ عصبيَّة." وهؤلاءِ الذين وقفوا عند نقطةِ تحوُّلٍ فقرّروا أن تتغيَّر حياتهم عندها.

وعلى ذاتِ الشاكلةِ أناسٌ يستهويهم التكرار، والمضيِّ على ذاتِ النّسقِ ليلَ نهار، وهؤلاء كالقائلين: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ الزخرف/23، فحياتهم رتمٌ واحد، دورةٌ مكرورةٌ، لا يفكرّون في تغييرها. لا يسألون أنفسهم لماذا يسلكون ذات الطرقِ يوميّاً، ولماذا لا يغيّرون. لا يفكّرون في طريقةِ إنجازِ أعمالهم؟ لم لا يغيّرون من عاداتهم التي اعتقدوا أنّها هي الصواب، وترسّخ هذا الاعتقادُ في أنفسهم، ومضوا عليه، دون تفكيرٍ؟ لم لا يغيّرون من هيئاتهم، فكيف سيظهرون لو أنّهم غيروا في ملبسهم – غير متجاوزين للأعراف الاجتماعية – فكم من ملبسٍ هو أجدى وأسترُ من ملبسٍ آخر. لكنّهم يرفضونه بحجّةٍ أنّ سلفهم كان يلبسه. لكنَّ السلف كانت له ظروفه الاجتماعية والاقتصادية والعملية، وهم لهم ظروفهم المختلفة. لماذا لا يفكرون؟ أناسٌ لا يزالُون، منذ أن أدركوا الرّشد، يمضون إلى خيّاطين، وحلاّقين معيّنين... ماذا لو غيّروا؟ يترددون إلى ذات الأماكنِ، يلتقون نفس الوجوه، يردِّدون نفس العبارات، يمارسون نفس الأنشطة اليوميّة، يؤدون نفس الأعمال، نفس الهوايات، ماذا لو بدّلوا؟ أناسٌ يقضون الصلاة كما تعلموها من آبائهم، ماذا يضيرهم لو

بحثوا، وغيّروا بعض العبارات التي هي أجدى من بعض، أو أضافوا أدعيةً، أو أحلّوها مكان أدعيةٍ؟ أناسٌ تلبّثوا بفتوى معيّنةٍ – في معاملاتِ الحياةِ، وسلوكيات الإنسان وليس في العقيدة - ومضوا عليها، وتغيّرت الحياةُ، وتبدّلت ظروفها، وهم متمسّكون، وربّما صاحبُ الفتوى ذاته قد تراجعَ عنها، وبدّلها وهم لا يعلمون، لأنّهم لا يريدون أن يعلموا الجديد؟ نعم ليس المعنى هنا أن الفتوى تصاحب بالضرورة التطوّر فالثوابتُ لا جدلَ فيها، ولكني أقصدُ أن يطّلع الإنسانُ على الأمور لتتضح أمامه، فلا يحلُّ محرّماً، ولا يحرّم حلالاً بحجّةِ عدم التغيير.

إن نقطة التحّول وحدها مفصلُ التجديدِ في حياةِ الإنسان، وهي ليست بالضرورة نقطة تحوُّلٍ مفصليّة كبيرة، بل قد تكون نقطة تحوُّل بسيطة، لكن أن تملأ نقاط التّحوُّل المعاش اليومي في أشياء صغيرة، فمن شأن ذلك أن يبعد ما يسمى"الملل" ويطرد "الإكتئاب." فما مشكلات الإنكفاءِ، وانحسارُ الإبداعِ، ونضوبُ التفكيرِ إلاّ نتائج للروتين المكرور. كتبَ هنري ديفيد ثورو: "إن ألف ضربةٍ لقطعِ أغصانِ شجرةِ الشرِّ تعادل ضربةً واحدةً لقطع جذورها." وهذا لا يتمُّ إلاّ بنقطةِ تحوُّلٍ جادةٍ، تبرهنُ على قدرة الذات على إحداثِ التغيير على منهج قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ الرعد/11.

والنّاس تشتكي من سرعةِ تقادمِ الأيامِ، ومرور السنين لأنّهم يعيشون الرّوتين اليومي الاعتيادي الذي لا جديد فيه. أمّا لو صاحبه التغيير المستمر، ولازمه التجديد الدائب، فلن يشعروا بذلك. وحين يذهبُ المرءُ إلى مكانٍ ما لأول مرّةٍ، فإنه يجدُ المسافةَ بعيدةً، والزّمنَ بطيءْ، أمّا حين يعود فالمسافةُ قصيرةٌ، والزّمنُ سريع. فكيف ذلك؟ في الحقيقة لا المسافة ولا الزّمن قد تقلّصا وإنّما السبب وراء ذلك، أن في الذهابِ تغيير، واكتشاف جديد، أما في العودةِ فلا جديدَ في المسافةِ والأمكنةِ عندها يمضي الزّمنُ سريعاً والمسافةُ تتقلّص وهذه كلّها معالجاتٌ عقليّة ليس إلاّ.

إن أغلب النّاس لو طرحوا عنهم الرّوتين اليومي المضِّ، لو سألوا أنفسهم لماذا أفعلُ ما أفعل منذ سنوات، لِمَاذا أتمسّك بهذه العادةِ ولا أغيّرها، لماذا هذا

اللّبس دون سواه، لماذا هذا الرأي دون غيره، لماذا هذا الصديق دون آخر، لماذا هذا الطريق دون بديله، لماذا هذه الهيئة دون غيرها، لو سألوا أنفسهم لوجدوا إجابات قد تعزّز ممارساتهم، أو تغيّرها. لكن الهدف من وراءِ ذلك هو السؤال الدائم، الذي يقف وراء نقطة تحوُّل. يروي ستيفن كوفي نصيحةَ والدٍ لولده بقوله: "أي بنيَّ، لا تعش حياةً كالتي عشتها، إنني لم أفعل الشيء الصحيح تجاه والدتك، ولم أحدث تغييراً حقيقياً. أي بني عدني بأنك لن تعيش حياة كالحياةِ التي عشتها." فكم من أباءَ لدينا يقولون لأولادهم: "نريدكم أن تكونوا مثلنا." ولا يقولون لهم: "نريدكم أن تعيشوا حياةً أفضل منّا."

في نقطةِ التحوُّل تتغيّر شؤونٌ، أمورٌ تتجدّدُ في حياةِ الإنسانِ، وخير له أن تكون "نقطة التّحول" هذه إيجابيّة وليست سلبيّة. الفرق هنا، أن التّحول الإيجابي يقوده العقلُ والعاطفة، أمّا السلبي فتقودهُ العاطفةُ والشهوة الإنسانية التي لا يحكمها عقلٌ، ولا يقودها فكر. فلا ينتظرُ الإنسانُ الأزمات والعقد والمصائب كي تُملي عليه نقطة تحوُّله، بل أن يبادر هو إلى التغيير فليس "هناك أقوى من فكرةٍ قد آن أوانها،" كما يقول فيكتور هيغو.

الحاجة إلى الدين

ما بسطت الشمسُ أشعتها في يومٍ على الأرض إلاّ وتصبحُ فيه الحاجةُ إلى الدِّين أقوى وأمسَّ. ولا يتقدّمُ الإنسانُ قُدماً، ولا يصعدُ سلّم الحضارةِ إلا أن يكون الدِّينَ هو عقيدته التي تقنّنُ حياته، وتؤسسُ مبادئه، وتقوّم سلوكياته، وتبني أخلاقه. وحينما أقولُ الدِّين فأعني الإسلام، على منهج الباري عزَّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ آل عمران/19، لأن الإسلامَ شملَ كل الدّيانات السّابقة فلا مجالَ أن تبزَّهُ ملّة، ولا أن يشملهُ دين، ولا أن تحتويه عقيدة، فهو الشاملُ الجامع.

المسلمُ، الذي يمضي على منهجِ دينهِ القويم، يفخرُ بنفسه، ويشكر الله في الصباحِ والمساء على أن خلقهُ مسلماً، وهي نعمةٌ لا ينالها بلايينُ البشر من غير المسلمين، وهنا فخرهُ يكمن، وموضع شكره يكون، فعلاجه النفسي من أمراض العصر كالقلقِ والإكتئابِ والتوتّر في دينهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ الرعد/28، فالصلاةُ وحدها علاج ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ العنكبوت/45، وكلّما شعر الإنسانُ المسلمُ بضيقٍ أو كربة لجأ إلى بارئه بالدُّعاء: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ النمل/62.

إن مصيبةَ البشرِ تقعُ في أساسها بالتّخلي عن اتباع الصراط القويم. وأضربُ أمثلةً من متابعاتي للقضايا الاجتماعية والأخلاقيّة للمجتمع البريطاني، فخلال

الأشهر الماضيّة، ظهرت عدّة قضايا منها قضيّة الطفل الرضيع الذي مات متأثّراً بجروحهِ وكسوره عن سبعة عشر شهراً، وهي تعرفُ بإسم قضية "Baby P's" وقد شاركت أمّه العزباء وصديقها في تعذيبه، وقضيّة أخرى غريبة هي اختطاف الأم العزباء Karen Matthews لابنتها Shannon بمساندةٍ من عم صديقها وذلك للتمتّع بمبلغ المكافأة، وقضيّة أب من منطقة "شيفيلد Sheffield" كان يمارس الرذيلةَ مع اثنتين من بناته طوال سنوات. ناهيك عن قضايا السخرية والشتم، وسخرت ابنة رئيسة وزراء بريطانيا السابقة مارغريت تاتشر من أحد لاعبي التنس بقولها أثناء جلسة دردشة متلفزة بقولها: إنه يشبه الـ "golliwog" وتعني دمية سوداء بشعة. كما اضطرت البي بي سي إلى إيقاف أحد مذيعيها الشهيرين وهو Jonathan Ross صاحب برنامج مساء الجمعة FridayNight *ثلاثة* أشهر، وأقالت صاحبه Russell Brand بعد أن وجّها عبر برنامجهما الإذاعي إساءة غير أخلاقية إلى الممثل الإنجليزي المعروف Andrew Sachs. كما ناشد السير دونالدسون، كبير أطباء الصحّة الأسر، عدم السماح للأطفال دون سن الخامسة عشرة بتناول الكحول معهم. أما الصبية ما بين سن 15- 17 فيمكن إعطاؤهم الكحول يوماً واحداً في الأسبوع. ومن أغرب القضايا ما نشرته وسائل الإعلام عن الطفل- الأب الذي طوله 4 أقدام ذو الوجه الطفولي غرب إنجلترا قد أصبح أصغر أبٍ في بريطانيا. طفلٌ يصبحُ أباً. ولا غرابةَ في ذلك فقد صدر تقرير عام 2004 في بريطانيا بإزدياد حالات الحمل خاصّة بعد الدروس المخصّصة حول التعريف بالجنس في المدارس. ومؤخّراً حذّر خبير في جامعة نوتنجهام بأهميّة التحرك السريع لعلاج ظاهرة تكرار الحمل للفتيات المراهقات.

أردتُ من خلال سردِ هذه القضايا التي تابعتها أن أضع القارىء في الصورة، وأنا أتحدّث عن أهميّة الدّين، وقبل ذلك، كان القانون البريطاني وإذاعة البي بي سي حازمين في تطبيق بنود القوانين. ولكن لا يُصلح العطّار ما أفسد الدّهر؟ إن تسمية " الأمهات العزباوات Single mothers"، ظهرت حسبما ما أكده لي صديقٌ إنجليزي منذ ما يقارب الثلاثون عاما. إن هؤلاء الأمهات اللّاتي ينجبن أبناء غير شرعيين، ويكافأن على ذلك بإعطائهن شقة ومكافآت ماليّة هي واحدةٌ من الظواهر اللاأخلاقيّة في المجتمع الإنجليزي والدّالة على انهيار النظام الأسري فيه.

إذن، فعلاجُ هذا المجتمع الذي يعجُّ بالكثير من هذه القضايا وغيرها يدورُ

حول القوانين والتشريعات الوضعية التي يضعها الإنسان. إنّما هي بعيدةٌ عن شريعةِ اللّه، قد يتصدّى القانون لقضايا الاغتصاب أو الاتجار بالأجساد أو غيرها لكنّه يظلُّ عاجزاً أمام نشر الفضيلة، عاجزاً أمام نشأة ضمير يضع مراقبة الله قبل كلّ شيء، عاجزاً أمام علاج الأمراض النفسية المؤدية إلى الأمراض العضوية، وهذا ما يفعله الدّين. فإذا كان رجلاً مسيحياً ـ كما يورد ديل كارنيجي في كتابه، **دع القلق وابدأ الحياة** ـ هو العالم وليم جيمز يقول: "الدين يمدني بدافع قوي لمواصلة الحياة الحافلة الرحبة السعيدة الراضية، فهو يمدني بالأمل والإطمئنان والأمان بل وبالشجاعة والقدرة على التخلص من القلق والاكتئاب كما أنه يمدني بأهداف وغايات في الحياة فضلاً عن أنه يفتح أمامي آفاق السعادة ويساعدني على إيجاد روضة خضراء في قلب صحارى حياتي القاحلة. ولذلك فقد كان الفيلسوف فرانسيس بيكون صادقاً حين قال: "إن قليلاً من الفلسفةِ يدفع بالعقلِ إلى الإلحاد، ولكن التعمق في الفلسفة جديرٌ بأن يعود بالمرء المارق إلى الدّين." وهذا ما حدث بالفعل مع بعض العلماءِ والمفكرّين.

فماذا يقول المسلمُ، إذن، وهو تابعُ أعظمُ ديانةٍ وأشملها وأجلّها على وجهِ الأرض؟ إن كثيراً من الشباب ـ ردّهم اللّهُ إلى دينهِ ردّاً جميلاً ـ يزعمون أنّهم مسلمون والإسلامُ منهم بريء، يأتون بأفعالٍ قد لا يأتيها غير المسلم، ويزعمون مع ذلك بأنّهم مسلمون فكيف يتّفق لهم ذلك؟ إن كلَّ ركنٍ في الدّين علاج، الصلاةُ والصوم والزكاةُ والحجُ والصدقة وغيرها. ووالله لا يعظمُ شأن الإنسانِ إلاّ بالإسلام، وعزّته بالتّمسكِ به في زمنٍ تحاصرهُ الملهيات والمغرياتُ من كل جهة. تسدُّ عليه طريقه، وتضيّق عليه نفسه، فلا ملجأ له سوى اللّه، وما التفت النبي، ﷺ إلى ابن عبّاس وهو غلامٌ إلاّ عن قصد ونيّة قائلاً له: "يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف." رواه الترمذي.

إن الواحدَ منّا يجبُ أن يتفكّر في كيفيّة أداء صلاته، وهي علاجٌ روحي، وطمأنينةٌ نفسيّة، ويشهد بعض العلماءِ في الغرب على أنّ كثيراً من مرضاهم

مرجع أمراضهم يعودُ إلى القلق والتّوتر الذي يسبب أمراضاً عضويّة. وهذه سببها عدم فاعلية الدين في الحياة، وأقول عدم فاعلية، لأن المرء يولدُ على الفطرة، والفطرةُ هي الدّين.

نحنُ نرى إذن ما يحدثُ في المجتمعات التي حادت عن الدين، وفيها من المشتاقين لاعتناق الإسلام، حتى أنّ امرأة إنجليزيّةً تقول لنا: نريد ديناً كدينكم نؤمنُ به. وإنجليزياً يتأسّفُ أن الدّين المسيحي ليس فيه رمضانٌ كرمضاننا حينما أخبرته عن حكمة الصوم. وتقول شابّة أجنبيّة غير مسلمة: إنني كلّما شعرتُ بالضيق أفتح التلفاز على الصلاة في مكّة فيرتاحُ صدري، ويذهبُ قلقي. ووالله إن المسلمين الذين يصرخون ويثورون في وجه الغربِ ويتهمونهم بالمؤامرة لمقصِّرون في التبليغ السلوكي والإعلامي عن الإسلام، وتاركين السبيل لأولئك الذين يحملون أفكاراً هدّامةً ويصفهم الغرب بالراديكاليين كي يصبحوا أمثلةً للمسلمين. وإنني لأتأسّف عن ضياعِ أموال الكثير من أغنياء المسلمين دون جدوى في لهوٍ ولعبٍ بينما سبيل التعريف والدعوة القويمة إلى الإسلام قاصرة، ووالله إن في الغرب لملايين ينتظرون كلمة الحق من دعوةٍ مخلصةٍ للإسلام.

الدّينُ هو أعظمُ هديّة قدّمها اللهُ للإنسان. وهو يؤسِّس الحياةَ أجمعها وليس كما يدّعي بعضهم من حملةِ الأفكار المنحرفة بأن الدّين معوّق للتقدم، ومثبّط للحضارة. كنتُ منذ أيام أستقل سيارة أجرة يقودها سائقٌ تركي علماني يقول كنتُ مسلماً فوجدتُ أن الإسلامَ يمنعني من أن أتبع شهواتي. قلتُ له إن لكلِّ شيءٍ حدود، وأنت نفسك تحتاجُ إلى مبادئ وحدود وهذه لا يكفلها سوى الدّين، فقال إنني مسيطرٌ على نفسي، وضحكتُ في قلبي وأنا أسمعه يسبُّ هذا ويشتم ذاك بأقذع الألفاظ في الطريق ثم يعتذرُ منّا. وقلتُ له في خاطري: إذا كنت لا تستطيع أن تسيطر على نفسك، فكيف تسيطر إذن على شهواتك؟

لا يسعدُ في الحياةِ إلاّ من اتبع رضوان الله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ آل عمران/162، فهو المعافى من أمراض العصر النفسيّة والفكريّة، وهو الراضي عن نفسه، المستشعر بحلاوة الحياة، لأنّ حب الله قد سكن نفسه، فاللهم ثبّتنا على دينك.

فهمُ الدِّين

كلّما توجّهتُ لأداءِ صلاةِ الجمعةِ في الجامعِ اعترضني منظرُ السيّاراتِ التي تسدُّ حلقَ الشارعِ المؤدِّي إليه. سيّاراتٌ على اختلافِ ألوانها وأشكالها تتكدَّسُ دون نظامٍ في كلِّ ثنيةٍ وزاويةٍ تاركةً المواقف المخصَّصة لوقوفها شاغرةً فارغة. لقد ذهبَ أصحابها لأداءِ صلاةِ الجمعة وتركوها تعيق الطريق. ولا يزال السؤال يلحُّ عليَّ حتى بعدَ أن ألّفتُ بسبب هذا المنظرِ، ومنظر الأحذيةِ المتراكمةِ على عتبات المساجدِ كتاباً عنِ"القيمِ المعطّلةِ في المجتمعات العربية". أقول: لا يزال السؤالُ يلحُّ عليَّ. كيف فهم هؤلاءِ الدِّين؟ هل فهموه على أنّه عباداتٌ صرفةٌ وشعائرَ خالصة وحسب دون تطبيقٍ في الواقعِ، ودون تنفيذٍ في مسالك المعاش اليوميِّ؟ هذا ما يبدو لدى كثيرين. فكيف إذن يبرّر فعلُ من يهرعُ للصلاةِ وقد خلّف سيارته في عرض الشارعِ تسدُّ طريق العابرين، وتضيّقُ عليهم مرورهم، كي يخرج "جنابه" فلا تعترضُ طريقهُ زحمةَ مرورٍ، ولا تعطّلهُ أزمة سير؟

يفهمُ بعض النّاس الدِّين على أنّه مجموعةُ شعائرٍ وعبادات ومظاهر خارجيَّة، فتراهُ مؤدّياً لها تاركاً أموراً أساسية في التّعامل. وتراهُ في صورةِ المتديِّن، لكنّ سلوكهُ يتنافى مع أبجديات الدِّينِ في الخُلق. ولدينا من الأمثلةِ الكثير من مشاهداتنا الشخصيةِ أو من نَقْلِ الثُّقاةِ. وحينَ أعني هنا بعضُ المتديّنين فذلك لأنّهم أول من يُلام حين يتنافى المظهرُ مع الجوهرِ، والهيئةُ مع السلوك في حين يؤملُ منهم أن يكونوا قدوةً للآخرين، ومثالاً يحتذى لهم.

يدخلُ أحدهم محلاً للنساءِ وقد غصَّ المحلُّ بهنَّ برفقةِ زوجتهِ وسرعانَ ما يرعدُ صوتهُ لخلافٍ حولَ مبلغٍ بخسٍ مع البائع الأجنبي، فيثير ذلك امتعاض النسوةِ اللاتي استهجنَّ خلطه للأمورِ حيثُ أودى به الخلافُ التافهِ إلى اتهامِ البائعِ بقلّةِ التربية وبالحاجةِ لمن يقوِّم عوده بسبب سوء فهمٍ حول قيمةِ ثوبٍ من الأثوابْ. وشخصٌ آخر يقتحمُ الطابورَ ليقضي معاملته دون الآخرين ضارباً عرض الحائط

بطلب موظّفة الاستقبال بالوقوف في الطابور. وآخر يدفعُ بجسدهِ امرأة أمامنا مستهتراً بالنّاس الواقفين صفّاً بكلِّ أناةٍ وهدوءْ كي يسلّم ورقة للموظّف خلف الحاجزِ الزجاجي، فيسمعُ من المرأةِ درساً كان أولى به أن يترفّع عن سماعه لو أنّه صانَ نفسهَ، وحفظها من الحرجِ، لكنّه أخطأ ولهذا كنّا جميعاً في صفِّ المرأةِ لأنّه لم يعتذر عن خطئهِ، واستمرَّ يدافعُ عن ذنبه. وآخر لا يقدّمُ الشكرَ لخدمةٍ تُسدى إليه، في حين كانت ملامحُ الآخرِ شاحبةً فظّةَ الأسارير، لا تفترُّ قسماته عن بشاشةٍ أو ابتسامه لو تزيّن بها لكتبت له صدقة. في حين كان الثالثُ ينظرُ إلى متعاركينَ نظرةَ استمتاعٍ كي لا يورّط نفسه في صلحٍ أو وفاق. وكان الرّابعُ يتعجّلُ في حكمهِ على آخرَ فيعترضَ حديثهُ قبل أن يتبيَّن منه المقصد، فيضع نفسه في موقفٍ حرجٍ لا يليقُ بمظهره. وآخرَ يكابرُ في أيَّ أمرٍ يقومُ به مهما حاول المخلصونَ ثنيهُ عنه، فمظهرهُ في المسجدِ وهو يصلّي بالنّاس بورعٍ وانكسارٍ شأن، وسلوكهُ وهو يعالجُ شؤون الحياةِ بأنانيةٍ وجشعٍ شأنٌ آخر. وآخرَ يُطيلُ في الصلاةِ، ويُسهبُ في الدُّعاء، وهو ظلومٌ للناسِ، حاسدٌ لهم حقود، يتخبّطُ في قراراتهِ المسيئةِ، خالطاً بين السلوك العمليِّ والمشاعرَ الشخصيّةِ، مصنِّفاً الناس صنفين: شيعته أو أعداؤه.

لقد فهم هؤلاءِ الدِّين على أنّه مظهرٌ وشعائر، وابتعدوا عن التفاصيلِ في الحياةِ، تلك التي تُعطي الدِّين حياته بين الناس، التفاصيلِ التي تجيء من "سلامي النّاس" في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كل سلام من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة." رواه البخاري ومسلم، لكنّهم تركوا أبسطَ أسسه: الشكرَ، السماحةَ، اللُّطفَ، الابتسامة، إيثارُ الآخرين، فالإيمانُ ليس شعبةً واحدةً، وإنما (بضعٌ وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق)، حديث شريف أخرجه مسلم. وبينها فضائلُ وشمائلُ تشكّلُ خُلُقُ المسلمِ، وتظهرُ هيئته الخالصة.

على أن هؤلاءِ ليسوا سوى نماذجَ ممن فهموا الدّين بغيرِ السماتِ الجميلةِ، واللطائفِ الحميدةِ التي دعا إليها، في حين أن كثيرين ممن عرفوا كُنهَ هذا الدّين، وطبّقوا بديهيّاتهِ البسيطةِ هم أمثلةٌ يعتدُّ بها، ونماذجُ يُفتخرُ بها، كما أن هذه المشاهدات قد تكونُ مواقفَ شاذّة لشخصيات ذات شمائل عظامٍ، وفعالٍ حسان، إلا أن المقصود هنا هم أصحابُ الطبائع المستأصلةِ، والمسالكِ الضاربةِ في ازدواجيتها.

أقولُ هذا لأنني أرى أن المسلمَ هو الأجدر دون غيرهِ بتطبيق "بديهيّاتٍ في التّعامل والخُلق"، يدعو إليها الدّين الإسلامي، في حين أننا نرى من آخرين غير مسلمين – الاعتراف واجب – سلوكيّاتٍ أقربُ إلى ديننا، لهذا قال الإمام محمد عبده في فرنسا: "وجدتُ الإسلامَ ولم أجدِ المسلمين." نحنُ محتاجونَ إذن إلى فهمِ ديننا، وإصلاحِ ذواتنا، فأولى من الدعاءِ بتشتيتِ الأعداءِ وتجميدِ الدماءَ في عروقهم، وتدميرهم... الدعاءِ لصلاحِ نفوسنا، وهدينا لتقويم سلوكنا ومفاهيمنا، ومعالجتنا لتقصيرنا، وخلوِّ صدورنا من الحسدِ الذي استشرى في مجتمعاتنا، وإعانتنا على تطبيق أساسيّات هذا الدينِ الكريم في تعاملاتنا اليومية وأخلاقنا وسلوكنا وأساليب حديثنا وتعابير وجوهنا.

كيف لنا أن نتّهم وندعو على من قصّرَ المسلمونَ في تبليغهِ؟ لقد شهدنا غربيين يقولون لنا: إننا بحاجةٍ إلى دينٍ كدينكم كي نشعرَ بمتعةِ الحياة كما تشعرون، وآخرين يسألوننا عن تفاصيلِ ديننا. فهلاَّ كنّا ندعو لهؤلاءِ بالهدايةِ كما دعا النبي، ﷺ لأهل الطائف، الذين أمروا صبيانهم وسفائهم برميه بالحجارةِ حين ذهبَ يدعوهم للإسلام؟

إن "الدّين المعاملة" و "الدينُ الخُلق" قبل أن يكون مظهراً لا يصاحبهُ سلوك، وهيئةً لا يرافقها خُلق. إن من أساسيّاتِ الدِّينِ النظافة الشخصية وحسنُ اللّباسِ والظهورِ وسلامةِ الصدرِ من الغلِّ ورقيِّ الأسلوبِ والشكر والاعتذار والترفّق في المعاملة مع الأهلِ والصحبِ والآخرين والرقّةُ في الطلبوالاعتراف بالخطأ واحترامُ رأي الآخرَ، إن كان ذا أدبٍ وتهذيب، وصفاءُ السريرةِ من الأضغان وبشاشةُ الوجهِ والإيثارُ والتعاونُ ونبذ الكراهيةِ ورحابةُ الصدرِ وغيرها وغيرها.

إن البديهيَّات البسيطةِ هي أولى في التطبيق من التستِّر وراءَ مظهرٍ مع جهلٍ، والتخفِّي وراءَ هيئة مع غرور، لأنّها تخصُّ الجنان، وهذا هو معقلُ المرءِ، ومديرَ سلوكهِ، ولبَّ شخصه. فكم تخفّى أناسٌ وراءَ مظاهرَ التّديُّن والورع لكن ما إن يعنُّ لهم أمرٌ، أو تعترضُ سبيلهم محنة رأيتَ منهم العجبَ العجاب، وهالكَ ما يصدرُ من سلوكهم المشين ما إن لو قرنته بسلوك جاهلٍ طفح عليهِ ورجح، فذلك كما يقول فيه شيخنا نور الدين السالمي:

وعالمٌ بعلمهِ لم يعملا   أشدُّ في التعذيبِ ممن جهلا

إن الالتفات إلى الأمور البديهيّةِ في القولِ والفعلِ، والخلق والتعامل، هي أسسٌ هامّةٌ في الدين بل هي الدِّين ذاته، لأنّ الإنسانَ حينها يكونَ قد طبّق ما علم، ونفّذ ما اعتقد، وما سلوكه أو تعامله إلاّ دليل على مدى فهمه للدِّين.

الحواجز العاطفية...!

هل نستطيعُ أن نقرّ بوجود فجوةً فكريَّة ثقافية بين الأبناءِ ووالديهم، أم أنَّ هناك أسراراً غير معلنةٍ بينهم يظهر القلقِ عليها أو يُكبت؟ الثورة المعلوماتية المتمثلةِ في شبكةِ الاتصالات العالمية "الإنترنت" هي إحدى مؤسِّسات هذه الأسرار، لأنّها استطاعت أن تجتذبَ الأبناءَ، وتصبح بمثابةِ حاضنةٍ لبوحهم ومتنفساً لمشاعرهم وملبِّياً لنوازعهم وموجّهاً لأفكارهم.

إن هذا العالم غير المرئي قد استطاعَ أن يؤسِّس فكراً، وثقافة، وتوجهات، بل صاغ الكثير من أسس التربيةِ والنظرةِ إلى الحياة وشؤونها. إن أرباب الأُسرِ لا يعلمون ما هي أبعادُ مشاركاتِ أبنائهم ومساهماتهم في هذا العالم اللانهائي. إنّهم لا يدركون مع من تربطهم الروابط في الفيس بوك "Face Book" أو مع من يتحادثون عبر الدردشة "chatting"، أو ماهي طبيعة مشاركاتهم في المنتديات، أو ما يثير اهتمامهم في اليوتيوب "You tube" أو المجلات الإلكترونية، أوالمواقع التي تبثُّ أفكاراً لا تنسجمُ مع القيم التي نشأ عليها الفردُ في مجتمعاتنا العربية الإسلاميّة (إحدى الفتيات – كما نشر - انتحرت بعد شعورها بعدم تقبُّل المجتمع لفكرة تغييرها لديانتها. وفي الغرب كم غرّر بأولاد أو بنات ثم ذهبوا ضحايا)، ولعل المواقع العربية التي ينفث فيها بعضهم سمومه لا تقلُّ خطراً، وتكمنُ الخطورة في تبني بعض الشبابِ والفتيات لأفكارٍ يظنّونها صائبة في حين أنّها مغرضة، تثير الفتنة، كما أنّها تعرض أفكارها السّامة للسذّج، غير الراشدين من الشباب فيتبنونها بحماسةٍ ودون وعي. كلُّ هذا يجري في مساحةٍ ضيِّقةٍ، تتسّع لجهازٍ صغيرٍ وشابٍ أو فتاةٍ. هناك شيءٌ آخر هو مدعاةٌ لقلقِ الأُسر أيضاً: الهاتف الجوّال. فكم هُدّمت بيوتٌ، وشبّت حرائقٌ من جرّاء الاستخدامِ غير الواعي لهذا الجهازِ الذي لا يفوق كفَّ اليدِ في حجمه. وهو عالمٌ آخر هلامي! ثم جهاز التلفازِ وفيه هو الآخر ما يستدعي القلقَ، ويثيرُ الشكوك. ولا يمكِن لربٍّ

أُسرةٍ يشاهدُ التلفازَ هذه الأيّام مع أسرتهِ مجتمعين إلاّ وفي يده جهاز التّحكم، إذ عليه أن يكون يقظاً، مستعداً لتغيير القناةِ عند كل مشهدٍ أو لقطةٍ تخرجُ عن إطار الأدب والأخلاق. وفي السينما خطرٌ آخر يتجسّدُ في دخولِ أطفالٍ لمشاهدةِ أفلامٍ ذات إثارةٍ، تتخلّلها عبارةٌ بذيئة، ومشاهدَ غير لائقة.

كلُّ هذه تُثير القلق، بل الهلع. وكلّها تعني فجوةً فكريّةً حتى يكبر الأبناءُ فينضجون، وحينها لا يُدرى كيف تكون توجهاتهم، وما الذي يؤسس أفكارهم. إذن، البيوت غارقةٌ في فجوةٍ لا يُدرى قرارها، وهي وإن كان يجمع أفرادها سقفٌ واحد إلا أن توجهات كل فردٍ ورغباته وأسراره وعلاقاته هي التي تعمّقُ هذه الفجوة. هذا القلق يبدو أنّه عالمي. فقد كنت أتابع برنامجاً إذاعيّاً محليّاً يستكشف رأي أرباب الأُسر في بريطانيا عبر الإذاعة المحليّة للبي بي سي "BBC" وكان سؤال البرنامج: هل أنت قلق من مشاهدة أبنائك ينمون بسرعة؟ والنُّمو هنا يُقصدُ به ممارسةُ أفعالٍ لا تتفق مع سنّهم، وهي أفعالٌ بالطبعِ لا تحدّها قوانين إلهيةٍ، بل تثيرها الشهوات والرغبات الشخصية. وكان أغلبُ المتصلين يبدون قلقهم الشديد نحو أبنائهم.

السؤال الجوهري الأول: إلى أيِّ مدى يمكنُ لهذه الوسائل أن تغيِّر شخصية الفرد وتوجهاته وأفكاره وتؤثِّر في عواطفه؟ لا يمكن التنبؤ بالمدى إطلاقاً لأن المسألة لا تقاسُ بالأدوات، ولكنّ هناك أثراً بالطبّع في الشخصيةِ لا شكّ فيه، إنّما قد يكونُ أثراً إيجابيّاً أو سلبيّاً بحسبِ القيم التي تربى عليها الناشئة. والسؤال الثاني: ما الذي يمكن أن يفعلهُ المربون لأجل تقليص الفراغ أو الفجوة الناشئة، وهل يجوز لنا أن نسمّيها فجوة؟ شخصيّاً أرى أن هناك بالفعلِ فجوة عاطفيّة في مجتمعاتنا بشكل عام، سببها عدم أو ضعف وجود التواصل العاطفي بين الأب والأم، من ناحية الأبناءِ، ومن ناحيةٍ أخرى العلاقة بين الطرفين هي علاقة ودّية عاطفيّة بحكم ما تأصّل في طبيعةِ النّفس من حب من جانب الأب أو الأم. ولهذا لم يكونا بحاجةٍ إلى التوصية بالأبناء بل العكس هو الصحيح فقد وردت التوصيةُ الإلهية ثلاثاً في القرآن الكريم.

إن من أهم ما يجب أن يدركه الوالدان هو التواصل العاطفي مع أبنائهم، تواصلاً يُثري العلاقة، ويؤسس الثقة، ويكسرُ الحواجز، ويمهّد لتقبّل النصحِ، ويمتّن أواصر المحبَّة، ووشائج المودّة، ولكن كثيراً من الوالدين غافلين عن هذه الوصلة الهامّة في الحياة. نعم يجمعهم بأبنائهم سقفٌ واحد ولكن أيُّ سقفٍ هذا الذي يضمنُ نماءَ المحبّةِ، وديمومةُ الوداد، دون أن تأتلفَ القلوبُ، وتلتحمَ النفوس، وتلتقي الأفكار. كلّما جاءَ جيلٌ طمحنا لأن يصغي فيه المربون للناشئة، وأربابُ الأسرِ لأبنائهم، ويتحقّق الكثير من ذلك، ولكنني أرى – من وجهةِ نظرٍ شخصيةٍ – أن هناك حواجزَ عاطفيّة لا يزال يعاني منها كثيرٌ من الآباءِ والأمهات لدينا، وبالتالي تنتقلُ إلى الأبناء فتؤثّر فيهم، ولا يخرجُ من عُقدها إلاّ القليل.

إنني أرى أن الجدران التي تسدُّ التواصل العاطفي سببها الآباءُ والأمهات (وبالطع وراءهم أسبابٌ أخرى كثيرة غير مباشرة). ويعودُ ذلك في أغلبه إلى عدم الرّغبةِ في مسايرةِ العصر بل الإستمرار بدلاً من ذلك في الانتقاد السلبي والتذّمر بحجّةِ عدم منفعةِ ما يطالعه الابن أو الابنةُ أو ما يثير اهتمامهم. أمّا حين يسايرُ المرّبون العصر فيطّلعون على مضامين المنتديات والوسائل الأخرى، فإنّهم يستطيعون النقاش مع أبنائهم باللّغةِ العصريّةِ، فيقولون، مثلاً (المنتدى الفلاني جيّد ولكن بعض النقاشات فيه غير واقعية) أو أن (الفيس بوك فكرة رائعة لمشاهدة صور أصدقاء قدامى ولكن مشكلته أنّه قد يوظّف من قبل أجهزة أخرى للحصول على معلومات وبالتالي التأثير بطريقةٍ أو بأخرى)، أو (أن اليوتيوب جيّد لمشاهدة ما لا يمكن مشاهدته في القنوات الرسميّة ولكن خطورته تكمن في مشاهدة ما لا يتّسقُ مع قيم المسلم)، أو أن (بعض المسلسلات المدبلجة جيّدة من حيث الحدث الدرامي، ولكنّها ذات أبعاد خُلقيّة لا تنسجم مع عاداتنا وتقاليدنا). وهكذا، يكون الحوار مبنيّا على سابقِ إطّلاع، والأهمُّ من ذلك وجود قاعدةٍ من الثقةِ ووشيجةٍ قويّةٍ من العواطف المشتركة، وأحاسيس ومشاعر وأفكار متبادلة بين الأب والأم من ناحية والأبناءِ من ناحيةٍ أخرى.

إن ما يمارسهُ بعضهم من إقصاءِ الآخر هو مصيبةٌ في حدٍّ ذاتها، وعلى سبيل المثالِ، فقد وجّهت إحدى المدارس الدعوة لي للحديث حول كتابي "قيم معطّلة في المجتمعات العربيّة" وقال لي المعلّم سنختار لك الطلبة المتميّزين فرددت عليه وأريد أيضاً معهم أولئك "الفوضويين" ومثيري المتاعب وستكون إدارة الجلسةِ من مهمّتي.

وحين حضر الفريقان مختلطين استطعنا أن نبني نقاشاً، ونتقاسم خبرات من الجانبين فكانت جلسةً بنّاءة استفدتُ فيها من أفكارهم قبل استفادتهم من أفكاري. إذن الإقصاءُ معضلةٌ لا بدَّ من التّخلص منها باستيعاب فكر الآخر وعدم إرغامه على ضرورة تقبل أفكار من يختلفون معه، بل تعويده على بناء نقاشٍ هادفٍ معه.

كم من أبٍ في مجتمعنا يخرجُ مع ابنهِ ليتناول معه كوبَ شاي أو قهوةٍ في مقهى،أو يصطحبُه ليتناولا عشاء وحدهما؟ وكم من أمٍّ في مجتمعنا تُشعر ابنتها بأن لديها أمّا تتفهمُ شعورها، وتشعرها بالإطمئنان والأمان الاجتماعي؟ إن الأب ليجدُ سعادته في الخروجِ مع صحبهِ وليس مع ولده أو ابنته وهذه أنانيّة. وتجدُ الأمُّ سعادتها في الخروجِ مع صديقاتها وهذا تقصير. وفي الوقتِ ذاته، ليست لدينا ثقافة ناضجة للنزهات العاطفيّة بين الرّجل وزوجته وهذا مصدر من مصادر الخلل في العلاقة العاطفية مع الأبناء. إن أصعب ما يواجهه الإنسان جدرانٌ أربعةٌ تشعرهُ بالوحدة فلا يجدُ بشراً يصغون له، أو يتفهمون مشاعره واهتماماته. ولعلَّ بعض الآباء أو الأمهات يفضلون الحديث – لحلِّ المشكلات وتوجيه التعليمات أو النصائح – داخل البيوت وهذه مسألة لها تعقيداتها النفسيّة. ففوائد الخروجِ من هذا الصندوق (ويجوز أن نسمّيه كذلك إذا غدا فارغاً من الأمان الاجتماعي والطمأنينة النفسيّة) لها أثرٌ إيجابي في النفس. وتساعدُ إلى حدٍّ كبير على وقايةِ الأبناءِ من خطرِ الانزواءِ والإنغلاقِ والإنطواءِ ثم الإندفاع للتواصل مع عالم هلامي ليست له ملامح أو وجوه.

إذا لم نتجاوز الجدران العاطفيّة، والحواجز النفسيّة، التي ورثناها وحملناها جينات متأصّلة في أنفسنا، فلن نلوم الأبناء قبل لومِ أنفسنا. إن الكلمات اللّطيفة مفاتيح للقلوب، لكنّها ليست كل المفاتيح، فتوثيق العلاقةِ من خلال الخروج مع ابن أو ابنةٍ لعشاءٍ أو نزهةٍ هي مفاتيح أخرى. ولديّ اعتقادٌ بأننا إن لم نتفوق على طبائعنا الميّالةِ إلى إبقاء الحواجز العاطفيّة، فلن تقوم بيننا وبين أبنائنا علاقة إيجابيّة وحينها سيسبحون كما شاؤوا في عوالم ليست لها قيعان أو حدود!

غايات مبتورة

كثيرون يتّسمون "أرباب البيوتِ" و "أربابَ العيالِ" ولكن قلّة منهم من يفهم قيمةَ الزواجِ، ومعنى الزّوجةِ، وكيفيّةِ تربيةِ الأبناء. قضيَّةُ الزّواجِ، أكثرها في مجتمعاتنا، مقصورةٌ على التحضيرِ الماديِّ لعقدِ القران والسكنِ والقاعات والمهر والزفاف. أمّا ما يتعلَّقُ بفهمٍ وإدراك معنى الحياةِ الزوجيّة وأسسها وقيمها وماهية الحقوق والواجبات التي تتحتّم على الرجلِ أو المرأةِ، فتلك أمورٌ قلّما يُكترثُ بها، تتركُ للصدف، والطبائع البشريّةِ وغرائزها. يتبجّحُ الرجلُ وهو يُنادى بأبي فلان، ويتهادى خيلاء، في حين أنّه لا يملكُ سوى جسداً فارعاً، بمنكبين عريضين، يظنُّه الناظرُ متجانساً مع عقلٍ كيّسٍ، وفكرٍ ناضج وهو أبعدُ مسافةٍ لا تقاسَ عن ذلك.

كثيرون من الأزواجِ لا يُحسنون فهم الزوجاتِ، ولا يُدركون طبيعةَ النساءِ، ولا يجتهدون من أجلِ تثقيف أنفسهم، وترويضِ طبائعهم كي تُبنى العلاقةُ على أسسٍ من المشاعرِ الدافئةِ المؤسسَّةِ على الحبِّ الصادقِ، والثقةِ المتبادلةِ، والفهم البيِّن بين الإثنين. كثيرون في مجتمعاتنا ممن لم ترتقِ أفهامهم نحو الزوجاتِ، فيتحوّلن بين ليلةٍ وضحاها من حبيباتٍ إلى أسيراتِ جدرانٍ فارغةٍ، يتجرعن كؤوس الكلماتِ الجوفاءْ والفراغ المضني. كثيرون يطلقون العنان لطبائعم الجافّة لتتصرفَ نحو الزوجات لأنّهم عجزوا عن النظرِ إلى خصالهن الجماليةِ المتمثّلةِ في الخّلق، وقصروا عن سبرِ أغوارهن النفسيّة ليدركوا كيف يشعرن، وكيف يفكّرن. تركوهن أسيرات بيوتٍ كئيبةٍ ليأتوا إليهن وقد فرغوا من أنسهم، وصحبهم، وقد فرغت أجوافهم من الضحكاتِ المحشرجة، يأتوهن في ليلٍ داجٍ امتلأ بقلقِ زوجاتهم ونشجيهن الهامس.

كثيرونَ ممن يتلبّسونَ أجسادَ الشبابِ، ولا يتلبّسون أفكارَهم المزهرةِ، ولا مشاعرهم المتفتّحةِ، فالعمرُ الجميلُ الذي هو عنفوانُ المرءِ يضيعُ بين نوباتٍ

غضبٍ، وآراءٍ متنطّعةٍ، وخلافاتٍ لا أساسَ لها، ومشاعرَ مكبوتةٍ حتى تصبحُ الحياةُ في كنف أزواجٍ كهؤلاءِ لا تطاق.

همُ المتشبّثون بآرائهم مهما جانبها الصواب، المتطعّون لأفكارهم مهما شابها الخلل، المستنصرون لطبائعهم مهما اعترتها الفظاظةُ، المتّهمون لرأي الزوجةِ بالنقصانِ، وعملها بالخذلان، وطبيعتها بالتقصير، اللاّقون عليها أعباءَ أخطائهم، وأحمالَ مصائبهم، وأوزار تفاهاتهم، وعواقب أعمالهم، المداوون أمراضهم النفسيّة بشكوكهم في سلوكها، وفي كلِّ حركةٍ من حركاتها، المتشفّون من أعدائهم بالنقمةِ على زوجاتهم بإثارةٍ ما لا يستحق الإثارةَ، ولا يستأهل الغضبَ... الصّابون جام الحنق على الزوجاتِ لخطأ الأبناء.

هؤلاءِ جنسٌ مختلط يقعُ فيهم من تظنّه المثقّف الأريب، والأديب المستنير، أو المتديّن الملتزم، أو الجاهلَ المغتّر بما لا يملك. ولقد رأيتُ وشهدت هذه الأنماطَ المتفاوتة ظاهريّاً والمتّفقة باطنيّاً، رأيتها تختلفُ في مظهرها الخارجيّ، وادعائاتها المحشوّة بالكلماتِ الرصينة، ثم تتّحد في سلوكها نحو المرأةِ... سلوكاً يعاني من معضلاتٍ سببها مرضٌ في القلوبِ، وخللٌ في الفكرِ، وقصورٌ في الإدراك. فكيف بنفسِ أديبٍ يسكبُ عذب القول في المرأةِ وهو سجّانٌ لامرأة ادّعى، ذات يومٍ، أنّه عشقها ثم سلّمها مرايا بيته وصوره "العنتريّة" التي تملأ الجدران أبّهةً وشرفا! وكيف لداعيةٍ مفوَّه في الدِّين هو أبعدُ الناسِ ديناً في التعاملِ مع زوجته، يقودها لتخطبَ له ضرّةً لها!

وإذا كنّا نقتدي برسول الله ﷺ، فقد كان يقرأ القرآن في حجرِ زوجته السيدة عائشة، أي كان يتّخذُ من فخذها وسادةً لرأسهِ، ويسابقها، وتسابقه، وحين مات، كان رأسهُ في صدرها. أليس هو القائل: خيركم، خيركم لأهلهِ وأنا خيركم لأهلي، استوصوا بالنساءِ خيراً.

كثيرون هم في مجتمعاتنا لا يُحسنون الزواجَ، ولا حسن العشرةِ، ولا يحسنون حتى الطلاق. وكم أرغبُ أن يُشترَط على كلِّ راغبٍ في الزواجِ أن يدخل دورةً تثقيفية حول شؤون الزواج، وكم أرغب بأن لا يتمّ الطلاقُ إلا في المحاكم كي لا يستخدم بعض الرّجالِ هذا الحقَّ في غير موضعه فتضيع حقوق ويتشرّد أبناء.

وحينما أسمعُ أو أشهد القصص أو الغصص بالأحرى أسألُ نفسي: في أيّ عصرٍ نعيش؟ قصصٌ غريبةٌ يتبرأ منها الشرفُ، والدينُ منها أبرأ. والرجلُ هو بطلُ هذه القصص/الغُصص في أغلبِ الأحيانِ. وهو لا يُدركُ حجمَ المصيبة التي أوقعَ نفسه وغيره والمجتمع بشكلٍ عام فيها لأنّه أنصت إلى طبيعتهِ الفظّة فقط ولم يُنصت للصوتِ الآخرِ، صوتُ قلب المرأةِ الذي لم يصل إليه في يومٍ من الأيام!

الشعورُ بالحياة

ينخرطُ بعضُ النّاسِ في مشاغلَ، ليس لهم فيها من عائد لو فكَّروا فيها. وما كانت في الواقع لتوجد إلاَّ لأن أجسادهم قد تعوَّدت الحراكَ الدائب، والجدول اليوميَّ المشحون. وأعلمُ عن حالِ بعضهم، عن كثب، فكان أحدهم يبدأ نشاطه اليومي بعد صلاةِ الفجرِ حتى موعد النّومِ لا يهدأ له بال، ولا تستقرُّ له نفس، لكنّ العائد أو النافع مما أهدر من طاقةٍ، وما استهلك من جهد لا يكاد يذكر. وآخر لربّما تعوّد حياةَ ذات حركةٍ مستمرّةٍ قبل أن يتقاعد، وبعد ذلك أراد أن يُشغلَ وقته، فكان لا يكادُ أن يأوي إلى بيتهِ إلاّ لطعامٍ أو لمنام. سألته: هل تشعرُ بمعنى الحياة؟ وإجابتهُ كانت صادقة، فالشعورُ بمعنى الحياةِ مسألةٌ ذات عمقٍ وأبعاد، وهو في السّطح منها. نعم هناكَ من يشعرُ بقيمةِ ومعنى الحياةِ في الحركةِ الدائبة. ولكن ماذا لو أخلَّ بالتَّوازنِ، فمال إلى جانب العملِ ميلاً شديداً على حسابِ جانبِ الأسرة؟ ماذا لو كانت حركتهُ خاليةً من العواطفِ، كأنّهُ المسافرُ في صحراء قاحلةٍ، لا يجدُ فيها ظلاً يستريحُ إليهِ، ولا هبَّةَ نسيمٍ تُنعشه؟

إنّ الآلةَ التي يُضربُ بها المثلُ في "ميكانيكيّة" الحركةِ، وخلوّ المشاعر لتحتاجُ إلى الزّيتِ كي تسهل حركةَ مفاصلها، ومكابسها، ومحاورها وأجزائها الدقيقةِ أو الضّخمة فكيف هو الإنسان؟! لا شك أن الإنسان يحتاجُ إلى استشعارِ كل لحظةٍ من لحظاتِ يومه. يقول ستيفن ليكوك: "ما أعجب الحياة! يقول الطفل: عندما أشبُّ أصبح غلاماً. ويقول الغلام: عندما أترعرع أصبح شاباً. ويقول الشاب: عندما أتزوّج، فإذا تزوَّج قال: عندما أصبح رجلاً متفرغاً، فإذا جاءته الشيخوخة تطلّع إلى المرحلةِ التي قطعها من عمره، فإذا هي تلوح وكأنَّ ريحاً باردةً اكتسحتها اكتساحاً. إننا نتعلمُ بعد فوات الأوان أن قيمة الحياةِ في أن نحياها، نحيا كلَّ يومٍ منها وكلَّ ساعة."

هذا هو جوهرُ الحياةِ، أمّا الذين أمسكوا سيقانَ الوردِ وقصُر نظرهم عن الوردِ، فليس لهم حظٌّ في ما أمسكوا سوى الشوك يشوكُ جلودهم. والذين تمضي

أيامهم دون تخطيط فلا حظَّ لهم منها سوى التعب والإنهاك والتّذمر. قال لي أحدهم: "إنني لا أشعرُ باليوم كيف يمضي، فينتهي بي دون أن أقضي منه مأربي، أو تحقيق هدف نافع."

الكثيرُ من النّاسِ يكون وراءَ تحرّكهم الذي لا يهدأ، وقفزهم الوثّاب الذي لا يتوقّف الشعورُ بالقلقِ والتّوتر، ففي ظنّهم أنّهم لو سكنوا إلى أهلهم لعطّلوا أعمالهم، ولهذا كان عذر بعضهم إن لامته زوجتهُ أو أحد أبنائه في أنّه لا يجلسُ معهم، ولا يشاركهم حياتهم، ولا يبلل أفئدهم بعاطفته، يكون عذره أنّه إنّما يفعلُ ذلك من أجلِ إسعادِ حياتهم بتوفير وسيلةِ المعاشِ لها، والضمانِ الماديِّ لهم. لكنّه نسي أنّه يخسرُ رصيداً كبيراً من العواطفِ الحميمةِ من رصيد حسابيه الأسري. كما غفل أن له قلباً يحتاجُ إلى رقيقِ الكلامِ، وصدق العاطفةِ، وحنوِّ المشاعر. فكيف به يخسرُ كل هذه الكنوز؟! يذكر روبين شارمان في كتابه "دليل العظمة"، أن رجلاً ثريّاً قال له: "إنني أملك من المال ما كنت أحلم به، لكنني حزين... حزين لأن زوجتي تركتني، ولا أعرف شيئاً عن مصير أولادي." فقال له روبين: "ذلك لأنّك أهملت أسرتك التي هي أهم مصدر للسعادة، وأغرقت نفسك في بحثك عن السعادة التي تظنها في المال."

أعجبتني رسالةٌ في بريدي تقول: "من التقاليد في الجامعات الأمريكية أن خريجيها يعودون إليها بين الحين والآخر في لقاءات لمِّ شمل ويتعرفون على أحوال بعضهم بعضاً. من نجح وظيفياً ومن تزوَّج ومن أنجب. وفي إحدى تلك الجامعات، التقى بعض خريجيها في منزل أستاذهم العجوزبعد سنوات طويلة من مغادرة مقاعد الدراسة وبعد أن حققوا نجاحات كبيرة في حياتهم العملية ونالوا أرفع المناصب وحققوا الاستقرار المادي والاجتماعي وبعد عبارات التحية والمجاملة طفق كل منهم يتأفف من ضغوط العمل والحياة التي تسبب لهم الكثير من التوتر وغاب الأستاذ عنهم قليلا ثم عاد يحمل ابريقا كبيرا من القهوة، ومعه أكواب من كل شكل ولون؛ أكواب صينية فاخرة أكواب ميلامين أكواب زجاج عادي أكواب بلاستيك وأكواب كريستال فبعض الأكواب كانت في منتهى الجمال تصميماً ولوناً وبالتالي كانت باهظة الثمن بينما كانت هناك

أكواب من النوع الذي تجده في أفقر البيوت: قال الأستاذ لطلابه: تفضلوا، وليصبَّ كل واحد منكم لنفسه القهوة، وعندما بات كل واحد من الخريجين ممسكا بكوب تكلم الأستاذ مجددا: هل لاحظتم ان الأكواب الجميلة فقط هي التي وقع عليها اختياركم، وأنكم تجنبتم الأكواب العادية؟ من الطبيعي أن يتطلع الواحد منكم إلى ما هو أفضل، وهذا بالضبط ما يسبب لكم القلق والتوتر، ما كنتم بحاجة اليه فعلا هو القهوة وليس الكوب، ولكنكم تهافتم على الأكواب الجميلة الثمينة، وبعد ذلك لاحظت أن كل واحد منكم كان مراقباً للأكواب التي في أيدي الآخرين، فلو كانت الحياة هي القهوة، فإن الوظيفة والمال والمكانة الاجتماعية هي الأكواب، وهي بالتالي مجرد أدوات ومواعين تحوي الحياة، ونوعية الحياة، القهوة تبقى نفسها لا تتغير، وعندما نركز فقط على الكوب فإننا نضيع فرصة الاستمتاع بالقهوة، وبالتالي أنصحكم بعدم الاهتمام بالأكواب والفناجين وبدل ذلك أنصحكم بالاستمتاع بالقهوة.

لا يُكسَبُ معنى الحياةِ من الغفلانِ عن الإستمتاعِ بلحظاتها، والمتعةُ لا تعنى هنا اتباعُ الهوى، والإنجرارُ وراءَ النوازع النفسيَّةِ، فهي لوحدها عذابٌ ومهلَكة، وإنّما الاستمتاعُ هو الشعورُ بالنّعمِ التي أنعم اللّه بها على الإنسان، فهو صحيحُ الجسدِ، معافى البدنِ، وهو مطمئنٌ في مسكنهِ، آمنٌ في موطنهِ، ولديهِ ما يقتاتُ به ويقيت أهله، وفي هذا سرُّ السّعادة، كما قال رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاةِ والسلام: "من أصبح آمناً في سربه، معافىً في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنّما حيزت له الدُّنيا بأظافرها."

لكنّك ترى بعض النّاس وقد خلطوا الفرحَ بالتّرح، فإن ظفروا بنجاحٍ لم يشكروا اللّه عليه، ويستمتعوا به، بل ينظرون بقلقٍ إلى المرحلةِ التّاليةِ، وإن فازوا بحظٍّ من المالِ، نظروا قلقين إلى ما يمكنُ أن يسلبهم ذلك المال، وهم على هذا الحال، لا يأنسون ولا يسعدون، كلّما منحوا رزقاً ونعمةً زادهم ذلك قلقاً وتوتُّراً، فهم ينظرون إلى ما لدى الآخرين، الذين يفوقونهم في الثروة والعمار. فأيُّ حياةٍ يعيشون، وأي سعادةٍ يأملون؟!

أن تجعل لكلِّ شيءٍ حقه، أن تهبَ كلَّ ما يهمُّك الاهتمام اللازم، أن تركِّزَ ذهنك وجهدك في مواضيع لها أثرٌ في حياتك، أن تخطّط ليومكَ قبل أن يبدأ، أن تستشعر معنى كلَّ ما تفعله، أن تقتنعَ أن لديك أشياء ليست لدى الآخرين وأنك متفوَّق بها عليهم، وأنهم يتفوقون عليك بأشياءَ لا تملكها، فتلك أمورٌ إن ظفرت بها منحتك الاتّزانَ والتوازنَ وتلك مبادراتٌ، إن حزتها وهبتكَ الاطمئنان الداخلي الذي هو في الحقيقة: السعادة ذاتها. يروي ستيف تشارلز في كتابه، "مائة طريقة لتحفيز نفسك"، مقولة الشاعر، وليام بليك: "عندما تسجن الفكر في كهوف، فهذا يعني أن الخوف سوف يغرز جذوره في جحيم عميق."

* * *

لا يمكنُ للحياةِ أن يكون لها معنى دون عواطف، العواطفُ هي العزفُ الجميلُ للقلوبِ، وموسيقى الانسجامِ والتناغم بين الأرواحِ، العواطفُ هي الجنانُ المزهرة في صحارى التعاملات الإنسانيَّة المقفرة. كيف يمكنُ لحياةٍ أن تنشأ دون عواطف؟ ما هو شكلها؟ وأيُّ لون يكسيها دون عواطف؟ إنّما هي الحقيقة، حقيقة أن كثيرين أهملوا العواطفَ، وأودعوها صناديق مقفلة في زاويةٍ منسيّةٍ من زوايا قلوبهم، فلم يعد لها متنفَّس، ولم يكترثوا للأصوات الرقيقةِ، والأنسام اللطيفة التي تنبثقُ منها بين فينةٍ وأُخرى، تائقةً للإنعتاق. لقد فضّلوا العيشَ في جديبٍ من الحياةِ مُقفر، بدل التفيُّؤ بظلال باردةِ النّسيمِ، نقيَّةِ الهواءِ، في أجواء رحبة. فهل الحياةُ هي التي فرضت عليهم هذا المسلك؟ ما أعرفه أن الإنسان لا الظُّروف هو المتحكّمُ في طريقة التّعاطي، واتخاذ الموقفِ، وسلوكِ المنهج. وإنّ إنساناً تحكم الظروف والمواقف ردّات فعله هو إنسانٌ لا يملك سلطةً على نفسهِ، كالذي تجرّه انفعالاته أينما تريدُ، وكيفما تشاء.

فكّرتُ في العواطفِ، في وقتٍ تهبُّ فيه سهوبُ الصّيف الساخنةِ، فكرتُ فيها كأنسامٍ تُنسي القلبَ، لفحَ الأجواءِ الخارجيَّة. فكّرتُ في القلوبِ العطشى للعواطفِ، في تلك الأرواح التي تسكنُ الجدران المنسيَّة، تلك المنزويةِ في غرفٍ مجهولة، وتلك الأرواح الهائمة الباحثةً عن المجهول الهلامي: المستقبل الجميل. تلك

الأرواح المحتاجةُ إلى العواطف كي تبلّلها، وتنفّس عليها بعض ضوائقها. وإذا كانت الحياةُ مليئةٌ بالعقباتِ التي تحتاجُ إلى كفاحٍ مريرٍ لتجاوزها، فإنَّ العواطف التي يمنحها النّاس لبعضهم بعضاً هي الوقودُ الناجع الذي يُشعل فتائل النور فيها، ويبقيها متوهجّةً مشتعلة. لكنني أستغربُ ترك كثيرين للعواطفِ فلم تعد حياتهم سوى سلسلةٍ من العيشِ المادي المليءِ بالحركاتِ المجرّدةِ والأفعالِ الجامدة التي فقدت بريقها السّحري ومصلها الفريد. يا لهذه الحياة! في حين، يتصنَّع بعضهم العواطف لأهدافٍ غير شريفةٍ، ومقاصدَ غير سويَّة، وهم بذلك يبرهنون عن خواءِ أنفسهم، وخلوِّها من صدق الجمالِ الذي هو ينبوع العواطف. هؤلاءِ يتزلّفون بتمثيلهم المصطنع كي يحظوا على مرادهم، ويغرّروا بآخرين يتوقون للرواءِ من العواطفِ، فيضلّلونهم، ويخدعونهم، ثم يتركونهم على قارعةِ الطريق، بعُقَدٍ لا تشفى، وجروحٍ لا تبرأ، تلاحقهم آثارها طوال حياتهم... يحطّمون لهم أحلامهم الورديَّة، ويوئدون أحاسيسهم الوليدة، ويقضون على براعم زهورهم الصغيرة.

لستُ أدري كيف تُعمرُ البيوت بدون عواطف. البيوت التي لا تتخايلُ فيها أنسامُ العواطف، ولا تتراقصُ فيها موسيقاها، ولا تسري فيها نغماتها هي بيوتٌ عقيمة، أشبه بـ "بكراجات" لتصليحِ عربات أو ماكينات. بيوتٌ لا يكون للهجسِ فيها نغمة، ولا للهمسِ فيها رقّة، ولا للحسِّ فيها سخاء، ولا للشعورِ فيها صفاء... بيوت ليس فيها سوى صناديقَ اسمنتيَةٍ جامدةٍ، وأبوابٌ مغلقةٌ، وأرواحٌ مكبوتة، تشعرُ بالاختناقِ من سجنِ الصناديقِ الاسمنتيّة، وتتوقُ إلى الانعتاقِ منها. وما كان للقلقِ أن يتسرّب في القلوبِ إلاّ لجدبها من العاطفة. وما كان للمرضِ أن يتحوّل إلى علّةٍ عضويّةٍ في كثيرٍ منه إلاّ لنقصِ العاطفة. يقول ديل كارنيجي راوياً عن ألفرد أدلر، عالم النّفس، أنه كان يقول لمرضاه الذين أصابهم مرض السوداء أو الملانخوليا: "بمقدوركم أن تتماثلوا للشفاء من مرضكم هذا في غضون أسبوعين، إذا جربتم هذه الوصفة: حاولوا في كل يوم أن ترفهوا عن شخص واحد."

فقد الكثير من العلاقات الزوجيّة العواطفَ في ما بينها حتى لم يعد يسري فيها ذلك النسم الباردُ المسمّى "الحب"، ولم تعد تكترثُ سوى لحياةٍ روتينيّة آليّةٍ

فارغةٍ من المشاعرِ، بليدةِ الأحاسيس، سادها الصّمتُ والجفاءُ والخواء، فاستسلمت لعادية الحياة، تمرُّ عليها المناسبةُ تلو الأُخرى وهي لا تلقي لها بالاً، ولا تسمعُ فيها نغماتُ الكلمات الرقيقة التي هي مفاتيحُ للقلوبِ ورواءٌ لظمئها وأكثر ضحايا هذا الجمود العاطفي هنَّ الزّوجات، هؤلاءِ الزّهرات الجميلات اللاتي لا يعشن إلاّ في دوارقٍ مليئةٍ بماءِ الحبِّ، فإن نضبَ، ذبلن ويبسن وتحوّلن إلى سيقانٍ ذاوية، ولم يعدن سوى أجسادٍ فارغة الأحاسيس. فكيف يمكنُ لبيوتٍ أن تقام، وعلاقات زوجيّة أن تدوم، في أجواءَ تحقق السعادة النفسيّة دون إشباعٍ الرغبةِ العاطفيّة؟

أُناسٌ كثيرون من جنسِ الرّجال متجهّمون، تغشى أنفسهم حدّةُ الطّبع، فهي أنفسٌ جافّة، لا تسعى في حياتها سوى للتعامل الماديِّ مع من حولها، أمّا العواطف، فهي في نظرها من قبيلِ التّرفِ، أو الصفات التي لا يجبُ على الرّجال أن يتّصفوا بها، فسادَ الصمتُ علاقاتهم بزواجتهم، وأبنائهم، وأصدقائهم، فإن اضطروا إلى التعبيرِ عن ثناءٍ أو إطراءٍ أو بعض عاطفةٍ كابدوا المرارةَ حتى لا تكادُ الكلمةُ أن تخرجُ من أفواههم، ولا تكادُ قسماتُ وجوههم تعبّر عن ما يختلجُ في قلوبهم من العواطف، فهم المستسلمون لأفكار قديمةٍ، خاطئة، وهم المؤمنون بأن مدح الرجال في وجوههم مذمّة. فما بالك بمدحِ الزّوجات! هؤلاءِ متبلّدون، جامدون، يعانون من خواءٍ عاطفي وأعظمُ دواءٍ لهم وعللهم هو تدريبُ أنفسهم على "الترفيه عن الآخرين"، كما قال إلفرد أدلر وحملها على التعبير العاطفي، وتدريبها على الكلمات الجميلةِ، والإطراءِ الحسنِ، وإسعادِ الآخرين بالحديثِ إليهم قبل إغراقهم بالمال. وإذا كانت الابتسامة صدقةً في ديننا الحنيف، فأصلُ هذه الابتسامة عاطفةٌ نقيّة تدفعُ بها إلى صفحاتِ الوجه. فلو التزمت القلوبِ بهذه الصدقة الجميلة لكان لحياتها معنى يعمّ الآخرين من حولها.

بين الأشياءِ والأفكار!

نحنُ جزءٌ مما يحدثُ في العالمِ، فقد أصبحنا – كغيرنا – حلقةً في سلسلةٍ طويلةٍ لكنّها تتأثّرُ بأيّ عاملٍ من العوامل، ولا منجاةَ لدولةٍ أو لشعبٍ من هذا التأثير والأزمةُ الماليَّة أو الاقتصادية بالأحرى، التي تتقاسم دول العالم تأثيراتها، هي أكبرُ دليلٍ تاريخيٍّ على هذا التأثُّر. ليسَ تأثُّراً عاطفيّاً، وإنّما تأثراً ماديّاً في جوانبَ مختلفةٍ، لكن ما الذي غيَّر هذا التأثُّر فينا؟ هل تعلّمنا شيئاً في الإقتصادِ، وفي إدارةِ شؤوننا الماليّة؟ هل راجعنا سلوكياتنا في ما يخصُّ طرق اقتناءِ الأشياءْ وتكديسها؟ هل راجعنا عاداتنا في الشراءِ، وفي النظرةِ إلى "الشيء"؟ لا أعتقدُ ذلك، على الأقلِّ، عند السوادِ الأعظمِ من النّاس. هؤلاءِ الذين يتركون للصُّدف أن تلعبَ دوراً في حياتهم، وللرياحِ أن تسيِّرهم في هياجٍ أو هدوء. هؤلاءِ الذين يصرفونَ أموالهم حينما تمتلئ جيوبهم، ويُحجمون – أو يستدينون – حينما تفرغ. كثيرون صحوا في فترةٍ سابقةٍ على غلاءِ كلِّ شيءٍ، وهم معدمون من المال، فأمسوا أغنياءَ لأنّهم باعوا أراضيهم بأثمانٍ خياليّة، وحدث لجبٌ وصخبٌ، هذا يبيعُ وهذا يشتري، وذاك يبحثُ عن فرص، وانتعشَ السماسرةُ، وارتفعت أسهمهم، وأكثر كثيرهم من الحلف والقسم لينالَ حصّته من هذا الكنزِ الذي نزلَ فجأة... ثم ولّت تلك الفترةَ وأعقبها محولٌ وقحط. ألا يذكّرنا ذلك بالفترةِ التي تولّى فيها النبي يوسف عليه السلام وزارة الإقتصادِ في مصر؟ سنواتٌ خصبة، تلتها سنوات جدب. لكن السرَّ الذي جاءَ به النبيُّ يوسف عليه السلام يكمنُ في: الإقتصادْ! في حين أن الكثير من الناس في مجتمعاتنا ينسون أن الأيامَ دول، وأن لكلِّ خصبٍ محول، وكلَّ اخضرارٍ يتبعهُ يباس، فتجدُّ في تكديسِ الأشياءِ، جدّاً حثيثاً، وتطلبها طلباً ملحّاً. يقول الفيلسوف مالك بن نبي: "إن قيمة مجتمع معين، في فترة ما من تاريخه، لا يعبر عنها بمجموعة الأشياء في هذا المجتمع، ولكن بمجموعة أفكاره." هذه الأفكار المقصودة هي التي تقنِّن عمليةَ اقتناءِ "الشيءِ" وتضعُ له شروطه وقوانينه.

أغلبنا يهرعُ وراءَ "الشيء" لاقتنائه، ولا يُدركُ مزاياه، ولا يعقدُ المفاضلات بينهُ وبين شبيهه، ولا يسألُ نفسهُ عن مدى حاجته إليه. إنّما تقودهُ الأهواءُ، أو الرغبات، أو العادات. انظر إلى هذه الأفواجُ من الناس التي ترتادُ الأسواق، وهي تسعى لاقتناء الأشياء، واسأل نفسك: هل هم موجودون بالفعلِ لأنّ حاجةً دفعتهم لذلك؟ وإذا كانت هناك حاجة – وهي في الغالب كذلك – فهل عرفوا إلى أيِّ مدى هم "محتاجون" للشيء الذي سعوا وراءه؟ فقد تكون حاجةً وقتيَّة، ثم تُتركُ الأشياء، أو حاجةٍ غير مؤسّسةٍ على تفكير، أو تصوّر ثم يعقبها ندمُ الشراءِ. لا يسأل كثيرٌ من الناس أنفسهم وهم يقتنون "الأشياء" هل هي مناسبة، لماذا هذه تحديداً؟ لماذا ليس غيرها؟ ما الذي يميّزها عن سواها؟ ما هي فائدتها؟ أسئلةٌ كثيرة، لكنّها ضروريّة، لو أراد الفردُ أن يحكمَ عقالَ أمره، ويديرَ بكفاءةٍ ماله.

لقد أعجبتني نصائح رجلٌ من أغنى أغنياء العالم، الملياردير "وارن بافيت Warren Buffet" حين يقول: المال لا يصنع الرجل، بل الرجل هو الذي يصنع المال. عش حياتك بكل بساطة وعفوية. لا تنجرف وراء الأسماء التجارية، والبس ما تشعرُ نحوه بالارتياح (وهذه نصيحةٌ هامّة). لاتضيع نقودك في أشياء غير ضرورية، وانفقها فقط في الأشياء الضروريّة (وهذه نصيحةٌ أهم). هذا رجلٌ إستطاع أن يكوّن في سنواتٍ معدودة رأسمالٍ قدره 100 مليار دولار، دون أن يرث غنى، أو أن يتولى تجارة عائليّة. لكنّه مع هذه الثروة الطائلة لا زال يسكنُ في نفس البيت المكوّن من ثلاث غرف في وسط بلدة أوماها، الذي اشتراه بعد زواجه منذ 50 عاماً. بيتٌ لا يحميه سور أو جدارٌ خارجي. يقودُ سيارته بنفسه، وليس لديه حرس، ولم يسافر بطائرةٍ خاصة بالرّغم من أنّه يملك أكبر شركة طيرانٍ في العالم. قد يقول عنه بعض النّاس للوهلةِ الأولى إنّه بخيل. وهنا أذكر إجابةً عن هذا السؤال تبرّعه لمؤسسة "بيل غيتس" الخيرية بمبلغ 31 مليار دولار، وهو ما يوازي 80٪ من ثروته فهل هذا بخل؟!

النصائح والمسلكيات التي ينتهجها "وارن بافيت" هي في صميم ديننا نحن اللاّهثين وراء المظاهر، والمكتّزين للأشياءَ، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ الأعراف/31، ونبيّنا الكريم قد بيّن أساساً هدفهُ الاقتصادُ وتوطيد شبكةَ علاقات المجتمع بقوله: "من كان له فضلُ زادٍ فليجد به على من لا زاد له." فهل يتفضّل الجارُ عندنا بالشيءِ "الزائد" على جاره؟ وما مؤاخاةُ الأنصار والمهاجرين إلاّ أبلغ مثلٍ على ذلك. في إحدى الدول الغربيّة، تقومُ جمعيّاتٌ بتجميع "الأشياء" من الناس، ثم ترسلها إلى دولٍ أفريقيّةٍ خصوصاً، تخدمُ به الإنسانيّة، وتهدفُ به إلى خدمةِ التبشيرِ في تلك الدول.

أمّا نحنُ فغنيُّنا يكدِّس، ولا يشبعُ من التكديس، يتزوّد بما ينفعهُ وما لا ينفعهُ، وتزدادُ حمّاه، ويلهثُ قلبه كلّما زارَ مدناً عالميّة كلندن، حيثُ يشهدُ عليه مركز "هارودز" الشهير. أخبرني طبيبٌ صديق، كان في دورةٍ تدريبيّةٍ في إحدى العياداتِ البريطانية، أن إحدى الخليجيات قد غضبت عليه حينما قال لها ناصحاً: من الأفضلِ لك أن تقومي بإجراء عملية تجميلِ الأسنان في بلدك لأنها هنا ستكلّفكِ 10 آلاف جنيه إسترليني. ولأنّها كان مدفوعةً بالمظاهرِ والتفاخرِ كي تزعم لاحقاً أنّها أجرت عمليه تجميل أسنانٍ في بريطانيا، لم تستمع لنصيحةِ طبيبٍ يعرفُ سرَّ المهنةِ، ويريدُ أن يُسدي النصيحةَ المخلصةَ لها، بل على العكس، رأتها تدخّلاً سافراً في شأنها. ولعلّ إجابةَ هذه تشبهُ إجابة كثيرين نُصحوا بعدم شراءِ أشياءَ فصرخوا منزعجين: هل المالُ مالكم؟ ظانِّين أنّه الحسد، وما هو إلا الحرصُ عليهم. وإذا كنتُ أتحدّثُ عن تصرّفات الكثيرِ من الأغنياءِ لدينا، فلا بد أن أتحدث عن سلوكياتِ بعض الفقراء، فهم أيضاً لا يملكون الطريقةَ المُثلى التي تقودهم لإقتناءِ "الشيء". تجدُ الواحد منهم يتّبعُ المثل القائل: "انفق ما في الجيبِ يأتيك ما في الغيب." وهذا مسلكٌ خاطيء إلاّ أن يُنفقَ لخير، أو صدقة " فما نقصَ مالٌ من صدقة"، حديثٌ شريف. وهم إن وقع بعضُ المالِ في أيديهم سارعوا إلى اقتناءِ "أشياءَ" لا يحتاجون إليها، أو هي غير ذات نفع لهم. وإذا فرغت أيديهم من المال، توجّهوا إلى نقدِ الأغنياءِ المبذّرين. وهم في هذا المسلكِ سواء، فكما قال "وارن بافيت": المال لا يصنع الرجل، ولكن الرجل هو الذي يصنعُ المال. هذا الرّجل الذي اقتنى أرضاً وهو صبي، عاملاً بمثلنا الشعبي القائل: "اذخر دك ولا لكّ" أي امتلك أرضاً واجعلها سنداً لك، أفضلُ من امتلاكك لنقودٍ كثيرة. إنّما كثيرٌ من الشباب، سارعوا فور حصولهم على قطعة الأرضِ ببيعها بثمنٍ

بخسٍ، ثم تبخّرت نقودهم في أشياءَ لا يلمسونها، ثم عادوا ينـدبون حظوظهم بعد فوات الأوان. لكنَّ أحد الأصدقاءِ الذين كانوا ممن باعوا أراضيهم – اليتيمة – استشارني سائلاً: هل أزيدُ على ثمنِ الأرضِ واتزوّج، أم أواصلُ دراستي في كليّة خاصّة؟ قلتُ له : بل العلمُ هو خيارك الذي أجدهُ لك، فبه سيتحسّنُ مستواك المعيشي وحينها تستطيعُ أن تعيش مع من اخترتها رفيقةً لحياتك عيشةً هانئة.

لقد شهدتُ مسلكَ امرأتينِ عربيّتين: الأولى لا تتبعُ أسماءَ (الماركاتِ) الكبيرةِ في انتقاءِ ملابسها، بل تتّجهُ إلى الأسواق الصغيرةِ أو التي تبيعُ الملابسَ بأثمانٍ أرخص، أمّا الثانية: فهي لاهثةٌ وراءَ (الماركات) والأسماءِ اللّامعة، وحين تلتقيانِ تسألُ الثانيةُ الأولى وهي تشاهدُ – بإعجابٍ – روعةَ التناسقِ: من أينَ اقتنيتِ هذه الملابس؟ إنّها الفكرةَ والذّوق، وليست النقود ولا "الماركات".

إننا بحاجة إلى مراجعةٍ في حياتنا الاقتصادية وأمورنا الماليّة، لأنَّ المالَ هو أمانة قبل كلِّ شيء، إلى التثقّفِ الاقتصادي، إلى إدارة شأنَ أنفسنا، إلى إدارة شأن بيوتنا من هذه الناحيةِ، وفي هذا الصَّدد فإن المرأةَ يجبُ أن يُناطَ لها مسؤولية البيتِ وإدارةِ شأنهِ الاقتصادي فهذا أجدى لها من أن تقوم بواجبِ الاستهلاك. فمن لا يُكوّن ثقافةً، من لا يُحسنُ الانتقاء، من لم يشاهد ما يقارنه، من لا يعرفُ قيمته لن يكون مكترثاً بقدرِ من يعرفِ كلَّ ذلك. وهنا أُشفق على كثيرٍ من الرّجالِ وقد تولّوا أدوار التّسوق الاستهلاكي بدلاً من زوجاتهم. في حينٍ أرى أن طبيعةَ المرأةِ، التي تتسّم بالهدوءِ والصبّر، تساعدها على عمليةِ الانتقاءِ والمقارنةِ بشكلٍ أفضلُ بكثيرٍ عن الرّجل العجول في طبيعته.

نحنُ ـ كبشر ـ فقراءُ في الاقتصادِ، لكنّنا خبراءُ في الإقتناءِ والتكديسِ والتّخزين، ولا يعوزنا في هذا الخللِ الفكرة، وإنّما العمل، الذي يُبلوّر الفكرة إلى واقع. يقول مالك بن نبي: "إن الذي ينقص العربي ليس منطق الفكرة، لكن منطق العمل والحركة، وهو لا يفكر ليعمل بل ليقول كلاماً مجرداً، بل إنه أكثر من ذلك يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً ويقولون كلاماً منطقياً من شأنه أن يتحول في الحال إلى عمل ونشاط." وهو كلامٌ عامٌ نجدهُ يحتوي هذه الفكرة.

أمـوالٌ تُـصرفُ بـلا حاجـاتٍ فعليّـة، و"أشـيـاءَ" تُقتنـى بـلا ضـرورةٍ، ومكـالمـةٍ هاتفيّةٍ تُجرى بلا طائلٍ ولا جدوى، ومشاوير تُقضى بلا منفعة، وكلّ هذه الأشياء لا تُفضي إلاّ إلى تراجيديا كما حدث مع "جوان كونان Joan Cunnane " ذات السبعة والسبعون عاماً، من سكّان مدينة هيتن مرسي Heaton Mersey البريطانية. فقد اشتهرت هذه المرأة بإدمانها التسوُّق Shopaholic وذلك بإقتنائها للأشياءِ بشكلٍ جنوني، حتى غصَّ بيتها بـ (الماركاتِ) من كلِّ صنفٍ ونوع. لكنّ نهايتها كانت بما جنت يديها، إذ سقطت عليها مجموعة من الحقائبِ المكدّسة فدفنتها حيّة. وحينما دخل فريق التحقيق بيتها وجد كنزاً من الأشياء الثمينة يحتوي على مظلاّت وشموع، وأدوات زينة وجواهر وحليٍّ وملابس وأدوات كهربائية وركام من أشرطة الفيديو، أغلبها لم يُفتح.

قيمة الاحتفال

الاحتفال ثقافة، ثقافةٌ لأنّه يجسِّدُ عاداتٍ وتقاليدَ وممارسات، ثقافةٌ لأنّه يلخِّص أحاسيس ونظراتٍ ومواقف، ثقافةٌ لأنّه يوجزُ ملامح الهويّاتِ ويبيِّن شكلَ الخصوصيَّات. هو تعبيرٌ عن مناسبةٍ ما بصورةٍ من الصُّور تنمُّ عن مستوى إدراكِ الشُّعوب بأهميَّةِ المناسبةِ وقيمتها التاريخيَّةِ والنفسيَّةِ بالنسبةِ لهم، وهو تقليدٌ متوارثٌ في الكثيرِ منه قاصداً إلى إحياءِ أمجادِ الأمّةِ لتأصيل الهويَّةِ، ولفت النّظرِ إلى الجذور الثقافيةِ لربط الأجيالِ بالقيمةِ التاريخيَّةِ لهذه المناسبة، وهو طقسٌ اعتياديٌّ يقصدُ منه الإشارةَ إلى نصرٍ أو بطولاتٍ سابقةٍ، وهو تمجيدٌ لتضحياتٍ قامَ بها جنودٌ أشاوس ذهبت أرواحهم فدى لأوطانهم، وهو تقليدٌ ديني لإحياء مناسبةٍ دينيّة يقصدُ من ورائها تدبُّر الموعظةِ واستلهام الحكمةِ وتعلّم دروس العبرة.

وفي الوقتِ الذي تحتفظُ فيه الكثير من الشعوبِ باحتفالاتها، أجدُ أنّنا فقدنا ثقافة الاحتفالات. فكلّ عيدٍ يأتي ولسانُ حالنا يردِّد مقولةَ المتنبي:

عيدٌ بأيِّ حالٍ جئتَ يا عيدُ بما مضى أم لأمرٍ فيه تقليد

وليتهُ كان تقليد الآخر للأوّل، بل أنّ كلَّ عيدٍ يأتي يرافقه ضعفُ الشُّعورُ به. لقد فقد أغلبنا قيمة الاحتفال، والتلذُّذَ به، لأننا فقدنا الثقافةَ، التي تعلّمنا كيف نحتفل. فأصبحت أعيادنا صوراً ظاهريّةً خاليةَ من الحسِّ العميقِ بمعانيها، صوراً تزيّنها الهيئاتُ الظاهريّة القشيبةِ، إنّما هي خاليةُ الجوهر من معاني المناسبةِ. فالأعيادُ الدِّينيّةِ لها معانيها العميقةِ، والرّموز التي لها مدلولاتها في الإيمانِ معتقداً وسلوكاً، كمعاني التضحيةِ والتكبيرِ وصلاةِ العيدِ وغيرها، لكن غاب الكثير من معانيها، وبقيت الأعيادُ مجّردةً إلاّ من المظاهر، كأنّها انفصلت من قيمتها ومعانيها. فعيدُ الفطرِ في العرفِ الاجتماعي كأنّه مناسبةٌ

لا تخصُّ الصيام، ولا ترتبطُ به. وعيدُ الأضحى كأنّه لا يخصُّ الحجَّ الأكبرَ والأضحية. تحوّل تفكيرنا من جوهرِ هذه المناسبات إلى مظهرها، إلى الملابس الجديدةِ وتوابعها، إلى اللّحومِ التي، وإن كان لها مبرّرها الاقتصادي في الغابر من الزّمن لأن الناس كانوا ينتظرون الأعيادَ ليبيعوا أو يشتروا الدواب، ويقتنون اللّحوم، بسبب ضنكِ المعيشةِ إلاّ أنّها فقدت مبرّراتها – من وجهة نظري – في هذا العصرِ بسبب القدرةِ على الحصول على اللّحم في الوقتِ الذي يشاءُ فيه المرء ويرغب. وقد تغيّرت الحكمةُ من وراءِ الأضحيّةِ فتعدّدت إلى أضاحيَ تراكمُ ديوناً، وترهقُ أنفساً، وتوصبُ أجساداً. لقد فقدنا العفويّةَ في هذه المناسبات، وإذا نظرنا إلى الصور الاجتماعية السابقة، نجدُ العفويّة متجلّية، حيث تتناهى من البيوت أغنياتِ العيدِ التي تترنم بها النسوةُ، ويردّدها الأطفال، وتنشغلُ البيوتُ بالإعدادِ للعيدِ، فتصبحُ القريةُ كلّها مهرجاناً اجتماعيّاً، يهيّأُ للفرحةِ أن تأخذ شكلها المناسب، واللائق للاحتفالِ بالمناسبة، ويخرجُ الجميعُ رجالاً ونساءاً وأطفالاً مكبّرين ومهلّلين نحو مصلّى العيدِ خارجَ القريةِ، وهناك يُلقي الخطيبُ خطبةَ العيدِ التي يستمعُ إليها الرجالُ والنساء، ثم يشتري الأطفالُ ما يشترون، ويتناولون وجبات العيد الشعبيّة، وتهزجُ الأصواتُ بالفنون التقليديّة المعبّرة عن شتى المواضيع الإنسانيّة، وتقام المسابقات المختلفةِ كسباقات الخيولِ والجمالِ، والأهمُّ من كلِّ ذلك إدراكُ الحكمةِ من العيدِ، وفهمُ العبرةِ من الاحتفال به بعفويّةٍ عذبة. فأين أصبحنا اليومَ من هذه المظاهر؟ نعم تغيّر الزّمن، وتغيّرت الأحوال، ولم تعد القرى هي ذات القرى، ولكن لو كان لدينا الحماس كي نحتفل، لو كانت لدينا الثقافة كي نمارس الاحتفالات، لشكّلت في كلِّ ولايةِ لجنةُ احتفالاتٍ تجتمع لتقرِّر مظاهر الأعياد، وأمكنتها، وكيفيّةِ تنظيمها، وضمان نجاحاتها. لكن لا أحد يجتمع، لا أحد يتناقش في كيف يمكن أن يكون الاحتفال، وتتركُ الأمور للقرارات الفرديّة، التي تضعفُ شيئاً وشيئاً.

في الأعيادِ الوطنيّة، كان الوطنُ يلبسُ حلّة أنيقةً، رائعة، كانت البيوت تتزّينُ بالألوان الثلاثةِ المثلّثةِ أو ترفرفُ في سطوحها الأعلام، وتُنصبُ في الشوارع الأقواسُ الجميلةُ والأعلام، وتقامُ الاحتفالات الشعبيّة، فتتّحدُ الأيّام، والأمكنةُ

والنفوس لتصنع لوحةً وطنيّة ذاتَ بُعدٍ وطنيّ جميل. أمّا اليوم، فقد اختصرت الاحتفالات، واختزلت في زاوية استوديو تلفزيوني يتلقّى فيه مقدّموه التهاني المعتادة. ولولا أنّ المشاريع التي تُفتتح في هذه المناسبة الوطنيّة وما يصاحبها من احتفالات لندرت وبقيت احتفالات السفارات والقنصليات الرسميِّة بالمناسبة. حتى الشوارع التي كانت ترفل بزينتها الجميله، وحللها المضيئة، وأنوارها البرّاقة، اختفت في مناسبات الأعياد. مناسبةٌ وطنيّةٌ كهذه لها أثرٌ تاريخي في حياتنا من الواجبِ أن نقدّم لها ما تستحقّه من الاحتفالات النفسيّةِ والاجتماعية الراقيةِ التي تعطي مدلولها، وتعلّم الأجيالَ معاني الإنجازِ، ودلالاتِ العمل، وأهداف الطموح. إنني وأنا أشاهدُ بعض ما ينجزُ في احتفالات دولٍ أخرى من بعض الاحتفالات العفويّة لأشعرُ بأننا نحن أيضاً يجب أن نتهيّأ لاحتفالاتنا الوطنيّة بأكثر من ذلك.

تمرُّ علينا مناسباتٌ، كالمولدِ النبوي والسنةِ الهجريّةِ والإسراء والمعراج، فلا نعرفُ كيف نحتفلُ بها وإنّما يفكرّ كثيرون منا أين سيقضون إجازاتهم التي يحصلون عليها بسببٍ هذه المناسبات. والإجازةُ في أصلها للاحتفال بالمناسبة، والاحتفال بها يعني تدبُّر الحكمةِ من ورائها، والأثر الذي يجب إتباعه، والموعظة التي يجب استلهامها. ويأتي رمضان الكريم فيعيينا الاحتفال به فيمرُّ مرور الكرام. نستقبلُ رمضان بقائمةٍ طويلةٍ من المسلسلات والبرامج والدوريّات الرياضيّة، والخيام. في حين أننا نتوق إلى أن نسمع الأجواء تصدحُ بالذّكرِ الحكيمِ والأناشيد الدينيّةِ أو المظاهرِ التي تليقُ بهذا الضيفِ الكريم.

إن ما يبهرني هو تمسّك الشعوب المتقدّمة في حضارتها، فهي وإن غيّرت الأنماط الحياتية الحديثة ملامح ثقافتها، وبدّلت مظاهرها الاجتماعية إلاّ أنّها لا تزال تتمسّك باحتفالاتها، وهي احتفالاتٌ مستمرّةٌ من مئات السنين بتقاليدها المتعارفة وكأنّها نسخٌ متواليةٌ تتجدّد مع كلِّ عام، في هامبورغ بألمانيا مثلاً يحتفل الألمان بإفتتاح ميناء هامبورغ منذ أكثر من ثمانمائة عام. وفي بريطانيا يحتفلون من عشرات ومئات السنوات بمناسبات مختلفة كـ "الهالوين Halloween" حيث يزين الفضاء بالألعاب الناريّة اللامعة، وكـ "ذكرى المقاتلين في الحرب العالمية الأولى" حيث يستذكر الجنود البواسل الذين كتبوا بدمائهم النّصر فحقّ

الاحتفاءُ بذكراهم، لتكريس ثقافة حبّ الوطن، وافتدائه لدى الناشئة. وفي فرنسا يحتفلون بالثورة الفرنسيّة، وانتصار الحلفاء، مناسبات تتكرّر كلُّ عام، وفي سبيل الإعداد لها تجد الأسواق وقد عرضت الكماليات "الإكسسوارات" التي تستخدمُ في هذه المناسبة، ولأجل الاحتفال بعيد الميلاد "الكريسماس Christmas" تجدُ الأسواق، والمنازل والشوارع وقد تزيّنت بالأضواءِ الجميلةِ، والزينةِ الباهرةِ، ويصطحب أطفال المدارس للكنائسِ للغناءِ الديني، وتصدر المطابع تهاني العيدِ حاملةً رسومات الأطفالِ أنفسهم حول مناسبة العيد ليهدوها للآخرين، وتشترى هدايا العيد للأطفالِ والكبار.

إن ما أحاول قولهُ هنا هو أهميّة الاحتفال، ولا يُفهمُ الاحتفال – كما يظنُّ بعضهم – هرجٌ ومرج، وإنما إدراكُ معاني المناسبة والتهيؤ لها بما يليق بها من مظاهر، ويتوافقُ مع رمزيتها، وذلك لتكون جزءاً من الثقافةِ، محقّقاً لأهدافهِ التي أقيم عليها الحفلُ في أول مرّة إلاّ إذا كان عبثاً وبدعة.

إن الفوضى التي تعمُّ الأسواق، والتسارع في شراءِ الملبس الجديدِ، وإراقة دماءِ الدّوابِ في كلِّ زاويةٍ، والزيارات الخاطفةِ للأهل والأصدقاء، وتسريح الأطفالِ في الشوارعِ لطلبِ العيديّةِ دون تعليمهم حتى تهنئة العيد، كلُّ هذه المظاهر ليست معبّراً عن الفرحةِ بالأعياد، ومجسّداً للإحتفالِ بها، إنّما المعبّر هو التضامنُ والتكافل الاجتماعي، والاحتفال الشعبيُّ في لقاءات اجتماعية، وشعبيّة تعطي المناسبة دلالتها، هو التهاني الصادقةُ بالعيدِ، والقلوبُ الصافيةُ المشاعرِ، وليست تلك المليئةُ بالحقدِ والضغينةِ والكراهيّة تسترها الثياب الناصعةُ البياضِ، والأسنانُ البيضاء اللّامعة.

وإذا كان لكلِّ شعبٍ ومجتمعٍ احتفالاته التقليدية المتوارثة، فإن الغريب أن ظاهرة الاحتفال بمناسبةٍ غربية قد بدأت في الانتشارِ في بعض المجتمعات الإسلامية، كالاحتفال برأس السنة الميلاديّة واحتفال عيد الحب "الفالنتين valentine's day " حتى أنني سمعت حلقة خاصة في إحدى القنوات الإذاعية المحلية لدينا خصّصت للاحتفال بعيد الحب. وعلى الرّغم من اتّفاقي مع المضمون إلاّ أن الاحتفال به في مناسبةٍ معيّنة هو تقليدٌ لثقافةٍ أخرى أوجدته لندرتهِ أو للتذكير

بـه، والتـصديق عليـه وتثبيتـه سـيقودان إلى اعتمـاد مناسـباتٍ أخـرى لا تمـتُّ لخصوصية مجتمعاتنا بصلة. يقول أحد الصينين: "إن كثيراً من مظاهر الاحتفال الغربية قد بدأت في الانتشار بالصين، وهذا راجع لسببين أولاً إنفتاح العالم وانبهار الصينيين بالجديد من التقاليد سيما تقاليد الاحتفالات الغربية، ثانياً: أن التقاليد الصينية لا تجد الاهتمام من قبل المجتمع والحكومة في الصين ولذلك لا يدرك الناس قيمة التقاليد ويصبح إهمال الاحتفالات التقليدية مألوفا."

إن أبسط أشكال الاحتفال عندنا هو التّزينُ للصلاة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ الأعراف/31، فهي منطلقُ كلُّ فرح، وأكبرها هو حج البيت الأكبر، وإذا كانت الزينةُ هي ما تشتهيه الأنفسُ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ آل عمران/14، فإن عدم إدراك مقصد الزينةِ، وهدف التّمتع هو في الجانب الآخر الذي يقودُ إلى الإسراف ﴿زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يونس/12. لكنّنا أفرغنا حتى شعائرنا الدينيّة من محتواها قبل أن نفرغ مناسباتنا الاجتماعية.

تمرُّ علينا مناسبات مختلفة فلا نعرف كيف نحتفلُ بها. صعبَ علينا إدراك مغازيها. أهملنا قيمة الاحتفال بها. لم نكترث بالتخطيط للفرحةِ لها، وإنما ارتضينا أن تغور البهجة من الصدور لتبقى فقط المظاهر الشحيحة، المبتسرة التي يحقّ لنا أن نقول فيها: عيدٌ بأي حالٍ جئت يا عيدُ؟

الذين من حولنا

الاستشعار بالبشرِ من حولنا أمرٌ بالغُ النُّبلِ، والإحساسُ بقيمتهم فضيلةٌ من فضائلِ العطاءِ والسَّخاء. وكلّما ازدادَ الاستشعار بالآخرين القريبين، زادَت العاطفةُ، وتوطّدت الأواصرُ، واتّحدت القلوب، وسعدت الأنفس، وتآنست العقول، ورغدَ العيشُ، وهدأت وتيرةُ الحياةِ المقلقةِ، وضجيجها الصاخب... ذلك لأن الإنسانَ كلّما استشعرَ بوجودِ آخرين قربهُ يولونه الاهتمام بوجوده، ويحسِّسونه بقيمةِ إنسانيتهِ، ويجلّون قدره، انسابت الطمأنينةُ في نفسهِ، وتخللّ الرّضا خلاياه، وسكنت السعادة ثناياه.

إن مبلغَ الشقاءِ لدى كثيرٍ من النّاسِ هو في قفزهم الدائرةَ القريبةَ منهم، إلى آخرين خارجها يغدقون عليهم العطاءِ والنّوالِ، في حين يتجاهلون أقرب النّاسِ إليهم وهم أحوج، ويهملونهم وهم أقرب. بعيدون عنهم في تفكيرهم وقلوبهم، وقريبون منهم في أجسادهم. يتركونهم والأسئلةُ تلجُّ في صدورهم: لِمَاذا لا يشعرونَ بوجودنا، أو لسنا أحقَّ، أو لسنا أقرب؟

رأيتُ من هؤلاء الكثير، وسمعتُ عنهم الكثير. ويسألُ الإنسانُ ما السّبب الذي يحدو إنساناً أن يتجاهلَ وجود الأقربين إليه – ولا أقصدُ بالأقربين أولي الأرحام وحسب، بل وحتى من يخدمونه – فلا يُقيمُ لهم وزناً، ولا يُعلي لهم قدرا؟ إنّه التعالي الإنساني الذي يُعمي الإنسانَ عن رؤيةِ فضائلِ هؤلاءِ النّاس، وما يكنّونه في صدورهم من أحاسيس، وما يحملونه من أفكار. هؤلاءِ الناس المحيطون، الذين يقلّل أقربُ النّاس من قدرتهم وأقدارهم، هم الأولى بالعنايةِ، والأجدر بالحظوة، لكنّ من يتجاهلونهم لا يسرّهم أن يبوحوا إليهم بمكنون صدروهم وهم أولى، بل يفتحون أبوابها لأغرابٍ لا تربطهم بهم رابطة، فيبوحون لهم بما يفترضُ أن يبوحونه إلى خاصّةِ الخاصّة، حتى يقعوا في الأفخاخ، فيجدوا أن مالكي أسرارهم إنّما هم من زمرةِ الأفّاقين المخادعين، وحينها تكون

أسرارهم ملكاً لهؤلاءِ الأغراب. وتلك نتيجةٌ طبيعيةٌ لخطأً متعمّد. وحينما "يقعُ الفأسُ على الرأس"، و"يسبق السيفُ العذل" فلا مناصَ من مواجهة الحقيقة، ولا مهربَ من التّعثُّر وحصادِ نتيجةِ الخطأِ الفادح.

والمتجاهلون يتركون رفقةَ الأقربِ إلى مصاحبةِ الأبعد، والتّصدق للبعيدِ بدل القريبِ، والبوح للمجهول بدل المعلوم. ونبيّنا الكريم، عليه أفضل الصلاة والسّلام، يقول: "خيركم، خيركم لأهلهِ وأنا خيركم لأهلي." لكنَّ ذلك لم يمنعهُ من الإحسان لزيد وهو مولى حتى زوّجه إحدى قريباته. كما أن أنساً خادم رسول الله يقول: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط لشيء فعلته: لماذا فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: لماذا لم تفعله؟ كيف كان يأمره وينهاه وهو خادمه؟ كيف لم يقل له: لماذا فعلت؟

لكن كثيرين منّا قفزوا هذه الدائرةَ لأن أنفسهم قد أشعرتهم بأنهم يمتلكون زمام أمورٍ من في ربقتها، وأنّهم في حسبةِ الطاعةِ لهم، لكن الأدهى والأمرَّ هو شعورهم بأن سكّان هذه الدائرة القريبة أناسٌ لا علمَ لهم يُنتفع به، ولا رأي لهم يستنار به، ولا صحبةَ تُفيد. وما أن تدورُ دائرةٌ، أو تحينُ صدفةٌ تلجئهم إلى فردٍ من هذه الدائرةِ القريبة، حتى يكتشفوا الخطأ الجسيم الذي أوقعوا أنفسهم فيه، وحينها يسألون أنفسهم: أين كنّا من هؤلاء؟ أو أين كانوا منّا؟ وقد شهدتُ على كثيرٍ من النماذجِ من هؤلاءِ المتجاهلين، فأحدهم يطلبُ نجدةَ الآخرين الأغرابِ حول أمرٍ يتعلّقُ بأهلِ بيته، ويترك ناصحين، راجحي عقولٍ، أصحابُ مودّةٍ وقُربى، هم أقربُ نجدة إليهِ وأرقُّ نفساً لأهلَ بيته. وآخر يجود بالعطاءِ إلى امرأة بعيدةٍ في القربى، ليست ذات حاجةٍ في الوقتِ الذي يتجاهلُ فيه حاجةَ أمّهِ إلى عطائهِ، وإحسانهِ. وآخرَ لا يُلقي بالاً لأبنائهِ في مشورةٍ، ولا في رأيٍ وهم أصحابُ تجربةٍ، وأهلُ مشورة. من هؤلاءِ أبٌ كان يبخس قدر ابنهِ، ولا يقيم له وزناً، حتى سمع ذات يومٍ بامتداحِ النّاس لابنهِ وثنائهم عليه، حينها بدأ يقدّرهُ ويحترمه. وهذا يذكّرني بقصّة المعلّم الذي كان يحطُّ من قدر تلميذه، فلا يرى منه إلا الفشل، فكتب إليه هذا البيت:

صُبّ المعاني في قوالبها ... وما عليَّ بما لا تفهمُ البقرُ

فردَّ عليه التلميذ الذي يحسبهُ فاشلاً:

حمّلتُ نفسي طاقةً فوق طاقتها   وما عليَّ بما لايسعفُ القدرُ

ففتحَ المعلّم عينيه مدهوشاً وهو يقرأ الرّد. وآخر يتجاهلُ رفيقةَ حياتهِ، وشريكةَ عمره إلى أخرى غريبة يبوحُ لها بمكنون قلبه وهو لا يعلمُ عنها شيئاً. هؤلاءِ لا يستشعرونَ قيمةِ البشرِ حولهم، وفقدوا الخير لأن أخير النّاس خيرهم لأهله.

وكما قلتُ فالقريبون في مقصدي ليسوا، بالضرورةِ، أولي الأرحام، بل كلَّ من يقعُ في الدائرةِ المحيطةِ بالإنسان إبتداء من والدين أحاطاه بعنايتهما، إلى عامل أو مستخدمٍ يرعى أموره. أخبرني صديق عزيز أنّه أرادَ أن يُكافئ عاملةَ تنظيف إنجليزيّةٍ كبيرة السن في المسكنِ الذي استأجر غرفةً فيه في دولةٍ غربيّة، نظير اهتمامها وحرصها على راحته، فقال، نفحتها مبلغاً من المال، لكنها وقعت مغشيّاً عليها، فقلقتُ أشدَّ القلق على حالتها، ولمتُ نفسي لعلّني كنتُ السّبب وراءَ ذلك حينما ناولتها المبلغ، لكنّها أفاقت بعد حين، وقالت إن هذه النوبة تأتيها بين وقتٍ وآخر. قلتُ له لعلّها تفاجأت بعطفك عليها فلم تقوَ على استيعاب المفاجأة فهي قد تعاني من تجاهل من حولها لها، ولهذا كان تصرّفك بالإحسان إليها مفاجأةً، وصدمةً لها. وهنا – قلت له – استذكرُ قصّة عامل نظافةٍ في مصنع، طلب منه فجاة مدير المصنع الجديد المشورة في أمرٍ من الأمور، فغشيت العامل نوبةٌ من الذهول، وأجهش في البكاء. وحينما سأله المدير عن سبب بكائه، قال له: لقد مضت علي الآن ثلاثون عاماً لم يشعر أحدٌ بوجودي في هذا المصنع، حتى هذه اللّحظة التي تطلب أنت مني المشورة فيها. وهذا التّجاهل يذكرني بقصّةٍ رواها أحدهم فقال: اختبرنا في إحدى الدورات، فكان الاختبارُ سهلاً نوعاً ما، لكن أصعب سؤالٍ فيه وأكثره حيرة هو: ما اسم بواب هذه البناية ؟ لم نعرف جميعنا اسمه بالرّغم من أننا نمرُّ به جيئةً وذهاباً كلّ يوم. أيُّ تجاهل هذا! وأي درسٍ أراد المدرّب أن يلقّنه لمتدربيه؟!

كم من النّاس تجاهلوا من حولهم، وبخسوا قدرهم، فدارت الأيام، وتعاقبت الأحداث، فإذا بالمبخوسين قدرهم في ذروةِ المجدِ، وإذا بالمتجاهلين في أسفلِ

درجاتِ التقديرِ لدى النّاس. وقصّة سيّدنا يوسف، عليه السلام، ذات أثرٍ في هذا الصدد، فقد بخسوا حقه حسداً وحقداً على منزلته عند أبيهم، وباعوه بثمنٍ بخس، فإذا به الأمينُ على الأرزاق، يشهد تحقق حلمه بسجود الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر. قال لي صديق: لقد جمعتني الحياة الوظيفية بموظف آخر في مكتب لمدّة خمس سنوات. كنت أقضي معه عدد ساعات لا أقضي مثلها عند سواه. لكنّه كان سيء الخلق، أرعن الطبيعة، خبيث السلوك. قلتُ له في آخرها وقد أوشكتُ على الانتقالِ إلى وظيفةٍ أخرى: يؤسفني أن الخمس سنوات التي جمعت بيننا في هذا المكتب لم تستطع أن تقرّب قلوبنا، وأن توطّد علاقتنا... لكنني – قال الصديق – حينما نقلت إلى منصب أرفع تغيّر أسلوبه معي، وصار يحترمني، ويقدرني، فأين كنتُ أنا منه؟ أو ليس هذا ممن يرى الناس حسب مناصبهم؟ أو أنّه من الذين يقفزون خارج دوائرهم القريبة؟ وهذا هو طبعُ بعض أصحاب المناصب الذين تغرّر بهم مناصبهم فيتجاهلون قدرات مرؤوسيهم، ولا يولونهم اهتمامهم حتى إذا ارتقى مرؤوسوهم أو نُقل أصحاب المناصبِ إلى وظائف غير تنفيذيّة بدأوا وكأنّهم يكتشفون ما كان لدى مرؤوسيهم السابقين من مزايا وفضائل كانوا يتجاهلونها من قبل.

والتّجاهلُ لم يستثنِ مفكرين عظاماً، أو علماءَ جهابذة، أو فنّانين كباراً. وقد جال في خاطري، وأنا أزور متحف الرسام الهولندي فان جوخ في أمستردام، حياته الفقيرة المعدمة التي لم يستطع أن يبيع فيها سوى لوحة واحدة نظير خمسين دولاراً، في حين بيعت لوحاته بعد موته بالملايين. وكم مثله من تجاهلهم النّاس وهم أصحابُ إبداعٍ، وملكاتٍ ومواهب! يقول البحتري:

تجاهل معشرٌ مقدار سطوي ... وقد لاحت لأعينهم سماتي

وأبقت حادثات الدهر مني ... وإن خفضت يدي وحنت قناتي

سوائر من سهام الشهر تصمي ... إذا جعلت تشيد بها رواتي

في حين تسلّط الأنوارُ على أناسٍ لا حظّ لهم في المعرفةِ ولا في أيِّ حقلٍ يُسهمُ في تقدّم البشريّةِ، ولم تكن سوى الصّدف التي تخدمهم، أو الحظ الذي يدفعهم

للظهور في الصندوق الصغير "التلفاز"، كما يقول أحد الإنجليز معلّقاً على ما حدث مع إحدى المشاركات الإنجليزيات وتُدعى Gade Goody، وقد اكتسبت شهرتها لظهورها في برنامج "الأخ الأكبر Big Brother". فبعد أن أصيبت بداء السرطان، الذي توفيت بسببه، جنت شهرةً واسعة، وأصبحت مادة شهيّة للإعلام البريطاني حتى بعد وفاتها. فما نفعُ عالمٍ أو مفكّرٍ أو أديبٍ أو فنّأن تجاهله بلده بسكانّه وحكومته في حياتهِ التي عاشها كالصعلوك أو المتشرّد ثم عادت تطلقُ اسمه على شارعٍ أو ميدانٍ؟! هل نقولُ إن العصور قد تغيَّرت، والنّاس الذين عاصروه ليسوا هم الذين يحتفون بإسمه الآن؟ نعم هذا صحيح، ولكن الإنسان في أغلبه ناكرٌ للآخر، يمارسُ الإقصاءَ، والدليلَ على ذلك أنّ هذا الذي يحتفي بميِّت الأمسِ، ويُحيي ذكراه، يهملُ حيَّ اليومِ، ويتجاهلُ عبقريّته، ولا يُلقي بالاً لمساهماتهِ في حقل الإنسانيّة. فكم كان الشّاعر الإنجليزي توماس هاردي Thomas Hardy (1840 ـ 1928) مصيباً وهو يتدفق شاعريّة تتحسّر على ملكاتٍ استقرّت تحت الترابِ دون أن تتاح لها فرصة الظهور في الحياةِ، فانطمرت دون أن يُعرف لها أثر.

المقتحمون

على الرّغم من أن العلاقات الاجتماعية هي الرّوابط اللّازمة بين الناس لتحقيق شرط اجتماعيّتهم، وتوثيق عُرى المودّةِ والتآلفِ بينهم سعياً إلى أهدافٍ مشتركةٍ ضمن منظومةٍ وطنيّةٍ، إنسانيةٍ، فإن هذه العلاقات يجب أن تكون وفق ضوابطَ ومعايير، فلا يمكنُ أن تُرخى حبال هذه العلاقات، ويطلقُ العنانُ لها لتسيرَ دون ضوابط تضبطُ آدابها، وقوانين تقنّن حدودها. لكنّها وإن كان بعض ضوابطها مشرّعاً بوضوح، معلوماً بجلاء، فإنَّ فيها تداخلات إنسانيَّة تجعلها معقّدةً، صعبةَ التحديد. وفي هذه الحدود المتشابكة، والعلاقات المتداخلة تنشأُ الخلافات بين الناس. وفي مجتمعاتنا حاجةٌ ماسّة لفهم هذه الضوابط وإدراكها وقبولها والعملِ بها. نعم إن الله خلق الناس لكي يتعارفوا "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا" الحجرات/13، لكنّه سبحانه وضع ضوابط لهذا التّعارف، وحدوداً لهذه العلاقات، وهذا ما يجبُ الاتّفاقُ عليه بين النّاس، والتسليمُ به عن رضى واقتناع.

كثيراً ما أفكّرُ في ردّة فعلِ أغلب الناس في مجتمعاتنا لو زار أحدهم آخر دون موعدٍ فقال له: ارجع. (ربّما قالها بطريقةِ اعتذارٍ لطيفٍ متحجّجاً بعذرٍ معيّن) ماذا ستكون ردّةَ فعلِ الزّائر؟ أحسبُ أن قلّةً ستقدِّر هذا الاعتذار بينما تراهُ الكثرةُ إشارةً إلى عدم الرّغبةِ في الزِّيارةِ والإستضافة. وهنا عقدةُ المعضلةُ التي نعاني منها: أن يأتيك زائرٌ دون موعد ثم تعتذرُ له بأسلوبٍ مهذّب بأن لديك شاغلٌ من المشاغلِ يمنعك من استضافته في هذا الوقت. إنّما الأمرُ الرّباني صريحٌ، واضحٌ، لا غموض فيه، في هذه المسألة، حيث يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨﴾ النور/27 و28، هو أمرٌ صريحٌ بعدم الدّخولِ بغير إذن. ويوردُ القرطبي في شرحه للآية مقولة رجلٍ من المهاجرين: لقد طَلَبْت عُمْرِي هَذِهِ الْآيَة فَمَا أَدْرَكْتهَا أَنْ أَسْتَأْذِن عَلَى بَعْض إِخْوَانِي فَيَقُول لِي اِرْجِعْ فَأَرْجِع وَأَنَا مُغْتَبِط، لِقَوْلِهِ تعالى: "هُوَ أَزْكَى لَكُمْ."

فمن تراهُ يعودُ كهذا الرّجلِ بعد أن يقال له ارجع، فيرجع وهو سعيدٌ، مسرور؟ قلّةٌ من النّاس. وعدم الدخول – كما في شرح القرطبي - سَوَاء كَانَ الْبَاب مُغْلَقًا أَوْ مَفْتُوحًا. لأَنَّ الشَّرْع قَدْ أَغْلَقَهُ بِالتَّحْرِيمِ لِلدُّخُولِ حَتَّى يَفْتَحهُ الإِذْن مِنْ رَبّه، بَلْ يَجِب عَلَيْهِ أَنْ يَأْتِي الْبَاب وَيُحَاوِل الْإِذْن عَلَى صِفَة لَا يَطَّلِع مِنْهُ عَلَى الْبَيْت لَا فِي إِقْبَاله وَلَا فِي اِنْقِلَابه. فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَر بْن الْخَطَّاب أَنَّهُ قَالَ: "مَنْ مَلأَ عَيْنَيْهِ مِنْ قَاعَة بَيْت فَقَدْ فَسَقَ." وَرُوِيَ فِي الصَّحِيح عَنْ سَهْل بْن سَعْد: أَنَّ رَجُلًا اِطَّلَعَ فِي جُحْر فِي بَاب رَسُول اللَّه ﷺ وَمَعَ رَسُول اللَّه ﷺ مِدْرًى يُرَجِّل بِهِ رَأْسه. فَقَالَ لَهُ رَسُول اللَّه ﷺ: (لَوْ أَعْلَم أَنَّك تَنْظُر لَطَعَنْت بِهِ فِي عَيْنك إِنَّمَا جَعَلَ اللَّه الْإِذْن مِنْ أَجْل الْبَصَر). وَرُوِيَ عَنْ أَنَس أَنَّ رَسُول اللَّه، ﷺ، قَالَ: (لَوْ أَنَّ رَجُلاً اِطَّلَعَ عَلَيْك بِغَيْرِ إِذْن فَحَذَفْته بِحَصَاةٍ فَفَقَأْت عَيْنه مَا كَانَ عَلَيْك مِنْ جُنَاح).

إن التسليم المطلق والإقتناع بضوابط العلاقات الاجتماعية مهمّةٌ جدّا في مجتمعاتنا كي يعرف بعضُ من الناس سواء كانوا نساءاً أو رجالاً بأن للبيوت حرماتها، ولها شؤونها. فما بالك في عصر الثورة التقنيّة التي سلّمت في يدِ الصغيرِ والكبير جهازاً للتخابر، يستخدمه لأسبابٍ تافهةٍ، ويهمله لأسبابٍ ذات أهميَّةٍ، كتحديد موعدٍ لزيارة. فتراهُ واقفاً عند البابِ يطلبُ الدُّخولَ بلا موعدٍ، بل وإن هو أو هي وجدا البابَ مفتوحاً فلن يجدا غضاضةً في الدخول بلا استئذان. فكم من أسرٍ وجدتَ أناساً في فناءِ بيوتها بل في صالاتها. فماذا يستحقُّ هؤلاء؟ هل يستحقّون الإكرام والضيافةَ بعد أن (اقتحموا) البيوت دون إذن؟ أم يجبُ تأنيبهم على الفورِ لهذا السلوك غير المُرضي؟ ينقسم الناس هنا بناء على طبائعهم وأفكارهم، فمنهم من لا يرضيه هذا التّصرف لكنّه يؤثرُ الصمت كي لا يقطع الأواصر. ومنهم من يبادر إلى التأنيبِ والتقريع لأنه اعتبر هذا السّلوك خارجاً عن

حدود العلاقة الاجتماعية السّويّة. ومن هنا لا يتفهّم أغلبُ الناس غضبَ أصحاب البيتِ، ولا يقدّرون تأنيبهم، بل يرون أنّهم على حقٍّ في ما فعلوه. وما فعلوا سوى الباطل. قال أحدهم: كنّا ذات مرّة نجلسُ كعائلةٍ في الطابقِ الأولِ بمنزلنا، فتفاجأنا بدخول أحد أصهارنا، فعقدت ألسنتنا عن الكلام من هولِ الدهشةِ، فقد أصابنا من الغضبِ ما أصابنا لهذا التّصرف الأحمق الذي بدر من هذا الرّجل الذي سمح لنفسه بدخول بيتٍ ليس ببيته دون أن يستأذن، وما هي لحظات صمت، حتى نطق أحدنا سائلاً هذا الطّفيلي المقتحم: أليس للبيت من جرس؟ ردّ عليه: بلى. فقال له: لِمَاذا لم تستخدمه؟ كيف دخلت علينا دون استئذان، هل هذا من آدابُ الزيارة؟ فسكت بعد ذلك (المقتحم) ثم سحب نفسه، ورأى بعدها أنّه تعرّض لإهانةٍ ما سبّبها سواهُ لنفسه. وقالت إحدى ربّات البيوت: تفاجأتُ بأحد أنسابِ زوجي وهو يدخلُ عليَّ المطبخ حاملاً معه بعض الأغراضِ، فشعرتُ بالحنقِ الشديد لهذا التّصرّف اللاّأخلاقي. فكم أناسٍ يتطفّلون على البيوت، و(يقتحمونها) دون إذنٍ، بلا رادعٍ أخلاقي يردهم، ولا فطرةٍ زكيّةٍ تؤنّبهم؟ هؤلاءِ كثيرون. ومهما كانت البيوت ذات أبوابٍ وأنظمةٍ حديثةٍ، فإنَّ هؤلاءِ الذين لا يقيمون وزناً لحدود العلاقات الاجتماعية، ولا لآدابها طُرقاً مختلفة. طرقَ ذات مرّةٍ طارقٌ بيت النبي صلى، الله عليه وسلم، من دون سلام، وإذا بالنبي يأمر خادمه أن يقول له: استأنس أولاً، قل: هل أدخل؟ ثم بعد أن يؤذن لك قل: السلام عليكم، فعمل ذلك فأذن له، ودخل وقال: السلام عليكم.

والمرءُ لا يسرّه أن يرى أقرب النّاس إليه (يقتحمون) بيته دون استئذانٍ ـ إلاّ من ساكني بيته من أهله ولهؤلاءِ آداب ـ فما يفجأُ بعض النّاس زيارةُ أخٍ أو أختٍ يحسبانِ أن بيت أخيهما بيتهما فلا حرمةَ فيه بالنسبةِ إليهما، ولا سرّ يُخفى عنهما، وهذا هو الخطأُ الكبير. ولعلَّ زيارةً مفاجأةً كهذه ستترك أثراً غير حميدٍ في النّفس، وأوّل الإنطباعات ما يرتسمُ في الوجهِ من تعابير الاستياء، فالوجهُ هو الصفحةُ الأولى. وعوداً على سكّان البيتِ الواحد، فإن الحدود لا ترفعُ بين أهله، فالإستئذانُ هو أول الأخلاقيات التي تقنّن اللقاء بينهم، ودخول بعضهم على بعض... يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ

وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٍ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ النور/58. ومن هنا فإن كان هؤلاء يستأذنون بعضهم بعضاً، فكيف لمن هم من غير سكّان البيت؟

إن زيارةً بلا موعد هي أدعى إلى إثارةِ الفتنِ والمشكلات، ولهذا فإمّا أن تكون بموعدٍ أو أن يتقبّل الزّائرُ اعتذار المُزار عن استقباله برضى وسعادة. وإن (اقتحاماً) للبيوت وأقصدُ به دخولاً بلا استئذانٍ على أهلها له سلوكٌ خارجٌ عمّا تمليه آداب العلاقات الاجتماعية التي قنّنتها الشرائع الرّبانية، وسادت كأخلاقٍ نبيلةٍ، فاضلة... فالمقتحم هو المتسبّب بهتكِ عرى العلاقات الاجتماعية وليست صيانتها والحفاظ عليها.

* * *

إذا كانت العزلةُ الاجتماعية أمراً غير مرغوب، وغير متّفقٍ مع طبيعة الإنسان (الاجتماعي بطبعه)، كما يقول ابن خلدون، فإن الانفتاح بلا حدود لإقامة علاقات اجتماعية هو أمرٌ غير حميدٍ أيضاً في وجهةِ نظري! فالإنسانُ مقيّدٌ بالتزاماتٍ شخصيّة وأسريّة، وملتزمٍ بواجباتٍ اجتماعية ونفسيّة مختلفة، لهذا يصعبُ عليه أن يترك الحبل على الغارب في إقامة العلاقات الاجتماعية المفتوحة. فكم شهدنا أناساً لمجرّد لقائهم العابر بآخرين يطلبون منهم وسائل الاتصال بهم أو زيارتهم دون ترسيخ المعرفة، أو دون وجود قواسم مشتركة، أو مصالح متبادلة، إنّما من أجل ضمّهم إلى القائمة الطويلة من المعارف والتي تثقل حركة هواتفهم. وهذا بالطبع أمرٌ، وإن كان يدلُّ على طبيعةِ انبساطية، واجتماعية للفردِ – في ظاهره على الأقل – إلاّ أنّه يجلبُ الكثير من الصعوبات للفرد، ذلك لأن اتساع رقعة العلاقات الاجتماعية، ووجود القائمة الطويلة من المعارف يستلزمُ بذل أوقاتٍ من الأفضل أن تبذل في شؤون مركّزة لبناء علاقات مثمرةٍ وناجحة مع مجموعةٍ قليلةٍ ولكنّها مفيدة، وذات أثرٍ في حياةِ الفرد، وحياة أسرته.

بعضُ الناس يتجنّبون إقامة علاقات اجتماعية واسعة وهذا من حقّهم إذا كانت هذه العلاقات الواسعة لا تدع لهم مجالاً لممارسة شؤون حياتهم، واهتماماتهم بكلِّ تركيز، لكن أن يتجنبوا بناء العلاقات الاجتماعية حتى مع اقرب الناس إليهم، فذلك شأنٌ يحتاجُ منهم إلى مراجعة. وكلّما كان الإنسانُ قريباً وبعيداً في مثل هذه العلاقات احتفظ بخصوصيّته، وقدرته على السيطرة على حياته وعلى ظروفه والتزاماته، والقربُ أن يعطي الشعور بقربه من مجموعته القريبة وذلك بالتواصل بوسائل غير اللقاءِ الذي يبرمجه على فترات معقوله، أمّا البعد فيكون عنهم بعيداً – إلى حدٍّ منطقي أيضاً – جسديّاً.

لكن بعض الناس تغالي في الجانبين. فإمّا أن تمضي قُدماً في علاقاتٍ اجتماعية واسعة، وإمّا أن تعزل نفسها عن المجتمع. أذكر في هذا الصدد أن رجلاً كان يمدح نفسه في الاستغناء عن علاقاته بالآخرين فيقول: إنني لا أغادر منزلي فور مجيئي من العمل، حتى إنني لا أذهبُ للمسجد حتى لا أرتبط بعلاقاتٍ مع النّاس. هذه مغالاةٌ وظلمٌ للنفس بالإحتجاب عن المسجدِ الذي هو موطن الصلاةِ وبيت الله ولقاءُ عباده فيه. ومثل هذا مجحفُ في النظر إلى مفهوم العلاقات الاجتماعية. وشهدنا أناساً منفتحين دون حدود في علاقاتهم الاجتماعية. وهذه، أيضاً، مشقّة للنفس وعبءٌ عليها.

إن الاقتصار على مجموعةٍ ذات فكرٍ واحدٍ، أو اهتمامٍ واحدٍ، ليست في صالح الإنسان، الذي يجب أن ينحو إلى إقامة علاقات مع أشخاص لهم اهتمامات مختلفة، وأفكار متفاوتة – إن لم تكن ضارّة في جوانب هامّة من العقيدةِ والفكر والسلوك – وذلك لكي يكسب من اختلافها، وتعدد ثقافاتها، ومنابعها أفكاره، وكي لا يعيش محدود الفكر، ضيق الأُفق. ولكن مع هذا يجبُ عليه أن ينتقي لنفسه معارفه، ويختار أصحابه.

وللعلاقاتُ الاجتماعية درجاتٌ يجب أن يعيها الفرد وأن يضع فيها معارف حسب مراتبها، وأن لا يخلط فيها. لكن بعضهم يخلطون مراتب هذه العلاقات الاجتماعية، فلا يميّزون في هذا الخلط بين موضع الندى أو السيف بتعبير المتنبي:

ووضعُ الندى في موضع السيفِ بالعلا مضرٌ كوضع السيفِ في موضع الندى

فتجدُ أنّه يذهبُ في المغالاةِ إلى الحدِّ الذي يرفقُ فيه بامرأة أخرى أكثر من أمّه – دون أسباب تتعلّق بأمّه الطبيعية أو أعذار تُحقّ له فعل ذلك – وفي الوقت ذاته ليس من الضيرِ أن يعاملَ أحداً من أصدقائه كأخ (فرب أخٍ لك لم تلدهُ أمّك). فما يربطه بأخيه الذي هو من وشجته الرحمية قد يكون واجب الدين، إنّما ليست بينهم العواطف التي توثّق العلاقات وتؤدم العشرة وتقيم الود. فالإنسان في الأولى موصىً بوالديه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ العنكبوت/ 8،أمّا علاقته بأخيه، فإن لم تربطه العواطف فيربطه الواجبُ الديني من جهةٍ لكن ليس من ضيرٍ له أن يجعل له أخاً آخر ليس من أمّه ولا من أبيه بل ممن ارتضى خلقه، واستأنس خاطره، واطمأنَّ جانبه.

لقد كانت نتائجُ العلاقات الاجتماعية وخيمةً على البيوت، فأنّها أصبحت مشرعةً أمام كلَّ من هبَّ ودب، في حين أن الأسرة التي يجبُ أن يكرّس لها الوقت المبذول لهذه العلاقات الاجتماعية هي الأحقُّ والأحرى بها، فكم من ربٍّ أسرةٍ همّه أن يتعرّف على هذا وذاك وأقرب الناس إليه لا تحظى من بوقت. وبينه وبينهم جدارٌ عرضه عشرون أو أربعون سنتمتراً. وكم من ربّة أسرةٍ تسعى إلى فلانةٍ من الناسِ أو علاّنةٍ وأقربُ الناس إليها رحماً أو مودّة لا يحظون بوقتٍ من أوقاتها، وكم من ابن أو ابنةٍ يسعون إلى علاقات اجتماعية خارجيّة، في الوقت الذي تكون فيه علاقاتهم بأسرهم القريبة علاقات هشّة لا يجمعهم بهم سوى النوم تحت سقفٍ واحدٍ، والطعام، ومشاهدة التلفاز.

لهذا كلّما كانت العلاقات الاجتماعية قليلة، مركزّة على دائرة بسيطة، لكنّها متعدّدة المنابع والثقافات ـ بما يتناسب مع خط سير الإنسان ـ أصبحت في مركز السيطرة، والقدرة على التعاطي المثمر معها، وكلّما تُرك الحبل على الغارب فإن الالتزامات المستحقّة نحوها ستجعلُ الفرد مشتّتاً في كلِّ شيء... غير قادرٍ على مواجهة ارتباطاتٍ ومشاغل لا غنى عنها في حياته وحياة أسرته.

أثر الاسمِ على المسمَّى...!

لا ينتبهُ الكثيرون أن للأسماءِ الشّخصيّةِ أبعاداً عميقةَ الأثر في الشخصيّة التي تحملها. فهي تساهم، إلى حدٍّ كبيرٍ، في تشكيلِ الشخصيَّةِ، وتعطيه الملامح الذّاتية للظهور، فإن كانت الأسماءُ مبهمةٌ وغامضة أثَّر ذلك على الشّخصيّةِ، وانعكسُ الإبهامُ والغموضُ عليها. وإن كانت واضحةً وجليَّةً انعكست على الشخصيَّةِ إنعكاساً جميلاً. فالنظراتُ والتوجُّهات كثيراً ما تتعلّقُ بالأسماء، ولهذا ترفعُ الأسماءُ المرءَ – ضمنِ ما يرفعهُ من فضائلَ وشمائل – وتحطُّهُ - ضمنَ ما يحطُّه من رذائل وعيوب – وإن كانت نسبُ الرفعِ والحطِّ نسبيَّةٌ بين إنسانٍ وآخر... على أن لا يعمَّم هذا كقاعدة. إنّما هي محصّلاتٌ من الواقع، وشواهدَ من سيرِ النّاس، فأحدُ الشبابِ أبلغني أن الاسم الذي تسمَّى به يرتبطُ بالنسيانِ، وأنّه لذو أثرٍ سلبيٍّ على نفسهِ، فشجّعتهُ على تغييره، وسعى إلى تغييره إلى اسمٍ أفضلَ ترتاحُ له نفسهُ، ويطمئنُ له ضميره. وآخر يقول أنّ والده أسماه اسماً يتعلّق بكلمةٍ يتداولها الناس في حديث الهزءِ والسُّخرية، فقام بتغيير اسمهِ إلى اسمٍ ذي رنينٍ جميل مرتبطٍ باسمٍ من أسماءِ الله. وثالثٌ غيّر اسمه الذي كان يمسُّ العقيدةَ والإيمان إلى إسمٍ جميل مرتبطٍ بأحد الأسماءِ الحسنى.

وهو واجبٌ عظيمٌ، ومسؤوليةٌ كبيرة على الوالدين اللّذين يكونان المسؤولان الرئيسان عن تسميةِ أبنائهما. فلا تنفعُ مجاملةُ هذا أو ذاك لأبنائهما حينما يكبرون وهم يحملون على كواهلهم أسماءَ لا يستريحون لها، ولا يسعدون. فكلّما سألهم الناس عن أسمائهم وجدوا حرجاً كبيراً من البوحِ بها، وأحرى بهم أن يفتخروا بأسمائهم وهم ينطقونها. قلتُ لأحدهم: لم سمّيتَ ابنتكَ اسماً أجنبياً لا يرتبطُ بالديّن ولا الثقافةِ بشيء. فردَّ عليَّ: لأننا نحبُّ العلم. فقلتُ له: غيّر اسمك إذن، ولا تتجنىَّ على ابنتك. وأردفت قائلاً له: أتعلمُ أنك ستسبب لها عقدةً نفسيَّة حين تكبر. وزاد على ذلك بتسميةِ الأخرى اسماً من أسماءِ الفلك. لقد فعل هذا الرجلُ فعلةَ الأب الذي اشتكى إلى سيدنا عمر بن الخطاب يشكو إليه عقوق

ابنه، فأحضر الخليفة الولد وأنّبهُ على عقوقه لأبيه. فقال الولد: يا أمير المؤمنين، أليس للولد حقوق على أبيه؟ فقال: بلى، أن ينتقي أمه، ويحسن اختيار اسمه، ويعلّمه الكتاب. فقال الولد: إنَّ أبي لم يفعل شيئاً من ذلك. فأُمي زنجية كانت لمجوسي. وقد سمَّاني جُعلاً – أي خنفساء - ولم يعلّمني من الكتاب حرفاً. فالتفت عمر إلى الرجل وقال له: لقد عققته قبل أن يعقك وأسأت إليه قبل أن يُسيء إليك. والأخصائيون النفسيُّون يؤكدون الأثر النفسي للأسماء المعقدة والصعبةِ النطق حيث تكون سبباً للاكتئابِ والانعزالِ حتى أن ذلك يمكنُ أن يؤدي إلى الإصابةِ بمرض الرّهاب الاجتماعي، وهو الخوف من مقابلةِ المجتمع. ففي أعماق النفس ينمو، بسبب هذه الأسماء التي لا يرتاحُ لها صاحبها، شعورٌ يعمل على تخفيض الإحساس بتقدير الذات، وبالتالي ينعكسُ سلباً على تصرفات الإنسانِ وشخصيته بشكلٍ عام. يروي ابن المسيب عن أبيه أنّه جاء إلى النبى، ﷺ، فقال: ما إسمك؟ قال: حزن، قال له: أنت سهل. قال: لا أغير اسما سمانيه أبى. قال ابن المسيب: فما زال الحزنُ فينا بعد.

إنني لأشعرُ بالإمتعاض حينما أسمعُ اسماء لا تنتمي لثقافتنا بشيء... أسماء لا يقصدُ من سمّاها سوى التّميزُ والتّفردُ على حسابِ شخصياتِ أبنائهم، بل على حسابِ مجتمعاتهم، وأكبرُ الدواهي أن الأب أو الأم حينما يعجبون بمطربةِ أو مطربٍ سمّوا أبناءهم بأسمائهم، وليتهم سمّوهم إقتداء بصحابيٍّ أو صحابيّةٍ أو عالمٍ أو مفكّر أو غيرهم، ممن كان لهم أثرٌ في حياةِ الإنسانيَّة، أو ممن ينتمون إلى تاريخِ الأمّة الإسلامية. يقول الرسول ﷺ: "إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِكُمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِكُمْ فَأَحْسِنُوا أَسْمَاءَكُمْ." فالأسماءُ الطاغيّة يمكنها أن تعكس أفكار الناسِ، ومدى عمق ثقافتهم، فكلّما كانت الأسماءُ مرتبطةً بالدّين عكست تديَّن المجتمع، وكلّما كانت أجنبيَّةً لا تتصلُ بجذور اللّغةِ الأمِّ عبّرت عن فكرةٍ غير سليمةٍ داخل العقل، ورغبةٍ غير صحيّةٍ داخل النفس، وهي أشبه بصرخةِ الإحتجاجِ، أو الرغبةِ في التقليدِ الأعمى، أو التشبّه غير الموفّق.

وفي تراثنا العربي بعضُ الطرائف، حيث قال الشاعر:

وحَلَلْتَ من مضرٍ بأمنعِ ذروةٍ   مَنعتْ بحدِّ الشَّوكِ والأحجار

فقد عنى بالشوك أخوالَه، وهم: قتادة وطلحة وعوسجة "كلّها أشجار لها شوك"، وبالأحجار أعمامَه، وهم: صفوان وفِهر وجَنْدَل وصخر وجَرْوَل "كلّها مفردات للحجارة". ويروى أنّه حينما أراد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الاستعانة برجل، فسأله عن اسمه واسم أبيه، فقال: سَرَّاق بنُ ظالم، فقال: تسرق أنت ويظلم أبوك! فلم يستعِنْ به. ويقول الفرزدق: وقد تلتقي الأسماءُ في الناسِ والكُنَى كثيراً ولكن مُيِّزوا في الخلائقِ. وسأل رجلٌ رجلاً: ما اسمك؟ فقال: بحر. قال: أبو مَنْ؟ قال: أبو الفَيْض. قال: ابنُ مَنْ؟ قال: ابن الفُرات. قال: ما ينبغي لصديقك أن يلقاك إلاَّ في زورق!

وليست الأسماءُ الغريبةُ مقصورةً على مجتمعاتنا، فالمجتمعاتُ الأخرى هي أيضاً تكثرُ فيها الأسماءُ الغريبة. ذكرت الـ "بي بي سي" أن فتاةً نيوزلندية عمرها تسعُ سنوات اشتكت إلى المحكمة أن اسمها "تالولا Talula" وتعني رقصة تمارس في جزر الهاواي. فأنّب القاضي والديها قائلاً إن هذه التسمية عيب أخلاقي، وألزمهما قانونياً بتغيير اسمها. وإنني لأستغربُ من إجازةِ بعض الأسماءِ الغريبةِ عندنا. إذ أعتقدُ أن بعض الأسماءِ لا يجبُ أن تسجّل، لأن الطفلَ حينها وهو رضيعٌ لا يملكُ لنفسِهِ شيئاً، مغلوبٌ على أمرِهِ من جانبِ والديه، بينما يكونُ للجهاتِ الحكوميّةُ الحقَّ في رفضِ بعض التسميات الغريبةِ الشاذّةِ عن المعاني الهادفةِ المريحة. فذلك يبرهنُ على أنه إن لم يتمتّع الوالدان بالمسؤولية الواعية لإدراك معنى وقيمة الاسم الذي سيحمله طفلهما، فإن هناك جهاتٌ يعنيها ذلك، ولتكن موسوعة " السلطان قابوس للأسماءِ العربيةِ" مصدراً أساسيّاً لذلك.

كيف للوالدين أن يمضيا تسعةَ أشهر وهما غافلان عن اختيارِ الاسم المناسب، حتى إذا ولد لهما طفلٌ أو طفلةٌ خاضوا في فوضى الجدلِ لاختيار الاسم، فيتدخّل من يتدخّل حينها، وتقوم نزاعاتٌ ومهاتراتٌ وخصوماتٌ كل عائلةٍ تريدُ الاسمَ لها. والمذنبان في هذا هما الوالدان. وعلى العموم، فإن تغيير الأسماءِ المشينةِ، المعيبةُ، المعقّدة، الصعبة، المثيرةِ للسخرية والهزءِ أمرٌ واجب على الإنسانِ، فإن لم يكن يملك في صغره قدرةً على التغيير، يكون حينما يكبر قادراً على تغييره، فقد غيّر النبي، ﷺ أسماءَ، مثل عاصيةٍ إلى جميلة، وحربٍ إلى سلم. لكن أن يستسلمَ الإنسانُ لاسمٍ تصاحبهُ مصائبهُ وآثاره النفسيّة المحبطة، فذلك، في نظري، خطأٌ كبيرٌ.

الفرحُ الرَّزين

الفـرحُ خصيـصةٌ مـن خـصائصِ الـنَّفسِ البـشريَّةِ، ولـونٌ مـن ألـوانِ التنفـيسِ الدّاخلي، وشكلٌ من أشكالِ التّعبيرِ، ونزعـةٌ مـن نزعـاتِ الفطـرة، باعثـهُ إنجـاز سعيد، أو مناسبةٍ مبهجةٍ، أو تحقيق هدفٍ منشود، أو نيلِ مأربٍ مقصود، أو كلّ مـا يـشيعُ في الـنفسِ الحُبـور والإحـساسِ بالـسرور، وهـو منـالُ الإنـسانِ ومطلبـهُ، ومسعاهُ ومأمله. فأيُّ إنسانٍ لا يسعى للفرح؟! هـذا الـذي يُشعرهُ بالارتيـاحِ والابتهـاج والسعادة.

والـشّعوب تعبِّـرُ عـن أفراحهـا بتقاليـدَ مختلفـةٍ، وعـاداتٍ متباينـة، ممتـدّةٍ عـبر تاريخها، ومتطوّرة خلال مساقاتها الثقافية، ومنسجمةٍ مع معتقداتها، ومعبِّرةٍ عن هويّاتهـا، ومجـسِّدةٍ لأفكـارهـا. تظهـرُ هـذه الأشـكالُ مـن التعـابير في مناسـباتٍ مختلفةٍ، واحتفالياتٍ متنوِّعة. ولكلِّ شعبٍ ما يتعلّقُ به من الأنماط السلوكيَّةِ التي تشكِّلُ فرحهُ، والحركاتِ البدنيَّة التي تعبِّر عن مكنونِ سعادتهِ.

إنّما التعبيرُ عـن الفـرحِ لـونٌ مـن ألـوان الثقافـةِ، ومـرآةٌ مـن مرايـا الهـويَّة، فمـن خلالـه تـدرس طبـائع، وتـسبرُ نفـسيَّات، وتـؤرِّخُ مراحـل... وعليـه يقـاسُ الإنـسان في مدى نضجهِ وتوازنه وتحكّمه في عواطفه وفي طريقةِ تعاطيهِ مـع الفـرحِ، وكيفيَّةِ التعبيرِ عنه. وليس أشـدُّ علـى الرجـل الوقـورِ مـن فقـدانِ وقـارهِ في فرحـه، فـإذا بـك تـسمعُ مـن الرّجـل ضـحكتهُ المجلجلـة، وصـرخاته الناشـزة، لغيرمـا داعٍ، ودونمـا سبب. فيسقطُ من عينيك. وإذا بك تشاهدُ الرجلَ الذي احترمت فيه وقاره، وأثنيت على هيبتهِ، وقـد سـقط كـلُّ ذلـك منـه، فتمايلـت قامتـه الـسامقة، الوقـورة تمايـل غصنِ بانٍ تتلاعبُ بـه الـرِّيح، وتراقـصت أكتافـه، تـراقص الرّاقـصةِ الغيـداءِ وقـد نفضت حياءها، وأسقطت رداء العفّة عنها. وإذا بـك تـسألُ مـاذا حـلّ بالرّجـل؟ هـذا القويُّ المراس، صاحبُ البأس والشكيمةِ، يتململ تململ الأنثى اللّدنة. وقد رأيتُ في أحد الأعـراسِ رجـلاً أخفـى وجهـه عـن الجمهـور حتـى لا تُعـرف هويّتـه، يـرقصُ

رقص النِّساءِ، في ميوعةٍ وليونةٍ، حتى جاءَ من كشف أمرهُ، وناداهُ باسمه، فانتفضَ هارباً من الحشد. فأين هزّ هذا من قول الشاعر:

وإن هزَّ لدن الرُّمحِ، غصنَ قوامه فكلُّ دمٍ فيهم إلى قدّهِ صب

إن الرّجلَ ليفقدَ سماتَ رجولتهِ حينما يبالغُ في التّعبيرِ عن فرحه بتأديةِ رقصاتٍ تثيرُ الاشمئزاز، وتُخرجهُ من دائرةِ الرُّجولة. وإن المرأةَ لتفقدُ حياءها الأنثويِّ الجميل، الذي يعدُّ أصل جمالها، حينما تنفلتُ من إسارِ الحشمةِ في تعبيرها عن الفرح. إنهما ليفقدانِ التّركيزَ بحجّةِ الفرح، فتنطمسُ عنهما حقيقةَ الأشياء، ويصدقُ فيهما قول الشاعر، علي محمود طه:

روحي المقيمُ لديكِ؟ أم شبحي؟ لعبت برأسي نشوةُ الفرحِ

وها نحنُ نرى أن تقليعاتٍ جديدةٍ تظهر على بعض الشّباب وهو يعبّرون عن أفراحهم، التي لا تمتُّ لثقافةِ مجتمعنا بصلة. شبابٌ يستُرُ وجهه كي يأخذ مساحتهُ من ممارسةِ الشكلِ الذي يريدُ من الرَّقص. ولو أنّه كان يعبِّر بالفرحِ الرّزينِ عن مشاعره لما أخفى وجهه، ولما تقنّع بقناعٍ بغيض. إنّما كان يُدرك بأن ما سيأتي به منبوذٌ اجتماعيّاً، وأن أسرتهُ لن تسرُّ برؤيتهِ وهو على هذه الحالةِ من التعبير غير الأخلاقي. ولكن ما بالك بأسرٍ يسرّها رؤيةُ أبناءها وهم محترفون للرّقص الشّاذِّ، مغتبطون بهم وهم يشاهدونهم يرقصون وكأنّهم يشاهدون أبناءهم وقد أحرزوا سبقاً علميّاً، أو ختموا القرآن، أو نالوا جائزةً من الجوائز لإبتكارٍ أو سبق، أو حصلوا على منجزٍ علمي. شبابٌ لا يدركونُ أن للفرحِ حدود، وله آدابِ، وأنّه ليس مطلقاً بلا حواجز. حتى أن بعضهم ليظنّون أنفسهم وهو يقلّدون المغني الأمريكي الراحل "مايكل جاكسون" في حركاته فرسان حلبة وصناديدُ ميدان. وما هم إلاّ تسليةً للنّاسِ ومضيعةً لوقتهم.

لا شيء يبرِّر ما يأتي به الإنسانُ من حركاتٍ غريبةٍ وأفعالٍ شاذّةٍ، خارجةٍ عن حدود اللّباقة الاجتماعية، وناشزةٍ عن أُطرِ الأعرافِ والتقاليدِ. ولا منجزَ يبرّر إشاراتِ الأيادي التي يجهل معناها الكثيرون، وهي ترمزُ إلى معتقداتٍ شاذّة، ومذاهبَ شيطانيّة. إن من هذه الإشارات التي يرفعها بعض الشباب رفع إصبعي

الخنصر والسبّابة، وهي إشارةٌ ترمزُ إلى قرنيَّ الشيطان وتردُّ إلى مذهبٍ ماسوني شاذ فكراً ومعتقداً. ها نحنُ نرى بعض الجماهيرِ الرّياضيّةِ وهي تحتفلُ بانتصاراتِ فرقها لا تحسنُ إبداءَ الفرحِ، ولا إظهار التعابير عنه. وبعضها يخترعُ قصّاتَ شعرٍ غريبةٍ من أجلِ الظهورِ بمظهرٍ مخالف بشعار "خالف تُعرف". وما يفعل سوى الإساءةِ إلى نفسهِ، وتحقيرِ مظهره، وليسَ في الحقيقةِ تعبيراً عن المؤازرةِ، ودليلاً على المساندة. فالمؤازرةُ والمساندةُ ليستا في قصّاتِ الشعرِ، ولا التقليعات الغريبةِ، ولا الحركات المستهجنة، وإنّما في التشجيعِ الحضاريِّ، والمنظّم، الرّزين.

إنّنا ونحنُ نتابعُ بعض المهرجاناتِ، ونمرَّ على ما يتخلَّلها من حفلاتٍ غنائيَّةٍ، ليلفتنا الشّابَ السّاترَ وجهه وقد شرعَ في ميوعةِ الرّقص، مسلّماً جسده للطربِ حتى غدا يهتزُّ اهتزازَ السّيفِ في زندٍ صارم. وليتهُ كذلك إنّما يبارزُ بعض الرّاقصاتِ في رقصهن. ونرى المسدلةَ خمارها على وجهها وقد ذهبت هي الأخرى في نوبةٍ هستيريَّةٍ من الرّقص، ولا فرق بين الإثنين... كلاهما نشاز.

إن بعض الفرحِ جميلٌ إن كستهُ الرّزانةُ ثوباً، والرّصانةُ معطفاً. لكنَّ بعضه ليخرجُ عن حدودِ اللياقةِ والأدبِ والخُلق، فيصبحُ فرحاً مستهجناً لا يرتبطُ بأصولِ مجتمعاتنا وتقاليدها بصلةٍ تُذكر. وها نحنُ نرى أيضاً أن لاعبين رياضيين حينما يُحرزون أهدافاً يأتون بحركاتٍ هستيريَّةٍ، غريبةٍ، تخرجهم من حدود الخُلق، وتُسقطهم من عيونِ معجبيهم. إنّما بعض العقلاءِ منهم والرُّشداء يستغلّون هذه المناسبة فيحملون رسائل إنسانيّةٍ أو وطنيَّةٍ، فإذا ما أحرزوا هدفاً وعرفوا أن العدسات تتوجّهُ لهم، أبانوا عن رسائلهم الجميلةِ، وهم يعبّرون عن الفرحةِ برزانةٍ لا يخلو منظرها من روعة. يقول الشّاعر:

مظاهر للجمالِ تجلّى قد هزّ أعطافها السرور

وباهرُ الحسنِ قد تجلّى ما بين نورٍ ونور

الفرحُ الهستيريُّ خرابٌ للنّفسِ، ومضيعةٌ لجماليةِ الفرح، وما إتيانُ بعض الشبابِ بحركاتٍ لا تمتُّ إلى طبيعتهم الرجوليّةِ كهزِّ خصورهم إلاّ صورةٌ من

هذه الصور المنبوذةِ التي لا يجبُ أن تُبرّر بحجَّةِ الفرح، ولا يجبُ أن يسلّط عليها الضُّوء. فالمجتمعُ ثقافةً وهويّةً يبرزُ في مثل هذه المناسبات، ويظهرُ في مثلِ هذه التعابير. فتلك التعابيرُ مذمومةٌ، وهي تندرجُ في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ الإسراء/37، والقرطبي يقولُ في تفسيره، أنَّ المرحَ هو شدَّةُ الفرح، وفيه يقول الشاعر:

وَلَا تَمْشِ فَوْق الْأَرْض إلاَّ تَوَاضُعًا فَكَمْ تَحْتَهَا قَوْم هُمُو مِنْك أَرْفَعُ
وَإِنْ كُنْت فِي عِزّ وَحِرْز وَمَنْعَة فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْم هُمُو مِنْك أَمْنَعُ

اللّغةُ هويّة

هل يمكنُ أن يأتينا يومٌ نتكلّمُ فيه لغةً أُخرى، أو لهجةً أخرى مكسورةَ العباراتِ، هجينةَ الكلماتِ، معوجَّةَ الحروف؟ أقولُ نعم، والدلائلُ على ذلك قد بدأت منذ سنواتٍ طويلةْ. منذ أن أصبحنا مستهلكين لغويّاً، غير منتجين. هل اللغةُ تحتاجُ إلى إنتاجٍ؟ أقولُ نعم، فهي توليدٌ مستمرٌ ولولاه لما اكتنزت القواميس العربية بتفرعاتِ اللغةِ من الجذور الثلاثية أو الرّباعية. هل نتجنّى نحنُ على اللّغة إن شئنا أن نسمِّيها لغةً بحكم أنّ جلّها عربيٌّ وإن اعوجّ بعض الكلماتِ وحرّف بعضها أو زيدِ أو أنقصَ الآخر؟ أقول مرةً ثالثةً نعم. نتجنّى عليها لأنّنا مستسلمون أمام كلّ لفظةٍ ترد على ألسنتنا، منهزمون بها، كسالى، لا ندفعُ أنفسنا للبحث عن رديفها اللغوي في قواميس اللّغةِ العربية. حتى بدأنا نتحدثُ تلك اللُّغة الهجينة التي أشرتُ لها في البدء.

لقد وقعنا بين حالين أوّلهما حلوٌ إنّما (شاذٌّ وغريب)، والآخر مرٌّ إنّما (مقبولٌ ومفهوم).. أمّا (الشاذُّ والغريب) فتحدُّثُ أحدنا باللغةِ العربيةِ الفصحى في شؤونه اليوميَّة. أذكرُ أنّ أحد الأخوةِ كان يتحدّث بقدرِ المستطاع باللغةِ الفصيحةِ فلقّب بـ (النَّحوي) تهكّماً واستخفافاً. أمّا (المقبول والمفهوم) فهو التّحدثُ بلهجةٍ فقدت الكثير من الكلماتِ المترابطةِ المعاني، المتماسكةِ الصور... لهجةٌ مركّبة بألفاظٍ شاذّة، مأخوذةٍ كما جاءت في لغتها الأصل أو محرّفةً بشكلٍ غريب.

هل نساهمُ نحنُ في عملية تغريب اللّهجةِ الدارجةِ (ابنةُ العربيّة)؟ أقولُ نعم، لأننا تخلّينا في البدء عن اللغةِ الجامعةِ، المفهومةِ شرقاً وغرباً إلى لهجاتٍ مشتقّةٍ، حتى أوغلت بعض اللّهجاتُ في خصوصيّةٍ غير ذاتِ معاني، وبالتالي فقدت معانيها لدى ابن العربيةِ. لن نذهب إلى بلدان المغرب العربي لندلّل على أن العربيَّ المتحدّث إلى قناةٍ تلفازيّة يجب أن يترجم كلامه بالفصحى على الشّاشة... بل نقولُ في

بلادنا لهجاتٌ لا تُفهم ولا تفكُّ ألغازها وأحجياتها. والمدهشُ المؤلمُ أن أصحابها متمسّكون بها لأنّها أضحت عنوانُ هويّةٍ لهم.

استمعتُ إلى متحدّثةٍ من دولةٍ مجاورةٍ تتحدث عبر المذياع إلى برنامج إذاعيٍّ شهير صارخةً بالقولِ إنّ هويّتنا تغرق. مدلّلةً على ذلك بإغتراب العربيِّ في بلده، حيث لم تعد العربيّة مقبولةً في وطنهِ بل عليه أن (يرطنَ) اللّغة الإنجليزية كي يحصل على فرصةٍ للعمل في بلدٍ تتعرّض هويّته العربيّة الإسلامية للتهديدِ الواضحِ الذي لا يحتاجُ إلى جدل.

لن أحصي عدد الكلماتِ الدخيلةِ التي نستعلمها يوميّاً في تحادثنا اليوميَّ، فأنت، عزيزي القاريء، على درايةٍ بها، تستخدمها كما أستخدمها، ولكنّنا لا نكلّف أنفسنا تغييرها. فكم هي المنتجات الحديثة التي تُرجمت أسماؤها بالعربيّة؟ والمنتجاتُ هي مكوّنات اللغةُ اليوميةِ لأنّها أدواتُ المعاشِ اليومي. وكم من الألفاظ الدخيلة التي تتسابُ على ألسنتنا دون أن نفقه معانيها... نستخدمها لأنّها (مقبولةٌ ومفهومة). منذ فترة استضافتني مدرستين للبناتِ والبنين وبدأتُ أحصي معهم عدد أسماء المنتجاتِ التي تسمّى بأسمائها الأجنبية في القاعة التي نجتمعُ فيها. أدرك أن سبب ذلك أننا لسنا مصدر هذه المنتجات. لكننا تخلينا حتى عن أضعف الإيمان: ترجمة الأسماء. ترجم المسلمون في القرون الأولى معارف أجنبية حتى سرت ألفاظها في دارج حياتهم وسكنت عقولهم وتعرفت إليها بصائرهم فاشتغلت عندهم قوى الخيالِ والعقل والعضل.

المصيبةُ الكبرى أن كثيرين منّا لا يدركون ارتباط اللغةِ بالهويّةِ. فمن انسلخ عن لغتهِ، انسلخَ عن هويّته. واستذكرتُ هنا بالذّات وأنا أتحدّث عن الهويّة بيتاً، كان يردّده معلم القرآن في القريّة ـ رحمه اللّه ـ متهكّماً:

مـن تـردّى بـرداءٍ مـا تـردّاهُ أبـاهُ ... سـوف يأتيـه زمـانٌ يتمنّـى المـوتَ فيـه

أُدركُ الآنَ أن مقصدَ البيتِ هو انسلاخُ الهويَّة والتخلّي عنها. وأضربُ المثلَ بمهاجرٍ أفريقي إلى أمريكا، كان يتذكرُ حياته في أفريقيا لمّا كان لسانه ما زال خصباً بلغتهِ الإفريقية، وحين ذابت وحلّت محلّها الإنجليزية نسي ذكرياته، وانقطع عن هويّته الأولى.

كم يروق للكثيرين منّا أن يستبدلوا الألفاظ الأجنبية بالعربية، كلّما شعروا بالزّهو الداخلي، أو اعترتهم عقبة التعبير. كم منّا من يقولُ جملاً تحشوها الكلمات الغريبةِ الشّاذة. ولا نشعرُ بأننا نتآمرُ على هويّتنا عندما نفعلُ ذلك. لقد أصبحت اللّغةُ عند بعضِنا (موضةً عصريّة) ولم تعد هويّة. أصبحت غرضاً شخصيّاً، وليس وطنيّاً. أصبحت صبغةً من أصباغ الوجهِ، وليست منتجاً فكريّاً.

يقول الباحث عبدالجليل زيد المرهون: "اللهجات الخليجية غدت جامعة لمصطلحات برتغالية وإنجليزية فضلا عن الهندية التي تعاظمت على خلفية عاملين: الأول جلب البريطانيين جموعاً كبيرة من الهنود لإدارة المؤسسات، والثاني وفود عمالة هندية كثيفة إثر الطفرة النفطية الأولى." ويرد أزمة اللغة العربية في الخليج العربي إلى ثلاثة عوامل رئيسية ساهمت في تشكيل أزمة اللغة العربية. "الأول هو التحول الديمغرافي التاريخي باتجاه سيطرة العنصر غير العربي، والثاني الانتشار الكثيف لظاهرة الخدم، والثالث ضعف الإنتاج المعرفي بصفة عامة والأدبي واللغوي بصفة خاصة." وأزيدُ على ذلك بعاملٍ آخر وهو نزعةُ (التّبجّح) النفسي باستخدامِ ألفاظٍ أجنبية وحشرها في اللغةِ الدارجةِ باعتقادٍ واهم أنّ ذلك هو (اللّسان المتحضّر) و(الأسلوب المتطوّر). وثمة عامل هام أيضاً، هو عدم الحرص على التّحدث باللغةِ في البيوت والمؤسسات، وعدم استخدامها في المراسلات العامّة.

لنكن عمليِّين إذن ولا نقف مكتوفي الأيدي إزاءَ هذه القضيّة الحضارية التي نتجنّى فيها على هويّتنا وهويّة أجيالنا القادمة، ولتنشأ جمعيةُ اللّغويين، التي تهدفُ إلى صيانةِ اللغةِ/الهويّة، ولتبادر المدارس والكليّات والجامعات بإنشاء جماعات تسمّى "جماعات العربيّة"، يشتغلُ فيها الطلاّب والمدرسون المختّصون بترجمةِ كلّ لفظٍ أجنبيٍّ غريب. ثم تتبنى وسائل الإعلام الترويج لها. ولتصدر القرارات بمنعِ التّحدث في كلِّ المؤسسات الحكومية أو الخاصة بغير اللغة العربية (وأقصد بها اللغة المحليّة الدارجة) على غرار قرار منع المراسلات بالإنجليزية حيث لا تتوجّب. ولتنشيء الحكومة أو القطاع الخاص معاهد اللغة العربية لتعليم اللغة العربية البسيطة غير الموغلة...على غرار لغات كالفرنسية التي

تنتشر في العالم بتمويل فرنسي. ولست داعياً هنا – كي يكون كلامي مقبولاً ومفهوماً أيضا – إلى لغةٍ عربية قحّة كلغةِ العرب الأوائل، إنما إلى صيانةِ لهجات عربية جذور كلماتها عربية.

إننا، إن لم نتّبع خطوات عمليّة كهذه، نكون قد ارتكبنا أخطاء تاريخيّة لن يغفرها لنا التاريخ، ولن تغفرها لنا الأجيالُ القادمة. يكفينا أن نستذكرَ قول النبي، ﷺ: أحب العربية لثلاث: لأنني عربي، والقرآن عربي، ولغةُ أهل الجنّة عربية." فهل ندّعي إسلامنا ثم نرتضي التحدّث بلغةٍ هجينة؟

النظرةُ إلى المستقبل

إذا كان المستقبل هو الذي نخطو إليه، فكثيراً ما نفكّرُ فيه، وقليلاً ما نعمل له! إننا نكرِّر الحكايّة مرّاتٍ ومرّات، نفعِّل قدرتنا على التّذكرِ، ولكن قدرتنا على الخيالِ شبه معطّله. كثيراً ما نعيدُ حكايات الصبا والطفولةِ، وهي وإن كانت ذات علاقةٍ عميقةٍ، لها وقعها اللّطيفُ في أنفسنا، إلاّ أنّنا أشبعناها طحناً وعجناً. وكلِّ ما نتحدثُ عنه هو الماضي. نتوقُ لكل شيءٍ ماضٍ، لأنَّ له نكهةً حتى لو كانت مُرَّةً لأنه فعلٌ منجز.

لكن حين يأتي الكلامُ عن المستقبلِ، فحديثنا عنه غائمٌ، مشوّش، عامٌ، مشتَّت. بينما المستقبلُ هو الأرضُ التي سنضعُ فيها أقدامنا في اللّحظات القادمة. المستقبلُ، يحسبُ بعضهم دائماً أن المستقبلُ هو القادمُ البعيد. يحسبونه هو السرابُ المرئي، لا يوقنُ به غير ظامىء. في الوقت الذي يعني فيه المستقبل الساعات القادمة إن لم نقل الثواني.

لقد أعجبتني فكرةُ أحد المعاهد اللُّوجستيه البريطانية، وهو معهد تشارترد للدعم اللّوجستي والمواصلات The Chartered Institute of Logistics and Transport، ففي عام 2006 احتفل بمرور ثمانين عاماً على إنشائه، ولكنّه – وهذه هي الخطوة المحفّزةِ للخيالِ – آثر ألاّ يذكر إنجازات المعهد خلال ثمانين عاماً ماضية – كما يفعل أغلبُ المؤسسات والناس - وإنما أن ينظر من قمّةِ ثمانين عاماً قادمة. فأصدر تقريراً بعنوانٍ مثير هو "العودة إلى المستقبل **Back to the Future**" وقد كانت فكرةً رائعة أن يفكّر في المستقبل بالنّظر بصورة فوقيّةٍ من عام 2086 إلى ثمانين عاماً مرّت وهي لم تمر بعد. نعم "التنبؤ صعبٌ جداً لاسيما عندما يكون حول المستقبل"، كما يقول يوجي بيرا، لكنّنا أفرطنا حين تركنا الحبل على الغارب، وأسلمنا قيادنا لقول الشاعر"دع الأيام تفعل ما تشاءُ."

وهو إذا كان يفصح عن مقصده في عجز البيت حين يقول: "وطب نفساً إذا حكم القضاءُ"، فإننا اتبعنا الأول أكثر من اتّباعنا الثاني.

انظر إلى الحكاياتِ، التي تلوكها مسلسلاتنا التلفزيونية والإذاعيّة، حين تدور حول محورٍ واحد. قضايا لا تخرجُ من إطار الماضي، قصّة تلو أخرى، قصص مغلقة لا تشرع أبوابها نحو المستقبل. واسمعنا حين نتحدث، فإننا نقلّب الماضي تقليباً مملاً. أجل نقرُّ بأن الماضي هو منبعٌ للكثير من الحكايات، فهو مطويات التجارب وسلسلة الأحداث ومخزنُ الصورِ، لكن ما فائدةُ الماضي إن لم يكن مُلهماً؟ يقول المسرحي سعدالله ونوّس: "ما فائدة التاريخ إن لم يسمح لنا بالتنبؤ." نعم، ما فائدته إن لم يفتح للعقلِ أبواب الخيال؟ الماضي قاعدة، الماضي تجارب استدلاليّة، يمكنها أن تؤسس لقادمٍ آتٍ، لأن طبيعة الإنسان – مهما تغيّرت العصور، وأنماط وسلوكيات المعيشة – تظلُّ محافظةً على طبائعها الجوهريّة وإن تغيّرت بعض النظرات والآراء والتّوجهات.

كتب إسحاق نيوتن، منذ أكثر من ثلاثة قرون، "أبدو لنفسي كما لو أنني صبي يلعب على شاطيء البحر، تلفت انتباهي من فينة إلى أخرى حصاة أنعم أو صدفةٍ أجمل، بينما يمتد محيط الحقيقة أمامي ناظريَّ دون اكتشاف." كان قوله ذاك في عصر قصيٍّ، لا تتوفرُ فيه وسائل المعرفة الحديثة، كمثل هذا العصر، لكنّ على الرّغم من توفرها في مجتمعاتنا العصريّة، فإننا نفتقدُ إلى الروحِ التي تتوقّدُ حماساً إلى صنع جديد، أو إبتكار حديث... ولذلك نتركُ التفكير في المستقبل جانباً.

إن العيشَ، في الماضي، هو ما يعرقلُ حركة المجتمعات، ويثبّط تقدّم الأفراد، وبلادة العقول، وفي ذلك يقول ديل كارنيجي: "إن العيش في الماضي من أهمِّ أسباب الشيخوخة المبكرة." فالشيخوخة هنا ليست مقرونةً بهرم الجسدِ بل ببلادةِ العقلِ، وسكونيّة التفكير، وجموديّة الهمم... ولذلك أقول في موضوعٍ اختارته وزارة التربية التعليم ليكون ضمن كتاب المؤنس المقرر للشهادة العامة بعنوان **صناعة المستقبل**: "لا يمكنُ للمرءِ أن يفكِّر في المستقبل، أو يرنو إليه وهو محاصر في فكرة جامدةٍ، أو طاقةٍ معطّلة، أو رؤيةٍ مبتسرة، ولا يمكنه أن

ينتظر كي ينطلق إلى فضاءات المستقبل لمسة الفضل الإلهي كي تحيل سكونيته البليدة إلى التفاتات سماوية تغيّر التاريخ من دون أن يغيّر نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ الرعد/11.

من منّا يمضي يومه/أسبوعه/شهره/عامه وفق مخطّط مستقبلي واضح الأهداف؟ مخطّط ليس مبنياً على الرغبات فحسب، بل على الإمكانات والوسائل التي يمكن الحصول عليها. نعم هو تحدٍّ، ولكنّه ليست مهمّة مستحيلة في الوقت ذاته. ذلك لو استطعنا توظيف الأوقات المهدورة من أعمارنا، واستثمرناها في هذا التخطيط بدلاً من هدرها بلا طائل. هل نفتقدُ إلى الحماس، أم للطريقة؟

إننا كلّما افتتحنا مشروعاً من المشروعات، أو احتفلنا نظرنا إلى الماضي في كلماتنا، وسطّرنا الإنجازات التي مرّت والتي أتينا على ذكرها مرّاتٍ ومرّات، فلماذا لا يكون للماضي ثلثاً – لإرضاء أنفسنا - وللمستقبل ثلثين في كلامنا؟ لقد تقدّمت الأمم لأنّ أفرادها يفكرون في المستقبل بجديّةٍ عمليّة، لذلك أنتج تفكيرهم العمل من أجل تحقيق الأهداف التي خططّوا لها، بينما يسكننا نحن صوت شاعرنا الجاهلي وهو ينوحُ على الأطلال.

أقول، إن لم نتحرّر من النّوح على الأطلال، واسترجاع الماضي، مرّةً بعد مرّة، فلن نتقدم. وكما أن الإنسان إذا ظلّ يدور حول ماضيه دائماً وأبداً، لن يكون جديداً في قوله، ولا حديثاً في فعله، ولا مجدداً في طرحه، ولا مبتكراً في فكره، ولا مُبهراً في أُسلوبه فهو إنسانٌ منتهٍ، خرج من دائرة الحياةِ اليوميّة المعاصرة. فالتجديدُ في الفكرِ ومتابعةُ ما يحدث حولنا، ومراقبة تغيّرات الطبيعة، وأحوالِ الاقتصادِ، وتبدّلات السياسة، وطروحاتِ العلم، وسلوكيات البشر، وفرص المعيشةِ وغيرها، هي المرتكزات التي يبني عليها الإنسان تخطيطه، ويضع وفقها تصوّراته للمستقبل، والمستقبلُ هو الساعةُ المقبلة، اليومُ/الشهر/العام/ الأعوام القادمة.

وهذا الكلامُ لا ينطبقُ إلاّ على إنسانٍ حيّ، يريدُ أن يكونَ لعيشهِ معنى، ولحياتهِ قيمة، ولاسمهِ أثر. أمّا ذلك الذي يحبُّ العيشَ في دُجن الظلامِ وأرصفةِ

الهوامش وصناديق النسيانِ فهو يعيش لكي يأكل، لا يأكل لكي يعيش. وهو ينامُ لكي يحلم، لا يحلمُ لكي ينام، وهو يجمعُ الأصداف والحصى لكنّ نظره قاصرٌ عن النّظرِ إلى محيط الحقيقةِ الذي امتدَّ أمامه كما رآه نيوتن. يجمعها ليصوِّبها إلى البحر ثانيةً، لأنّه ساخطٌ على كلِّ شيءٍ، منهزمٌ أمام كلِّ شيء. ولعمري، ما عاشَ ولا بقى إنسانٌ ساخطٌ، منهزمٌ على ظهرِ هذه الأرضِ. إنّما العيشُ لمن جعل المستقبلَ منارتهُ، فحفّز خيالهُ، وأعمل فكره، وشمّر عن ساعديه. فهو مستمتّع بكل لحظةٍ يحياها، لأنّها من نتاج فكره، وليست من فتاتِ الآخرين، وبعض عطاياهم.

في معاني الوطنِ والوطنيّة

من أجلِّ ما يفتخرُ به الإنسانُ، ويُباهي: الوطنْ. فإنسانٌ بلا وطنٍ مشرد لا قرارة لهُ. الوطنُ هو كنفُ الإنسانِ، وموئلُ عزّه، ومحور عطائه، ومرجعَ محتَدهِ، وأصل انتمائه. الوطنُ ليس كلمةً مجرّدة المعاني، خاليةَ المشاعر، بل هي كلمةٌ لها وقعها المؤثّر في الأحاسيسِ، بل لها الدور الأكبر في عاقبة مصير الإنسان. يمكننا أن نجد ذلك في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ النساء/97.

ولا يزال الوطنُ بخير طالما سمت فيه المصالح العامة على المصالح الشخصيةِ الضيِّقةِ، وعلت فيها سمةُ الإيثارِ، من منطق قول الرسول الأكرم عليه أفضل الصلاةِ والسلام: "لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيهِ ما يحبُّ لنفسه."رواه البخاري ومسلم. فإذا رجحت كفّةُ المصالح الشخصيّة الضيّقةِ المحدودة، انتشرت الفتنةُ في المجتمعِ، وطغت الأنانيةُ، وحينها يبقى الوطنُ رهيناً، معطّل البناءِ إلاّ لمآربَ فرديَّة، معطوبَ الفكرِ، إلاّ لغاياتٍ ذاتيّة. وإذا تكالب الناسُ على تحقيق أهدافهم، أعاق ذلك فكرة الوطنِ وثوابته ومرتكزاته.

ليس أعظم فعلٍ للوطنِ من المبادرة، مبادرةُ المواطنِ كي يخدم وطنهُ بإيعازٍ من الحبِّ الخالصِ، وليس لتحقيقِ غايةٍ هو يبتغيها. مبادرتهُ كي يكون مواطناً صالحاً يؤثرُ الآخر قبله، وهذا هو لبُّ الإيمان. وما نموذج المؤاخاةِ بين المهاجرين والأنصار إلاّ ركيزة هذه الحقيقة التي نشأت عليها الدولة الإسلامية في المدينة المنوّرة. المبادرة التي تعني المسؤولية والمسؤولية هي روحُ الوطن.

في خطابهِ التاريخي، مؤخراً في مجلس عمان، حدّد مولانا جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم – يحفظه الله ويرعاه – الأسس الأخلاقيّة للمسؤولية

بقوله: "وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لما كان الأداء الحكومي يعتمد في إرساء وترسيخ قواعدالتنمية المستدامة على القائمين به والمشرفين عليه، فإن في ذلك دلالة واضحة على مدى المسؤولية الجسيمة المنوطة بالموظفين الذين يديرون عجلة العمل في مختلف القطاعات الحكومية. فإن هم أدوا واجباتهم بأمانة وبروح من المسؤولية، بعيدًا عن المصالح الشخصية، سعدوا وسعدت البلاد. أما إذا انحرفوا عن النهج القويم، واعتبروا الوظيفة فرصة لتحقيق المكاسب الذاتية وسلمًا للنفوذ والسلطة، وتقاعسوا عن أداء الخدمة كما يجب وبكل إخلاص وأمانة، فإنهم يكونون بذلك قد وقعوا في المحظور، ولا بد عندئذ من محاسبتهم واتخاذ الإجراءات القانونية المناسبة لردعهم وفقًا لمبادئ العدل الذي أرسينا عليه دعائم الحكم، والتي تقتضي منا عدم السماح لأي كان بالتطاول على النظام والقانون، أو التأثير، بشكل غير مشروع، في منافع الناس التي كفلتها الدولة، ومصالح المجتمع التي ضمنها الشرع، وأيدتها الأنظمة والقوانين. ومن ثم فإننا نؤكد على أن تطبيق العدالة أمر لا مناص منه ولا محيد عنه، وأن أجهزتنا الرقابية ساهرة على أداء مهامها، والقيام بمسؤولياتها بما يحفظ مقدرات الوطن ويصون منجزاته."

لقد وضع جلالتهُ القيم التي ترتكزُ عليها المسؤولية، والأسس الأخلاقية التي تسير على منهاجها، والمبادئ السليمة التي تشكّل قاعدة تُبنى عليها. وإذا كان لكلِّ إنسان قيم، فإن معقل الأمر هنا في استناد هذه القيم إلى المبادئ التي يعلمها المرءُ ويدركها من عدمه. ينقل ستيفن كوفي في كتابه، "العادة الثامنة من الفاعلية إلى العظمة"، عن ويلفرد وايت هيد قوله، "الذي يدور حول حقيقتين، الأولى هي: إن البشر في كلِّ أنحاءِ المعمورةِ تتملكهم تلك الفكرة الغريبة بأن عليهم أن يتصرفوا بطريقةٍ معيّنةٍ ولا يستطيعون التّخلُّص من تلك الفكرة. والثانية هي: إنهم في الحقيقةِ لا يتصرفون وفقاً لهذه الطريقةِ، إنهم يعرفون القانون الطبيعي ويخرقونه. وهاتان الحقيقتان هما الأساس الذي يقوم عليه أي تفكير واضح عن أنفسنا وعن الكون الذي نعيش فيه." ومع إختلافي في التعميم بحجّة أن البشر ليسوا كلّهم سواء: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ

ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ﴾ آل عمران/113، وقوله تعالى ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ البقرة/251، وقوله سبحانه ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ الشورى/8، فإنني أتفق على أن هناك من البشرِ من يُدرك المبادئ القويمة التي نشأ عليها، أو التي سطّرها الوطنُ في دساتيره أو جُبلَ عليها في أخلاقياته العامّة.

إن جلالة السلطان المعظم ليحثّ دائماً على التركيزِ على المبادئ القويمةِ التي يتقدمُ على أساسها الوطن، وتزدهرُ نهضتهُ، ويقوى عمرانهُ، وتسمو أهدافهُ، وتعزّ أمّته، وأذكرُ ها هنا عبارة قالها جلالته وقد وجدّتها معلّقةً في رواقِ مؤسسةٍ حكومية يقول فيها جلالته إن المسؤولية تكليفٌ قبل أن تكون تشريف. والمسؤولية كلمةٌ واسعةُ إلاّ أنها ترتكزُ على المبادئ القويمة أولاّ وقبل كلِّ شيء. ولقد لفتت نظري مطالبة زعيم حزب المحافظين البريطاني، ديفيد كاميرون David Cameron، في اجتماع الحزب الأخير في شهر أكتوبر بالتفريق بين الحريّة والمسؤولية مؤكداً الحاجة إلى المسؤولية ومبيّناً أن عيب الحرية هو كونها تنقلب بسهولة على القوانين الطبيعيّة وفق تبنّيها لفكرة أن البشر يمكنهم أن يفعلوا ما يشاؤون دون اعتبار النتائج على الآخرين. "الجارديان"

من هذا المنطلق، تبدو المسؤولية رديفةٌ للوطن، ومن هنا تبرزُ الوطنيّة، حيث يقول الشيخ سلمان العودة: "الوطن إذا حقق لك الوحدة والأمن والاستقرار وعلاقات مع الآخرين، فإنه يوجب عليك الالتزام بالمواطنة وحقوقها." المواطنةُ إذن صونُ منجزاتِ الوطنِ، وحفظ مكتسباتهِ، والسّهرِ عليها سهر الإنسانِ على ممتلكاتهِ، فهي فعلٌ. والوطنيّةُ أن يُكون الوطنُ هو معيارُ التّنافسِ، ومقياسُ التباري.. الوطنيّةُ أن يكون الوطنُ هو ذروةُ الغاياتِ، ومنتهى المصالحِ... الوطنيّة ولاءٌ للوطنِ، حميّةٌ لمنجزاتهِ، عطاءٌ لأرضهِ، سخاءٌ لشعبهِ، انتماءٌ لترابهِ، إخلاصٌ لأهدافه.

رسالة إلى رجال المالِ والأعمال

منذُ وقتٍ ليس بالقصيرِ أزمعت الكتابةَ حولَ مسؤولية رجال المالِ والأعمالِ تجاه مجتمعاتهم، وكنتُ أسوِّفُ نفسي بالكتابةِ من وقتٍ لآخر، حتى قدَّر الله، فكان رحيلُ أحدُ أقطابِ المال والأعمال الكبار منذ أيامٍ قليلةٍ هو دافعٌ قوي للكتابةِ حولَ هذا الموضوع الهام، لعلَّ حصيفاً منهم يُنصت، وكيِّساً منهم يعي.

أعتقد أننا الآن محتاجون للحديثِ على دور رجالِ المالِ والأعمالِ نحو مجتمعهم، ولعلّني في مستهلِّ ذلك، أذكرُ أنني منذ سنواتٍ كتبتُ مقالاً واسعاً عنوانهُ "ماذا قدّم أغنيائنا لمجتمعهم؟" فاتّصل بي بعد أيامٍ أحدُ المعارفِ من رجالِ الأعمالِ وقال لي: إن فلاناً وفلاناً وسمّى لي عدداً من من كبارِ التجار قد اجتمعوا لتدارسِ مقالك والرّدِ عليك لكنني – كما يقول – نصحتهم بعدم نشرِ ردّهم وفضّلتُ إطلاعك عليه. قرأتُ الردَّ وأنا أشعرُ بسرورٍ من ناحيةٍ، لأن المقالَ قد حرّكَ فيهم حافزاً دفعهم لاستجماع أرقامهم وبياناتهم، وما هم قيّمون عليه من الواجبِ نحو المجتمعِ وإن اقتصر على شريحةٍ معيّنةٍ ولدوافعَ خاصّة، ولكنّه – على كلِّ حال – جانبٌ من الواجبِ على أحدٍ ما أن يقوم به وذلك أجرهُ عند ربِّه. لكني من ناحيةٍ أخرى، كنتُ أتمنى أن تظهرَ مؤسسّاتُ خيرية – كمؤسسة سعود بهوان الخيريَّة – للقيامِ بأدورٍ معلنةٍ، وتقديم مساهماتٍ تجاه المجتمع، إذ أنَّ الإعلان عن البرِّ والإحسان له فضلٌ في تشجيعِ الآخرين على البذل والعطاءِ ولا ينتقصُ من أجره إن بُني على نيّةٍ حسنةٍ، صادقة.

إننا لنلاحظُ أن كثيراً من أصحاب المالِ والأعمالِ لا يكترثون بمسؤولياتهم تجاه مجتمعهم. ويتجلّى ذلك في الكثيرِ من الشواهد والأمثلةِ. وهم إن ساهموا بشيء فلأجلِ خاطرِ فلانٍ من النّاسِ، أو لأنهم حسبوا العائدَ التجاري من وراءِ الإعلان عن أسمائهم أو أسماء شركاتهم كمساهمين أو راعين لهذا المهرجانِ أو تلك الفعالية. ولعل العاملين في الحقلِ الأهلي والتطوعي ليعانون أشدَّ العناءِ من

إحجامِ رجال المال والأعمالِ عن تقديمِ المساعداتِ للأنشطة التي يقومون بها دون مقابل لأجلِ هذا الوطن فلا يجدون آذاناً صاغيةً لأصواتهم، ولا أبواباً مفتوحةً لرسائلهم، ولا بنوداً مرصودةً للمساهمات الاجتماعية، في حين أن المؤسسات التجارية الحديثة عالمياً قد اهتمت بما يسمى "Social Responsibilities" أو المسؤولية الاجتماعية، حتى أطلق على الشركات لقب "جارة المجتمع Society Neighbor" لأهمية دورها نحو المجتمع الذي تتواجدُ فيها. ولعلَّ إحدى الشركات تقومُ بهذا الدور بشكلٍ متميِّز، وأذكرُ منها شركة تنمية نفط عمان، والشركات العمانية للغاز الطبيعي.

إن الوطنَ – كما علّمنا مولانا صاحب الجلالة المعظّم – لن ينهض إلاّ بتكاتفُ أبنائهِ، ولا تعلو صروحه إلاّ بوقوفهم جنباً إلى جنب، ولا يرتقي إلاّ بسواعدهم وهي تشدُّ بعضها بعضاً، وكلٌّ يساهم في مجالهِ بما يستطيع، وتمكّنه مقدرته، أمّا أن يعرض بعض رجال المالِ والأعمال – وهم كثرةٌ – عن المساهمات – وهي واجبٌ تجاه المجتمع، فتلك مسألةٌ تستحقُّ أن يتوقف عندها، فهم لم يكونوا ليحصلوا على الفرصِ ربما في مجتمعٍ آخر كما حصلوا عليها في هذا المجتمع، ولهذا كان أمراً واجباً وقوفهم مع المجتمعِ الذي يُسدي إليهم خدمات نجاح الفُرصِ وقيام المشاريع الكبيرة.

كم من مؤسسات أهليَّةٍ تطوّعيةٍ لدينا لا تجدُ من يساندها من أصحابِ المالِ والأعمالِ والقيِّمون عليها أصحابُ جهودٍ خلاَّقةٍ، وهممٍ عالية، لكنّهم لا يملكون المال فيكمّلوا جهودهم به، وهم إن بحثوا عنه لأجلِ أن تؤدي هذه المؤسسات دورها المفترض في المجتمع فإن أكثر رجالَ المال والأعمال لا يكترثون لرسالتهم، ولا يولون اهتماماً لجهودهم، ولا يُقيمون وزناً لمساعيهم، ولا حتى يردّون على رسائلهم، ولا يكلّفون أنفسهم عناء السؤال عن مشاريعهم الخيرية التطوّعية. وعندها تتعطّلُ المؤسسات الخيريّة عن القيامِ بأدوارها الاجتماعية، ويتقهقر المتطوّعون فيها باحثين عن سبيلٍ آخر غيرها، فتتوقف عجلات الأعمالُ الخيرية في المجتمع، ولا يعودُ أفراده إلاّ باحثين عما يكفلُ معيشتهم الأسريّة، ويحقق مصالحهم الذاتية، ويرفع المجتمعُ عندها شعار، "اللهم نفسي نفسي." وهذا من

الشعارات التي تهدمُ المجتمعات، وتفكك عرى ترابطها، وتحيدها عن أهدافها المصيرية العليا.

إن المجتمع الذي لا يكفل غنيّهُ فقيره، ولا يوسِّع المقتدر فيه عن المعوز، ولا ينفّس الثريَّ فيه ضائقة المحتاج، لهو مجتمعٌ ضيّق الأفق يسيرُ أفراده لغاياتٍ مشتتّة، ولا يلتقون عند هدفٍ واحد. والمجتمع الذي لا تجدُ فيه مؤسسات المجتمع المدني الأهليّة والتطوعيّة رعايةً من أغنيائه لهو مجتمع يعاني من خلل ثقافي/قيمي جسيم.

لقد مرّت عليَّ تجاربَ في جوانبَ مختلفةٍ كان الدّاعمون فيها نزرٌ قليلٌ لا يعدُّون إلا بعدد الأصابعِ على كثرةِ العدد المخاطَبِ لدعم نشاطات المجتمعِ التي كنّا نتطلعُ لتقديمها – ولا زلنا – لبعض شرائح المجتمع.. وقد أذهلني، ذات مرّةٍ، وكنّا نقيمُ معرضاً صحيّاً أن لوحةً إعلانيّةً قد حملت اسم مركزٍ تجاري كراعٍ للمعرض، وحينما سألت عن المبلغ الذي تبرع به صاحبُ المركزِ دُهشتُ وقلتُ أن اللّوحة ذاتها أغلى مما تبرّع، وأن ثريّاً أراد أن يشجّعَ كاتباً فاشترى منه عشرين نسخةً من كتابه، وبعثَ إليه شيكاً نقديّاً بعشرين ريالاً. وليتهُ اكتفى بإرسالِ رسالةِ شكرٍ فقد كانت تكفيه عناءِ اقتطاعِ ورقةٍ من دفترِ شيكاتهِ، وأن غنيّاً قطع على نفسه عهداً بالدّعم لمناسبةٍ من المناسبات، وحين جاءَ الموعدَ تنصّل من وعده، وترك أصحابُ المناسبات يسددون فاتورةَ تراجعهِ والأمثلةُ لا تحصى.

نعم، هناك من يتبرّعُ، ولكن تبرّعهِ نزرٌ زهيدٌ لا يقيمُ نشاطاً، ولا يحرّك ساكناً، فصاحبه لا يحضرُ المناسبات التي يساهم فيها لحظةَ تكريمه، لأنّه على يقينٍ بأن مساهمته ليست بالقدرِ الذي يُشعره بالفخرِ إن حضر. قال لي أحد الأصدقاءِ وقد ساهمَ في مناسبةٍ معيّنةٍ حينما حضر نشاطاً أقمناه عبارةً مهمّة، هي: "إن من يرى غير من يسمع." نعم، إن من يرى غير من يسمع فليت أصحاب المال والأعمال يرون ما تقدّمه الجمعيات الخيرية، والمؤسسات الأهلية، والفرق التطوعية، من أعمال عظيمة حتى تدفعهم أنفسهم لدعمها دعماً محترماً يفتخرُ به صاحبه.

إننا لنأملُ أن يُقيم رجل الأعمال هذا كليّةً خيريّةً، وذاك يبني مستشفىً خيرّياً، وآخر يؤسِّس وقفاً للمساكينِ والأيتامِ، وآخر يُنشئ معهداً لذوي الإعاقات، وآخرَ يدعم مهرجاناً فنيّاً، وآخرَ يشجّعُ النتاجَ الأدبي، وآخرَ يحفّز الأنشطةَ الثقافية. فكم تبرَّع في العالم الغربي من ثريٍّ لمشروعاتٍ خيريَّةٍ إنسانيَّةٍ، في حين يُحجمُ الأثرياءُ المسلمون عن دعم مشاريعَ وطنيَّةٍ أو اجتماعية أو إنسانية وهم يملكون ثروات طائلة.

إن الصورة التي أراها في نظري متناقضة. ففي شقٍّ منها متطوِّعون يسعون وراء مشاريعَ إنسانيَّةٍ، ذات نفعٍ إجتماعي، ويحاولون جمع المالِ لدعمها، وفي الشقِّ النقيضِ من الصورةِ أثرياءَ يسعون في الجانب الآخر وراءَ عقد الصفقات فهم في وادِي المالِ يهيمون.وإذا لم يجمع الشقّينِ جامعُ المصلحةِ المشتركةِ، فلنَ يسعدَ المجتمع، الذي يقومُ في أساسه على تكاتف أعضائه، ولن يتداعى سائر أعضاء جسدهِ للسهرِ....

بعض الظَن...!

سوءُ الظنُّ أكذبُ الحديثِ، وأقبحُ الأخلاقِ، وآفةُ المجتمعات، فقد طوّح بيوتاً، وهدّم علاقاتٍ، وقطع أواصر، وقلبَ مودّاتٍ، وحطّم أركاناً، وولّد بغضاء. نظرتُ إلى الكثيرِ من مشكلاتنا الإنسانيَّة ومصائبنا الذاتيَّة، فوجدتُ أن سوء الظنِّ وراءها. فهو السوسةُ الخطرةُ التي تنخرُ الأُسس، وهو السمُّ الزُّعافُ الذي يُميتُ الشرايين. ولو عمّر حسنُ الظنِّ حياتنا لكنّا أسعدَ الخلقِ، وأكثرهم طمأنينةً، وسعادة، لأننا كنّا سنترك توافه الصّغائر فلا نكترثُ لها، ونقتفي الأهدافَ الكبرى التي تجمعنا، وتوحّدنا، وتقودنا إلى مصيرنا المشتركْ.

في مجتمعاتنا طغى سوءُ الظنِّ حتى أصبحَ له ديدانهُ القاتلة التي لا تُموتُ ولا تزاح، بل تمتصُّ رحيق سعادته، وكثرت أعشاشهُ التي تبيضُ فيها ديدانه وتفقس. فينامُ كثيرٌ من الرّجال ويصحون على سوء الظنِّ بزوجاتهم، يلاحقونهنَّ بسوء الظنِّ في غدوّهنَّ ورواحهن، ومجيئهن وذهابهن، وحديثهن ولفتاتهن، أكانوا يصرّحون عن سوءِ ظنّهم أم يخفونه بعد صراعٍ مريرٍ مع أنفسهم. وحين تسنحُ لبعضهم الفرصة فيجدُ أمامه هاتفُ زوجته، يتلفّتُ يمنةً ويسرةً، ثم يبدأ في البحثِ عن السرِّ المكنون، عن دليلٍ لسوء الظنِّ الذي ينغِّصُ عليه معيشتهُ، ويُسقط على رأسه سقف بيته، فيتمنى لو أنّه وجداً دليلاً يُريحهُ، وبرهاناً يحسمه. في حين يهرعُ بعضَ آخر كلّما خرجت زوجتهُ إلى أدراجها باحثاً عن "حقيقةً" لا يعلمها، وسرّاً يجهله. لكنَّ قلبه المريض يقول له إنّه موجودٌ في مكانٍ ما. يدفعُ أقدامه كي يهدم أركان بيتِهِ، ويهدَّ جدرانَ أمانهِ وسعادته. أمّا بعضهم الآخر فإن سألته زوجتهُ مالاً، واجهها بأسئلةٍ طويلةٍ في ما فعلت بما أعطاها من نفقة منذ مطلعِ الشّهر... ملوّحاً بسوء الظنِّ وناشلاً بذلك فتائل حبل الثقةِ بينه وبين زوجته حتى ينقطع الحبلُ عن آخره فلا تستقيمُ حياة، ولا تصلحُ عشرة. هؤلاءِ في نظري أزواجٌ مرضى، لا يرون في الحياةِ إشراقة شمسها، بل يلتفتون إلى الغيمةِ التي

تحجبُ النورَ عنهم. تعدّوا فكرةَ الغيرة الجميلة التي تدلُّ على الحبِّ الصادقِ إلى غيرةٍ بغيضةٍ، مكروهةً حتى إلى اللّه سبحانه وتعالى. يقول النبي، ﷺ: "إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة." وبعضُ هؤلاءِ يتتبّع خطى زوجتهِ أو يترصّدُ لها أو يراقبها أو يعودُ على حينِ غرّةٍ للبيتِ. فإذا كان النبي، ﷺ ينهى عن إتيان الأهل في مبيتهم فلم لا ينصاعُ مسلمٌ لذلك؟ إن لسانَ حالَ من تكتشفُ سوء ظنِّ زوجها بها لينطقُ بأبيات إبن المعتزِّ القائل:

أسأتَ بي الظنَّ، يا سيدي وما سُوءُ ظَنٍ بمِثلي جَميلُ

إذا أنا خنتُ، فمن ذا يفي أتَدري، فَدَيتُكَ، ماذا تَقولُ

ومن الزوجاتِ من يحشو سوء الظنِّ قلوبهن فلا ترى في زوجها إلا خائناً يخفي سرّه، ومتلاعباً يدسُّ حقيقته، ولكنّها حتماً ستجدُ الدليلَ على ذلك عاجلاً أم أجلا. وهنِّ وإن لم يصرّحن كما يفعلُ مسيئو الظنَّ من الرّجال إلاّ أن تعابيرَ وجوههن، وسلوكهن، يشيرُ إلى اتباعهن سوء الظنِّ لمجرّد محادثةٍ هاتفيّة، أو تأخُّر في العمل أو خارج البيت. وهؤلاء الزوجات مريضات، وكثيرٌ منهنَّ يقترنَّ برجالٍ لا يلقون بالاً لبناءِ الثقةِ، ولتأكيدِ الحفاظ على ثوابت العلاقة بينهن وبين أزواجهن، إلاّ أن بعضهن يسئن الظنَّ بأزواجٍ أفاضلَ شرفاءْ.

وسوءُ الظنِّ يعشّش في الكثيرِ من مؤسّساتنا، فتجدُ بعضَ المسؤولين يستأنسون لسوء الظنِّ متخذينه أكبرَ أدواتهم التي تدلّل على نفوذهم وسلطتهم، فكم منهم من يسيءُ الظنَّ بموظفيهِ، فيضعهم تحت طائلةِ الاتهام عبر أسئلتهِ المريضة: أينَ كنت، ولماذا تأخّرت، وكيف، وهل؟ فلا يستطيعُ موظّفٌ أو موظّفةٌ أن يقولا الحقيقةَ فهم يدركون أن مسؤولهم يسيءُ الظنَّ بهم على أيَّةِ حال، ولهذا يختارُ بعضهم أن يكذبَ حتى يكون عذره أكبرَ من دواعي التأخر مدفوعاً بسوء الظنِّ (وهذه بالطّبع ليست طريقةً سليمة، ولكنّها نتيجةً من نواتجِ سوءِ الظّن)، ولهذا ساءت العلاقات الوظيفية في كثيرٍ من المؤسّسات بسببٍ سوء الظنّ. وأعرفُ مديراً يتتبّعُ خطواتَ موظفّيه، حتى يستلذَّ في ما بعد بكشفِ أكاذيبهم أو أعذارهم المختلقة. ولو أحسنَ الظنَّ بهم لما اضطروا إلى المناورةِ والكذب.

وأعجبني ما قالهُ مسؤولٌ لموظفيه وهو أمرٌ غير معتاد، قال لهم: لا أريدُ منكم أعذاراً حينما تضطرّون للخروجِ من العملِ لقضاءِ مهمّةٍ ما، فثقوا أنني سأوافق لخروجِ أيّ واحدٍ أو واحدةٍ منكم دون سؤالهِ عن عذره. هذا في نظري نموذج المسؤول الذي يبني علاقاته بموظفيه على أساس حسن الظن، فهو يثقُ في أنّه يتعامل مع أناسٍ ناضجين يقدّرون قيمةَ العمل، والمهام التي عليهم إنجازها. هذا نقيضُ ذلك النموذج المريض الذي ينظُر في ساعته كلّما عادَ موظّفٌ، أو غادرت موظّفة. ويجنّد أتباعه لإقتفاء آثارهم وتدوين عيوبهم. وهؤلاءِ كثرٌ، يقدّمون سوء الظنِّ بموظفيهم قبل حسن الظنِّ.

وفي الحياةِ الاجتماعية كم هم هؤلاءِ مسيئو الظنِّ بالنّاس، واتهّامهم بما ليس فيهم، فكم من امرأة غافلةٍ طالها سوءُ الظنِّ، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ النور/23، وكم من عفيفٍ شريفٍ لحقه سوءُ الظن! فاتّهم في عرضهِ وشرفه من أناسٍ خبثاءَ النفوس، ليس لهم سوى البحثِ عن معايب الآخرين، وحينما يكتشفون أمراً لا يسترونه بل ويجدونها فرصةً للتّشفي. وإن فشلوا في مسعاهم الخبيث صاغوا الأقاويل، وحاكوا الأكاذيب. لقد استمعتُ لأحدهم وهو يقول في اتصالٍ لبرنامجٍ تلفزيوني، كان يهدف لجمع تبرعات للفلسطينين: كيف سمحتم للمطرب الفلاني أن يكون بينكم وأنتم تظهرون للناس وتحثّونهم على التّصدق، فردّ عليه أحد العلماء: وماذا تعرفُ أنت عنه؟ إن هذا الذي تسيءُ الظنَّ به يصومُ شهراً ويفطرُ شهراً. قال ﷺ: "سوء الخلق ذنب لا يغفر وسوء الظن خطيئة تفوح." وقال عليه السلام: "إن العبد ليبلغ من سوء خلقه أسفل درك جهنم." لقد كتبَ أحدَ الوجهاءِ هؤلاءِ ينبّهُ إحدى الصّحف بعد أن قرأ خبراً لم يعجبه فاستهلَّ مقالته في كاتبِ الخبر بالآيةِ الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ الحجرات/6، ولكن هذا الرّجل، وقد شهدتُ العديد من مواقفه، هو أكثرُ

النّاس إساءةً بالظنِّ. فكم أساء ظنّاً بالناسِ بحضوري. فكيفَ بناصحٍ ينصحُ هو أحرى بالنصح، كقول الشاعر:

ابدأ بنفسك فانهها عن غيّها   فإذا انتهت عنه فأنتَ حكيمُ

لا تنه عن خُلقٍ وتأتي مثلهُ   عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

وهو لم يتّبع حتى أمرَ ربّه القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12].!! وكم أساءَ من يُرى عليه أثر التّمسكِ بالدّين الظنِّ بالآخرين، فكيف به وهو المستقيمُ – على الأقلِّ ظاهريّاً – أن يدعَ شرطاً من شروط الاستقامة وهو حسنُ الظن؟ وهو أحرى قبل غيره بتطبيق الحديث الشريف، الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: "إياكم والظنّ، فإن الظن أكذبُ الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا."متفقٌ عليه. وأين مسيء الظنِّ مما قاله الإمام محمد عبده: " إنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر." هذا القولُ الكريم هو ما يجبُ أن يسطّره الإنسانُ كقاعدةٍ من قواعدِ تعاملاتهِ مع النّاس. قلت لأحدهم بعد أن أساء الظنَّ بامرأة دون حجابٍ وهو يعلّق على صورتها: ماذا تعرفُ عن حقيقتها؟ هل تعلمُ ما يستقرُّ في النفوسِ من صلاحٍ أو فضائل؟ إنّك تسيءُ الظنَّ بها دون بيّنة.

إن الذين يسيئون الظنَّ مرضى مرضاً نفسيّاً معقّداً. فهو يرسفون في عُقَدِ ظنونهم، وبحثهم المريضِ عن معايبِ الآخرين. والنَّبشِ في ماضيهم، والطّعنِ في تصرّفاتهم، والشكِّ في سلوكياتهم، والتفسيرِ المشين لأقوالهم، فهم بحاجةٍ ماسّةٍ للعلاج الذي يحلّ فيهم حسنَ الظنِّ بدلاً عن سوء الظنِّ. وذلك بعد أن يرتقوا بقاماتهم فوق التوافهِ، فلا يتحسّسوا مواطن الضعفِ في البشر، ولا يتتبعوا عثرات الناس، ولا يقتفوا آثارهم، ولا ينتهكوا حرماتهم، ولا يترصدوا طرقاتهم، ولا يفسّروا أقوالهم حسبِ ما ترتضيها أنفسهم المريضة.

هـؤلاءِ الـذين لا يـستريحون إلاّ بالحـديث حـول عـرضِ فـلانٍ، وعيـبٍ عـلاّن، والطّعنِ في هذا، والـشكِّ في ذاك. يمـضون ليلـهم ونهـارهم وهـم يغتـابون خلـقَ الله، ويدسّون السموم في شـرايين حياتهم، ويلقون الشوك في طرقـاتهم، ويـشعلون نـيران الفتنـة في بيـوتهم. إن سـوء الظـنِّ لمـرض خبيـث أشـدّ أثـراً وقـساوة مـن أيِّ مـرضٍ عـضوي آخـر. يخـشاه كـلُّ النـاس ومـنهم نـبيُّ هـذه الأمّـة، حـين قـال لـرجلين مـن الأنصار مرا عليه في طريقٍ مظلمٍ مع زوجته صفيّة، فسلما ثـم انـصرفا، فناداهمـا وقال: "إنها صفية بنت حي." فقالا: "يا رسـول الله مـا نظـن بـك إلا خـيراً." فقـال: "إن الـشيطان يجـري مـن ابـن آدم مجـرى الـدم مـن الجـسد، وإنـي خـشيت أن يـدخل عليكما." فهل بقي أحدٌ لا يخشى سوء الظنِّ وأهلهِ المرضى؟

حفاظاً على الهويَّة

لئن كان الجوازُ والبطاقةُ رمزَ هويَّةٍ، فإن جوهرَ الهويَّةِ الإنتماء، وهذا الأخير يوجبُ على النّفس واجباتٍ لا يمكنُ للمرءِ أن يتنصَّلَ منها ثم يدَّعي حفاظهُ على الهويَّة. وكما هو الدِّين ليسَ كلمةً تملأُ فراغَ تعريف الديانةِ في البطاقةِ التعريفيَّةِ أو جوازِ السَّفر، كذلكَ الهويَّة، ليست لوناً أو شعاراً أو انتساباً اسميّاً، بقدرِ ما هي شعورٌ عميقٌ بالإنتماءِ للوطنِ، وفهمٌ واضحٌ للواجباتِ الوطنيَّة، وتواصلٌ عاطفيٌّ مع جذور التاريخِ، وتطلُّعٌ إلى تحقيقِ أهدافٍ وطنيَّةٍ ساميةٍ لأجل الحفاظِ على الهويَّة.

الهويَّةُ ثوبٌ مميَّزٌ عن سائرِ الأثوابْ، جنسٌ ثقافيٌّ مختلفٌ عن سائر الأجناس الثقافية، قالبٌ له خصائصهُ، وملامحه التي تكسبهُ لوناً آخر غير الألوان. الهويّة صوت، يقول الشاعر الكبير الرّاحل محمود درويش: "إن صرخت بكلِّ قواكَ، وردَّ عليك الصدى: "مَنْ هُناك؟" فقل للهويَّةِ: شكراً."

وبلا شك فإن الإسلامَ هو جوهرُ الهويّةِ لدينا، وهو الذي يميِّزنا كشعوب على مستوى العالم، ثم تأتي اللّغةُ العربيّة لتقلّص حدودَ الهويَّة، إلى أن يحتوي الوطنُ الدّين واللُّغة فيصهرهما في خصائص لا تتميَّزُ بها الشعوبٌ الأخرى، فتبرزَ عاداتٌ وتقاليدَ وأعراف إلى جانب السمات الشخصيّة للمواطن، تلك التي ساهمت الأجيال الماضية في تشكيلها، أو تم اكتسابها عن طريقِ العلم (والتجربةُ والخبرةُ هما أداتا علمٍ أيضاً).

والهويَّةُ ليست قالباً جامداً، وإنّما هي فكرةٌ مرنةٌ ولكن ليس على مستوى الثوابت. فالدّين واللُّغةُ والأسس الوطنيَّة الثقافية تبقى ركائزَ مقدّسة من الصّعبِ أن نتنازلَ عنها بأيِّ حالٍ من الأحوالِ بحجَّةِ التجديدْ. وإذا تمعّنا الحديث الشريف: "الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلاّ اللّه، وأدناها إماطةُ الأذى عن

الطريق." نجدُ أن اللّغةَ والوطن لا يخرجانِ عن قائمةَ هذه الشُّعبْ. فلا يمكنُ لإنسانٍ يدّعي أنّه يحافظُ على الهويّةِ وهو يلقي الشوك في طريقِ وطنه، أو يسيءُ إليه، أو يتهكّم عليه. لا يمكنُ لإنسانٍ يزعمُ تمسّكهُ بهويّته، ثم يجسّدُ مثلاً سيّئاً لسلوك الإنسان المنتمي لخصوصيات الثقافة الوطنيّة.

ولئن كان من التجديد إدخال مصطلحاتٍ عربيّة أصلحُ وأنفع إلى اللّغةِ الدّارجةِ تحلُّ محلَّ أخرى ليستَ ذات معنى، فإنّه ليس حفاظاً على الهويَّة تقليدُ شعوب أخرى في طريقةِ كلامها أو سلوكها أو لباسها من أجلِ التقليد الأعمى. فالتجديدُ إن لم يكن لمنفعةٍ تضيف، أو مصلحة تُعلي فهو كمشيةِ الغراب العرجاءْ. وها نحنُ نسمعُ من تلوي لسانها تبذُّلاً وتصنُّعاً وهي تقلّدُ الآخرين لمجرّد أن تنال شهرة. وهي في الحقيقة تسقطُ من أعينِ النّاس وعقولهم. وفي المقابل سمعنا من يحافظُ على رصانةِ لهجتهِ، وينتقي منها أجمل مفرداتها، فنحترمُ له حفاظه على أصالةِ اللّهجةِ، لأن اللّهجةَ هويّة. وإذا كنّا قد ورثنا بعض المصطلحات أو الزوائد من أمثال ما يقوله الرّحالة إبن بطوطة حينما زار قلهات "والعمانيون يتبعون قولهم بـ "لا" فيقولون تعال لا، أو إذهب لا وهكذا،" أو إضافة حرف"الشين" في حال مخاطبةِ الأنثى، وغير ذلك من المصلطلحات أو الزوائد غير النافعةِ، فإنّنا ننتقي من قاموسنا العماني (وأشيد في هذا الإطار بالجهدِ الذي بذله مؤلف كتاب قاموس الفصاحة العماني) اللّفظةَ المناسبةَ، التي وإن كانت لها جذورها العربيّة إلاّ أن لها خصوصيّةً وطنيّة. نعم، نحتاجُ إلى تغيير أو تقويم بعض المصطلحات الدارجة، ويجب أن نراقبَ أنفسنا ونحن نتكلّم حتى نستطيع أن نضع قوسين حول بعض الكلمات التي تحتاجُ إلى حذفٍ أو تعديل، ففي ذلك تصحيحٌ للّغة، أي خدمةٌ للهوية.

إن الحفاظ على الهويّة ليظهرُ في كثيرٍ من الأعمالِ الأدبيَّةِ والفنيَّة التي تكرِّس الهويَّة. وهذا واضحٌ في كثيرٍ من الإصدارات واللّوحات التشكيلية أو الصور الملتقطةِ أو الألحان الفلوكلورية المحدّثة أو الأزياء المجدّدةِ أو غير ذلك من الأنماط التي تظهرُ فيها هذه الأعمال. ولكن ماذا عن السّلوك؟ هل الفوضى حفاظٌ على الهويّة؟ هل بحلقةِ العيونِ في النّاس، ومضايقتهم بإلصاقِ البصرِ فيهم حفاظٌ على الهويّة؟ هل اللّباسُ غير المحتشمِ في الأسواقِ والشواطيءِ حفاظٌ على

الهويّة؟ هل الرّقصُ غير السّوي وظهور تقليعات شاذّةٍ، وهيئات مستنكرةٍ، وتصرّفاتٍ مستهجنةٍ حفاظٌ على الهويّة؟ كلّها بالطّبعِ خارجةٌ عن الهويّة بل سمومٌ تريدُ النّيلَ من الهويّة.

وفي السّياحةِ – وقد أصبحت جزءاً لا يتجزّأُ من الدخل القومي – لا مناص من الحفاظ على الهويّة، كي لا تُخدش أو ينالُ منها. إن السائحَ ليقدّرُ البلدَ التي تحافظُ على أصالةِ هويّتها وأعرافها وتقاليدها. هذه هي الأمور الأساسيّة التي تثير اهتمامه. فكم من كاتبٍ كتبَ يمتدحُ العمانيّين في أخلاقهم، وشمائلهم، وطيبَ أصلهم لأنّه لمسَ ذلك منهم! وكم من مواطنٍ من دولةٍ عربيةٍ أو صديقةٍ أشادَ بالعمانيين في مجالات نهضتهم وعزمهم وثباتهم ورؤيتهم وشخصيتهم! وهذا ما يدعونا للحفاظِ على ما يراهُ الآخرون تميُّزاً. لقد قال لي، ذات مرّة، الدكتور سعيد حارب الرئيس السابق لجامعة الإمارات: إن التلفزيون العماني هو القناة الوحيدة التي أعرف أنّها عمانية دون الشّعار. وهذا انطباعٌ جميلٌ يفترضُ الحفاظُ عليه سواء كان من خلال طرقُ العرضِ أو طريقةِ تحدّثِ مقدّمي ومقدمات البرامج أو طريقة العرض. فهذه مسألةُ هويّة وخصوصيّة ثقافية.

نعودُ إلى السياحةِ، فنقول: إن المواطنَ يجبُ أن يحافظَ على هويّته أمام السائح. وأذكرُ في هذا الصدّد أنني استضفت إنجليزياً وزوجته، ونصحته بما يجب أن تلبسه زوجته، وحينما وصل السلطنة، أخبرته بطريقة الظهور في ما يخصُّ اللّباس، وبيّنتُ له أثر ذلك في عاداتنا وثقافتنا ونظرتنا من منطلق الدين والنظرة العامّة إلى هكذا أخلاقيات. وفي العموم، فإن إدارة كلّ مرفقٍ ومزارٍ ومنتجعٍ وفندق سياحي وكلّ مركزٍ تجاري مسؤولةٌ عن الهويّة كما هو المواطنُ مسؤولٌ عنها، لأن المجتمع مكوّنٌ واحد متّحد لا يمكنُ لجزءٍ فيه أن يعمل دون الآخر.

الهويّة لا تعني أن نُبقي كلَّ ما ورثناه من سلوكيات أو عادات أو أفكار دون تغيير، إنّما تحتاجُ إلى تغيير وتجديدٍ وترسيخ. فمن الأخطاء الجسيمةِ أن يعارض أحدٌ التغيير بحجّة أن ذلك يهدمُ ما بناهُ السلف، ولكنَّ التقييم مطلوب، بل هو واجب. فمن الناس من يفهم التغيير على سطحيّته، فهمه لهذا البيت:

من تردّى برداءٍ ما تردّاهُ أباهُ   سوف يأتيه زمانٌ يتمنى الموتَ فيه

أمّا العقلاءُ المجدّدون، فيفهمون أن دلالةَ البيت تشي إلى أن الرداءَ ليس هو اللّبس – فاللّبسُ في تغيّر ولا ضرر فيه ، إن لبّى شرط السّتر. وإنّما هو القيم، والأخلاقيات والسلوكيات. ولا يمكنُ أن تعنى الهويّةُ مجرّد التغني بأمجادٍ الماضي، واتخاذها وسادةً يستريح الرأسُ عليها فتنثال الذكريات: في أيّ بقعةٍ وصلنا، وأيّها سددنا. إنّما الهويّةُ هي في وصل الماضي بالحاضر لصنع المستقبل. فإذا الماضي كان مجداً، فإن الحاضر والمستقبل يجب أن يكونا مجداً من نوعٍ آخر. إذن تغيّرت صورةُ الإنجاز ولكن الشعورَ استمر. وهنا تقعُ كينونةُ الهويّة حينما يخالطُ الشعور بالفخرِ تخطيطٌ وعملٌ للإنجاز.

الغيرةُ على الوطنِ حفاظٌ على الهويّة، وصيانةِ ممتلكاتهِ صيانةٌ للهويّة، وما صرخةُ العماني حين رمى أحد رجال الأمنِ جوازه في أحد المنافذ الخليجية – كما يذكر الكاتبُ الكويتي محمد إبراهيم الشيباني – إلاّ غيرةً على الهويّة. وكأنَّ لسان حالهِ ينشدُ قول الشاعر محمد السنوسي:

بشريتي بلدي وكالثرىً في الأرض يغزوني أنا ولدُهْ

وهويةُ الإنسان ماخفقت أحشاؤه وتحركت غددُهْ

أمّا ذلك الذي لا يفكّرُ إلاّ في مصالحه الخاصّة، أو ذلك الذي لا يلقي بالاً لقيمِ مجتمعه، أو المجسّدِ للمثالِ غير السّوي، أو المتهكّمِ عليه لغرضٍ في نفسه... فهؤلاءِ يتجنّون على الهويّةِ.

نحنُ مطالبونَ بالحفاظ على الهويّة في عصرٍ، تتلاشى فيه الهويّات، ويصبحُ الإنسانُ "ذاتاً معولمة" لا ينتمي إلى هويّة معيّنة. وأذكرُ من سنوات أن رجلاً غريباً قال لي: لن أحاربَ في يومٍ من الأيام عدواً يغزو بلدي، لأنّه لم يعد بلدي بل أصبح بلداً للأجانب من جميع الأعراق. لقد فَقَد هذا الرّجل الهويّةَ ولا أدري (إذا) حانت ساعةَ النزالِ، هل ستثورُ فيه الحميّةَ أم يصدقَ في كلامه؟ ولكنّ كثيرين فقدوا هويّاتهم لأنهم فقدوا معنى المواطنةِ، وعناصرها الجوهرية، وإذا كان على المواطن الحفاظ على هويّته في كلّ مسلكٍ من مسالكِ حياته، فإن الصورةَ التي يعكسها خارجَ الوطنِ هي من أكثرُ الصورِ أهميَّةً لأنّه ينقلُ بها هويّته، ويُعلنُ بها عن انتسابهِ، وانتمائه لثقافةٍ من الثقافات.

دَرَجات

العلاقات الإنسانيّة بين البشر تتفاوتُ في قربها، وتمايزها، فمن البديهي أن يكون النّاسُ عند بعضهم درجات تقرّبهم أو تبعدهم بحسبِ العلاقات الإنسانيّة التي تجمعهم. إذا المرءُ لم يصنِّفِ النّاس على أساسٍ من التّفضيلِ، ودرجاتٍ من القُربِ، ومراتبَ من التّمييزِ على صعيدِ العلاقات التي تجمعه بهم فإن ذلك ضعفٌ في تقديره، وخللٌ في تفكيره، ومشكلٌ في عواطفه. وقد اختلطَ الحابلُ بالنابلِ على بعض النّاس، فخلطوا القريبين مع البعيدين، من حيث أنهم أدنوا البعيد، وأبعدوا القريب في مناسبات مختلفة. وما كان ذلك إلاَّ تخبُّطاً منهم. وهنا أعني العلاقات الإنسانيّة على وجه التحديد، فليس القريب من ذوي الأرحام، بالضرورةِ، هو الأقربُ إلى القلبِ، وأظفرُ بالعاطفة، ولكنّه أقربُ إلى الإحسان والصدقة. وليس من العيبِ أن يكون البعيد، من ناحية الرّحم قريباً إلى القلب، فقد يكون أقربُ الأقرباءِ إلى القلبِ، وأحبّهم إلى النّفس، فكما يقال: "ربّ أخٍ لك لم تلده أمّك."

يستبينُ في مراسلاتِ بعض النّاسِ، في زياراتهم، وفي تواصلهم عبر وسائل مختلفة أتاحها العصر، أنّهم لا يميِّزون بين بعيدٍ أو قريب. فتجدُ الرسائل التي يبعثون بها في مناسباتٍ مختلفة هي رسائلَ عامّة، يوزّعونها للقريب والبعيد. رسائل تحملُ ذات المعاني المتداولة، وذات المشاعر التي استهلكت من كثرة ما تناقلها الناسُ. وهنا لا يشعرُ القريب بأي اختلافٍ في هذه الرسالة (العامَّة). أخبرني صديق أنّه، لكي يُهدي صديقاً له من الوجهاءِ بطاقةً في إحدى المناسبات، فإنه يميِّزها عن عشرات بل مئات البطاقات التي تُبعثُ إليه في مثل هذه المناسبات ذات العبارات الجامدة التي عفا عليها الزّمن، وحفظها الناس حتى لم يعودوا بحاجةٍ إلى قراءتها. فاشترى بطاقةً خاليةً من الكلامِ، وكتبَ فيها: "اشتريتُ هذه البطاقة بثمنٍ زهيدٍ جداً، لكنّني آثرت أن أحمّلها مشاعري الشّخصية لك، وما

يكنّه قلبي من تقديرٍ لشخصك، واعتزازٍ بصداقتك." وهكذا استرسل فيها كاتباً ما يعتملُ في قلبهِ من عباراتٍ (طازجةٍ)، تحملُ بين طيّاتها مشاعر دافئة، يقول الصديق: حينما دخلت مكتب هذا الصديق وهو المسؤول الكبير لم أجد على طاولته سوى هذه البطاقة رخيصة الثمن، دافئةُ العبارات، فقد اختارها من بين جمعٍ هائل من البطاقات التي أرسلت له.

لا يميِّزُ بعض النّاس الأقربَ إليهم – من ناحية العلاقات الإنسانيّة – فيدعونه إلى مناسباتٍ كما يدعون آخرين بعيدين عن طريقِ توزيعِ بطاقات عامّة، وقد كان يتوقّع أن تكون دعوته مميَّزة، أن تكون، مثلاً عبر اتصالٍ أو لقاءٍ شخصي. وللحقِّ فإن بعض النّاس – على الجانبِ الآخر – يولون اهتماماً لمثلِ هذه الأمور. فإذا دعوا الناس إلى مناسبةٍ، ميّزوا بينهم، فتلقّى القريبُ منهم دعوةً مباشرة عبر اتصال أو زيارة، وتلقّى البعيدُ بطاقةً أو رسالةً هاتفيّة.

وكم من أناسٍ حزنت قلوبهم، واستاءت أنفسهم، وهم يتلقون دعواتٍ من أصدقائهم القريبين كسائر الناس فقد حسبوا أنّهم الأثيرون لديهم، المقربون إلى قلوبهم، الذين لهم الحق في تمييزهم، وتفضيلهم لعلاقاتٍ حميميّة قائمة، ولرصيدٍ كبير من المودّة متراكم.

فإذا كان الله سبحانه يميّز في الدرجاتِ بحسب الأعمال، في عدة مواضع منها قوله سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ المجادلة/11، وقوله تعالى ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الأحقاف/19،فإن تمييز النّاس للناس وجعلهم درجات هو أمرٌ هام. يقول أحدهم: دُهشتُ من أخي استئثاره عليَّ أناساً، أعلمُ أنّهم بعيدون عنه في العلاقات لشأنٍ أُسريٍ خاص، فاستثقلتُ الأمر، وحينما عرضتُ عليه أن أقوم بمعالجةِ الأمر لأنني الأقربُ والأكثرُ تفهُّماً للإشكال الحادثِ، آثرَ أن يتركَ للغريبِ، البعيد فرصةَ معالجته. فقلتُ في نفسي كيف يؤثرُ عليَّ أخي إنساناً لا يمتُّ إلينا بصلةٍ في أمرٍ عائليٍّ. ولكن كم يُدخلُ الناسَ غرباءَ في أمورهم الشّخصيّة، يلجؤون إليهم دون سابقِ عهدٍ بهم، ودون علاقةٍ وثيقة،

بل لأنّهم أعجبوا بهم منذ اللقاء الأول، فأباحوا لهم بمكنون قلوبهم، وفتحوا لهم الأبواب واسعةً للإطّلاع على شؤونهم الخاصّة. ولقد شهدتُ على أحد النّاس، وقد آتاهُ الله من الفضلِ والمراتب العليا، لكنّه لم يكن ليميِّز في العلاقات الإنسانيّة بين إنسانٍ أوفى له العمل منذ سنواتٍ ومتملّقٍ ظهر له اليوم في لباسِ المخلص الوفي صاحب الطّاعة. حتى أنه لا يتردّد، إن أتاهُ واشٍ يشي على إنسانٍ أخلص له العمل، أن يوجّهَ بإرسالِ رسالةَ إنذارٍ له لأدنى أمر، وأسخف حادثة دون أن يستمع له. أو أن يقاضي من خدمه لمجرّدِ شائعةٍ يطلقها مغرضون. لا يعرفُ مثل هذا قدرَ النّاس، ولا يستحقّ وفاءهم.

كيف بالصديقِ، إن لم يشعر بتمييز صديقه له، أن يزداد قرباً وحميميّةً من صديقه؟ وكيف بالقريب إلى القلبِ أن يشعرَ بحبٍّ قريبه، إن لم يشعره في مناسبةٍ أو غير مناسبة بأنّه يحبّه، ويبوحُ له بمكنون شعوره ناحيته؟ إن هذا كرجل كان عند النبي، ﷺ، فمر به رجل، فقال: يا رسول الله إني لأحب هذا، فقال له النبي، ﷺ: أعلمته؟ قال: لا. قال: أعلمه. قال: فلحقه، فقال: إني أحبك في الله. فقال: أحبك الذي أحببتني له (رواه أحمد وأبو داود). وكيف بالزّوجِ يصوغُ أروع العبارات، وأدفأ الكلمات للآخرين، لكنّه يبخلُ بها على زوجته؟ فكيف ستشعرُ بقربها منه، وهي تسمعه يجود على الآخرين بأجمل الكلمات؟! إن إشعار القريبين إلى قلوبنا بمنزلتهم فيها أمرٌ لا جدالَ فيه، فذلك ما يوثّق العلاقة، ويديم العشرةَ، ويُشعر النفس بالإطمئنان إلى الآصرة القائمة بينهم.

نقاطٌ وفواصل

كما في الكتابةِ نقاطٌ وفواصلٌ، كذلك الحياةُ الإنسانيةُ مليئةٌ بالفواصلِ، حيث يسترسلُ الإنسان بين فكرةٍ وأخرى، وتجربةٍ وتجربة، ومليئةٌ بالنقاط، حيث يتوجّب الوقوفُ عند خلاصاتٍ بعينها، وعبرٍ وحكم. لكن هل ترانا نتمهّل في سيرنا فنتيح لأنفسنا رؤية الفواصل والتأمل عندّها؟ هل ترانا نضع نقاطاً عند آخر تجربةٍ أو ملاحظةٍ تمرُّ علينا؟ هل ترانا نُكثر من علامات الإستفهامِ أم لا نعير أمرها اعتباراً؟ هل ترانا نخبُّ في سيرنا دافعين أقدامنا إلى مسارات لا نعرفها حتى يصل بعضهم منّا إلى ما وصلَ إليه ذلك الذي سيقَ إلى المشنقةِ وفي طريقه إليها نظرَ إلى الجبالِ البعيدةِ وقال: آه، ما أجملها من طبيعة! تمرُّ علينا الأيّام تباعاً بشكلٍ سريعٍ، وكأنّنا في مسلكِ نهرٍ هائج التيّار، مليء بالتّعرجاتِ والانحناءاتِ، فلا نلتفت لجمال ضفّتيه، وإنّما نكفاح كي لا ينقلبَ قاربنا في النهرِ، لا يرانا ناظر بعد تلك اللحظة. فما الذي يدفعنا إلى سلوكِ هذا النهرِ الوعر، أهو رتمُ الحياةِ أو رغبات أنفسنا؟

يقال: تفكيرُ ساعةٍ يوفّر عليك ساعات عند التنفيذ، يوفّر عليك مواردَ وطاقات وزمنٍ وآمالٍ. فهل نقفُ ونفكرُ؟ هل نعرفُ أين نضع الفاصلةَ في حياتنا اليوميّة وأين نضع النُقط؟ أقولُ هذا الكلام والفرائض الدّينية تتمثّل أمامي، فهي محطّات تفكير، وفواصلُ تأمّل، ونقاطُ توقّف، وهي ميادينُ أسئلة. فالصلواتُ الخمس مراجعاتٌ يوميّة للنّفس، واستذكارٌ لما مضى، وتمثُّلٌ لما سيأتي. ورمضانُ سانحةٌ سنويّةٌ، كريمةٌ للتدبُّر الحكيم. والحجُّ سانحةُ العمرِ. هاهي، إذن، حياتنا إيماننا ملآى بسوانحِ التفكيرِ والتأمُّل والتدبُّرِ والمراجعةِ. وهذه الفرائض محفّزاتٌ للروح وحامياتٌ للنفس. فالصلاةُ تنهى عن الفحشاء والمنكر، ورمضانُ شهر مغفرةٍ ورحمةٍ وعتق من النار، والحج ولادةٌ جديدة، والزكاةُ تطهير. ثم تكثرُ الفواصلُ الأخرى: قراءةُ القرآن، الصدقةِ، البر والإحسان، الذكر، وشُعَبُ

الإيمان السبع والسبعون شعبة! فهل يجعلُ الواحد منّا الصلاةَ فاصلةً بين فكرةٍ وأخرى؟ هل يجعل الصيامَ نقطة توقّفٍ عن عادةٍ سيئةٍ، أو سنّةٍ مذمومةٍ، أو فعلٍ مكروهٍ، أو نيّةٍ بغيضةٍ، أو سلوكٍ مشينٍ، أو شبهاتٍ أو حرامٍ بيّن؟ هل يصبحُ الحجُّ ولادةً أُخرى طاهرة؟

بثَّ الإيمانُ إذن الفواصل والنقاط في كل ممارسةٍ من ممارسات الحياةِ الإنسانيةِ، وفي كلِّ لحظةٍ من لحظاتها، وما على الإنسانِ المسلم إلاّ أن يقف عند كلِّ نقطةٍ، ويتفكّر عند كلِّ فاصلة. ويُجيب عما تثيره علامات الإستفهام. وأغلبُ الناسِ تدفعهم الحياةُ دفعاً متواصلاً لا يستطيعون التفكير فيه ولا النّظر، قد يؤدُّون فرائض الدِّين، لكنَّ أفئدتهم متعلّقةٌ بشؤون الدنيا، وما فرائضُ الدَّين إلاَّ سوانحُ للتخلّي عن أشغالِ الدُّنيا، وإشغالِ القلبِ بالذكرِ. بعضُ النّاس ليس لهم من الصلاةِ حظٌّ سوى ركعاتٌ لا يحسُّون بمذاقها، وحركاتٌ لا يشعرون بطعمها، والصلاةُ راحةٌ للقلبِ، كما قال عنها النبي، ﷺ، وهو يطلب من بلال أن يقيمها "أرحنا بها، يا بلال." أقول ليس لهم من الصلاةِ غير ركعاتٍ خاوية، أمّا حياتهم فخليَّةٌ من منافعها. يحكى أن قاضياً كان ينتظرُ الرّشوةَ من أحد المتخاصمين، فجاءه بعد إنقضاء العشاء، فبادره القاضي غاضباً: مالك جئتني متأخراً، فتأخرتُ عن صلاة الجماعة! ينتظرُ الرشوةَ ويغضبُ للتأخر عن صلاة الجماعة! وآخرون في زمننا هذا كانوا يقطعون مسافةَ السفر فيصلّون المغرب والعشاء جمعاً ثم يعودون للحانةِ، حتى إذا حانت صلاة العشاء، تجنّبوا قضاءها وهم سكرى. ربّما حسبوا أن النّهي عن إتيان الصلاة وهم سكرى ما زال سارياً ولم يُنسخ بعد!

لم يرَ الإنسانُ فواصلَ الأحداثِ، ونقط العبارات، التي تثمرها التجارب وقت الأزماتِ وحسب، فلا يفتحُ قلبه إلاّ حين تتمثّل الحقيقة أمامه. ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق/22 ، وقد كانت الحقيقة بين يديهِ لو أنّه كشف بنفسهِ عن غطائها، وعمل بالأمر. ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ

تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾ الكهف/28،

الصبرُ والثباتُ هما ركيزتان، إذن، لرؤيةِ الحقيقة، لرؤية الفواصل والنقاط وعلامات الإستفهام في حياةِ الإنسانِ. فهل يراهما من من كان في غفلةٍ من أمره، فأغفل الله قلبه؟

الإيمانُ هو حلٌّ كل معضلةٍ نفسيَّةٍ معقّدة. فالعالم الغربي تحديداً يُخرجُ علوماً للعلاجِ النفسي علماً بعد آخر، بينما يحتوي ديننا هذه العلومَ جميعها ما عرف وما لم يعرف بعد. ولكنّنا بعيدون عنها وأهمُّها ذكرُ الله: ﴿ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ الرعد/28، والتسبيحُ والإستغفار، وأزعمُ بأن لا علمَ يخرجُ من حدود ما جاءَ به دينُ الإسلام، حتى أنني قرأت أن مستشرقةً ألمانية تدعى (أنجيليكا نويفيرث)، بدأت بمشروع أسمته مشروع (الماموت) نسبة للفيل العملاق المنقرض. وهذا المشروع ينقسم لفريقين: مهمة الفريق الأول وضع بنك للمعلومات، وتسجيل كل ما يتعلق بالقرآن، منذ أن نزل على محمد ﷺ وحتى الساعة. أمّا الفريق الثاني، فمهمته تحليل العمل الأول، بما يشبه دراسة التشريح والفيزيولوجيا في الطب. هذا المشروع يهدف إلى وضع القرآن تحت المجهر كلمة كلمة، وسوف يتم دراسة (كرونولوجيا) السور مثل البناء الميكروسكوبي لمدة 18 عاماً. هذا إعترافٌ بمعجزةِ القرآن وعظمةِ محتواه. وقد كنّا أحرى أن نستدلَّ نحن قبل غيرنا بآياتهِ كي نقدّمها دليلاً للعالم من معينِ كتابنا المقدَّس. ولكن أغلبنا يمرُّ مروراً سريعاً بالآياتِ فلا يكترثُ لمعاني ألفاظها ولا لمغزى تصويرها، وهو يقرأها آلاف المرات عبر عشرات السنوات. ولقد كانت حكمةُ الصحابةِ بالغةُ الأثرِ حين كانوا يطبِّقون ما تُنزل كل آيةٍ له، ثم يُقدمون على حفظ غيرها بعد أن يستيقنوا من تطبيقهم للأولى.

أمّا الكثيرون منا فلا حكمة الصلاةِ ولا الحج ولا الزّكاةِ ولا الصيامِ ولا القرآن قد أصابت منهم عين القلبِ، فأدركوا معانيها السّامية إدراكاً بيّناً، واستكنهوا مغزاها استكناهاً جليّاً. فكم مصليّاً يعرفُ معنى تكبيرةُ الإحرام،

أو الركوع أو السجود؟ كم ممن حج يعرفُ معنى ثوب الأحرام أو الوقوف بعرفة أو السعي بين الصفا والمروةِ أو الطوافُ أو رمي الجمرات؟ كم صائمٍ عرف معنى الصيامَ ومغزى أن يجعل الله جزاءُ الصيام بيده وحده؟ كم ممن عرف أثر الزكاةِ، الصّدقةِ، الذكر، التسبيح، قراءة القرآن بتمعنٍ عميق؟ لو عرف أحد منّا حكمة هذه الفرائض السماويةِ لاستقام أمره، وسعد حاله، وكشف الغطاءُ عن بصره. يقول النبي، ﷺ، "يأتي زمانٌ على أمّتي القابضُ فيه على دينهِ كالقابض على جمره." فكم هم الذين يقبضون الجمرة بأيديهم في مقاهي تدخين الأرجيلة (الشيشةِ)... وفي شهر رمضانَ بالتّحديد؟!

وهم!

ليس تحضُّراً أن تجلسَ امرأة ناضجةٌ، أو فتاةٌ ناهدةٌ في مقهى يرتادهُ الخلقُK وهي تمسكُ بأنبوب الإرجيلةِ، وتنفث الدُّخانَ بنشوةٍ عالية، ومتعةٍ مستنكَّرة. هذه المرأةُ أو تلك الفتاةُ تظنُّ – ونحنُ في زمنِ المعرفةِ والتنوير – أنَّ نفثات الدُّخانِ سترفعُ من قيمتها الشخصيّةِ، وتفرغُ من شحنتها النَّفسيّة، وتحلُّ من كُرباتها، وتنفِّسُ من احتقانها، وهي في الأصلِ تحطُّ من شأنها، وتبخسُ قيمتها. فكيفَ يُعقلُ لأنثى ناعمةُ الحسِّ، رقيقةُ الشّعورِ، فاتنةُ الحُسنِ أن تلجَ بقدميها مرادمَ التّبغِ البغيضةِ، وتطأ بقدميها مقاهي الروائح العفنة؟ كيف بها وهي التي تربّي الأجيالَ أن تدنِّس جسدها الفوّاحِ بالطِّيبِ، وثيابها الضوّاعة بالشَّذى، وتستبدلها بروائحَ كريهةٍ لا تنسجمُ مع كيانها كوردةٍ نفّاثةِ العطرِ، ولا تتقبلها أنفُ الرّجلِ الباحثِ فيها عن رائحةِ الأنثى! مسكينةٌ هي إذن تلك التي وقعت أسيرةٌ لمفاهيم خاطئةٍ عن التطوِّر، وعن الرّغبةِ في "مساواةِ الرّجل"... مسكينةٌ، تثيرُ الشّفقة، تلك التي لا أتخيّلها تنبتُ إلاّ في بساتين الزّهرِ بين النرجسِ والياسمين، فإذا بها تقعدُ – كما تقعدُ "المعلِّمة"[1] في بعض المقاهي العربيَّة بهيئتها المترجّلة، وصوتها الأجش!

ليس تحضُّراً أيتها الأنثى الجميلةِ أن تضعي رجلاً فوقَ أخرى في مقاهي يذوي فيها العمرُ سريعاً، وتحترقُ فيها أوراقُ الزّمن في تهافت، حين يكونُ جمالكِ، أناقتكِ، نضارتكِ، حسُّك الرقيق حطباً للنارِ التي تستعرُ بـ"المعسّل" وإخوانه. أنتِ ملهمةُ الجمالِ، وقصيدةُ الحبِّ فكيف سمحتِ لنفسك أن تشمّي رائحةَ المواخيرِ والمقاهي، بل أن تكوني من روّادها العامرين؟!

---

(1) المعلّمة لفظ شعبي تطلقه بعض المجتمعات وتعني به المرأة المسترجلة التي قد تكون صاحبة مقهى أو غيره.

إنني لأحسبُ أن أراكِ تعمرينَ بيوتاً، وتعدِّينَ أجيالاً، وتعلّمين مجتمعات، وتبنينَ أمّةً، وتُرسينَ قيماً، وتنشرينَ فضيلةً، فأنتِ كلَّ المجتمعِ إذ أنت النِّصف الذي يلدُ النِّصفَ الآخرَ فأنتِ في الحقيقةِ راعيةُ المجتمع، يقول شوقي:

ولم أر للخلائقِ من محلٍ يهّذبها كحضن الإمّهاتِ

أمّا أنتَ أيّها الرّجل العربي "المشيِّش" فيكفيك فخراً أنّك غزيتَ العالم الغربي بـ"الشيشة"! لك الفخرُ الذي تُباهي به السّماكينَ[1]! راداً بذلك على فضائل الغربَ بما تلبسه من قمّةِ رأسك حتى أخمص قدميك. وما يحيط بك من مخترعاتٍ، ووسائل معيشةٍ أساسيَّة ورفاهيةٍ، فمقاهي "الشيشة" قد بدأت تتوسّع في أمريكا مصاحبةً بالرّقص الشرقي الذي يقدّم كمفردةٍ من مفردات الثقافةِ والتراث العربيين! فماذا يقول "مايكل مورجان"، مؤلّف كتاب، "تاريخٌ ضائع"، الذي يعيدُ فيه تذكير العالم بالتاريخِ المجيد الضائع للمسلمينِ؟ أتراه يصرخُ كما صرخ نيوتن "يوريكا" أي وجدتها، حين اكتشف الجاذبيَّة... حيث يرى "مورغان"التاريخَ الضائع في مقاهي الشيشة التي غزا بها العربُ الغربَ!

وفي الوقتِ الذي تتّجهُ فيه أوروبا إلى حظر التدخينِ في الأماكنِ العّامة، تكثرُ لدينا مقاهي "الشيشةِ". كان أحدهم يتباهى بحبِّه لهولاندا لأنّها تبيحُ كلَّ شيءٍ حتى بيع الهيروين في بعض شوارعها. فصعق حينما قلتُ له أنّها حظرت التّدخين في الأماكنِ العامّة بما فيها المطاعم والحانات منذ أيام!

المشكلةُ الأساسيّة في المدخِّنِ ليست أنّه لا يدركُ الأمراض المتعلِّقةِ بالتّدخين ومنها الخطيرة، فبعض المدخنين هم أطبّاء. المشكلةُ هي في ما يمكن أن يسمِّيه علم النّفس "البحث عن الإثارة sensation seeking". حين يجازفُ الإنسانُ إلى ولوجِ عالمٍ شاذ عن مسلكهِ الاجتماعي لإضافةِ عادةٍ تُخرجهُ من رتابةٍ في العيش،

---

[1] السماكين نجمان عملاقان أحدهما هو " السماك الرامح " في كوكبة " العواء " أو الراعي والآخر هو " السماك الأعزل " في كوكبة " العذراء البروجية " والسماك الرامح ألمع من السماك الأعزل وقد تردد ذكرهما كثيرا في شعر العرب.

أو ملل في الرّوتين، فإذا به يقعُ فريسةَ هذا الفضول، وتلك النّزوة ويصبحُ أسير شهواتهِ وسجينَ نزواته.

أمرٌ آخر يقودُ إلى هذا الطريق هو المعاناةُ من قصورٍ في الشخصيةِ، وعقدةٍ في النّفس، وخَلَلٍ في الإيمان يقودُه إلى ملء فراغٍ بحجّةِ العلاجِ أو النسيانِ المؤقّت أو التخدير المعنوي. وما يحدثُ هنا هو التحديدُ غير الصائبِ للعلاجَ والتهرّب مما يسمى "الاستراتيجية التتابعيّة المنطقية" التي تقترحُ "الحل خطوةً خطوة"، والتّهرب من الحلول البديلة للمشكلة.

لم يكنِ التّدخينُ حلاً في يومٍ من الأيامِ، إنّما كان غواية. فكيف لشبابٍ يذوي في عقبِ سيجارةٍ، أو جوفِ نرجيلةٍ أن يكون لمبرّر الخروجِ من مأزق نفسي. هي الغوايةُ وممارسةُ التمويه على النّفس. إنّها خدعة مكشوفةٌ يمارسها الجسدِ المتمرد على العقلِ المقيّد. وهي إعلانٌ سافر عن عدم القدرةِ على ضبطِ إيقاع المبادئ القويمة، والتّحكمِ فيها، وتسليمُ المفاتيحِ للجسدِ كي يفتحَ لنفسه أبوابَ الغواياتِ والشهوات. وهنا يقعُ الفردُ في تناقضٍ بين المفاهيم. فكم من متشدّقٍ بالمعرفةِ، متباهٍ بفكرهِ، مغترٍّ بقدرتهِ على الإقناعِ هو في الأصلِ ضعيفٌ في الحجّةِ، هزيلٌ في البرهان إذ وقع في إشكاليةٍ عميقة الأثر تمثّلها مقولة جاءت في الأثر "من عرفَ نفسه، عرف اللّه". فمثل هذا الإنسانِ لا يعرفُ نفسه حقّاً، وبالتالي فَقَدَ قوةّ الحجّةِ، ومبرّر الإقناع. لقد وعدتُ مجموعةً من الاصدقاءِ والمعارفِ بأنني سأكونُ قاسياً عليهم في كتابتي عنهم، وتأنيبي لهم، فهم يعلمون بُغضي الشديد لعادةِ التدخينِ وأخذي المواثيق المتكرّرة منهم. ومن لا يعرفها منهم فلا يتردّدُ، ولا يخجلُ في ضربِ المواعيدِ لي بمقابلتهِ في مقهى"شيشة"، وذلك ما لستُ بفاعلهِ لأنني أريدُ أن ألتقي بصاحبي وهو يفقدُ الإيقاعَ على إدراكهِ وعلى تركيزه، في الوقت الذي أكافح فيه للحفاظ على تركيزي أيضاً لأنني لن أركّز على ايّةِ كلمةٍ سيقولها وأنا أصارعُ السحائب الملبّدةَ بالدُّخان.

أيتها الأنثى الجميلةَ، ثقي أن الجمال الباهرَ الذي لا محالةَ يذوي مع الهَرم لن ينتظرَ طويلاً كِبر السنِّ، ولن يحفظَ لك الجسدُ اللّدنُ تناسقَ أبعادهِ حين تداهمهُ جراثيمُ الأمراضِ التي تتدفّق من أنابيب "الشيشة" متنقّلة من رئةٍ فاسدةٍ لأخرى

أكثرُ فساداً. وأنت، أيّها الشّابُ الذي تتوسّدهُ أحلامُ الوطنِ، وفتوّة الرجولةِ انظرُ في مرآةِ قلبك، سترى أن لديك من القرارات المعطّلة ما تركنها في زوايا العفنِ ونفايات التبغ. وفي يومٍ من الأيامِ ستضطرُّ إلى إشهارها، ولكن بعد أن يفوت الأوان عندما يصارحك الطبيبُ بأنّك مصابٌ بمرضٍ لا يُرجى شفاؤه. فتروي للآخرين فشلك المرير وضعفك المتكرّر بمواجهةِ نفسك، وأنت تذوي تماماً كالسيجار الذي كان يحترق في جوفك.

الدافعية

لا يقودُ الإنسانَ عاملٌ كما تقودهُ الدافعيَّة. فقوى الإنسّانِ العضليّةِ ليست آلآتٌ صمّاء لا تحرّكها الدوافعُ المعنويّة، إنّما هي رهنُ الحالةِ النّفسيّةِ، فهي نتيجةٌ لما يعتملُ فيها، ومحصّلةٌ لما يحرّكها. وإذا كانت الآلةُ ذاتها تعملُ بنشاطٍ بحسب قوّةُ الدافعية التي تضخُّ فيها الوقود، فكيف بأثر الدافعيّة على الإنسان؟ إن أثرها – بلا ريب – أعظمُ وأعمق. لقد خمدت قوى، وغاضت قدرات، واضمحلّت عزائم بسبب فقدان الدّافعيّة. وفي المقابل فإنّ ما فعلتهُ الدافعيّة في النُّفوس كان عظيماً. فقد جعلت خائر العزيمةِ ذا جلدٍ وبأس، وصيّرت الطموحَ إلى مجتهدٍ ذي شكيمةٍ لا تبارى، وحوّلت البائس إلى متفائل يمضي والنورُ خطّ أفقه الذي لا يغيب.

إنّما حفلت مجتمعاتنا بنماذج مريضة من البشرِ، أولئك الذين لا يلتفتون نحو قيمة الدافعيّة، ولا يؤمنون بها، وهم، إن كانوا مدركين لها، فهي لا تتوافق مع طبائعهم البائسة، وأنفسهم الضعيفة التي لا يسعدها أن ترى آخرين مكلّلين بالنّجاح. وهذا النموذجُ من النّاس مستفحلٌ، منتشر كانتشار نباتات الهالوك والحامول[1] الطفيليّة التي تسبّب الضعف الشديد للنباتات النافعة. نموذجٌ متكرِّر من مكانٍ لآخر، وكأنَّ الرّيح قد نثرت بذوره في جميع الضواحي والسواقي والسهول، فعمّ وتكاثر. لا تكمنُ مهمّة هذا النموذج في وضعِ الحواجزِ والمعوّقات أمام الطموحين، وعرقلة تقدّمهم إنّما، ما هو أخطرُ من ذلك، الاستخفاف بهم وتحقير جهودهم. وهذا لا يرمي إلى وقف تقدّمهم بل إلى دفعهم أو (ركلهم) إلى

---

(1) الهالوك والحامول نباتات طفيلية. يعيش النبات المتطفل معيشة طفيلية على نباتات وعائية، وهي ترسل ممصاتها في تلك العوائل لتحصل على ما تحتاج إليه.

الوراء كي لا تنهض لهم عزيمة، ولا تقومُ لهم شكيمة، ولا يُعرفُ لهم مطمح، ولا يبينُ منهم بريق.

قال لي أحدُ الأصدقاءِ عاد مؤخراً مكملاً دورةً تدريبيّة عالية المستوى حصل بعدها على شهادةٍ موقّعةٍ من الرئيس الأمريكي ووزيرة خارجيّته، قال لي: إن كلماتك التي كنت تبعثها لي هي التي أبقتني صابراً جلِداً لمواصلةِ الدورة، فقد جعلتني أعيشُ الإنجازَ قبلَ ذلك بأشهر، وها أنذا أرى الصورة التي رسمتها لي ماثلةً أمام عيني، مستذكراً كلَّ كلمةٍ قلتها لي. إن بعض الكلام له تأثيرٌ في النّفسِ، ووقعٌ في الضمير، فهو يحرّكُ فيه كوامنَ قد يئست من الانبعاث والاستشعار، وآثرت أن تطمر نفسها مخافةَ الكبت. منذ فترة كانت لدينا احتفالية، طلبت فيها من راعي الحفل وهو مسؤول بارز أعلمُ أنّه صاحب تجارب تراكميَّة، وثروةٍ من الخبرات، كما أنني أعلم عن مستوى الدافعية العالي الذي دفع به شخصيات، وأثّر به على أُناس تحوّلوا من أبسط الوظائفِ إلى أعلاها وأهمّها... طلبتُ منه أن يتحدّث إلى الجمهور، فلبّى طلبي، وتحدّث بكلامٍ كان له وقعه عليهم، مركّزاً على أهميّةِ العلمِ وقيمته وضرورة التضحيةِ من أجله. وأسعدني أنني كنت أسمع بعض الصبيةِ والشباب يرددون عباراته بعد ذلك، متمثلين بها. يعدُّ مثل هذا الرّجل، صاحبُ الدافعيّة العالية، نموذجاً أصيلاً من النماذجِ الرّاقيةِ في المجتمع. يروي لي صديق مقرّب: أنّه وبعد سنين من المثابرةِ والدراسةِ المسائية وتكبُّدِ المصاريف الماديّةِ وحصوله على مرتجاه من الشهادات العليا يستخفُّ به موظّفون مريضون لم يجدوا سوى الاستخفاف بجهده وسيلة للتشفي مما يعتمل في صدورهم من حسد وغل. أمّا الدّافعون فقد اقتصروا على المديحِ المجرّد. أهال أولئك عليه كلمات الاستخفاف، وأهال هؤلاءِ كلمات المديحِ، ولكنّه في النهايةِ لم يتقدّم لما يستحقُّ من مسؤولية. وهنا نقول: إن الإنسان المجتهد يستحقُّ الثناءَ، وأهمُّ منه أن يتحوّل الثناءَ إلى فعلٍ كي يشعرَ بأنّ هناك من يقدّر جهده، فلا يسمعه كلمات الثناء المجرّدة فحسب، بل أن يعمل على يوكل إليه ما يستحقُّ من مسؤوليات كي يستفيدَ من خبراته ومعرفته وقدراته.

إن نقص الدافعيّة لسائدٌ في بيوتنا، متمثلاً في كثيرٍ من الردود على من يريد أن يتحمّل مسؤوليةً من الأبناء، أو يقوم بعمل ما حيث يأتي الرّد: لا تستطيع، أو لا تعرف، أو أنّك لا تملك الخبرة. وهكذا تتوالى الردود التي لا تصنع الدافعيّة في الأبناء، ولا تحفّزهم لما يصقل مواهبهم وقدراتهم، في حين تتكاثر الكلمات السلبيّة، الهدّامة في البيوت، الكلمات التي تخفّض من مستوى الدافعية وتهوي بالنفوس إلى مدارك الإحباط واليأس. ولو كثرت كلماتُ التشجيعِ والتحفيزِ، والمؤازرةِ في البيوت لتغيّرت النفوس في المجتمع، ولسادت قيم الدافعية العالية المستوى. أمّا المؤسسات، فحدّث ولا حرج من ندرةِ الدافعيّة. فقليلٌ ما تحفّز مؤسسة موظفيها تحفيزاً ماديّاً أو معنوياً، ويُحسب لإحدى المؤسسات الحكومية إقامتها احتفالاً سنوياً تقوم فيه بتكريم المتميّزين لديها وهذا أمرٌ مهمٌّ يحسبُ لصالحِ الإدارةِ العليا فيها. يقول الشاعر غيث القرشي:

يا ربان المركب هيا وارفع أجنحة التغيير
حرك ساكننا وادفعه واخلق اجنحة لنطير
حفز داخلنا واصقله وابدأ، كي نبدأ ونسير
ان الأقدار بأكملها تذعن لو شئنا، وتصير

إنّ كلماتٍ مشجّعةٍ يهمسُ بها إنسانٌ مؤثّرٌ صاحبُ تجربةٍ مثريةٍ في أذن شابٍ لتصنعُ فيه المعجزات. وإن فعلاً يقومُ به مسؤول ليدفع به متميّزاً نشطاً ليجعلُ منه قامةً فعّالة في وطنه. وفي المقابل فإن الكلمات المحبطة والأفعال المعيقة للنجاح، لتشكّل عواملَ مثبّطة للنفس لها أثرها السلبي عليها. ومن هنا لا نهضةَ ترجى لأمّة، ولا تقدّم يُؤملُ لشعب.

من قيمِ التعامل

السوقُ ليسَ ميدانَ بيعٍ وشراءٍ وحسب، بل أهمُّ من ذلك. فهو ميدانُ قيمٍ وأخلاقيَّاتٍ اجتماعيةٍ وطبائعَ شخصيَّةٍ. في السُّوقِ يمكنُ للباحثِ في الحقل الاجتماعي أن يستدلّ على أخلاقيّات مجتمعٍ ما، وعلى القيمِ التي يتّبعها، والسمات التي يتّسمُ بها، ولعلَّ الإسلامَ انتشر وعمَّ في كثيرٍ من البلدانِ من خلالِ السُّوق على أيدي تجّارٍ عرفوا أخلاقياتِ البيعِ والشّراءِ، وأظهروا من اللُّطفِ والسّماحةِ ما لم يُعهد من التّجار، وأبدوا من الرّحمةِ ما يُلفت.

إن المستهلكَ ليقضي في الأسواقِ شطراً من حياتهِ بين مشترٍ لمؤونةٍ، أو متزوّدٍ لزاد، ولهذا يصبحُ السّوق ميداناً هامّاً من الميادينِ التي على المجتمعاتِ أو ترعى تعاملاتها، وتعتني بما يحدثُ فيها. فلم يحذّر النبي، ﷺ، بقوله: ("يا أيها الناس، لا غش بين المسلمين. فمن غشّنا ليس منّا."رواه إبن عمر.) إلاّ بعد متابعةٍ لخُلق الباعة. إنّما يلفتني أن كثيراً من أسواقنا لا تعتني بأمورٍ أساسيّةٍ: أوّلها طرق التعاملِ مع المستهلك، فلا أذكرُ إلاّ أمثلةً قليلةً في الطرقِ المُثلى التي على الموظّفِ أو العاملِ أو البائع أو المحاسبِ اتباعها. فالظّاهرُ أن المؤسسات والشركات والمحلاّت لا تكترث بتعليم موظفيها أخلاقيات التعاملِ مع المستهلك قدر اكتراثها بالمؤهّلات أو القدرات على إنجاز العمل. وهي ضعيفةُ التركيزِ على ما يسمّى في الغرب "خدمات الزبون customer services"، ولهذا تجدُ التّجاهلَ للزّبون، وعدم الاهتمام به، وعدم توجيه النصح إليه في ما يريدُ اقتناءه صفاتٍ واقعيّة في كثيرٍ من أسواقنا. ذات مرّة، قصدت محلاً لإصلاح أجهزة نظم المعلومات في جهازي، وفي نهاية اليوم تم إصلاح العطل، لكنني تفاجأت بأن مشغّل الأقراص قد تعطّل وحينما عدتُ إليهم بهذه الملاحظة، تبرّأوا من المشكلةِ التي لم تكن في الجهاز قبل أن أسلّمهم إيّاه، فرجعت بلا فائدة، لكنّهم أعقبوني برسالةٍ تقول: "شكراً لك على اختيارك لنا، عد ثانية." وكيف لي أن

أعود وقد رأيت منهم سوء المعاملة. في إحدى المحلاّت الكبيرة، سألتُ موظّفاً عن سلعةٍ ما، فقال لي وهو لا يبارحُ مكانه يملأ أحد الأرفف: ربما هناك في الجانب الخلفي.. فأنا غير متأكّد. فردّدت عليه: إذا لم تكنْ أنت متأكّداً، فكيف حالي أنا؟ هذا الموقف ربطني على الفور بموقفٍ مناقض حدث لي في إحدى الدّول الأوروبيّة، حينما كنتُ أسألُ موظّفةً عن سلعةٍ ما، فمضت لتريني مكان البضاعة المطلوبة ثم نادت زميلاً لها، ليقرأ مواصفات الصنعِ حتى وجّها لي النصيحة لأفضل ما يمكنني إقتناءه. إن النصيحة التي توجّه للزبون في أدبيات البيع الغربيّة هي أساسٌ من أسس بناءِ علاقةٍ متينةٍ، ودائمةٍ مع الزّبون، بينما لا تجدُ من يوجّهها لك في أسواقنا. إنّما تسمعُ بدلاً عنها: "لا أدري!" فكم وجّه لي غربيُّون النّصيحة لشراءِ بضاعات أفضل أو سلعٍ أمثل من محلات منافسة. وفي أسواقنا لا تجدُ من العاملين في المحلات – إلاّ قلّة – من يوجّهون لك النصيحةَ التي تحتاجها لشراءِ السلعة التي تناسبك.

وفي حين تكون التّعاملات مع الزبون أو خدمته هي الميزة التنافسيّة في السوق، فإن الكثير من العاملين في المحلات الصغرى أو الكبرى لدينا لا يتقنون فنَّ التعامل مع الزّبون، ففوضاهم وأصواتهم ومزاحهم وكلماتهم وتجاهلهم هي ما تظهر في الأسواق أكثرَ من غيرها. كانت إحدى الموظّفات تزنُ لنا الخضار والفواكه، دون أن تقطع حديثها إلى صاحبتها حول شأنٍ من الشؤون، ولم ترفع إلينا رأسها، ولم تلقِ لنا بأيّةِ نظرة، لكننا - رغماً عنّا - عرفنا قصّتها التي كانت تسردها من الألفِ إلى الياء. موظّفو المحاسبةِ هم أيضاً في هذا التيّار فلا تتلقّى ابتسامةً ولا تحيّةً منهم، بل وجوهٌ واجمةٌ، أو أفواهٌ صامتة، إلاّ بالطّبع إن كانت تربطهم الأحاديثُ والمزاحات مع زملائهم. يعيد أحدهم إليّ ما تبقى من الحساب وقد بسط يديه دون أن ينظر في وجهي. ومحاسبٌ آخر يقول لزبون اشترى سلعة ليس فيها سعر: إمّا أن تتنازل عنها أو تعود لتستبدلها بأخرى يظهر فيها السعر. إحدى الموظّفات كانت حالة إستثنائيّة، ترينُ البسمةُ على وجهها، ابتسمت في وجوهنا، قلتُ لها: "شكراً لك لأنك تبتسمين في وجوهنا وتردّين تحيّتنا." قالت: "هذا طبعي الذي أتعاملُ به مع النّاس، وأنكرُ عدم التطبّع به لدى بعض زملائي."

مرتادو السُّوق بشرٌ لهم مشاعرَ وأحاسيس، الأمر الذي يعني أنّ التعاطي معهم باللّطف وحسن والتعاملِ والتقدير هو أمر بالغ الأهميّة والحساسيّة، لكن تظهر العملية وكأنّ البشر عند المحاسبة مجرّد آلات، واحدةٌ تعدُّ وتحصي البضاعة وتُجملُ مبلغها النهائي، والأخرى تدفع المبلغ المطلوب بصمتٍ، ووجوم. هذا المشهدُ لا يوجدُ في الغربِ ذلك الذي يصفه بعضهم – ممن لم يعرف عنه – بأنّه فاقدٌ للمشاعرِ الإنسانيّة. ولهذا فإن أهميّة التركيز على أخلاقيات التعامل مع الزّبون هي أهميّة لا مراءَ فيها، ومن هنا، يتوجّب على القائمين في السوقِ – في شؤونه المختلفة – تعليم أخلاقيات خدمة الزّبون لعامليهم وموظفيهم وترسيخ أهم المبادئ الأساسيّة للتعاطي مع المستهلك.

نحنُ أحرى من غيرنا برقّةِ التعامل، ولطفِ الأخذ والعطاءِ، وحسن التقدير في أسواقنا – كما في جوانبنا الأخرى – فديننا، باختصار، هو المعاملة، كما جاء في الحديث الشريف "الدين المعاملة". فأين هي المعاملةُ الحقّة، اللّطيفة، الراقيّة في كثيرٍ من أسواقنا؟

الرسالة

لا يدرك أغلبنا أهميَّة صياغة الرسالةِ التي يجبُ على كلِّ واحدٍ فينا أن يسطّرها لكي تكون مناراً وشعاراً له، وليس هذا فحسب بل أن يلتزمَ بمضمون الرسالة التي وضعها لنفسهِ، والتي جاءت بعد مخاضٍ عسيرٍ، وتأنٍ مدروسٍ، ورؤيةٍ وتشاور وتأمُّل. وهذا شأنُ الأسرة، فلا تجدُ أنَّ أسرةً قد علّقت على جدران بيتها، أو دفاتر أبنائها، أو حفظت عن ظهر قلبٍ رسالتها كأسرةٍ في الحياةِ. والرسالةُ أمرٌ هامٌ يساعدُ على المضيِّ إلى الأهدافِ بصورةٍ مستنيرة، التزاماً بالوسائلِ المعلنةِ فيها. والرسالة، كما يقول تشارلز جارفيلد، "مصدر للأداء المتميز." ولست لائماً هنا لأن صياغةَ الرسالةِ مسألةٌ تحتاجُ إلى قدرتين فكريَّةٍ ولغويَّةٍ كبيرتين. وأهمُّ من هذا الالتزامُ الصادقُ بما جاءَ في تلك الرسالةِ من قيم وأهدافٍ ووسائل من كلِّ فردٍ من أفراد المجتمع.

لقد وضع الحقُّ، سبحانه، رسالتهُ في خلق الإنسان بشكلٍ مختصر، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات/56، وبالتالي، كان على الإنسانِ أن يضعَ رسالته التي تترجم هذه العبادةَ في مسعاه الحياتي، وفق القيمِ الفاضلةِ، والوسائل السليمة التي تصل به إلى تحقيق الهدفِ الرّباني من خلقِ الإنسان.

في حين تخطُّ الكثير من المؤسسات الخاصة في الغالب رسائلها في صالات الاستقبال، لكن قلّما يجدُ المتعامل معها صدق تلك الرسالةِ في تعامل إداراتها أو موظفيها. أقول هذا، وأنا أتذكّر أنني وقفت منذ مدةٍ قصيرة لكي أدفع أجر العلاجِ في أحد المستشفيات الخاصَّة، فلفتت نظري رسالةُ ذلك المستشفى التي كُتبت باللُّغةِ الإنجليزية، وقد وضّحت فيها أولويةُ الاعتناءُ بالجانبِ الإنساني قبل العلاج الصحي. وهنا قفزت إلى ذهني على الفور صورة الطبيب الذي كان يُعالجُ ابني الصغير منذ قليل، وهو متجهّم الوجهِ، شاحبُ القسماتِ، لا يفترُّ فمه عن

ابتسامة. يخيطُ رأس الطّفلِ وكأنّه يخيطُ كرةً جلديَّةَ الإهاب. قلتُ: أينَ الرسالةَ من الطَّبيب. ثم تحدّثتُ مع طبيبةٍ عربيّةٍ في المستشفى ذاتهُ عن هذه المسألة، وقد كنتُ أعنيها أيضاً فقد كانت في نزاعٍ مع المرضةِ والرجلُ المستلقي على السريرِ انتظاراً للفحص يسألُ الله الثباتَ في الصّبرِ، فأخذتِ الطبيبة الجهاز الفاحص – وهي مستمرَّةٌ في اللّومِ والتقريعِ والشكوى دون الالتفات للإنسان الذي تفحصه – ومرَّرته على بطنِ الرجلِ المستلقي وكأنّها تمرِّره على سرير جامد، دون أيَّةَ كلمةٍ تُشعره بأنّها قد أحسّت بوجودهِ كإنسان، فشكّ أنّ من تحدِّثه الآن عن النتيجةِ هو نفسه وليس السرير. قلتُ: "تحدّثت معها عن رسالةِ ذلك المستشفى، وكنتُ أعنيها، فلم تشعر،" وقالت: "نعم، أتّفق معك على وجوب الرعاية الإنسانيةِ للمراجعِ والتعامل معه كإنسان وليس مادّة للتشريح، والفحصِ والعلاج." فأين كانت الرسالة مما تقول وتعتقدُ به؟

في إحدى المدارس الخاصة، وهي ذات شهرةٍ واسعة، لا تزالُ وسائلُ الضربِ المعبِّر عن عُقدِ بعض المعلِّمين متنفساً لهم نقيضاً لما تسطّره رسالةُ هذه المدرسةِ الخاصة. قال لي أحد الأصدقاء إنَّ المعلّم قد ضغط بكمّاشةٍ يده على أنف ابنه، حتى نفر الدَّم منه، وضربه بالأخرى على ظهر رقبته. وأضاف الأب، وحين ثارت ثائرتي وتوجّهت إلى المدرسةِ، قال لي المعلّم إنّه كان يمزحْ معه. لكن الصديق كان قد حسم القرار بتغيير المدرسة. فهي بعيدةٌ عن رسالتها التي علّقتها زينةً ونفاقاً.

وفي أحد البحوث التي طلبت مني إحدى الجهات الحكوميَّة إجراءها للمساعدةِ في قضيَّةٍ هامَّة، قلت في معرض التوصيات أن رسالة هذه الجهة تشكّل عائقاً ولا بدَّ من تغييرها، إذا ما أرادت هذه الجهة التغيير الشامل. فالرسالةُ معبِّرةٌ عن الإتجاه والتجديد في القيم والوسائل والأهداف. وكم من مؤسسّة أرادت التغيير فبدأت بتغيير رسالتها، إذ لا يمكن عمل التغيير في الأنظمةِ والبشر بينما تظلُّ الرسالة، والرسالةُ هي المظلّة، دون تغيير.

القضيَّةُ ليست – كما يتضّحُ من الأمثلةِ الثلاثة السابقة – في وضع الرسالةِ، وتأطيرها، وتعليقها في الصالات والأروقةِ والمكاتبِ، وإنّما في الإيمانِ الصادقِ بها، وتطبيقها تطبيقاً ينسجم معها، فلا يمكنُ – منذ البدءِ – توظيفُ إنسانٍ لا

يـؤمنُ برسـالة المؤسَّسة، أو لا يتّفـق مـع مـضمونها. لأنـه سـيكون كائنـاً مـضراً لسمعةِ المؤسسةِ، ومعـرقلاً لأهـدافها. ولا يمكـن لعاملٍ أن يعمـل دون أن يـدري مـا هـي رسالة الجهة التي يعمل لديها ولا يتّفق معها.

مـن الجميـلِ أن تـرى رسـالةَ الأسـرةِ مـصاغةً بعبـاراتٍ بـسيطةٍ، يـصادقُ عليهـا جميـع أفـرادِ البيـتِ، ويحفظونهـا، ويعملـون بهـا، فـإذا واجهـوا معـضلةً تـذكروا الرسالةَ وتجاوزوا المعضلة، وإذا أشكلَ عليهم مـشكل رأوا في الرسـالةِ مخرجـاً، وهي بضع عبارات في سطرين وحسب. ما هي أهدافنا في الحياةِ، كيف يمكننا تحقيقهـا، مـا القيـم الهامّـة الـتي يجـب أن نتحلّـى بهـا في مـسعانا، مـاهو النجـاح أو التميّز، كيف نصل إليه؟ تقول هيلين كيلر في أهمية الرسالة: "أكثر الأشخاص إثـارة للـشفقة في هـذا العـالم هـم الـذين يـستطيعون الرؤيـة لكـن يفتقـرون إلى البصيرة."

القرار

حياتنا مبنيَّةٌ على القرارات. فهي مسلسلٌ مستمرٌ من القرارات التي نتّخذها كلَّ يومٍ في سبيل تحقيق مصالحنا أو دفع المكارهِ عنّا أو عن غيرنا. فهل ترانا التفتنا إلى هذه الحقيقة؟ حقيقة أننا في كلِّ إلتفاتاتنا وحركاتنا وسكناتنا وكلامنا إنما نتّخذُ قرارات. إن لم ندرك هذه الحقيقةِ فإن غياباً للنتائج لا شكَّ حادث. وهذا يعبِّر عن خللٍ نمارسهُ دون شعور.

الكثيرون يعوزهم اتخاذ القرارات السليمة، فمنهم من يُطلق لسانه دون تفكير، ومنهم من يشرعُ في النظرِ متجاوزاً حدَّ الفضولِ، ومنهم من يتّخذ هيئةً لا تليقُ به، أو لا تتناسق مع أجزائها الأخرى. وهكذا، قد يكونُ ذلك إغفالٌ عن قراراتٍ صغيرة يسهلُ تصحيحها، ولكنّها مقدّمات لقراراتٍ أكبر، إمّا يصعب التراجع عنها، أو التنصُّل منها، أو عدم القدرة على الهروب من عواقبها. وهؤلاءِ، إمّا أن يكونوا غير مكترثين بالعواقبِ والجزاءات، وإمّا أنّهم يعانون من إضرابٍ داخليٍّ يشوِّش عليهم عملية التفكير الصحيح قبل اتخاذ القرار، أو أنهم اتّبعوا شهواتهم، أو غافلون.

يرتبط القرارُ الأول للإنسان في مستهلِّ يومهِ، في أيّةِ ساعةٍ يقرِّر مسبقاً الاستيقاظ من نومه، وماذا سيفعل بعد ذلك، ومتى سيتوجّه لمؤسسة عملهِ أو دراستهِ أو تدريبه، وماذا سينجز اليومَ، وكيف سينجزه، وهكذا تتوالى القرارات في اليومِ الواحدِ، قراراتٌ مسبقة، وأخرى رهينةُ اللّحظةِ، لكنّها لا بد أن تبني شيئاً، أو تهدمُ شيئاً.

في اعتقادي المتواضع أن القرار الإلهي بخلافة الإنسانِ على الأرض، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة/30،

يبيّن أن المقرِّر، وهو الله سبحانه وتعالى، عليمٌ مسبقاً بقرارِ الخلافةِ وتبعيّاته، وبالتالي فإن العلمَ بالقرارِ – ولا يقاسُ علمُ البشر بعلمِ الخالقِ إلاّ على سبيل التّمثُّل والإقتداء – هو أول الخطوات. لكنّما قصور عقل الإنسان عن الإحاطة بتبعات القرار ونتائجه أوجب عليه أن يستشير. والشورى ليست عمليَّةً متروكةً لخيارِ الإنسانِ، بل هي أمرٌ أصيلُ الفكرةِ، وخطوةٌ أساسيَّةٌ في اتخاذ القرار ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ آل عمران/159. ثم تأتي المرحلة الأخيرة الحاسمة في اتخاذ القرار: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران/159، وهي مرحلةٌ بعد الشورى. فإذا كان هذا الأمرُ والتّوجيهِ للنبي الموحى إليه، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ إِنۡ ۝٣ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ النجم/3- 4، فما هو وضعُ الإنسانِ المستندِ إلى علمٍ ناقصٍ، وإدراكٍ غير محيط ؟ ومع ذلك فإنّه، في الحقيقةِ، يستطيعُ تحقيق القرار بالوسائل المتاحةِ له التي أوّلها: العقل – تحديد المشكلةِ، تتبع جذوورها، التفكير – ثانيها: الشورى – التقييم، دراسة البدائل، الحلول التفضيلية، العواقب– ثالثها: اتخاذ القرار – طريقة اتخاذه، الوقت، المكان – رابعها : متابعةُ القرار – مدى فاعليتهِ، التأكّد من تحقيقهِ الأهدافِ التي اتخذ لها.

إنّما أين هذا كلّه لدى الكثيرِ من النّاس. فالطّلاقُ وهو من أصعبِ القراراتِ التي يتّخذها الزوجُ، وهو أبغضُ الحلال عند اللّه، يتلاعبُ به أناس كثر. لقد مررتُ بأشخاص اتّخذوا قراراتٍ فاشلة. فهذا أحدهم يحصلُ على رخصةٍ عام واحدٍ من عملهِ لمواصلةِ دراسته، ثم يتّفق مع جامعةٍ غربيةٍ لدراسةٍ تخصُّصية مدّتها عامان، ويصطحبُ معه أهلهُ إلى الخارج. وهناك يتّخذ سلسلةَ قراراتٍ أخرى عشوائية: إنفاق الأموال الطائلة لإصلاح وطلاء البيت الذي استأجره، ورحلاتٌ طويلة في مدن مختلفة، وغيابٌ متكرّر لأبنائه من المدارس، ثم بعد عامٍ يهاتفه مسؤوله الذي لم يستجب لتوسّلاته بالإستمرار عاماً آخر للحصول على مؤهل دراسي طالباً منه العودة إلى وظيفته، مذكّراً إيّاه بالموافقةِ التي حصل بموجبها على عام واحد فقط، وهكذا عاد بخفيِّ حنين. وذاك الذي مرّت عليه سنواتٌ

وهو يرجو مطلّقته أن تعودَ إليه بعد أن هجرته هجراناً لا رجعة فيه حين اكتشفت خيانتهُ لها. وهو نادمٌ ندامةَ الكسعيِّ بعد أن طلق زوجته نوار. وهذا الذي أمضى عمره يقدحُ في النّاس، حتى إذا كبر سنّه تشلّل جسده، صار يردِّد الآية الكريمة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَهُمْ وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ النحل/118، حتى قضى الله شأنه. وذاك الذي يقرّر أن يردَّ كل طالبِ زواجٍ من ابنتهِ، ليكونَ مرتّبها خالصاً له. وذاك الذي يقرّر حبس أموالهِ الطائلة عن أسرتهِ حتى يصبحُ موتهُ بالنسبةِ إلى بعضهم أملاً يُرتجى، وعاقبةً مفرحة. وتلك التي تقرّر أن تلهث وراء شهواتها، فتتبع سبيل الشيطانِ كي تمرّغ شرفها وسمعة أهلها في الحضيض. وذلك الذي لا يصدرُ منه إلاّ قرار ربا المالِ أو الشكايةِ على فقيرٍ اشترى أرضاً، أو آخر أقامَ حدوداً لها... وهو على ما يمرُّ عليه من الإنذارات الإلهيةِ بالأمراضِ لا يعودُ إلى رشدهِ، ولا ينتبهُ إلى عواقبَ قراراتهِ المشينة. وذاك الذي يقرّر الانتحار لمشكلةٍ ماليّةٍ أو لخلافٍ مع زوجته، فيغلق عقلهُ عن التفكير، وأذنه عن سماع المشورةِ، وعينيه عن تعدّد الطرق في الحياةِ، ولا يرى سوى الحبل المعلّق في المروحة.

هؤلاءِ جميعاً لم يفكّروا في ما يقدمون عليه قبل اتخاذه. لم يفكروا في القرارات سواء كانت صغيرة أم كبيرة. ما هو أثرها في حياتهم أو حياةِ الناس المرتبطين بهم. ولا يفهم من هذا أن القرار الفاشل ذاته ليس درساً. يروي ستيفن كوفي أنّه سأل رجل أعمالٍ كيف نجح في مشاريعه التجارية، فقال له: بكلمتين هما: قرارات فاشلة. فالتّعلمُ من الخطأ أمرٌ حسن، والاعتراف بالحقّ فضيلة - كما يقال – والحقُّ هذا قد يكون هو الخطأ عينه. لكن بعض القراراتِ تحتاجُ إلى تفكير ومشورة ودراسة، ولن يضمنُ الإنسان النجاح لأي قرارٍ تحققّت له الأسس السليمة، ولكنّه يكون قد بذل جهداً فيه، وتمعّن ودرس وشاور أهل الثقةِ، وهذا ما يملأ نفسه بالإطمئنان، ويعزّيه إن كانت النتائج غير تلك المأمولة.

على المرءِ أن يعرف أن حياتهُ مبنيّةٌ على سلسلةِ قرارات، لسانه يُصدرُ قراراً، وعينهُ تصدر قراراً وأذنه ورجله ويدهُ وعقله، كلُّ شيءٍ فيه يصدرُ قراراً. فإن لم يكن قراراً قائماً على أساس مصلحةٍ، فإن نتائجه غير مأمونة. ولهذا عليهِ أن يُدرك ما هو قراره القادمِ وليمطر نفسه بالأسئلةِ المتعلقة بالقرار، ثم ليستشر

غيره، حتى يصل إلى قناعةٍ نفسيّة لاتخاذ القرار. حينها يتوكّل على الله، وينفّذ. ولن تكون هذه النهاية. بل يتابع التنفيذ ليضمن تحقق النتائج، والمراجعة، ويعودُ إلى الأصل، ويعدّل. وهكذا حياةٌ متصلة كلّها قرارات.

والقرارُ كلمة بسيطةٌ من أربعة أحرف (من مصدر حرفين) لكنّ نتائجها آلاف الأحرف. وهي من أهمّ الكلمات التي يرتبطُ بها الإنسان، ويلتصق بها مصيره، ويقيّم بها، وتسيرُ بها شؤونه، ويجازى أو يعاقبُ على اتخاذها. هي كلمةٌ غايةٌ في الأهميّةِ على المرءِ أن يوليها عنايةً خاصّة، ويمنحها اهتماماً لا نظير له. فكم من أناسٍ، كانت قراراتهم أساس دمارهم وهلاكهم. وكم من أناس، كانت قراراتهم أساس نجاحهم وسعادتهم.

حياتنا، إذن، مليئةٌ بالقرارات، بل إن كلَّ لحظةٍ أو فعل يقعُ منّا بناء على قرار، كلّ نظرة عين، كل خطوة قدمٍ، كلّ حركة لسانٍ، كلّ تلويحةَ يدٍ قرارات، كلُّ غمزةٍ، كلُّ تأشيرةٍ، كلُّ تلميح، لأن المرء يحكمه عقلٌ يتحرّك بناءاً على مفاهيمه واعتقاداته وتصوُّراته، فإذا طغى على هذا العقلِ طاغٍ كهوى النفس، ونوازع العاطفة، وهيجان الأعصاب، وحمية العصبيّة، ونعرة الجاهليّةِ، وشعور العزّةِ بالإثم، والأفكار المدمّرةِ، فإن القرار سيكونُ محكوماً بالفشلِ. فلا تقعُ المصائب، ولا تحدثُ المشكلات، ولا يندم الناس، إلاّ بسبب قرارات متعجّلةِ اتخذوها.

لكن كثيراً من النّاس لا يولون القرار أهميّة. فما هي الأهمية التي يجب أن يولونها للقرار؟ أوَ ليسوا أحراراً في ما يقرّرون؟ هكذا يعتقدَ أحد النّاس أن حريّة المرء تكمنُ في قدرته على اتخاذ القرار بنفسه. وهذا صحيحٌ إلى حدٍّ ما، ولكن لأن هذا الشاب يرى أن عليه ألا يستشير أحداً لأمرٍ يتعلّقُ به، وهذا أيضاً صحيح، لكن أيضاً إلى حدٍّ ما. إنّما بناء القرار على استشارة الثقاة أمرٌ هامٌ جداً. فهذا الشاب قد وقع في أمورٍ كانت عواقبها وخيمةً عليه، لأنّه لم يستشرِ أحداً. وحينما "وقع الفأس في الرأس" طلب النّجدةَ من المقرّبين، وحينها هل "يصلح العطّار ما أفسدَ الدّهر؟" فماذا بوسعِ المقربون أن يفعلوا وقد "تورّط" في كثيرٍ من الأمورِ المتشابكة، بفعلِ قرارٍ متهوّرٍ. أبى من قبل أن يستشير أحداً. هذا الشاب وغيره

كثيرون في مجتمعاتنا. أولئك الذين يظنّون أن اتخاذ القرار أيّاً كان من علامات الرّجولةِ، ومن سماتِ البلوغِ والرُّشدِ. نعم، إنّه كذلك ولكن إن بُني على أساس، فإذا كان الله يأمرُ نبيّه الكريم وهو الذي لا ينطق عن الهوى أن يستشير الصحابة رضوان الله عليهم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران/159، فما بالك بالبشر العاديين مثله؟

لقد تهوّر الكثيرون في اتخاذ قرارات أودت بهم إلى مصائب وتعقيدات لم يستطيعوا الخروج منها، بل ظل بعضهم يعاني طوال حياته من جرّاء اتخاذ قرارٍ واحد، اتخذه في لحظةٍ متهوّرةٍ. فأخذ يجترُّ مصائبه طوال حياته. فالمتنبي حين اتخّذ قراره بهجاءِ رجلٌ اسمه ضبّة فقال قصيدته الفاحشة فيه، كانت هذه القصيدة سبباً في مقتله بعد أن ترصّد له خالُ ضبّة حتى أرداه قتلا. وكم من امرئ أرداه لسانهُ. "وهل يكبُّ الناس في النّار إلّا حصائد ألسنتهم ؟" حديث شريف.

ومن النّاس من اتخذ قراراً بالاستقالةِ من عملهِ لأنّ مديره أحمق، ومسؤوله حقود، ملأ حياته بالنّكد، لكنّ لم يفكّر أين ستكون خطوته اللّاحقه فلم يستمع لنصيحة المتنبي القائل:

ومن نكدِ الدنيا على المرء أن يرى   عدواً له ما من صداقته بدُّ

فخيرٌ له أن "يصبر على مجنونه" فلا يصبحَ هو ذاته مجنوناً يبحثُ في الشارعِ عن مصيرٍ مجهول. وقلتُ في هذا شعراً:

وجنونٌ أن أبكي زمناً كانت تملُكهُ يمناي

وأصرّخُ في وسطِ الشارع: ضاعت أيامي ومُناي

وبعض النّاس يتّخذون قرارات فرديّة دون أن يدركوا أن لديهم شركاءَ في حياتهم كالزوجةِ والأبناءَ. لم يستشيروا أحداً بل ظنّوا أن رجولتهم تخوّلهم اتخاذ قرارات تقودهم في ما بعد إلى الفقرِ المدقع هم ومن يعيلون. لم يجنوا على أنفسهم وحسب، بل جنوا على أسرةٍ بحالها، أسرة كانت تجدُ فيهم أملها في السعادة، وطريقها إلى النجاح، وقدوتها في الحياة، فإذا بهذا الأملِ وهذا الطريق وتلك

القدوة تقرّر دون استشارة في أمرٍ ينسف كل ما بَنت من بناء، وتهدم كل ما رفعت من أركان. وإنني كثيراً ما أقول لأيِّ شاب يخبرني بزواجه: انتبه فقد كنت تتخذ قراراً يخصّك، أمّا الآن فيخصّ اثنين وبعد أشهرٍ سيخصُّ ثلاثة وهكذا. فتمعّن في قرارك، وتأملّ وفكر وتأنّى فيه، فربّ قرارٍ رفعك، وربَّ آخر أرداك.

إن صناعة القرار من أهمِّ سمات الشخصية، فإذا كان المرءُ هادئاً في اتخاذه القرار، دارساً له، محيطاً بجوانبه، متفحّصاً لأسبابه، سابراً لنتائجه، فطناً لعواقبه، متصوِّراً لنتائجهِ، لم يستغن فيه عن الإستشارة، حتى في الأمور الخاصّةِ جداً يستطيع الاستشارةَ فيها بطرقٍ مختلفة عن طريق الوسائل التقنية الحديثة التي لا يعرف صاحبها، ولا يُكشف عنه، ويتم التواصل غير المباشرِ معه، أو بالكنايةِ أو التلويح، أو بالقراءة حول أحوالٍ مشابهة. إن من يفعل ذلك فإنّه حريٌّ أن يقال عن شخصيته بأنّها ناضجة راشدة. أمّا من يتعجّل في القرار، ويتهوّرُ فيه، ويرى أن رجولته تملي عليه عدم استشارة أحد، فإن شخصيّة هذا أو هذه مهزوزة، غير ناضجة متهوّرة.

وما سبَّب ضياع آلية صنع القرار في بيوتنا هو عدم وجودها في البيوت، وفي المؤسسات المختلفة. فالبيوت التي تغيبُ عنها الإستشارة، والبناء الجماعي للقرار هي بيوت خربةٍ، لا تنتجُ سوى أبناءً غير قادرين على صنع القرار في شؤون حياتهم وهذه كثيرة. والبيوت التي جعلت الاستشارة قاعدة، وبناء القرار عمليّة مشاركة جماعية، هي بيوت ذات أساسٍ متين لا يُخشى على أبنائها من مواجهة الحياةِ لأنّ لديهم الأدوات اللّازمة التي تهيّئهم للتعامل مع كلِّ حالةٍ من أحوالها. وهذه قليلة. والأخطاءُ واردةٌ دائماً حتى مع الاجتهاد ولكنَّ المجتهد يُثاب حتى مع خطئه "إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر واحد وإذا اجتهد فأصاب فله أجران." حديث شريف. لكن نعني القرارات التي لا يُجتهدُ فيها، ولا يستشار لها من قبلِ أصحابها. أولئك الذين جرّوا حياتهم وحياةَ غيرهم إلى مهاوٍ ليس لها قرار، فحصدوا الندامةَ ولكن "ولات ساعةَ مندمٍ!"

النوايا والقرار

للنوايا تأثيرٌ وفاعليةٌ في صنع القرار، هذا غيرُ المعتقدات والأفكار. فالنوايا هي التي تنحو به سلباً أو إيجاباً بحسبها. فقد تأثّرت قراراتٌ لا تُحصى بالنوايا، ولهذا أخذ النبي، ﷺ النوايا مأخذ الاعتبار، فقال: "إذا اجتهد أحدكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر." لذلك، تؤسس النوايا للقرار، وتؤثر به.

وقد يبدو ذلك في كثيرٍ من الأمثلةِ التي نشهدها في الحياةِ. فبعضُ النّاسِ أصحابُ النوايا الحسنة، ما إن يعرضُ عليهم أمرٌ يحتّم اتخاذ قرارٍ بشأنه، حتى تجدهم ينحون مباشرةً إلى الجانبِ الإيجابي، فيجتهدون في تحضير وإعداد ما يدعم اتخاذ قرار إيجابي، أمّا ذوي النوايا السيّئة، فإنّهم لمجرّد أن يعرض عليهم الأمر الذي لا يتوافق مع نواياهم الفاسدة ولا تطيبُ له قلوبهم الحاقدة، يظهرون على الفور أمارات الرفض، وإشارات التعقيد، ويبادرون إلى تحضيرِ كل إثباتٍ، وتكييف كلّ قانونٍ، وتفسيرِ كلّ بندٍ فيه ليدعم اتخاذ قرار سلبي. يفعلون ذلك دون أن يتمهّلوا في معرفة الحقائق المحيطةِ به، والنتائج المترتبةِ عليه، والأوقاتِ والجهود المبذولة له. وهؤلاءِ مخالفون لسنةِ نبيّهم الكريم، الذي "ما خُيِّر بين أمرين قط إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله." الجامع الصحيح.

إن من المؤسف أن نجد كثرةً من الناس تميلُ إلى الصنف الثاني. أولئك الذين هم أصحابُ قرار في شتى المناصب، فطبيعتهم الغالبة تحكمها النوايا المنفعلة التي تميلُ إلى العرقلةِ بدل التسهيلِ، والمنع بدلِ السماحِ في ما يخصُّ تحقيق منافعَ للناس، ويدفعهم إلى إنجاز المطامح النبيلةِ، ويتماشى مع القاعدة المؤسّسة "لا ضرر ولا ضرار". ولذلك عُرف بعض أصحاب القرار من المسؤولين في المناصب الإداريّة بأنّهم أصحابُ نوايا حسنة وآخرون اصحابُ نوايا سيّئة، فيقال لو عرض

الأمرُ على الأوّلون لأجازوا ما رفضه الآخرون ـ ونحن نتحدث عما لا يكون فيه ضرر ـ ذلك لأن الأوّلون عُرفوا عند الناس بحسن النوايا التي تدفعهم إلى اتخاذ قراراتٍ إيجابيّة، وعرف الآخرون بسوء النوايا التي تدفعهم إلى اتخاذ قرارات سلبيّة. ولعلّك تسمعُ من يقول لك: لا ترتجي خيراً من فلان لأن موضوعك عنده، أو يقول لك العكس. وهؤلاءِ معروفون مكشفون، على الأقّل، عند من يحيط بهم، فعلى رؤوسهم الريش.

وحينما يتواجدُ إداريّون يتّخذون قرارات هي في الأصل نتائج لنوايا سيّئة وليست نتائج لحقائق وشواهد، فإنّهم يضرّون مؤسساتهم، وينشرون ثقافةً تنظيميّةً عقيمةً فيها، هذا إلى جانبِ أنّهم يسيئون إلى مهنهم وإلى القيم الرفيعةِ التي يجب أن تؤسّسها، ناهيك عن إساءتهم لسمعتهم. فكم من الناس قد تضرّروا بفعلِ قرارات عنجهيّةٍ، إعتباطيّة، متسرّعة، لأن صانع القرار ذو نيّةٍ غير حسنة. وكم من القرارات اتخذت بناءاً على الأهواء الشخصيّة التي لا تميلُ إلى جهةِ الإيجابِ والخيرِ والمنفعةِ، بل إلى جهةِ السلبِ والعرقلةِ. أحد المدراءِ دفعته نواياه السيئة إلى حشو تقرير الأداء لنائبه بادعاءاتٍ باطلة، وحينما احتجَّ الأخير طالباً ما يدعم تلك الادعاءات ظهر زيفها، وبانت نواياه الخبيثة.

لا ريب في أن قرارات غير صائبةٍ تتخذُ يوميّاً، ولكن من المهمِّ أن تكون وراءها نوايا حسنة. فالإنسانُ حَسنُ النيّةِ يعذرُ بل يكافأُ لأنّه اجتهدَ فلم يُصب. إنّما المشكلةُ تكمن في القرارات التي تؤسسها النوايا الفاسدة تلك المدفوعةُ بالحقدِ والحسد والانتقامِ. وإذا كانت المسؤولية الإداريةُ أمانةً في نظرِ الإسلامِ فإنَّ اتخاذ القرار هو حصادُ هذه الأمانة وبالتالي، فإن كانت نوايا الإداري حسنة فإن الإجراء الإداري سيمضي في انسابيّةٍ، أمّا إذا أغلقت النوايا السيئة منافذ النور فإن الإجراء الإداري سيتعرقل، ولن تكون له نهاية حميدة.

والقوانين ذاتها مرهونةٌ بالنوايا. فالنوايا الحسنة تميلُ إلى التفسيرِ الحسنِ للقانون، أمّا النوايا السيئة فتميلُ إلى التفسير المعرقلِ في القانون. وفي هذا حدّثني أحد الأصدقاء قائلاً: "لدينا أناس يبحثون عن كلمة (لا) في القانون. وهذا يُخالف بالطبعِ خُلق المسلم وغايته في البحث عن الحكمة. (فالحكمة ضالة المؤمن حيثما

وجدها فهو أحق بها. حديث شريف في تهذيب التهذيب.) لكنَّ هذا الصنف لا يبحثُ عن الحكمةِ في القانونِ كي تؤسِّس له قراره، بل يبحثُ عن النقمةِ التي ينتقمُ بها من آخر. يبحثُ عن معرقل أو مانع أو ذريعةً يبرّر بها قراره السلبي. وهؤلاء لا يرجى من قراراتهم نفع، ولا ينتظرُ منها تحقيق مصلحةٍ، ولا يؤملُ منها دفع ضرر."

هَوَسُ التّعقيد

غارقونَ حتى النُّخاعِ في التَّعقيد، هكذا يبدو أغلبنا. يحبُّون التَّعقيدَ في كلِّ شيءٍ. لا تمرُّ الحياةُ سلسةً بين جوانبهم، ولا تتخلَّلُ الأمور بيسرٍ بين أيديهم. يريدون دائماً أن يبسطوا ما يملكون من السُّلطةِ، التي تقع في أيديهم، دلالةً على نفوذهم الذي يُشعرونَ به الآخرين أنّهم يملكونَ مفاتيحَ هامّةً، لا يستطيعون أن يمضوا دون الحصول عليها. والتعقيدُ يغمرنا في أغلبِ شؤوننا الحياتيَّة، خاصَّة معاملاتنا اليوميَّة، هذا ما اتّسمت به حياتنا، وجُبلت عليه نفوسنا.

لكي تحصلَ على موافقةٍ لموضوعٍ ما، أمر يسيرٍ جداً، عليكَ أن تتحلَّى بالصَّبرِ لأنّه سيصعدُ الهوينى إلى أعلى، وأنتَ تتابعهُ بأنفاسٍ لاهثةٍ، وخطىً متعبةٍ، ورجاءاتٍ متكرّرة، وهو يصعدُ سلّمةً، سُلَّمة. تصرخُ، ترفعُ صوتك محتجَّاً: يا ناس هذا موضوعٌ بسيط، لا يحتاجُ إلى موافقةِ المسؤول الأعلى، لكنّ صوتك يذهبُ سدى، مع الردِّ الذي يأتيك: هذه هي الإجراءات! الإجراءات المترهّلة، التي يقومُ بها موظّفون مترهّلون... يعشقون سيرها البطيء، ولا يريدون تغيير عجلتها التي ثلمت أسنان عجلاتها الصدئة. تمرُّ الأيامَ تلو الأيّام وموضوعك اليسير، البسيط، الذي في اعتقادك، لا يحتاجُ إلاّ لموظّفٍ بسيط لكنّه (جريءٍ)، لديه صلاحيات بسيطة تكفي لشخطةٍ من قلمه الرخيص عليه. لكن أين هو هذا الموظف (التّحفة)؟ إنّما لو وجد هذا (النادر) فلا توجد معه الصلاحيات البسيطة التي تمكّنه من تمرير موضوعك. في الجانب الآخر كثيرون يملكون الصلاحيات، لكنَّ خشيتهم وخوفهم من المسؤولية المترتِّبة على الموافقة على الموضوع هي التي تجعلهم يتبرَّؤون من الموضوع، وهكذا يكونُ الحال، حتى يصبحُ المديرُ العامُّ موظّفاً صغيراً في بعض الأحيانِ أمام مواضيع لا تستأهل نَظر رئيس قسم.

يقول ستيف تشاندلر في كتابه، **مائة طريقة لتحفيز نفسك**: "معظم الناس لا يرون أنفسهم على أنهم مبدعون، وذلك لأنهم يربطون الإبداع بالتعقيد، ولكن الإبداع هو البساطة." وثمّة أمورٍ تحتاجُ إلى المنطّقِ، إلى الفهمِ العامِ للقانون قبل النّظرِ في حرفيّةِ القانون. هل يندرجُ هذا الموضوع المراد الموافقة عليه ضمن سياق الفهم العام للقوانين؟ هذا هو السؤال الذي يحتاجُ كلَّ صاحبِ مسؤولية إلى أن يجيب عنه، فإذا اطمأنَّت نفسه، ورسخ الإيمان في صدره، كافحَ من أجلِ تسهيلِ الموضوع، واتّخذَ فيه القرار. في الخارجِ ـ الغرب تحديداً ـ تتمُّ موافقاتٌ بالهاتفِ لمواضيع مختلفة، وعندنا كتابةُ رسالةٍ هي لازمةٌ خالدةٌ من لوازم الإجراءات الإداريّة. ثم يصعدُ الموضوعُ، أو يظلُّ يحومُ في مكاتبَ أُفقيَّة، أو يُحبسَ في درجٍ لعلَّ صاحبُ العلاقةِ ينساه.

أخبرني أحد الأصدقاءِ أنّه طلبَ الموافقةَ على موضوعٍ بسيط، فقيلَ له أاكتب رسالة. كتبَ الرسالةَ، فإذا بها تُنقلُ شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وتؤوّلُ وتفسَّر وتقاسُ حسب ما وردت عليه القوانين، ونصّت عليه النُّظم، وهو يتكلّف عناءَ الاتصال، وجهدَ المتابعة. والموضوع من البساطةِ بمكان حتى أن موظّفاً بسيطاً يستطيع الموافقة عليه دون الرَّجوع إلى أحد. وقال آخر: لقد علمت إحدى المديريّات أن دائرةً إقليميّة أعطت موافقةً لإستخدام مرفقٍ من مرافقها لإحدى الجمعيات الأهليَّة وذلك ضمن صلاحيّاتها، فأوقفت الموضوع، وطلبت رفعه إليها، وهناك يدخلُ الموضوع في دوّامةً ثم يُرفعُ إلى الأعلى لحسمه. وقال ثالث: قدّمت موضوعاً قبل أشهر طويلة لتفادي التأخير، لكنّه مع ذلك تأخّر. فلستُ أدري، إن كان عليَّ أن أقدّمه قبل سنواتٍ كي يُنجز. وقال رابع: طلبتُ من أحد رؤساءِ المصالحِ الحكوميَّةِ طلباً بالهاتفِ، فوافق إلاّ أنني حين اتّصلتُ بأحد موظّفي مكتبهِ أصرّ على كتابةِ رسالة.

والتّعقيدُ لا يُحصرُ في مكانٍ دون آخر، فكثيراً ما يطولُ بعض التعاملات بين أفراد المجتمع، كقضيَّةِ الزّواجِ مثلاً، فهي وإن كانت قضيّة تحتاجُ إلى وضوحِ بيِّنةٍ ورويَّةٍ إلاّ أن بعض النّاس ينحون نحو تعقيدها، وتعقيدِ من يتقدّم لمصاهرتهم. ونبينا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام يقول: "إن جاءكم من

ترضون خلقه ودينه فزوّجوه." وضوحٌ في المسألةِ، وحسمٌ في القرار، واختصار للوقت. وقد طغى التّعقيد وتفشّى في كثيرٍ من أمور حياتنا حتى بات الكثير من المسائل معلّقة، لا يُعرَف القرار فيها لأن أصحابها أدخلوها متاهةَ التّعقيد.

إن غياب النوايا الحسنة قادَ إلى التّعقيد. فقد شهدتُ بعض الأمورِ غابت عن أصحابها النوايا الحسنة فتعقّدت. لكنَّ غياب النوايا الصادقة التي تدفعُ الإنسانَ إلى سلاسةِ الإجراءِ، وتحقيق المنافعِ، وإقامةِ المصالح، هو سببٌ من الأسباب الهامّةِ وراءَ التّعقيد. هذا إلى جانبِ فقدان التفويضِ والتمكينِ في المؤسسات المختلفةِ وتركّز الصلاحيات لدى موظّفين محدّدين، في الغالب، يكونون في المراتب العليا للهيكل الإداري، وافتقار بعض الموظفين – برغم وجود صلاحيات معيّنة – إلى اتخاذ قرار خشيةَ تحمّل المسؤولية. إنّما التّعقيد في مجمله طبعٌ سائد، وروتينٌ طاغٍ، يدور حوله الجميع، والقليل من منتقدي التّعقيد ينهجون منهج تسهيل الإجراءات لأنّ الكثرة تحبُّ أن تكون مركز القرار، فالقرار يعني القوّة، وهذه ميزةٌ من الصعب التنازلُ عنها في مجتمعاتنا.

رسالة إلى مدير...!

أمّا بعد، فليستِ الإدارةُ مهنةً يسيرة، فمن أصعبُ مهنِ الدُّنيا إدارةُ البشر. فهي مهنةٌ معقَّدةٌ لا يصلحُ لها كلُّ فردٍ، لأنّها تحتاجُ إلى فطنةٍ وكياسةٍ وأناةِ رأيٍ ورجاحةِ عقلٍ وسعةِ نفس. ولعلّك لم تحفل لهذا – فقد شغلك الزّهو بالمنصبِ عن إدراكِ مصاعبه. وشغلتك شواغلك الخاصّة عن إدراك معنى التّكليف. وقد رأيتُ ذلك واضحاً في "مسافةِ السُّلطةِ" التي أبعدتكَ عن مرؤوسيك، وجعلتكَ في مكانةٍ عليا تنظرُ بها إلى الأسفلِ في كلِّ شأنٍ من شؤونهم. فلا رأي من مرؤوسٍ لديك يعلو رأيك، ولا حكمة يتفوَّه بها أحدٌ يقعُ في إطارِ إدارتك توازي حكمتك، فأنتَ الحكيم المفوَّه، اللَّسن الذَّرب. وكلَّ مرؤوسٍ لديكَ إنّما يستقي الحكمةَ الصائبةَ والرّأي الثاقب منك، فأنت نبعُ زلالٌ يتدفَّقُ منطقاً وحكمة.

ولربّما لم تكن أنت الأصلحُ في هذا المقامِ، لكنّك كنتَ الأقرب، ولم يكن لصانعِ القرارِ بدّاً من تنصيبكَ فيه، علّكَ تُظهر صفاتٍ أخرى دفينة لم تكن فيك، أو أن تُعين صفاتك النبيلة التي ظهرتَ قبل تنصيبك على إنجاز شؤون النّاس، بإدارةٍ حكيمة. لكنّك أظهرت غير ما ظُنَّ فيك من ظنٍّ حسن. فقد أردت أن تُديرَ بطريقةٍ حازمةٍ لكنّك لم تعرف كيف هو الحزم، فأصبح الحزمُ لديكَ أن تترصّد كل خطأً، وتتصيّد كلَّ زلّة من مرؤوس. حتى صرت كابوساً مزعجاً لمرؤوسيك، فماتت في نفوسهم الرّغبة في التّجديد، وذبلت فيهم القدرة على العطاءِ والبذل، واضمحلَّ فيهم الولاءُ نحو المنظمة، ولم يعودوا يعرفون ماهو الرّضا الوظيفي. وأنت مع هذا – مع تسلّطك وحزمك اللاإداري – تطالبهم بالالتزامِ والإنضباطِ، ورفع الأداء. فكيف لمحبطٍ أن يُعطي، وهو يعلمُ أن لا تقديرَ لعطائه؟ وكيف لمسلوبِ الثّقةِ أن يفكِّر وهو يدرك أن جزاءات الخطأ فوريّة، ومكافآت الجهدِ والعطاءِ غائبة؟ ولقد شهدتُ على نماذج من المدراءِ من مثلِ صنفك. أحدهم كان يعاملُ موظّفيه وكأنّهم مجرّد طبّاعين لمسودّاته التي

يلوكها ويعجنها ويملأُ بها السّلال مرّاتٍ ومرّات، دون أن يمنح موظفيه الثّقة في صياغة رسائلَ هي أقلُّ ما يمكنُ للموظّف أن يقوم به. فأصبح المروؤسون لا يحرّكون ساكناً في كلمةٍ أو حرفٍ دون إذنه. وهو مديرٌ لا يراعي شؤون موظّفيه وارتباطاتهم الاجتماعية والأسريَّة. ففي الوقتِ الذي يلومهم على الخروجِ من العملِ، يتيحُ لنفسهِ الخروج لذات الالتزامات التي تهمّهم وتضطرّهم للخروج. فهو في نظرهم إنسانٌ غير منصفٍ، أناني يغلّب مصالحه على الآخرين. وهو يحدجُ مرؤوسيه بنظراتٍ من أعلى نظارته، وهذا طبعٌ سيّيءٌ ليس له من تفسير سوى التشكيك والحقد والدّونيّة. وهو ينشرُ الفتنةَ بين مرؤوسيه بطلبِ التجسُّس منهم على بعضهم، وهذا أبغضُ أسلوبٍ يدارُ به شأنٌ من شؤون العمل. فكيف يريد هذا في نهايةِ اليومِ أن يتقدّم الأداءُ في دائرتهِ، وترتفعُ المعنويات؟ منذ فترةٍ أتصلتُ بأحدٍ ممن طلبوا التقاعدَ المبّكر، فقال لي إن من أكبر الأسباب التي دعتني لطلبِ التّقاعدِ هي معاملةُ المدير. فأيُّ وزرٍ تحمُلُهُ على ظهرك، أيّها المديرُ حين دفعت أحد مرؤوسيك إلى التّقاعد؟ قال لي أحد نوّاب المدراءِ، إنّه ابتعدَ عن الدائرةِ لأن مديره جرده من كلِّ مسؤولية، وأبعدَ عنه كل تفويضٍ وتمكين، وجعله موظّفاً لا عمل له سوى الدخول اليومي في صندوقٍ خاوٍ كُتب عليه "نائب المدير". فهل تعلمُ أيّها المدير، بأن نجاح أيَّ مديرٍ يكمنُ في إعداده للصفِّ الثاني القادرِ على تسلّم المسؤولية بعده؟ قالت لي إحدى المديرات إنّها تناضلُ من أجلِ أن يحضر نائبها كل الاجتماعات التي تحضرها. فقلتُ لها: أنتِ مثلٌ نادر. نعم لأنّ أغلب المدراءِ يريدون أن يكونوا العمادَ الوحيد لدوائرهم فإن غابوا سقط السّقفُ على من تحته.

الإدارةُ هي غرسُ الثِّقةِ في المرؤوسِ. يقول ستيفن كوفي في كتابه، **العادة الثامنة**: تصبحُ الثقةُ فعلاً عندما توصل إلى الآخرين إيمانك بقيمتهم وإمكانياتهم بشكلٍ واضح، إلى درجةٍ تلهمهم أن يروها في أنفسهم." كما أن الإدارة هي نشر الدّافعيّةِ في نفس المرؤوس، فلا عملَ بلا دافعية، ولا عطاءَ بدون تشجيع. وإن لم يُدرك المديرُ هذه القيم الوظيفية والمبادئ الإنسانيّة، فليس صالحاً لأن يُدير.

ثقافة التعامل

في التّعامل تبينُ أخلاقُ النّاسِ، وتظهر، فيُعرفُ أصل معدنهم، وتفنّد منابتهم، وتحدّدُ مذاهبهم، وتُعرفُ توجّهاتهم، فلا شيءَ يفصِحُ عن كنههم أفضلُ من التعاملِ، ولذلك حمل الحديث الشريف "الدينُ المعاملة" إختصاراً ما بعدهُ اختصار لمعنى الدِّين في تفاصيل حياةِ البشر. فكيف لمسلمٍ – مثلاً – يدّعي التزامه بدينه، ثم هو في معاملته صلفٌ أجلف؟ كيف به لا يفترُّ وجههُ عن ابتسامةٍ لطالبِ حاجةٍ في محلّه التجاري، وقد جاءه شارياً لا طالبَ صدقة؟ إن مجتمعاتنا لهي أحوجُ ما تكونُ إلى نشر ثقافةِ التّعامل مع أيٍّ كان. فكم من موظّفٍ لا يُحسنُ التعاملَ مع النّاسِ، أصحاب الحاجاتِ، وكم من بائعٍ لا يعرفُ أسس التعاطي مع الزبائن؟ وإننا لنشهدُ من الأمثلةِ ما لا تُحصى، مردُّها جميعاً إلى قيم معطّلةٍ لم يجدوا التّوجيه المناسبِ لتفعيلها. إن لدينا كنزاً من القيمِ التي لو شئنا - أقول لو شئنا لأننا نملكُ القرار - لتبدّلَ حالنا في كثيرٍ من الخصالِ والسّماتِ إلى حالٍ أفضل. فلماذا نجدُ سماتٍ، هي أحرى بنا وأجدر، عند غيرنا ونفتقدها نحن؟ هذا هو السّؤال.

دخلتُ ذات مرّةٍ في إحدى مدننا التاريخيّة، وبصحبتي ضيفٌ أجنبي وزوجته، فإذا بالبائعِ يتركُ كلّ مواضيع الدنيا، ويسأل ضيوفي عن الممثل الإنجليزي الكوميدي "مستر بين"، ويحمّلهم هازئاً السلام له. وفي أحد المراكز التجاريَّة، في مناسبةٍ أُخرى، وقفنا عند طاولة المحاسبة، فسلّمنا على الموظّفة الشّابة، فلم ترفع رأسها، ناهيك عن أنّها لم تردَّ علينا. حتى رددنا على أنفسنا السّلام. ثم شكرناها. وقلنا العفو لأنفسنا حين لم يردنا ردّها. بينما كانت تلعلِعُ بصوتها مازحةً مع زميلاتها وزملائها، بكلامٍ لا يليقُ للزبون أن يسمعه. وكم لدينا من بائعين أجلاف في الطّبائع، غير سمحين في التعاطي مع الآخرين، ورسولنا الكريم يقول: "رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى أو قضى".

والسّماحة هي عدم الفظاظة في التّعامل. لكن مجتمعاتنا تحفلُ بهذه الأصنافِ التي لا تبادركَ بالتِّرحاب، وأنت وسيلةُ رزقها. ولا تبادئك بالبشاشةِ وأنت سبيلُ عيشها.

مواقفُ عديدةٌ، لكنّها تتكرّرُ كلَّ يوم. لا يعي أصحابها أنَّ المنافسة في العالم اليوم هي على صعيدِ تقديمِ الخدمة، وعلى رأسِ هذه الخدمة طريقة التعامل مع الزّبون أو المراجع أو صاحبِ حاجةٍ تقعُ في إطارِ حقِّه. سألتُ موظّفاً إنجليزيّاً في أحد المراكز التجارية عن بضاعةٍ ما فردّ عليَّ: كم كان من الجميل لو كانت هذه البضاعة لدينا، ولكن للأسف لا توجد لدينا، يمكنك الحصول عليها في المحلّ الفلاني، اعذرني، أتمنى لك حظّاً موفّقاً. سألت موظّفاً إنجليزياً آخر في محلٍّ آخر عن سلعةٍ لديهم، فأبان لي بكلِّ صدق خصائصها، وقال لي إنّها بين الجيد والرّديء. وهذا ما يعرفُ في الغرب بالعلاقة الدائمة مع الزبون sustainable customer relationship: أو ما يسمى بقيمة العلاقة المستمرة بالزّبون "Customer lifetime value" الذي يرى كوتلر[1] Kotler أنّه عنصر مالي هام للمؤسسّة.

نعم، إن الطبّائعَ لا تُخلق فهي صميم الشّخصيّة، ولكن اكتسابَ المعرفةِ يغيّر في السُّلوك، وفي هذا يحكي الفيلسوف، مالك بن نبي، حينما درّس عمّالاً جزائريين في فرنسا، أنّ أفواههم باديء الأمر كانت فاغرة. وعيونهم باهتة. ولكن ما إن بدأت المعرفةُ تغولُ في عقولهم، والإدراكُ ينعشُ خلاياهم أخذت شفاههم تطابقُ بعضها، وبدأت أعينهم تشعّ ببريق له مغزى المتعلّم. هي المعرفةُ إذن وسيلةٌ لتفعيلِ القيم المعطّلةِ في النفوس، وتحريك القوى الخامدة. لهذا كان من المحتّم على كلِّ مؤسسّة حكوميّة أو أهليّة أن تبعث موظفيها إلى دوراتٍ في التعامل مع الطرف الآخر. هذا الأمرُ مهمٌّ في وجهةِ نظري، لأنّه ينشّط الجوانبَ الفاضلةَ في الإنسانِ، ويُعينه على الطرق المثلى للتعبيرِ عنه. فكم من طيِّب أخلاق

---

[1] Kotler، P. (2000): Marketing Management. The Millenium edition. Prentice Hall.

لا يعرفُ كيف يعاملُ الآخرين! وكم من نبيل قلب لا يُدرك الوسيلة الناجعةَ للاحتفاءِ بالآخر. إنّما العلمُ هو الذي يُعينه، والتدريب هو الذي يُصقله، ولهذا كان على كلِّ مسؤول أن يُدرك أن إنجاز العملِ ليس بأهم من أخلاقيات التّعامل. روى لي أحد الأصدقاءِ أن أناساً أوصوا لموظّفٍ ما لدى أحد المسؤولين فذكروا أخلاقه الرّفيعة، فردّ عليهم المسؤول أنّني لا أهتمُّ بأخلاقه وإنّما بطريقةِ عمله، ولسان حاله يقول: العملُ عمل Business is Business، فهل أدرك هذا المسؤول أن الأخلاق هي أساسُ العمل؟ يهتمُّ بهذه المسألةٌ في الغربُ، ولا تهتمُّ بها دولُ العالمِ الثالث. في هولندا – للمفارقة - شهدت على موقفٍ بين ثقافتين: هولندية وآسيويّة. فبعد أن وقفت إحدى الهولنديات في محلٍ للوجبات السريعة أمام طاولةٍ ليس بها موظّف ومضى عليها وقت دون أن يلقي أحد إليها بالاً، التفت إليها الموظف الآسيوي قائلاً: قفي في الطّابور، فاحتجّت، لماذا لم تخبرني منذ أن وقفت؟ فقال لها: هل أنتِ عمياء لم تري خلوّ المكانِ من موظف يقوم بخدمتك هنا، أم أنّك مغفّلة؟ وقد كان يعبّر عن ثقافةٍ هزيلةٍ في التّعاملِ مع الآخرين.

إنَّ طريقةُ التّعاملِ هي خاصيَّةٌ يحتاجها الكثيرون لدينا. فهي الطريقةُ المثلى التي أنار بها التّجارُ المسلمون القدامى قلوباً دخلت الإسلام. فأين أغلبُ تجّارُ المسلمين اليوم من تجّارِ الأمس؟ إنّه التعاملُ الحسنُ الذي يتركُ في القلوبِ أثراً جميلاً ووديعةً ثابتةً ورصيداً متراكماً. فليس وضعُ إنسانٍ لا يُدركُ كيف يتعاملُ مع الآخرين بالفكرةِ المحمودة، لأنّ التعاملُ الودود قيمةٌ إضافيّة (added value) على الغرضِ المرادِ. فكم من مشترٍ يقصدُ فلاناً من النّاس، ليس لأنّه يملك الأفضلَ في محلّه التجاري، بل لأنه راقٍ في تعامله، لطيفُ الوجه، دمثُ الخُلق. وكم من مراجعٍ لوزارةٍ أو مؤسسة يتّجه لموظّفٍ معيّن لأنّه وجد لديه الحفاوة والاهتمام والتقدير، أو يتفادى التّعامل مع آخر لأنّه فظٌّ المعاملةَ، جلفُ الطّبع! إنَّ الأوّل والثاني راسخان في الذّاكرة، لكنَّ شتّان بينهما!

الغوّاصُ لا يتكلّفُ الغوص!

يواجهُ مجتمعنا – كبعض المجتمعات – إشكاليةً ثقافية تتعلّق باللّغة. اللّغة التي تجسّدُ هويّة الأمّة، وأساس تميّزها. والعلاقة بين اللغة والمجتمع هي علاقة ذات تأثير متبادل فـ"اللغة هي ثمرة المجتمع الذي يتكلّم أفراده بها، ولكن المجتمع أيضاً هو ثمرة اللغة التي تعين بكلماتها سلوكهم الذهني والعاطفي."[1] ولهذا، فإن المعضلة كبيرة، إذا كانت اللغة لا تعني كلماتٍ مجرّدة بل تعني فكراً وعاطفة وسلوكاً وشعوراً.

ولعل أكبر ما يتعلّق بهذه الإشكالية أن يكون للمجتمع لغةٌ عاميةٌ يتحدّث بها، وأخرى فصحى يكتبها كبعض المجتمعات العربية. ومع أن الوضعَ لدينا أفضل إذ توجدُ لهجةٌ دارجةٌ تتحدرُ من الفصحى، إلاّ أن الإشكالية تكمنُ في المفردات التي بدأت تغزو هذه اللهجة، والتهجين المستمر للكلمات غير العربية التي بدأت تتسلُّ بين ثنايا الحديث اليومي بخلسةٍ وخفية. يعود ذلك إلى أسباب منها :

أ- تسمية المحال والشركات بأسماء غير عربية، واستخدام لغة هجين في التخاطب.[2]

ب- الأسماء غير العربية التي تطلقُ على المواليد.

ت- انتشار المدارس التي تعلم باللغات الأجنبية.[3]

---

(1) سلامة موسى "البلاغة العصرية واللغة العربية" سلامة موسى للنشر والتوزيع، طبعة مزيّدة 1963.

(2) الأستاذ الدكتور محمد حسن عبد العزيز، محاضرة بعنوان" اللغة العربية في القرن الحادي والعشرين، في المؤسسات التعليمية في جمهورية مصر العربية، الواقع والتحديات واستشراف المستقبل" دار العلوم – القاهرة، 2005

(3) المصدر أعلاه.

ث- عدم وجود البدائل الشائعة باللغةِ العربية لأسماء الأشياء المستخدمة في الحياةِ اليومية ونطقها كما هي في بلدِ الصنع أو بما تم تحويره من مسميات.

ج- نطق بعضهم للكثير من المصطلحات الأجنبية في الحديث الدارج بصورةٍ متعمّدة أو غير متعمدة.

ح- لا توجد في المقابل مبادرات منهجية على صعيد واسع غير المقرر المدرسي تقوّي من شأن اللّغة بصورةٍ ملحوظة ومنهجية لتبسيط اللغة العربية للعرب أنفسهم حيث تضمحلُّ المفردات العربية التي يستخدمونها يوماً فيوماً وسط تكالب المصطلحات الأجنبية على ألسنتهم، كما لا توجد مؤسساتٌ كالمعاهد المتخصصة لتدريس العربية بأساليب حديثة ومشوِّقة أو جمعيات حماية اللغة العربية لتقويم الأخطاء الشائعة، وإيجاد البديل للشائع من الألفاظ الهجينة، الدخيلة على اللسان العربي.

إن ما لا يدركه الكثيرون هو أن الإنسان يفكّر باللّغة، فالأفكار عبارةٌ عن كلمات، وهي كلمات قد تنشأ معه منذ مولده أو يكتسبها في مراحل لاحقة من حياته، وبالتالي تنغرسُ في عقليته وتوجّه سلوكه بصورةٍ تلقائية قد لا تحسُّ. "الخلاصة أننا نفكر بالكلمات، وكثيراً ما نُخدع، فنظن أننا نعالج الأشياء، في حين أننا نعالج أسماءها فقط. ثم أن الكلمات تكسبنا اتجاهاً أخلاقياً، أو تكوّن لنا مزاجاً فنيّاً."[1]

إن رقيّ المجتمعات مرهونٌ بحيوية اللغةِ التي تمثّل الجهاز العصبي في جسدِ المجتمع، فإذا ضعف هذا الجهاز ووهن فإن التخاطب بين المجتمع سيضعف هو الآخر، كما أنه سيفتقد إلى كثيرٍ من المكونات الأساسية التي قامت على اللّغة، فمهمتها ليست حصراً على نقل المعاني، بل أبعد من ذلك. ولهذا فإن مهاجراً أفريقياً كنتُ قد قرأتُ عنه أنّه كان يسردُ ذكرياته في مهجره في أمريكا بلغته الأفريقية، فلمّا نسي اللّغة ماتت ذكرياته. فالكلماتُ لها أثرها العميقِ الموحي

[1] سلامة موسى، مصدر سابق.

والمصوّر، وليست مجرّد حروف نلفظها دونما أثر. ومن هنا فإن لم يبادر المجتمع إلى إحياء لغته، وإغنائها بالألفاظ، فإن الخرس سيدبُّ إليها رويداً رويداً حتى تركن في إحدى زوايا الماضي. ولعلّك تجدُ أن من يحاولُ التّحدث باللغةِ العربية، يلقّب بألقابٍ ساخرة. أعرف زميلاً كان يتحدّث باللغةِ الفصيحة فسمّي بين الناسِ استخفافاً بـ"النحوي!"

الإشكالية هنا هي خلق الازدواجية بين ما نتحدّثه وهو بالعامي الدارج، وما نعبّر عنه في آدابنا وأعمالنا الفنية ورسائلنا اليومية الرسمية وهو باللغةِ الفصيحة، فليس الفرق بينهما فرقاً في فصاحة لغةٍ أو عاميتها، بل في درجةِ الأُلفةِ مع الألفاظ، والتفاعل معها، والشعور بها وهذه مسألة هامة.

من هنا، فإن الواجب يحتّم علينا إنقاذ اللغةِ العربية التي نتحدثها عبر تنقية شوائب الألفاظ، وغرائب المفردات، وهجين الأسماء. وهي مسؤولية لابد أن يضطلع بها المجتمع أفراداً ومؤسسات إذا ما أرادوا أن يعززوا التفاعل في ما بينهم، ويبعثوا الحياة في الوشائج التي تجمعهم، ويحافظوا على هويتهم.

قيمة الابتسامة

كلّما مررتُ على الحكمة الصينيةِ القائلةِ: "من لا يستطيع أن يبتسم يجب أن لا يفتحَ محلاً تجاريّاً." تحضرني على الفورِ صورةَ صاحبِ محلٍ أدخله منذ سنوات في مرّات متقطّعة فأراه مقطّب الوجهِ، متجهّم الأساريرِ، لا يُعير الداخل اهتماماً، ولا يُفترّ له ابتساماً. يقتصرُ عملهُ فقط على قبضِ النقودِ بوجهٍ باردٍ، وفمٍ جامد. ومثل هذا كثيرون لا يعدّون ولا يحصون. أولئك الذين يزهدون قيمة الابتسامة، ويصنّفونها ضمن توافهِ الأمور، بل ويرونها إخلالاً بالشخصيةِ الحازمة. فليتهم يعرفون أن أعظم الأنبياء، نبيّنا الكريم عاش مبتسماً. بل إنّه، عليه الصلاة والسلام، عدّ الابتسامة صدقة. "تبسّمك في وجهِ أخيك صدقة." رواه البخاري. وقال عبد الله بن الحارث بن حزم، رضي الله عنه، عنه ﷺ: "ما رأيت أحدا أكثر تبسّما من رسول الله." رواه الترمذي.

الابتسامة هديّةٌ كريمةٌ عظيمةٌ من الخالق العظيم، لا يخفيها إلاّ بائسُ الضميرِ، ولا يدفنها إلاّ فقير النفسِ، ولا يطمسها إلاّ شقيُّ العقل. ابتسامةٌ لا تكلّفُ شيئاً بل تمنحُ كلَّ شيء. يقول الشاعر:

إن جئته لرأيتهُ متهلّلاً كأنّك تعطيه الذي أنتَ سائله

إنّما يحسبُ بعض النّاس أن الابتسامة من خوارم الرجولةِ، ومن نقائص الشخصيّةِ، بل وأنّه ليحسبُ أن المسلمَ الأصيل هو الذي لا تفترُّ عن وجهه ابتسامة، ولا يظهرُ له سن. يقول الدكتور، عصام البشير، في بحثه، **نحو خطاب إسلامي مرتبط بالأصل ومتصل بالعصر**: "وبعض الشباب ظنوا أن المجتمع المسلم في الخطاب الإسلامي هو دائماً مجتمع جدٍ وعزمٍ وحزمٍ، ليس فيه لِسنٍ أن تضحك، ليس فيه لشفةٍ أن تبتسم، ليس فيه لبهجةٍ أن ترتسم على وجوه الناس، وأصبح معيار الداعية الجاد هو الذي تراهُ مقطب الجبين، محمر العينين، منتفخ

الأوداج، لا ينظر إلى الناس إلاّ شزراً، فإذا ابتسم خرج عن جديّة هذا الداعية، وكأننا نسينا رسول الله ﷺ الذي كان يبتسم."

ترى بعض الناس كالحي الوجوه، لا يعرف اللّطفُ مكاناً في تقاسيمهم، ولا اللّينُ محلاّ في تعابيرِ وجوههم، جامدين في الخطابِ والتعامل، جافّين في التعاطي والتواصل. وهؤلاءِ لا يعكسون إلاّ ما تحتويهِ قلوبهم من الكدرِ، وتخبّئهُ أنفسهم من عدم اليقين. لا يستسيغهم أغلبُ الخلق، ولا تفتحُ لهم القلوبُ أبوابها. في حين أن الذي يقابلك بابتسامة، مشرق الوجه، متهلل التقاسيم لا تملك إلاّ أن تفتحَ له قلبك ليترك هديّته الثمينة في أنقى مكانٍ في سريرتك. في إحدى القلاع الأثريّة شمال إنجلترا، أثناء التجوال داخلها، قابلتُ موظّفة طلقة الوجه، مشرقة الابتسامة، قالت لي: "الناس في الشمال ألطفُ منهم في الجنوب." قلتُ لها: "أرى دائماً ذلك في وجوهكم الباسمة." فقالت: "الابتسامة لا تكلّف شيئاً بل تعطي الكثير. أما مقطّب الجبين فلا يعيرهُ أحدٌ أهتماماً." ويقول أحدهم: "لم أر قط وجهاً مبتسماً غير جميل." وسألتُ إنجليزياً: لِمَاذا يحبُّ أن يبتسم؟ فقرأ عليّ شعراً إنجليزياً معروفاً عنوانه، "الابتسامة عدوى". ترجمته كالتالي:

تصابُ بها كالأنفلونزا.

حينما يبتسم أحدٌ ما في وجهي اليوم، أبدأ في الابتسامِ أيضاً.

حينما أنعطف في الزاويةِ يرى أحد ما ابتسامتي،

وحينما يبتسم أدركُ أنني نقلتها إليه،

فكرتُ في تلك الابتسامة، وأدركتُ أنها تستحق.

ابتسامةٌ وحيدةٌ كابتسامتي يمكنها أن تسافر حول العالم

لذلك إن شعرت ببدايةِ ابتسامةٍ فلا تخفيها.

لنبدأ هذا الوباء سريعاً حتى يصاب العالم بالعدوى...!

وفي هذا المعنى يقول سيد قطب شعراً:

فديتكَ لا تألُ الحياة ابتسامة　　أرقُّ وأحنى من خيال مهوم

مرنَّحـــة الأعطـــاف تـــومض خلـــسة   وتخطـــــر في رفـــق بـــــذيَّاك الفـــــم

فـديتك أرسـلها علـى الكـون غبطـة   تـــشافهه همـــس الرجـــاء المـــتمم

إن الوجوه التي لا تبتسم هي وجوهٌ فقيرة السخاءِ، ضامرةُ العطاءِ، أمّا الوجوه الباسمة فهي التي تمنحُ الأشياءَ رونق الجمالَ، وتهدي البشرَ العطايا الثمينة التي لا تُشترى بالمال. والبيوت التي لا تعمرها الابتسامة هي بيوت خاويةٌ من السعادة، خاليةٌ من الابتهاج، يسكنها الظلامُ وتؤمّها الأشباح، حتى إن كانت قصوراً. أمّا البيوت التي تحلّقُ فيها فراشات الابتسامة فهي بيوتٌ مشرقة، تضجُّ بالحياةِ والسرور حتى إن كانتَ أكواخاً من سعف! ولكم صادفنا من مقطّب الجبين، متجهّم الوجهِ، ما إن تراهُ حتى تحسبَ أن المصائب قد تجسّدت فيه إن كان لها من جسد، والمحن قد نزلت به إن كان لها من ثواء. هؤلاءِ لا يتركون في النفسِ بصمة، ولا يودعون فيها أثراً كما يتركه ويودعه مبتسمُ الثغر، مشرق الوجه، الذي يتلقّاك بأنسٍ وابتهاج كأنّما بينكما صحبة مديدة. إن أقسى الآباءِ أبٌ لا يبتسم عند أهله إذ يظنُّ أن الابتسامة في وجوههم منقصةٌ لقدره. فهو الفظُّ الغليظ القلبِ الذي ينفضُّ أهله من حولهِ قبل الآخرين.

وإن أقسى مسؤولٍ هو من لا يرتسم على ثغره ابتسامٌ لموظفيه، ولا تعرف البشاشةُ طريقاً إلى وجهه. يحسبُ أن المسؤولية هي شحوبُ الوجهِ، وانتفاخُ الأوداج، وتقطيبُ الجبين. بل أساسُ المسؤوليةِ اللّطف والابتسامة والرّقة والرحمة، دون إخلال بالخلق وإهمالٍ للحزم، لكن حين يلزمان. يروي ديل كارنيجي في كتابه، "كيف تكسب الأصدقاء"، أن أحد أشهر رجال التأمين في العالم – آنذاك- نجح في مجال عمله لأنه كان يبتسم لعملائه دائماً تاركاً خلفه همومه وآلامه ولا يذكر إلا الأشياء التي وهبها الله له وتستحق أن يحمد عليها فيغلبه الابتسام والرضا، الأمر الذي كان مفتاحاً سحرياً لجذب العملاء.

الابتسامة لا تكلّف مالاً، بل تمنحُ السعادة، وتسرُّ القلوب، وتبريء الجروحَ، وتؤنس البيوت، وتقوّي الهمم، وتطيلُ النضارةَ. لا تكلّف الإنسان شيئاً إلاّ أن يرسم انعطافةً في وجهه، يقول فِليس ديلر Phyllis Diller: "الابتسامة هي تلك

الإنعطافة التي تجعل كل شيءٍ مستقيماً." وهي التي تطلقُ الفرح المنحشر في النفس، يقول الشاعر:

وإذا ما افترَّمبتسما أطلق الأسرى من المهج

وهي الراية التي يعلنُ بها المرءُ تفوقه على الكدر، يقول الشاعر:

كلما راح جهما رحت مبتسما والبدر يزداد إشراقا مع الطفل

وهي التي تعبّر عن رفعةِ النفس وعلوّها في الشدائد، يقول المتنبي:

أقْبَلْتَ تَبْسِمُ والجيادُعَوَابِسٌ يَخْبُبْنَ بالحَلَقِ المُضاعَفِ والقَنَا

وهي العدوى الجميلة التي إذا انتقلت بين البشرِ، غابَ عنهم التّجهم، وسرى فيهم التبسُّطُ والإنفراجُ والإستبشار. ولعمري، فلو أرسلها الإنسان إلى فمه حين يصحو لأصبحت فيه طبعاً، ولاستحال هذا الطبع على مدى الأيام إلى عادة تجعله يصحو مبتسماً كل يوم. ثم يحملُ معه تلك الابتسامة طوال يومه كأعظم قوتٍ يتقوّت به قلبه، وأعظمُ هديّةٍ يقابلُ بها البشر، إنها هديّة بلا ثمن.

قيمةُ الإحسان

الإحسانُ قمّةُ العطاء، ومنتهى السَّعةِ، وغايّة الإكرام، والمحسنُ مَلِكٌ ليس لجاهٍ أو لمال وإنّما لرحابةِ صدرهِ، ورجاحةِ عقلهِ، وعلوّ كعبهِ، وشأوَ همّتهِ، ونقاءِ سريرته. الإحسان هو ما يأسرُ الخلقَ من أصحابِ الأنفس الجليلةِ، وما يقالُ تمثُّلاً فيه بأنّه أَخرجَ الثعبانَ من مخبئه. وليس هذا بغريبٍ فبعضُ الحيوانِ يؤثّرُ فيه الإحسانُ أيّما تأثير، والقصصُ في هذا الشأنِ كثيرة، كما هي قصص الغدرِ بالمحسنين كثيرةٌ أيضاً.

إلاّ أن أغلبَ الخلقِ قد حصروا الإحسانَ في المادّةِ وهو حصرٌ لا يليقُ به وإن كان الجزاءُ الماديُّ أو الإحسانُ بالمالِ هو واحد من أُسس الإحسان. فبدأً بالكلمةِ الطيبةِ، والفعل الجميل، والعمل الصالح، والنظرة الرحيمة، والمسحةِ الرفيقة كلّها إحسان. يقولُ تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾. فالإحسانُ إلى الوالدين لا يُحصرُ في النفقةِ الماديّةِ عليهما فحسب، بل في كلِّ كلمةٍ تقالُ لهما أو نظرةٍ أو فعل. من أجملِ ما مرّت عليَّ من القصص المؤثرة عن الإحسانِ ما يروي أودري ديفز Audrey Davis، مؤلف سيرة الدكتور هاورد كِلي Haward Kelly، قائلاً: "في أحد الأيام، كان الولد الفقير، الذي يبيع السلع بين البيوت ليدفع نفقات دراسته، قد وجد أنه لايملك سوى عشرة سنتات لا تكفي لسد جوعه، لذا قرر أن يطلب شيئاً من الطعام من أول منزل يصل إليه، ولكنه لم يتمالك نفسه حين فتحت له الباب فتاة صغيرة، فبدلاً من أن يطلب وجبة طعام، طلب أن يشرب الماء. وعندما شعرت الفتاة بأنه جائع، أحضرت له كأساً من الحليب، فشربه ببطء وسألها: 'بكم أدين لك؟' فأجابته: 'لا تدين لي بشيء. لقد علمتنا أمّنا أن لا نقبل ثمنا لفعل الخير.' فقال: 'أشكرك إذاً من أعماق قلبي.' وعندما غادر هوارد كيلي المنزل، لم يكن يشعر **بأنه بصحة جيدة**

فحسب، بل أن إيمانه بالله وبالإنسانية قد ازداد، بعد أن كان يائسا ومحبطاً. مرّت الأعوام وتعرَّضت تلك الفتاة التي غدت شابة لمرض خطير، مما أربك الأطباء المحليين، فأرسلوها لمستشفى المدينة، حيث تم استدعاء الأطباء المتخصصين لفحص مرضها النادر، وقد أستدعي الدكتورهوارد كيلي للاستشارة الطبية، وعندما سمع إسم المدينة التي قدمت منها تلك المرأة، لمعت عيناه بشكل غريب، وانتفض في الحال عابراً المبنى إلى الأسفل حيث غرفتها، وقد ارتدى الزِّي الطبي، لرؤية تلك المريضة، وعرفها بمجرد أن رآها، فقفل عائدا إلى غرفة الأطباء، عاقداً العزم على عمل كل ما بوسعه لإنقاذ حياتها، ومنذ ذلك اليوم أبدى اهتماما خاصا بحالتها. وبعد صراع طويل، تمت المهمة على أكمل وجه، وطلب الدكتور كيلي الفاتورة إلى مكتبه كي يعتمدها، فنظر إليها وكتب شيئاً في حاشيتها وأرسلها لغرفة المريضة. كانت خائفة من فتحها، لأنها كانت تعلم أنها ستمضي بقية حياتها تسدد ثمن هذه الفاتورة. أخيراً نظرت إليها، وأثارت انتباهها عبارةً مدوّنةً في الحاشية، فقرأت تلك الكلمات: 'مدفوعة بالكامل بكأس من الحليب' التوقيع: د. هوارد كيلي. اغرورقت عيناها بدموع الفرح، واستشعر قلبها المسرور هذه الكلمات: 'شكراً لك يا إلهي، على فيض حبك ولطفك الغامر والممتد عبر قلوب البشر وأياديهم." والله لو عرف الخلق فضلَ الإحسانِ لتسابقوا إليه، فهو الكنزُ المذخورُ لوقتِ الحاجةِ، وهو الفرجُ المرجأ إلى الضرورةِ.

أثنيتُ في البدءِ على المحسنِ لأنه يعملُ عملاً لم يُطلب منه، فنفسهُ العظيمة هي التي دفعته للزيادة التي لو لم يأتِ بها لما شعرَ بها أحد، لكنّ حين يأتيها فإن أثرها في النّفس يكون بليغاً. وهذا هو حالُ المحسنُ في الدِّين، فقد جاءَ الإحسانُ أعلى من الإيمانِ. ووصل فيه المُحسنُ إلى مرحلة "أن تعبد الله كأنّك تراهُ، فإن لم تكن تراهُ فإنّه يراك." كما قال النبي، ﷺ، لسيدنا جبريل عليه السلام. الإحسانُ يعني إذن الإخلاص، ولا أحدّثكَ عن الإخلاصِ هذه الكلمة التي يفوق وزنها السموات والأرض. ولعلّني ما تردّدتُ في إطلاقها اسماً لمسجد.

لكنَّ كثيراً من النّاس قللوا من قدر المُحسنِ واستخفّوا به، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ الرحمن/60. أخبرني موظف

كبير بأنّه يمكثُ في عملهِ إلى وقتٍ متأخّرٍ من اليومِ ليقضي كثيراً من الأعمالِ لكن لا أحد يلتفتُ إليهِ إلاّ للومٍ أو عتب. هذا وأمثالهِ من المحسنين الذين يقومون بأعمالٍ إضافيّة لا يلاقون الإحسانَ المقابل، الذي أقلّه كلمةَ الشكرِ والإطراءِ الحسن. وكثيرٌ من النّاس من ينكرُ الإحسانَ، ويتنكّرُ للمحسن. فرجلٌ لجأ إلى آخر في وقت الشدّة يطلبُ منه قرض مالٍ ومرّت أعوامٌ دون أن يراه أو يسمعَ عنه. ولمّا أرسل إليه يبغي حقّه رفع عليه قضيّة في المحكمة. ودائنٌ آخر حين طالبَ مدينه بردّ الدّين ردّ عليه الأخير: تعالَ خذهُ إن كنتَ تريده. يقول ابن شيخان السالمي:

كم معشرٍ رتعُوا بنعمة محسن   وهمُ بحبّ عدوّه في شاغلِ

فكم من ناكري إحسانٍ لأصحابِ فضلٍ عليهم، ربّوهم صغاراً فما أن كبروا حتى أشحوا عنهم الوجوه، بل ناصبوهم العداء. فهم والضبع، أم عامرٍ، سواء حينما أجارها الأعرابي في خبائه وحماها من مطارديها وأطعمها وسقاها ثم حين نام بقرت بطنه. فسرى في الناس هذا البيت:

ومن يفعل المعروف في غير أهله   يلاقي الذي لاقى مجير أم عامر

هؤلاءِ الناكرون للإحسانِ حالهم كحالها، وأوّل إحسانٍ ينكرهُ الإنسانُ وأعظمه خطباً هو إحسانُ اللّه له، فهو مختالٌ، مغرورٌ، مزهوٌّ بنعمةِ اللّه، في أرضهِ وتحت سمائه في الوقتِ الذي يجاهرُ فيه بمعصيته ونكرانِ إحسانه. وثانيهما: نكران الأبناءِ إحسانَ والديهما. ترى الابن يلقي اللّفظةَ الجارحةَ غير آبهٍ على أمّهِ أو أبيهِ كأنّه المديةَ الحادةَ، بل إن جرح السيفِ أهونُ من جرحِ اللّسان. وترى الابنةَ وهي تنظرُ بازدراءٍ إلى والديها وكأنّهما نفاياتٌ من الماضي لا يتواءمون مع "موضةَ العصر." وثالثهما: نكرانُ إحسانِ النّاس، وهو ما يعني التخلي عن الذّمةِ والوفاء. يقول إبراهيم محمد الخليفة:

يعاملني بالسوء من أنا محسن   إليه بمحض الودِّ في القرب والبعد

فهل يُرتجى الخيرُ ممن لا يذكر إحسان خالقهِ عليه، وينكر إحسانَ والديه، وينقلب على إحسان الناس له؟ بل لا يُؤمنُ غدره وخيانته. يذكرُ عن نجّارٍ

أحسن طوال عمرهِ في عملهِ بالإخلاص، وحين أراد التقاعدَ طلبَ منه ربُّ عمله المعجب بإحسانهِ في عمله طلباً أخيراً تقبّله النجّار عن مضض، كان الطلبُ أن يبني بيتاً، فسعى النجّار لبنائه متسرّعاً دون إتقان على غير عادته كي ينتهي بأقصى سرعة، فلمّا انتهى قال له ربُّ عمله: هذا البيت هو مكافأةٌ مني لك. حينها لم تسع الحسرة قلب النجّار وتمنىّ لو أنه أحسن وأخلص في عمله لحصل على بيتٍ متقنُ البناءِ، خالٍ من العيوب.

وفي هذا الشأنِ، يعجبني الإنسان المُحسنُ أيّاً كان. فالإحسانُ وحدهُ تاج على رأسِ المحسن. يعجبني الفتى إن بادرَ إلى عملٍ احتسبَ فيه الخير دون أن يُطلبَ منه. وتعجبني فتاةٌ تسعى مبادرةً إلى معرفةٍ تحثّها إليها نفسها. ويعجبني رجلٌ يُحسنُ في عملهِ فيحرص على الإخلاصِ فيه، ويُحسنُ في عبادتهِ فيؤديها بخشوعٍ، ويطبّقُها في سيرةِ حياته، ويُحسنُ إلى هيئته فيظهرُ أنيقاً، جميلاً، نظيفاً، ويُحسنُ إلى لسانهِ فلا يتلفّظُ إلاّ بحسن الكلام، ويحسنُ إلى نظرهِ فلا يقتفي أثرَ ما يُسيء. الإحسانُ هو الجمال والحقُّ والخيرُ في هذه الحياةِ وفي كلِّ الشؤون. فطوبى للمُحسنِ جلالَ شخصهِ، ورفعةَ قدرهِ، وأصالةَ فخره.

في معاني الإدارة...

ابتليت الإدارة بأناسٍ ليس لهم حظوةٌ فيها أو قدمٌ. فإذا كانت الإدارةُ هي المحرِّك الرئيس في كلِّ أمرٍ لأنّها تديرُ الموارد سواء كانت بشريةً أم غير بشريةٍ، تديرُ العقولَ والطاقات والموارد، فإن بعض من يتبؤون مناصبَ في الإدارةِ هم ذاتهم يشكّلون المسامير المعرقلةِ لدوران المحرِّك. والابتلاءُ بأي إداريٍّ معرقل يشكّل خسارة فادحةً للجهةِ التي يعملُ بها أو المؤسسة التي يُشرف عليها بل للتنميةِ الوطنية في أي بلدٍ من البلدان.

لقد اتخذَ بعض الإداريين، كالمدراءِ مثلاً، الإدارةَ ملكاً شخصياً، وليست منصباً تنظيمياً، وهذه هي المصيبة. فصاروا يرون الوظيفةِ واجهةً شخصيّةً، قبل أن تكونَ تكليفاً وأمانة وهذا أعظم مصادر العيوبِ في أدائهم الوظيفي. وهم، وإن علّقت اللافتات على واجهات مكاتبهم، وإن حملت مناصبهم ألقاباً في الإدارةِ، فإنهم في منآى عنها ومعزل. إذ لا تمتُّ لهم الإدارةُ بشأن، ولا ترتبطُ بهم بصلة.

فليس مديراً ذلك الذي يتتبّعُ موظفيه، في كلِّ خطوةٍ يخطونها، كأنّه موكّلٌ برصدِ تحرُّكاتها، وعدّ خطواتهم، فلا يستطيعُ الموظف أن يتنفّس، ولا أن يخرجَ من مكتبٍ لآخر، ولا أن يقضي حاجةً له داخل أو خارج جهةَ عمله إلاّ إذا أحاط بها هذا المدير. أذكرُ أن مسؤولاً كان يتقفّى بالهاتف ثلاث موظّفات يحسبهنَّ زوجاته، وهنَّ متذمّرات أشدَّ التذمّر من هذا الفعلِ غير اللائقِ منه. ومثل هذا لم يتعلّم أن الإدارةَ هي غرس الثقة المتبادلة بينه وموظفيه.

ليس مديراً ذلك الذي ينظرُ إلى ساعته في حركةٍ ساذجةٍ كلّما رأى موظفه ليشعره بأنّه متأخِّر عن الدوام. هذا أسلوبٌ ساذج لا يليقُ بالتعاملِ مع الموظف، فهو إن أراد أن يبلّغه بتأخّره فثمّة إجراءاتٍ غير هذه الحركات المستهلكة.

ليس مديراً ذلك المستأثر بالسلطةِ، المتحكّم بكل شؤون العمل، المغرق في المركزيّة، ذلك الذي لا تنسلُّ ورقةٌ من بين جوانبه إلاّ بشقِّ الأنفس، ذلك الذي يؤمن بصورةٍ عمياءَ بأن المركزيّة قوّة، ولذلك لا تطيرُ ورقةَ في الدائرة إلاّ حاملةً توقيعه الموقَّر، ولا تعلّق توجيهاتٌ في المكاتبِ إلاّ محفورةً بتوقيعه الثمين، وختمِهِ الأمين. مثل هذا ينفقُ حياته في وهمٍ، ويعيقُ حركة العمل. حدّثني أحدهم بأن مسؤوله يؤثر أن يوقّع ورقة المناوبة على كثرةِ الموظفين الذين يصلون الألف موظف بدلاً من أن يفوّض أحد رؤساء الأقسام بذلك، لأنّ نفسه ترى أن أوراق المناوبة هي أوراق ضغطٍ على موظفيه، أي سلطةٍ عليهم. لا يفقهُ هذا وأمثاله أن المدير الناجح هو الذي يكمن أكبر نجاحاته في إعداده للصفِّ الثاني. لكنّه وأمثاله يقمعون كلّ الصفوف من أجل أن يبقوا هم فقط في المشهدِ والمقدّمة. ولهذا وأد الإبداع، وقتل المبادرات، وثبّط الأفكار، وأخمد الحماس في نفوس موظفيه. هذا النموذج من المدراء يسارعُ إلى إلقاءِ اللومِ عند أدنى خطأ على رأس أقرب موظّفٍ لديهِ دون أن يعترف بأنّه وراءَ هذا الخطأ، وقد أقصاهُ سابقاً من المشاركةِ في اتخاذ القرار، أمّا حين يرى الفأس تسقطُ فإنه يهرع للبحث عن رأسٍ بريئةٍ غير رأسه ليسقط عليها الفأس. يقول أحدهم: حينما أخطأ مسؤولي وكُشف خطأه، حمّلني الخطأ وأنا بريءٌ منه براءة الذئبِ من دم يعقوب. وأخبرني آخر أن مسؤولاً ألقى ذنباً تسبب به على رأس مسؤولٍ أقل درجةً منه، فتضرر في عملهِ وسمعته.

ليس مسؤولاً ذلك الذي لا يظهرُ في الواجهةِ سواهِ، فلا يُرى غير وجهه، ولا يُسمع غير صوته، فهو كما يزعم الشاعر:

ودع كلّ صوتٍ غير صوتي فإنني أنا الطائرُ المحكيُّ والآخر الصدى

قال لي أحدهم: حينما كنتُ في منصبي التنفيذي لم أكن آبهُ أن يتواصلَ في إجراءٍ ما مرؤوسي برئيسي، فما كان يهمّني بالدرجة الأولى هو أن ينسابُ جريان العمل بكل سلاسة، أمّا من خلفه في منصبه فقد أخذ يتذمّر من مرووسيه اتصالهم – في أمورٍ اعتياديةٍ – بالمسؤول الأعلى، فتعرقل الكثير من الأمور البسيطةِ في العمل. وقال آخر: لقد شكرني مسؤولي الأعلى لعملٍ قمتُ به، فقلتُ

له: إنني لم أقم بهذا العمل بنفسي بل قام به معي موظّفان، فأرجو – كما شكرتني – أن توجّه لهما الشكر أيضاً، وفي اليوم التالي استدعاهما المسؤول الأعلى بحضوري وقدّم لهما الشكر. فأين هذا المثل من كثيرين؟

ليس مسؤولاً أو مديراً ذلك الذي يحابي مسؤوليه على حسابِ الصواب، تزلّفاً ونفاقاً لهم، أو خوفاً وخشيةً منهم، فهو يبرهنُ أنّه غير مستقل. يقول Naceur Jabnoun، في كتابه الإسلام والإدارة: "إن الموظف المستقل هو الذي يرفض موافقة مسؤوله حين يريد أن يتّخذ قراراً غير أخلاقي." يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ هود/ 6. فممَ يخاف ويخشى؟

ليس مسؤولاً ذلك الذي يحرمُ موظفيه المحيطين به من مزايا، ويقدّمها لآخرين بحجّةَ ألا يناله الكلام. فإذا استحقّ موظفوه تلك المزايا فلمَاذا يحرمهم منها لسببٍ شخصي، ويمنحها لآخرين؟ وقال أحدهم: أرى مواضيع كثيرين من الموظفين تعتمدُ من مسؤولي دون عرقلة، أمّا حين يُعرضُ عليه أمر يخصّني، أنا القائمُ على كلّ صغيرةٍ وكبيرةٍ في مكتبهِ يوقفُهُ بغيرِ حجّةٍ إداريةٍ، ويعرقله لغير سبب تنظيمي. وفي المقابل، ليس مسؤولاً ذلك الذي يغدقُ على موظفيه المزايا والتسهيلات ويحرم مستحقّين آخرين منها، فلا فرق بين هذا وذاك.

ليس مديراً ذلك الذي لا يُحسنُ التعاملَ مع موظفيه، فيحدّثهم بأسلوبٍ متعالٍ، وكأنّه وليُّ نعمتهم، المقدّر رزقهم، والله هو وليُّ العبادِ، والمنعم عليهم بالأرزاق. فما ملكَ رئيسٌ قلبَ مرؤوس بأوثق رباطٍ كما ملكه بالأسلوبِ اللطيف، واحترام الذات، والتعامل الإنساني الراقي، إنّما يحسبُ كثيرون أنّ المنصبَ يمنحهم الفوقيّة والتعالي في الأسلوب. قال أحد رؤساء الأقسام: تكلّم معي أحد مدراء العمومِ بأسلوبٍ فظٍّ لا يليق، فقلتُ له: "تعلّم كيف تتحدّث مع الموظف الراشد فهاجَ غاضباً." وأضاف: "يحسبنا أطفالاً ينهرهم كما يشاء، ويزجرهم عمّا يشاء." مثل هذا يحسبُ الموظفين عاملين لديهِ، مرتبطين برضاه، فيغلظ عليهم الكلام، ويقسو عليهم في التأنيب. يقول سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، لعمرو بن العاص وابنه: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟"

الإدارةُ فنٌ وعلم، قلّما يجتمعان في رجل، فلا يغرّك متعلّم حاصلٌ على أعلى الشهادات في علوم الإدارة، إن لم يكن يملك فنّها. فكم من عالم في الإدارة جاهلٍ في ممارستها والعكس صحيح بدرجةٍ أقل. لأن علم الإدارةَ يُنالُ بالدرسِ وبتجاربِ الحياةِ. إنّما الأهم شخصية الإداري، تلك الشخصية، التي يجتمعُ فيها الأسلوبُ الرشيدِ، والعقل المتوازن، غير المتهوّر، والتعاطي الرزين، والتحفيز الدافعِ، والنظر الواسع المتأمّل، واحترام الذات، والعدل والإنصاف وتجنّب التّحيّز لهوىً في النفس. فأين ذلك من كثيرين ابتليت بهم الإدارة؟

الصف الثاني

إذا كان الصفُّ الأوّل يرمزُ إلى المسؤول الأوّل في مختلف المستويات الوظيفيّة، فإن الصفَّ الثاني هو المسؤول الذي يأتي بعده في الاختصاص أو الوظيفة. يشكلُّ الصفُّ الثاني أهميَّةً مستقبليّةً للجهة التي يعملُ فيها، وإذا وجد الاهتمامِ المناسب لدى المسؤول الأوّل لن يكون ذلك لصالحِ الجهةِ المعنية فحسب، بل دليلاً على حُسْنِ إدارةِ المسؤول الأوّل للأمور، وبُعد نظرهِ، ورقيٍّ نفسه. وإذا لم يجد الصف الثاني الاهتمام الذي يليق بتأهيله لمكانة الصف الأوّل من أجل قيادة الوحدة بفاعلية وكفاءة، سيكون ذلك نذير شؤوم لمستقبل الجهةِ، ودليلاً على سوء إدارة المسؤول الأوّل. والمشكلة الكبرى المتفشّية – إلاّ المثالي النادر – أن المسؤول الأوّل لا يمنحُ من يأتي بعده الصلاحيات اللازمة لكي يقوم بالدور المناط به حسب ما تقتضيه القوانين والأنظمة ومنطق الإدارةِ أولاً وأخيراً. وبدلاً من تفرّغ المسؤول الأوّل لرسم السياسات العليا، والاستراتيجيات المستقبلية لجهة الأعمال، (يحشرُ) نفسه في دقائق الأمور، وتوافه الموضوعات. هذا الأمر ينمُّ على ضيق أُفق المسؤول الأوّل وعدم تمتّعه بالحسِّ الإداري، كما يدلُّ على حبّه لممارسةِ السلطةِ وإن كانت هذه الممارسة على حساب تأخّر سير العمل، وبالتالي تقلّص الإنتاج.

إن أهميّة المسؤول الثاني في أيّة جهة لا تقل عن المسؤول الأوّل. فمن المفترض أن تقاريره هي التي تعين المسؤول الأوّل على اتخاذ القرارات المناسبة. ومن هنا، يجب أن تُؤخذ أهميته في الحسبان. حين كلّف الله، سبحانه، سيدنا موسى عليه السلام بهداية فرعون، طلب سيدنا موسى من ربّه أن يجعل له هارون أخاه وزيرا.

﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ طه/ 29- 32. وهذا يدلُّ على أهميّة المساعد الذي لا يقتصر دوره على تقويّة الظهرِ أو النفس وإنّما لإشراكهِ في الأمر. وهذا مفهومٌ راقٍ للإدارة الإسلامية نحنُ أحرى بتطبيقه.

لهذا فإن العلاقة بين مسؤولي الصف الأول والثاني يجب أن تكون قويّة، تسودها الثقة والتفاهم وروح الفريق الواحد. هكذا قال الملك الفرعون ليوسف، عليه السلام، حين ولاّه خزائن مصر: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ يوسف/54، أَيْ إِنَّك عِنْدنَا قَدْ بَقِيت ذَا مَكَانَة وَأَمَانَة، وهذا ما دفع سيدنا يوسف لطلب المسؤولية: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ يوسف/55. لكن ما يحدثُ في الكثير من الجهات أن العلاقة يشوبها الفتور، وعدم الثقة، والتهميش، الأمر الذي لا ينصبُّ لصالح الوحدة التي يعملون لأجلِ تقدّمها وتطويرها. وفي المقابل، ضرب بعض المسؤولين أمثلةً رائعةً في تمكين الصف الثاني من أجل أن يحلّوا مكانهم في يومٍ من الأيام. قالت لي إحدى المديرات إنّها تُشرك نائبها في كثيرٍ من الاجتماعات، وإنها غالباً ما تطلبُ من المسؤول الأعلى الموافقة على حضور نائبها للمشاركة في الاجتماع. فقلتُ لها: "أنت نموذج رائعٌ ونادر." وفي الإدارة اليابانية ـ كما أخبرني مطّلع ـ يُطلب من المدير فجأة أن يخرج في إجازة غير مخططة مسبقاً، فيقاس أداءُ المنظمة في غيابه، فإن وجد أداؤها يسيرُ كما لو كان ذلك المديرُ يزاولُ مهامه على رأسها، كان ذلك علامةً على حسن إدارته وإن كان العكس احتسبَ ذلك فشلاً في إدارته. ولذلك فإن ما يجب أن يعتقده ويؤمن به المسؤول الأوّل هو ما يحتويه المثل الصيني القائل: "وراء كل رجل قادر دائماً رجالٌ قادرون." وعلى ذلك، عليه أن يُدير الاتّجاه إلى تمكين من يليه في المنصب، والانفتاح نحوهم بشفافيّة، وألا يجعل السلطة قوةً سلبيةً تضرّه وتضرّ غيره، فـ "مقياس الرجل يكمنُ في ما يفعله بالسلطة،" كما يقول المثل اليوناني. وهذه مصيبة بعض الرجال، الذين يتذمّرون من التهميش، ثم يمارسونه على غيرهم حين تأتيهم السلطة. كان أحدهم من مسؤولي الصفّ الثاني، وكان يعاني من التهميش في المشاركة في القرار والصلاحيات. فلمّا حلّ مكان سلفه أخذ يمارس الدور نفسه على خلفه فأقصاه وهمّشه. إذن فالمسألة هي انحصارُ المطامحِ في دائرةِ السلطةِ فقط، وفي هذه الدائرة تستعرُ حمّى الحرب.

إن نظرة بعض مسؤولي الصف الأول للصف الثاني هي نظرةٌ عقيمة تقوم على أن نوّابهم أو مساعديهم أو الذين يتبؤون مناصب إدارية تليهم مباشرة إنّما هم

منافسون سلبيّون لهم، يسعون إلى (خطف) مناصبهم في أيّة فرصةٍ سانحة. ونظرة بعضهم إلى مرؤوسيهم يسودها فقدان الثقة في أدائهم، أو قلّة الخبرةِ، أو الإخلاص أو غيره وهذا ما يدفعهم لتهميشهم ودفعهم بعيداً عن المسار الفعلي للعمل، إلى اتجاهات أُخرى تعتبَرُ هامشيّة. ومن القصص الطريفة أن مسؤولاً، في إحدى المستويات الإدارية، أراد أن يكيد بنائبه فكتب تقريراً فيه، من ضمنه، أنّه لا يتابع أعمال الدائرة. يقول ذلك وقد أقصاه هو عن هذه المهمّة واستأثرَ بها لنفسه كأنّها غنيمة من الغنائم الثمينة التي لا يجب التفريط فيها. مسؤول آخر لا يكلّف قائماً عنه حين يقضي إجازته، بل يترك الأمر دون حسم لأسبابٍ غامضة. ويفضّلُ أحد المدراء، في مثالٍ آخر، أن يُكلّفَ أحد المدراء في دائرةٍ أخرى ذات طبيعة عملٍ مختلفة بمهامه، بدل أن يكلّف أحد رؤساء القسم في دائرته. يقول أحد المسؤولين الأجانب: يهرع إليّ المرؤسون في كل أمر، فأقوم بتصحيحه لهم حتى قررت أن هذا الأمر يجب أن ينتهِ وجعلت حدوداً للإستشارة تقتصر على المسائل ذات الأهمية القصوى.

إن التمكين والتفويض أمران أساسيان لتطوير القدرات الإدارية. فكيف لموظّف أن يتطور دون أن يمكّن من الأدوات الهامة لممارسة وظيفته وأهمّها الحصول على المعلومة اللازمة، واتخاذ القرار؟ وكيف لموظف أن تنمو قدراته دون أن يفوّض في ما يجب تفويضه من الصلاحيات؟ ليت كلّ مسؤول يعملُ وفق القاعدة التي يقترحها كالفين كوليدج **Calvin Coolidge** بقوله: "**هناك قاعدة واحدة للعمل أهم من القواعد الأخرى تتمثل في التالي: لا تفعل شيئاً بمقدور أحدٍ غيرك أن يفعله لك.**" وللأسف فإن بعض مسؤولي الصف الأول يفضّلُ أمراض الدنيا أن تتكالب عليه ولا أن يفوّض المسؤوليات إلى أحد مرؤوسيه. ومثل هذا كارثةٌ على الإدارة.

إن مسألة اختيار الموظف الكفؤ لشغل منصب في الصفّ الثاني مسألة لا تقلُّ أهمية عن توظيف مسؤول في الصفِّ الأول إن لم تفقها أهميَّةً. ذلك لأن المسؤول في الصفِّ الثاني يجب أن يكون في مستوى الجاهزية الكاملة للانتقال إلى الصفِّ الأوّل في أيّة لحظة لأي سبب. وتواجه بعض الجهات مشكلات تتمثل في ضعف

قدرات الصفّ الثاني لكنّها لا تتصرف بسرعة للتغيير، بل لا تكترث للأمر بحجّة أن هناك – في الصف الأوّل – من يغطي نقاط الضعف وهذا المنطق غير سليم. ولعل مشكلات كثيرة تنجم عن فراغ الصف الأول حين لا يكون شاغل الصف الثاني مؤهلاً كي يحلّ فيه. القضيّة الثانية، لا تتوقف عند الاختيار المناسب لمسؤولي الصف الثاني، بل منحهم الفرصة لإظهار قدراتهم. يقول في ذلك نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte: "إن فن اختيار الرجال لا يضاهي صعوبة تمكينهم من إظهار قدراتهم الكاملة." وهو ما يعني منح الصفّ الثاني الصلاحيات التي تمكّنهم من اختبار مواهبهم واكتساب الخبرة اللازمة. سألتُ بعض الموظفين في إحدى جهات العمل: "هل يصلح المسؤول الفلاني بالصف الثاني أن يرقّى للمسؤولية بالصف الأوّل؟" قال لي أحدهم: "لا أعتقد أنّه يصلح." قلتُ متعجّباً: "كيف يمكنك الحكم عليه وهو لا يملك الصلاحيات؟" المواقف تكشف عن القدرات الدفينة، وهي ما يجب تعريض المسؤولين بالصف الثاني لها من أجل التعرف على ردود أفعالهم والقرارات التي يتخذونها وبموجب ذلك يتم تقييمهم. أمّا أن يحفظوا في صناديق مقفلة، أو يتم تجميدهم في ثلاجات التهميش حتى لحظة مغادرة مسؤول الصف الأوّل، فهذا لن يكون في صالح الجهة التي قد تواجه الإضطراب والإرتباك على الأقل في مرحلةٍ معيّنة. إنّ عدم تعريض بعض مسؤولي الصف الثاني لمواقف معينة قد يكون مُرضياً لهم مخافة أن ينكشف خواءهم قبل أن يتولوا منصباً في الصفّ الأوّل. فقد يفضّلون سلوك منهج المهادنة مع مسؤوليهم بالصفّ الأوّل كي لا يثيروا انتباههم إلى النقص الذي يعانون منه فيعيقون استخلافهم. كما أنّهم يفضّلون عدم إشعار مسؤوليهم بأيّة أخطاء إمّا للسبب السابق أو لتعجيل خروجهم من مناصبهم نتيجة الكشف عن الخطأ، وهذا سلوك لا يطمئن. يقول جون كولينز John Collins: "لا تثق بالمرؤوس الذي لا يكشف أبداً عن الخطأ الذي يرتكبه رئيسه." ولعل الفرصة حين واتت بعض شاغلي الصف الثاني حين تسنّموا ركاب المسؤولية في الصف الأوّل عرّضوا جهات أعمالهم لإخفاقات متتالية نتيجة ضعفهم الإداري وفقدانهم ملكات القيادة والقدرة على اتخاذ القرارات المناسبة. لقد استمعتُ إلى جوبز Jobs، مؤسس ورئيس شركة آبل Apple، وهو يقول: "إن الرجل الذي عيّنته ليكون مساعداً لي

ومجلس الإدارة قرروا إخراجي من الشركة لأنني كنت سبباً من أسباب تعثّر الشركة في مرحلةٍ من المراحل." هذا يعني أن شاغل الصف الثاني ليس مجرّد مسؤول تنفيذي للتوجيهات بل يلعب دوراً تكاملياً في سياسة جهة العمل، دوراً هاماً يجب منحه الأهمية التي يستحقها.

الطاقات المعطلة

أُفكّرُ كثيراً في الطاقات البشريَّةِ المعطّلةِ وراء جدرانِ البيوت، في الفصولِ الرتيبةِ، في بيئات العمل الروتينيّةِ المكرورةِ، في حلقاتِ المقاهي الفارغةِ، في الشوارعِ، في الأنفسِ الحائرةِ، في كلّ ركنٍ ينزوي فيه صاحبُ موهبةٍ دفينةٍ، وطاقةٍ معطّلة. أفكّر في الطاقات البشرية الرّاكدة التي هي أشبهُ بمواردِ طبيعيّةٍ كامنة في أعماقِ الأرضِ لم تكتشفُ بعد. أفكّرُ فيها وأتصوّرها بعض الأحيانِ كفراشاتٍ في بدلة الغطس القديمة كما وصف الفرنسي جان - دوينيك -Jean Dominique نفسه. أفكّر فيها كما فكّر فيها الشاعر الإنجليزي، توماس هاردي 1840- 1928، حين وقف على المقبرةِ ينعي أصحاب المواهبِ الدفينة الذين عاشوا ثم ماتوا ولم يتسنَّ للعالمِ أن يرى إبداعاتهم الدفينة. كم من البشرِ من هم وراء الحيطانِ، تعيشُ أنفسهم في ظلامٍ دامسٍ، وهم لو شربوا الضياءَ والنورَ لحلّقت أرواحهم في دنيا الإبداعِ كما تحلّق الفراشات حول النورِ، أو كما تهرعُ النحلات لتصنع العسل. كم من البشرِ يضربون في جميع الأركانِ، ويخبطون جميع الحيطانِ من دون أن يجدوا باباً يلتمسون فيه الخروج. لو أُتيحت لهم الفُرص فقط، لربّما قدّموا للبشريّةِ أعمالاً عظيمة.

ثم أنظر في المقابلِ إلى أولئكَ الذين تمتعوا بالحظوظ، فحصلوا على فرصٍ في التعليمِ، أو في الترقّي الوظيفي، أو في التجارةِ أو في غيرها من المجالات، وأسأل نفسي: هل هؤلاءِ ناجحون وأولئكَ فاشلون؟ هل هؤلاءِ أذكياء وأولئك أغبياء؟ ثم أجيب عن أسئلتي: لا واللّه! فكثيرٌ من النّاس حملوا شهاداتٍ عليا ليس لأنّهم أكثر ذكاء ممن لم يحصل على أدنى شهادةٍ علميّةٍ، بل لأن الفرص قد واتتهم. فالشهادةُ العلميّة ليست مقياسَ نجاح المرءِ، وليست معيارَ تفوّقِهِ، وهذا للأسفِ ما لا يدركه أناس كثر. وأضربُ مثالين على ذلك لرجلين، هما من أنجحِ الرجالِ في العالم في مجالِ الأعمال والتقنية. الأوّل هو بل غيتس:Bill Gates، مؤسس ومالك شركة مايكروسوفت Microsoft، والثاني ستيفن جوبز Steve Jobs،

الرئيس التنفيذي لشركة آبل Apple. الأوّل خرج من كليّة هارفرد ولم يكمل دراسته، والثاني لم يتخرّج من جامعةٍ قط. هذان الرجلان من أغنى وأنجح الرجال في العالم، ومع ذلك ليس لديهم شهادات جامعيّة. لكن واتتهم الفرصُ فاستغلّوها. ولو أن عراقيلَ وعقباتٍ قد واجهتهم، وليس لهم من القدرةِ على تجاوزها فربّما أخّر ذلك من تقدّم نمط الحياةِ العصريّةِ إلى أمدٍ لا يعلمهُ إلاّ الله.

فكم أُهدرت فرصٌ ذهبيّةٌ في علمٍ أو مالٍ أو غيرهما في غيرِ أهلها فأضاعوها، أو أنهم أصبحوا بثرائهم أو بألقابهم العلميّة عالةً على أممهم. إنّما كثيرون لم تتحَ لهم الفرصُ لكشفِ مواهبهم، وللتعبيرِ عن قدراتهم، وكأنّهم في نظرِ من يملكون زمامَ الأخذِ بهذه المبادرات ليسوا أهلاً لها. كما يوردُ البنجالي محمد يونس، مؤسس Grameen Bank أو بنك القرية، أنّه حين كان يناشدُ البنوك إقراض الفقراءِ ديوناً بسيطةً كان الرد الذي يتلقّاه: إن الفقراء غير جديرين بالثقة. نعم ليسوا جديرين بالثقةِ لأنهم في ظنّ أصحاب البنوكِ خاملين، كسالى، لا يملكون عقولاً ذكيّة كأصحاب الأعمال. بل هم في الحقيقةِ فقراءَ لأن كثيراً منهم لم تُفسح له الطريقَ لينطلقَ. لم يُعلَّم الصيدَ ليصيد. لم يُمنح الخيارات ليختار. إمّا ظلَّ مقصيّاً بعيداً عن أيّةِ سانحةٍ، أو قنعَ بأن يعطى السمكةَ فلا يصيد. أو ظلّ محاصراً في خياراتٍ يراها بعض من يملكون الخيارات أنّها كلّ الخيارات المثاليّة التي تقودُ إلى النجاح ولا خيارات سواها. يروي أحد التربويين الإنجليز، ويدعى كِن روبنسون ken Robinson، قصّةً ذات أثر يقول فيها: "في الولايات المتحدة الأمريكية وادٍ يسمّى وادي الموت Death Vally. هو المكان الأشد حرارةً في أمريكا. وسمي بذلك لأنه قاحلٌ، جديبٌ، لا تجدُ فيه نبتة، ذلك لأن المطر لم يسقط عليه منذ أمدٍ بعيدٍ لا يُذكر. لكن حدث أن سقط مطرٌ على الوادي عام 2004. وبعد عام هرع الناس ليشهدوا الظاهرة الغريبةَ فيه. فقد ذهلوا حينما رأوا أن الوادي قد غطّته سجّادة من الزهور." والحكمةُ من هذه القصّة الحقيقة أن الوادي كان يحتوي على الحياةِ الخامدة فيه لكنها بانتظار الظروف الملائمة. هذا يعني أن أصحاب القدرات والمواهب الكامنة ينتظرون تهيئة الظروف لهم لينطلقوا في أجواءَ فسيحةٍ، أو يسبحوا في تيّاراتٍ مؤاتية. وقد يلومُ بعض الناس أصحابَ القدرات والمواهب لأنّهم لم يبادروا. إنّما اللّوم، إن جاز لبعضهم، فلا يجوز لأكثرهم، فليس كلّ البشرِ قادرين على تجاوز العقباتِ

النفسيّة والاجتماعية والاقتصادية وغيرها. فإذا استطاع 10٪ تخطيها فإن 90٪ لا يستطيعون. وهذا يعني خسران الأمّم لعقولٍ ذكيّةٍ مبدعةٍ، وأنفسٍ عظيمة وثّابة، لو منحت فرصة لأبدعت، وساهمت في عمرانها وتقدمها. فكما تنتظرُ المواردُ الطبيعية من يستخرجها من أعماقِ الأرضِ، ينتظرُ هؤلاءِ من يفسحُ لهم الخيارات المتعدّدة، ويمهّد لهم الفرص السانحة، ويصنع لهم الأجواء الملائمة كي يبرهنوا أنّهم لا ينقصهم الذكاءُ والإبداع، مردّدين عن ثقةٍ قول أبي علاء المعري:

إنّي وإن كنتُ الأخير زمانه   لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

كم من هؤلاءِ من يقفُ مسؤولٌ أمامَ أفكارهِ فيكبحها ثم يلقي به في زاويةٍ مجهولةٍ كي لا يظهر عليه. كم من هؤلاءِ من يسفّههُ معلّمٌ لأنّه في نظرهِ مشاكسٌ عنيد. كم من هؤلاءِ من يحدّد له أبواهُ الخيار الذي يُريدان ويحسبان أنّه أمثلُ الخيارات في الدنيا فيفشل. كم من الذين تُرفضُ أفكارهم، وتجهضَ مشاريعهم، وتركن دراستهم، وتُخفى أبحاثهم كي لا يحصلوا على فرصةٍ لإسماعِ أصواتهم للآخرين، كي لا يقدّموا لمجتمعاتهم ما يدفعها قُدُماً. يقول الشاعر أمل دنقل:

آهِ، ما أقسى الجدار،
عندما ينهض في وجهِ الشروق
ربما ننفق كل العمر كي نثقب ثغرة
ليمرَّ النور للأجيالِ مرّة.
ربما لو لم يكن هذا الجدار
ما عرفنا قيمة الضوءِ الطليق!

فكم هي الخسارةُ فادحةٌ، حين لا يستطيعَ المنفقون العمر كلّه من أصحاب الأنفس العظيمة والمواهب الدفينة والطاقات المعطلة أن ينقبوا ثغرةً في الجدار! الجدارُ الذي ليس سوى أولئك الذين حظوا بفرصةِ النّور إنما قلوبهم مظلمةٌ، وعقولهم بليدةٌ، ونظراتهم ضيّقة، وأهدافهم قصيرة بطول قاماتهم فيسدُّون النور كي لا يعانقه المبدعون الأصيلون الذين يصارعون الظلام.

الكفاءات الخلاّقة

كم أشعرُ بالإبتهاجِ حين يستغلُّ الوطنُ كفاءةً من كفاءاته البشرية التي يزخرُ بها لتوظيفها في المكانِ المناسب. فليس من موردٍ أعظم من المورد البشري إنه أساس بناءُ الأوطانِ، وعمادُ رقيِّها وازدهارها، لكن شرطَ ذلك أن يكون المورد البشري صاحبَ قدرةٍ وكفاءةٍ لأداءِ الواجبِ المناطِ إليه بالطريقةِ المتوقعة. في المقابل، كم أشعرُ بالأسى حين أرى مواردَ بشريةٍ تُهدر دون الاستفادةِ منها بطريقةٍ أو أُخرى لأسبابٍ متعدّدة. كم كان الوطنُ سيستفيدُ في تقدمه ونمائهِ لو أن هذه الكوادر، صاحبة الكفاءة، قد تبوأت مكاناً مناسباً تبدع من خلاله. وفي الوقتِ نفسه، كم يخسرُ الوطنُ حينَ يتبوأُ من لا يملكُ القدرةَ والكفاءةَ وظيفةً لا قِبلَ له بها فيتخبَّطُ دون أن يدري لنفسهِ مساراً واضحاً. وهذا يعني أن المجتمع في الأخير سيحصدُ آثارَ مشكلة عدم كفاءته وقدرته على تحمّل واجبات الوظيفة أو تسييرها على أقلِّ تقدير.

يفتن بعض النّاس غيرهم في قدراتهم الخلاّقة على تولّي منصبٍ ما وهم أبعد ما يكونون عن قَدر المسؤوليةِ وكفاءةِ الأداء. يُروى أن سيدنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أراد تعيين والٍ على بعض الأمصار كان يرى الورعَ والتقوى والدِّينَ فيه، فأرسلَ إليه من يبلّغه ويختبره في الوقت نفسه. فقال المُرسل للرجل: لقد أُرسِلتُ إليك لتقييمك، إن كنت تصلحُ أن تكون والياً بأمرِ أمير المؤمنين، فردّ عليه الرجل: نعم أجدُ في نفسك القدرة على ذلك. فقال المرسَل: ولكن ما منفعتي الشخصية في ترشيحك؟ فقال الرجل: أجعلُ لك نسبةً من الخراج. فقال المرسل: عليك أن توثّق ذلك كيلا تنسى وتُنكر بعد أن تتولى الولاية. فكتب له الرجل موثقاً ذلك. فأخذه المرسل إلى أمير المؤمنين كدليلٍ على عدم نزاهته. فقال سيدنا عمر: كاد أن يفتننا بصلاته.

إن الدلالة من وراءِ ذلك هي أن المظاهرَ لا تُغني عن الجواهر. المظاهر الخدّاعة لأناسٍ لا تعني نزاهةَ نفسٍ، وأمانةَ ضميرٍ، ونباهةَ عقل. كم من امرئ، إذا تحدّث أعجبك حديثه ففيه طلاوةٌ، وفيه منطقٌ خادع. لكن ما إن تجرّبه في شأنٍ ما حتى يتضح أن ما كان يتشدّقُ به ليس إلاّ مطمحَ طامعٍ، وبراعةَ صانع. أخبرني صديق، أنّ رجلاً جاءه، فأوهمه أن لا مهنةَ في الدُّنيا إلاّ وقد أُوتي فيها حظّاً. فأوكل له ببعض الأعمالِ التجارية وحينها اكتشف حقيقة الرجلِ، أن لا مهنةَ في الدنيا له فيها حظّاً. وفوق ذلك، لا أمانةَ له ولا صدق ولا نزاهة.

إن الكفاءات الجيّدة تشبهُ اللآلىء النادرة التي تحتاجُ إلى مهارةِ غوّاصٍ، وسعةَ صبرِهِ واجتهاده للتنقيب عنها. ولهذا تسمّى عمليّة البحثِ عن الكفاءة في عالم الأعمال بـ "اقتناص العقول Head hunting". في إشارةٍ دقيقةٍ إلى أهميةِ الكفاءةِ التي تخدم مستقبل أيّة منظمة وتدفعها قُدماً. يقولُ أحد الأصدقاءِ من ذوي التجاربِ والخُبرات وهو يحدّث آخر: إحدى أهم مشكلاتنا أننا لا نبحثُ عن الكفاءات. والبحثُ عن الكفاءات التي تتوفر فيها صفات القيادةِ أو الإدارةِ عقلاً وخُلقاً وسلوكاً وهيئةً أمرٌ ضروري لتقدّم الأوطان، لا مناص منه وهذا يتطلب التفكيرَ في برنامجٍ ما كبرنامج "إعداد القادة."

إن إقصاء الكفاءات من قبل المسؤول يعدُّ من أعظم العُقدِ التي يواجهها أصحابُ القدرات المتميّزة، ولهذا ندرَ ما يسمّى بـ"الصفِّ الثاني" المؤهّل لتولّي المسؤولية في حال فراغها. يقول ديل كارنيجي Dale Carnegie: "إن أكبر فائدة وأعظم تركة يستطيع القائد تحقيقها هي مجموعة من الموهوبين الواثقين من أنفسهم المتعاونين الذين يستطيعون هم أنفسهم أن يتولوا دور القائد." ويقول آخر: "إن أكثر المنظمات نجاحاً في المستقبل، ستكون تلك التي تُعِد قادة مستقبلها اليوم. روى لي أحد الأصدقاء، أن إحدى الطرق المتبعة في اليابان لاختبار أداء القادة هي أن يُطلب من رئيس المؤسسة أو الوحدة الخروج في إجازة مفاجئة، فإذا مضت المؤسسة في ظل غيابه دون خلل كان ذلك من دواعي نجاح إدارته، أمّا إذا واجهت عراقيل، فإن ذلك يعدُّ خللاً في قيادته للمؤسسة.

وإذا كان الأمرُ كذلك، فإن تمكين المرؤوسين من أداء عملهم بفعالية وكفاءة مسألةٌ هامّة يجب التركيز عليها وإعطائها المزيد من الاهتمام، فكيف لمن يملك القدرةَ والكفاءةَ ألا يمكّن؟ يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يوسف/56، والتمكينُ هنا هو التصرف كيف يشاء بما أعطاهُ الله من القدرةِ على ذلك.

إن ما يحدثُ في الواقعِ مخالفٌ – في أغلبه – لهذا المنهج، حيث تمارسُ الأغلبية عملية إقصاء الكفاءات على الرغم من أن المصلحة تكمن في تقريبها واستشارتها وتمكينها. وفي هذا الإطار، فإن بعض السلوكيات التي يتبعها بعض المسؤولين تؤدي في النهاية إلى تحطيم معنويات موظفيهم، وعدم مبالاتهم بالعمل، وهروبهم الجسدي أو الذهني منه. ولعل من أسباب ذلك، الاستحواذُ على العمل وعدم التفويض. يقول روبرت هارتلي Robert Hartley عن التفويض: "يفوض المديرون الجيدون الكثير من العمل قدر الإمكان لتابعيهم. فعن طريق إعطائهم الحرية والمسؤولية قدر ما يستطيعون التعامل به، ينشأ رواد المستقبل في المؤسسة. إن القيادة – كما يقول ستيفن كوفي Stephen Covey- هي إشعار الآخرين بقدراتهم ومميزاتهم بكل وضوح حتى يروها في أنفسهم.

إن ما يحزُّ في النفسِ أن تذوي كفاءةٌ في الظلام، كما تخبو شمعةٌ دون أن تنيرَ أحد. كفاءةٌ كانت ستسهمُ في إنارةَ نفسٍ، وتمهيدِ طريقٍ، وتفعيل فكرةٍ، وإطلاقِ موهبةٍ، وتشغيل ساعدٍ، ودفعِ عجلة. لقد وقف الشاعر الإنجليزي توماس هاردي ذات يومٍ على مقبرةٍ فرثى من ضمّهم ترابها ممن كانوا يوماً على ظهرِ البسيطةِ من أصحابِ الملكات والمواهب الذين غادروا دون أن يستفيد العالم منهم أو يكتشفهم أو يلتفت إليهم أحد. هذه مشكلةٌ كبرى تواجهها المجتمعات، وليس من مخرجٍ سوى بالكشف عن أصحاب الكفاءات وتمكينهم كي تُرى قدراتهم واضحةً جليّةً، يقول الشاعر:

إن الرجـالَ صـناديقٌ مقفّلـةٌ ومـا مفاتيحهـا إلاّ التجاريـبُ

والتجاربُ لا يمكن أن تحدث إلاّ بالتمكين وهذا الأخير لن يكون إلاّ بوجود إدارة تمتلك بُعداً شاسعاً وعميقاً نحو المستقبل. يُحكى في تراثنا الشعبي، أن شيخ قبيلةٍ توفي فأراد الوالي أن ينصِّب خليفةً له، فعلّق سيفاً في السَّقف بعيداً عن متناول الأيدي، فطلب من كل فردٍ في القبيلة أن يأتي بالسيف، لكنّهم كانوا يعتذرون إليه بسبب عدم قدرتهم على أن يرتقوا إليه، حتى كان الدور لابن الشيخ المتوفى الذي قال للوالي: سأتيكَ به لو رفعتني بيديك، فنصّبه شيخاً بدل والده.

الأساسُ الذي يجبُ دائماً أن يُبدأ به هو اختيار الكفاءات المناسبةِ وفق أُسس بنّاءةٍ، واختيار الأدمغةِ الذكيّة وفق اشتراطاتٍ غير مستحيلة وعلى رأسها: الفكرُ الخلاّق، الشخصية القيادية، الأخلاق الفاضلة، الأسلوب الإداري الواضح، الإسهامات الوطنية السابقة والسجّل الشخصي وغير ذلك من الشروط التي يمكن وضعها. كل شيءٍ يعتمدُ على الرأس؛ الجوارحُ كلّها قيدُ الأوامر التي تصدرُ عنه. هي مسألةٌ أساسيةٌ حتمية: الدقّة في اختيار الكفاءات، فإذا كانت فتاةٌ قد استطاعت أن تحدّد شرطين لتوظيفِ راعٍ لغنم، ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ القصص/26، وقد رأت من خلال التجربة قوة سيدنا موسى عليه السلام وأمانته، فإنه ليس من المستحيل اختيار الكفاءة الملائمة التي ستشكّل ركيزة العمرانِ للأوطان.

قيمة الترشيد

الإسـرافُ مهلكـةُ الأُمـم، ومحرقـةُ الـذِّمم. ولـدينا كـثرٌ مـن المسـرفين لـيس بالـضرورةِ لغنـاهم وثـرائهم، بـل قـد يكونـون مـن الفقـراءِ المسـرفين. فالفريقـان اتخذوا الإسـرافِ أسلوبَ حياةٍ وطريقةَ معاش وعادةَ تمظهُر، حتى أصبحنا مضربَ الأمثـالِ عنـد شـعوبٍ أُخـرى في الإسـرافِ والمخيلـة. ويـا للمفارقـةِ! بعـضُ الأغنيـاءِ يُسرفون بغير قيـاسٍ في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومركبهم، إلاّ أنّ أياديهم شحيحةً على الإنفاق والتّصدّق على المحتاجين. ونبيّنا الكريم، ﷺ، يقولَ: "كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا مِنْ غَيْرِ مَخِيلَة وَلا سَرَف، فَإِنَّ اللَّه يُحِبّ أَنْ يَرَى نِعْمَته عَلَى عَبْده." فقد ارتبطَ الإسرافُ بالكبر، ودلَّ التّرفُ على البطر، ونتجَ عن الغنى السّكر، وعن المالِ الكفر. يروي سهل بن هارون، عن معاوية أنّه قال: "لم أر تبذيراً قط إلا وإلى جانبه حق مضيع." وعن الحسن قوله: "إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب ماله، فانظروا في أي شيء ينفقه. فإن الخبيث ينفق في السرف." فهل يأتي من يقولَ: إن في الإسرافِ فضيلة، وفي التبذيرِ خصلةً حميدة.

إن أغلبَ النّاس في مجتمعاتنا يميلون ناحيةَ الإسراف، فالغنيُّ مسرف، والفقيرُ إن سقط مالٌ زائدٌ في يدهِ أسرف، وإلاّ لما رأيتَ عند فقراءَ هواتفَ لا يملكها أغنياءْ، وهو ترفٌ عند الأوّل، وتعويضٌ عن الشعورِ بالنّقصِ عند الآخر. وهذه الثقافة متأصلةٌ ومقرونةٌ، فالشاعرُ عروة بن يحيى بن مالك بن الحارث الليثي وهو من أهل المدينة، ومعدود من الفقهاء والمحدثين أيضاً، يقول:

لقد علمت وما الإسراف من خلقي   أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

أسعى إليه في عيني تَطلُّبُه   ولو قعدت أتاني لا يعنيني

هذه الأبيات تعبّر عن ثقافة الإسراف، والتواكل عن العمل بحجّة أن الرزق المكتوب يأتي حتى مع القعود. وهذا ما يخالف الحديث الشريف، "لو توكّلتم على اللّه حق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير، ألا ترون أنها تغدو خماصا

وتروح بطانا." مسند أحمد. وما أغلبُ الصور التي يتناقلها النّاس للدلالةِ على الإسراف إلاّ وفيها أقوامٌ عرب. ولو أن كلّ واحدٍ له فضل زاد جادَ به على من لا فضل له، كما ورد في الحديث الشريف، لسعدت المجتمعات.

لقد أهلكتنا المظاهر، وهي من السّرف، وأبادت ما أبادت من القوى والأموال في ما لو استغلّت بالطريقةِ المثلى لأنتجت ما يؤتي أُكله كلّ حين. أخبرني أحد الموسرين فقال: "كنت حينما أدخل جهةَ عملي بسيارتي الفارهة يحيّيني الحرّاس تحيّة لائقة. وذات يومٍ، كان عليِّ أن أقود سيّارةً متواضعة لوجود سيارتي الأولى في الصيانة، ودخلت فلم يلتفت إليَّ أحد، ولم يعرني الحرّاس اهتماماً. وكأن قيمتي كانت في ما أملك، أي قيمتي بقيمة سيارتي. وحدث هذا الموقف لصديق كان يعبرُ البوابةَ بسيارةٍ فارهة، وحين حدث أن قاد سيارةً متواضعة، استوقفه الحارس وسأله: هل استبدلت السيارة الفلانية بهذه؟" بطريقة ساخرة. وليته ردَ عليه: هذه سيارةٌ اقتصادية وخفيفة وهي أفضل من تلك التي تستنزف أموالك. بعضُ الفقراء يحسدون الأغنياء ويتهكّمون على إسرافهم لكنّ إن حدث لهؤلاء الأغنياء أن اقتصدوا في ملبسٍ أو مأكلٍ أو مركب سقطوا من أعين أولئك الفقراء. وكأنَّ هؤلاء الأخيرين قد أحسّوا بفقدان ثروةٍ ربّما كانت ستعينهم إن هم احتاجَوا إليها في يومٍ من الأيام. وبعض الأغنياء مسرفون سرفَ مجاملاتٍ ومظاهر ومقارنات. لكن قلّما يخرجَ منهم فلسٌ للخيرِ، زكاةً أو صدقةً أو نفقةً. وقلّما يلتفتون إلى فقيرٍ أو محتاج، حتى لو تساقطت أدمعه على ركبهم حتى يطلبه منهم صراحةً أن يمنّوا عليه. إنّ هؤلاءِ مرضى يريدون استصغار الناس وتحقيرهم. وهم أشحاء النفوس، قَالَ النَّبيّ، عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام: "بَرِيء مِنْ الشُّحّ مَنْ أَدَّى الزَّكَاة وَقَرَى الضَّيْف وَأَعْطَى فِي النَّائِبَة." وعرف عن النَّبيّ، عَلَيْهِ الصَّلَاة السَّلَام، أَنَّه كَانَ يَدْعُو: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذ بِك مِنْ شُحّ نَفْسِي وَإِسْرَافهَا وَوَسَاوِسهَا."

ليس على المسلمِ الذي يحب الثوب الحسن والمظهر اللائق من شيءٍ، إنّما عليه إن أسرفَ فوق الحاجةِ، وإن أقتر على نفسه وأهله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴾ الإسراء/29، فعلى المسلمِ أن يظهر نعمةَ الله عليه، وإلاّ إن كان موسراً، غنياً لم يظهر نعمة الله عليه وهو من البخلاءِ، الجاحدين، الأشحاء.

والقصدُ هو لا إفراط ولا تفريط، لا ضرر ولا ضرار. فأين هي اليوم من الاقتصادِ مهور البناتِ عندنا، وحفلات عقد القران والزواج، والمناسبات المختلفة، أو ليست – في أغلبها – إسرافاً وتبذيراً، مخافةَ الكلمة. يا لها من كلمة. وكأنّ الاقتصادَ في المناسبةِ عارٌ ومنقصةٌ يخافها الإنسان ويخشاها.

ليت الإنسانَ عامّةً في مجتمعاتنا يقتصد ليدّخر ولينفق في الخير. فما أعظم الإنفاق في خيرٍ! فهو الذي يربو في أموال النّاس. فالزكاة تطهير، والصدقةُ علاج للغني والفقير، فلا تضيع مجتمعات نشطت الزكاة والصدقة فيها ولا تخرب، عكس المجتمعات التي ليس همّها إلا توليد المال من المال بأيّةِ طريقة. كنت أتابعُ منذ أيام لقاء مع مؤلف وأكاديمي أمريكي يدعى ديفيد هارفي ينتقدُ الرأسمالية ويقول إنّني حينما رأيت اتجاه الناس في النظام الرأسمالي يتّجه نحو زيادةِ المال من المال قلت إن هذا الاتجاه مآله وخيم. وهذا ما حدث في أزمة الائتمان عام 2008.

ولنتأمّل الحديث الشريف: "الْكَافِر يَأْكُل فِي سَبْعَة أَمْعَاء وَالْمُؤْمِن يَأْكُل فِي مِعًى وَاحِد." أخرجه أحمد والشيخان وابن ماجة. بينما الحال اليوم – إذا نظرنا للحديث من جانب الإسراف وليس من جانب الاعتقاد – رأينا أن الحال قد انقلب اليوم، فالكافر يأكل في معي واحدٍ اقتصاداً، والمسلم يأكلُ في سبعةِ أمعاءٍ إسرافاً. وهذه مخالفة صريحة. فلُقمان يقول لابْنِهِ: يَا بُنَيّ لَا تَأْكُلْ شِبَعًا فَوْق شِبَع، فَإِنَّك أَنْ تَنْبِذهُ لِلْكَلْبِ خَيْر مِنْ أَنْ تَأْكُلَهُ. لكن الكثير ممن يعاودون المراكز الصحيّة عندنا يعانون من البشمِ وسوء الهضمِ خاصّة في الأعياد. هذا لا يعني أنّ هناك من يجتهد للقمةِ عيشٍ يسدُّ بها رمقه، لكن المقصدَ هنا أن ثقافةَ الإسرافِ والتمظهرِ طاغية فقد لا تظهر على فقير معوز لأنّه لا يملك المال. أمّا حين يملكه فسيفعل به - إلاّ من رحم الله - ما فعل بحمامةِ المسجدِ. فالمال نزوة والغنى سكر.

السحر المبين

كم مَلَكَ من قلبٍ، وأسرَ من لُبٍّ، وأتلفَ من حشاشةٍ، وأرهف من رقّةٍ، وشفَّ عن جمالٍ، وأحالَ من تجهُّمٍ. هو السحرُ المبينُ، هو الأسلوب. فهو الذي يفتحُ خزائنَ القلوبِ، ويُخرجُ ودائعها بلطفِ اللّفظِ، وحسنِ العبارةِ، ورقّةِ التصويرِ. الأسلوبُ هو الذي يرفعُ الهمم، ويُعلي القمم، ويدفعُ إلى الإنجازِ الشعوبَ والأمم. ما تحلّى به إنسانٌ وتزيّن، إلاّ كان له أعظم حليةٍ، وأزهى رداء.

والنّاس في أساليبهم أصنافٌ متفاوتون، فمنهم قبيحُ العبارةِ، فظُّ الأسلوبِ، لا يُلقي بالاً لما يقول، ولا يعنيهِ ما يُسقط لسانه من كُسر القبحِ، وجمراتِ الشرر. وهذا الصنفُ فقدَ التواصلَ الداخلي بين عقلهِ وقلبه ولسانه. تقطّعت بين أجهزته الداخليةِ الوشائج، فغدا كل منها يعيثُ في واد. ومن الناسِ من لطفت عبارته، وحسنت كلمته، فإن لم ينوِ قول الخير سكت. ينتقي اللّفظة قبل خروجها من فمه، يقلّب أوجهها، ويتصوّر تأثيرها، فإن وجدها لذيذة الطّعمِ، حلوةُ المذاق، أطلقها عن طمأنينةٍ، وإن وجدها مرّةُ المذاقِ حبسها لأنّه تصوّر أثرَ مرارتها في الخلق.

ويحسبُ بعضُ النّاس – عن جهلٍ – أن فظاظةَ الأسلوبِ معبّرٌ عن القوّة، والسلطةِ وهم في هذا جهلاء، فلو كان كذلك لما وصّى الله، سبحانه وتعالى، كليمه موسى وهارون حين أمرهما بدعوة فرعون الذي ادعى الربوبيّة بقوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ طه/44. ففي اللطف، والرِّقةِ واللّين أثرٌ على النفس، ووقعٌ على العقل. هؤلاءِ شهدنا عليهم في مواضعَ مختلفةٍ يسومون النّاس العنتَ من ألسنتهم الجافّة، فيظنّون بأن قلوب الناس لا تُملَكُ إلاّ بالتقريعِ والتهديدِ والوعيد. وأن رقابهم لا تُخضع إلاّ بالصلافةِ في القولِ، والتجريح في الأسلوب. واحدٌ من هؤلاءِ، كان يحسبُ أنّه يستمدُّ قوّته من صاحبِ جاهٍ ومركزٍ

يقضي شؤونه، فكان لا يلقي اهتماماً للكلمةِ تخرجُ من لسانهِ، فقد كان لسانه سوطاً يسوطُ به الخلق، وبعضُ هؤلاءِ يرتعدُ خوفاً منه لمكانتهِ من الوجيه، بينما بعضهم الآخر لا يحمله على التصبُّر إلاّ تقديره لمن وراءه. حتى وقف رجلٌ، ذات يومٍ، فقال للرجل الوجيهِ: إنّ فلاناً هذا الذي يقضي شؤونك إنّما يسيءُ لك، فليس من أخلاقك، ولا من شيمتك أن يتقوّل رجلٌ مثله على النّاس بكلامٍ خادشٍ للحياءِ، مخلٍّ بالتقديرِ، مذلٍّ للنفس وكأنّه لسانكم الناطق. وشهدنا على آخر بذيءُ الأسلوبِ، قبيحُ اللّفظِ إن مُكّن لقضاءِ عملٍ، أو أداءِ مهمّة. يحسبُ نفسه أنّه الوحيد من سكّان المعمورةِ الذي كلّفَ بحلِّ مغاليقَ الأمور، وفكِّ عُقدها. ولهذا يصيّر لسانهُ كمنشارٍ عشوائي، يقطعُ هذا ويجرحُ ذاك كي يصلَ إلى مبتغاه، ويحقق مأربه، ثم يزهو بريشه كالطاووس لاحقاً حينما يتأتّى له ذلك بعد أن يترك في طريقه من صرعى لسانه الكثير. ولعل آخر لا يقلُّ عن حدّةَ لسانهِ فلا يتحدّث متحدّثٌ في مجلسٍ إلاّ سفّه به وأظهره كأجهلِ الجهلاء. هؤلاءِ - وإن لزمَ بعض الناس الصمتَ إزاءهم، أو ارتعدت فرائص بعضهم منهم - ممقوتون، مبغضون لا يقر لهم في النفس قرار، ولا تقام لهم منزلة، ومنتهاهم مثيرٌ للعبرة.

من هؤلاءِ الكثيرُ من الأزواجِ ممن لا يقيمون للأسلوبِ الحسنِ مع زوجاتهم قيمة، قلوبهم ضحلةٌ، وألسنهم جديبة. لا يعرفون إلا إصدار الأوامر لزوجاتهم، وهم يظنّون أن الرجولةَ تقتضي هذا القحط في الأسلوب، والفظاظةَ في الأمر. فبؤساً لهذه الرجولة! وبؤساً لها لأن نبينا العظيم ينادي زوجته: "يا عائش!" وهم يأمرونها أمرَ العاملةِ في البيتِ، مع أن العاملة هي أيضاً لا يجب أن تؤمر إلاّ بالأسلوبِ اللّين. ولكم أشعرُ بالأسى حينما أسمعُ رجلاً يأمرُ زوجته آمراً بحزمٍ دون تلطُّف في الأسلوبِ. هؤلاءِ لم يعرفوا حسن التأدّب مع زوجاتهم، وفي المقابل فإن بعض الزوجات لا يحسنَّ أساليب الخطابِ مع أزواجهن، ولذلك تغصُّ الحياة بينهم بالمشاجراتِ المتتاليةِ، والخصومات المستمرة.

وفي العمل يتّخذُ بعض المسؤولين أسلوب الأمرِ الغليظ مع موظفيهم وكأنّهم يقبضون على زمام معيشتهم، ويقدّرون عليهم أرزاقهم. ولذلك يخلو أسلوبهم من اللّطفِ واللِّين. يحسبون أن المنصب سلطةٌ مطلقةٌ، والإطلاقُ يشمل الجلدَ بالألسن.

ووالله إن القلوب ليسهل أسرها وإدارتها إذا ما كان الأسلوب الراقي الجميل مفتاحاً لها! يروي ديل كارنيجي قصّةً روتها مؤلفة، تدعى جوريت ليبلانك، عن فتاةٍ دميمة الوجه، هزيلة الجسم، سيئة المظهر تعمل في فندق كانت تحمل وجبةً إلى المؤلفة، فقالت لها الأخيرة: "أوه عزيزتي ماري، إنني أرى بك كنوزاً رائعة كامنة بداخلك." فكادت ماري أن تهوي على الأرض، فدفعها هذا الإطراء إلى الاهتمام بمظهرها والاعتناء بنفسها وسرعان ما أُعلنت خطوبتها لرجلٍ أبهره اهتمامها بمظهرها. ومؤخراً دخلتُ أحد مكاتب العقارات في إحدى المدن الإنجليزية، وبينما كان المدير الإنجليزي الشاب يعبِّأُ استمارةً تتعلّق بالعمل الذي حضرنا لأجله، قلتُ له على مسمعٍ من بقية موظّفيه: جميعكم موظّفون رائعون. فترك الاستمارة واقتربَ مني يفيضُ غبطةً ليسألني: هل تظن ذلك؟ فقلتُ نعم، وقد خرجنا المرة الماضية ونحن نشيدُ بلطف أسلوبك واستقبالك لنا، فقال لي: سأبلغُ زوجتي بأن هناك من يظن بأنني كذلك. ويشدّد باتريك ديكسون Patrick Dixon بعبارة يكررها كثيراً بأن "المستقبل هو العاطفة" ذلك لأن الإنسان محور الزّمن، بينما العاطفةُ هي محورُ الإنسان.

كثيرون منا لا يتقنون فن الأسلوب ولطف التخاطب، فإذا تكلّموا أحبطوا، وجرحوا، وسفّهوا، وأهانوا، وهم ماضون لا يلوون إلى شيء، وكأنّ الأمر لا يعنيهم. ومنا أناسٌ ترى في الإنسانِ كتلة لحمٍ تتحرّك وفق التعليمات الآمرة والنواهي الزاجرة، وليس عاطفةً تحسُّ بالفرحِ والألم. ومنا أناسٌ كثرٌ لا يتقنون الأسلوبَ اللّطيف وما ذلك إلاّ مرضٌ في النفوسِ وخللٌ في الأخلاقِ، وخبلٌ في العقول.

الإنسان الذي لا يجيد التّحدث بأسلوبٍ راقٍ، مهذّب، هو إنسانٌ لم يعرف من الأخلاقِ والآداب شيئاً. فالأسلوب هو لسانُ الخُلُق، لذلك يُقال "المرءُ مخبوءٌ تحت لسانه." والرّاقون هم من يرتقون بأساليبهم، ويحسبون أثَرَ كلَّ كلمةٍ يتلفظون بها. الرّاقون هم من ينتقون الألفاظ التي تضيء اللآلىء الدفينة في نفوس الآخرين فتشع، ويزيحون الغبار عن قدراتهم، ويوقظون قدراتهم الخامدة. الرّاقون هم من يرصّعون وجوه الآخرين بالدرر، وهم من ينيرون آمالهم بالتحفيز، وهم من يحفّزون إراداتهم بالتشجيع، ويحيلون بؤسهم إلى تفاؤل، وشقاؤهم إلى سعادة.

الجهلُ المقنّع

كان الجهلُ لفظةً تناقضُ القراءةَ والكتابةَ في عُرفِ مجتمعاتنا، حتى بات السوادُ الكبير من النّاس يقرأُ ويكتب، ثم أصبحت الشهادةُ العلميّة معياراً للمتعلّم، وهنا تحوّلت تلك الشهادة إلى قناعٍ يُخفي الجهل لدى الكثيرين حتى لم تعد تميِّزُ بين متعلّمٍ يفهم ما تعلّمه ويترجمه إلى معرفةٍ عبر التطبيق، وجاهل متباهٍ بما يعلم، يناقضُ ما جاء في الحديث الشريف، "لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء أو لتماروا به السفهاء أو لتصرفوا وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النار."[1] وهذه معضلةٌ في مجتمعاتنا. أقصدُ بها الجهلُ المقنّع. والجاهلُ المقنّع يتعلّمُ العلمَ لا لأجلِ المعرفةِ وإنّما لمقاصدَ الجاهِ أو المنصبِ أو المباهاة، وليته تعلّمه للمنافسة، فالمنافسة مقبولةٌ في العلم إن كانت على أسس ومقاصد علميّة وليست على انفعالات ومشاعرَ شخصيّة. يقول سماحة المفتي الشيخ أحمد بن حمد الخليلي – نفعنا الله بعلمه – كما ورد في كتاب النمير: "**إن بعضاً ممن يحملون الشهادات العليا لا همّ لهم سوى السمعة والشهرة، وأخذ المادة من وراء ذلك.**"[2]

ولعلّ عبارة "حفظ عن ظهر قلبٍ" كان لها الدور السلبي، الذي جعلنا نحفظُ دون فهم، وكان تكرار الدروس لعشرات المرّات إحدى العقوبات على الطالبِ بدلاً من عقوبةِ استخلاص ما فهمه من الدرسِ وإيجازهِ أو كتابةِ بحثٍ حوله. العقوبةُ الأولى كرّست سياسة "الحفظ عن ظهر قلب" وهذا حدا بنا أن نحفظَ دون فهم، حتى أننا – ومازلنا- نسمع عبارات مثل "شَربَ الكتاب" كنايةً عن حفظهِ عن ظهرِ قلبٍ استعداداً لاجتياز الامتحان. ولعلّ منظر الطالب أو الطالبة والكتاب في أيديهما، وهما يسيران جيئةً وذهاباً ويردّدان التعريفات وغيرها، هو

---

(1) سنن بن ماجه – كتاب العلماء حدث به إبن سيرين

(2) كتاب النمير – جزء1- ص147

منظرٌ لا يزال يسود في مجتمعاتنا وفي كلِّ أعمالنا الدرامية حتى اليوم. ولا يزال مشهد المعلّم وهو يملأ السبورة كلاماً في كلام ثم يقول لطلّابه، اكتبوه هنيئاً مريئاً، هو مشهدٌ لا يزال يتكرّر حتى اليوم. أما الحوار، الذي يهدفُ لغرسِ قيمةِ العلم، فهو نادرُ الحدوث. أمّا التطبيق، وإن كان عبر تجارب، فهو قليل أو ضعيف. أمّا البحث فهو شبه منعدم. هذه أمورٌ أساسية أنتجت مشكلاتٌ في مجتمعاتنا منها الجهل المقنّع، الذي أوجد أناساً يحملون ألقابَ متعلّمين لكنّهم جاهلون، ليسَ على صعيدِ المعرفة فحسب، وإنّما على صعيدِ السلوك أيضاً. وهنا نقرُّ بأن العلم أفرعٌ وشُعَب ولكن لابد وأن يكون للعلمِ أخلاقيات وإلاّ كيف عمّم الله، سبحانه وتعالى، الحديث عن العلماء بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فاطر/28. كثيراً ما نسمعُ عبارة أن فلان مثقّف وهذا اللّقب قناعٌ آخر للعلمِ. قناع يشكّلُ حاجزاً أمام الاعتراف بالجهل، والإغترافِ من العلم، يقول ثورو Thoreau: "كيف لنا أن نتذكر جهلنا الذي يحتاج إليه نموّنا، إذا كنّا نستخدم معرفتنا طول الوقت."

إنّما لا محلَّ للاعترافِ بالجهلِ في مجتمعاتنا. والاعتراف بالجهلِ فضيلة، ولنا فيها قاعدة فقهية تقول: "من قال لا أعلم فقد أفتى." وهذه القاعدة وجدت لكي لا يخوض الخائضون في كل ماء. لكن هيهات! فالكثيرُ منّا يدّعي العلم على رغم أنفِ العلم. بل ينسبُ العلَم الذي يستقيهِ من غيرهِ إلى نفسهِ، ويثقلُ عليه أن ينسبه لأصحابه، وفي هذا فقد أعجبتني نصيحة وجّهها الشيخ المربِّي حمود بن حميد الصوافي إلى أحد طلبته بعد أن سمع أنه يروي الأقوال النحوية ومذاهب النحويين، فجاء في نصيحة الشيخ ما يلي: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ ق/ 18، "أنا أفرح حين تقول: قال الخليل بن أحمد: كذا وكذا، وقال سيبويه: كذا وكذا، وقال المبِّرد: كذا وكذا، شيء مهم جداً، وهذه منقبة عظيمة لطلبة العلم. ولا أحب أن أسمع عنك مرة ثانية أنك تروي الأقوال إلا إذا كان معك تحقيق، وتدقيق، وإطلاعٌ جيّد."[1]، وفي أحد الحوارات التي شاركتُ فيها بدا

(1) كتاب النمير ـ جزء3 ـ ص346

أحد الشبابِ وهو يرتدي زي (الملتزم) واثقاً من عباراتٍ كان يفسّر بها الآيات كما يشاء ويقولُ باسم الإسلام ما لا يفهم مغزاه. قلتُ له لاحقاً في نصيحةٍ جانبيةٍ تفقّه في أمر الدّين قبل أن تتقوّل ما لا تفقه، فيؤخذُ منك على أنّ الدِّين قال كذا وهو بريء.

قليلٌ منّا من يستمعُ للعلماءِ بتذلل، ويقصدُ العلم لأجلِ المعرفةِ البحتة، فإن قصده لأجلِ ذلك تسهّلت له السُبل، ولانت له الصعوبات، وفتحت له الأبواب. نحن بحاجةٍ كي ننشرَ فكرة أن الإنسان المعترفَ بجهلِهِ، خيرٌ من المتعالم الجاهل في حقيقته، فهذا بلاءُ مجتمعاتنا التي يظهرُ فيها بعض النّاس أنّهم أعلمُ النّاس، حيث يقول الواحدُ منهم: "ليست الحكاية كما تقول، بل هي كذا وكذا." ويقول: "هناك الأهم مما قلته أنت." ولا يستمع من أجل أن يكتسبَ علماً، بل يجاهد صبره من أجلِ أن يفيض بعلمه، أو يفضح جهله، أو يعارض القائل.

إننا إن لم نغرس فكرة أن العلمَ هو الحكمة و"الحكمة هي ضالة المؤمن أنّى وجدها أخذها." فإن القناعات السائدة لن تتغيّر. روى لي أحد الأصدقاء أن أستاذة ألمانية جاءت من ألمانيا لتسأل عن مسألةٍ حول الإسلام أثارها طالبٌ عمانيٌّ في بحثه فخالجها ظنٌّ بأن تلك المسألة ليست متوافقةً مع الإسلامِ فقررت أن تأتي إلى عمان كي تعرف الحقيقة. قال الصديق: "قابلتها وأكبرتُ فيها هذا الإخلاص وقدّمت لها الأدلة التي كانت تعضدُ ظنّها فقالت الآن أصبتُ اليقين، فعادت إلى بلادها وهي منشرحة الصدر حين وجدت ضالتها." نحتاجُ إلى أن نعترفَ راضين بجهلنا في ما لا نعلم، بل وفي ما نعلم حتى نزداد علماً انتهاجاً لمقولة عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه- "لا يزال المرء يتعلمّ ويتعلم فإذا ظنّ أنّه قد علم فقد جهل." والاعتراف بالجهلِ يتطلّب إعلاء قيمة التواضع، فالتواضع هو المفتاح العظيم لباب العلم. يقول النبي، ﷺ: "آفة العلم الخيلاء." وقيل: "علِّم علمك من يجهل وتعلم ممن يعلم ما تجهل؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت." ويروى أن العلاّمة العماني أبو الحسن بن أحمد، قال لسائلٍ في جوابٍ له: "انظر في ذلك ولا تأخذ منه إلاّ ما وافق الصواب والعدل، وتأمّل ما كتبت به إليك، فإن كان فيه زلل أو غلط فأصلحه، فإني كتبته ولم أقرأه، ولم

أتأمله."[1] إن جاهلاً يتواضع لأجلِ العلمِ خير من عالم يتظاهر بالعلم. فذلك متواضعٌ وهذا متكبّر، وذلك راغبٌ في التعلّم، وهذا منفّرٌ من التعليم.

إننا بحاجةٍ إلى متعلّم عامل، وليس إلى فقيهَ لسانٍ، سفيه مسلك. يقول سيدنا عمر، رضي الله عنه: "إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المنافق العليم. قالوا: وكيف يكون منافقاً عليماً؟ قال: عليم اللسان جاهل القلب والعمل." فكم من يتلذّذ بجلد هذا ونقدِ ذاك وهو أبعدُ النّاس عن العمل. وكأنّما وقع علمه على لسانه ولم يقع على جنانه. لذلك لم يدفعه إلى أن يحوّل علمه إلى عمل كما يحوّل الطعام إلى طاقة.

إن الجهل المقنّع داءٌ في مجتمعاتنا يجب أن يقتلع بإعلاء شأن العلم، وعلو مقاصده، ورفع مراتبه، وفهم غاياته، حتى تكون الشهادة العلمية دليلَ معرفة، لا مجرّد ورقةٍ يحدّها إطار.

---

[1] كتاب النمير ـ جزء2/ لمؤلفه/ محمد بن عبدالله السيفي

أدب الرأي

إذا كان للكلمةِ أثرٌ على النّفس دون جدل، فإن للرأي الذي هو تكوينٌ من الكلماتِ أُثره الموقع على النفس والعقلِ معا. للرأي أدبٌ رفيع، وخلقٌ عالٍ، لا يمكنُ أن يرقى به إلاّ من تحققّت له شروطٌ على رأسها حكمةُ العقلِ، وحنكةِ البصيرة. لا تغني البلاغة مهما حققت من جماليّةٍ في الكلامِ، وسحرٍ في التعبير، وجاذبيّةٍ في الطرح. فربَّ كلامٍ بسيطِ اللّفظِ، غير متكلّف العبارةِ، يحلّ في القلبِ حلولَ النسمةِ الرقيقةِ، ذلك لأنّه صادرٌ من الأحاسيس الصادقةِ، والمشاعر التي تبصرُ صدقها وعفويتها وطلاقتها متوهّجةً بين الكلمات.

ليس كلّ رأيٍ هو الرأيُ الفصلُ وإن بدا في ظاهره موضوعياً. فالموضوعية تفهم خطأً على أنّها الواقع، بينما هي في الحقيقة ما يراهُ صاحبُ الرأي على أنّه واقع. ألم تسمع كثيراً ممن يقول لك "هذا هو الواقع." أي واقعٍ غير الذي يراهُ هو واقع ويرى غيره عكس ذلك.

إن الرأي إن لم يصدر من نفسٍ متواضعةٍ كان رأياً متعالياً، رأياً له رأس الحيّةِ تظهر الكبرياءُ فيه ذات خيلاء، لا تخفى على الإنسانِ البصير، يقول أحمد شوقي:

ومنَ الرأيِ ما يكونُ نفاقاً

أَو يكونُ اتجاهُه التضليلا

ومن النقدِ والجِد الِكلام

يشبه البغيَ، والخنا، والفضولا

من هذه الآراءُ ما يطلُّ علينا بين فينةٍ وأُخرى كأنّه يحملُ سوطاً يجلدُ به الآخرين، لا خلقاً يرمي به النصح، ويقصدُ به التقويم. وهذا رأيُ تضليلٍ يريدُ له صاحبه شيئاً ويقصدُ شيئاً آخر. يقول برنادشو: "علينا أن نفكر في الأشياء، نفكّر فيها كما هي وليس كما يقالُ عنها." هذا يقتضي في اعتقادي أن نعرف

طبيعةَ قائل الرأي، ونسبرَ تاريخه، ونحلل سيرته، والموقف الذي قيل فيه، والحالة التي صاحبت قائله قبل تلقّفه بصورةٍ لا تقبل الجدل والنقاش. يقول أرسطو: "علامة العقل المتعلم هي قدرته على تداول الفكرة دون أن يتقبّلها." فبعض الآراءِ كالفخاخ تُنصبُ من أجلِ أن يسقطَ في حفرها الذين يصدّقونها ثم يمضي قائلوها على أجسادهم لنيلِ مقاصدهم، لهذا تأتي بعض الفتنِ على هيئةِ رأي رشيد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ الحجرات/6. ولهذا فإن النفس المتواضعة هي خير من ينطقُ بالآراءِ، لأنّها لا ترفعُ نفسها فوق الآخرين. فانظر إلى نفس متواضعة كنفس الإمام الشافعي حين يقول: "ما حاججت أحداً الا تمنيت ان يظهر الله الحق على لسانه." أفلا تحترمُ صاحبَ رأيٍ كهذا وإن أخطأ؟

لا يصدرُ الرأيُ النافعُ إلاّ من نفسٍ كريمةُ الخلق، نبيلةُ الطبعِ، تشفعُ لها التجربةُ، وتزكّيها السيرةُ الحميدة. أمّا بعض الآراءِ فتصدرُ من نفسٍ ترعى مصالحها الشخصية على حساب المبادئ العامّة العليا، يقول توفيق الحكيم: "إن المصلحة الشخصية هي دائماً الصخرة التي تتحطم عليها أقوى المبادئ." ولهذا فإن نظرةً إلى نفسِ القائلِ تنفعُ السامع. نظرة هادئةً يقودها العقلُ المتعلّم قادرة على التمحيصِ والتدقيق في الرأي، متصوّرةً ما قد يجرّه الرأي من عواقب.

يقع بعض الناس في ازدواجيةٍ لا يوقعهم فيها سوى غباءِ عقولهم، فهم ينادون بحريّة الرأي ويريدون أن يقولوا ما يشاؤون، لكن إذا أراد أحد أن يقول فيهم رأياً وجّهوا له السّهام، وتكالبوا عليه. إذن فهؤلاءِ ليسوا أصحابَ مبادئ، بل أهلُ هوى يزيغُ بهم حسبَ ما تصوّره لهم أنفسهم الضحلة البصيرة. هؤلاءِ لا يجدّفون في بحرٍ هادئٍ يقبلُ التياراتُ المتضادّة، بل يجدّفون في نهرٍ جارفٍ ليس له سوى مسارٍ واحد..! هؤلاء يمارسون التحيّز في الرأي والتحيّزُ معضلةٌ في الحوار. يقول كاتب أمريكي، يدعى وايت White: "التحيز هو اختصار عظيم للوقت، يمكنك تكوين آراء بدون أن تحصل على حقائق." وهذا فعلُ الكثيرين ممن يكوّنون الآراء دون حقائق، فيتحيّزون إلى ما يتكوّن لديهم من رأي بصنيعة أنفسهم أو صنيعة الآخرين.

لقد استمعتُ إلى من ينتقدُ نفسه جاهلاً دون الاعتراف بالمسؤولية. فأحدهم كان يقولُ رأياً عن غيره لا ينطبق على أحد سواه. وهذه مصيبة يوضحها قول شيخنا نور الدين السالمي:

إن كنت لا تعلم فتلك مصيبةٌ وإن كنت تعلمُ فالمصيبةُ أعظم

الرأي لا يُقبل من فوّهات الأفواه الصاخبةِ، تلك التي لا تخرجُ منها الأحرف إلاّ ممزّقةً مبهمة. يقول إمرسون Emersson: "إن ما تكونه أنت يصرخ في أذني، إنني لا أسمع ما تقول." ولهذا فإن الصوت العالي لا يتوافق مع العقل الهادئ، ولا يتوافق مع أدبيات الحوار، ولا مع خلق التعامل الإنساني الراقي. وهذا فاصلٌ سميكٌ بين طرفين. إن كثيراً من النّاس تحولُ أصواتهم الصاخبة دون فهم الآخر. يقول كينيث ويلزKenneth Wells: "إن المستمع الجيّد هو الذي يفهم ما الذي يريد المتحدث قوله. قد يختلف بصورةٍ حادّة معه في النهاية ولكنّه حين يختلفُ معه، فإنّه بحاجة إلى فهم ما الذي يختلف حوله تحديداً." هذا يعني أن الحاجة ماسّة في أدب الرأي إلى أن يتحلّى المستمع إلى الفهم الجيّد، والإنصات الصادق. إن مسألة إعلاء الصوتِ كان لها أثرها في النبي، ﷺ، من الناحية النفسية. فجاء أمره تعالى حازماً فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾ الحجرات/ 2 ـ 4.

إن أدب الرأي يقتضي البعد عن 'الشخصنة' والتجريح. فأسلوبٌ كهذا لا يشيرُ إلى صفاء النفوس، وسلامة النوايا، بل إلى عكس ذلك، وهذا ما يتّبعه ـ للأسف ـ بعضهم حينما "يشخصنون" أي يقصدون أشخاصاً بعينهم دون أن تتوفّر لديهم الحقائق. هذا الخلق السيء لم تكن عواقبه سوى السخط والتذمر وطعن أبرياءَ دون جرم. أمّا الكلمةُ التي يلقيها القائل، دون ضابطٍ، فهي وبالٌ عليه،

وسيحاسبُ عليها في يومٍ آخر، سيجدها شاهدةً تنتظرهُ لتشهدَ على تحيّزه للباطل وغمطهِ الحق.

ومن الشباب من يرى أنّه قد يصيب كبدَ الحقيقةِ في كلّ رأي يرتئيه. فلا يتردّد في ذمّ رأي من هو أكبرُ منه، ولا يخشى أن يسفّه كل صاحب رأي تسفيها لا يقدّر عمراً ولا تجربةً ولا جهداً ولا علما. وهم إن سمحوا له بالتطاولِ، فليس لضعفٍ فيهم، بل لأنّهم فهموا وعقلوا فاتّبعوا مبدأ "لا تماري جاهلاً فتجهلا." أمّا هو فزيّنت له نفسه سوء عمله فرآهُ حسنا. لقد أعجبني أحد العلماءِ حين استشاره تلميذٌ له، فقال لجلاّسه: "إن فلاناً حين طلب رأئي. فليس ذلك لجهلٍ منه بل هو بصيرٌ بالأمر وذلك تواضعٌ منه." اللّه على خلق العلماءِ المتواضعين إن سُئلوا رأياً وإن أبدوه تواضعوا. والتواضع، لعمري، أساسُ العلم كما أن العدلُ أساس الحكم.

إن الرأي لا يُقبل إن تلفّع بكبرياء، وإن نصّب قائلوه أنفسهم أوصياء، وإن صخبَ وفار، ففاض منه الزّبد والغبار، وإن كان زائفاً دون حقائق، قد بدا مناوراً غير صادق. بل يقبلُ صوت النفسِ السليمة السريرةِ، والعقل الوقور الذي يتدبّر عواقب الأمور، فإن قال تواضع، وإن تحدّث غيره استمع له وتطامنت نفسه، وإن غضبَ، فلا يغضبُ أو يرضى لهواه وإنّما للحق. فلله إنسان حمل تلك النفس وهذا العقل!

بين الطبّع والتطبع

انفلت بعض النّاس من روابط القيم، فأصبحوا كالحلقات الفارغة التي تدحرجت عن خط سيرها المتسلسل، تثير وحدها صليلاً باهتاً. لقد حملتهم الأنانيّة على الانفلات بعد أن غلّبوا مصالحهم الشخصيّة على المصلحةِ العامّة التي يستوجب المنطق أن يسير على منهاجها المجتمع بصفته كياناً موحداً له غاية مشتركة مهما تعددت المصالح الفرعيّة للأفراد. هذا الانفلات قادهم إلى تجاوز القيم الفاضلة، والأخلاقيات القويمة، التي أسستها مصادر التشريع المؤسسة لكيان المجتمع. ولهذا فإن أيّة مصلحةٍ شخصيّة هي مقدّمةٌ عندهم على المصالح المنسجمةِ مع الغايات الوطنيّة، وفي هذا حبٌّ للذاتِ غير حميد، ومحاباةٌ لغاياتهم الذاتية الضيّقة.

تلفتني الفوضى العارمة التي تواجهني في أمكنةٍ مختلفة، وتثيرُ فيَّ الحنقَ الداخلي: لِماذا يتصرَّف الناس وفق هذه الطّباع غير الحميدة. ففي الشارع ما إن يتعطّل السّير لغرضٍ من الأغراض حتى يفيض صبرُ النّاس وتغلب عليهم طباع الأنانيّة، ويلجوّا في فوضى التجاوزات من اليمين والشمال ومن كل النواحي حتى تصبحُ كل الأمكنة مشاريع طرق في تلك اللّحظة كي يصل أصحابُ هذه الطّباع الأنانية قبل غيرهم. فأتساءل: كيف فهم هؤلاءِ الدّين؟ ثم في إحدى المؤسسات الحكوميّة، حيث وضعت تلك المؤسسة سياجاً بسيطاً، لكن البشرَ يلتفون حوله كي يصلوا إلى الموظّف الذي أصبح يتحرّك بصورة أفقيّة مشوّشة، هذا يناديهِ من هنا وذاك يطلبه من هناك. نظرتُ خلال هذه الجلبة الصاخبة إلى امرأة شابة أجنبيّة وقد وقفت وحدها داخل السياج، تحسبُ أن طابوراً مستقيما، وهادئاً – كما هو الحال في بلادها – سيمتدُّ وراءها، وأنّها بحكم كونها على رأس هذا الطّابور سوف تقضى مصلحتها قبل غيرها. لكنّ أنّى لها هذا الحلم فما هي إلا واهمة! كنت أرى الخطوط المشوّشة التي تصنعها فوضى البشر تنسجُ حولها شبكةً غير منظّمة، وكأني بهذه الخيوط تقيّدها مكانها فلا تروم حراكاً،

ولربما هي ساهمةٌ، تستنكرُ هذه الفوضى في نفسها. فرثيت لمنظرها. وتذكرتُ الطّابور والهدوء في بلدِ الغرب. وفي موقف آخر تستمرُ طباعُ الأنانية البغيضةِ، فأجدها متمثّلةً في مواقف السيارات في أحد المستشفيات المرجعيّة حيث تناثرت السيارات في حلق الشارعِ وبين المواقف وفوق الأرصفةِ. قلتُ في نفسي: ما الذي يحدثُ في مجتمعنا؟ فوضى في كل مكان يؤمه بشر لهم مصالح فيه. حتى المسجدَ لم يخلُ من الفوضى. كثيرون سدَّوا مداخل المسجدِ وطرقاته وهرعَوا ملبّين نداء الحق. والحق يوجبُ عليهم أن يميطوا الأذى عن الطريق، وهم فوق ذلك يعطّلون الطريق. فأين هم من مقولة سيدنا عمر بن الخطاب: "إني لأخشى أن تتعثّر بغلة في الشام، فيحاسبني الله لماذا لم تفسح لها الطريق، ياعمر؟" فإذا كان هذا هو شعوره – رضي الله عنه - تجاه دابّةٍ في مكانٍ بعيد، فكيف كان حاله بدروب البشر، الذين يعطّل هؤلاء الفوضويون طريقهم ويهرعُون لأداء الصلاة. وما قيمة الصلاةُ بلا أخلاق، ما قيمةُ العبادات، التي يحرص عليها كثيرُ من النّاس، دون قيم حياتية تقنن نظامهم الاجتماعي، وتضبط علاقاتهم مع الآخرين؟ إن امرأة ذكرت عند النبي، ﷺ، بكثرةِ صلاتها وصيامها وتصدقها على الناس ولكنها تؤذي جيرانها، فقال هي في النار، وامرأة مقلّة في العبادات، لكنها لا تؤذي جيرانها فقال هي في الجنّة. وهذا ما لا يفهمه الكثيرون فيهرعون للصلاة، خشّعاً ركعاً وفي الخارج يؤذون البشر بفوضاهم وسياراتهم التي تعيق حركة الشوارع. قال لي أحد الإنجليز: إننا لا نذهبُ كثيراً إلى الكنيسة ولا نهتمُّ بالدّين ولكن كثيراً من القيم لازالت تعمُّ في حياتنا وأنظمتنا المختلفة. فقلتُ له: ذلك بسبب حدّة القوانين وصرامتها. وكثيرٌ من النّاس عندنا تفسّخوا من الطّباع الكريمة، حتى أننا لم نعد نسمع خصلةً عظيمة هي "المروءة" في قاموس حياتنا. تلك الطّباع التي تأسسّت على القيم الإسلاميّة، فكانت خير منطلق للنفسِ البشريّة بالرّغم من طبع هذه النفسِ الذي ينحو بها إلى الرغبةِ في (التّحرر) من هذه القيم.

هذه الفوضى الناتجة عن الانحراف في الطّباع لابد وأن يقابلها التطبيع. لقد سألني أحدهم ذات يوم: كيف نستطيع تقويم الطّبع إن لم ننجح بالكلمة، قلت له: بالقانون، فالقانون هو الضابط الضامن لحريّة الآخرين، وهو الرّادع أمام

تعدي أي كائن على حريات الناس. إنني لا أتوق إلى مثالية (يوتوبيا) أفلاطون وكأننا نكتبُ المستحيل، ولا نكتبُ ما يمكنُ لبشرٍ أن ينتهجوه في حياتهم، ويمارسوه في واقعهم، فلديهم الأدوات (القيم) ويتبقى عليهم التطبيق. إنني – وغيري ممن يشاركونني هذه الهموم – نتوق إلى مجتمع يفعّل القيم الحميدة التي جاء بها دينه ولا يحصرها في العبادات. فكم عدد المصلين، وكم عدد الحجاج، وكم عدد الصائمين. والعدد الكبير يملأ القلبَ بهجةً. لكن كم هم الذين يفهمون القيم النبيلة، والأخلاقيات السلوكية القويمة ويطبّقونها؟ كم هم الذين تنسجم القيم الإسلاميّة مع تعاملاتهم وأخلاقهم؟ إذا كان "الدين الخلق" و"الدين المعاملة"، فإن العبادات، وحدها، لا يمكن عزلها عن السلوك وأخلاقيات المعاملة. إن غاندي، الذي أفنى عمره في مسيرة الاستقلال، قال عام 1917، بمناسبة افتتاح المعهد، الذي أسسته (الآنسة آني بوسانت) متوجّها إلى الحضور من مواطنيه: "إن الهندَ لا تستحقُّ الاستقلال مادام المارُّ في أحد شوارع بومباي أو كالكوتا معرّضاً لأن يتلقى بصقةً على رأسه من إحدى النوافذ." فكيف بنا نحن أصحابُ القيم حين نحيد عنها، وننحرف نصرةً لأنفسنا، وتغليباً لمصالحنا؟

إن التطبيع هو واجبٌ حينما يخرجُ الطبعُ من دائرة القيم والأخلاقيات. فمن يريد أن يستبق النّاس في الطوابير يُحرم، ومن يستهتر بالنظام في الشوارع ويعرّض الناس للمخاطر يُردع بقوة القانون، ومن يتجاوز الأنظمة ابتغاءً مصلحةٍ يقضيها يحاسب، ومن يشهّر بالآخرين يحاكم، ومن يثير الفتنة يغلظ له الجزاء، ومن ينشر الشائعات يكبح، ومن يتفوّه ببذاءة يؤدّب. فالمرء الذي لا تضبطه أخلاقه، ولا تردعه قيمه يكون القانون هو القيِّم عليه كي يضبط خُلقه ويطبّعه على أخلاقه. وهذا الكلام يجعل من تغيير الطباع أمراً ممكناً، إن كان فيه مصلحة. وذلك بعكس الفهم السائد في الثقافة الشعبية. ومع النسبة الكبيرة لأحقية المقولة القديمة القائلة: "نقل الجبال أهون من تغيير الطباع." إلاّ أن الاستسلام للطباع السيئة التي تحرّف صورة المجتمع إذا ما أصبحت ظاهرة يعدُّ أمراً غير مقبول، بل مؤشراً غير حضاري لا يرتضيه المجتمع الواعي الطامح إلى الإزدهار والرقي.

العاطفة

العاطفةُ هي كسلسالٍ يتحدَّرُ من أعالي المرتفعاتِ، يوزّع ابتساماتهُ الحانية على الصخورِ الوعرةِ التي ينسالُ فوقها وحولها، أو يمسحُ على الضِّفافِ بمسحةِ الودِّ، يترقرقُ بينها فيصدرُ خريراً جميلاً موقع اللّحنِ. العاطفةُ هي عُشبُ القلبِ ورواءِ الحبِّ، وأزهارِ الوجدان، ولم أجد ما يُنعشُ العلاقاتِ بين النّاس، ويلطّفُ لهم حياتهم، ويحسِّنُ نظرتهم، ويُسعد أنفسهم أعظمُ من العاطفة. ونحنُ بنو البشرِ لا يمكننا العيشَ دون أن يتخلّل نسمُ العاطفةِ قلوبنا، ودون أن نستشعرَ بها زرعاً ينمو في دواخلنا، أن نراها أمامنا مروجاً مزهرةً، وجنّاتٍ وارفة.

وعاطفةُ الأخوّةِ هي أجلُّ العواطفِ الإنسانيّةِ وأسماها. وحينَ أقصدُ الأخوّة فلا أعني أخوّةَ الأرحامِ بقدرِ ما أعني اتّساعها على غرار المثل القائل: "ربَّ أخٍ لك لم تلده أمّك." فكم هي أخوّةُ الأرحامِ الذين لا عاطفةَ بينهم، يدّعون انتماءهم لأب وأم إنّما قلوبهم شتّى، وأقربُ إلى ذلك وأوّله مثالُ أخوّةِ قابيل وهابيل حين قتل الأوّل الثاني، ومثالُ أخوةِ يوسف الذين رموه في البئر، وألقوا بذنبهِ على الذئب. تقول ميٍّ زيادة: "كذلك عاطفة الأُخوَّة لا تكون أخوَّة حقيقية إلاّ إذا خرجت من حيز الشعور إلى حيز العمل، تنفجر عذوبتها على ذرى الاجتماع، وتجري نهرًا كريمًا بين طبقات المجتمع، فتلقي بين المتناظرين سلامًا، وبين المتدينين تساهلاً، وتنقش محامد الناس على النحاس. أماالعيوب فتخطّها على صفحة الماء." وأقرب مثلٍ على أخوّة الدّين هي الأخوّةُ المثالية بين المهاجرين والأنصار حين آخى النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة والسلام، بينهم إبّان الهجرة.

ما يؤلمُ المرءَ أنّه ينتظرُ عواطف القريبينِ رحماً ودما ونسباً إليه فلا يجدُ منهم سوى الادّعاء الخاوي بالقربى، ادعاءً لا يصاحبهُ برهانٌ على صعيدِ العاطفةِ، ولا يُرى منه دليل على مستوى المحبّة، بل إن الضغائنَ هي أوّل ما يقفزُ من قلوبهم لأدنى موقف، ولأبسطِ فعل. يقول الراحل عبدالله البردوني:

نــاموا علــى البلــوى وأغفــو عنهمــو   عطــف القريـــب ورحمـــة الرحمـــاء

في الوقتِ الذي يجدُ البعيدَ عنه نسباً ورحماً وقربى هو الأعطفُ عليه، يسألُ عنه، ويسرّي عليه بلواه، ويشاركهُ همّه، ويكونُ له شقيق نفسٍ كلّما حنَّ إلى نفسٍ نديمةٍ تقاسمهُ حرقاته، وتنصتُ له، وتواسيه.

كثيرٌ من النّاس لا يفهمون معنى الأخوّةِ إلاّ ارتباطاً برحم، وهي ليست إنتماء لاسمِ أبٍ واحدٍ بل هي تعاطفٌ وجدانيٌّ متبادل. هي أن يمتزج القلبانِ فيخرجُ منها عبيرٌ واحد. هي أن تبرهن على ما جاء في الحديثِ الشريف: "أن يحب لأخيهِ ما يحبُّ لنفسهِ." هي أن يتقاسم الاثنان سرّ الحياةِ، ويحنو كلاهما على الآخر. وإلاّ ما صدقُ أخوّةٍ تدّعي العاطفةَ وهي كالحةُ الوجهِ، زائفةُ التعامل، لا يكترثُ أخٌ بأخيهِ ثم يدّعي آخر اليوم بأنّهما أخوة.

إن العاطفةَ بين النّاسِ لهي أجلُّ الطبائعِ، وحينَ يكونُ الإنسانُ عطوفاً، فإن ذلك دليلٌ على امتلاء قلبهِ بالحبِّ للناسِ، والسعادةِ لهم. وإذا كنّا محتاجين إلى العاطفةِ احتياجنا إلى الماءِ والهواءِ، فإن البيوتَ هي أحوجُ ما يحتاجُ إلى العاطفةِ، خاصّة الزوجين. فالعلاقةُ بين الزّوجينِ إنّ لم تُبنَ بالعاطفةِ خربت. العاطفةُ هي منبعُ السعادةِ بينهما، ومصدرُ التقاربُ النفسي، والارتياحِ الشخصي، والأنسَ المنزلي. إنّما كثيرون لا يكترثون للعاطفةِ من الرّجالِ، وقليلٌ من النساء. فالرّجالُ لا يولون اهتماماً للعاطفةِ الجميلةِ، بل يريدون العيشَ في صحراء قاحلةَ لا زهرَ فيها ولا عشب، وهم يحسبون أنّ الرزانةَ هي أن الجدُّ والجدُّ في الحياةِ أن لا تقول كلمات رقيقةٍ لزوجتك وأبنائك. آلا أن أعظم النّاس جدّاً هو رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاةِ والسّلام كان ينادي سيدتنا عائشة رضي الله عنها: "يا عائش" أو "يا حميراء" ويمزحُ معها، وهي تقول: "كان حبيبي، رسول الله، يقول كذا وكذا." ويقبّل جبين ابنته فاطمة كلّما دخلت عليه، ويداعبُ أبناءها. فأينّ هؤلاءِ (الجادّون) من قدوتهم العظيمة؟! وكثيرٌ من الأزواجِ لا يظهرون عواطفهم تجاه زوجاتهم بمناسبةٍ أو غير مناسبة، فهم ينظرون إلى الزوجةِ وكأنّها هي وحدها مصدر العاطفة، ويتجاهلون من جانبهم رقّة الشعور تجاهها، وحسن الكلامِ معها، ولطفَ سؤالها، وتمرُّ المناسبات دون هدايا بينهما. أخبرني صديقٌ ذات مرّةٍ

أنّه قدّم لزوجتهِ هديّةً فسألته مندهشة عن المناسبة فردّ عليها: هي تعبيرٌ بسيطٌ عن حبِّي لك، وتضحياتك في سبيل راحتي، وسعادة أسرتنا أليست هذه مناسبةٌ عظيمة؟ كأنّه يقول لها: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ الرحمن/60. ويقول جبران خليل جبران:

هدايا الناس من زهر الجنان ... وما أهديه من زهر الجنان

جميلك سابقٌ وعليَّ شكرٌ ... أجبت عليه قلبي إذ دعاني

وفي المقابلِ فإنّ الرّجل لا يستغني عن عاطفةِ المرأةِ التي هي زادٌ لا غنى له عنه. إلا أنّ بعض النساءِ يتركنَ العاطفةَ جانباً وقد ألهاهنَّ شأن البيتِ أو الأبناءِ عن أزواجهنَّ، بل إنّهن يحطّمن من همم أزواجهن حتى يصل الأمر أن يقول زوجٌ لزوجته: إن الملح ليغارُ منك. فتحسبه غزلاً فتردُّ لماذا؟ فيقول لها: لأنّك ترفعين الضغط أكثر منه. وقد أعجبني قول إحدى النساء لزوجها في أمرِ العاطفةِ: "إنني أتعاملُ معك وكأنّك طفلٌ لا يكبر. أمنحك العاطفة كي تقوى همّتك في الحياةِ، ويعلو شأنك." هذه المرأة العاطفية قابلتها صديقةٌ لها، فقالت لها: "أرى بريقاً في عينيكِ." فسألتها بدورها: "ما سببُ هذا البريقِ في رأيك؟" فردّت عليها: "أهو بريق العاطفة؟" فقالت لها: "نعم هو الحبُّ أو العاطفة التي يشعُّ بريقها في العينين." فبريقُ العينين انعكاسُ لعاطفةِ القلب.

لا يمكنُ للقلوبِ أن تنعمَ بالحياةِ، ولا للبيوت أن تعمر بالإنس إلاّ بالعاطفة، هذه التي لا تكون رهناً لفترةٍ من الزمن فتخمد، ولا لمناسبةٍ يتيمةٍ فتهدأ، بل هي التي تتوقّد في كلّ ثانيةٍ، وتتوهّجُ في كلِّ كلمة. وإذا أراد الإنسانُ أن يرى العاطفة فليبدأ بريّها بماءِ الوجدان، واكتنافها بالرعايةِ والاهتمام، بكلمةٍ جميلةٍ، بهديّة رقيقة، بثناءٍ أنيق، بتعاملٍ حانٍ، بعملٍ جليل، بإحسانٍ صادق، باتصالٍ قصير، بكلِّ ما من شأنه إسعاد الآخر. حينها يرى زهور العاطفةِ وقد أورقت، وزرعها وقد طلع، وغصونها وقد أينعت ثمارها.

داءُ الغرور

قاتل اللّهُ الغرور. لا يصيبُ قلباً إلاّ نخرهُ، ولا عقلاً إلاّ أفسده. وهو إن ترعرعَ مقتاتاً من خيلاءِ النّفس، ومَرَحها، وزهوها ألصقَ المذمّةَ بصاحبها، لأنّه اتّسمَ بالأنانيّةِ، وغرق في الذّاتيّةِ، فلم يرَ إلاّ وجهه، ولم يسمع إلاّ صوته. يتقوّل بما يتقوّل به الشاعر مغروراً.

ودع كلّ صوتٍ غير صوتي فإنني أنا الطائرُ المحكيُّ والآخرُ الصدى

إنّ المغرورَ ليَحْسَبُ أنّ له سبقُ الأفضليّةِ على الآخرين فيمارسُ "الفوقيّةَ" عليهم في الوقتِ الذي تكونُ هذه الفوقيّة أشبهُ بالدّخانِ الوضيعِ. يرفعُ نفسهُ بغروره، ولو تواضع لرفعه اللّه، فمن تواضع للّه رفعه. والرّفعةُ عندَ اللّهِ هي الرّفعةُ عند النّاس فمن أحبّه اللّه حبّبهُ إلى عباده.

ولكم شهدتُ من الغرورِ ما شهدت. واستمعتُ من الزّعمِ الذي لا يليقُ بالنّفسِ ما سمعت. وهو أوّلُ ما أحذّرُ منه حينما أتحدّثُ في مناسبةٍ يلزمُ فيها النصحَ فيه، لأنّه في نظري هدّامُ القوى، ومحطّم الهمم، وعائقُ التّعلم، ومعرقل النمو. حتى المتديِّنون قد يصيبهم الغرور والفوقيّة والتعالي على الآخرين، وهو ما يظهر في تعامل بعض المتدينين مع أهله وعامة النّاس ظنّاً منه أنّه أهل الطاعة وهم أهل المعصية. يقول الإمام الغزالي في ذلك: "فالخَلْقُ يدركون النجاة بتعظيمهم إياه للّه، فهم يتقربون إلى اللّه تعالى بالدنو منه، وهو يتقرب إلى اللّه بالتنزه والتباعد منهم، كأنه مترفع عن مجالستهم، فما أجدرهم إذ أحبوه لصلاحه أن ينقلهم اللّه إلى درجته في العمل، وما أجدره إذ ازدراهم بعينه أن ينقله اللّه إلى حد الإهمال .

"وسوّغ بعض المتدينين لأنفسهم أن يقيّموا العلماء وأن يطلقوا فيهم الآراء برغم قلّة معرفتهم وضعف علمهم. فكم من صاحبِ علمٍ لا يقبلُ النصيحةَ ولا يتقبّل الخطأ ظنّاً منه أنّه أعلم من غيره. وقد تعوّد أحدهم أنّه حين يتناقشُ الناسُ أمراً ينبري

قائلاً في كلّ تعليقٍ له: هناك ما هو أهم من كلّ ذلك. وأستاذٌ جامعيٌّ يروي عنه طلاّبه أنّه يُلقي الأوراق في وجوههم، ويستخفُّ بهم. ثم يزعمُ أنّه أعلمُ من غيره. ومثل هذا وغيره ما بلغوا غير الشبر الأوّل من العلم في ما قاله السلف "العلم ثلاثة أشبار، من بلغ الشبر الأول تكبر، ومن بلغ الشبر الثاني تواضع، ومن بلغ الشبر الثالث أيقن أنه يجهل الكثير." ولا يسلمُ من الغرور فتىً غرّ، أو فتاةٍ غرّة. فشابٌ نال حظّ الظهور الإعلامي، فإذا به من الوهلةِ الأولى له يزعم أن أغلب من هم موجودون في السّاحة من الشعراءِ وجودهم من عدمه سواء، وكأنّهُ هو الذي وجوده نضارةٌ للحياةِ، وأنسٌ للوجود. وآخر في أوّل ظهور إعلامي له أيضاً يرفعُ من عمله ويحطُّ من جهودِ الآخرين الذين سبقوه. يروى عن الشيخ الشعراوي رحمه الله، أنّه حينما كان وزيراً للأوقاف زار جامعة القاهرة، وحمله الطلاب بسيارته، فشعر في نفسه بقدرٍ الغرور، وحين عودته طلب من السائق التوقف أمام مسجد، وتأخر فذهب السائق وراءه فرآهُ ينظّف دورات المياه وقد خلع ملابسه الخارجية وحين سأله لماذا يفعل ذلك، قال الشيخ رحمه الله: أحسست في نفسي بالغرور فاردتُ أن أهينها. فأين بعض حاملي فقهٍ وليسوا بفقهاءَ من الشيخِ، وأين المعلّمين المتعالين على طلاّبهم من الشّيخ.

الغرورُ منقصةٌ للخُلق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ الإسراء/37، يحسبهُ المغرورُ خصلةً رفيعةً وهي وضيعة، يقول إيليا أبو ماضي:

يا صاح إنّ الكبر خلق سيء ... هيهات يوجد في سوى الجهلاء

والعجب داء لا ينال دواؤه ... حتى ينال الخلد في الدنياء

فاخفض جناحك للأنام تفز بهم ... إنّ التواضع شيمة الحكماء

وإنّني لأعجبُ بالمتواضعِ ذلك الذي يظهرُ - وهو خافض الجناحِ – ينهلُ المعرفة من الآخرين كأنّه لا يعرفُ شيئاً. ومثل هذا كمثلِ صديقٍ لم تغرره مكانته الاجتماعية ولا وجاهته ولا ماله فكان متواضعاً، فلم يزده تواضعه إلاّ رفعةً عند العقلاءِ، ومكانةً عند الرشداء. ومثلهُ مثل صاحبُ تجاربَ أراهُ في

محافلَ شتّى يتعلّم منها كمثلِ ما يتعلّمُ المبتدىء من علوم، فلا يتشدّقُ بعلمهِ في كذا، أو معرفته بكذا، إلاّ أن يُطلبَ منه فيعرضُ رأيهُ في أدبٍ جمٍّ، وخلقٍ متواضع..! وعلى الندِّ، شاعرٌ يطلبُ من منظّمي إحدى الحفلات أن يُلقي قصيدةً يزعم قبل أن يلقيها أنّها الدرّة اليتيمة في زمانها، وأنّه لم يأتِ أحدٌ قبلها بمثلِ ما أتى به فيها بالبديع الذي لم يُحقَّق، والفريدِ الذي لن يُسبق. كما غرّر لأبي العلاء المعري، ذات يومٍ، حين قال:

أنــــي وإن كنــــت الأخــــير زمانــــه لآتٍ بمــــا لم تــــستطعهُ الأوائــــل

ثم أخرسه غلامٌ صغير بطلبه أن يزيدَ حرفاً على أحرفِ الهجاء. وإنني لأتابعُ ظهور رجلٍ في مجالِ الفنِّ لم يهبهُ العمرُ رشداً كلّما كبر. فهو كلّما يظهرُ يدّعي أنّه ومن كان في جيله كانوا هم الأفضل وأن ما هو موجود الآن هو الزّيفُ البرّاق ليس إلاّ.

الغرورُ ليس اتباعُ الحقِّ كما ظنّ المنافقون في المسلمين حين خرجوا للقتال: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال/49، وليس الترّفعُ عن الدنايا، كما قلتُ ذات يومٍ على لسان متّهم بالغرور:

لا أعــرفُ الكــبر الــذي تــصفونه قــسماً أحلــفُ أنــني لم أدّعِ

بــين النزاهــةِ والتّكــبرِ عــالمٌ أبعــادهُ مثــلُ الفــضاءِ الأوســعِ

بل الغرورُ هو تضخيمُ النظرةِ إلى الذاتِ والإعجابِ بها حدّ الإفراطِ.. كما ادّعى فرعون" ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ الزخرف/52، "! الغرورُ ما يوهمُ بعض النّاس بأنّهم فوق النّاس.. كما قال فرعون ﴿رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ النازعات/24، والغرور هو ما يظنّه البعضُ ما يملكونه من مالٍ أو جاهٍ أو منصب كمثل ما قال صاحبُ الجنتين ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ الكهف- 35، والغرور هو إخفاءُ الحقِّ وغمطهِ، كمثل ما قال قارون ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ

عِندِيٓ﴾ القصص/78، والغرور هو الإفتتان بالنعمة كما قال عزّ وجل على لسان الإنسان ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الزمر/49، والغرور هو التعالي والزّهو كما ورد في نصح لقمان لابنه ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لقمان/18، أي لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلّموك احتقاراً منك واستكباراً عليهم.

كتبَ لي صديقٌ إنجليزي يقول: "كن سعيداً، وتذكرّ أن النجاح لا يقاس بالمال ولكن يقاسُ بما ترى عليه نفسك ويراك عليه الآخرون." وهذه مقولةٌ أعتقدُ بها أيّما اعتقاد. فالإنسانُ إن يعرف قدر نفسه بخسها لأنه وضعها في موضعٍ لا يليقُ بها. يقول طه حسين "أكثر الناس تزدهيهم الأماني، ويعبث بعقولهم الإغراء، فإذا هم من صرعى الغرور."

إن الغرور آفةٌ مقيتةٌ، وعلّةٌ قاتلةٌ، وخصلةٌ ذميمةٌ، تردي صاحبها المهالك، وتلقي به في المخازي، فهل علمَ المغرورُ ما تحت قدميه حين يمشي مختالاً، أو ماذا تحدّثُ أعين النّاس عنه وأفئدتهم؟

من يستملحون الكّذب

كيف ألفَ بعض النّاس الكّذب واستمرؤوهُ، فسال على ألسنتهم كما يسيلُ الماءُ على منحدرِ الصّخر. يستمرئون الكذبَ، والكذبُ هو أبخسُ اللَّفظِ، وأرخصُ العبارةِ، وأضعفُ الصفات. وهم في غمرةِ خوضهم لوادي الكذبِ مستمتعونَ بما تسقطهم أنفسهم ـ في نظرهم ـ من درر الكلام، وأجلِّ معانيه، وأرقى ألفاظه، وما هو في الحقيقة إلاّ زيفهُ وبهتانه. وما هم في الحقيقةِ إلاّ كمن يلقطُ فتات ما تُسقطُ الطيرُ من طعامٍ لفظه جوفها.

لقد جمعتنا تجارب الحياةِ بكاذبين محترفين للكذبِ وهواة لا يتقنونه. فالمحترفون قد انطلى عليهم الكذبَ حتى لم يعدِ المرءُ يميِّز بين الصدق والكذب فيهم، فقد اختلط الإثنان معاً بإدراكٍ أو غير إدراكٍ منذ أول كذبةٍ تلذّذوا بها ورأوا فيها فخامةً وأُبّهة. أمّا الهواةُ فما إن يتحدّثون حتى يُكشفُ كذبهم لدى كلِّ عاقلٍ إلاّ عاقلٍ حليم، يُحسن الظنَّ في النّاس إلى أبعد المدى. أحدُ هؤلاءِ لم يكد يصليّ العصر حتى قفز معلناً أن الحرب قد قامت بين الولايات المتحدةِ وألمانيا وأن هذه الأخيرة قد هاجمت الأولى وضربت أبراجها. كان ذلك بُعيد هجمات الحادي عشر من سبتمبر. ومضى هذا الهاوي يؤلِّف قصَّةً مبتدعة لو تُرك لتأليفها لنافس (تيري ميسان) صاحب كتاب "الخدعة الرهيبة". هذا الهاوي لا يتنازلُ – في لفظهِ- عن مصاحبةِ أكابرِ القومِ، ولا عن مقارعةِ رجال المالِ والأعمال، ولا عن صداقةِ غير أصحاب المناصبِ الرّفيعة. والقائمةُ تطول لكنّها لا تضم سوى أسماءً معروفة. وجمعتنا الحياةُ بأناسٍ لا يداخلك الظنُّ بكذبهم، ولا زيف لفظهم، حتى تريك الأيّامُ أن "كلام الليلِ يمحوه النهارُ" عندهم. فالوعودُ مجرّد هواءٍ يقبضه الكفُّ منهم. والمبادئ مطّاطة لا يعرفُ لها قرار ولا ثبات فهي مع الرّيح تميل معها. كان أحد هؤلاءِ يُغلظُ الكلام على فئةٍ من النّاس، وينتقدُ مواقفهم وأفكارهم حتى رأيته فجأةً قرّبهم منه، ولولا إدراكي لما ألفه من

الكذب لقلتُ تلك سياسةُ مهادنةٍ واحتواء. فكم من الوعود قطعها ـ وكنتُ شاهداً في بعضها ـ لأناسٍ حلموا بها، ولم يغمض لهم جفنٌ من كثرة الأمنيات التي تضجُّ بصدورهم لكنّهم لم يجدوا على الشاطيءِ سوى زبدِ البحرِ، هو في الحقيقةِ زبدُ اللِّسان الكاذب. وواحد من هؤلاءِ ترى عليه منظر الهيبةِ، فتحسبهُ الرّجل الشّهم، صاحب الكلمةِ الرزينةِ، والفعلِ الأكثر رزانة، وما هو في الحقيقةِ إلاّ كاذبٌ أفّاق، "يعطيك من طرف اللِّسان حلاوة". وآخر تراهُ هادئ الطّبعِ وتحسبه دمث الخُلقِ حتى إذا خبرته وجدته فاحش الكذبِ، كثيرُ زلاّت اللّسان، يهتكُ أعراض النّاسِ كي يرتفع – كما تغرّر له نفسه- مقاماً عند الآخرين. فما يكونُ من أمرٍ يُطلبُ منه إلاّ أن يتصدى له، متظاهراً بمثل ما قال الشاعر أبوفراس:

ونحن أُناسٌ لا توسط عندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وهو في الحقيقةِ كمن قال فيه الشاعر:

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نعامةٌ ربداءُ تجفلُ من صفيرِ الصّافرِ

وأحد هؤلاءِ يختارُ من اللّفظِ أبدعه، ومن المعنى أرقاه، ومن القول زخرفه، حتى ليجعل السّامع يهتفُ قائلاً: هذا هو الرّجل اللّسنُ، صاحبُ الشّهامةِ والمروءة. لكن كل ذلك في وادٍ، وفعله في وادٍ آخر حينما يحينُ الاختبار، ولا يجدُ له سعةً من المناورةِ والاعتذار. فأصبح حينما يُذكر اسمه في جمعٍ من النّاس، ترى الإستخفاف في أعينهم. أخبرني أحدهم، أنّه كان في جمع من أصحابه، فأقبل عليهم رجل عُرِفَ بكذبه، فقال محدِّثي لأصحابه: هذا رجلٌ كذّاب، وسأختبره أمامكم، فلمّا صافح القادمُ الجمعَ قال له محدِّثي: هل أنكرتني يا فلان؟ فنظر إليه القادمُ نظرة تساؤل قائلاً على الفورِ: لست غريباً عني. فقال له: هل نَسيت أننا درسنا مع بعضنا في المملكةِ المتحدة؟ فهتف القادم في كذبٍ ظاهر: نعم تذكرتك الآن. فحبس الجمع ضحكاتهم. قال محدّثي: كنت أريد اختباره فلم تجمعني به دراسةٌ ولا سفرٌ في يومٍ من الأيام.

لكن ما ظنّك بأناسٍ أعطاهم الله من أسبابِ الوجاهةِ الكثير، إنّما صغرت أنفسهم، وزاغت عباراتهم، وضل قولهم.. فأصبحوا ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ آل عمران/167.. إن باعث الكذب لدى هؤلاءِ هو سقطُ المتاعِ، وقِصَرُ الغايةِ، وعاجلُ المطمحِ، وفي الحقيقةِ هم أطول خلق الله وصولاً إلى غاياتهم لأنهم لا يقنعون بأمد، ولا يأمنون لمكسب..!

إن الكذبَ هو أحطُّ الصفات، ففي الحديث، "قيل: يا رسول الله: أيكون المؤمن جبانا؟ قال: "نعم". قيل له: أيكون المؤمن بخيلا؟ قال: "نعم". قيل له: أيكون المؤمن كذابا؟ قال: "لا". رواه مالك مرسلا. ومع نكران الصفات المذكورة إلاّ أن صفات الجبن والبخل قد تكونان صفتين فطريّتين إنّما الكذب صفةٌ مكتسبة، مقحمةٌ على الفطرة.

إنّما جرت ألسنة بعضهم على الكذب في مجتمعاتنا لداعٍ أو غير داع، والداعي لابد أن يكون مما يسمح به الشرع في ما يسمى "التقية" أو الوقاية من ضرٍ، أو خطر، أو إصلاح ذات بينٍ، أو عند الضرورة، فـ "الضرورات تبيح المحظورات". لكنَّ ألسنتهم استملحت الكذب، وليتها استملحت المروءة والصدق والعطاء!

لا قيمةَ للمرءِ إن كذبَ، واعتاد الكذب مهما يكن له من وجاهة، أو منصبٍ أو مالٍ، فقيمةُ المرءِ معقودةٌ في لسانهِ، ورفعةُ النّاس أو سقوطهم بقدرِ صدق الكلمةِ أو زيفها. ووالله إنّ أُناساً قد تدرَّجوا في مناصبَ، وكسبوا من الثراءِ بسبب تملقهم، ونفاقهم الكاذب ليسوا بذي قيمةٍ في جوهرهم، وأنّ أناساً لم تطرب ألسنتهم بلحنِ الكذبِ نالوا ما هو أرقى وأرفع: عزّةَ النّفس! وهذه أعظم نعمة!

ما يقطرُ عسلاً

لا يجمّلُ المرءَ طول قامته، وإنّما صدق كلمته؛ فمن أجلِّ ما يزينُ المرءَ كلمته التي ينطقها. فالكلمةُ الصادقةُ هي رداءُ الحشمةِ والعفّةِ والرّزانة، فإن صدق القولَ رفعهُ كلامُه مقاماً، وإن كذبَ هبطَ به كلامه مقاما. ولقد يُغريكَ في المرءِ حُسن منظرهِ، وهيبةِ جانبهِ، لكنّك تكتشفُ أنه كاذبُ اللّسانِ، ناكثُ الوعدِ، إذا حدّث كذب، وهذا شأنُ المنافق كما جاءَ في الحديث الشريف: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر." أخرجه الشيخان. ولقد مرّ علينا من البشرِ ما نحسبُ فيهم صدق اللّسانِ فإذا هم الكاذبون في ما نطقوا، المخالفون لما وعدوا. وكثيرونَ ممن يُحسنُ الواحدُ منّا الظنَّ فيهم، فيحسب الصدقَ ديدنهم، لكن ما هي إلاّ بعضُ التجاربِ حتى تكتشفَ حقيقتهم فترثي لحالهم. وقد تتساءلُ في قرارة نفسك: لماذا يكذبُ فلانٌ، وهو ليس بحاجةٍ إلى الكذبِ لما مكّنهُ الله من المكانةِ والوجاهة والمال؟ هل أصبحَ الأمرُ، أمر التلاعبِ بمشاعر الخلق تسليةً عنده وترفيه؟ هل يستلذُّ مشاهدةَ الخلقِ تتحرقُ شوقاً للوعد حتى إذا حانَ الوفاء به كان سرابا؟ هؤلاءِ يضربُ بهم المثل بعرقوب الذي كان يعدُ أخاهُ بمحصولِ التمر حتى انتهى موسمه. فقال فيه الشاعر:

كانت مواعيد عرقوبٍ لها مثلاً ... وما مواعيدهُ إلاّ الأباطيلُ

لِماذا يكذبُ إذن رجلٌ صاحبُ منصبٍ أو مقامٍ جليلٍ؟ هل من ضرورةٍ لكذبه؟ وهل تبرّر الضرورةَ الكذب؟ تساؤلاتٍ يثيرها المرءُ في طواياه. ولقد مرَّ علينا من الكاذبين كثرٌ لا يعدُّون ولا يحصون. هذا يعدُ النّاس بخدمةٍ، وذاك بوظيفةٍ، وغيره بمساعدةٍ، والقائمةُ طويلةٌ عريضةٌ لا تنتهي لأن ألسنتهم استلذّت الكذب. أذكر أن صديقاً تحدّث معي، يصفُ من أحسبه صديقاً له قائلاً: إن

فلاناً كذّاب. وما قالَ ذلك – في ما أحسبُ – إلاّ لمعرفةٍ بهِ ولموضوعٍ أطلعتُه عليه. وها أنذا أرى الرجلَ بعدَ أكثر من عقدٍ يزاولُ مهنةَ الكذبِ بكلِّ حرفيَّةٍ ومهنيّة وهو على ما هو عليه من المكانة. يتحدّثُ وكأن الصدقَ يسيلُ من لسانهِ الذي "يقطّرُ عسلاً"، وما العسلُ منه سوى الكذبَ الواهم. فقلتُ: أولَا يشعرُ بالضّعةِ في نفسهِ وهو يكذب؟ لماذا لا يقولُ الحقيقةَ صادقاً، والصدق أسلمُ الطرقِ، وأكرمُ السبُلِ؟ ورجلٌ آخر حين تراهُ تحسبُهُ وقوراً، ذا هيبةٍ، ومنطق حتى إذا جمعتك به التجربة كشفت عن كذبهِ، ووجدتَ أن منطوق لسانه لا يتواءم مع المنظر البرانيِّ لشخصيتهِ الخادعة حتى قال عنه أحد ضحاياه، أنّه لكذبه "صغيرُ القامة". وصدق الواصف، فما يقزّم المرء - وإن كان فارع الطّول - إلاّ كذبه وخداعه على النّاس. فالمرءُ يطولُ قامةً بالكلمةِ الصادقة الطيّبة لأن القامة تُقاسُ بما تحت اللّسانِ من مبعوث الجَنانِ، ولا تقاسُ بعدد الأمتارِ والأقدام. وكم من النّاس من يتلقّون الوعود الكاذبة لوظيفةٍ يأملون الحصول عليها، أو لخدمةٍ يسعون لتحقيقها، أو لعلاقةٍ يظنون فيها حسن الظن، فتنقلب نهاراتهم ولياليهم أحلاماً جميلة تصوّر لهم القادمَ الأجمل لكذبةٍ كُذبت عليهم. سألتُ إحدى الفتيات عن دراستها في إحدى الكليات، فأجابتني بأنّها ذهبت ضحيّة كذبِ إنسانٍ بعد عامين من الجهد والأحلام.

لقد تفشّتَ صفةُ الكذبِ بين النّاسِ، حتى أصبح الرجل بحقٍّ من بينهم هو الصادقَ الذي يحترمُ كلمتهُ، ويفي بوعده، إذا حدّثك بكلمةٍ كان على قدرها، وإذا قطعَ لك وعداً كان على جانب المسؤولية للوفاءِ به، وقد تحولُ دون ذلك الظروف، أو تخونُ في ما بعد التوقعات، فلا يستطيع المتحدث الوفاءَ بكلمتهِ، ولا المتعهّد الوفاءِ بعهده وهذا أمرٌ مقبولٌ إن جرى على المصارحة، وتم على التّفهم. قال أحدهم: وعدتُ عاملاً بزيادة أجره لعملٍ أدّاهُ لي، ثم حين أبلغني عن أجر عملٍ سابقٍ لم أكن على اطّلاعٍ به أخبرته بأنني نظراً لزيادةِ الأجر الذي لم يكن في الحسبان فإنني لن أستطيع أن أفي بكلمتي فوجدته متفهّماً. يقولُ ثم عدتُ إلى نفسي فقلت: لقد وعدتَ الرّجلَ فخيرٌ لك أن تفي بوعدكَ فلا تعلم ما الذي فكّر فيه حين أمّلته بالزيادة. وقال آخر: لقد ربطتني بعض المصالح بأشخاصٍ كنت

أتوسّمُ فيهم الصدقَ في الكلمةِ، ثم بدأتُ أكتشفُ بصورةٍ تدريجية أنّهم كاذبون، وأنهم يستغفلون شخصي وحسن نيّتي فيهم.

إنني لأستغربُ من تفشي الكذبَ في المجتمعات المسلمة وديننا العظيم حارب الكذب. فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ النحل- 105. ونبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام سئل من بعض الصحابة: "هل يكون المسلم جبانا، يا رسول الله؟ - قال: نعم، فسئل: هل يكون المسلم بخيلا، يا رسول الله؟ قال : نعم. ثم سئل ثالثةً: وهل يكون المسلم كذابا، يا رسول الله؟ قال: لا. لا يكون المسلم كذابا." أخرجه الإمام مالك في موطئه وهذا لا يعني أن الجبن والبخل ليسا مذمومين ولكنهما قد يكونان مع الفطرة. ولهذا فقد انبثق عن الكذب الغش والخداع والمكر والنّصب والتحايل. فإذا بك تقصدُ رجلاً تحسبه مسلماً، صادق الكلمة في ما تفترض وهو يرتدي ثوب البياض ثم تكتشف، آجلاً أو عاجلاً، كذبه وغشّه. وإنك لترى الرّجلَ وهو يسارع للصلاةِ ويسابقُ النّاس عليها، وهو يحترفُ الكذبَ في سائر معاملاته، وأغلب شؤونه، فما الصلاةُ عنده سوى طقس عادةٍ لا يؤثّر في مجرى حياته، وسمات أخلاقه فهو لم يخلع عباءة النفاق عنه كما روى مُسلم الحديث (آية المنافق ثلاث... وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم." وكم من البشر يذهبون يومياً ضحية مرض الكذب وحسن النوايا في الآخرين.

ولقد لمسنا – للمفارقة – الصدق في المجتمعات الغربية، فما إن يعدك أحدهم حتى يصدق في كلامه إلى درجةٍ كبيرةٍ، فالكذبُ عندهم تعدٍّ على حقوق البشرِ، أمّا في مجتمعاتنا فيلقي الكثيرون الكلمةَ غير مبالين، ويحوك الكاذبون القصص المعبّرة، الكاملة التفاصيل. في الغرب يقف الشّحاذ فلا يكذبُ على النّاس بل يتّخذُ له ركناً أو موضعاً فيعزفَ على أداته الموسيقية فيلقي له من رغب من النّاس بعض العملات، أمّا عندنا فيأتيك الشّحاذون ويصيغون لك الحكايات المزيّفة، التي غالباً ما تدور حول نقص المبالغ عن الرجوع إلى مناطقهم أو حاجتهم لتعبئة الوقود، أو يحملون قصاصات مهترئة كاذبة يعرضونها على النّاس في المساجدِ.

وإذا كان بعضهم يخشى قول الصدق ظنّاً منه بأنه سيؤدي إلى فقدان الأواصر، وقطع الوشائج بينهم والآخرين، فإن كلمة الصدق وإن ثقلت في البدءِ فإنها مفتاحُ السلامة. وأعلمُ أن بعض من وعدوا وأمّلوا غيرهم ساءت علاقتهم بهم لاحقاً حين ذهبت تلك الوعود أدراج الرّياح. تقول إحدى المديرات: لقد طلبتُ من الموظفين لديَّ أن لا يعدوا النّاس في الأمور غير البيّنة، فالنّاسُ ستأخذ الكلمة مأخذ الجدِّ، وتصبحُ لها ذريعةً وحجة. ويقول أحدهم: لقد اشتكت علينا امرأة أننا وعدناها بوظيفةٍ ولحسن الحظِّ أن المحضر كشف أنها كاذبةٌ وأننا صادقون، فكيف لو كنّا فعلنا ذلك؟ أخال أننا كنا سنفقد وظائفنا لكلمةٍ لم نحسن قولها، أو لا نملك إمكانية تنفيذها.

وقد يكون الكذبُ متاحاً لمقصدٍ محمود، وفي هذا فقد أورد أبي حامد الغزالي في كتابه، "إحياء علوم الدين"، قول رسول الله، ﷺ: "ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً." وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس لأن ترك الكذب واجب ولا يسقط الواجب إلا بواجب أشد منه، كما يورد قوله، ﷺ: "كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب، فإن الحرب خدعة، أو يكذب بين اثنين فيصلح بينهما، أو يكذب لامرأته ليرضيها."

إذا أراد الإنسانُ أن يجعل لنفسهِ قدراً، فليحترم ذاته، وما احترامُ الذاتِ إلاّ بصدق الكلمة. أما إذا اتخذ الكذب مطيّته فبئس ما اختار لنفسه من المطايا، فإنها لا تلبث أن تسقط على قوائمها.

مضلّلون

المرءُ بلا مبادئ كبيتٍ بلا أساسٍ لا يؤمنُ سقوطه في أدنى هزّةٍ أرضيّة..!! مبادئ يعتقدها، ويترعرع عليها، ويوسمُ بها، ويكافحُ من أجلها، فإن ذكر كانت مبادئه جزءاً لا يتجزّأُ منه. فهي هيئته وجوهره وصفحةُ قلبهِ ووجهه. ولعلَّ كثيراً من النّاسِ آثروا أن لا تكون لهم مبادئ ثابتةً في الحياةِ يسيرون على منهاجها، ويستنيرون بأنوارها... ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ الرعد/16. رأوا أن الإيمان بمبادئ قويةٍ واضحةً إنّما هو إيمانٌ فيه دمارٌ لهم ففضّلوا أن يضربوا بها عرض الحائط كلّما رأوا أن قضاءَ المصلحةِ الشخصيّة متعارضٌ مع فكرةٍ يجاهرون بها، بل يعلمون في قرارةِ أنفسهم أنّها ذات أساسٍ مكين. ومع ذلك فإنهم يُخرسون أصوات ضمائرهم، ويقمعونها في سبيل أن يفعلوا ما يخالف أقوالهم. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ الصف/2. هؤلاءِ على النقيض من أصحابِ المبادئ الثابتة، ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ آل عمران/173.

ولقد مرّ علينا من تجاربِ التعاملِ مع هذا الصنفِ "المهلهلِ" من البشرِ الكثير، أولئك الذين تغلّفوا برداءٍ مزيّف، وقناعٍ مخادعٍ يريدون به حجبَ نواياهم من النّاس، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ الأنفال/30. كان أحدُ هؤلاءِ يُظهرُ القولَ إنّه لا يطيقُ فعلَ أُناسٍ وتوجّهاتهم المريضةَ حسب مرآهُ حتى فوجئتُ به يشركهم في مشروعٍ من المشاريعِ فوجّهتُ له رسالةً حاسمةَ العبارةِ قلتُ مما قلتهُ فيها: "يؤسفني أنك تجمعُ إليك من كنت ترى فيهم خرابَ الفكرِ، وسوء التوجّه، ولهذا فإنني أُقصي نفسي عنك." وإنسانٌ آخرَ تجرّدَ من خصوصيةِ شخصيّتهِ وتقمّصَ شخصيّةَ تابعٍ لشخصٍ آخر، حتى تملّكته شخصيته فأصبحَ

ظلّهُ وصورته. فقلتُ عنه، إن فلاناً قد أصيب بداءٍ اسمهُ فلان. فقد كان يقلّدهُ في حركة يديه، وطريقةِ نطقهِ، وعبارته، وهيئته وظلَّ على هذا الحال أعواماً حتى غدر المتبوعِ بالتّابعِ فاستفاقَ هذا الأخير من وهمهِ، و"تحرّر" من جلبابِ صاحبه. فصارحني قائلاً: واللّه ما شعرتُ بلذّة أداءِ العمرةِ حين أدّيتها معه، فلمّا "تحرّرتُ" منه أدّيتها وحيداً فشعرتُ بلذَّتها الروحية. لقد حجبَ عنه المتبوعَ هذه "اللّذة" الإيمانيّة لأنّه أدّاها تابعاً لرجلٍ آخر، وليس مخلصَ العبادةِ لربه، متحرّراً من دونيّة القياد لعبدٍ من عباده. وآخر سمعتُ منه شكوى التّبرُّمِ والتذمُّر من أفعالِ أناسٍ حتى يصرّح بأنّه غير راضٍ عن نفسهِ حين يُملى عليه – بحكم الوظيفةِ – مشاركتهم، حتى ظهرَ الرّجلُ كاذباً، مرائياً بحالٍ أسوأ ممن شكا منهم. وآخر انسلخَ من شخصيّته، فلم يعد له "كياناً" يُعرفُ به حتى أصبحَ بوقاً ينفخُ من خلاله مسؤوله، ومردماً يُلقي فيه كل صاحبَ خطأٍ خطأه، وشمّاعةً يعلّق عليها الآخرون أدرانهم. يأمرهُ مسؤوله بأن يقول كذا فلا يخالفه القول وإن كان ما سيقوله لا يتفّقُ مع طبعه وخلقه. ويتّهمه آخر أمام جمعٍ من النّاسِ بتهمةٍ هو يعلمُ أن متّهمه هو المتسبّب فيها، لكنّه يرضى بأن يكون كبش الفداء خانعاً، قانعاً. ويُسعدهُ أن يكون "شيطاناً أخرس" يسكتُ عن الحقّ وهو يعلمُ ذلك تمامَ العلم. إنّما داءُ التابعيّة قد استشرى في نفسهِ، وذلّ الخنوعِ قد أحنى قامته.

إنّ الإنسانَ إن لم تجدهُ راسخاً في اعتقادهِ بمبادئَ ذات أصلٍ وأساسٍ هو إنسانٌ لا يؤمنُ جانبه، ولا يُلجأ إلى ركنهِ، ولا يستظلُّ بسقفه. يصورّه المثلُ الشعبي كالصاحبِ لكل من يصحبه، وكمجرى الماءِ لكلِّ من يغيّرُ قناته ومجراه. ولقد شهدنا من هؤلاءِ، ممن لم نعرف لهم طوال أعمارهم، عمّا يعتقدون، وفي ما ينهجون، حتى احترنا في أمرهم، فأصبحنا لا نثقُ في أمرٍ فعلوه، أو عهدٍ قطعوه، ولقد شهدتُ ذات يومٍ استشهادَ أحدهم بمقولةٍ لشاعرٍ يقول فيها:

إذا لم تجد غير الأسيّةِ مركباً فلا بدَّ للمضطرِّ إلاّ ركوبها

وعبتُ عليهِ لأنَّ رجلاً مثلهُ لم يكن مضطرّاً لركوبِ الأسيَّةِ حتى يركبها مُكرها. ولستُ أَعْجَبُ أكثرَ إلاّ من رجلٍ له مكانته ووجاهته ومقامه وهو لا يقبضُ منه قولٌ، ولا يُؤمنُ له عهد، فإن قالَ كلمةً عادَ بعدها ناكراً كأنّ لسانهُ

لم يقلها، وإن عاهدَ تتصلّ من عهده. ولقد شهدتُ على أحدهم يَعِدُ هذا، ويأمرُ ذاك ثم يظهر كأنّه لم يفعل شيئاً من هذا كلّه. ولعلّ بعضُ المضلّلين يتظاهرون أمام النّاس بأنّهم حمّالو "مبادئ" ينشرونَ كلاماً هنا، وكلاماً هناك فيُعجبُ الناسُ بما يقولون، ويتناقلونه بينهم بسذاجة، حتى إذا ظفروا بما كانوا يطمحون ردَّدوا مقولةَ أبونواس: "كلامُ اللّيلِ يمحوه النهار." ولقد أعجبتني في هذا السياقِ مقولةَ قارئ عقّب في إحدى الصحف البريطانيّة بعد أن نشرت تفاصيل محادثةٍ خاصّة لشخصيّة إنجليزيّة لم يكن نشرها يُفيدُ المساعي الوطنيّة لكسب الفوزِ لاستضافةِ حدثٍ عالمي، قال معقّباً للصحيفةِ: "إن كنتم تريدون الإنتشار غداً ضلّلوا القرّاء، وإن كنتمُ تريدون الإنتشار لعشرةِ أعوامٍ مقبلةٍ، فكونوا صادقين." هذه المقولة قد تكون مرّت دون أن يلتفتُ إليها أحد، إنّما هي عينُ الصواب. الصواب الذي يكمن في الصدقِ الذي يؤسّسُ لصاحبهِ قاعدةً رصينةً، ذات أُسسٍ مكينة. ولقد أعجبني أمراً من سياسيٍّ إنجليزي تابعتُ خطابه أمام حزبهِ منذ عامين حين كان يستبدلُ كلمة "الحريّة" بـ "المسؤولية" فلمّا وصل إلى سدّة السلطةِ هذا العام إذا به يجعل من هذه الفكرة ركيزةً من ركائزِ حكومته. أمّا بعضُ البشرِ فيطيبُ لهم أن يكونوا مجرّد ثيابٍ تمشي دون مبدأٍ يقودها، فقدوا "البوصلة" الشخصيّة الرزينة فأصبحت أضعفُ جاذبيّة تلفّها إليها. يقول الشافعي:

ولا خير في ودّ امرئ متلوّنٍ إذا الريحُ مالت مال حيث تميلُ

وإنني لأُعجبُ بأناسٍ أرى مبادئهم واضحةَ العيانِ، مصقولةَ البيانِ، تمضي السنون فلا تنطمسُ تلك المبادئ بل تزيدُ جدّةً وحداثة، مبادئ غير منغلقة الفكر، ولا مقيّدة التصوّر، ولا ضيّقة التطبيق، بل هي مما ينمو مع الفكر، ويتطوّر مع التحديث، ويتواكبُ مع التجديد، لكن في مسارٍ واضحِ المعالم، بيِّنِ الخطو؛ فإن ذكرتُ أحدهم عرفته بمبادئه، وصوّرته بها وهذا ما يُكبرُه في نفسي منزلةً، ويعليه في عقلي مقاماً. فلا يرفعُ النفاقُ المرءَ مكانةً بين النّاسِ، ولا يسميهِ الكذبَ مرتبةً بينهم فإن خداعه وإن طالَ مكشوف، وإن قناعهُ وإن غلظ مهتوك.

المتعة والتشويق

وجودُ المتعةِ في ما يمارسهُ الإنسانُ من اشتغالاتٍ وهوايات أمرٌ ضروري ومهم. ذلك لأن الشعور بالاستمتاعِ بالعملِ يدفعُ الإنسان تجاه الإبداعِ فيه، وينمِّي فيه روح الولاءِ والإنتماء، بل أنّه يحبّبه ويشوّقه إلى العمل أو الهوايةِ أو الدرس، فلا يطيقُ بعداً عنه لأن قلبه متعلِّقٌ فيه. كما أن استمتاعهُ بهواياته يدفعه إلى إظهار طاقاته الدفينة، ومذخوراته المخزونة. والإستمتاع يعني التشويق في الممارسة، وهو ما يعني إسباغ الأسلوبِ البسيطِ، التلقائي على الممارسة. فالإنسانُ لا يشعرُ بالرّاحةِ قدرَ ما يشعرُ بها في أجواءٍ من العفويّةِ والتلقائيةِ والبساطة، الأجواء التي نصفها بغير الرّسميَّة. التّعليم في الغرب، خاصة في مراحلهِ الأولى، يكون على درجةٍ كبيرةٍ من التّشويق والمتعة. فالطّفلُ يذهبُ للمدرسةِ لكي يستمتع ويلهو باللَّعبِ (الممنهج)، ذلك الذي يهبهُ المعرفةَ بطريقةٍ لا يشعرُ بها. أما لدينا، فالحقيبةُ الثقيلةِ، التي تقوّسُ ظهر الطِّفل، والواجبات الشاقة التي تمضُّ قلبه وتشقيه، والأسئلةُ المعقدّة هي مما لا يخلقُ المتعة ولا التشويق في نفس الطفلِ المتعلّم، بل يخلق فيه العُقَد نحو اكتساب المعرفةِ، ويُثقِلُ عليه عملية التّعلُّم. الأسلوب الجامدُ خلق فينا عقولاً جامدةً، تنفرُ من شيءٍ يسمى "رياضيّات" أو "لغة عربيّة" أو "تاريخ" أو غيرها. وهذا يعودُ في تقديري إلى أمرين: أوّلهما، عمق وجزالة المنهج المقرّر، والإيغال المفرط، والشطوح في المواضيع التي لا تفعلُ – في اعتقادي- أكثر من التنفير عوضاً عن الترغيب في اكتساب المعرفة. وثانيهما، يعود إلى عدم تحلِّي الكثير من المعلِّمين بأساليب المتعةِ والتشويق. لأن أعقد وأغلظ معلومةٍ يمكن إيصالها – بحسب الأسلوب السلس المبسّط – إلى ذهن الطفل دون تكلُّف، وفي المقابل، فإن أسهل معلومةٍ يمكن تعقيد المتعلّم بها. منذ أيّام اطّلعتُ على أسئلةٍ أعدّتها إحدى المعلّمات لطفلٍ في السنةِ التعليميّة الثالثة، وصعقتُ لحجمها وغلاظتها مقارنةً إلى طفلٍ صغير. تسأله مثلاً عن كيفيّة تكوُّن الأسرة. والفرق بين العادات والتقاليد. وتطلبُ منه تعليل حاجة مجتمع المدينة إلى مجتمع القرية

وبالعكس. وتفسير الحديث الشريف: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيّته." وتساءلت مذهولاً: أهذه أسئلةٌ توجّه إلى طفلٍ عمره تسعُ سنوات؟ مثل هذه الأسئلة لا تفعلُ إلاّ كما فعلت التطبيقات العربيّة، والرّياضيات ذات النظريات المعقّدة فينا. لقد كرّهتْنا في جمالية لغتنا وأبغضتنا في الأرقام حتى يومنا هذا. وما زلتُ على اعتقاد بأن كثافة المعلومة، وكثرة الواجبات، وجزالة المواضيع لا تخدمُ عملية التّعلم، بل تنفّر في أكثر الأحايين.

في الغرب تمارسُ الهواياتُ بمتعةٍ بعيداً عن الجديّةِ المفرطةِ، فلا ينفرُ المشاركون من تعلّمها، بل يقدمون عليها بكلِّ متعة، على سبيل المثال، فإن عمليات التدريب للعبةٍ شهيرة، ككرة القدم، لا تقوم على ما تقوم عليه التدريبات عندنا فقد أخبرني الصديق، علي الحبسي، حارس المنتخب الوطني، أن تدريبات فريقه تتم فقط في ساعتين صباحيتين في اليوم، وتجري بطريقةٍ يتخلّلها المرح، لكنّها توصل اللاعب إلى الهدف المنشود: رفع مستوى اللياقة البدنيّة، وتحقيق الإنسجام مع زملاءه. وقد حضرتُ بعض المباريات في الدوري الإنجليزيّ بدعوة منه. فقد كان يحثني على الحضور إلى الميدان قبل ساعة للاستمتاع بالأجواء فيه، وبالفعل كانت الأجواء ممتعة، تشعرُ المتفرّج بجمالية الحدث الذي سيكون بعد قليل. أمّا لدينا فالتدريبات الرياضية خاليةٌ من المتعةِ والتّشويق في أكثرها، لذلك نشأ الموهوب كارهاً لتدريبات الإحماء، متحمّساً للدخول الفوري في أجواء اللّعبة وهذا ما كان سبباً وراء إصابات الملاعب الكثيرة. حتى التدريبات العسكريّة في الغربِ تتم في أجواء يتخلّلها المرح، إذ ينشدُ المتدربون أغانٍ حماسيّة أثناء التدريبات مما يخفف عليهم وطأة التدريبات، ويرّغبهم بها. وفي كثير من احتفالاتنا البسيطة تتحوّل المناسبة إلى رسميّة، فتجد اللّباس الرسمي والخنجرُ حاضراً. ونحنُ وإن كنّا نعتزُّ بلباسنا التقليدي إلاّ أن أجواء بعض المناسبات لا تستلزمُ ذلك، ففيها من الترفيه والتسليةِ على النفس ما يصعب اكتسابه والتفاعل معه باللّباس التقليدي. ولا نستثني الأعمال الوظيفية في هذا الإطار، فهي روتينيّة خالية من المتعة، تفتقد إلى أساليب التشويق والتجديد، فكثيراً ما سمعت من موظفين قولهم أنهم لا يحبّون أعمالهم لأنها غير ممتعة، وليس فيها تجديد، وهذا ما خفّض دافعيّتهم العمليّة، وبغّضهم إلى أعمالهم.

ما وددتُ قوله، هو أن أسلوب المتعةِ والتشويق قلّما نلقي له بالاً في حياتنا، ونتعامل مع كثيرٍ من الأمور بجديّةٍ بالغةٍ، وإفراطٍ كبير! وهذا جعلنا سلبيين في كثيرٍ من الوجوه، كأن نعظّم من شأن بعض المشكلات البسيطة فتصبح في أنظارنا كبيرةً، مستعصيةً عن الحل، يذكر ستيف تشاندلر في كتابه، "مائة طريقة لتحفيز نفسك"، عن أندرو ويل قوله: "وحيث أن المرض قد يكون حافزاً قوياً على التغيير، فقد يكون أيضا الشيء الوحيد الذي يجبر بعض الناس على حلٍّ أعمق صراعاتهم. والمريض الناجح هو الذي يعتبر المرض أعظم فرصة للنمو والتنمية الذاتية فهو بحق هدية، والنظر إلى المرض على أنه محنة – وخاصة إذا كان الاعتقاد أنها بدون داع – قد يعوق نظام الشفاء، أما إذا نظرنا إلى المرض على أنه هديّة وفرصة للنمو، فقد يؤدي هذا إلى الشفاء." ويدعو مؤلف الكتاب إلى (الإستمتاع بالمشكلات) من أجل حلّها. إذن فالمتعة لا تنفعُ فقط في اكتسابِ المعرفةِ والمهارةِ فحسب، بل في حل المشكلات بطرق تحفّز النفس على ممارستها بشغف وحماسة أيضاً. وفي حين أن الكثير من الطرق المرتبطةِ بثقافتنا تتعاطى بالجديّة أو القسوة، أذكر على سبيل المثال، صورة مدير المدرسة الإبتدائية وهو (يصبِّحُ) علينا بطلعته المشؤومة حاملاً خمس مساطر ذات حوافٍ طوليّةٍ جارحة ليسمع منّا جدول الضرب، وحين حفظنا الجدول في الذاكرة ارتبطت بصورته الطريقة القاسية التي حفظناه بها ولهذا بقيت صورة المدير شاهراً مساطره الخمس – أحفظ عددها أيضاً – ذات الأمواس الجارحة محفورة. ولو أنّه استخدم طريقة تشويقٍ أو مسابقةٍ ترفيهيّة يكون هدفها حفظ جدول الضرب لحفظناهُ عن طيب خاطر مع ذكرى جميلة، نبتسمُ لها حين نذكرها، لكنه لم يشأ.

نفتقدُ إلى المتعةِ والتشويق في كثيرٍ من جوانبِ حياتنا، ولهذا طغت الجديّة المفرطة في كثيرٍ من أنماط تعاملاتنا وعباراتنا. فكم صادفتُ عبارات إعلانيّة في الشوارع خاليةٍ من الجاذبيّة لأنّها جافّة الكلمات، مقعّرة الألفاظ، وكم قابلتُ من بائع لا يعرفُ أبجديات جذب الزبائن، أو عرض مبيعاته. وما لم تتخلل المتعةُ والتشويق الكثير من صور حياتنا وتعاملاتنا وتفكيرنا، فإن الجمود سيظل مخيّماً، وتبقى لغةُ التواصل فاقدةً لأهم عناصر النجاح فيها.

رسالة إلى معلّمي

لم أكن لأنساكَ حتى أذكركَ أيّها المعلّمُ الرّشيد! فربَّ معلّمٍ لا يذكَرُ إلاّ بقسوةِ قلبهِ، وخشونةِ طبعهِ، وسماكةِ يده. أمّا أنتَ، يا معلّمي، فلا أذكرُ منكَ إلاّ علّو نفسك، ورقّي أُسلوبك، ودماثةِ خُلقكَ، فبوأتكَ في قلبي مكانةً عليَّةً، وأنزلتكَ منزلةً زكيَّة. واليوم حين يعنُّ لي أمر فأستشيرك فيه، أنزلُ عندك منزلةَ التلميذِ في مقامِ معلّمهِ، وفي القلبِ لكَ طاعةً وامتثالاً، أمّا أنتَ فتردّدُ بتواضعٍ جم "لا غرابةَ أن يفوق الطالبُ أستاذه." وأعلمُ أن ذلك محضُ تواضعٍ منك، والتواضعُ شيمةَ العالمِ، وخُلق المعلّم، وطبعُ المتعلّم، فأينَ منه بعضهم!

قال لي أحدهم: إنّه كان يدرسُ بالمدرسةِ السّعيديةِ، ومنذُ أيّامٍ رأى أحدَ معلّميه، وقد بلغ العمر بكليهما عتيّاً، فعرف المعلّمُ طالبه بالاسمِ وعرفهُ الأخير بعد عقودٍ من الزّمن، وتساءلتُ في نفسي: أيُّ ذكرياتٍ أثارتها هذه اللّحظة في قلبِ كلٍّ منهما؟ فإذا كان المعلّم قاسياً، خشناً، لا يجدُ لذّتهُ إلاّ في التعنيف، والتَّسفيهِ، والضَّربِ فلا مكانةَ له في نفسِ طالبهِ، بل امتعاض وشعورٌ دائمٌ بالظّلمِ، وذكرياتٌ مريرة. أمّا إذا كان المعلّم لطيف الطبعِ، سخيّ النفسِ، راقي الأسلوب، واسع الصّدر، فإن اللّقاء سيثيرُ محبّةً، وشوقاً إليهِ، كما فعلتُ لمجرّدِ أنني عرفت مكانك.

إن بعضَ المعلّمين يا معلّمي – وليس هذا تعميماً - لا يفقهونَ أُسس المهنةِ التي يأتي أعلاها الصّبر وأبرزها حسنُ الأُسلوبِ، فيحسبونَ أن العلمَ لا يرسخُ في الذّهنِ إلاّ بالضربِ أو العنف، ويظنّون أن مهابتهم تقتضي القسوةَ على طلاّبهم المغلوبِ على أمرهم. فهذا يدعو على طالبهِ بالموتِ، آملاً أن "يمشي في جنازتهِ." وذلك يدعو على طالبهِ بأن "يحفرَ له قبرٌ." فتصعقني مثل هذه الأدعية ـ لا تقبّلها اللّه منهم ـ واشمئزُّ منها ومن أصحابها، وانتقصُ من قدرهم، فليسوا هم إلاّ عالةً على التعليمِ، وعبئاً على التدريس. لقد كان يقالُ لنا إن "ضربَ المعلّم نورٌ يوم

القيامةِ." فذهبَ بعض منّا ضحاياً لهذا النُّور في الدنيا. فكم خلّفَ ذلك "النور" من بصمةٍ لا تنسى، وعقدةٍ لا تُمحى، وعاهةٍ لا يُرجى الشِّفاءُ منها!

فليسَ معلِّماً من لا يتّسعُ صدرهُ لتلميذهِ، ويصبرُ عليه، فما المعلِّمُ سوى فلّاحٌ يحرثُ أرضاً، ويبذرُ بذراً، ويسقي زرعاً، ويجني ثمراً وذلك لا يتحقّقُ بين ليلةٍ وضحاها، إنّما في أشهرٍ يتخلَّلها الكدُّ والنَّصب. وهو مع ذلك مستمتعٌ بما يفعل، مستلذٌّ بما يرى ويراقب. المعلِّمُ والفلاحُ صنوانٌ في أمرِ الصَّبرِ، فالمعلِّمُ الأريبُ هو أيضاً يبذرُ العلمَ في نفسٍ كان قد مهّدها لحبِّ التَّعلُّمِ، وحفّزها لعشقِ التعليم، ثم يأخذُ بيدها شيئاً فشيئاً كي ينبتَ الزرعَ فيها فإن ضاقَ ذرعاً بها حطّمها، وإن وسعَ صدرهُ لها أقامَ لها سوقها. كتبَ ذات مرّةٍ معلم لطالبهِ بعد أن ضاق صدره به بيتَ شعرٍ قال فيه:

صب المعاني في قوالبها وما عليَّ بما لا تفهمُ البقرُ

فردّ عليه تلميذهُ الذي كان يمتلكُ موهبةً شعريّةً غفل عنها المعلّم على الفورِ مجيباً:

حمّلتُ نفسي فوق طاقتها وما عليَّ بما لا يسعف القدرُ

لقد بدا أن المعلّم لم يدر كيف يتعاملُ مع طالبٍ صاحبُ موهبةٍ فضاق صدرهُ به، وكم يضيقُ صدر معلّمين لطلاّب بدوا أشقياء في أنظارهم وما ذلك الذي ينعتونه بـ "الشقاء" إلاّ فيضُ مواهبٍ، وعلامات نبوغٍ لم يدروا كيف يكتشفوه.

ليس معلّماً ذلك الذي ينتقصُ من قدرِ طالبهِ، ويلصق به صفةَ "الغباءِ". وما صوّر له ذلك، ودفعهُ إلى قولهِ إلاّ عجزهُ عن التّحفيز. يقول ريتشارد برانسن "Richard Branson"، صاحب شركات فيرجنز Virgins: "كان معلّمي يقول لي: إمّا أن تصبحَ نزيلَ سجونٍ أو مليونيراً. فنزلتُ السِّجنَ وأصبحتُ مليونيراً." فكأنّما حقق حلم معلّمهِ، فماذا لو اكتفى معلّمه بالتّحفيزِ فقط، وقال له: أرى أنّك ستصبحُ مليونيراً. فبعضُ المعلِّمينِ لا يرون في الطالبِ إلاّ مشروعاً فاشلاً كالبذرةِ الفاسدةِ التي لا يُرجى النّفع منها، فالأحرى أن تُرمى خارج الأرضِ الصالحةِ للزراعة: المدرسة. لكنّهم ما أن يلقوا خارجها حتى تظهرُ مواهبهم، وتتفتّحُ زهورها، فيصبحون أعلم العلماءِ وأثرى الأثرياءِ، فأين كان معلموهم منهم!

ليس معلّماً ذلك الذي لا يترك بصمةً جميلةً في نفس طالبهِ، بصمةً كالأسلوبِ الطيِّب الذي لن يجدَ سوى امتناناً في نفسِ الطالبِ، وحسنَ تذكّرٍ، وطراوةَ لسان، المعلّم الذي لا يقولُ حين يرى خطأ الطالبِ أو هناته مقولة إبراهيم طوقان:

فأرى حماراً بعد ذلك كلّه   رفَعَ المضاف إليه والمفعولا

فمع الاعتبار لما يعتورُ مهنةَ التدريسِ من صعوباتٍ، ويكتنفها من مشاق، إلاّ أنّ ذلك من صميم صفاتها، وهذا ما يستلزمُ العلمَ المسبق به، والتسليمِ له، أمّا أن يتّخذ المعلّم الأسلوبَ الجارحَ الكلمات، فذلك يُقصيهِ عن المهنةِ ويبعده عن الانتماءِ لها.

الأسلوب للمعلّم هو أداته الفعّالةِ فبقدرِ ما يكون أُسلوبه راقياً، يكون زرعه أخضر، نضراً... وبقدر ما يكون أسلوبه جافاً يكون زرعه يابساً هشيماً. يقول أحد الطلاّب: لقد كرهتُ مادة التربية الإسلامية وقد كنتُ أحبّها لأن أسلوب المعلّم قد كرّهني فيها وكان أولى أن يحبّبني إليها فهي مادةُ ديني. ويقول آخر: لقد كذب المعلم على الطالب، فقال له الأخير: أوَ تكذبُ عليَّ؟ فردّ عليه زاجراً بأن عليه السكوت.

ليس معلّماً ذلك الذي يفرّغ كبتهُ النفسي، وشحناتهِ الغضبى في طلاّبهِ لمشكلةٍ أو أزمةٍ يكابدها أو ينقلها من بيتهِ إلى المدرسةِ. فليس الطلاّب أواني فارغةٍ كي يملأها بحرقاتهِ، وجمراته اللاهبةِ، وعقدهِ النفسيّة ومصائبه مع أهل بيته، إذ يرتجون منه السماحةَ والحلم، والتشجيع والمؤازرة. فبعضهم من المعلّمين يعانون من مشكلاتٍ مختلفةٍ لا يجدون متسعاً لتفريغها سوى في أنفس طلاّبهم فإذا بهم يستشيطون غضباً لأتفه سبب، ويعاقبون لأدنى خطأ، وهذا بعيدٌ عن العدلِ والإنصافِ، وسماحةِ الخاطر، وسعةِ الصدر.

ليس معلّماً ذلك الذي يعاقب الجميع بجريرةِ واحدٍ منهم. فكم من فصل كاملٍ عُوقبَ بسبب طالبٍ واحدٍ! والله، سبحانه وتعالى، يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فاطر/18، فما هو الدرس الذي يتعلّمه الطلابُ من تصرِّف كهذا غير الشعور بالظلم، وما الذي يجنيه المعلم غير البغضِ والكراهيةِ له؟

ليس معلّماً ذلك الذي يسخرُ من أحلامِ تلميذِهِ، ولا يراها إلاّ ضرباً من أحلامِ النهار، أو سخافةً من سخافات الجهلاء. استمعت لشابٍّ غربيٍّ وقد أصبح إطفائياً يقول: حينما قلتُ لمعلّمي أنني أريد أن أصير إطفائياً بعد أن أُنهي دراستي سخرَ مني، لكنني سعيتُ في تحقيق حلمي وأصبحتُ إطفائياً لامعاً، وحدث أن وقعت حادثةَ تدهورٍ لمعلمي بعد سنوات قمت فيها بإنقاذه هو وزوجته من الموت المحدق، فأغدق عليَّ الشكرِ والإمتنانِ، وهنّأني باختيار هذه المهنةِ العظيمة!

ليس معلّماً ذلك الذي لا يرى في التدريسِ إلاّ قضاء وقتِ فراغٍ، أو مهنةٍ من المهن التي يتقاضى راتبها آخر الشهرِ دون أن يميّزها بما يستوجب التمييز. سألتُ ذات مرّةٍ معلّماً: كيف هو التدريس؟ فقال لي مجيباً بالعاميّة الدارجةِ كثيراً: "مشّي حالك." فتساءلتُ كيف يقضي مثل هذا وقته في الفصلِ والمدرسة؟!

المعلم المثالي هو من يتسعُ صدرهُ ولا يضيق لأتفهِ سبب، حليمٌ عند الغضبِ، عفوٌّ عند القدرة، حازمٌ وقت اللّزومِ، صابرٌ على مرارةِ التعليمِ، مجتهدٌ في إيصالِ الدرسِ بأبلغِ وسيلةٍ، وألطفِ أسلوبٍ، متحلّياً بدماثةِ الخلق، مشجعاً للموهبةِ، دافعاً للنفسِ، محفّزاً للاجتهادِ، داعياً إلى المثابرةِ، صادقاً في كلامه، عادلاً في تعامله، يرى في التعليمِ له شرفاً، ومنزلةً عاليةً بين سائر النّاس، يتعاملون بحكمة مع من "يحيلون الشعر الأسود إلى أبيض." ولعلَّ أغلبُ المعلّمين هم كذلك، إنّما هي نماذجَ بسيطةً تطرقنا إليها دون أن نعمّم، فإلى هذه النماذج قصدنا القول وليس إلى الأغلب العام من المعلمين الذين نثني على وفائهم وحسن أخلاقهم، ولطف أساليبهم، وصدق جهودهم وعطاءاتهم.

اليومَ يا معلّمي نحن أصدقاءَ لكنني أنظر لك نظرةَ الطالب المجلِّ لمعلّمه، وأعلمُ منك أنك تنظر لي نظرة المعلم الفخور بتلميذه، ولئن كنتَ فخوراً بي كطالبٍ علّمته علي يديك، فإنني أفتخرُ بك معلّماً ومربيّاً وصديقاً وهذا بعض الوفاء – كما كنت تقول ـ وما إطراؤكَ لي إلاّ تواضعاً منك، والتواضع خُلقٌ عهدته منك، وأرتجي أن يقتدي به الآخرون.

الوطن

الوطنُ هو الحاضنُ للإرثِ العظيمِ، والتاريخِ المجيدِ، والإنسانِ المتطلّع دائماً نحو سموِّ المرامي والأهداف. هو موئل الإفتخارِ، ومناطُ الإعتزاز، ومصدر الكرامة. لن يضيق الوطنُ بأهلهِ بل يزدادُ رحابةً وسعةً وفضلاً مهما اشتدت المحن:

لعمرك ما ضاقت بلادٌ بأهلها ولكن أخلاق العباد تضيق

يتّسعُ كلّما ضاقت الأحلامُ، ويجودُ كلّما قصرت الأيادي، ويشمخُ كلّما تقاصرت النظرات عن رؤيةِ أقاصيهِ البعيدة، فهو المرعى الخصبُ، وهو الميدانُ الرّحبُ، وهو الساحة التي تكتنفُ الرؤى المختلفة لا المتخالفة، وهو ينبوع العطاءِ الدّائم الذي أودعه اللّهُ أسرار التسخيرِ كيما يتمكّن الإنسانُ من تعميرِ الأرضِ، وتطويرِ القدراتِ، وتوظيفِ الموارِدِ من أجلِ عيشٍ كريمٍ. هو الروضةُ الحانية الأفنانِ لمن يشاءُ أن يستظلَّ بظلّها، ويستقلَّ بأرضها.

هذا الوطن لا يبنيهِ أُناسٌ وضعوا نُصبَ أعينهم مصالحهم الشخصيةِ الضيِّقةِ التي تعمي أنظارهم، وتعطّل بصائرهم عن الرؤيةِ الواسعةِ للوطن، هؤلاءِ غلبت على أنفسهم مطامع النّفسِ، وتملّكهم الهوى. إنّما يبني الوطن من نفسه سامية، وأهدافهُ عالية، وأهواؤه مسخّرةٌ في ما يرتضيهِ سياق المصلحة الوطنية العامة. يبنيهِ من يتخلّى عن السعي لمصلحةٍ شخصيةٍ لصالحِ مصلحةِ وطنٍ أوسع. فأعظمُ ما يثبِّط الوطن، ويعرقلُ نماءه، ويبدّد موارده، ويعطّل طاقاته هو تغليب المصلحةِ الشخصيةِ على المصلحةِ العامّة، فهذه لعمري من أعظم المصائب التي تواجهُ الأمم، وتقفُ في طريق سعيها نحو التضامن والتكافل والوحدة. ولقد ضرب مثلاً للعالمين رسولنا الكريم ﷺ حين أسس أول وطنٍ في المدينةِ بدأه بتغليب المصلحةِ العامة على الخاصّة بفكرةِ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار. فكيف بمن يزعم

أنّه يبني وطناً، ويسعى إلى عمرانهِ أن يتغاضى عن تضوّرِ جائعٍ، أو فقرِ جارٍ، أو تفجّع أرملةٍ، أو ألمِ يتيم؟ إن فعلَ ذلك فليس حريّاً به أن يزعم الوطنيّة، ويدّعي حبَّ الوطن.

هذا الوطن لا يبنيه من لا يحملهُ همّاً، ويُعليهِ مجداً، ويلبسهُ حقّاً، فلا يغضبُ لأنّه لم ينل مناله لغايةٍ في نفسهِ، بل لحقٍّ أوصاهُ الله بأن يقفَ إلى جواره، وأن يرفع صوته به متذكراً سؤاله يوم الحساب"لِمَاذا لمْ تقل الحقَّ وقد عرفته؟" فكم هم الذين يغضبون لأنفسهم لا لله ـ والغضبُ للهِ غضبٌ للوطن ـ فيحيدون عن جادّةِ الصوابِ، وتذهبَ قراراتهم مذهباً لشفاء غليلهم، وتهدأةِ غلوائهم. فكم من مسؤول حمّل أمانةَ الوظيفة لأجلِ الوطن يغضبُ لنفسهِ. هذا الغضب أو الانتصار لهوى النّفس كم هوى بالفؤوس على الرؤوس فانفلقت لغيرما سببٍ سوى أنّ المنتقمَ قد ثار لنفسهِ لا للوطن. كم من مكلّفٍ بالمسؤوليةِ، أقسمٍ أن يمارسها بأمانةٍ، وتعهد بقضائها بإخلاصٍ وتفانٍ، نسي في ثورةِ غضبهِ لنفسهِ الوطن حين تخلّى عن كفاءاتٍ كانت ستقدّم للوطنِ جلائل الأعمالِ، وعظائمَ الإنجازات. أفيدّعي مثل هذا المنتصر لنفسهِ لا للوطنِ أنّه يحبُّ الوطن؟ يُروى عن سيدنا علي، كرّم الله وجهه، أن كان يبارز مشركاً في إحدى المعارك فلمّا سقط المشرك على الأرضِ بعد أن طار منه سيفه، وأيقن بالموت حين أوشك سيدنا علي أن يقتله، بصق في وجه سيدنا علي، فتركه ولم يقتله، فلمّا سُئل، قال: في الأولى غضبت لله لأنه مشرك، أمّا بعد أن بصق في وجهي فخفت أن أقتله انتقاماً لنفسي.

لا يبني الوطن النّاعقون، المجلجلون أولئك الذين طعموا خير الوطن، ورضعوا ينابيعَ عطائه، أولئكَ الذين يدسّون الفتنةِ في اللّحظةِ التي يتوجّبُ فيها الائتلاف، ويسعون بالفرقة في الوقتِ الذي يحتّمُ فيه الالتفاف، وينشرون الشائعات المغرضة، والأفكار الدخيلة بغية تعميقِ الإختلاف. أولئك المتمّرون على المنابرِ رياءً، والميادينِ ضلالاً. إنّما يبنيه الشرفاءُ الذين عجنتهم تربة الوطنِ فنبتوا نباتاً حسنا. أولئك الذين تنضحُ أعمالهم – قبل أقوالهم – بالعطاءِ الوطني النبيلِ، والمقاصد الوطنيةِ السامية، والأعمال الصالحةِ الجليلة، فأينما بلغوا تركوا بصمةً يفتخرُ بها وطنهم، وأينما ساروا رسموا مسالكَ يحتذيها غيرهم فهي سننٌ حميدةٌ كسبوا

أجرها وأجر من سار على منهاجها. هؤلاءِ على عكسِ من سار في طريقٍ معوّجٍ، مضلّلٍ، يتخبطُ، ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ البقرة/17.

الوطنيّة هي العطاءُ الشريفِ، والسيرةُ الحميدةِ، والمساعي الواضحةِ المستقيمة... أمّا من أظلمت طريقه، وتخبّطت خُطاهُ، وكشف الله عيوبه لخلقهِ، ونشرَ مساوئه بينهم إمعاناً في فضحه فهل يُسمعُ له قولٌ، وهل تجدرُ به ثقةٌ؟

إن من يبني الوطن هم أصحاب الكلمةِ الصادقةِ، متّبعي الحقّ المستقيم الذين لا يخافون في الله لومةَ لائم، أولئكَ الذين لهم في كل موقفٍ وطنيٍّ رأيٌ مشهود، ومبدأٌ معهود، وعقيدةٌ راسخة، وعملٌ بيّنٌ لا يخشون عليه من نقدِ منتقدٍ، ولا وشايةَ نمّامٍ، ولا هتك مغرض. أولئكَ الذين يُنصتُ لهم الوطنُ حين يتكلّمون، ويتفاخرُ بهم حين يعملون، أولئك هم الأوسمة الأصيلة، والنياشين الحقيقة للوطن، لا المدّعين الذين يبتغون الوطن مطيّةً لأهوائهم، ومركباً لزيغهم، ووسيلةً لفتنتهم، لكي تسعد أنفسهم وهي تبصر الانفلات من قيود الأخلاق يطغى، وتبتهج وهي ترى التحرّر من ضوابط القيمِ يتفشّى. كيف يزعمُ من يزعم بولاءٍ للوطنِ وهو غير مستقيم على جادّة الحقِ الذي هو الدّين؟ إن رؤية الاستقامة في الكون – كما يقول العلامة الراحل متولي الشعراوي- لا تتم إلاّ بتحقيق الاستقامةِ في النفس. هذا هو جوهر التغيير الذي يسير عليه المنطق"غيّر نفسك تغيّر العالم."

إن من يبني الوطن هو المواطنُ المخلص الذي يراقبُ الله في عملهِ قبل كل شيء، فالإخلاص أهم القيم. فوالله لو عرف النّاس قيمةَ الإخلاص وعظمته لما تعلّقوا بغيره. فكيف لمن عمل لا يخلص، ونبينا الكريم، ﷺ، يقول: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه." والإتقان لا يتمُّ إلاّ بالإخلاص. لا يبني الوطن مواطنٌ غير مخلصٌ في قولهِ وعمله، فإن قال: لا تقدير ولا تحفيز من الآخرين فهو مقدّر من ربّه، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

التوبة/105، لكن إن أغواه التقصير، وفتنه الخمول والتكاسل، فقد خان الأمانةَ، وأخلف العهد.

يبني الوطن متّزنُ الفكرِ، مستنيرُ الرأي، متفتّح البصيرة، ذلك الذي يرى في الأمرِ أبعاده القصيّة، ومغازيه البعيدة، ذلك الذي يحكّم حلم العقلِ في تدبّره، ويُجري قلم الحكمةِ في أسطره، ذلك الذي لا تجرّه أهواءُ الغيرِ، ولا انفعالات النّفسِ، بل ذلك الذي يرى آفاق الحقيقةِ وإن لم تبنَ، ويبصر تحقّق المصالحِ وإن لم تحن. وعلى العكس، لا يبني الوطن متعجرفٌ، تجرّه أهواؤه، ويدفعه الصخب إلى الهاويةِ، ويقوده عمه البصيرةِ إلى مخازي الأمور، ومهاوي المحظور.

إن من لا يحفظُ للوطنِ هويّته، وخصوصيّته فلا يدّعي الوطنيَّة ولا يساومُ على حبّه للوطن، لأن حفظَ الهوية، والحرص على الخصوصيّة، والتفاخرِ بالانتماءِ لا تقتصرُ على المظهرِ فحسب، بل والجوهر، وهذا هو الأصل، فكيف بمواطنٍ ليس حظّ وطنهِ منه سوى لون جوازه وشعاره، كنصيب دينه منه؟ إنَّ الهويَّة هي صدق المواطنة فهي الجواز الحقيقي، والهويَّةُ تجسيدٌ للدين والتاريخِ والأعرافِ في شخصيّةِ المواطن، تلك التي تمنحه ميزات الخصوصية والانتماء. فكيف بمدّعٍ المواطنة والغيرةُ على وطنهِ وهو يترنّحُ في قامته، ويتبجّحُ في كلمته، ويناورُ في ذمّته؟ إن من يعرفُ تاريخهُ العريق، وهويّته الأصيلة هو العاقلُ اللبيب، والراشدُ الأريب، الذي إن قالَ ابتدر معترفاً بالفضلِ والإحسان، وتلطّفَ بأدبٍ جمٍّ في ذكرِ النقصانْ، لا يفقدُ سمتهُ في اضطرامِ الصخب، ولا حلمه عند احتدام الغضب.

لا يبني الوطن من جعل غير الوطن "ظهره". إن الظّهر الآدمي زائلٌ والوطنُ باقٍ، فأيُّ ادعاءٍ بولاءٍ إن لم يكن للوطن؟ والولاءُ للوطنِ هو ولاءٌ لله لأنّه عهدٌ بالعمرانِ والإخلاصِ والتوكّلِ والاستعانة به سبحانه. فكم من مستندٍ "لظهرٍ" قُصمَ ظهره بعد أن غاب، وقد كان قبل ذلك يستمدُّ سلطته وجبروته من ذلك "الظّهر"؟ فماذا لو كان الوطنُ له ظهراً أيُقصم ظهره؟ إن الحرَّ الكريمَ الواثق في نفسه، وصدق نواياه، المخلص في تفانيه، هو من يجعل ولاءه للوطنِ خالصاً.

يبني الوطن مخلصون يقدّرون فضل الوطنِ عليهم فيبادلون الإحسان بالإحسانَ، فإن أثروا بذلوا أموالهم لأوطانهم، على عكسِ من أغدق عليهم

الوطن جميله فأداروا له ظهورهم عند المحن، ولم يكترثوا ببذل ذرّةٍ من أموالهم لأجلِ نمائهِ وازدهارِه... بل المخلصون هم المبادرون الذين لا ينتظرون بادرةً أو إشارة كما يفعل هذا ويُعلن ذاك.

بناءُ الوطن ليس عريضةً تعلَّقُ، ولا ادعاءاتٍ تطلق، وإنّما هو حبٌّ ممتزجٌ بالروحِ، ينبتُ فطريّاً مع الأحلامِ، تمدّه العروق بماءِ الغيرةِ على الوطن. هو نورٌ وهاجٌ ينبعث من عمق النفسِ لينيرَ لها دروبَ الرِّفعةِ والكرامةِ والعزّة. بناءُ الوطنِ لا يتطلّب إعلاناً بذلك، وإنّما مبادراتٌ خيّرة بمناسبةٍ أو غير مناسبة. بناءُ الوطنِ سموٌّ بالوطنِ لا خنجرٌ يغرز في خاصرة الوطن. بناءُ الوطنِ ليس مجرّد قصيدةٍ ينفثها فمٌ مع ما ينفثه من دخانٍ بل نفسٌ زكيّةٌ ترقى بطيبِ عملها، وصدق نواياها، وحسن أفعالها. بناءُ الوطنِ ليس خطبةً عصماءْ بل فعلٌ مخلص لا ينتظرُ إلاّ ثواب الله.

بين الحرية والتفلُت

بين الحريّة والتفلّت تسقطُ قيمٌ ومبادئ وأخلاقياتٌ وحدود. فالمصيبةٌ بمن ينادي بالحريَّةِ ولا يدري أنّه ينادي للتفلُّتِ، والمصيبةُ الأعظم أن يدري! لا جرمَ أن تسقط مفاهيمٌ لا تناسبُ العصرَ، ولا تتفقُ مع أقدار النّاسِ، وشؤون حياتهم، ولا جرمَ أن تتصاعدَ دعوات التغيير فالتغيير سمةُ التقدم، إنّما الجرمُ أن تسقطَ قيمٌ جليلةٌ تعدُّ من الركائزِ المؤسسة لأيّةِ نهضةٍ قويمةُ المنشأ، أصيلةُ الأساس. في الغربِ سقطت قيمٌ وحدود بحجّةِ الحريّة حتى ضاعت الحريّة فأصبحت تفلُّتاً دون مسؤولية ففي بريطانيا مثلاً، أضحى مفهوم الحرية يعني التفلُّت من القيود الاجتماعية وهذا ما حدا برئيس الوزراء البريطاني الحالي إلى الربط – في كثيرٍ من خطاباته – بين الحريّةِ والمسؤولية، ذلك لأن حريّةً دون مسؤولية هي تفسُّخٌ وتمرُّدٌ بغيرِ وعي. يقول د. أحمد العمري في كتابه، **فيزياءِ المعاني**: "قد يقول المبدعون المتفلّتون، أن تفلتهم أو حريتهم هو القضية وقد يكون هذا فعلاً بالنسبة إلى بعض منهم، لكن ماذا بعد؟ ماذا بعد أن أطلقت حرية هذا المارد؟ ماذا بعد أن استبدلت بقيوده قيود أخرى تسميها أنت حرية ويسميها غيرك تفلتاً؟ ماذا بعد كل ذلك؟"

إن الحريّة ليست خارج منظومة الأخلاق والقيم الرفيعة، إنما هي في إطارها ذلك لأن الحريّة ذاتها قيمةٌ إنسانية عليا يناضلُ من أجلها الإنسان فكيف بها تُخرَج من منظومةِ القيمِ إلى الانفلات غير المقيّدِ بضوابط. هذا ما يعتقده بعض المتثاقفون ويتبعهم إلى سرابٍ وهمه الغاوون الهائمون في كلِّ وادٍ... المنفلتون عن ضوابطِ الأخلاقِ، وحدود القيم. يتراءى لهم مستقبلٌ واهمٌ متحرّرٌ من قيودٍ يرون المجتمعات ترزح تحت وطءِ ثقلها وأولها الدّين. ناهيك عن اللغةِ والهويات وغيرها. لكنّهم يصوّرون ذلك على هيئةِ صنمٍ يجب تكسيره من أجل صنع عالمٍ غير محدودٍ، عالم ورديِّ الرؤى، فسيح الفضاء! هذا ما حصل في الغربِ: إنفلاتٌ وتحرُّرٌ غير واعٍ وتحطيمٌ لكلِّ ما من شأنّه أن "يضبط" الاتجاهِ الإنساني نحو تحقيق ذاتيته. حتى قال لي أحد الإيطاليين المقيمين في المملكة المتحدة كلمةً،

حين قلت له، إن العودة إلى القيم هي حلٌّ من الحلول لمعالجة المشكلات الأخلاقية في المجتمع البريطاني. قال: فات الأوان.هذا المفهوم الغربي للحريّة/الانفلات رفضه الفلاسفة الإغريقيين بسبب الإشكاليات التي صاحبت مفهوم الحريّة، حيث يصف أرسطو مفهوم الحرية عند الديمقراطيين الإغريقيين قائلاً: "يدعو الديمقراطيون إلى إقامة الدولة على أساس أن إرادة الأغلبية هي العليا، ويؤكدون أن الحرية تقتضي أن يعيش كل فرد كما يشاء، بدعوى أن تقييد حرية الإنسان علامة من علامات العبودية."[1] وذلك المرفوض في الماضي هو السائد اليوم حتى إنني أستمع إلى معظم الإجابات التي توالت حول سؤال في الإذاعة البريطانية: لماذا تشرب؟ فكانت: لأن ذلك مقبولٌ إجتماعياً.

يرفع بعضهم شعاراتٍ يرفضونها أو يتناقضون معها ذاتهم كمثل "حريّة الرأي" هذه الحريّة التي ينادون بها ليس لها ضوابط أو قيود وإنّما منفلتةً، فإن ارتدت إليهم بأن كانوا هم الطرف الذي يُرمى بسهم النقدِ تذمّروا وزمجروا وهنا تُكشفُ الأكاذيبُ والأوهام. حتى أن أحدهم وقع في مأزقٍ قانوني لفهمه الأخرق لحرية الرأي، فلم ينجِّهِ غير رُسلُ التوسّلات طالباً المغفرةَ والعفو عند المقدرة.

لا جدالَ على الحرية الفاضلة التي تحقق شرطية التساوي الإنساني، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات/13. فهذه من المؤسسات البديهية في الحياة الكريمة، إنّما الجدال على دعوات التفلّت من إطار الأخلاق. وهذا ما يعتنقه بعض المتثاقفون الذين يعتقدون واهمين بتلازم الإبداع مع التفلّت. ولهذا أخذت دعواتهم شكل السمِّ المدسوسِ في العسل. هم القومُ الذين ضلَّ دليلهم وأصابهم العمهُ قبل العمى فهم يتخبطون. ما الذي يحتّم على الإبداعِ أن يتمرّد على المنظومة الأخلاقية العليا؟ أفلا يكون في إطارها إبداعاً سامياً خالداً؟!

لم يكن المنفلتون إلاّ في وادٍ يرعون فيه كما تستطيبُ شهواتهم دونما حدود. في حين كان الإبداعُ الخالدُ في منأىً عنهم لا يرونه إلاّ لماماً. يزجُّ المنفلتون

[1] أنظر أرسطو، السياسة، ص 106- 111: Aristo، Politics، in William Bernstein، Great Political Thinker (NY: Holt، Rinehart، and Winston، 1969).

بأنفسهم في خطاب الحريّةِ والإصلاح، وهاتان القيمتان الفاضلتان منعزلتان عنهم، فهم أسرى النزوات والأفكار الهدّامة، والأُطر الذاتية المحدودة. وما زجَّ بهم إلا سانحة الركوب مع الجمهور في موجةِ التغيير على أملٍ أن يقودوا القافلةَ في مرحلةٍ من المراحلِ نحو التيه والضلالة. هم القومُ الذين يشقى جليسهم، ويحتارُ سامعهم، ويعتلُّ الناقلِ عنهم لأنهم لا يحملون سوى ترهات وخزعبلات هي من نتاجِ ضياعهم، وخرابِ أنفسهم، واجترار آثامهم. المنفلتون من إطار المنظومة الأخلاقية وإن تحرّزوا زلّة اللّسان عند الجمهور، فهم واقعونَ، متعثرون، فما ألسنتهم، وما سلوكهم وما أخلاقهم إلاّ وسائط ووسائلَ تكشف كذبهم وضعف أنفسهم، هؤلاءِ الذين لا يقيمون للناسِ قدراً، ولا للفضائلِ قيمةً، ولا للتاريخِ منزلةً، ولا للكرامةِ مقاماً، ولا للشهامةِ وزنا. هؤلاءِ الذي يرون لمّاعاً مجدهم كلّما ازدادوا تمرّغاً في الطِّين.

لا ليست حريّةً تلك التي يدّعيها هؤلاءِ المنفلتون من أُطر الدين الحقِّ، والأخلاق الفاضلةِ التي نشأ عليها المجتمع وتربى عليها أبناؤه بل هو التسفيه بالعقولِ لأجل تحقيقِ المقصد الذي يخامر أحلامهم، ويداعبُ أخيلتهم، فلكم سمعت من عبارات سفيهةٍ تردُ في حواراتٍ تصدر من بعضهم وهم ينعتون، وكم قرأت لبعضهم تصويراً منحطاً وهم يصفون، وكم تجرأ بعضهم لبثِّ الفتنةِ الضالة وهم يحرّضون! فهل بهؤلاءِ ترفعُ المجتمعات الفاضلة المنشأ، الأصيلة الهوية، شعارات الإصلاحِ، وألويةُ التعبير؟! وهل بهم تستعين الأمّةُ على تبيان دروبِ ازدهارها؟! إن إنساناً مزدوجَ الفكرِ والسلوك هو على شاكلةِ المنافقين الذين قال الحق سبحانه وتعالى فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣﴾ البقرة/12ـ13. إن المصلحين هم الأصفياءُ الذين تعمّر بهم الأوطان، الشامخون فوق المصالح الدونية الضيّقة، أولئك الباحثون عن مجدٍ الكرامةِ بصدق الكلمةِ، وسلامة المسلك.

تنازلات

ما يعرقلُ الكثيرَ من أمورِ النّاس، ويعقّدُ قضاياهم هي إنفعالاتهم وليست عقولهم. ولو أنّهم حكّموا العقولَ الكيِّسة وتركوا العواطف المنفلتةِ، والانفعالات الثائرة لربحوا الألفةَ، والعيش المسالمَ، والتفرّغ لما هو أهم من الشؤون. تجدُ أناساً لا يرون بأبصارهم سوى اللّونين الأبيضِ والأسود أمّا الألوان الأُخرى فلا يبصرونها أمامهم. وكأن الليل والنهار كان دهانينِ استبدّا بأبصارهم فاصطبغت بهما. ثقلت أنفسهم فلا تسمعُ منهم ردّاً إلاّ اليمين أو اليسار أمّا الوسطَ فلا قبولَ له، ولا أصلَ له عندهم ولا قاعدة. وهذه معضلةٌ كبيرة في حياةِ البشر.

الخلافات بين النّاس مصدرها - في كثير من الأحيان - التشبّث بمواقفَ جامدة أمّا أقصى هذا الحد أو أقصى ذلك الحدّ وبينهما هوّةٌ سحيقة. أذكر أن شخصاً اتّصل بي يخبرني عن آخر حدثت بينهما مشاجرة فلمّا قلتُ رأياً يقتضيه المنطق، وتحتّمه النصيحةُ، ثار على الفور صائحاً: "إذن فأنتَ إلى جانبه." هو إذن من رافعي شعار "معنا أو ضدّنا!" هكذا لا يرتضي أغلبُ النّاس الحلّ الوسط، ولا يرونه إلاّ استسلاماً أو ذلاّ. وهو – ما لم يكن إثماً- خير الحلول، متناسين أنّهم منسوبون أصلاً وخُلقاً وديناً إلى الوسطيّة، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ البقرة/143. لقد سررتُ بانتشار لجان التوفيق والمصالحة لأنّها تعملُ من أجلِ الحلولِ الوسط دون الاضطرار إلى قطع ما تبقّى من حبال المودّة، ووشائج القربى في قاعات المحاكم. يخبرني صديقٌ يرأس إحدى هذه اللّجان بأن أغلب القضايا مردّها سوءُ الفهم، والتّعصّب للآراء الشخصيّة، وأنّ هذه اللّجان قد استطاعت عبر الحلول الوسطى أن تحلّ خلافات المتخاصمين.

ولعمري، فإن إثنين إذا ما اختصما فحكّما العقل بينهما وجعلاه سيّداً، فإنّهما في الغالبِ سيصلان إلى الحل. والحل لا يعني بالضرورةِ اقتسام البطيخِ إلى نصفين متساويين وإنّما قد يتطلّبُ بعض التنازلات. نعم التنازلات التي يراها بعضهم لوهلةٍ أنّها ذلاّ كما رآها سيدّنا عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقال للنبي، ﷺ، بعد صلح الحديبية: لماذا نعطي الدنيّة في ديننا؟ حيث لم يكن يعلم الفاروق أنّ وراء التنازل المؤقّت فتح مكّة. هو الفتحُ إذن وراءَ كلّ تنازلٍ حكيمٍ يبتغي ردم هوّة الخلاف، وإطفاءِ نار الفتنة، وإخراس نعيق القطيعة. من النّاس من حين يكرهُ زوجته يبادرُ إلى تطليقها لأنه لا يستحسنُ منظرها أو لأن بها علّة نفسيّة، أو لخلافٍ بسيطٍ بينهما، والله سبحانه وتعالى يأمره بقوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ البقرة/216. ولعلّ الكثير من الزيجات، خاصّة، تلك التي قامت بين آبائنا وأمّهاتنا قامت على تراضٍ وتوافق أكثر من قيامها على معيار المحبّةِ بين قيس وليلى.

بعثتُ ذات مرّة بسؤالٍ إلى مصدرين للفتوى فأجابني الأوّل إجابةً حاسمةً قاطعةً بالتحريم، في حين أجابني المصدر الثاني شارحاً الأسباب وموضحاً بما يملأ بياض صفحةٍ كاملةٍ محلّلاً في ما لو حدث كذا، ومحرّماً لو حدث كذا وترك لي أمرَ التقرير. وقد كان الأمرُ مما يحتمل الخلاف فيه. الفكرةُ هنا تكمنُ في بيانُ الحلّ الوسط وبعدها يستفتي المرء الحصيفَ قلبه، والقلبُ هنا يعني العقل. والنبي الكريم ما عرض عليه أمران إلا واختار أوسطهما ما لم يكن إثماً. إنّما لسببٍ من الثقافةِ العقيمة في هذا الأمر نشأ الكثير على نهجِ الشاعرِ القائل:

ونحن أناسٌ لا توسّط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبرُ

وليتهم اتبعوا نهجَ ذلك في الحقِّ المبين، وإنّما اتبعوه في ما يقبل الجدل، ويتّسعُ للخلاف، ويستوعب تعدد الحلول. ولأن كثيراً من النّاس لا يدركُ طبائع النّاس، والباعث وراء أقوالهم وأفعالهم فإنّ يتشبّث نحوهم بآرائه الجازمة،

وأحكامه الحازمة، وقرارته الحاسمة لا يؤمن بمقولة إنّك "قد لا تستطيع أن تمنع الطيور أن تحلق فوق رأسك، ولكنك تستطيع أن تمنعها أن تعشش في رأسك." ولهذا عشّشت الأفكار السلبيّة في عقولهم وصدّتهم عن تقبّل الحلول الوسطى، واستدامة العيش مع الآخرين الذين رأوا أنهم لهم خصماء.

إنني أحبّ دائماً أن أكرّر عبارةً تقول: "دائماً هناك حل." والأهم هو أن تكون هناك نيّة صادقة للوصول إلى حل مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا**﴾ النساء/35. لكن لا يتم حل دون تنازلات. فالتنازلات هي مُعطى الحكيم، ومنحةَ الكيّس، ومنهج العاقل، فكم من أسرٍ شتتها العصبيّة إلى الرأي، وكم من أخوة تمترسوا وراءَ أجولةٍ من الرّملِ دون أن تحضر الوسطيّة بينهم... كلّ ما يرونه هو الأسود أو الأبيض... بينما لا يخلو إنسانٍ من عيب. يروى عن سعيد بن المسَّيب قوله: "ليس من شريف ولا عالم ولا ذي فضل إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمن كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله."

التنازلات أو الحلول الوسطى هي التي تجمع الأضداد لعملٍ مشترك فيه مصلحة الإنسانية والمجتمعات، ولهذا فالإسلام حين يعرض الدّين على قومٍ فيرفضون الدخول فيه لا يُشرع السيوف في رقابهم إنّما يعمدُ إلى التسوية وهي الجزية مقابل الحماية. إذن فالتسوية والتنازلات المنطقية التي تدفعُ شرّاً لا يقاومُ، وتطمح إلى خيرٍ لا يساوم، دون مذلّةٍ أو إهانة أو ضرر هي عينُ العقلِ، وأسّ الصواب.

وسطية الكلام

الفضيلةُ – كما يقالُ- تقعُ بين رذيلتين، والفضيلةُ خلقٌ إن فقَدَ الإنسانُ الطريقَ إليها ضلَّ، وإن وجدها اهتدى. لهذا فإن التوازن في طرحِ الفكرةِ، وفي إبداءِ الرأي هو عينُ عقلِ الحكمةِ، ومعقلُ تقديرِ شخصيةِ المرءِ، وأساسُ ثباتِ العلاقة بين الناسِ واستمراريتها، وهو في ختامُ الأمرِ من أسس الفضيلة. التوازنُ هو حظوةُ العاقلِ، ومفتقدُ الجاهل. ومعيارُ الحكمِ على النّاس – في عمومهم- يقع في هذه الدوائر الثلاث: اليسار أو اليمين أو الوسط. ولا شكَّ بأن الأزمات في حياةِ الدول والشعوب تتكشفُ عن أقنعةٍ، وتتفصَّحُ عن نوايا. فمن تحلّى بالحكمةِ، واحتكم إلى العقلِ، فهو الحكيم الذي لم تدفعه النوازع، ولم تجرّه الأهواء، وهو الرزينُ في وجهِ الملمّاتِ، القادرِ على أداء المهمّات. ومن تهوّر قولاً أو فعلاً فهو المنجرِّ دون أن يحسب عواقبَ الأمور، ولا يتصوّر بواطنَ الشرور فليس منه مأمن.

لقد تكشّفت أخلاقٌ مستبطنةٌ لم يكن المرءُ ليتصوّر لها شكلاً في وجوهٍ يُقسمُ الإنسانُ الأريبُ على سماحتها، وقسمات لا تزدهي إلاّ ببشاشتها. تكشّفت عن خلل في الضمير، وعيبٍ في التقدير فلم ترع حقَّ القائلِ، ولم تصن فضل المتكلّم، ولم تحفظ قدر الزائر. فإذا هي تنفلتُ من أوشاحِ الحكمةِ، لتطلق الكلمةَ من رسنها دون أن تضعَ لها اعتباراً.

إن الحكيمَ هو من تبرهنُ الأزماتُ على حكمتهِ، والحصيف هو من تدلل المواقفُ على حصافته. إنني لأقرأ ما يكتبهُ بعضهم فأشعرُ ببعض الإمتعاض لأنهم حادوا عن وسطية الرأي، وتوازن الطرح. فصار كلّ واحدٍ يغلظ في قوله، ويشطحُ في اتّهامه، ويباشرُ في كلامه، حتى أصبح بعضهم منهم أوصياء على القائمين بالمسؤوليات. يصدرون لهم الأوامر والنواهي كلّ صباح ومساء. قرأتُ عن كاتب يوجّه رسالةً إلى الوزير فيها وصيّة يرى أن الأسلاف قد أخفقوا في تطبيقها وعليه

التصحيح. وآخر يفرض قائمة أعمالٍ، فقلتُ، أعان الله صاحب كلّ منصب فهم بين المطرقة والسندان! فبأي عقلٍ يفكّرون؟ وبأي مبتدأ يبدؤون؟

يحسبُ بعضهم أن الكلمات المطلقةُ عن عقالها، كالسّهام المقذوفةِ من القوسِ إنّما هي وحدها من يصلح غير أنّها قد تصيبُ الصدر في مقتل. الكلماتُ الطنّانةُ الحارقة لا تحرق الهشيم فحسب، بل وتحرقُ الأخضر أيضاً. أي أنّها تعطّل القوى الإيجابية في النفس البشريّة. ذات مرّة لم يعجب أحدهم أنني كتبتُ اشكرُ لجهةٍ ما حيث أرادني كحامل قوسٍ أينما يمّمَ وجهه أطلق نباله. ومرة أُخرى حَسِبَ آخر أن القوّة هي في ما يكتبهُ هو من شديدِ اللّفظِ، وغليظِ الكلام، وصريحِ العبارةِ، فقلت له كاتباً: القوةُ نسبيّة فما تراه أنت قوة يراه غيرك ضعفاً، وما تراه ضعفاً يراه غيرك قوة. قوةّ الكلمة ليست في أن تكون جارحة. فعظمةُ الجواهر ليستَ في قوّتها حين تخدش أسطح الحديد، وإنّما في بهاء ألوانها، وتلألأ بريقها. وقوةُ الإنسانِ ليستَ في عضلهِ وإنّما في خُلقه (ليس الشديدُ بالصرعةِ، إنّما الشديد من يمسكه نفسه عند الغضب) حديث شريف. وقوةُ العبارةِ ليست في الأمر بل في رقي العبارةِ، ولطيف اللفظِ، وصفاء النيّة. فالنوايا تظهرُ في الكلمات، أليسُ المرءُ — كما يقال- مخبوءٌ تحت لسانه؟ إذن فكلّما تكلّم أظهر نواياه.

لقد أصبح بعضهم لا يتردّد للكتابةِ متّهماً هذا أو ذاك بدون برهان. استساغوا الخوضَ في رواياتِ فلانٍ عن فلان فانبروا كشجعانٍ يقتحمون ساحات الرّدى دون أن يعلموا مبررات اقتحامهم. أولئكَ ممن سهل إغواؤهم، وإغراؤهم فأرادوا لأنفسهم سبقاً، وما كان في الحقيقةِ إلاّ حمقا. أحدهم كتبَ دونما تمعّنٍ في ما يكتب فأوغرَ اتهاماً، وأوغل تجريماً فلمّا اتضّحَ أمره، وجد أنّه ممن كان يفترضُ بهم أن ترجح ألبابهم قبل أن تنزلقَ أقلامهم. وآخرَ سفّهَ من شاءَ، ودسّ صواع الملك في حِمل من أراد، فأتهمه جزافاً، فلمّا قاده قلمه لما اقترفت يمينه قال: ما لمستُ شيئاً مما قلتُ وما لديّ دليل إلاّ إيعازٌ من بعضهم. والأدهى أنه من أربابِ مهنةٍ يعوّل على صاحبها مصداقية الكلمةِ، والأمانةِ والإنصاف.

إني لأتعجّبُ ممن لا يقيمُ وزناً للكلمةِ، ولا يريدها أن ترفعَ عماداً، بل أن تهدَّ تاريخاً وإنجازاً. يريدها أن تحطّم روحاً، وتفتل هماً. لا أن تبني إنساناً، وتدفعُ وطناً.

تلك الكلمة التي قال الحق سبحانه وتعالى عنها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ۝٢٦﴾ إبراهيم/ 24- 26.

وإذا كانت الكلمة عند الخالق، عز وجل، بهذه الصورة فكيف يستهجنُ بها بعضهم ويلقيها على عواهنها دون حجّةٍ ودرايةٍ لأبعادها وعواقبها؟ هل يمكن أن يدّعي مثل هذا الحقَّ أو الإصلاح، وهو لا يكترثُ لآثارُ الكلمةِ على من تمسّهم من البشر؟ منذ أيام كنتُ في أحد المجالسِ، وكان جلُّ الحضور يناقشون مقالة كاتبةٍ رأوا أنّها أهانتهم في مقالتها، وأنّها لم تلقِ بالاً في ما كتبت ولم تتحلّ بالمسؤوليةِ عندما خطّت كلماتها، فوددتُ لو أن تلك الكاتبةَ قد رأت مدى الألم الذي يعتصرُ أنفسهم من جرّاءِ كلماتٍ خطّتها في صحيفة وأدبرت عنها.

إن القضيّة ليست قضيّة نشرُ مقالةٍ جدليّةٍ، كي يُعرف صاحبها ويُشهر. فهذه ينبري لها الكثير من المدّعين بالكتابة. إنّما القضيّة هي أن يحسب الكاتبُ لكل كلمةٍ يكتبها، فيتصوّر المدى الذي تمضي إليه، والأثر الذي تتركه. أمّا نيّة الإصلاحِ فلا تستقيم مع التجريحِ، كما لا يصلحُ الضربُ المبرّحُ إبناً مخطئاً. القضيّة ليست في فتحِ منبرٍ إعلامي يثيرُ الفتنة أكثر مما يدرؤها.

إنّما القضيّة هي توازنُ الطرحِ، والنظرِ في أبعادِ مثل هذا المنبر. القضيّة هي يجب أن تحدّد الأهداف على كفتي ميزان: كفّةٌ فيها مصلحةُ شخصٍ، وأخرى فيها وطن. فمن يحقُّ له الرجحان؟ نوايا خافية تظهرُ عكس ما تبطن بإسم الحريّةِ والتعبير عن الرأي وما هي، والله، إلاّ حرقةٌ في نفسٍ واحدةٍ على حسابِ وطن كبير! وطنٌ يتألمُ لأن سهاماً تنطلقُ من هنا وهناك بلغةٍ لم يعهدها في سابقه. لغةٌ كان سيقسم صادقاً – لو لم ير ناطقها- أنّها لم تأتِ من فيهٍ من أفواهِ بنيه. القضيّة ليست في كيلِ الاتهامات للبشرِ وتبني لغةٍ جديدةِ الطرحِ لا تنتمي لهذا المجتمع تسوقها أخلاقيات لا تليق بتاريخ الوطن ولا بشموخه، إنّما القضيّة هي إنصافُ الحقِّ، ولا يمكن لمنصفِ حقٍّ إلاّ أن يكونَ ذا منطقٍ يتحرّى العدالةَ في كلّ ما يقولُ وما يفعل. يقول ابن القيم: "المتكلم بالباطل شيطان ناطق." القضيّة

ليست في استيراد صورٍ، أو أفكارٍ من مجتمعات تختلفُ ظروفها ونظم عيشها، بل القضية هي المحافظة على رصانة الهوية. الهوية التي يصونها الإنسان بالانفتاح والرفض. يقول المهاتما غاندي Mahatma Gandhi: "لا أحبُّ أن تسدُّ الجدران المنيعة بيتي في كل جهة، وتغلق نوافذي، إنّما بدلاً من ذلك، أحبُّ أن تهبّ ثقافات الأرض المختلفة في بيتي قدر المستطاع، لكنني أرفض أن تقذفني أيّاً من هذه الثقافات خارج بيتي."

إننا إن لم نتحلّ بالأمانة والموضوعية فقد نفرط من عقد العقلانية، ونضيع في سهوبٍ لا تحدّها حدود،وهذه ستكون معضلة تاريخية. إن لم نكن على مستوى المسؤولية في كل ما نقول ونفعل، فليس لنا أن نزعم النوايا الصادقة. والوطن لا يُبنى إلاّ بالنوايا الصادقة تلك التي تظهرُ جليّةً في الأفعال. إنّ الكلمة لأمانةٌ يُسأل عنها الإنسانُ عند خالقه. ولأجل هذا فقد وضع رسولنا الكريم، ﷺ، قاعدةً منطقية للكلام في حديثه الشريف: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت." رواه أبوهريرة. أمّا أن يخوضَ هذا في حديثٍ واهم، ويتبنى الآخر شعاراتٍ أكبرُ منه، فلا يفهم مقاصدها، ويسترسل غيرهم في نقدٍ غير مسؤول. فهنا تقع الإشكالية.

لقد تكشّفت أقنعةٌ، وبرزت حقائق لا بد من مواجهتها، أهمّها أن من الأهمية بمكان مراجعة الكثير من المسلّمات في ما يخصّ البُنى التربوية والتعليمية والثقافية عامّة. مراجعة ترمي إلى تفعيل الرابطة بين الوشائج التاريخية ماضياً وحاضراً، كما يفعّل القيم التي تعطّلت بفعلِ أسباب كثيرة ليس هذا مجال طرحها.

إن الإنسانَ المتوازن الفكر هو الذي يستطيع أن يوصل صوته للآخرين كي يُفهم منه ما يريد القول، وكي تتاح له فرصة المشاركة، أمّا "طنطنة" الكلمات فلا تفيد قائلها، ناهيك عن سامعها. وهي وإن تطاولت فالدّخان أيضاً يتطاول لكن لا أصل له، فسرعان ما يتلاشى مع الرياح. فالله الله على الكلمة! يقول مثلٌ إنجليزي: "ضع دماغك على الترس قبل أن تحرك فمك." فالكلمة تملك القوة لبناء الآخرين أو لهدمهم.

توافق...

إن لم يحسنُ الطبيبُ إلى مظهره، ويعتني بهيئتهِ، وبطريقةِ تواصلهِ الإنساني مع المرضى فلا يجدرُ به حمل هذا اللّقب. فهو لا يتّسق مع رقيٍّ مهنتهِ، وبياضِ ملابسه. وإن لم يعِ صاحب الشهادةِ العليا في الحقولِ الإنسانيّةِ قيمة الكلمةَ التي ينطقها، ولا يُتقنُ الجلوسَ في المجالسِ، ولا يفقهُ بديهيات التخاطبِ مع الآخرين، فلا يجدرُ به حمل اللّقب. وإن لم يدرك المعلم أهميّة الوسيلة التي يجذبُ بها اهتمام طلّابه، ويعتني بفهمهم لشروحه، ويلقي بالاً لطريقةِ تعاملهِ معهم فلا يجدرُ به حمل اللّقب. وإن لم يدرك المسلم قيمة التعامل في الإسلامِ وحسب أن الدّين محصور في الفرائض فما فهم دينه. وإن لم يُدرك المتعلّم قيمة التواضع كأعظم حلّةٍ يتزيّا بها المتعلم فليس جديراً بلقب متعلّم، وخيرٌ منه جاهلٌ متواضع. وإن لم يدرك المسؤول قيمة الترابط بين الكفاءة والأخلاق فلا يستحقُ التكليف.

ما أرمي إليه بالقول هو أن بعض الأسس هي من البديهيّات بمكان، لا يمكن التنصُّل منها وإلاّ صحّ أن يقال عن الإنسانِ إنّه "منفصمٌ" أو "مزدوج". فأنت ترى صاحبُ شهادةٍ عليا – ولنحصر ذلك في حقولٍ تتّصل بالعلومِ الإنسانيَّةِ أو ما يشابهها من علومٍ تتّصل بالعلاقةِ مع الإنسان بأيِّ حالٍ من الأحوال – تراهُ وهو يزهو بلقبهِ العلمي ويتباهى، فإذا تحدَّث سقط من عينيك، وإذا تصرّف هوى من تقديرك، ذلك لأنّه افتقدَ في العلمِ إلى أبجديات الأخلاقِ والأدب، فلا يمكنُ أن يرتفع قدرَ متعلّمٍ لا يقيم للأدب والخلقِ منزلة في نفسه وسلوكه. فأنت تحسبهُ المستمعَ الأريب غير أنّك تجده لا يطيقُ صبراً، ولا يتّسعُ صدراً. وأنت تحسبهُ المتحدّث الأريب فإذا تكلّم سخف من رأي الآخرين، وسفّه بهم، وساق لهم مما ترتضيهِ نفسه دون أن يكون بالضرورة متّسقاً مع سياق الموضوع المتداولِ طرحه ونقاشه. وأنت تحسبُه مقدّراً أثر الكلمة التي يتفوَّه بها، فإذا بك تجد الكلمات وقد خرجت من جوفه مطلقة العنان، غير آبهٍ بما تصيبهُ من مشاعر الآخرين.

وترى طبيباً فتحسبهُ راقياً في أسلوبهِ، رحيماً في تعامله، صبوراً في التعاطي مع مرضاهُ، لكنّك تجدُ منه الإعراض والتجاهل، فلا يحفلُ لك، ولا يلقي اهتماماً بك، وأنت تأملُ منه أن يحنو عليك، وأن تظفرَ بإنسانيته كي تفيضَ عليك بعضاً مما وهبه الله من العطفِ والرأفة. تذكرُ إحداهن أن طبيبةً صدمتها بكلامٍ مفجع عن إصابتها بمرضٍ خبيث. هكذا رمتها الطبيبة ولم تكن كلمةً ما رمت، إنّما رصاصةً أصابت القلبَ بهول الصّدمة. ثم بعد أسبوع جاءتها بالبرودِ ذاته لتقول لها إن الكشف قد أوضح أنّه ورمٌ حميد. وبين المشاعر الباردة أسبوعٌ من الآلام قاسية، وعذابات مؤلمة، وصراعات رهيبة. طبيبٌ آخر يطلُّ على مرضاه غير معتنٍ بمظهره ولا بجسده، فلا مظهره - بدءاً من القدم إلى الرأس - يدلُّ على مهنتهِ النظيفة، المرتّبة، ولا جسده غير المعتنى به يدلُّ على فهمه لمهنته، فكيف يشعرُ المريضُ بالإطمئنانِ وهو يرى طبيبه على هذه الحال؟

وترى المسؤول – في مختلف المراتبِ الوظيفية - فتحسبه ناضج الفكرِ، رزين الشخصيّةِ، يحدّثك عقلك بأنّه لم يصل لما وصل إليه من مستوى متقدّم إلاّ لكفاءةٍ فيه، لكن ما إن يُظهر لك الغرور، ويبين لك التعالي، ويكشفُ لك الاستخفاف حتى يهوي من عينيكَ. يذكر أحد الأصدقاء أن مديراً اتصل به وقد ظفر بخطأٍ – كما ظن - كان يتصيّده منه فقال له وهو يضحك ساخراً: "لقد وقعت في خطأٍ عظيم." ثم وجد هذا السّاخر نفسه في موقفٍ لا يُحسدُ عليهِ، حينما كان هو الواقعُ في (الخطأ العظيم)! وحدّثني آخر أن مستشاراً أراد النيلَ منه بتحميله خطأً إدارياً وكأنّما قد ظفر منه بكبوةِ الحصانِ. لكن تبيّن أن هذا المستشار هو الذي كان وراءَ الخطأ.

وترى الأستاذ الجامعي الحاملِ للشهادةِ العليا فتظنُّ – متعجّلاً - أن العلمَ عمامةٌ ولقب، ثم ما إن تكتشفَ أن سلوكه لا يتلاءم مع مرتبتهِ العلميّة، ولا منزلتهِ الأكاديميّة، حتى يفقد تقديرك له. يحكي طالبٌ جامعي عن أستاذه قائلاً: "أنّه لا يقيمُ وزناً ولا تقديراً للطالبِ، لكنّه يرخي الصوت ويبسطُ القسمات حينما تخاطبه طالبةٌ من طالباته." هل بهذا الأستاذ الجامعي ينهضُ جيل، وتُحفظُ أخلاق، وتصانُ فضائل؟ وأستاذٌ جامعيٌّ آخر يبحثُ في الأخلاقيات

والقيم لكنّه يثير الفتن والنعرات في عمله. وكم على شاكلتهم الكثير. وهنا يبرزُ الخلل بين المهنةِ وأخلاقياتها، تلك التي يرى ييمان (Yeaman، 2005)[1] أنها تنطلق من المعتقدات الدينية كأصول ثابتة تنطلق منها أخلاقيات المهنة، ويظل لها في ذات الوقت بعد ثقافي اجتماعي يفسح المجال لتنويعات تتجاوز الدساتير واللوائح وتضع في الاعتبار الآخر، الذي يتعامل معه صاحب المهنة. إذن، ما لم يكن الأساسُ قويّاً فلن يقوّم الإعوجاج في الأخلاق.

إن التوافق بين الاسم والفعل، بين المظهرِ والمضمون مسألةٌ جوهريّة، يقول المتنبي:

وما الحسنُ في وجهِ الفتى شرفاً له إذا لم يكن في فعلهِ والخلائقِ

ويقول المهاتما غاندي: "لا يستطيع الإنسان أن يقوم بفعل صحيح في جزءٍ من حياتهِ بينما هو مشغولٌ بفعلٍ خاطيءٍ في جزءٍ آخر. إن الحياةَ كلٌّ واحد لا يمكن تقسيمه." ويقول ستيفن كوفي، في كتابه، **العادة الثامنة من الفعالية إلى العظمة**: "إن كلاّ من الكفاءة والأخلاق ضروريّتان بالطّبع ولكن إحداهما من دون الأخرى غير كافية." وفي إحدى مؤسساتنا رشّح أحد الموظفين لمنصبٍ معيّن لدى أحد المسؤولين وذكر بأخلاقه، فقال المسؤول: لا تهمّني الأخلاق وإنّما الكفاءة. وقد أخطأ كثيراً في هذا الإعتقاد. وقد شهدتُ على أحدهم بالكفاءةِ في إحدى الجهات لكنّه مفتقرٌ إلى الأخلاقيات والمصيبةُ أنّه في وظيفةٍ توجبُ عليه التعامل مع آخرين من خارجِ جهةِ عمله. ونعود إلى ستيفن كوفي حين دوّن مقولةً للجنرال نورمان شوارزكوف يقول فيها: "لقد قابلت في الجيش كثيراً من القادة الأكفّاء الذين تنقصهم الأخلاق. كانوا لا يقومون بأي عملٍ جيّد في الجيش إلا من أجل ترقيةٍ أو جائزةٍ ما، من أجل أن يصعدوا على أكتاف الآخرين، من أجل قطعةٍ أخرى من الورق تمنحهم درجة أخرى تنقلهم خطوةً في الطريق إلى القمة. كما ترى

[1] Yeaman ، A. R. J. (2005): “ The Origins of Educational Technology isProfessional Ethics : Part Two – Establishing Professional Ethics in Education “ Tech Trends : Linking Research&Practice to Improve Learning، Vol. 49، No ،2 .PP. 14-17.

لقد كان هؤلاء الأشخاص أكفاء لكن تنقصهم الأخلاق، بالمقابل عرفت كثيراً من القادة الذي يتمتعون بأخلاق عالية ولكن تنقصهم الكفاءة، لم يكونوا مستعدّين لدفع ثمن القيادة، لقطع ميل إضافي، لأن هذا ما يتطلبه كونك قائداً عظيماً. لكي تقود في القرن الواحد والعشرين أنت بحاجةٍ إلى الأخلاق والكفاءةِ معاً." ونحن لا نتكلّم عن قدوةٍ وفينا معلّمنا الأوّل وأسوتنا رسول الله، ﷺ، فهو رأسُ المثلِ في الأخلاق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم/4 ، فهو الذي تأسّست شخصيّته على أعظم فضيلتين: الصدق والأمانة. وهو مضربُ المثلِ في الكفاءة وهو القائدُ الفذّ والإمامُ العدلُ، والمرشدُ المبين.

صحيحٌ أن الكمال لله ولا اعتراض، لكننا نتحدث عن روابط بديهيّة بين كفاءةٍ وخلق، مظهر ومخبر، مرتبةٍ وسلوك، مهنةٍ وأخلاقيات، يقول الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله- "على المسلم في كل ساعة من عمره أن يسعى نحو الكمال، وأن يحث المسير إلى الارتقاء المادي والنفسي فإن مستقبله عند الله مرتبط بالمرحلة التي يبلغها في تقدمه." والتوافق في الأسس الجوهريّة أمرٌ هامٌ يقاسُ به المرء، ويحكم عليه به لأنّها لوازم متّصلة، وعناصر مرتبطة.

رحماءُ بينهم

أُناسٍ تحسبهم من بني جلدتك، ومن جنسك، وممن يخالطونك، يستظلّون السماءِ التي تظلّك، ويتنسّمون الهواء الذي تتنسّم، همومك أقربُ إلى همومهم، ومشاعرك من نسيجِ مشاعرهم، وعاداتك من أصل عاداتهم، يقلقهم ما يقلقك، ويؤذيهم ما يؤذيك. لكن سرعان ما يكونُ لهم رؤوس الضواري، وأنيابُ الوحوش، وأظفار الجوارح إذا ما كانت في أيديهم مصلحةٌ تسعدك أو منفعة تسرّك. حينها تشفُّ أنفسهم عمّا يعتملُ في قلوبهم من أحقاد، فلمجرّد أمرٍ يسهلُ قضاؤه، يقلبون لك ظهر المحن، ويكدّسون لك العثرات، ويحيكون لك الأفخاخ كي تعيق طريقك، وتسقط تدبيرك، فتسأل نفسك: من هؤلاء؟ أليسوا من أهلي؟ أليسوا من وطني؟ أليسوا من البشر الذين يشبهونني، أليسوا ممن أخالطهم في المسجدِ، والسوقِ، والمجالسِ، والبيوت، والشوارع... فنفسي وأنفسهم سواء في الضراءِ والسرّاء؟ ألا يجمعنا الإسلام فيرقق قلب هذا على أخيه ذاك؟ وتستذكر قوله تعالى، وهو يصف"محمد رسول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ سورة الفتح /29. فتقولُ أولا يقتدي هؤلاءِ بأولئك العظماء؟ أوَ لسنا على النهجِ ذاته، والمظلّةِ ذاتها؟

ينتظرون في العملِ زلّةً منك، أو هفوة... بل عجباً تشاهدهم وهم يحطّمون مجاديفك، ويمزّقون أشرعتك، فتقولُ من هؤلاءِ؟ من أين أتوا؟ تكتشفُ أن شهيّة الافتراس كامنةٌ فيهم، فهم متربصون بك كي يفترسوك لأدنى عثرة. فتقول، من هم؟ لأي صنفٍ من البشرِ ينتمون؟

إن حبّ الأنا التي تطغى على هذا الصنف من النّاس ليجعلهم يرفعون من شأنهم، ويحطّون من قدرِ غيرهم، فلا يرون أمام أعينهم سوى ما يعرقل مصالح غيرهم. يقول ستيفن كوفي في كتابه، **العادة الثامنة**: "التكاتف الحقيقي حيث

الكل أفضل من مجموع الأجزاء. إن الناس الذين لا يعيشون وفقاً لضمائرهم لا يشعرون بهذا الإنسجام الداخلي وراحة البال، أولئك الأشخاص يجدون الأنا الخاصة بهم تحاول السيطرة على الآخرين باستمرار، وحتى لو تظاهروا باللطف والتعاطف من حين إلى آخر فإنهم سيمارسون أشكالاً خفيّةً من التحكم بالآخرين، وقد يذهبون إلى حدِّ الانخراط بسلوكٍ ظاهره اللطف لكنه ديكتاتوري في حقيقته." هذه هي حقيقة هؤلاء الناس مكشوفة حتى لو حاولوا إخفاءها فإن التجارب تبيّنها، وتفضحها.

وكم لي أتمنى أن يغادر التزّمت النفوس، وتنتشر الأريحيّة بين الناس، فلا تكونُ في معاملاتهم فظاظة، ولا تكون في علاقاتهم غلظة! إنّما يبتدرونك بالابتسامة الصافيةِ، الصادقة، فلا خير في وجهٍ كالحٍ حينما تراه تبتئس، وتسودُّ الدنيا في وجهك، فلا الابتسامة تعرف وجهتها إليه، ولا البشاشة تتلمس طريقها فيه. وجهٌ جامدُ القسمات، صلب الجلدِ لا يلين. أين هو من وجهِ من قال فيه الشاعر، زهير بن أبي سلمى:

تراه إذا ما جئته متهلّلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

إننا لنواجه بكثيرٍ من هذه الوجوه الكالحةُ، الجامدة في أعمالنا، في أسواقنا، في مناشطنا. الوجوه التي لا تستطيع حتى تصنّع الابتسامة، وكأن الأرض ضيّقةٌ على الآخرين، وواسعةٌ لها. الوجوه التي لا تبتدرك بالسلامِ، ولا بالكلامِ، ولا بالإبتسام... فظّةٌ، غليظةٌ. وإن الحياةَ تجمعنا بأناسٍ قلوبهم من الحجرِ لا تلين بل، ﴿ **وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ البقرة/74، فكيف لمسلمٍ يؤدي فرائضه لا يعرف الرحمةَ قلبه؟ وكيف بأسارير وجهه لا تنفرج؟ هل حرّم ديننا بشاشة القلوبِ والوجوهِ وهو دينُها. يقول ﷺ "تبسمك في وجه أخيك صدقة."رواه الترمذي، وقال عبد الله بن الحارث: "ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ."

وحينما تذهبُ لقضاءِ مصلحةٍ في دائرةٍ من الدوائر يواجهك بعض الموظفين ذوو الوجوه الجامدة، يقولون لك بفظاظة: نعم، ماذا تريد؟ أو يتجاهلونك فلا يلقون لك بالاً وكأنّك قد انتزعتَ منهم حقّاً، أو غصبتَ منهم مالاً، أو جئت تشحذ منهم نقداً. ويتكرّر صنف هؤلاءِ النّاسِ في المتاجرِ، في الشوارعِ، في مختلفِ المصالح... ألا يدري هؤلاء أن الخير في خدمة الناس؟ يقول ﷺ: "أحبُ الناس إلى الله أنفعهم للناس." ويقول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

أخبرني أحد الأصدقاء أنّهم ما كادوا أن ينتهوا من بناءِ منزلهم حتى تفاجئوا بإحدى المصالحِ تشرعُ في بناءِ مرفقٍ لغرضٍ من الأغراض غير مكترثةٍ بتشويهه لواجهةِ البيت، وإعاقته لدربه، وغير مستجيبةٍ لإلتماساتهم، ولكنّها بعد ذلك نقلت المرفق إستجابة لجهةٍ أُخرى قررت أن هناك متّسعاً لهذا المرفق بعيداً عن البيت. وأخبرني أحدهم أنّه تلقّى اللّومَ والتقريع من أحد الموظفين، ثم اكتشف لاحقاً بأن هذا الأخير كان يسعى من وراء تقريعه للحصولِ على مكسبٍ شخصي.

إن خدمةُ الناس من أسمى الأخلاقِ، فكيف بها تكون عند أُناسٍ مما يستبدّون به على الخلقِ، ومما يزيدهم نفوذاً عليهم، وتحكّماً في شؤونهم؟ وإنني لأشاهدُ في الغربِ كثيراً من السماحةِ في التعاملِ، واللطفِ في الكلام لصاحبِ حاجةٍ يدخلُ مؤسسةً من المؤسسات، فأتمنى أن تعمَّ مؤسساتنا هذه المعاملة: أن يعامل الموظفُ المراجعَ بلطفٍ وسماحةٍ، فليس هو أفضلُ منه في شيءٍ، بل هو مستأمنٌ لقضاءِ حاجته، ومكلّفٌ بخدمته، ويعامل البائع المشتري وهو منشرُح الوجهِ، سموح.. أقول أتمنى ذلك لأن "الدين المعاملة" ولأنني أحسبُ أن المسلم سَمْحٌ في تعاملهِ، كيف لا وقد رقّق الإسلام طبعه، وألانَ بأسه. ولكني أرى أن الغلَّ استفحل في بعض النّاسِ، فأوحشَ قلوبَهم، وزادها قسوةً وجفوةً على إخوانهم، وليت هؤلاء ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الحشر/ 10.

إن الغلّ داء، وما لم يترفّع الإنسانُ بخلقهِ، ويدرّب نفسه على الإحسان للناسِ فلن يغادر الغلُّ قلبه بل يزداد وحشةً وقتامة، وحينها لن تقوم للمجتمعاتِ قائمة، ولا توحّدُ الناسَ غاية.

اللباس بين الذوق والهويَّة

اللباس رمزُ هويَّةٍ، ودليلُ ثقافةٍ، ومؤشِّرُ فكرٍ، ومتمّمُ عاداتٍ، هو ما توسمُ به مجتمعاتٌ، وتعرفُ بواسطته شعوبٌ، فهو الدّالُ على خصوصيتها، والكاشفُ الأوّلُ عن انتمائها، وهو سترٌ للإنسانِ، وزينةٌ له: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف/32)،ولهذا كانت أهميَّتهُ ذات قيمةٍ كبرى إلاّ أنّه لم يحظَ بقدرٍ كبيرٍ من الكتابةِ عنه وحوله. تركَ اللِّباسُ إمّا رهناً على "تيّار الموضةِ" أو تماشياً مع العاداتِ والتقاليد. وبين هذا وذاك قليلةٌ هي الجهود التي تبحثُ في مسألةِ اللِّباس لأنّه مسألةٌ حسّاسّةٌ من الصّعبِ الاقتراب منها في نظر بعضهم عليها إلاّ إن كان القولُ فيها نصحاً بالحشمةِ والعفَّة دون تفصيل. ولكن كيف تتحقّقُ الحشمةُ والعفَّةُ من خلال اللِّباس؟ من المنظور الفقهي، اللّباس يجب أن يستر الجسد دون أن يصفه أو يحدِّد تفاصيله، أو يشفّ عمّا تحته، ولا يكون زينةً في ذاتهِ بحيثُ لا يمثّل خروجاً على الزيِّ السائد في المجتمع.(مع أن الخروج تجديداً وتطويراً ليس فيه ضرر، فقد تغيّر بعض اللباس لدينا نحو الأفضل).

إنّما سادت في مجتمعنا بعضُ التباساتٍ في الذوقِ ومخالفاتٍ في السلوك تنمُّ عن خلطٍ فهمٍ في أثر اللّباس في الشّخصية. وقد وجدتُ ذلك في الرِّجال وفي النِّساء. فالحشمةُ والسِّتر أمر، والزينةُ والتأنُّق وبينها والإسرافُ والإبتذالِ أمر آخر، والمواءمةُ بين اللبس والغايةِ أمر ثالث، وبين اللباس والعمر أمرٌ رابع. فمن الرِجال من خلط الأمورَ حتى استخفَّ بما يلبس، ونظر إليه على أنّ كل لبسٍ يستوي مع ذوقه فله مطلقُ الحريّةِ في لبسهِ دون اعتبار للحياءِ وهذه مخالفة أخلاقية. ونظر إليه على أن كل لبسٍ ساترٍ مقبول ومحقّق للغاية. وهذا الكلامُ وإن خالطه

الصدق فإن مسألةَ التمييز في ما يلبس الرّجلُ هي مسألةٌ هامَّة. فبعضُ الرّجالِ يصلِّي في المساجدِ بملابسِ النوم. وبعضهم يرتاد الأسواق بهذا الصنِّفِ من الملابس. وهي ملابسٌ كثيرٌ منها يشفُّ عن الجسدِ، ويُحسرُ عن الصدر. حتى الساترُ منها فإني أرى أنّه من غير اللّائقِ على الرّجلِ (أو المرأةِ على سواء) أن يرتادَ المساجدَ بها تخفُّفاً أو تكاسلاً، أمّا إذا ذهبَ لموعدٍ فسيلبسُ أفضل ما عنده من اللباس، وسيتضوّعُ بأغلى ما لديهِ من عطور. كيف ذلك والله تعالى يقول: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ (الأعراف/31).

ولا أرى أنّه يليقُ بالرّجل أن يجول في الأسواق بملابسَ يعودُ لاحقاً لينامَ بها. إنّه هنا لا يضيفُ شيئاً إلى شخصه فهو متمسّكٌ بمظهرِهِ خارجَ بيتهِ وداخله وبالتالي لا يغيِّر من نظر القريبين منه. فالرّجلُ إن استبدلَ ملابسَ البيت التي يتخفَّفُ بها ليمضي خارجه، فلبس من الملابس ما يتلاءمُ مع طبيعةِ المكانِ الذي يقصده كبرُ ذلك عند أهله وعند من يراه. وفي هذا قابلتُ رجلاً أعرفه يتسوَّقُ بملابسَ نومهِ فرأيتُ أنّه قد أتى بأمر لا يستحسنُ منه، ولا يضيفُ إجلالاً إلى شخصيته بل ينقصُ منها، فاللّباسُ جزءٌ من المظهرِ العام. ومنذ أيام قرأتُ أن فرعاً تابعاً لأحد المحلاّت الكبرى المعروفة في مدينةِ كارديف بالمملكةِ المتحدة وضع لافتةً تنصُّ على عدم السماح للزبائن بالتسوِّق بالبيجاما Pyjama لأنَّ لبسها يشكّل إساءة للآخرين ويخدش حياءهم. وعلى الرّغم من اعتراضات بعضِهم على ذلك إلاّ أنّه في نظري قرارٌ ينمُّ على تقديرِ مشاعر الآخرين بالرّغم من أنّ الفرع سيفقد بعض زبائنه لصالحِ أسواقٍ أُخرى. فكيف حالنا ونحن نرى بعض الشباب أو الرجال وهو يتسوَّقون ببناطيلَ قصيرة لا تسترُ ركبهم؟ وإذا كان لمناسبات الأفراحِ أو الأتراحِ لباسها فإن بعض الرجالِ قد خلطَ بين الإثنين. فلا تراهم يلتزمون بالوجهِ العام للباس السائدِ هنا أو هناك. كما أن بعضهم لا يميّزُ بين الألوان التي توائمُ نهاره أو ليلهِ، فيلبسُ الغامق في رابعةِ النهار، والفاتح في حلكةِ الظلام. وبعض الرّجال وإن لبس زيّه التقليدي إلاّ أنّه لا يُحسنُ اختيار ثوبهِ فتراهُ رقيقاً لا يتناسبُ مع هيئته، حيث تضيعُ شخصيّته لما يضيفه الثوبُ على هيئته

العامة من نعومة. ولا يوفّق إلى اختيار نوعيّة القماش فتراه مشعاً، ساطع اللّون كأنّه الحرير. ولا يحسنُ كذلك مقياس طول ثوبه، فيتركه سادراً، يجرّه خلفه، ويتعثّر به. ناهيكم عمّا يتشبّه به بعض الشباب من لبسٍ لا يلائمُ الرّجلَ، فإن رأيتَ الفتى من خلفه حسبتهُ فتاة بسبب لباسهِ ولربّما أضاف من (الزوائدِ) حتى ليدفعك فضولك لكشفِ جنسه كي تضطرَّ إلى تمعِّن وجهه، مجادلاً أصحابك لأيّ جنسٍ ينتمي. وقد تلوي بوجهك عنه وتدبر وأنت تحمل السؤال: أهو فتى أم فتاة؟

إن الرّجلَ إن لم يكن اللّباس له تعبيرٌ عن الرجولةِ، وجديّتها في مواضع تتطلّب ذلك أنقص من قيمتهِ، وأبخس من قدره عند الناس. فالوعي بقيمةِ اللّبس ومدى توافقه مع العمر وتواؤمه مع مختلفِ المناسبات هو أمرٌ له أهميته. يقول أحدهم: ذهبتُ ذات مرّة إلى مناسبةِ عقدِ قران في إحدى القرى دون أن ألبس العمامة (المصر) وقد حسبتُ أنني سأنتبذُ ركناً في المسجدِ أو المجلسِ دون أن ألفت نظر الكثيرين كما يحدث في مثل هذه المناسبات فإذا بي أتفاجأ بأن عليَّ أن أصافح جميع من في المجلسِ كما يحدثُ في مناسبات العزاءِ وكان من بين هؤلاء الكثيرين ممن يعرفونني فعاهدتُ نفسي بعدها ألا أذهب لمناسبةٍ فيها حشدٌ من الخلقِ دون عمامة. ويقولُ آخر: إنني أفكّر كثيراً في ما ألبس ليس فقط حينما أزور بعض الناس إنما حين أستقبلهم في بيتي. فكيف هو حال بعض الناس الذين لا يقيمون وزناً للباسهم حينما يزورهم زائر في بيوتهم؟ وحدثنا أحدهم أنّه منذ سنوات زار أجنبيّاً قبل الموعد بدقائق فدق عليه الباب فخرج المضيفُ الأجنبي بملابس الاستحمام وقال لهم بلهجةٍ صارمة: موعدكم الساعة الخامسة وأغلق الباب في وجوههم، يقول وظللنا ننتظره حتى حانت الخامسة ففتح الباب لنا وهو متهيئ لاستقبالنا ببدلتهِ الرّسمية.

إنني أستغربُ من بعض الرّجالِ في المقابلِ لا يقبلون التغيير في لباسهم شكلاً ولوناً في محافل مختلفة، ومناسبات متنوعة فتراهم متمسّكين بما ورثوه، وإن كان بعض ما ورثوه عائداً لضرورات أملاه الزمن الفائتِ وظروفه، فإن هذا الزّمن والتقدم فيه أتاحا التغيير لما هو أفضل وأسترُ للجسد. ولا يريدون التغيير

حتى وهم يمارسون مهنهم التي يكون لباسها المتعارف عليه أدعى وأجدى من اللباس التقليدي، وقد ورد في موقع الإسلام سؤال وجواب قول مجموعة من الفقهاء "فلا نرى أن لباس الرياضيين – إذا كان ساترا للعورة – أو لباس "البدلة الإفرنجية"، أو خروج الرجل حاسر الرأس أو اللباس الخاص بأصحاب المهن والحرف المعينة، كلباس الأطباء ولباس القضاة ولباس العمال ونحو ذلك: مِن الشهرة المذمومة، فهي لا تحمل معنى الشهرة أصلا، لا من حيث الإسراف والخيلاء، ولا من حيث مخالفة المجتمع." ومن الناس من يرى أنّه لا يُحسنُ إلى اسمه وشخصيته، ومنهم من لا يُحسن إلى الجهةَ التي يعملُ بها في طريقةِ لباسه يقول ريتشارد تمبلر Richard Templar في كتابه، قوانين العمل، The Rules of Work: "لقد شهدت مقابلات لوظائف في الإدارة العليا، حين يأتي بعض المتقدمين ببزة مهترئة و قمصانٍ أو بلوزات غير مكويّة، وحذاءٍ غير ملمّع وشعر غير ممشّط. لا يمكن لي أن أوظِّف هؤلاء."

أمّا لبسُ النساءِ فهو بابٌ له أوّلٌ وليس له آخر. إنّما الحديثُ هنا عن المبتدعات غير الحسنةِ في اللّباس، هذا الذي يعني للمرأةِ حُسناً، وتجمُّلاً، وفتنة... أو تبذُّلاً وانحلالاً وسفور. فاللِّباسُ للمرأةِ – كما يفترضُ – ساترٌ لعفّتها، صائنٌ لأنوثتها، متمّمٌ لخَلْقها وخُلُقها. ومع أن اللّباس الساترَ يستعملُ في بعض الأحيان لإخفاء نوايا سيئّة، وسترِ نزواتٍ غير عفيفة. ونرى ذلك في مناسباتٍ مختلفة. وهؤلاء لسن إلاّ من قبيل النساءِ اللّواتي أقبلن على شراء الخمار حين استنجد تاجر بصديقه الشاعر ربيعة بن عامر الدارمي التميمي المشهور بلقب مسكين الدارمي، كي ينظم له أبياتاً تسهّل عليه تجارة ما كسد من سلعة الخُمر فقال:

قل للمليحة في الخمار الأسود ... ماذا فعلتِ بزاهد متعبد

قد كان شمّر للصلاة ثيابه ... حتى خطرت له بباب المسجد

وكما كان الترويج للخمار بقصدٍ تجاري كان كذلك القصد للقميص الأحمر في قصيدة إلياس بن عبد الله، الذي اشتهر باسم أبي الفضل الوليد، الذي عاش بين 1886 ـ 1941م:

قــل للمليحــة في الحريــر الأحمــر مـــاذا فعلـــت بـــشاعر متكـــبر

إنّما يبقى الحكم العام على أن اللّباس المحتشمِ هو ما يسترُ الجسدَ، ولا يظهرُ التقاسيم، ولا يشفُّ عما تحته. في حين أن زينته غير المسرفةِ لا تخلُّ به، إلاّ أننا نشاهدُ أن من الفتيات أو النساء من جعل اللّباس خادشاً للحياءِ، ومهيناً للحشمة، فإن لبست العباءة فإنّها إمّا أن تفصّل أجزاء جسدها، أو تشفُّ عما تحتها. فما غرضُ لبسها إذن إن لم تستر؟ وإن لبست ملبوساً آخر علق بجسدها حتى كاد أن يلتصق به. هذا قد يعني اختراق حدود الأدب والعفّة مع الاحتفاظ بـ"الأيقونة" التي فرضها المجتمع وهي "العباءة السوداء". فمن قصدت إلى إبراز جسدها فتنةً وجاذبيّةً وإثارةً فهي ممن شملهن الحديث الشريف - إلاّ من هدى اللّه ورحم - في قول النبي، ﷺ: "صنفان من أهل النار من أمتي لم أرهما بعد: نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، على رءوسهن مثل أسنمة البخت، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، ورجال معهم سياط مثل أذناب البقر يضربون بها عباد اللّه." رواه مسلم.

الغريبُ أن بعض الرّجالِ أو النساء يلبسونُ أفضل ما عندهم من ثيابٍ إذا خرجوا من بيوتهم فإن عادوا إليها لبسوا أوضع وأقدمَ ما عندهم من اللّباس. وكأنّهم يقصدون إلى القول بأن المظهرَ الأجمل والأفضل هو ما يجب أن يرانا عليه الآخرون، ولذلك فكم اغترَّ رجلٌ بامرأة تتأنّقُ في لبسها فأعجب بها حتى إذا اقترنا وجدها لا تلقي بالاً للباسها داخل المنزل. وكم أعجبت امرأة بمظهرِ رجلٍ وحسن توفيقه في لباسه حتى إذا اقترنت به وجدته أضعفُ الخلق ترتيباً وتنظيماً واهتماماً بمظهره داخل بيته. وهنا مردُّ الكثير من المشكلات الأسريّة، وسببٌ من أسبابِ خرابها. وهذا لا يتعارض مع تخفّف المرء في بيته إنّما لا يكون التّخفّف على حساب حسن المظهرِ عند الزّوجِ أو الزوجة بل يكون البيتُ أوجبُ للتجمُّل والتحسُّن حتى تستقرَّ القلوب وتأتلف، وتهدأ النوازع وتطمئن.

للمرء أن يلبس ما شاء بشرطِ أن يتّزن في لباسه ويعتدل فالنبي، ﷺ يقول: "كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ." رواه النسائي. اللباس هو زينةُ الرجل والمرأة وسترهما ودليلُ ذوقهما، وعلامةُ شخصيتهما، فإن خرق اللباسُ

آدابَ العفّةِ أخلَّ بمقصدِ السِّتر، وانحرف نحو الإثارة المأثومة، وإن بالغَ وأفرط أخلّ بالإعتدالِ والإتّزان الذي يرتضيه الدّين، وهذا يُقارنُ بما يلبسهُ عموم المجتمع، مع أن التجديد والتغيير في ما لا يُدني فضيلة، ولا يخدشُ خُلقاً هو أمرٌ حسنٌ دون إفراط وإسراف.

شريكة الحياة

ما كاد الشّابُ الغرُّ، حديثِ الزوّاجِ أن يُنهي الجلبةَ والصريخَ في وجهِ زوجتهِ أمامَ النّاسِ في محلٍّ من المحلاّت، متهماً إيّاها بقلّةِ الذَّوق، والبطءِ في الاختيارِ، والتلكّؤِ في القرارِ، وكلُّ واحدٍ منّا يُلقي السمعَ وهو شهيدٌ على عنجهيَّتهِ، وانفلاتهِ من قيودِ الرجولةِ التي يحسبُ واهماً أنّه يشهرُ سيوفها الصقيلة، أقول ما كاد ينتهي من صخبهِ هذا بعد انسحاب زوجته الفتاة البضَّة، الصغيرةَ حتى استدرتُ إليهِ بعد أن سمعته يبرِّر لعامل المحلِّ الآسيويِّ (فعله الرجولي الواهم) لعلَّ هذا العامل يمنحهُ شهادةَ رجولةٍ، ومروءةٍ، وشهامةٍ يستحقّها على ما أجرمَ في حقِّ زوجته... استدرتُ إليهِ بعد أن شعرتُ بغصَّةٍ في نفسي، ودموعٍ تترقرقُ في المحاجرِ إشفاقاً على إنسانةٍ جُرحت مشاعرها أمامَ النّاسِ من زوجٍ لا يعرفُ من أُسس الزواجِ أبسطَ القيم... استدرتُ إليهِ وقلتُ له غاضباً: أتحسبها رجولةً أن تصرخ في وجه زوجتكَ الصغيرةَ أمامَ النّاس لتجعلها تمضي وهي تجرُّ حسراتِ مصاحبتك؟ أهي الرجولةُ التي تقتضي منك ذلك؟ لا والله فـ "ليس الشديدُ بالصرعةِ، إنّما الشديدُ من يمسكُ نفسه عند الغضب." كما جاء في الحديثِ الشريف. قال لي بعد أن صدمه الكلام، وتكسّرت أجنحته: صحيح، لكنها منذ وقتٍ طويلٍ هنا ولم تختر شيئاً. قلتُ له: المرأةُ في ما يخصُّ الذَّوق هي أحسنُ مني ومنك. هي مخلوقٌ لطيفٌ، تنتقي الأشياء الرقيقة التي تنسجمُ مع غيرها في أُلفةٍ متناغمه، وهي إنما قضت هذا الوقت الطويل لتختار المناسب لبيتها. أوَ لستَ حديثَ الزواج؟ قال: نعم. قلتُ له: أتهون عليك زوجتك أن تبخسَ من قدرها عند عامّةِ النّاس. وتتركها منسحبةً وهي تكفكفُ دمعها. اسمع نصيحتي، هذه الأشياءُ لا تساوي شيئاً أمام قدر زوجتك. اترك كلَّ شيءٍ وراءك واذهب لطلبِ الغفران والمسامحةِ واسألها الرِّضا عنك. فانسحب مستجيباً، وما هي إلاّ لحظاتٍ حتى مررتُ عليه يتحدَّث مع زوجته وقد لوحتُ إليه مسلِّماً.

هذه قصّةٌ واقعيّةٌ تتكرّر – على قلّتها أو لأقل على ندرةٍ شهادتنا عليها – وهي لا تقتصرُ على الفتيانِ، حديثي العهدِ بالزواجِ، وإنّما على الكبار، الذين يُحسبون في عداد الناضجين على الأقلِّ عمرياً. وهي دلالةٌ على أن الكثير من المتزوجين لا يفقهون التعامل مع المرأةِ، ولا كيفية التعاطي مع أحوالها المختلفةِ، وعواطفها المتبدِّلةِ، وأذواقها المتجدِّدة. يريدون منها أن تبقى أنيقةً، رشيقةً، جميلةً، لكنّهم يبخلون عليها بكلمةٍ أو بمال. يريدون منها أن تكون طيّعةً، سهلةَ القيادِ، مستجيبةً، لكنّهم يبخسونها لطفَ الكلامِ، ويحرمونها من الاستشارةِ. يريدون منها أن تحفظَ أموالهم وبيوتهم وهم يرتعون في الخارجِ ويمرحون. يريدون منها أن تصون أسرارهم وتحفظَ شؤونهم وهم يفضحون خصوصياتهم، ويجاهرون بها، مجاهرةَ المصرّحِ بغيرِ حياء. أخبرني صديق أنّه كان ينتظرُ دوره في أحد صالونات التزيين، فسمع أحدهم يتحدّثُ بكلامٍ لا يليقُ عن أهلِ بيتهِ فذلك هو ما عناه الحديث الشريف في قول النبي، ﷺ: "إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه (أي يصل إليها بالمباشرة فتصل إليه) ثم ينشر سرها." أخرجه مسلم.

كم سمع النّاس ما يصدرُ من الرّجالِ من ألفاظٍ ساخطةٍ، غاضبةٍ على زوجاتهم وهم على ذلك شهود، وهم يدّعون الإيمان، ويتباهون بدينهم العظيم، في حين أن رسولنا الأعظم، ﷺ، أوصى النّاس في خطبة الوداع فقال: "اتقوا الله في النساء فإنّهم عوانٌ عندكم – أي أسيرات." لكن بعض الرّجال يمارسون سياسةَ السجّانِ لأسيرتهِ، فينطلقُ حيثما شاءَ وهي مقيّدةٌ بين الحيطانِ، ويمعنون في الإذلالِ. أقولُ هذا ونحن في عصر انتشر فيه العلم، وعمّ الوعي، لكن هيهات أن يؤثرا في بعضِ أصحابِ العقولِ وإن كان بعضهم ممن يلقون المحاضرات، وينصحون النّاس، ويدرّسون الأجيال، فقد خفت في صدورهم نورُ اليقين، وضعف صوت الضمير. تقول إحدى النساء: "كنت في إحدى مراكزِ التسوّق، فأردتُ أن أعبر في إحدى الممرات، فإذا بامرأة تتسوَّقُ تسدُّ الطريقَ، ولم أكد أستأذنُ منها حتى صاحَ بها زوجها بغلظةٍ آمراً: أفسحي الطريق للمرأةِ. تضيفُ: فعبرتُ وقد أصابني خجلٌ وإشفاقٌ مما أصابَ المرأةَ."

نعم قافلةُ الزواجِ تترى، وعددُ المتزوجين كثرٌ ولكن أيّهم يعي قيمةُ الزواجِ، وطرق التعاملِ مع المرأةِ، وسبُل اتخاذ القرار، وأساليبِ امتلاك قلبها؟ وإذا كنتُ أركّز الحديثَ على الرّجل دون المرأةِ، فإنني لا أغفلُ دور المرأةِ في إصلاحِ الرّجل، على أنني أرى أن الرجل وهو من يملكُ عصمةَ المرأةِ، والقوامةُ عليها. هو مدرسةٌ للمرأةِ تتعلّم فيها، ولهذا وجب أن يكون القيِّم على كفاءةٍ للقيام بواجبات القوامةِ على أكملِ وجه. فكم من امرأة اكتشفت أنها تزوّجت ممن وصفته لاحقاً بأنه طفلٌ ساذجٌ لسخافةِ عقلهِ، وضعف شخصيّته. وكم من امرأة وجدت نفسها رهينةَ منزلٍ يغيبُ عنه الزوجُ معظم الوقتِ لا لقضاءِ مصالح الأسرةِ ولكن لـ"قتل الفراغ" الذي يعانيهِ بين أروقةِ البيت. يخلِّفها تردّد أبيات بنت جنسها رهينة البيت قائلةً:

تطاول هذا الليل وازورَّ جانبه وأرّقني أن لا ضجيع ألاعبه

ألاعبه طوراً وطوراً كأنما بدا قمراً في ظلمة الليل حاجبه

يسرُّ به من كان يلهو بقربه لطيف الحشا لا يحتويه أقاربه

وكم من امرأة رأت أن لا دور لها في شأن أسرتها، فلا رأي ولا مشورة لها! وكم من امرأة ذهبت ضحيةَ غيرةٍ مفرطةٍ غير سويّةٍ لمجرّدِ شكٍّ يساورُ الزوجَ..! وكم من امرأة يريد لها بعلها أن تتزيّن له وهو لا يعرفُ التزيُّن لها، تراه وقد أهملَ حاله، وأخلَّ بواجبات زينته، وترك حسن هيئته، ثم هو يلوم زوجته على تفريطها في إهمال زينتها. تقول إحدى الزوجات: "لمَّا رأيت من زوجي إغفالاً للبسٍ ألبسه، أو زينةٍ أتزيّن بها، لا يختلف الأمرُ معه، تركتُ الزينةَ، وأهملتُ نفسي." كم من امرأة تعدُّ العدّة للاحتفالِ بمناسبة الزواج، والزوج في غفلةٍ وإهمال متكرّر. تقول إحدى الزوجات: كنت أدّخرُ بعض المصاريف لشراءِ هديّةٍ لهذه المناسبة، لكنّ وجدت أن الأمر سيّان عنده، فأصبحتُ لا أُعير المناسبة اهتماماً يُذكر. أنّى للمرأةِ، إذن، أن تكونَ شريكةً وحبيبةً لها من الحقوق وعليها من الواجبات إن لم يخلق الرجل الأجواءَ الصحيّة المهيّأةِ للتوازنِ والعدالة؟ يشتكي بعضهم من زوجاتهم، والخطأ الذي يخفونه في صدورهم راجعٌ إليهم، لكنَّ العزّة الأثيمة هي

الحائلُ دون الاعتراف بالخطأ. إنّهم يريدون من المرأةِ الإذعانَ لهم وإن كانوا في ضلالٍ مبين. لقد ضعف لديهم الوازع الديني الصريح الذي يجعلهم في منزلةِ إدراك الأمر الإلهي، ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ البقرة/228، وبهذا تقاسُ الحقوق والواجبات وبه يُحتجّ، كما فعل ذلك ابن عباس حين قال: "إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة، لأن الله يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾.

إن من أوقع الأقوال والنصائح على المسلم مقولةً قالها النبي، ﷺ، محذّراً وناصحاً: "خيركم، خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي." فإن اتبعها فقد اتبع سنّة نبيّه، وإن حاد عنها حاد عن السنَّةِ في هذا المضمار.

لا خير في رجلٍ ينتقصُ من قدرِ امرأته، فلا يرعوي من أن يمعنَ في إذلالها، ولا يتردّد في تجريحها، ولا يحفظُ لها حقاً، ولا يصونُ لها كرامة، وهي مخلوقٌ له في الحياةِ مثلما للرجلِ. فكم أستاء حين أسمع رجلاً يأمرُ زوجته أمراً، ولكم أشعرُ بالحسرةِ حين أسمعُ من يشمّت زوجته علناً، وكم أتذمّر حين يذكر رجلٌ زوجته بما لا يدلُّ على حسن العشرة! إن المرأة إن لم تجد في الرجلِ ظلاًّ ظليلاً، وحصناً حصيناً، وصدراً واسعاً، وقلباً كبيراً، ولساناً مهذباً، وسلوكاً قويماً، وحسّاً رفيعاً، وعقلاً راجحاً، وشخصاً رزيناً، فقدت فيه معاني الرحمةَ والسكينة والمودّة وتلك هي معايير الزواج الناجح، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الروم/21.

ضمائر مكبوتة

الضمير: السرِّ الخفي، الكنزُ الدّفين، البستان الرائع، الكلمةُ الطيِّبةُ في دواخلنا، كلمةُ الفصلِ في أعماقنا، تلك الشعلةُ الوضيئة التي تنيرُ حياتنا. وحين سمعتُ ما قيل عنه إنّه "ظلُّ الله في الأرض." علق هذا الوصفُ في نفسي سنواتٍ وسنوات لا يغيب. وقيل عنه إنّه "صوت الله في الأرض." آلا ما أكرمَ هذا الملهم، وما أحسنه فضلاً!

إن أوّل ما يقولُه النّاس عن إنسانٍ تخلّى عن الأخلاقِ الفاضلةِ، والمشاعرِ اللطيفة إنّ "ضميرهُ ميِّت." وأصحابُ الضمائر المكبوتةِ لا (الميِّتةِ) لأن الضمائر لا تموت وإن خرست أصوات أصحابها، هؤلاء كُثرٌ وهم أصنافٌ وألوانٌ وأجناس. ولهم هاهنا ذكرٌ، علّهم يرفعون الحُجُب عن ضمائرهم، ويستشرفون بها الحياة السعيدةَ التي تتحقّق بتحقيق السعادة للآخرين.

أصحابُ الضمائر المكبوتةِ يحومون حولنا وكأنّهم الزمهرير ذو اللّهب الحارق! تقولُ سوزانا ويسلي: "كل فعل يضعف تفكيرك المنطقي ويخدر ضميرك ويحجبك عن الخالق ويحرمك تذوق اللّذات الروحية هو خطيئة، مهما بدا هذا الفعل بريئاً بحدِّ ذاته."[1] إنما أصحابُ الضمائر المحجوبة يرون اللّذات في الانتقام من الآخرين وبناءِ الصروحِ على أكتافهم أو أنقاضهم، وهدم سعادتهم، وحرقِ آمالهم، والإطاحةِ بطموحاتهم، وهؤلاءِ ساعون إلى غاياتهم على طريقة ماكيافيلي "الغاية تحقق الوسيلة". هؤلاء الذين يريدون أن يصلوا إلى غاياتهم بأيّةِ وسيلةٍ كانت، هؤلاءِ الذين يريدون تحقيق الغنى بلا عمل، والشرف بلا أساس، والعلم بلا تعلُّم، والسعادة بلا شعور، والمعرفة بلا أخلاق، والعمل بلا فضيلة،

[1] من كتاب ستيفن كوفي "العادة الثامنة ، من الفعالية إلى العظمة"

والتجارة بلا إنصاف، والعبادة بلا معنى، والسياسة بلا مبدأ، والمنصبَ بلا استحقاق، والأخذَ بلا عطاء، والطّاعة بلا حب. هؤلاء يدمّرون حياتهم وينتهون إلى الشقاءِ وإن خدعوا أنفسهم بالسّعادة، وأوهموها بالرضا الداخلي، وما الرّضا الداخلي إلاّ ستارةٌ سميكةٌ تحجب البصيرةَ عن رؤية الحقيقة. تقول نازك الملائكة:

فإذا أخمدوا هتافات مظلوم فما يخمدون صوت الضمير

ذلك الراقب الإلهيّ في النفس لسان الهدى وصوت الشعور.

وهم مكشوفون للعقلاءِ النبهاء "وفي الوجه عما في الضمير مترجم،" كما يقولُ أبومسلم البهلاني. ولقد شهدنا وسمعنا ومررنا على تجارب وقصص لأصحاب الضمائرِ المكبوتةِ فهذا إنسانٌ يخون ضميره بخيانة وطنه الذي استحلبَ شهده، وشرب حليبه، وطعم فضله. وذلك رجلٌ يخونُ ضميرهُ بخيانةِ إيمانهِ، وعلاقته بزوجته وأهله، حين يسلكُ طريقاً ينحرفُ به عن جادّة الأخلاق والفضيلة والإمعان في الرذيلة. وتلك امرأة تخونُ ضميرها ولا تستمع لناصحٍ ينصحها كي تستقيمَ وتعود إلى طريق الرّشد لكنّها تمضي في غيِّها غير عابئةٍ إلى النصح وغير هيّابةٍ من الخطيئة. فكيف لرجلٍ خائنٍ وامرأة خائنةٍ أن يعود هذا وتعود تلك إلى سقفٍ يظلّهما بأناسٍ أسلموا لهما الثقةِ، ورأوا فيهما المثال؟ وكيف لهذا وتلك أن تخرج من بينهما ذريّة يراد أن تكون صالحة؟ إنّه الضمير الذي انطفأت شمعته في نفسيهما. يقول جورج واشنطن: "جاهد لكي تبقى حيّةً تلك الشعلة الإلهية الصغيرة الكامنة في داخلك، الضمير!"

وحينما يحجبُ صاحبِ سلطةٍ صوت الضمير يفعلُ الأفاعيلَ بحجّةِ تحقيقِ الإسعادِ، ويستبدُّ بمن يظنّهم يخدمون مصالحه، ويحقّقون مآربه وهو في الحقيقةِ فاقدٌ للانسجام الداخلي في نفسه، ولهذا فقدَ الفطنةَ والتبصّر اللّذين يلهمانه الشعور بالأخرين، والإحساسِ بأمانةِ المسؤولية التي تصبح رهن أنانيّته، وقيدَ متعتهِ، ووسيلةَ وجوده، وغاية مطمحه، وميدان سفاهته، وملهى حماقته... لسان حاله يقول ما قاله الشاعر أحمد مطر:

ويقولون ضميري ميتٌ!

كيف يصير؟

هل أتاهم خبرٌ عما بنفسي

أم هم الله الخبير؟

كذبوا... فالله يدري أنني من بدء عمري لم يكن عندي ضمير.

وحين يحجب ربُّ أسرةٍ صوت ضميره فإنّه لا يرى في أهلهِ سوى عشيرةٍ من الرعاعِ تساقُ بالعصا، وجنودٌ مجنّدةٌ، مخلوقةٌ لأجلِه، منزوعةُ الصلاحيات، فاقدةُ القدرات، تتساوى عنده بما يلقيه لها من الفتات. وحينما يُخرسُ تاجرٌ صوت ضميره فإنّه يغشُّ دون رادعٍ من ضمير، ويبخس دون أدنى قدرٍ من إنصاف. وحينما يسكتُ مهندسٌ صوت ضميره فإنّه يقيمُ مشاريع دون قواعد، ويبني صروحاً دون أركان. وحينما يسترُ صاحب منصبٍ صوت ضميره فإنّه يرى الآخرين مصدر أذيّةٍ وتهديد، فتخوّل له نفسه إلحاق الأذى بهم وإقصاءهم واحتقارهم، يعجبه منهم ما يروق نفسه، ويسعده منهم ما ينسجم مع مصالحه، أمّا ما دون ذلك فهم تافهون في نظره لا يستحقّون منه نظرةً عطفٍ وسخاء، ولا كلمة تقدير وثناء. وفي النّاس من يحيون لا همَّ لهم سوى الكيد للآخرين، أهالوا على ضمائرهم التراب كي لا توقظ أنفسهم، وتحرّك مشاعرهم، وتنبّههم إلى سوء العواقب. أصحابُ أنفسٍ خربةٍ، قصيرةُ النظرِ لا ترى الحياةَ إلاّ من منظورها الضيّق.

كلُّ هؤلاءِ يحجبون صوت الضمير عن أنفسهم لأن الضمير هو، كما يقول ستيفن كوفي، "الشعور الأخلاقي الداخلي بالصواب والخطأ، إنّه الشعور الذي يدفع الإنسان إلى أن يعيش حياةً ذات معنى يقدّم فيها مساهمةً مهمّة." فهم لا يريدون أن يشعروا بالخطأ ولا أن يقدّموا مساهمةً مهمّة. لا يريدون أن يتلقّوا حساباً من ضمائرهم على أخطاءٍ ارتكبوها، ولا أن يراجعوا ضمائرهم لسلوكياتهم المنحرفة وأخلاقياتهم الضالة. إنّهم يريدون أن يعيشوا في غفلةٍ من الضمير. وهؤلاء هم الذين لا يريدون استفتاء ضمائرهم كما جاء في الحديث الشريف المرويّ بلسان وابصة بن معبد القائل: "أتيت رسول الله، عليه أفضل الصلاة والسلام، فقال: جئت تسأل عن البر والإثم؟ قلت: نعم، قال: استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك." رواه الإمام أحمد في المسند.

وليس من إنسانٍ ضميره ميّت كما يقال إنّما أخرس صوت ضميرهِ، وأهال عليه الرّكام، وختم عليه بأقسى الأختام. والحقُّ كما يقول الشيخ محمد الغزالي: "إن هذا الإنطلاق في أعماء الحياة دون اكتراث بما كان ويكون أو الاكتفاء بنظرةٍ خاطفةٍ لبعض الأعمال البارزة أو الأعراض المخوفة، الحق إن ذلك نذير شؤم."

علّمه الدرس

ينفعلُ أغلبُ الناسِ لمواقفَ يتعرّضون لها أكانت على صعيدِ الكلامِ أو الفعل وهم في طرق انفعالهم أجناسٌ، فلا الحكمةُ تعرفُ طريقها إليهم، ولا الرويَّةُ تجدُ متّسعاً فيهم، ولا العقلُ يسيطرُ عليهم. ألا ما أعظمَ الحلم، وأكرم الأناة، وأوسع الصّبر، وأحسنَ اللُّطف! ويُعرف الناس بردّاتِ الفعلِ فيقالَ إنّكَ إذا أردتَ أن تختبرَ إنساناً أغضبهُ، فإن غضب أثار الغضبُ ما استقرَّ في نفسهِ من مشاعر، وإن قابلكَ بالابتسامة والحلم رأيت أنّه إنسان أصيلُ الخُلقِ، خليقٌ بالعشرةِ والصحبة.

إن كظم الغيظ والحلم من أعظمِ صفات الإنسان. فهي مما يرفعه درجاتٍ فوق النّاس الضّعفاء أمام المشاعر السلبيّة. أولئك النّاس الذين لا يدخرونَ عشرةً، ولا يقدّرونَ صحبةً، ولا يحترمون علاقةً. إن أغلبَ الناسِ يقفون على شفا حفرةٍ من الثوران، ينتظرون الزّلات البسيطة، ويتربّصون بالهفوات الصغيرة لتفورَ دماؤهم، وتتلفظ ألسنتهم بالساخطِ من القولِ، والبذيء من الكلمات. فتتصرمُ بذلك علاقتهم مع الناسِ، وتتقطع أواصرهم، ولو أنّهم حافظوا على اتّزانهم وهدوئهم فغلّبوا منطق العقل على ثوران العواطف وتهورها لدامت عشرتهم مع الآخرين. روى لي أحدهم قصّةً قال فيها: "كنا في إحدى الدول الأجنبيةِ، نركبُ القطار عائدين إلى وطننا بعد أعوامٍ قضيناها هناك، وبنا كَمَدٌ من مغادرةِ المكانِ، حيث كانت ذكرياتُه تتساوق أمام ناظرينا، وفي خضمِّ هذه المشاعر اتصل بي عربيٌّ خلفني في المنزل المستأجر، وكنتُ قد بذلت الجهد الكبير مع زوجتي كي نسلّمه إليه نظيفاً، مرتّباً، فأخذ هذا العربي يغلظُ في القولِ عليَّ وأنا أكظم غيظي، وأُظهرُ حلمي، مع أنّي بعد محادثته الهاتفية كنت أكفكفُ عبراتي ألماً مما قاله، متذكراً إخلاصي ووفائي وصدق وعودي له، لكنني كنتُ سعيداً بعدم ردّ الإساءةِ بالإساءة، مصداقاً لقوله، ﷺ، "لا تكونوا إمَّعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن أساءوا أسأنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن

أحسنوا أن تحسنوا وإن أساءوا أن لا تظلموا." أخرجه الترمذي. وبعد مضي ما يقارب الأسبوعين وردتني من ذلك الأخ العربي رسالةً عبر بريدي الإلكتروني، يقول فيها: "أخي الكريم: ما أحلمك، لقد امتثلت وطبَّقت محكم التنزيل وأنت لا تشعر وهذا يدل على ما زرعه والداك فيك غفر الله لهما إن هما على قيد الحياة ورحمهما إن توفيا، فلقد اتصلت بك ولم أزل بلساني على شخصك فتحمَّلت أنت هذه الإساءةَ وكظمت غيظك ثم عفوت عن هذه الإساءة بعدم الرد عليها بمثلها بل زدت في أدبك وأخلاقك بأن قلت لن أقبل المبلغ الذي هو عليَّ وهذا تطبيقٌ فعليٌّ لقوله تعالى: "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين." إنه موقف بالنسبة لي مؤثر ورفيع، فمن ربَّاك وعلمك ذاك؟" هذا بالطّبعٌ قطفٌ من قطوف الحلم، وسعةِ الصدرِ، ولطف الرّد، يقول الأديب العالمي وليم شكسبير: "ليس هناك شيءٌ جيدٌ ورديء ولكن هناك تفكير هو الذي يصوّر ويحدّد أحدهما." وهنا يبرزُ الإنسان الذي يقالُ إنّ الأحداث ليست هي الموجّه الحقيقي لمواقفه، وإنّما ردّة فعله نحوها، أي أن المساحةَ الفاصلة بين وقوع الحدثِ وردّةَ فعلهِ هي الأهم، وليس الحدث نفسه، فقد تتشابه بعض الأحداث التي تقع للنّاس ولكن ردّات فعله تختلف كمثل ما يذكر الدكتور، ميسرة طاهر، في إحدى الصحف الخليجية، في قصّةٍ ذات مغزى في هذا السياق، يقولُ فيها: "في كل صباح يقف عند كشكه الصغير ليلقي عليه تحية الصباح ويأخذ صحيفته المفضلة ويدفع ثمنها وينطلق ولكنه لا يحظى إطلاقا برد من البائع على تلك التحية، وفي كل صباح أيضا يقف بجواره شخص آخر يأخذ صحيفته المفضلة ويدفع ثمنها ولكن صاحبنا لا يسمع صوتا لذلك الرجل. وتكررت اللقاءات أمام الكشك بين الشخصين كل يأخذ صحيفته ويمضي في طريقه، وظن صاحبنا أن الشخص الآخر أبكم لا يتكلم، إلى أن جاء اليوم الذي وجد ذلك الأبكم يربت على كتفه وإذا به يتكلم متسائلا: لماذا تلقي التحية على صاحب الكشك فلقد تابعتك طوال الأسابيع الماضية وكنت في معظم الأيام ألتقي بك وأنت تشتري صحيفتك اليومية، فقال الرجل: وما الغضاضة في أن ألقي عليه التحية؟ فقال: وهل سمعت منه ردا طوال تلك الفترة؟ فقال صاحبنا: لا، قال: إذن تلقي التحية على رجل لا يردها؟ فسأله صاحبنا: وما السبب في أنه لا يرد التحية برأيك؟ فقال:

أعتقد أنه وبلا شك رجل قليل الأدب، وهو لا يستحق أساسا أن تُلقى عليه التحية. فقال صاحبنا: إذن هو برأيك قليل الأدب؟ قال: نعم، قال صاحبنا: هل تريدني أن أتعلم منه قلة الأدب أم أعلمه الأدب؟ فسكت الرجل لهول الصدمة، ورد بعد طول تأمل: ولكنه قليل الأدب وعليه أن يرد التحية، فأعاد صاحبنا سؤاله: هل تريدني أن أتعلم منه قلة الأدب أم أعلمه الأدب، ثم عقب قائلا: ياسيدي، أيا كان الدافع الذي يكمن وراء عدم رده لتحيتنا فإن ما يجب أن نؤمن به أن خيوطنا يجب أن تبقى بأيدينا لا أن نسلمها لغيرنا، ولو صرت مثله لا ألقي التحية على من ألقاه لتمكن هو مني وعلمني سلوكه الذي تسميه قلة أدب وسيكون صاحب السلوك الخاطئ هو الأقوى وهو المسيطر وستنتشر بين الناس أمثال هذه الأنماط من السلوك الخاطئ، ولكن حين أحافظ على مبدئي في إلقاء التحية على من ألقاه أكون قد حافظت على ما أؤمن به، وعاجلا أم آجلا سيتعلم سلوك حسن الخلق، ثم أردف قائلا: ألست معي بأن السلوك الخاطئ يشبه أحيانا السم أو النار فإن ألقينا على السم سما زاد أذاه وإن زدنا النار نارا أو حطبا زدناها اشتعالا، صدقني يا أخي، أن القوة تكمن في الحفاظ على استقلال كل منا، ونحن حين نصبح متأثرين بسلوك أمثاله نكون قد سمحنا لسمهم أو لخطئهم أو لقلة أدبهم كما سميتها أن تؤثر فينا وسيعلموننا ما نكرهه فيهم وسيصبح سلوكهم نمطا مميزاً لسلوكنا وسيكونون هم المنتصرين في حلبة الصراع اليومي بين الصواب والخطأ."

وذات يومٍ اتصل بي صديقٌ يشتكي متذمّراً من كلامٍ تقوّله عليه آخر، فقلتُ له: اتّصل به، واجلس معه وعلّمه درساً في الأدبِ، حدّثه بلغةٍ رفيعةٍ، لغةِ إصلاحٍ وتهذيبٍ. قل له إن خسران العلاقات أمرٌ صعبٌ بين الناس، وأن إطلاق الكلامِ على عواهنهِ يضعفُ شخصيةَ المرءِ، ويقلل من احترام الناس له. ففعل الصديق ذلك وكان درساً بليغاً للآخر. وكتبَ مسيءٌ إلى محسنٍ رسالةً يقولُ فيها: "الآن أتذكرُ إحسانك علينا حيث أحطتنا بعطفك واهتمامك ونحن في غربةٍ، ولكنني لم أكن أقدّرُ ذلك، بل على العكس فقد كنتُ شخصاً متهوّراً، لكنني حين انتقلتُ إلى مدينةٍ أُخرى أحسستُ بالحنوِّ والعطفِ الذي

كنتَ تحيطنا به، لقد جعلتنا وكأننا لم نخرج من أوطاننا، لكنني للأسفِ بدلاً من الشكرِ والعرفان كنت أوجّهُ لك اللّوم لأي قصور وهو في الأصلِ ناتجٌ من نفسي، لن أفيك حقّك من الاعتذار والشكر."

الحلمُ هو الدرسُ الذي تعلّمهُ الأحمق، والكرمُ هو الدرس الذي تعلمه البخيل، والابتسامة هي الدرس الذي تعلمه العابس، ولطف الأسلوب هو الدرس الذي تعلّمه الأرعن، والصمت هو الدرس الذي تعلّمه الجاهل، والصّبرُ هو الدرسُ الذي تعلّمهُ المسيء، الدرسُ هو ما درجَ في سياقِ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ فصلت/34. فالحسنةُ التي تقابلُ السيئةَ تقودُ إلى مصافاةِ الخصمِ للمُحسنِ ومحبته والحنوِّ عليه، يقول سيدنا عمر بن الخطاب: "ما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل ما تطيع الله فيه." فإذا عاقبتَ من تستطيع العفوَ عنه، حين يكون العفو فضيلةً ودرساً بليغاً له فإن عقابكَ سينزلكَ إلى مرتبتهِ، فلا العقابُ قد حققَّ المُراد، ولا رفعكَ منزلة.

قمم

يحسبُ بعض النّاس أنَّ القمَّةَ هي ذروةَ ما بلغوهُ، ولذلك يغشاهم ويخدّرهم "الرضا الذاتي". وهو داءٌ سلبيٌّ في هذه الحالة. القمّةَ في نظر بعضهم أن تحقّق بعض الإشتراطات الأساسيّة للمعاش الحياتي ثم تنزوي بعيداً، خامداً، تضعُ القدمَ فوق القدمِ، لا تحبِّذ شُغلاً، ولا تطيقُ ثقلاً، ولا تمتهنُ عملاً، وما ذلك إلاّ جهلاً. وهو ما يحدثُ لكثيرٍ من المتقاعدين، أولئكَ الذين رأوا أنّهم وصلوا القمّةَ. وما يعني التقاعدُ لهم سوى شهادة الكفاءةِ على منجزاتهم، بينما هو الإنحدار للجانب الآخر من القمَّةِ إن هم اختاروا هذا السّبيل، واستسلموا لمنجزاتِ مرّت.

لقد أعجبني صديق في كفاحهِ، إذ أنّه بالرّغم من مسؤولياته العديدة في جوانب مختلفةٍ في الحياةِ أسريّةٍ كانت أم وظيفيّة يواصلُ طِلب العلمِ قائلاً: ليس للعلم قمّة، مردّداً قول المتنبي:

إذا غامرت في شرفٍ مرومٍ فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموتِ في أمرٍ حقيرٍ كطعم الموتِ في أمرٍ عظيمِ

ولهذا فإن هذا الصديق لا تهدأ له نفس، ولا يقرُّ له جفنٌ حتى يكتسبَ شيئاً ما يضيفُ إليهِ معرفةً. وجدَ ذات مرّةٍ متّسعاً في مدينةٍ من مدن دولةٍ غربيَّة لبعض السّاعات اعتذرتُ له فيها عن انشغالي لقضاء بعض الأعمال، وحين سألته كيف قضى وقته، قال لي: لقد أجريت إحصائيّة اقتصاديّة بعد أن مضيتُ إلى العديدِ من المحلاّت التجاريّة وقابلتُ العديد من العاملين فيها. كل هذا حدث في بضعِ ساعاتٍ وفي مدينةٍ غربيّة. ولم يكن ذلك غريباً على رجلٍ لا يقنع "بما دون النجوم". وحدّثتني طالبةٌ في إحدى الكليّات قالت: كنت أرى الحارس الكبير السنِّ يقرأ، فكنت أعجبَ بإهتمامه بالقراءة، ثم غاب فسألت عنه فقيل: إنّه يختبر للشهادةِ العامّة، فازددتُ إعجاباً به. وفي إحدى المناطق رأيتُ عمارةً بارزةً في

فضاء فكانت عملاقة مقارنةً بغيرها. قلتُ في نفسي: ربَّما يخالجُ الإعجابُ نفس صاحبها لأن البنايةَ هي أعلى قمّةٍ في المكانَ، ثم بعد فترةٍ من الزّمن قامت عمارةٌ أخرى أعلى منها بثلاثةِ أضعاف فحدّثت نفسي بمثل ما حدّثتها للعمارةِ الأولى، ثم قلت: ما هو شعور صاحب العمارة الأولى الآن؟ إن منظر هاتين العمارتين كالنّاسِ؛ فقد ينتابُ أحدهم الشعورُ بأنّه قد وصل القمّة التي لا يطاولها أحد، فإذا به يرى أنّ أحداً قد بزّه، وطاوله فأصبح قزماً أمامه، فإمّا أن يواصل كفاحه مثابراً، وإمّا أن يرضخَ مستسلماً أو يتفرّغ للحسدِ والغلِّ ورمي الآخر بما شاء من الاتهامات. وقد يتعذر بعضهم بالقناعة. إنّما القناعةُ هي قرينُ العملِ والكفاح وليس قرينة الخمول والدعةِ والكسل. وإنني لأشفق على الكثيرين من الشباب والفتيات الذين أمضوا العمرِ في المقاهي، أولئكَ الذين يجسّدون مثلاً غير حميد لأبناء أمّتهم بإهدارهم الوقت، والوقتُ جوادٌ غير محدود العطاءِ إن مُلِئ بالعمل. إنّه لمنظر محزن، ذلك التكدُّس في المقاهي من أجلِ (شيشةٍ) حقيرةٍ أصبح لها رواجها في مجتمعاتنا حتى جعلها بعضهم علامةً من علامةِ التّحضر وما هي إلاّ علامة من علامات التقهقر. ويؤلمني أكثر أن يكون بعض الواعين والعقلاء هم من مناصريها ومن أبرزِ جلاّسها.

إنَّ ما لا يدركه الكثيرون هو أنّه كلّما تقدّم الإنسانُ خطوةً ازدادت مسؤولياته وواجباته، وازداد تواضعه. وقد أعجبتني في هذا الصّدد كلمة قالها رئيس الإتحاد الإنجليزي، حينما فرض عقوبات على مدرب نادي مانشستر يونايتد، السير فيرجيسون، لتهجّمه على أحد الحكّام، قال: إننا نقدّر إنجازات فيرجيسون الكبيرة ولكن كلّما زادت إنجازات الإنسانِ كبر حجم مسؤولياته. وهو كلامٌ منطقي ومعقول يتجاهلُ حكمته الكثيرون.

المسؤوليات قمّة، والقمّةُ سلطةٌ، والسلطةُ قوّةٌ، والقوّةُ إمّا أن تكون قهريّة، استبداديّة أو حكيمةً رشيدة. فالإستبداديّة أوصلت الإنسان إلى حدود التمادي والتّطرف والتجاوز ففي الملكِ لقّب أحد الملوك نفسه بـ "ملك الملوك"، وتمادى فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ النازعات/24، وفي المال قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ القصص/78، وهي نفس المقولة التي وردت في القرآن

الكريم على لسان من ينعم الله عليه، في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾" الزمر/49. وبالرّغم من أنّ المنطق في العلم يقتضي الخشية من الله لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ فاطر/28، فإن كثيراً من النّاس يقول ما قاله لي أحد الغربيين: إنني أشتغل في حقلِ العلم، ولذلك لا أؤمنُ إلاّ بالدليل المادي على وجود الله. وهذا وأمثاله لم يزدهم ما يكتشفونه أن الأرض هي مجرّد كونٌ بسيط في ملكوت عظيم، يصيبُ بالرهبةِ والخشيةِ من خالقٍ عظيم. ومن النّاس من يزكّي نفسه أو يُزكّى على الله والله يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ النساء/49، وفي تفسير القرطبي قوله عن هذه الآية: وَفِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ مُحَمَّد بْن عَمْرو بْن عَطَاء قَالَ: "سَمَّيْت اِبْنَتِي بَرَّة." فَقَالَتْ لِي زَيْنَب بِنْت أَبِي سَلَمَة: "إِنَّ رَسُول اللَّه ﷺ نَهَى عَنْ هَذَا الِاسْم، وَسَمَّيْت بَرَّة ؛ فَقَالَ رَسُول اللَّه ﷺ: (لَا تُزَكُّوا أَنْفُسكُمْ اللَّه أَعْلَم بِأَهْلِ الْبِرّ مِنْكُمْ) فَقَالُوا: مَاذا نُسَمِّيهَا؟ فَقَالَ: (سَمُّوهَا زَيْنَب). فَقَدْ دَلَّ الْكِتَاب وَالسُّنَّة عَلَى الْمَنْع مِنْ تَزْكِيَة الْإِنْسَان نَفْسه، وَيَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى مَا قَدْ كَثُرَ فِي هَذِهِ الدِّيَار الْمِصْرِيَّة مِنْ نَعْتهمْ أَنْفُسَهُمْ بِالنُّعُوتِ الَّتِي تَقْتَضِي التَّزْكِيَة، كَزَكِيِّ الدِّين وَمُحْيِي الدِّين وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، لَكِنْ لَمَّا كَثُرَتْ قَبَائِح الْمُسَمَّيْنَ بِهَذِهِ الْأَسْمَاء ظَهَرَ تَخَلُّف هَذِهِ النُّعُوت عَنْ أَصْلهَا فَصَارَتْ لَا تُفِيدُ شَيْئًا. وَأَمَّا تَزْكِيَة الْغَيْر وَمَدْحُهُ لَهُ ؛ فَفِي الْبُخَارِيّ مِنْ حَدِيث أَبِي بَكْرَة أَنَّ رَجُلًا ذُكِرَ عِنْد النبي، ﷺ فَأَثْنَى عَلَيْهِ رَجُل خَيْرًا ، فَقَالَ النَّبِيّ، ﷺ: "وَيْحَك قَطَعْت عُنُقَ صَاحِبك - يَقُولهُ مِرَارًا - إِنْ كَانَ أَحَدكُمْ مَادِحًا لَا مَحَالَة فَلْيَقُلْ أَحْسَب كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذَلِكَ وَحَسِيبُهُ اللَّه وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللَّه أَحَدًا." فَنَهَى ﷺ أَنْ يُفْرِط فِي مَدْح الرَّجُل بِمَا لَيْسَ فِيهِ فَيَدْخُلهُ فِي ذَلِكَ الْإِعْجَاب وَالْكِبْر، وَيَظُنّ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَة بِتِلْكَ الْمَنْزِلَة فَيَحْمِلهُ ذَلِكَ عَلَى تَضْيِيع الْعَمَل وَتَرْك الِازْدِيَاد مِنْ الْفَضْل. وَلِذَلِكَ قَالَ ﷺ: (وَيْحَك قَطَعْت عُنُق صَاحِبك). ولقد شهدتُ في مناسبةٍ منذ أيّام أنّ أحد أصحاب النّظم الشعبي قد مُدحَ بما ليس فيه فتسبّب هذا المدحُ في

إدخال الإعجاب والكبر في نفسه فأطال على الحضورِ، ونغصَّ عليهم، وأثقلَ أنفاسهم.

إنّ القمّةَ قرينةُ المسؤولية، وهذه إن لم تفرض التواضع فإنّها تكون شوكةً، لا صرحاً شاهقاً.. والقمّةُ قرينةُ الكفاح فلا قمّةَ لشيءٍ إنّما القمم هي ما صنعه الخيالُ إمّا كي يحثَّ الإنسانَ إلى الإجتهادِ وإمّا كي يخدّره ويُسلمه للظلال، وهي قرينة التراخي والكسل. وما أكثرً المستسلمين الواهمين في مجتمعاتنا.

قيمة الإصغاء

من القيم الجليلةِ قيمةُ الإصغاءْ. فأدبها عالٍ، وخُلقها رفيع. في الوقتِ الذي يجهلُ ذلك أو يتجاهله أغلبُ النّاس، لأن ظنّهم ينحو إلى أنّ الكلامَ هو مَعْقدُ الفضيلةِ، وموصلُ الشُّعورِ، وكاسبُ الاهتمام. وهو كذلك، إنّما ليس في كلِّ شاردةٍ وواردة. ففي بعض الكلامِ هرّجٌ ومرج، وخفّة عقلٍ، وخسّةُ نفس، لذا يقال: "من كثُرَ هَرْجُهُ كثر لغطه." نعم إن الكلامَ لرسولٌ إلى العقلِ والنفس لكنّه إمّا أن يكون رسولَ شؤمٍ أو رسولَ خير. إمّا أن يكون موصلَ فكرةٍ تستدعي النّظر، أو علمٍ يُلفتُ الإنتباهَ، أو خبرٍ يثيرُ الحسّ، أو يكونُ مثيرَ لغوٍ يستدعي الاستخفاف، أو لغطٍ يستوجبُ الإنكارَ، أو سَفَهٍ يفرضُ الإعراض.

في ثقافتنا حاجةٌ ملحَّةٌ إلى إبرازِ جماليات الإصغاءِ وقيمته الأدبيّة والنفسيّة والفكريّة، ففي غالبِ الأحيانِ لا يصغي الكبيرُ للطفلِ بحجّةِ أنّه يثرثرُ غير واعٍ بما يقول. بينما نستغربُ من تمكّنِ الصغيرِ من الكلامِ في بعض المجتمعاتِ، ومنها الغربيّة. وحينما نسبرُ السبب نرى أن للإصغاءِ دورٌ هامٌ في حيازةِ الطِّفلِ على أدواتِ الكلامِ وتمكّنهِ منه. أمّا الكثيرُ لدينا فإن تكلّم الطّفل عدّوا كلامه من اللّغو والهذر الذي لا ينتجُ عن رشدٍ ولا يخرجُ عن فكر. فإمّا اسكتوه وإمّا انشغلوا عنه وخدعوه بالاستماعِ إليه فإذا فاجأهم بالسّؤال اكتشف خداعهم، وعرف أنّهم كانوا منشغلين عنه، وهذا يؤثّر فيه نفسيّاً بعكس ما يظنّه بعضهم. ويبقى في سريرةِ نفسه. ولعلَّ ثقافة "اسكت" سائدةٌ في مجتمعاتنا، وما هي إلاّ ناتجةٌ من نواتجِ العصبيَّةِ والحماقة وضيقِ الصدر وقصرُ الأُفق الذي أصابَ الكثير من عقولنا ونفوسنا على السّواء. أغلبنا يمارسُ الإقصاء عبر إلغاء الإصغاء من قاموسهِ الأدبي، وكأنّ الأمر موروثٌ فينا. فإن كان الواحدُ منّا مقصيّاً في صغره بفضلِ ثقافةِ "اسكت" حملها كـ "فضيلةٍ" إلى أبنائه، وحرص عليها كأداةٍ يريد بها استعادةَ اعتبارهِ، والثأر بها لعقدةٍ كبرت معه. فتجده كلّما أرادَ أن

يتحدّث معه إبنٌ له أو إبنة أخرج بطاقته الحمراء "اسكت" ليخرسهما. وكلّما جادلهُ أحدٌ قاطعهُ بكلمةِ "اسكت". إنّها ميراثه ثمينٌ ورثهُ عن أبيهِ فكيف لا يحافظُ عليه، ويصونه بالديمومةِ والاستعمال اليوميِّ.

وفي المجالسِ من لا يحكمُ السيطرةَ على لسانهِ، ولا يجيدُ قياده. فإذا تطرَّق المجتمعونَ في أمرٍ أقحمَ نفسهَ في ما لا يعنيهِ فأطنبَ في اللّغو وأسهب في اللّغط فلا ينالُ به إلاّ استنكار النّاس في دواخلهم حتى وإن أبدوا اهتماماً ظاهريّاً بما يقول. وما قولهُ إلاّ كما قال الشاعر:

ودع كل صوتٍ غير صوتي فإنني أنا الطائرُ الصدّحُ والآخرُ الصَّدى

يقول الدكتور علي الوردي في كتابه، **مهزلةِ العقلِ البشري**، في هذا الصّنف، "فهو إذا ألقى خطبةً ورأى الأفواه مفتوحةً نحوه ظن أنّه يأتي بالوحي المنزّل، أما إذا ألقى زميلٌ له خطبة مطَّ شفتيهِ وقال عنها: إنّها تافهة، إنّه لا يدري ماذا يقول الناس عنه وعن زميله في مجالسهم الخاصّة." صنفٌ هؤلاء لا ينتج إلاّ غباراً من جرّاءِ الثرثرةِ التي يثيرونها، والضجيج الذي يُحدثونه، وما ذلك إلاّ لرغبةٍ منهم في تصدُّر المجالسِ دون أن يلقوا بالاً لمن في المجلسِ. قال لي رجلٌ رشيد: "دُعيتُ لإلقاءِ محاضرةٍ في مجالٍ من المجالات، فعمدتُ في البدءِ إلى معرفة المستوى الفكري للحضور فطرحتُ عليهم موضوعاً للنقاش كي أعرفَ أين أضعَ نفسي بينهم حينما أبدأُ محاضرتي." وقالَ آخر: "ألقيتُ محاضرةً فدخل في نصف وقتها أحدهم وما كاد يجلسُ حتى لاحظتُ أنّه انشغلَ على الفورِ، ووجدته متحفِّزاً، فألقيت عليه سؤالاً مباغتاً إن كان يودُّ أن يقول شيئاً، قال: لا ولكنني أريدُ أن أعقِّب على كلامك. وحين منحته الفرصة مضى يغرّد في وادٍ عمّا كنتُ أنشده في محاضرتي فكانت سخريةً للآخرين، وجاءني في آخرها يعتذر أنّه لم يفهم مقصدي. ولو أصغى لفهم ولما وضع نفسه موضع استخفافٍ من قبلِ الآخرين."

ونرى أن بعضَ من لا يجيدون وضع الكلامِ في غير مواضعه، فإذا طُرِحتْ مسألةٌ للنقاشِ، أو عُرِضَ خبر للمعرفةِ، وجدتَ حين التّحدثِ من يعنيهِ الأمرُ لكنّه لا يضع الكلامَ في مواضعهِ الصحيحةِ، فهو كما يقولُ المتنبي:

ووضع النّدى في موضع السيف بالعلا مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

أمّا المرءُ الرّشيد فهو الذي يعرفُ متى يتكلّمُ ومتى يُصغي، ليس هذا فحسب، بل يفكرُ مسبقاً في جدوى ما يقولُ، فبعضُ الناسِ لا يتكلّمُ إلاّ بالمكرورِ من الكلامِ وانظر في هذا جملةَ المعلّقين في الندوات والمحاضرات والأمسيات، فقلّةٌ هم الذين يضيفون فوق ما قيل أما الكثرة فيعيدون إنتاجَ ما قيل دون إضافةٍ. ويُهدرُ الوقتَ محبّو الظهور الذين لا يدركون قيمة الوقتِ، وثمنَ الإصغاءِ. والاجتماعات هي مثلٌ آخر تسودها كثرة الكلامِ الذي يمتدّ لساعات يكثرُ فيها الهذر والحصيلةُ النافعةُ محضرٌ من صفحةٍ أو صفحتين.

إن للإصغاءِ قيمةٌ عاليةٌ عند النّاس، وأثرٌ مبينٌ في قلوبهم، وفي هذا يحكي ديل كارينجي قصّةً عن رجلٍ اشترى بدلةً ثم جاءَ محتجّاً لرداءتها، فلم يستمع له البائع، بل قال له: إننا بعنا آلاف البدلات دون أن نتلقى شكوى من أحد. فشعر المشترى بأن البائع يتّهمه بالكذب فتعالت أصواتهما فتدخّل بائعٌ آخر وقال هذا النوع من البدلات رديء ولذلك فهو رخيصُ السّعر وزاد بكلامه هذا الاحتدام. حتى تدخّل صاحبَ المحلِّ وكان هادئاً فاستمع لما يقوله المشتري المحتج دون أن يقاطعه بكلمة، ثم استمع إلى البائعين وكان يقنعهما بوجهة نظر المشتري، وأخيراً توجّه صاحب المحلِّ إلى المشترى قائلاً له قل: لي ماذا تريد وسأنفّذه على الفور. ثم قال له: أقترح أن تقتني البدلة لأسبوع، فإذا غيّرت رأيك أعدها ثانية وسأبدلها لك بأخرى جديدة. يقول المشترى: فأخجلني أسلوب صاحب المحل لأنّه أصغى لي، ثم اكتشفتُ صدق رأيه واستعدتُ ثقتي بالمحل.

لو أصغى النّاسُ لفهموا، ولو فهموا لتبيّنوا الموقف، ولو تبيّنوه لحدّدوا – حينها – مواقفهم، وردود أفعالهم، ولاجتنبوا سوء الفهم الناتجِ عن عدم كبحِ جماحِ النفسِ. إن للمصغي أدباً حسناً، وجمالاً برّاقاً، فهو لا يهرفُ بما لا يعرف، وهو لا يخاصمُ في ما لا يتثبّت، وهو لا يشكُّ في ما لا يتيقّن، وهو أزكي نفساً من ثرثارٍ يحسبُ نفسه قمرُ السُّراة، وصدّاحُ الخرّس، ومزمارُ الصمِّ.

* * *

كثيرةٌ هي الخصومات التي تنشبُ بين الناسِ بسبب عدم الإصغاءِ أو ضعفه، وما يحملهم إلى ذلك إلاّ لعجلة جُبلت فيهم: ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولاً ﴾ الإسراء/11، ولحمقٍ استبدَّ بهم، ولكبرياءَ غرّرتهم. وهم ما لم يكنُ الإصغاءُ لهم طبعاً، وجبَ تطبيعهم عليه. يسردُ ستيفن كوفي في كتابه، **العادة الثامنة من الفعالية إلى العظمة**، قصّة "عصا الكلام الهنديّة" قائلاً: بعد أن دربت زعماء هنود يقودون قبائل هندية في الولايات المتحدة وكندا قدَّم لي هؤلاءِ الزعماء هديّة جميلة هي عبارة عن عصا كلام منحوتة بدقّة. إن عصا الكلام هذه تمثل الطريقة التي يمكن من خلالها للأشخاص المختلفين أن يفهموا بعضهم بعضهم من خلال الاحترام المتبادل. عندما يجتمع الناس بعضهم مع بعض تكون عصا الكلام موجودة. وحده الشخص الذي يمسك بالعصا يسمح له بالكلام. ما دمت تمسك بعصا الكلام تستطيع أن تتكلم وحدك حتى تشعر بأنك قد فُهمت تماماً. لا يسمح للآخرين في أثناء ذلك أن يعبّروا عن وجهة نظرهم أو يجادلوه أو يعلنوا موافقتهم أو عدم موافقتهم. كل ما يمكن فعله هو أن يحاولوا فهمك وأن يعبّروا عن فهمهم لك. ولا يعني فهمهم موافقتهم لك إنّه يعني فقط أن تكون قادراً على الرؤية بعينه وقلبه وعقله وروحه."

إنّ أدبنا في الإصغاءِ لا يحتاجُ منّا إلى شيءٍ ملموسٍ كالعصا، وإنّما مستمدٌ من قيمة عليا تبدأ من أدب الإصغاءِ إلى قراءةِ القرآن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف/204، ولو تعلّمنا أدب الإصغاءِ إلى القرآن لسرى هذا الخلقُ الرفيعُ والأدبُ العالي في سائر أمور حياتنا وعلاقتنا مع الآخرين، ولوجدتَ الرئيس يصغي لمرؤوسه والمعلّمُ لتلميذهِ والطبيبُ لمريضهِ. إن كثيراً من المشاكل النفسيّة والاجتماعية سببها عدم الإصغاء حيث لا تجدُ الزوجة زوجاً مصغياً أو العكس، ولا تجد الفتاةُ أو الفتى من يصغى لهما في البيت فيتجهون إلى الخارجِ بحثاً عمّن يصغي لهما وهنا ينصبُ بعضُ المحتالين شباكهم الآثمة. وهنا تقعُ المصائب، حينها يقول من وقع عليه هولُ الأمر ليتني أصغيت. يقول الشاعر محمود سامي البارودي:

أتـــاني أنَّ "عبـــدَ اللّهِ" أصـــغى إلى وَاشٍ؛ فَغَيَّـــــــرَهُ عَلَيَّـــــــا
فقلـــتُ لـــهُ: تثبـــتْ تلـــقَ رشـــداً فَكَـــمْ مِـــنْ سُـــرْعَةٍ وَهَبَتْـــكَ غَيَّـــا
فَإنَّـــكَ لَـــوْ عَرَفْـــتَ وِدَاد قَلْبِـــي إليـــكَ، لجئـــتَ معتـــذراً إليَّـــا

حدّثني صديق بأن مستأجراً في بنايته قد ثارت ثائرته محتجاً على أمورٍ عدّها من النَّواقصِ ولم يجد أُذناً صاغيةً من الرجلِ المسؤول عن البناية فأصرّ على مقابلةِ صاحبها. يقول الصديق فذهبت إليه وكان ثائراً وتركته يسرد شكواه وأنا أوافقه بإشارةٍ أو بكلمةٍ وتعاطفتُ معه فلاحظتُ أن ثائرته قد بدأت تهدأ، وحينما انتهى قلت له: إنني لن أنظر إلى الإيجار الذي أستلمه منك حلالاً إن لم تكن سعيداً مطمئناً في مسكنك، فأصلح ما تشاء وأضف ما تريد واخصمه من الإيجارِ. فتغيّر وجهُ المستأجرِ وسُرَّ بقول المؤجّر ولم يكن مصدرُ شكواه شيءٌ في الحقيقةِ إلاّ بسبب بسيط، إنما كان الإصغاءُ هو الماءُ الباردُ الذي أطفأ غلواءَ نفسه، وهدّأ من ثائرتها. وحين حدث خلافٌ بسيط بيني وبين إحدى المؤسسات الخاصة في إنجلترا لم أشأ أن أنصرف إلى المحاكم للمطالبةِ بحقٍّ كنت أطالب به من تلك المؤسسة، ذلك لأنني وجدتُ إصغاءً من مدير المبيعات وتعاطفاً مع الشكوى التي كنتُ أبثّها، وعلى الرّغم من مكوث القضيّة لأشهرٍ دون حلٍّ، وعدم تمكن المؤسسة من التعويض النقدي قبلتُ بتعويضها العيني بما يساوي المبالغ التي أستحقّها، ذلك لأن أسلوب الإصغاء الذي أبداه مدير المبيعات وتفهّمه وتعاطفه كان سبباً رئيسيّاً في عدم تجاوز القضية نطاق التّفاهم الشخصي.

إن كثيراً من الفتيانِ والفتيات عندنا بحاجةٍ إلى الإصغاء. تراهم يسعون وراءَ الإصغاءِ كوسيلةٍ لتخفيف ما يعتملُ في صدورهم، فدائماً ما نسمعُ فتىً يقول: "أريد أحداً يسمعني." أو فتاةً تقول: "أحتاجُ لمن يفهمني." هذه هي مطالبهم قبل المالِ والماديّات. وكم في البيوت من يحتاجُ إلى الإصغاءِ حاجته إلى الهواءْ. فكثيراً لا يشعرُ المرءُ بالإختناقِ لإنقطاعٍ في الهواءِ فيخرجُ إلى الشارعِ ليتنفّس، إنّما لأنّ لديه غصّةٌ في القلبِ لم يكن ليزيحها عنه ويسرّيها سوى الإصغاء. وأعجبُ من بعضهم أنّه يُرهفُ السّمع لغريبٍ ولا يُرهفهُ لقريب. كأنَّ الغريبَ أقربُ إلى القلبِ والقريبُ أبعدُ عنه... ياللعجب!

أن ترهفَ السمعَ لإنسانَ يعني أن تهبهُ اهتمامك، وهذا يعني أنّك تشعرهُ بقيمته. في الوقتِ الذي لا يستشعرُ كثيرٌ من الناسِ هذا الأثر العميق للإصغاءْ. وإذا هم تجاهلوه نفذت من بيوتهم ثقوبٌ كي يخرج منها صوتٌ يسمعهُ الآخرون..! أي أنّ الصّوت يرفرف كالطائر بحثاً عن مُصغٍ إلى قلوبهم، يبثُّوه نجواه فيواسيه، ويتحدّث إليه فيرقُّ السمع له. يقول روبين شارما في كتابه، **دليل العظمة**: "إن الإصغاء بإهتمام إلى شخصٍ ما هو إحدى أفضل الطرق التي أعرفها لإظهار الإحترام لهذا الشخص وتكوين صلةٍ إنسانية عميقة معه. فعندما تصغي لشخص ما – ليس بعقلك فقط ولكن بكل كيانك – فإن هذا يبعث برسالة تقول:" إنني اقدّر ما لديك لتقوله، كما أنني متواضع بما يكفي لكي أصغي إلى كلماتك."

التواضعُ إذن هو باعثٌ من بواعثِ الإصغاء. لقد حدث مرّة أن إحدى المسؤولين انفعلَ في وجهِ أحدهم حينما لم يرق له العمل الذي قدّمه وقد كان عملاً فنيّاً مسجّلاً، لم يستحسنه لأنّه كان وسط اجتماعٍ فيه صخب، فخرجَ صاحبُ العملِ مستاء، ثم جاءه المسؤول في اليومِ التالي وهو يعتذرُ قائلاً: لقد استمعتُ إلى العملِ مرّةً أخرى، في مكانٍ آخر هادىء فراقني جداً. فكم هم المتواضعونَ في المجالسِ، والندوات، والأمسياتِ، والاجتماعات الذين يصغون بودٍّ، ويحسنون الاستماعَ بحق لمن يتحدّث؟ إن الحقيقة المرّة – كما يقول شارما – هي أن "معظم الناس يقضون الوقت الذي يتكلّم فيه الطرف الآخر في تحضير إجاباتهم عليه والتدرُّب عليها." وقد لاحظتُ هذا حينما كنتُ أحضرُ إحدى المحاضرات التي دُعي لإلقائها علاّمةً حيث كان وراءه إثنانِ ممن يحضّران الردَّ عليه ولم يصغيا لكثيرٍ مما قال، فما إن انتهى حتى تولّيا قذفه بالتّهم، ورميه بالجهل.

الإصغاءُ فن. والغريبُ أن الناسَ يحسبون أنّ مقاصدهم لا تصل إلى الآخرين إلاّ عبر الكلمات. إذن لهؤلاء أقدّم ما توصّل إليه أحد الباحثين الأوائل في علوم اللغة والتخاطب هو مهرابيان (1972)[1]، الذي توصّل إلى أن الكلمات وحدها

[1] **Mehrabian**, A. (1972). Nonverbal communication. Chicago: Aldine-Atherton

توصل فقط 7٪ من المعاني، في حين توصل نبرة الصوت وطريقة الإلقاء 39٪ أمّا لغة الجسدِ فتساهم بـ 55٪ من المعاني. أفلا تريحُ هذه الأرقامُ ألسنتهم، وتُثري عقولهم، وتعيدُ الاعتبار إلى قيمة الإصغاء؟

قيمة الدعاء

مما يستدعي النّظر، ويحتّم العنايةَ في حياتنا هو الدُّعاء، فهو علاجٌ نفسيٌّ عظيم، تحتاجهُ النفس للصفاء والاطمئنان، ويحتاجهُ العقلُ للثبات والاتّزان. بينما يغيبُ الدعاءُ كثيراً في حياتنا. وأكونُ صادقاً في القولِ بأن هذا الموضوع قد طرأ عليَّ بعد أن حضرتُ عدّة لقاءاتٍ تكريميَّة في مدرسةٍ إنجليزيَّة وفي ختام المناسبة التكريمية للطلاّب يقرؤون جميعاً دعاء بصوتٍ واحد. ثم حضرتُ نشاطاً رياضيّاً وبعد انتهائه قرأ المشاركون في الحلقة التدريبيّة دعاء ردّدوه وراءَ أحد الأطفال المشاركين. شهدتُ ذلك وقلتُ ما قاله الشيخ محمد الغزالي:"والمؤسفُ أنّ النصارى يتّجهون إلى الله تعالى ولكنهم يجعلون معه إلهاً آخر أو إلهين آخرين." شهدتُ هذا وقلت: أولَيس الأحرى بنا – نحن المسلمين- أن يعمرَ الدعاءُ سائر شؤون حياتنا، والأدعيةُ عندنا لا يتّسعُ لها بابٌ من كثرتها، تغطي اللّيلَ والنهار برداءَ الطمأنينة، وتحفظهما بحصنٍ حصين.. شهدتُ هذا وقلت كم نحنُ مقصّرون في الدعاءِ، والله يبسطُ يديه ليلاً ونهاراً للمسيئين الطالبين العفو. يقول عزّ وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة/186. إن للدعاءِ أهميّةً نفسيّةً كبرى في حياةِ الإنسانِ، إذ تنشرُ في نفسه السعادة، وفي هذا يروي ديل كارنيجي عن الدكتور كاريل مؤلف كتاب، **الإنسان ذلك المجهول**، وأحد الفائزين بجائزة نوبل قوله، "لعل الصلاة – وهو يقصدُ الدعاء – هي أعظم طاقةٍ مولّدةٍ للنشاطِ عرفت إلى يومنا هذا. لكن الدعاءَ في حياتنا قليل، بالرّغم أنّه كثير حيث يتناقله الناسُ في رسائلهم الهاتفيّة، كما يتناقلونه في بُرُدهم الإلكترونية، إلاّ أنّه يمرُّ مروراً عابراً عليهم دون أن يستوقفوه ليحلَّ ضيفاً على قلوبهم، ودون أن يثبتوهُ في مدوّناتهم ومذكّراتهم إلاّ القليل. فكم هم الذين يتلون

أدعيةَ الصباحِ والمساء، يطلبون التوفيق؟ وكم هم الذين يستفتحون أعمالهم ويختمونها بالدعاء، يطلبون التيسير؟ وكم هم الذين يستفتحون مأكلهم ومشربهم بالدعاء، يطلبون دوام النّعم؟ وكم هم الذين يختمون مجالسهم بالدعاء، يطلبون الغفران؟ وكم هم الذين يدعون لأنفسهم وأبنائهم وآبائهم الرضا والرحمة؟ سمعتُ أحد الدعاةِ يقول، إن رجلاً شكى إليهِ عصيان ابنه فقال له: هل خصصت عشر دقائق لتدعو له بالهداية؟ قال: لا! وهذه هي المشكلة: فاقدُ الشيءِ لا يعطيه. فكيف بمربٍ يريدُ الخير والصلاح له ولذريّته وهو لا يدعو؟! وفي المقابل، هل يخصص الابن عشر دقائق ليدعو لوالديه.

أخبرني أحد الأصدقاء المقرّبين أنّه اتخذ عادةً حسنةً في تسجيلِ أبياتُ شعرٍ يستطيبُ لها، أو أدعيةٍ يستحسنها في مذكرةٍ له. هذا الصّديق شرّفني منذ سنواتٍ قليلةٍ بمراجعةٍ كتاب جمّع فيه أدعيّةً منظومة أراد طباعته طلباً للثواب من الله، باسم " الأدعية السنية". الغريبُ في الإنسانِ أنّه معدمُ الدعاءِ في السَّراءِ، مكثرٌ وملحٌّ له في الضرّاء، وهذا ديدنه. بينما الدعاءُ في الرّخاءُ باب للإجابةِ في الشدائد، يقول النبي، ﷺ، "من سره أن يُستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء في الرخاء." [أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد]. لكن طبع الإنسانِ أنّه غافل عن ربّه، مطمئنٌ إلى ماله وحاله اطمئنان صاحب الجنّة الذي قال حين دخل: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾ الكهف/35، وكان أحرى عليه أن يقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ الكهف/39، طبعُ الإنسانِ الاغترار بما عنده من نعم، حتى إذا تكالبت عليه المصائب، وتزاحمت عليه المحن تذكّر أن له خالقاً يبريءُ علّته، ويدفع بلاءه، ويزيح كربه. يقول تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ فصلت/51، يروي أحدهم قائلاً: "قمتُ بتجربة بسيطة، هي أنني سألتُ مئات الناس ممن تعرضوا لمشاكل وأخطار وحوادث، وقلتُ لهم: هل قال أحدكم هذا دعاء أي (بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم) يقول: صدّقوني لم أجد واحداً قالها من بين هؤلاء جميعاً."

إن هذا العصرَ الذي تكثرُ فيه الأمراض النفسيّة الناتجة عن حالات الإحباطات والكآبات سخطاً من الواقع، وتذمُّراً من الأحوال، وخوفاً من عواقبِ التقلبات المختلفةِ لتحتاجُ النفسُ فيهِ إلى علاجٍ روحي، ويحتاجُ الفكرُ إلى رشيدٍ هادي وهذا لا يتمُّ إلاّ بالدعاء، والنفسُ في هذا – وفي غيره – كالفطيمِ إن تعوّد علي شيء سلك عليه ودرج. وفي هذا أضربُ مثلاً شخصيّاً: فقد كنتُ حينما أقطعُ طريقاً إلى الجامعةِ في إحدى البلدان الغربيّة أقضي وقتي هامساً بالتسبيح والحمد والتكبير، فلّما عدتُ إلى الدربِ ذاته بعد غيابٍ لأشهر ثلاثةٍ إذا بي أرى أصبعي الخنصر يتحرّك تلقائياً بين مفاصلِ الأصابع وشفتيّ تلهجان بالتسبيح والحمدِ والتكبير. هذا يعني أن النفسَ يمكنُ ربطها بالصلاحِ كما يمكن ربطها بالطلاحِ عند أولئك الذين تعوّدت ألسنتهم أن تقذف بسفاسف الكلام.

ما أجمل الإنسان أن يستفتح يومه داعياً: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ المُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ المَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةَ قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إلى حُبِّكَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ، فَإِنَّهُ لاَ يَمْلِكُهَا إِلاَّ أَنْتَ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا اللَّه الوَاحِدُ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ، أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ أَنْ تَغْفِرَ لِي. اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمَاً نَافِعَاً، وَرِزْقَاً طَيِّبَاً، وَعَمَلاً مُتَقَبَّلاً." وأن يردّد قبل النوم (اللهم إني أسلمتُ وجهي إليك وفوضّتّ أمري إليك وألجأتُ ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنتُ بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت). وهو بهذا يفرّغ شحنات، ويُخلي هموماً، ويطرد وسوسات، ويزيح كربات، فيهجع وقلبه مليء بالطمأنينة والإستقرار. وكذلك عند لبسه ثوبه ونعله، واستفتاحه عمله، واستقبالهِ دربه وفي سائر حياة الإنسان... حتى حين يتكلّم مستهلاً أو خاتماً حديثه، وفي هذا المقام فإن خطب جلالة السلطان المعظم - حفظه الله ورعاه- تختتم بالدعاء كمثل دعائه في خطابه الأخير بمجلس عمان عام 2009: "**ربنا عليك توكلنا، فاكتب لنا التوفيق والنجاح في أعمالنا وهيىء لنا من أمرنا رشدا، فأنت نعم المولى ونعم النصير، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.**"

والدعاء عاصمٌ من الحسد. وما عينُ الحسدِ التي تنتشرُ في مجتمعاتنا فتصيبُ هذا بالمرض الجسدي، وتلقي في جوف ذاك بالضِّيق النفسي، إلا نتيجةً لعدم الدعاء. يقول النبي، ﷺ، "عَلامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؛ إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ أَخِيهِ مَا يُعْجِبُهُ فَلْيَدْعُ لَهُ بِالْبَرَكَةِ." (حديث صحيح). وضررُ هذه العين خطيرٌ على البشر لأن صاحبها لا يستفتحُ بدعاءٍ، ولا يستهلُّ بخير. يقول الله تعالى لنبيّه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾ القلم/51. ويزلقونك في تفسير إن كثير أي يحسدونك لبغضهم إيّاك. يقول الشاعر:

ترميك مزلقة العيون بطرفها   وتكلُّ عنك نِصالُ نبل الرامي

* * *

أصحابُ هذه العيون الحاسدة هم أناسٌ مرضى، لا يفرحون لسعادة الآخرين، ولا يستريحون لراحتهم، إنّما تغلي أفئدتهم بالحقد، وتفورُ بالكراهية لهم لأن الله أنعم عليهم. أعينُ هؤلاءِ الحاسدة تعبّر عن أنفسهم الضيقة، وعقولهم القاصرة، التي تستقرُّ عند مرآى الآخرين سعداء، ولو أنّهم وطّنوها بالدعاءِ، وبلّلوا غلواءها بمائه الرقراق لما نفذت أعينهم كالجمر إلى نفوس الآخرين فعانتهم.

والدعاءُ حصنٌ منيعٌ ضدُّ البشرِ الحاقدين – قبل غيرهم من المخلوقات – أولئك الذين يرى المرءُ الشرورَ، والكراهيةَ نافرةً من أعينهم، متجسّدةً في قسماتِ وجوههم، بيّنةً في سطورِ كلماتهم. أولئك البشرُ الذين يتعاملُ الإنسانُ معهم في عمله فيحسدونه على ما أنعم الله عليه من وظيفةٍ أو مرتّبٍ أو ميزة لم ينالوا مثلها. وأولئك الذين يتعاملُ معهم في سائر الشؤون الحياتية الأخرى، الذين لا تراهم إلاّ ممتعضين، متذمرين، لا يقر لهم قرار، ولا يهدأ لهم خاطر إلا أن يستولوا على ما لدى الآخرين من نعم، أو أن يستريحوا حين تزول النعمة ممن أمضّوا فؤادهم همّاً وكرباً. هؤلاءِ لا يصدّهم غير دعاء الإنسانِ مردّداً في صبحه

ومسائه: "**بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم" [رواه ابن ماجة]**. والدعاءُ دفعُ البلاءِ من الشرور التي تسبّبها كائناتٌ أخرى غير الإنس، وهي بلاءاتٌ أُخرى لا يصدّها إلاّ حمايةُ النفس بالدعاء ليلاً ونهاراً. فللدعاءِ قوّةٌ عاصمة، وأثرٌ مكين، يقول الشافعي:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما تدري بما صنع الدعاء

هذه بعضُ نوافع الدعاءِ النفسيّة، فـ "الدعاءُ سلاحُ المؤمن، وعماد الدين، نور السماوات والأرض." حديث شريف. وللمرءِ كي يسعد نفسياً، ويطمئن عقليّاً، وتصلح أحواله، وتهنأ معايشه، عليه بالدعاء. فليتنا نعمرُ حياتنا بالدعاءِ الجميل، في الطابور المدرسي حيث يردد الطلاب بصوت موحّد دعاء يحفظونه، وفي المكاتب حيث يردد كل موظّف ما يراه حسناً من الدعاءِ وفي كلِّ مناحي الحياةِ وشؤونها. وما كتبتُ هذا إلاّ من الشعور بتقصيرنا في الدعاءِ – كما أظنّ – كتقصيرنا في إبداءِ تحيّة السلام التي قلّت كثيراً في أسواقنا وطرقاتنا... بل وبيوتنا! فهل لنا إلاّ جفاف القلوب، وغلظة النفوس، وصلافة التعامل إن تركنا الدعاء والتحيّة؟!

قيمة الصراحة

الصراحةُ قرينةُ الصِّدقِ، وربيبةُ الحقِّ، ووليدةُ الأمانةِ والشّجاعة. هي كالبياضِ الشفيفِ، والنُّورِ اللّطيفِ. فإذا ما غلّفها حُسنُ الأدبِ، ولطفُ العبارةِ كانت كزهرةٍ نقيّةُ اللّونِ وإن لم يشمَّ بعضهم فيها رائحة زكيّة..! وإن هي تجاوزت حدود التَّصريحِ إلى التَّجريحِ كانت كأشواكٍ صلبةٍ، داميةٍ. هي أدبٌ، ومنطقٌ وخلقٌ ومبدأٌ. يقول دزرائيلي: "لا حكمة كالصراحة." والنّاسُ بين مؤْثرٍ إغفالها إمّا لخوفٍ من فقدانِ وشيجةٍ، أو إضعافِ علاقةٍ، أو جلبِ مضرّةٍ وبين صريحٍ بأسلوبٍ لطيفٍ على القلبِ غير مؤذٍ، أو مصرّحٍ فجٍّ لا يُراعي المشاعرَ ولا يحفلُ للأحاسيس، الأهم لديه أن يقذف حممه الحارقة من بركانَ قلبهْ الثائر.

وإنّها لغصَّةٌ لك أنك قد ترى صاحبك يكتنفُ الغموضُ تعامله معك، فتسألهُ عمّا في قلبهِ فلا يبوح لك بصراحته، تاركاً إيّاك عرضةً للهواجسِ والوساوس. ولعمري، كم كان لهذا التّكتُّم، والغموضُ من عواقبَ وخيمةً على علاقات النّاس!

فكم في الناس من بنى حياته الزوجيّة على غير الصراحةِ، فكان الغموض يتسلَّل بين آونةٍ وأخرى في أروقةِ المنزل، والأسئلةُ الحائرةُ تتقافزُ بين جدرانه حتى تتراكم فتقطع العُرى. فما أوحشَ علاقةً بين زوجين لا تجلّيها الصراحة، فتبسطها بسطاً لكي يمضي نهرها في سواقيها وليس في مجارٍ عشوائيةٍ، غامضةْ! وما أبغض علاقةٍ بين صديقين تنقصها الصراحة فيحشو مساماتها الرّمادُ الكثيف! يقولُ أحدهم: لقد اضطررتُ إلى إنهاءِ علاقتي بصديقٍ حينما اكتشفتُ عدم صراحته معي. كنتُ أجري وراءه، صابراً، محتسباً علّه يصارحني بما في قلبه لكن وجدتُ نفسي أجري خلفَ سراب. ويقولُ آخر: بعدتُ عن طرفٍ آخر كانت تربطني به علاقةَ عملٍ مشتركٍ فلمّا رأيته متهرِّباً من الردِّ

على تواصلي معه، مبتعداً عن القول الصريحِ معي، آثرت أن أُكرم نفسي بالانسحابِ، فالانسحابُ في بعض الأمورِ فضيلة.

من أعظم عيوبِ المرءِ عدم صراحته مع نفسه. يخدعُ نفسه بالوهم، ولذلك قيل: "رحم الله امرأً عرف قدر نفسه." وهذا يعني أن الصراحةَ بابٌ لمعرفةِ قدر النفس. وحين يلفُّ على نفسه ويخدعها، فإنّه يكتنزُ بالوهمِ الذي يُريه نفسه بغير حجمها، فينطلقُ إلى النّاس وهو يحملُ مفاهيم خاطئةٍ عن نفسهن وحينها تكون صراحتهُ مضلّلةٌ، وقولهُ خادع، ومنطقه منبوذ. الصراحةُ مع النفسِ مواجهتها بعيوبها ومثالبها دون الركون إلى الرضا الذاتي الخادع في بعض الأحيان. فإذا علم المرءُ صراحةً قدر نفسهِ، عرف قدر النّاس.

إن كتمان التصريحِ في علاقات النّاسِ بعضهم ببعض له عقباهُ النفسيّة التي لا تُحمد. والتّغاضي عن الخطأ الموجب للتصحيح في بعض الأحيانِ ليس فضيلة، بل هو علاجُ الخطأ بالخطأ، فالصراحةُ هي الدواءُ... الصراحةُ، التي يغلّفها الود، والنيّة في الإصلاح، والتّمهيد الحسن. والنّاسُ في ردود أفعالهم على الصراحةِ، وإن لان أسلوبها لا يُؤْمَنونَ لكن لا مفرَّ منها، فعلاقةٌ لا تؤمّها الصراحة هي علاقةٌ خاويةٌ بلا روح، بلا طعمٍ، بلا معنى. الصراحةُ هي منطلق العلاقة إبتداء من قول نبينا الكريم، ﷺ: "إذا أحب أحدكم أخاه، فليُعْلِمه أنه يحبه." رواه أحمد. وانتهاء بالحديث الشريف: "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق." يقول أحد النّاس: صارحتُ أخاً لي بأمرٍ يهمّه في منآىً عن النّاس كي لا يُحرج، فيجعل ذلك سبباً، وأبنتُ له صدقَ نيّتي، ونزاهة غايتي، وأوضحتُ له أن لا غايةَ عندي في صراحتي معه سوى ابتغاء سعادتهِ وهناءِ عيشه، لكنّه فسّر صراحتي بأنّها استقواءٌ عليهِ، وانتهاكٌ لشؤونهِ، وتعدٍّ على شخصه، فكففتُ نفسي من يومها عنه لأنني عرفت قدر نفسي عنده حينما بيّنت صراحتي معه تلك الطوايا. فيا للعقول التي لا تميّزُ بين محبٍّ صريحٍ، وبين منافقٍ مداجٍ، مجاملٍ! ويا للقلوبِ التي تضيقُ لصراحةٍ متحضّرةٍ، راقيةُ اللّفظِ، خالصةً النوايا، وتؤثر أن تعيش في غيّها وعيوبها! يقول الشاعر صالح الزهراني:

أنــا يـــا ســيّدي صـــريحٌ بحـــبي والـــذي يحفـــظ العهـــود صـــريحُ

أخبرني صديق أنّه ارتبط بصداقةٍ مع آخر فلمّا وجدَ منه ما لا يتوافق معه قال له بصراحةٍ: "أُعذرني فلن أستطيع ربط نفسي بك وأنت على خُلُقكَ هذا، فإن تخلّيتَ عنه وجدتني نعم الصديقِ لك، وإلاّ فلا." وأخبرني آخر أنّه وبعد أن كان يصله تحمّل النّاس لوقاحات صاحبٍ له وسوء خُلقه تقديراً ومحاباةً له، اتّخذ قراراً معناهُ ما لي ولك أيها الرّجل تسيءُ معاملةَ الناس فيتحمّلونك ليس لخلق فيك وإنّما إجلالاً وتقديراً لي لهذا أقول لك: "كل منّا يسيرُ في طريق ما دمت على هذا الخُلق." إنما من المؤسفِ تمسّك بعض النّاس من ذوي السمعة الحسنة بأناسٍ ليسوا من شاكلتهم بل هم من معايبهم، حتى قلت يوماً لأحدهم: "إنّ علاقتك بفلانٍ تسيءُ لك. فلماذا المجاملاتُ على حسابِ السمعةِ الطيبة التي لا يُعادلها ثمن؟" ذات يومٍ وجدتُ شخصاً وجيهاً يرافقه شخصٌ وضيع، في الوقتِ الذي يُطلق فيه ذلك الوضيع التفاهات ويسلك المسالك الخاطئة دون أن ناهٍ ولا زاجر من الوجيهِ. فحملتُ في نفسي موجدةً من هذا الأخير وقلّلتُ من شأنه وهو الموقف ذاته الذي وجدته عند أناسٍ آخرين عنه.

الصراحةُ لؤلؤةُ العلاقات بين الناسِ، تشعُّ منها مبادئهم، وتشفُّ منها أنفسهم، فإن قال المرء: "الحق ولو على نفسه"، كان ذلك أوّل الصّراحةِ ومعقلها فـ "لا يستطيع الإنسان أن يقوم بفعل صحيح في جزء من حياته بينما هو مشغول بفعلٍ خاطيءٍ في جزءٍ آخر. إن الحياة كلٌّ واحدٌ لا يمكنُ تقسيمه." كما يقول غاندي.

قيمة الواقعية

تتخدّر العقولُ، وتُعمى الأبصارُ، بخطابات مضلِّلةٍ، أو بأحلامٍ لا يُصاحبها في الواقعِ إنجاز، إمّا لأنها شطحاتٌ لا تمتُّ إلى الواقع المنظور بصلةٍ أو لأنّها مجرّد أحلامٍ لا تكلِّف الحالمَ إلاّ وقته فلا يبذلُ لها جهدا، ولا يستهلك لها رفدا. وإذا كان الخيالُ – الذي يكتنفُ الآتي أو القابلُ للحدوث ولو بعد زمنٍ، أو المكتنف ما يُنظر إليه على أنه مستحيلٌ في اللحظة – أقول إذا كان الخيالُ جميلاً، فإن بعض الخيالِ توهانٌ وتضليل إذا كان ضرباً من المستحيل. يقول إبراهيم ناجي:

قد يكون الغيبُ حلواً إنّما الحاضرُ أحلى

الحاضرُ أحلى لأنّه واقع، والمرءُ إن لم يكن واقعياً يغرّد خارج السرب، ويهيمُ في البراري. وهذه معضلة كبيرة يواجهها بعض النّاس الذين لا ينظرون إلى الواقع بعينٍ متفحِّصةٍ ثاقبةٍ، واعية بل إنّهم ليسبحون في خيالاتهم الجامحة التي من الصعب تحقيقها في تلك اللحظة، فإن عرض عليهم أمرٌ قالوا: لو كان كذا، أو كذا! ولو أنّ "كذا أو كذا" مما يمكنُ تحقيقه لكان ذلك أمراً مشروعاً ومحبَّباً، أمّا أن تكون محض خيالٍ أو منجزٍ بعيد المنالِ، فإنهم عندئذٍ لا يكونون واقعيين.

تعجبني واقعية الإنسان الذي يرى أن كل يومٍ تشرقُ فيه الشمس قد يكون آخر يومٍ في حياته، وهو اليوم الذي يحقق فيه ما كان قد خطط له. الإنسان الذي يتعامل بواقعيةٍ مع نفسه، فيشحذُ قواهُ، ويجمع قدراته، وهذا ما فعله ستيف جوبز steve jobs، صاحب شركةappel آبل، الذي أُصيب بمرضٍ خبيثٍ حَسِبَ أن فيه نهايته، لكنّه خرج بعد ذلك إنساناً واقعياً، لم تشغله الأوهامُ، ولم تلهه الأحلام فوجّه نصيحته للآخرين بأن يكونوا واقعيين في حياتهم.

قال لي والد طفلٍ لم يكن يمتلك موهبةُ الغناءِ حين طُلب منه ذلك: لقد قلتُ لابني أن بعض المواهب لا يصنعها الإنسانُ وإن كان يمتلك العزيمة والإصرار فهي فطرةٌ وهديّةٌ من الله، في حين قد يمتلك موهبةً أو قدرةً أُخرى لا يمتلكها صاحب الصوت الرخيم. لقد كان ابنه الصغير يردِّد عبارة "ليس صعباً علي..." وذلك لتحفيز نفسه، وهي عبارةٌ إيجابيَّةٌ لكنّها غير واقعيةٍ في بعض الأمور، ولذلك قد يضرّه الإيمان المطلق بهذه العبارة إن لم يكن مرناً، كما يقول المثل، "لا تكن رطباً فتعصر، ولا يابساً فتكسر." وهذه دعوةٌ إلى الواقعية.

إن بعض النّاس يتشبّثون برأيهم، حتى إن كان ذلك الرأي لا يتماشى مع الواقع، ولا يتناسب مع معطياته. هؤلاءِ لا ينظرون إلى الأمورِ من جوانبَ شتى، فإما الأسودُ أو الأبيض. ونحن هنا نتحدثُ عن أمورِ الحياةِ بعيداً عن الأمور العقدية التي قال الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ الحشر/7، هؤلاءِ الذين يرون الدخول من بابٍ واحدٍ، حتى إن كان فيه مضرّةٌ لهم وحسداً بعكس ما نصح سيدنا يعقوب عليه السلام بنيه: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ يوسف/67، فكم من أُناسٍ ذهبوا ضحيَّة الرأي المتشبِّثِ بالصوابِ وقد كانوا في وهم، وكم من أُناسٍ ضلّلوا بأفكارٍ وأوهام حسبوا لها جذورا في الواقعِ وهي محضُ تضليلٍ وبهتان. وفي المقابل فإن الواقعيين يبحثون دائماً عن الأبواب المفتوحةِ ولا يبحثون عن الباب الواحدِ فقط.

ولعلّ مصيبةُ الكثيرين في أنّهم غير واقعيين في طرحهم، مضللين في زعمهم وادعاءاتهم. ذلك لأنهم آثروا البقاءَ جامدين دون حراك، ولو أنّهم تحرّكوا لتحرّكت أعينهم، وتفتّحت أذهانهم، واستنارت أنفسهم. بعضُ هؤلاءِ يرى في الغربِ مجرّد عالمٍ إباحيٍّ منحط.، لا قِيم لديه بسبب انتشار البغي والفجور وأشكال الإباحية، وهذه نظرةٌ في عموميتها غير واقعية وغير منصفة، وأبلغُ دليلٍ

على ذلك ما نحيا عليه من منتوجات الغربِ، وما نتلقاهُ من علومٍ ومعارف في جامعاته. نعم في الغربِ مساويءَ وانحطاط وانحلال ولكن هذا لا يعني أنّ مستنقع الغوايةِ قد كبّل الغرب من التقدّمِ والابتكار والإبداع. في المقابل، يرون أننا نحن الأقوياء بكلمةِ لا إله إلاّ الله، أقولُ نعم نحن الأقوياءَ بإيماننا، لكن هل نترجمُ إيماننا بالله إلى واقع؟ هل فعّلنا القيم التي تكتنفها هذه الشهادة إلى سلوكيات؟ هل مجتمعاتنا نزيهةٌ أيضاً من المساوئ؟ هل أصلحنا عيوبنا لنتفرغ لعيوب الآخرين؟ هذه هي الشعارات المضلّلة التي خدّرنا بها بعضهم منذ الصّغر دون أن نأخذ في الإعتبار بأن المسلم يجب أن يكون منفتحاً وأن يطلب العلم – كما جاء في الأثر – حتى من الصّين، أي يطلبه من ثقافات مختلفة. إنما هي شعارات تحجبُ العقل عن الواقع.. شعاراتٌ يصفّق لها بعضهم ممن لا يدركون خطرها، وسمُّها المخدر الذي جعلنا نرسفُ في أحلامنا قروناً من الزمنِ دون أن ننظر إلى الواقع بعينِ بصيرةٍ تجعلنا نستيقظ لنرى الحال الذي أصبحنا عليه.

الواقعية تستلزمُ مواجهةِ الواقعِ والتعاطي معه بمسؤولية عالية، هذا ما أراه، ولا تعني التّهرب منه وإدارة الظهر له. الواقع يتغيّرُ يومياً وعلينا أن نكيِّف أنفسنا للتعاطي معه وفق منهج الوسطية والاعتدال الذي وصفه الدكتور عصام البشير بقوله: "هذا المنهج الذي يقدم الإسلام نهجاً يرتبط بالزمان والمكان والإنسان موصولاً بالواقع مشروحاً بلغة العصر منفتحاً على الاجتهاد والتجديد لا على الجمود والتقليد جامعاً بين النقل الصحيح والعقل الصريح مستلهماً الماضي معايشاً الحاضر مستشرفاً المستقبل، ثابتاً في الكليات مرناً في الجزئيات، محافظاً في الأهداف متطوراً في الوسائل، مرحباً بكل قديم نافع، منتفعاً بكل جديد صالح، منفتحاً على الحضارات بلا ذوبان مراعياً الخصوصية بلا انغلاق، ملتمساً الحكمة من أي وعاء خرجت، مرتبطاً بالأصل ومتصلاً بالعصر."

الواقعية تستلزم أن تتفتح العقول على الثقافات الأخرى، والآراء الأُخرى يقول المهاتما غاندي: "لا أحبُّ أن تسدُّ الجدران المنيعة بيتي في كل جهة، وتغلق نوافذي، إنّما بدلاً من ذلك، أحبُّ أن تهبّ ثقافات الأرض المختلفة في بيتي قدر

المستطاع، لكنني أرفض أن تقذفني أيّاً من هذه الثقافات خارج بيتي."[1] ولهذا فإن بعض الناسِ يرون أن الانغلاقَ هو الحلُّ الوحيد أمام الدفق الهائلِ من الأفكار والآراء وصور التعبير المختلفةِ، والثقافات الأُخرى.

الواقعية تستلزم أن يصل الإنسان – بعد تجارب – إلى محصلةٍ يرى فيها إمكانيات نفسه، وقدرات عقله، وجسده، فيتخذ قراره مما كان ينشدُ نيلهُ – إن كان مستحيلاً- لأنه لا يمتلك القدرات لنيله، بدل أن يهدر عمره وطاقته في طلب المستحيل، يقول الشاعر أبو تمام:

بصرت بالراحةِ الكبرى فلم ترها تُنالُ إلاّ على جسرٍ من التّعب

أما بعض الناس – غير الواقعيين – فيرون أن الراحة يمكن أن تنزل بين ليلةٍ وضحاها وهم نيامٌ في الغرف الباردة. وحين ينتبهون يرون العصاميين من أقرانهم قد حققوا نجاحات وإنجازات، ولا يملكون سوى الحقد عليهم وحسدهم. هذه غايةَ ما يستطيعون فعله لأنهم لم يكونوا واقعيين كما كان هؤلاء.

يربط غير الواقعيين أنفسهم بسرابٍ، فيجرون وراءه وكلّما أوشكوا أن يصلوا إليه ظهر بعيداً لهم فلم يتوقّفوا، ولم تصحُ عقولهم، بل استمروا في الجري وراء السّراب كأنهم عطشى يحسبونه ماء. وهكذا يمضي العمر بهم دون أن يصلوا إليه. هؤلاء لا يريدون أن ينتبهوا للحقيقة لأنها ثقيلةٌ عليهم كما يصف ذلك فاروق جويدة في قوله: "سئمت الحقيقة... لأن الحقيقة شيء ثقيل، فأصبحت أهرب إلى المستحيل."

لا يملّك غير الواقعيين شروط قياد أمرهم، كأنّهم مسيّرون بما يحدث لهم طوال العمر، غير مخيّرين بما يمكن لعقولهم أن تختار، "فللعقلِ أسماع وعاة وأبصار"، كما يقول الحلاج. فجميلٌ أن يكون الإنسانُ واقعياً يرى الأمور من مختلفِ الجوانبِ غير متزّمتٍ لرأي وغير متعصبٍّ لحجّةٍ إذا لم تمسّ الثوابتَ في دينه.

---

(1) Simms، A.، (2006)، The strange story of footloose money،Radical economic،Spring 2006Issue number 28.

لحظات إنسانيّة

اللحظات الإنسانيّة هي تجلّيات روحية عظيمة يحتاجُ إليها البشر، لاسيما في عصر ينتابُ فيه المرءَ بعض الأحيان بأنّه يكافحُ لوحدهِ تيّار الحياة. في زمنٍ التقنيات التي تفصلُه عن الآخرين، وتقصيه عنهم شيئاً فشيئاً، أن تهبَ الآخرَ لحظةً إنسانيّةً يعني أنّك تهتمُّ به، ويعنيك أمره. أن تطمئنَّ عليه متصلاً أو زائراً ولو لوقفةٍ على بابهِ، أن تقدّم له خدمةً، أو تشعره بأنّه إنسانٌ مهمٌّ لك. يروي لي أحد المهتمّين باللحظات الإنسانيّة أنّه كان مقبلاً على مشروعٍ هامٍ يتوجّبُ عليه التحضير المكثّف له ذهنيّاً وفكريّاً طوال أيّام، وقبل يومين من المشروع حانت ذكرى زواجه التي يحتفلُ فيها مع زوجته، فلم تشأ زوجته أن تذكّره بها لأنها لا تريد منه سوى التركيز في التحضير لمشروعه، لكنّه اقتطع وقتاً لـ"لحظةٍ إنسانيّةٍ"، وفاجأها بهدية الذكرى الجميلةِ قائلاً لها: ليس أهم من هذه اللحظة الجميلة سوى لحظة عبادةُ الله، واللحظةُ ذاتها التي وهبها لزوجته عبادةٌ من العبادات. وفي اليوم التالي مع اقترابِ موعد المشروع الكبير مضى للمطار لإستقبالِ صديق عزيزٍ عليه. ومع أنه كان يحتاج إلى كل لحظةٍ للتحضير، إلاّ أنّه لم يشأ أن يهدر هذه اللحظة الإنسانية الجميلة التي تربطه بصديقه. وفي عصر ذلك اليوم لبَّى دعوةً لابنه بحضور بطولة رياضيّة يشارك فيها، وهو يعلم أنّه في اليوم التالي على موعدٍ مع المشروع، وأن كلّ لحظةٍ تمرُّ عليه هي لحظةٌ ثمينةٌ لا يجب إهدارها إلاّ أنّه رأى أن اللحظة الإنسانية التي يرى فيها ابنه هي من أهمِّ اللحظات. وكنتيجةٍ لما وهبَ من لحظاتٍ للآخرين العزيزين لديه، وفّق في اليوم التالي في مشروعه. فكم من النّاس من يُلقي باللحظة الإنسانية جانباً ولا يعبأُ بها؟ كم من الرجالِ من تقول له زوجته نريدك أن تقضي لحظاتٍ معي أو مع أبنائك، فيردُّ عليها: إن انشغالي خارج البيت إنّما هو من أجل سعادة أُسرتي. أيّةُ سعادة؟ السعادة المالية! ومن ذا الذي يعوّض الزوجة والأبناء عن اللحظات الإنسانية

العاطفية الثريّة التي يبخس قيمتها الرجل؟ يذكر الدكتور إبراهيم الفقي: "إن من أعظم الأسباب التي وجدت لأكثر الناس نجاحاً في العالم حتى من الناحية الماديّة هم أولئك الملتزمون دينياً، المتمسكون بالقيم وعلى رأسها القيم الأسريّة." هذا يعني أن جمع المالِ، في حدّ ذاته، ليس نجاحاً حتى لو كان الشخص ناجحاً في عقد الصفقة بعد الأُخرى. يقول هيمان سكاتشيل في كتابه، **المتعة الحقيقية للحياة**: السعادة ليست في أن تحصل على ما ترغب، بل أن ترغب بما لديك وهو ما يعني الشعور بالإمتنان بما عندك/في طوايا نفسك وهذا ما يجهله كثيرٌ من الناسِ الباحثين عن السعادةِ خارج نطاق اللحظات الإنسانية. يقول نبيّنا المصطفى، ﷺ: "من أصبح آمناً في سربه، معافاً في بدنه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها." رواه الترمذي.

أخبرتني شابةٌ إنجليزيّة أنّها بالرّغم من أنّها تكافحُ من أجل العيش فتعملُ في مهنتين في الوقت نفسه؛ موظفة مكتب عقارات ثم ممرضةً في المساءِ إلاّ أنّها تشعرُ بالرضا والامتنان بأن لديها أربعةُ أبناء. وتضيف بأنها حين وقفت إلى جوارِ صديقةٍ لها في مرضها ووهبتها لحظات إنسانيّة، أهدت لها صديقتها عقداً من الذهب. تقول: لم أكن أفعل ذلك من أجل الحصول على مقابل أبداً فقد كان مقصداً إنسانياً. إنما الحظات الإنسانية في العالم الغربي قد ضعفت إلى حدٍّ كبير. يقول تشيب كونلي chip conley إن السعادة في القاموس الغربي هي "الطلب الحثيث بعدائية". ويتساءل هل من الصحيح أن نجري وراء السعادة بعدائية؟ إنّما في عالمنا فهي تتعلّق باللحظة الإنسانية التي نهبها لزوجةٍ وأبناء ومريض ومسكين ويتيم وجار وغيره. هذه اللحظة التي لا تطغى عليها المادة بل تمسحُ عليها العاطفة مسحةً شفيفةً، رقيقة، يتجلّى ذلك في الآية الشريفة، ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ النساء/8.

إن بعض النّاس ينفرون من اللحظات الإنسانية الرائعة، تلك اللحظات التي يتجلّى فيها الصفاء، فتجد أحدهم يعلّق على لحظات الاستقبال والتوديع بأنها لحظات لا تعجبه. لماذا؟ لأنه لا يريد أن يُرى في ما يظنّه موقف ضعفٍ حين

تنسكب الدموع من عينيه. هؤلاءِ قد حرموا أنفسهم من هذه اللحظات الإنسانية الجليلة، وكبتوا مشاعرهم، فترى أحدهم يُظهر "القوّةَ المزيّفة" و"الرجولةَ الواهمة" في بعض المواقف فلا يعبّرُ عن مشاعره القلبيّة لغيره كي لا تتغيّر قسمات وجهه، ولا تظهر خبايا نفسه. فإذا كتبوا كانت كلماتهم جافّةً، وإذا تكلّموا كانت عباراتهم مقتصرة، وإذا زاروا كانت زيارتهم شكليّة جوفاء مع أنّهم، على الرّغم من ذلك، يحملون في أنفسهم عاطفةً لكنّهم يريدون إخراسها وكبتها وإماتتها.

ما أجمل أن يُظهر الإنسان عواطفه، ما أصفى أن يعبّر عن خلجات قلبه، ما أطهر أن يُهدى الآخر أعظم الهدايا: لحظةً إنسانيّة تتسامى فيها العواطف، وترقُّ فيها القلوب، وتأنسُ فيها الخواطر. ووالله إن هذا مطلبٌ يبحث عنه الكثيرون، فلدى بعضهم أن لحظةً إنسانية قصيرة يهبها أبٌ لابنه خير من أموالٍ يغدقها عليه، وعاطفةٌ يظهرها صديق لصديقه خيرٌ من أفعالٍ كثيرةٍ يقدّمها له دون أن يعبّر له ولو للحظةٍ لمدى حبّه وتقديره له! إن نبيّنا الكريم لم يضنَّ على أحد بهذه اللحظة الإنسانية حتى اليهودي الذي كان يؤذيه زاره في مرضه. ومضى على سيرته سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه، الذي كان يخرج بعد كل صلاة فجر من المسجد إلى بيت من بيوت مكة كل يومٍ حتى تبعه ذات يوم سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فإذا به يدخل بيتاً صغيراً. فتعجب من ذلك فلما خرج سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه من منزل العجوز دخل عمر بن الخطاب البيت فوجد عجوزاً فسلم عليها وسألها: من أنت أيتها العجوز؟ فقالت العجوز: أنا أرملة توفي زوجي، فسألها ثانيةً: ماذا كان يفعل هذا الرجل عندك؟ فقالت العجوز: هذا الرجل يأتي كل صباح ليحلب الشاة وينظف البيت ويطبخ لي الطعام ثم يغادر، فسألها: هل تعرفين هذا الرجل؟ فأجابت: لا والله لا أعرف من يكون هذا الرجل الطيب، فقال عمر: هذا أبو بكر الصديق أمير المؤمنين فتعجبت العجوز، وبكى عمر وقال: أتعبت الخلافة من بعدك يا أبا بكر! هذا نمط رفيعٌ من اللحظات الإنسانية الصافية. بينما كثيرون منّا الآن (يترفّعون) عن إظهار مشاعرهم أو عواطفهم، ناهيك عن مساعدتهم للغير. وهم في إقصائهم اللحظات الإنسانية الجميلة إنّما يكبتون ويخرسون صوت السعادة في داخلهم، ويذيبون جمال الحياةِ، وإشراقتها المتمثلة في اللحظات الإنسانية.

نظرات

النظـراتُ الإنـسانيَّة ذات الحـسِّ الرّقيـقِ عنـوانُ الشّخـصيّة الأنيقـةِ، ودليـلُ النفسيَّةِ الشفيفةِ. النظـرات الـصادقة هـي الالتفاتـات الجميلـة مـن إنـسانٍ مـا لأجلِ خلقِ سعادةٍ في نفسٍ أُخرى، وهي بالتالي إسعادُ النفس بإسعادِ الآخر. وقلّما يتميّزُ بهـا فـردٌ بـين النّـاس لأن أصـحاب النظـراتِ الرّاقيـةِ متميّـزون، لا يخوضـون في مستنقع الرّوتيني اليومي المكرور للبشرِ وإنّما تكون لهم وقفاتٌ ذات معانٍ في حياتهم وحياة من حولهم. إنّهم لا يرون الأشياءَ من نفس المنظور الذي يراه منها الآخرون، بل هم كالمصوّرين المحترفين، وكالشعراءِ المبدعين، وكالرسامين المحدثين، لكنهم يرسمون لوحاتٍ إنسانيّة لا تسطّر على ورق، ولا تظهرُ في رسم، ولا تطبع في صورة، بل تحفرُ في قلب. وهذا هو ما يكتبُ لها التّفرُّد والتّميُّز.

لقد أعجبتني بعض النظـراتُ الجميلـة، الرّاقيّـة في الحيـاةِ، وإعجـابي بهـا منطلقٌ من رقيِّ الفعلِ الذي جاءت عليه، والشكلِ الذي برزت به، والحكمةِ التي انبجست منها. وما من شك أن القرآن الكريم هو لوحدهِ نظرةٌ كريمةٌ من ربٍّ كريم، وجميعُ آياته كاملةُ الرّقي، عميقةُ النظرات. ويكفي أن أذكر آيةً واحدةً منه، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ النساء/8. إن النظـرة الكريمـةَ، هنـا لا تتجلّى في رزق من حضر من المحتاجين بمنحه الدنانير وحسب، بل في القولِ الحسن الذي يتبعُ الرِّزق. فليست المادةُ هي المقصدُ والغاية بل قولُ المعروف الذي يلبسها حلّة إنسانيّة زاهية، تضيفُ لها معنى نفسيّاً له دلالته وأثره في النفس.

وفي النّاس شهدنا نظراتٍ تتفاوتُ في الأثر، وتتباينُ في الأسلوب والقيمة. يقولُ أحدهم، طلب مني أحد الأصدقاءِ الذين كانوا يدرسون معنا في الغربِ عنواننا في إحدى البلاد الغربية وقد كان يسكنُ في ذات المنطقة لغرض الدراسةِ، وفي يومٍ

العيدِ فوجئتُ وأسرتي بسيارةٍ تابعة لإحدى المحلاّت الكبرى تقف أمام البيت، ويقدّم سائقها الهدايا التي طلبها لنا صديقي في هذا اليوم عبر الشبكة العنكبوتية.. لقد كانت لفتةً رائعةً منه لم نتوقعها مما ترك أثراً جميلاً في أنفسنا. ويقول آخر، دعونا أحد الإنجليز إلى عشاء في بيتنا وفي اليوم التالي بعث لنا ببطاقة شكر عبر البريد يشكرنا فيها على الضيافةِ ويثني فيها على الطّعام. وفي هذا المقام أذكر أن الملكة إليزابيث، منذ ما يقارب الشهرين دعت النساء اللاتي عملن في الحقول أثناء الحرب العالمية الثانية وقمن بعمل كان يقوم به الرّجال فنسب إليهن جزء كبير من الانتصار في الحرب، دعتهن إلى حفل عشاء في قصرها بعد أكثر من ستين عاماً على واقعةِ الحرب. لقد كانت نظرة جميلة، تهدفُ إلى ردِّ المعروف إليهن وتذكيرهن بأن ما فعلنه لن تنساه الأجيال. وفي أثناء الفيضانات الأخيرة التي غمرت مقاطعة "كامبريا" بالمملكةِ المتحدةِ، أعجبني منظر جنديٌّ شاب ينتمي إلى الفرقة العسكرية التي أُوكل لها بناء جسرٍ بصورةٍ سريعة، وهو يستمعُ إلى نصائح جندي قديم كان ممن يبنون الجسور في الحرب العالميةِ الثانية. ما الذي جعلهم يطلبون مشورة جندي كان يبني جسوراً قبل ستين عاماً؟ إنها بلا شك النظرات التي تعترفُ بالفضلِ وقيمة التعلّم والاستفادة من الخبرات. وهنا أذكرُ أن صديقاً قال لي، إنّه زار، ضمن وفدٍ، إحدى البلاد في شرق آسيا ووجد أن ضمن البرنامج المعدّ لقاء مسؤول كبيرٍ متقاعد. يقول الصديق: "كان لقاءنا به من أفضل المحطات في زيارتنا للخبرةِ التي كان يتدفّق بها، فكّرنا حينها أن المتقاعدَ لدينا تنقطعُ علاقته بمؤسسته لمجرّد أن يخطو بقدمه خارجها متقاعداً."

إن من النّاس من يهتمُّ بهذه الإلتفات الجميلة في حياته، فمجرّدُ رسالةِ يذكرُ بها صديق أو يثني عليه بها هي نظرةٌ جميلة، ومجرّد أن يبعث إليه بهديّةٍ متواضعة هي نظرةٌ ذات دلالة، ناهيك عمّا يمكن أن يقدّم إليه من الخدمات، التي من شأنها أن تفرّج عنه همّا، أو تزيحَ عنه كرباً، أو تقدم إليه سعادةً. كلّ هذه الأمور لها وقعها في النفس، لكن بعض النّاس لا يلتفتون لهذه النظرات الرّاقية فحياتهم أشبهُ بصحراء جرداء لا فيها شجر ولا نبت. وجوهٌ كالحةٌ، وقلوبٌ

خاوية... لا يتركون أثراً في نفوس الآخرين من حولهم، ولهذا حينما يرحلون يتلاشى أثرهم. يقول روبين شارما في كتابه، **دليل العظمة**: "إحدى الكلمات الاثيرة عندي هذه الأيام كلمة "الأثر" ونفس الشيء بالنسبة لكلمة "الإرث". إن العظمة تأتي بأن تبدأ شيئاً لا ينتهي بنهايتك، توقف إذن عن القلق على الموت، اهتم بالحياة، بما ستخلقه اليوم، بالإسهام الذي ستقدمه اليوم، بالشخص الذي ستحتفي به اليوم، بالخوف الذي ستهزمه اليوم، بالمعروف الذي ستصنعه اليوم."

نعم اليوم وليس غداً. وبالأمس أطريتُ أحد الأصدقاء لانتشاله الكثيرين ممن فقدوا دوافع التّعلم، واستسلموا لأنفسهم المنهزمة ولواقعهم المرير، فلم تشغله مسؤوليات منصبه عن الاهتمام بقدراتهم حتى أصبح من كان في وظيفة بسيطةٍ اليوم يتبوأ منصباً بسببٍ من نظراتهِ إليهم. وحين شاهدنا إحدى المتميزات في المحافل الدولية، قال لي لقد حفّزتها على أن تظهر قدراتها، التي لم تكن هي ذاتها تؤمنُ بها، وها هي الآن متميّزة على الصعيد الدولي.

إن الأعمال العظيمة يقفُ وراءها أناسٌ عظماء، ذوو نظراتٍ عميقةِ الأثر، بعيدةُ الهدف، وهم أناسٌ متميّزون لم يتركوا نهر الحياةِ يمر جزافاً بل صنعوا له قنوات ووجهوها إلى كلّ شجرة تقاسي الجدب، وفيها من الحياةِ ما تستحق أن تكون وارفة الظلالِ، طيّبة الثمر... هؤلاءِ المتميّزون هم كمصوّر وضع صوراً لشارع "وليام براون William Brown street" في مدينة ليفربول على إحدى المواقع، فقرأتُ ردّ أحدهم على الصورة قائلاً: إنني أسكن في ليفربول، لكنني حتى نظرت إلى هذه الصور، لم أكن أتصوّر مدى جمال الشارع الذي مشيت فيه مليون مرّة ولم أنظر إليه بهذه الطريقة ولو لمرّة واحدة من قبل، ولذلك أشكرك على جميلك." هذا هو بالفعل ما يفعله الناس المتميّزون يمشون لمرّة واحدة في الشارع فيرون الجمال، ويمشي غيرهم مليون مرّة فلا يرى شيئاً. إنّما لو أبطأ الخطو، لو تأمّل، لو فكّر، لرأى العجب. وفي مكامنِ النّاس من حوله أغلى النفائس، وأثمن الكنوز سيكتشفها. لو أنصت إلى قلبه... ونظر!

خطوات صغيرة

لا يمكنُ للإنسانِ أن يدّعي السعادةَ وهو يعيشُ سكونيّة الحياةِ وخمودها وركودها. فالسعادةُ تكمنُ في المتجدّدِ من الفكرِ والسلوكِ وأنماط العيشِ تجدّداً ذا قيمة، يدفعُ بعقليةِ الإنسانِ إلى الإحساسّ اللّذيذ بقيمةِ الحياة وهنا تكمنُ السعادة. وقد نظرتُ إلى حياتنا فوجدتُ أغلبها تكراراً لما قبلها. يومٌ خلف لأمسٍ سلفْ. لا جديدَ يطغى، ولا حديثَ يغشى، سوى إعادةٌ لما قبلُ، وتكرارٌ لما انتهينا عليه. نظرتُ إلى كثيرٍ من احتفالاتنا ومناسباتنا الاجتماعية المختلفة فوجدتها تمضي على الإيقاعِ والنمطِ ذاتهما. ليس ثمّة إضافة عليهما بل يمكن القول إنّها تراجعت عن أنماطها التقليدية، وكأنّما فرغت أفكارنا من الجديد المبتكر، وفضّلنا الاحتفاظ بالتقليدِ المستقر. وليس في هذا عيبٌ أو خلل إنّما المعضلةُ أن الثقافاتُ تضمحلُّ حين يختفي الابتكار. نظرتُ إلى أعيادنا فوجدت أن مقولة المتنبي أصدق ما يعبّر عنها:

عيدٌ بأيةِ حالٍ عدت يا عيدُ بما مضى أم لأمرٍ فيه تجديدُ

كحالي يسأل المتنبي عن الجديدِ في العيد. الكثيرُ من المناسبات ذات برنامجٍ متكرِّر ليس فيه مما يجعلُ المرءَ يتحرّق شوقاً لمرآه، برامجُ الاحتفالاتِ والفعاليات قلّما يكون فيها الجديدِ. والشكوى هي قلّة الدّعم أو عدمه. تابعتُ إلى الكثير من الأعمال التلفزيونية فوجدتها ذات صيغٍ متكرِّرة، وحبكاتٍ مستهلكةٍ، فلا إبداعَ يثير النّاس، ولا طرح يلفت الحسِّ، ويثير المشاعر. هل تفتقر هذه أيضاً إلى الدّعم المادي وقد انهمر عليها؟

الجديدُ وحده الذي يجعلُ الحياةَ ذات معنى. أمّا عدا ذلك فقديمٌ يتكرَّر كلّما أشرقت الشمس، والشمسُ وحدها على غير ظنِّ الكثيرين تشرقُ كل يومٍ من مكانٍ جديدٍ، يقول تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ

ﭐلۡمَشَٰرِقِ﴾ الصافات/5، وفي تفسير الطبري " للشَّمْسِ كُلّ يَوْم مَشْرِق وَمَغْرِب ؛ وَذَلِكَ أَنَّ اللَّه تعالى خَلَقَ لِلشَّمْسِ ثَلَاثمِائَةٍ وَخَمْسَةً وَسِتِّينَ كُوَّة فِي مَطْلِعهَا ، وَمِثْلهَا فِي مَغْرِبهَا عَلَى عَدَد أَيَّام السَّنَة الشَّمْسِيَّة." والنّاس الذين لا يرون الجديد في الحياةِ يسألون بعضهم: ما هو الجديد؟ فيردُّ أقرانهم: "لا جديد تحت الشمس." انطفأ وهج العقول، وأغلقت أبوابُ الإبداعِ، وغفت الأدمغة! لِماذا لا جديد؟ وحين تبارت الأمم التي تتقدّمُ بالجديدِ من مخترعاتها في شتى العلوم والتقنيّة كصنع أكبر طائرةٍ، وأكبر سفينةٍ، وأسرع قطارٍ، وأحدث جهازٍ، باريناهم نحن أيضاً بجديدنا في صنع أكبر كبسةِ أرزٍ، وأكبر كنافةٍ، وأكبر صحن حمّص، وأطول شاورما! وهذا ما تفتّقت به عقولنا، وتفجّرت عنه أفكارنا. لقد عبّر الشاعر الأندلسي إبن دارج القسطلي عن عهدٍ متّسم بالتجديدِ؛ عهد الأندلس فقال:

زمان جديد وصنع جديد ودنيا تروق ونعمى تزيد

وغيث يصوب وعيش يطيب وعز يدوم وعيد يعود

كان ذلك في زمنٍ عربيٍّ تتفتّق فيه الأذهان عن التجديدِ، وعن الثراء المعرفي الذي امتدّت أنواره السنيّة في أجواء المعمورةِ، فينبهرُ الناسُ بمبتكرات العقل العربي، ويحسَبُ شارلمان الذي أهدى له هارون الرشيد الساعة أنَّ بداخلها جنيّاً فيأمر أحد حرّاسه بإخراجه. أين نحنُ منهم الآن على صعيد التجديد؟ كنتُ أتابع منذ يومين برنامجاً في قناة (البي بي سي) البريطانية، وفيه كان أحد الرّجال الذين لا يستقرُّ بهم صعيد إلاّ أن يظهروا بالجديدِ قد أعياه التفكير في الجديدِ، وهو في حوضِ السباحة، حتى صرخ كما فعل أرخميدس "وجدتها" قائلاً: سأعبرُ القناة بين إنجلترا وفرنسا فوق حوض سباحة! ثم كبرت الفكرةُ في رأسهِ، واتصل بمئات الشركات من أجل الحصول على التأمين بعد أن سجّل حوض السباحةِ في الهيئة المسؤولة عن تسجيل القوارب والسفن بصفةِ "قارب". وأخيراً وجد الشركة التي تؤمّنه بخمسةِ ملايين جنيه إسترليني، فعبر القناةَ في تسع ساعاتٍ، وجمّع لصالح إحدى الجمعيات الخيريّة مبلغ عشرون ألف جنيهٍ

إسترليني. ليست المسألةُ هنا تنحصرُ في عبور قناةٍ بالتجديف على حوض السباحةِ وإنّما في جديدِ الفكرةِ وفي مقصدها النبيل(المساهمة لعمل خيري).

في مجتمعاتنا أناسٌ تعيشُ وتموتُ كالظلال، تفضّل سكونيّة الحياةِ وخمودها، وخلائها من الحركةِ، فلا تجدُ في القرى أناسٌ تجتمع لتفكّر في عملٍ جديد، ولا ترى في أحياءِ المدن من يستثمر طاقات البشرِ في عملٍ جديدٍ، ولا تجدُ في المجالس أو المقاهي الجديد الذي يتحدث عنه الناس بل هو اجترارٌ لقديم متداول. حتى الرسائل الإلكترونية التي يتداولها أغلبنا مرّت علينا، وتعبنا من الإطّلاع عليها، ومسحها، وإعادة قراءتها، حتى حفظنا بعضها. ولا تجد في المكاتبِ ما يتحدثُ فيه المدراءُ مع موظفيهم عن الجديدِ الذي ينتشلُ العمل من روتينية الإيقاع وبيروقراطية الأسلوب إلى عالم الابتكار والتحديث. إنّما شمس الكثيرين منّا يجري عليها وصف شاعرنا أبو مسلم البهلاني:

إذا أرسلت شمسٌ شعاعا من الهدى دعاها فلبت للخمود صعيدُ

أكل مرد الموت أن نهارنا قصيرٌ وليلُ الراحلين مديدُ

وأناسٌ لا يحبّذون الجديد، يطلّون برؤوسهم الرقطاء بين فينة وأخرى منتقدين الجديد المبتكر، يريدون أن يبقى البشر متعلقين في ذكريات الماضي، وأشواق الماضي، وربوع الماضي، غير متطلعين إلى الجديد، أو متلهفين إلى صعيد، فأحرى بهؤلاءِ أن يقولوا خيراً أو يصمتوا، أن يجدّدوا عقولهم أو لا يعرقلوا الآخرين. التجديدُ سمةُ الحضارة، والابتكارُ عجلتها، وعقل الإنسان الذي يضجُّ بالحياةِ قيّمُ دفّتها.

إنني لأرثي حياةً ساكنةً، خامدة، يمضي أصحابها من الحياة دون أن يثيروا انتباه أحد، دون أن يتركوا بصمةً، دون أن يبقوا أثراً. يقول روبين شارما في كتابه **دليل العظمة**: "إن أفضل الناس ليسوا أكثر موهبة من بقيتهم. وكل ما هنالك أنهم في كل يوم قد اتخذوا خطوات صغيرة تقربهم من الحياة التي يريدونها لأنفسهم، وتتوالى الأيام، مكونة أسابيع، وتنساب الأسابيع مكونة أشهراً، وبدون أن يشعروا، يصلون إلى المكانة التي نطلق عليها مكانة "فذّة

وممتازة". نعم "الخطوات الصغيرة"، هي التي أقصدها من أجل التغيير /التجديد. من يريد أن يصبح ذا علم يقرأ كل يومٍ صفحة، من يريد أن يصبحَ كاتباً يقرأ كل يومٍ في موضوع، من يريدُ أن يكون متبحراً في علم يطّلع كل يوم معلومةٍ بسيطةٍ عن العلم ذاته، من يريدُ أن يكون رياضياً موهوباً، فليتعلّم كل يومٍ بعض أسس الرياضة التي يحبّها، من يريد أن يتقن صنعةً يثابر كل يوم لتعلم مهارةً من مهاراتها، من يريد، من يريد... ليس عليه سوى أن يتخذ خطوات صغيرة... كي تتجدّد حياته.

ما لا يَعني

مما يجلبُ العواقب الوخيمة على المرءِ زلّةِ لسانِه، أو سقطةَ لفظِه بسبب هذرِه، وكثرةِ كلامه، ولغطه... وخوضهِ في ما لا يعنيهِ من أمورِ النّاسِ، وأعراضهم، وخوّاص شؤونهم، لأن ذلك مؤذٍ للآخرين، وجارح لمشاعرهم. فكما يقال، "جرح اللّسان أشد وطأة من جرح السِّنان." وهذرُ الإنسانِ في أمورٍ لا تخصّه، وشؤونٌ لا تعنيه، انتقاصٌ لقدرِ نفسهِ، وإنزالٌ لكرامته، فهو لا يخوضُ في شؤون الغيرِ إلاّ عن نقيصةٍ يحسُّ بها، ودونيَّةٍ يشعرُ بها، إنّما الشريفُ، العفيفُ هو من يصونُ نفسه عن التدخّلِ في ما لا يعنيهِ. يقول، ﷺ، "من حسن إيمان المرء تركه ما لا يعنيه." وحينما سأله معاذ بن جبل رضي الله عنه: "يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟" فأجاب النبي، ﷺ، بسؤال تقريري: "ثكلتك أمك، يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم أو على مناخيرهم في النار يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم؟" فإذا كان أطيب عضوين في الإنسان هما قلبه ولسانه، فهما أخبثُ عضوين أيضاً إن جرى عليهم الخبيث من القول، والفاحشُ من الكلام.

وإني لأعجب من هذه اللّذة التي يجدها بعضهم وهو يخوضون في شؤونٍ لا تعنيهم، وكأنّما ليس في الحياةِ من الشؤون التي تستحقُّ نقاشها، والحديث حولها، وتداولها سوى أعراضُ الخلقِ، وشؤونهم وتتبّع عوراتهم. إنّها لذّةُ المرضى، أولئكَ الذين يداوون عللهم بعلل أشدُّ فتكاً، كمن يهربُ من مشكلةٍ يعانيها إلى الخمر، أو إلى التدخين. فهو "كالمستجيرِ من الرّمضاءِ بالنّار." لا يجدون حلاوةً أكبر من الانتقاص من شأن النّاس، والتطرق إلى عيوبهم. وفي المقابل يعلون من رفعةِ شأنهم أنفسهم. ووالله لو انشغلوا بعيوبهم لأغنتهم وشغلتهم عن غيرهم، ومنعتهم عن تقصّي أمورهم، وتتبّع عوراتهم! وقد شهدتُ من النّاس من لا يلذُّ له حديثٌ سوى الانتقاص من هذا، وإلصاق العيوب على ذاك. وهو والله مليءٌ بالعيوبِ، غير أنّه لا يتّعظ بمقولةٍ حكيمٍ كالشافعي حين قال:

لسانك لا تذكر به عورةَ امرئٍ فكلّك عوراتٌ وللناس ألسنُ

وعينك إن أبدت إليك معايباً لقومٍ فقل يا عينُ للناسِ أعينُ

مثل هؤلاءِ رجلٌ لا يظهرُ في مقابلةٍ إلاّ وهو ينتقصُ شأنِ الآخرين، ويقلّل عطاءاتهم، ويسفّه جهودهم، حتى أنّه لم يستطع، ذات مرّة، أن يكبحَ جماح نفسه دون أن يكتب رسالةً إلى أحدهم مسفّهاً، ومنتقصاً. فأذاع ذلك المرسَلُ إليهِ الرسالةَ إلى أقرانه فما كان منهم إلاّ أن أهالوا سهامهم على المرسل معدّدين عيوبه، ومنتقصين شخصه. فهل سيتلقّى الردود التي لا يودّها لو صان نفسه عن القدحِ في الآخرين؟ وشابٌ آخر لا يحلو له سوى انتهاك عرض النّاس حتى أسقطته لسانه عند قريبٍ من امرأة يقذفها بلسانهِ، ويتهمّها بكلامه. فأسلمه لسانه إلى عواقب لم يكن يحسبُ لها في ظنّه.

إن الكثير من المجالسِ والمقاهي والمكاتب والمنتديات في مجتمعاتنا لا يهنأ لها مقعد، ولا يطيبُ لها حديث، ولا يأنس لها فضاء إلاّ بالخوضِ في شؤونٍ لا تعنيها. عمّارها أناسٌ لا شغل لهم سوى إجراء اللّسان في مذاهبَ لا يكون من ورائها الخير بل السمُّ الزعاف. ولو اشتغلَ الموظفون بالحديث عمّا يطوّر أداءهم، ويحسّن عملهم لكان ذلك خيراً لهم. ولو اشتغل الجلاّس في شتى المجالس والمقاهي في ما يضيفُ إلى النفسِ من خلائق، وفضائل، ومعارفَ، وعلوم لكان ذلك أفضلُ وأجدى. ولو انشغل أرباب البيوت وأفرادها في اقتصاد المعيشةِ، وتحقيق الأهداف، واكتساب الشمائل لاغتنوا وارتقوا. ولو اشتغل روّاد المنتديات في ما يصلح من أنفسهم، ويقوّم من أخطائهم لاستفادوا. لكنّ الكثير، الكثير من مجالسنا ومكاتبنا وبيوتنا ومنتدياتنا غارقةٌ في شؤون لا تعنيها، وأمورٍ لا تخصّها. وهي لا تتطرقُ إليها على سبيل التّعلم، بل على سبيل التّهكّم. فكم من النّاس من وقعَ في المحظورِ أمام أهلُ الشأنِ فقامت القائمة بينهم، وكم منهم من هتك أعراض الآخرين فبلغهم اللّغط فساءت العشرة، وتعكّر الصّفو! ووالله، لو كلّ واحدٍ منّا اتبع هذا الحديث لسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إيَّاكم والظن فإن الظنَّ أكذبُ الحديث ولا تحسَّسوا ولا تجسَّسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا كما

أمركم، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى هاهنا (قالها ثلاثاً) وأشار إلى صدره بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله." رواه مالك والبخاري ومسلم. هذا منهاجُ طريقٍ نيِّر لا شائبةَ فيه.

وكم شهدتُ على من يتظاهرون بالدّينِ، ويدّعون الثقافة، ويزعمون العلم، ويتفاخرون بالأدبِ وهم يحطّون من أقدار الخلقِ، ويرفعون من شأنهم، لا يرون في العبادِ إلاّ عيوباً، ولا يرون في أنفسهم إلاّ كمالاً. يحكمون على هذا من مظهره، ويقدحون ذاك لصورته، ويشمّتون آخر لجهله. ولا يعلمون أن"ربّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه." رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة، ولا يدركون أن التقوى في القلب كما جاء في الحديث الشريف السابق. أولئك ما عرفوا أبسط قيم الدّينِ والثقافةِ والعلم والأدب؛ تركُ المرءِ ما لا يعنيه. وإنني لأقدّر أناساً تراهم في المجالسِ صامتين، آذانهم صاغيةٌ، لا يخوضون مع الخائضين، فإما نطقوا بخير أو سكتوا. أولئك صانوا أنفسهم عن الخوضِ في ما لا يعنيهم، وترفّعوا عمّا يؤذيهم. هم المستحقون للتقدير والإجلال.

ولو أن مصالحنا وبيوتنا ومجالسنا ومنتدياتنا عمرها ما يعنينا لتقدّمنا، ولكننا آثرنا أن نشغل الفراغ بالحديث في ما لا يعنينا، فتأخّرنا. وتلك واحدةٌ من مصائبنا الكبار!

لو فكّروا...!

يترصّدُ بعض النّاس الدوائرَ ببعضهم لكأنّهم ينتهزون الفرصة السانحة للنيل والنكال حينما يظفرون بهم. ينتظرون الزلّة البسيطة من اللّسان حتى ينقضّوا بوحشيّة انقضاض الوحشِ المفترس على ضحيّته. القلوبُ ضيّقة، والعقولُ مريضةٌ، والنفوسُ تندفعُ نحو أدنى سببٍ للقطيعةِ والخصام. شهدتُ قبلَ أيامٍ عند دخولي المسجدِ شاباً يتجادلُ مع رجل في عمر والده ألقى عليه الأخيرُ عبارة بحسنِ نيَّةٍ، فلم يتلقَّها الشاب بصدر رحب وإنّما أخذ يكثرُ في جدالهِ ومحاورتهِ من أجلِ أن يوقع المتحدّث في فخ المقصدِ السَّيِء في الوقت الذي كانت تقام فيه الصلاة. لو فكّر الشاب أن التسامحَ قمّة الفضائل، لتوجَّه إلى الصلاةِ وهو باسمُ الثَّغرِ، مرتاح الخاطر.

وإنني لأعجب من كثرةِ المترصِّدين في دوائر العملِ المختلفة، فالموظّف قد يكون مجتهداً، مثابراً، مخلصاً في عمله لكن المترصدين يبحثون عن زلّةٍ يحسبونها عليه ليسقط، وقشّةٍ يلقونها على ظهره ليغرق! والغريبُ أن ثمّةَ أناساً شاذون في أفكارهم، ليس للخلقُ عندهم مكانة، ولا للفضيلةِ منزلة، وهم مع ذلك في منأى من التّرصدِ، وبُعدٍ عن المكائد، بل هم أصحابُ حظوةٍ وتقدير. لو فكّر هؤلاءِ المترصدون لأثابوا المجتهد، وآزروا المخلص المتفاني، وأقالوه إن عثر، وفي المقابل نصحوا المنحرفَ، وعاقبوه إن أصر على انحرافه، وفي النهاية أوقفوا ألسنتهم عن قضم أعمالهم الخيِّرة.

وإذا كان العربي قد عرف منذ الجاهليّة بمروءتهِ وهي خلقٌ رفيع المعنى فالمترصدون لا يعرفون من المروءةِ شيئاً. هؤلاءِ الذين لا يقيمون وزناً للناسِ إلاّ على أساسِ مراتبهم، ومناصبهم، ومدى منفعتهم، وجاههم، وحسبهم ونسبهم، وما يملكونه من أموال وليس على أساسِ التقوى، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ الحجرات- 13.

وأعجبُ من أولئكَ المنتهزين الفرصةَ كي يديروا ظهر المجن على أصحاب الإحسان حتى إذا حانت انقلبوا على وجوههم، وخلعوا أقنعتهم، رأيتهم وقد تحوّلت أنفسهم فتنكّروا للفضلِ والجميل، بل ذهبوا أبعدَ من ذلك. يقول أحد الأصدقاءِ أنه أنقذ إنساناً من محنةٍ ماليّة وبعد عامين راجعه في الحقّ فشكى به في المحكمة. لو فكّر هذا المديونُ أنه بهذا يضعف المروءة في الناس، ولحمل دينَ هذا الذي وقف إلى جانبه ساعةَ المحنة على عاتقه، وأغدقه بالشكر، وذكرهُ بالثناء، لكان كما وقف معه في الأولى سيقف معه في الآخر. ويقول آخر: أقرضت أحدهم مبلغاً كان في حاجةٍ ماسَّةٍ له، فلما أن قضى حاجته، لم يقل لي كلمةَ "شكراً". ومرّت الأعوام دون أن أسمع صوته. ويقول روبن شارما في كتابه **دليل العظمة**: "أحياناً يجعلني نكران الجميل أشعر بشيء من الضيق. إنني أحاول معاملة الناس معاملة طيبة، ومساعدتهم على النجاح، والثناء عليهم وإطراءهم، وبالتالي أكون لهم عوناً في مسعاهم لعيش الحياة التي يتمنونها لأنفسهم. وكل ما أوده في بعض الأحيان هو سماع الكلمتين السحريّتين: "شكراً لك!" نعم هما كلمتان خفيفتان على اللسان لكنّهما ثقيلتان على قلوب بعض الناس!" ويقول آخر: أوصلتُ إنساناً إلى مراتبَ لم يكن يحلمُ بها يوماً، فلمّا حقّق شهرةً في إحدى المناسبات، مشى يتبخترُ كالطاووس نافشاً ريشه، مزهواً مختالاً، والناسُ تهيلُ الثناءَ عليهِ، وتمتدحه وأنا أسيرُ إلى جانبه دون أن يشير إليَّ بكلمة. ثم إنني قلتُ له بعد ذلك: "وددتُ أن أسمع فقط كلمة شكرٍ واحدةٍ منك." كلمة "شكراً"! لو فكّر هذا، لما قال "شكراً" وحسب، بل لخفض جناحيه تواضعاً، وأرجعَ الفضلَ إلى هذا الذي وقف معه.

وأعجبُ من أولئكَ الذين قلوبهم ملآى بالشحناء... قلوبهم مشحونة ضد بعضهم، كأنّهم أسطواناتُ غازٍ أو براميل مملوءةٍ بالوقود تنفجرُ لمجرّد أن تلامسها شعلةً ضئيلةً من لهب. هكذا تراهم في أمكنةٍ مختلفةٍ؛ عند إشارات السيرِ وهم يفرغون شحناتهم على أبواق عرباتهم... عند المقاهي وهم يرفعون عقائرهم بالمشاجرات التافهة... في الأسواق وهم يكثرون من الجدل السّخيف... في الملاعبِ وهم يلقون بالكلمات النابية... في المكاتبِ وهم يقذفون هذا

بالنميمة، ويغتابون ذاك. هؤلاءِ هم أهلُ الخصومات الطائشة، والأحقاد المغلظة لأتفه الأسباب، وأحقر الدواعي. لا ترى البِشرَ في وجوههم، ولا الانشراحَ في تقاسيمهم، إنما الإكفهرارُ والتّرصّدُ والتقطيب. لو فكّر هؤلاءِ بأن التوافهَ لا تستحقُّ إهدار طاقةٍ نفسيّة، تكون سبباً لعلّة جسديّةٍ في ما بعد. وأن الخصومات نزعةٌ إلى الهلاك، وقائدٌ إلى الندم! هؤلاءِ - مع كل هذه الخصالِ القبيحةِ فيهم – تراهم آخر الأمر في المساجد. يقول الشيخ محمد الغزالي:"على أن بعض المنسبين إلى الدين، قد يستسهلون أداء العبادات المطلوبة ويظهرون في المجتمع العام بالحرص على إقامتها وهم – في الوقت نفسه – يرتكبون أعمالاً يأباها الخلق الكريم والإيمان الحق".

وأعجبُ من متربّصين لعيوب الخلق، فإذا وقعوا منهم بعيبٍ أعلنوا عنه، وشهّروا به. ولو أنهم فكّروا في عيوبهم لانشغلوا بها عن عيوب غيرهم. يقول الشيخ محمد الغزالي: "ومن المؤسف أن بعض الناس يقع على السيئة في سلوك شخص ما فيقيم الدنيا ويقعدها، ثم يعمى أو يتعامى عما تمتلىءُ به حياةً هذا الشخص من أفعال حسانٍ وشمائل كرام." ولو فكّر كلّ من شغلته عيوب الخلقِ لما تهدّمت بيوتٌ، وتصرَّمت علاقات، ووئد إحسان... لكن جُبل أغلبُ الخلق على النسيان. كيف لا وأغلبُ سواد هذه الأرض لا يذكرون فضل الله ونعمه عليهم. يقول زهير بن أبي سلمى:

ومهما تكن عند أمريء من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تعلم

منذ أيام تُوفي أحد الرجالِ، فجلستُ في أسرتي، كلّ واحدٍ منا يستذكرُ مناقبه، ويترحّمُ عليه. فقلتُ: لماذا لا تذكرُ محامدِ المرء، وتذكرُ خصالهُ الحميدة إلاّ حين يقضى شأنه؟ وأعلمُ أن رحيله ينبشُ القصص الجميلةَ عنه. إلاّ أن الإنسانَ من طبعهِ الغالب عدم الشعور بقيمة الآخرين، حتى إذا رحلوا شعر بفراغٍ في حياتهِ، بل يبكي ذاك الذي يملأ حياته بالمشاجرات الصغيرة! فكيف لا يلتفتُ الناس إلى من حولهم إلاّ حين فقدانهم؟!

إن النّاس لو فكّروا في كلّ كلمةٍ، أو فعلٍ أو حركةٍ، أو نظرةٍ، أو رأي لرأوا عاقبتها قبل أن تنطلق منها. إنّهم ليحتاجون إلى فهم الأمورِ بشكلٍ ميسّر،

وفهم الحياةِ بصورةٍ واقعيّة، وأن أغلبُ ما يصدرُ عنهم – في ما ليس فيه خير لهم – هي توافه لا تستحقُّ الثوران والغضب. يقول ديل كارنيجي: "إننا غالباً ما نواجه كوارث الحياة وأحداثها في شجاعةٍ نادرةٍ وصبرٍ جميل، ثم ندع التوافه بعد ذلك تغلبنا على أمرنا."

قيمة الكلمة

لا يدركُ بعضُ النّاسِ مدى البعد الذي تذهب إليه الكلمة التي يلقونها جزافاً من أفواههم... والكلمةُ الحارقةُ كالشرارةِ التي تشعلُ الهشيم ثم تتطاير مع الريحِ حتى تصيبُ بشررها النفوس الغافلةِ على الجانب الآخر. أُناسٌ تقابلهم بوجوهٍ تتصنّعُ الطِّيبةَ، لكن ما إن تغيبَ حتى يكشفون نواياهم، ويلفظُون حممهم. هؤلاءِ مرضى النفوسِ، ينخرهم الغيظ الذي يقضي عليهم: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ آل عمران/ 119.

أُناسٌ تحسَبُ أن الودَّ بينك وبينهم مدعاةٌ لعلاقةٍ ناجعةٍ، فتجتهدُ أيّما اجتهادٍ كي تُبقي حبال الودِّ مشدودةً غير مرخية، فتناديهم بأحسنِ الألقابِ إلى قلوبهم، وتحدِّثهم بأفضلِ الأحاديثِ، وتجاهرُ لهم بمكانتهم البارزةِ في نفسك، لكنك تجهلُ ما يعتملُ في قلوبهم، وإلى من تميلُ، ومن تفضّل، وما هي إلاّ مواقف قصيرةٍ حتى تكتشفَ أنّهم باعوا ودّك بأثمانٍ زهيدةٍ دونما سبب سوى أنّهم انتصروا لأنفسهم أو لفلانٍ، وليت ذلك النصر كان لحق! يقول أحد الأصدقاء: كنتُ أحسبُ أن فلاناً يبادلني الودَّ، وأنا على ذلك مطمئنُّ القلبِ حتى كشف لسانه عمّا يعتملُ في قلبهِ من الغيظِ والنفاق فترك ذلك أثراً بليغاً في نفسي. ويقول آخر: كنتُ أُحسن الظنَّ بأحدهم وأحسبُ أنّه يبادلني المعزّة حتى كشفت الأيام عن ولائه - بسبب المصالح المشتركة - لآخر كان يمرّر له ما يتم تبادله بيننا.

فئةٌ أُخرى تُدركُ مدى ما تذهبُ إليه الكلمةُ من إساءةٍ لكنّها لا تأبه. فلا تكتمُ سرّاً، ولا تداري رأياً، فتنتشر عند هذا وذاك سمومها، والألسن تتلذذ النقل..! وهي مع هذا تقابلُ من تجاهرُ بالحديثِ عنه بوجهٍ متصنِّعٍ، لكنّه

كالمرآةِ المهشَّمةِ يبينُ فيها الحطام. ينثرون ثرثرتهم عند هذا وذاك فلا يكتمون غلاً، ولا يخبّئون حقدا. هؤلاءِ لا خير في ودّهم كما يقول بشار بن برد:

ولا خير في ودّ امرئٍ متصنّعٍ بما ليس فيه، والوداد صفاءُ

فالقلوب التي تخلو من الصفاءِ لا يمكنُ أن يُنالَ منها الودُّ، ولا ترتجى منها المحبَّة، ذلك لأنها قلوبٌ كدرة قد خالطتها الأحقاد والضغائن والأمور التافهة التي لا يجدر بالمرءِ صاحب الهمّة القعساءِ التفكير فيها. أُناسٌ ليس لهم في قلوبِ العقلاءِ الرشداءِ من منزلةٍ لأنّهم لا يترددون في الإساءةِ إلى أحدٍ وراءهم، وهم يتصفّون بالجبنِ لأنهم لا يستطيعون البوح بآرائهم في مواجهةِ (خصومهم). يروي أحدهم أنّه وصله أن رجلاً وصفه بالغرور لأنه لم ينظر إليه ويسلّم، وفي الحقيقة، فإنه لم يفعل ذلك تعمّداً، بل فعله عن عدم رؤيته له. ويقول آخر: إن فلاناً من النّاس يستطيبُ الغيبةَ في النّاس من ورائهم وهو يتقطّع غيظاً، فإذا واجههم بسطَ أسارير وجهه لهم، إنّما الوجه المصطنعُ، تدلُّ عليه صفحته الكالحة التي لا تتغيّر ذلك لأنه يعكسُ ما هو مستقرٌّ في الجوف فلا يستطيعُ له محواً ولا كتماناً. يقول المازني:

إن داء القلوب داءٌ عياءُ مثل داء المنون للأحياءِ

فاستر الضغن إن تشأ أو فجاهر قد عرفناك فاسد الأهواء

لقد استأنسَ بعض الناس الذمَّ والقدحَ والتقليل من الآخرين، فإمّا أنّه يتكلّم بما لا يسرُّ وإمّا يسكت، وهذا مخالفٌ لما أمرَ به النبي، ﷺ، في قوله: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى اللّه عنه." صحيح البخاري. لقد وجدنا بعض النّاسِ في مختلف المحافلِ لا يُحسنون قولاً جميلاً، بل كل همّهم أن يقدحوا في الآخرين وينتقدوا بالسلبِ أعمالهم، كأنَّ تلك الأعمال قد خلت نهائياً من الجميلِ المبتدع، أو التصوّر النافع. لكنّه أمرٌ غير مستغرب فالحسود – كما يقول الأحنف – ليست له راحة. قامَ أحدهم في أحد المحافل، وأغلظ في قدح عملٍ من الأعمال، بينما كنت أرقبهُ في محفل سابقٍ يستمرئ التعليقات السخيفة هو وأحد المعروفين، فأثاروا لغطاً وهرجاً بتعليقاتهم على هذه الكلمة أو تلك العبارة. أولم يَدُرْ في خلدهم حكمة الشافعي:

لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألسنُ

بلى هم يدركون ذلك ولكنّه مرض النفوس التي ترى أن الآخر لا علمَ له ولا حكمة عنده ولم يؤتَ من الإبداعِ شيئاً، وفي المقابلِ، يظنُّون أنّهم حازوا العلم أجمعه، والحكمة كلها. فاستصغروا من عداهم وأكبروا أنفسهم. كتب أحدهم رسالةً إلى آخر يصفه فيها بالتسرّع وعدم التعقُّل في أمرٍ من الأمور، لكنّه هو ذاته يفعل الأشنع والأكثر تهوُّراً. فوالله لو التفت النّاس إلى عيوبهم وأخطائهم لشغلتهم عن الإلتفات إلى غيرهم. قال سهل بن هارون: إذا أردت أن ترى العيوب جمة، فتأمل عّياباً فإنه يعيب بفضل ما فيه من العيب، وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب.

إن الإنسان ليقاسُ عقله بقدرِ ما يكون عليه كلامه فقد قيل إن "المرء مخبوءٌ تحت لسانه". وإنكَ لترفع الإنسانَ مقاماً أو تحطّه بقدر قيمةَ ما يلفظُ لسانه – هذا إلى جانبِ عناصرَ أُخرى – فإن من النّاس من يكثر هرجه فيكثر لغطه وخطؤه، ومنهم من يقل هرجه فيحفظ له هيبته واتزانه وكرامته. فلا خيرَ في من يطلق العنان لكلماتهِ دون أن يعقلها، ولا نفع في من لا يتحكّم بقيادةِ لسانهِ فتصبحَ كدابةٍ تقودُ راعيها في أي اتجاهٍ تشاء. وإذا كان المرءُ يلقي باللّوم على العوّام، فإن أشدُّ اللّوم يُلقى على من حملوا الأقلام أو تعاطوا مع وسائلِ الإعلام، فكلماتهم إمّا أن تكون معاول هدم، أو لبناتِ بناء. "ورحم الله عبداً قال فغنم، أو سكت فسلم." كما جاء في الحديث الشريف. إنّما ينبري بعض منهم سراعاً وقد جرّه هوى النفسِ إلى قولِ ما يحطُّ من قدرهِ لدى الآخرين فلا يقيمونَ له وزناً ولا منزلةً، بل هو لديهم من المنبوذين الذين يترفّع الإنسانُ النزيه عن الحديث إليهم أو يعيرهم سمعاً، فهم أهلُ وشايةٍ وغيبةٍ.

كيف بالإنسانِ أن يرمي حجراً دون أن يتوقّع حجراً؟ وكيف به يريدُ معاملةً فاضلة، وهو يلقي بالكلمةِ دون حسبان؟ كيف به ينتقد الآخرين ويثور حين يُنتقد؟ بكلمةٍ وقعت حروبٌ أو توقّفت وبينهما سقطت أرواحٌ بريئة، وخرّبت أوطاناً، بكلمةٍ وقعت فتنة. ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ البقرة/191. فما للإنسانِ يُدلقُ لسانه قبل أن يُحسن التفكير؟!

في معاني الرجولة

لا يزيِّنُ الرّجلَ إلاّ أدبهُ، وخلُقهُ، ورزانةَ شخصهِ، وحسن أُسلوبهِ، ورجاحةَ عقلهِ، وصدق منطقه، وهذا يتكاملُ مع لطف مظهرهِ، وحسن منظره. ليس للعمرِ مكان في الرجولةِ، إن لم يسهمُ في إنضاجِ الرّجل، فكم من شيخٍ مسنٍّ، يحسبُ أنّه رجلٌ، بينما لا حظّ له من الرجولةِ لأنه سفيه الحلم، متهوّر العقلِ! وكم من شاب يافعٍ غرّرت إليه نفسه بالرجولةِ وهو مندفعُ النّفسِ، سخيف العقلِ، بذيء اللِّسان! يجادلُ بعضهم بالرجولةِ ويزايدون، والرجولةُ مزيةٌ لها من الفضلِ ما لها على الرّجل. يقول المتنبي:

وما الحسن في وجه الفتى شرفاً له إذا لم يكن في فعله والخلائق

أمّا الرجلُ فإنّه نعتٌ لكلِّ من يمشي راجلاً والمرأةُ يقالُ لها رَجُلة أي راجلة، وهنا لا يكون تباهي الرجل بهذا الوصفِ فالنساءُ أيضاً رجال كما قال الشاعر في لسان العرب:

فإن يكُ قولُهمُ صادقاً فَسيقَتْ نسائي إليكم رِجَالا

وكم من الرجالِ قد اختلط عليهم الحابلُ بالنابلِ في هذا الأمر. وأمّا الرجولةُ فهي نشدانُ الكمالِ في الرجلِ. ومن هنا، فالفرق بين الرجلِ والرجولةِ كبير. ونحن، هنا، في هذا المقامِ نقصدُ المعنى الأوّل في ما ورد في لسان العرب من قول "إذا قلت هذا الرَّجُل فقد يجوز أَن تعْني كماله، وأَن تريد كل رَجُل تكلَّم ومشى على رِجْلَيْن، فهو رَجُل، لا تريد غير ذلك المعنى."

فليس رجلاً ذلك المدّعي للحريَّةِ، يجادلُ بها ويزايدُ عليها، فإذا عرضَ لهُ أمرٌ قطعَ فيه دون أن يعودَ إلى أحد للرأي والمشورة بحجّةِ أنّه رجل وأنّه حرّ. وقد دفع بعضهم أثماناً باهظةً لهذا السلوك ظناً منهم أنّهم رجالٌ ليسوا بحاجةٍ لطلبِ المشورةِ وكأنّ المشورة هي إضعافٌ للرجلِ وإخلالٌ برجولته... واعتقاداً بأنّ الحريّةَ للرجلِ

تعني انفلات العقال والجري دون رقيبٍ وحسيب. تنفلت جملة "أنا حرّ" كـلازمةٍ من لوازمِ كلامهم.

ليس رجلاً ذلك الذي يكابرُ على الخطأِ فكلّما وجّهت إليهِ النصيحة قال: أنا لستُ صغيراً فأنا رجل وأعرف ما يسرّني ويضرّني. لا ليس برجلٍ ذلك المصرُّ على الخطأِ وهو يُدركُ ذلك لأنّه أسيرُ النزوةِ، وتابعُ الشهوةِ، وخادمُ الهوى، ولو كان رجلاً لتحرّرَ منها جميعاً وارتكز على الحق وسار على النهجِ البيِّن. فالرجلُ الرشيدُ عفيف اللسانِ، مالكٌ لقياده، كريمُ النفس، صائنٌ لطهرها. يقول إبن الرومي:

خُذي وصالي فإنني رجلٌ   أودُّ ودَّ العفافِ والكرمِ

ليس رجلاً ذلك المتنطّعُ على أهلِ بيتهِ، المتسلّطِ على زوجتهِ وأبنائهِ، يحسبها من الرجولةِ أن يحمّر عينيه، وينفخَ أوداجه، ويغلظ في حديثه، ويقطّبُ في قسماته، ويزأرُ كالأسدِ. وربما كان حاله كمن قيل في وصفه:

أسدٌ عليَّ وفي الحروبِ نعامةٌ   ربداءُ تجفلُ من صفيرِ الصافرِ

يمارس الجبروت بين أهله بينما كان سيّدُ الرجال نبينا المصطفى عليه الصلاةُ والسلامُ مثالُ الرجالِ وقدوتهم: ليّن الطبعِ، رقيقُ التعامل، لطيف الأسلوب، باسماً، مشرقُ المحيّا، لكنّه كان حازماً في كلِّ أمرٍ يستحقُّ الحزم، مقداماً لا يخشى في الله لومةَ لائم. بعضُ الرجالِ يحسبون أنّ الرجولةَ لا تتحقق إلاّ بالصرامةِ والغلظةِ والحدّةِ والتزمُّت فتراهُ يأمرُ زوجته قسراً، وينهاها زجراً. وتراهُ – كأنّه السيّد المطاع – لا يحرّكُ ساكناً ومن حوله خدمٌ مذعنون لأوامرهِ، ملبّين توجيهاته حتى وإن كانوا غير مقتنعين، يفعل ذلك ونبيّه الكريم كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويحلب شاته! شهدتُ على بعض (الرجال) وهم ينهرون زوجاتهم أو يأمرونهن بقسوة، فشعرتُ بأن هؤلاءِ يعيشون وهْمَ الرجولة وغرورها، فهم في وادٍ والرجولةُ في وادٍ آخر.

ليس رجلاً ذلك الفاقدُ للهمّةِ، المضيّعِ للعمل، من يحسبُ (المجد تمراً) يأكلهُ، فهو راضخٌ لخمولهِ، راضٍ عن تكاسلهِ، ومثل هذا يوجّه إليهم العلامة نور الدين السالمي قائلاً:

أتــــرى أن العــــلا تــــصحب مـــن لم يكـــن للـــنفس يومـــا قـــد بـــذل

أم تــــرى أن المعـــالي حازهـــا رجـــل همتـــه في مـــا أكـــل

ترى أحدهم عريض المنكبين، مفتول العضلات، طويل القامة، ذا بنيةٍ قويّة لكنّه يكرهُ أن ينهضَ ليسقي نفسه شربة ماء. محبٌّ للدعةِ، عاشقٌ للفراغِ، متيّمٌ بالأحلامِ الورديّةِ، قانعٌ لضيقِ المعيشةِ، سعيدٌ لدورة يومه المكرورة.

ليس رجلاً من لا يقيم للكلمةِ وزنها، فلا شرف لها عنده ولا ثمن. ولهذا يقسمُ هنا، ويكذبُ هناك، ويعِدُ هذا، ويتعهّدُ لذاك. وفي نهاية اليومِ يرفع الشعار (كلامٌ الليلِ يمحوه النهار). ولهذا يُلصق الناس صفة الرجولة بمعنى الشرفِ على الكلمة فيطلبون من المتعهّد (كلمة رجل) أو (كلام رجال). وكان كلامُ الرجالِ في السابقِ بمثابةِ العهدِ غير المكتوب، عهداً يلتزمُ به أطرافه حتى لو كلّفهم حياتهم. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ الأحزاب/23.

ليس رجلاً ذلك الساعي للانتقامِ، الثائرِ لنفسه، المليءِ بالحقدِ، والكراهيةِ للآخرين، المسيءِ للمحسنِ إليه، ذلك الذي امتلأت نفسه ضغينةً وبغضاً، فأبدلته كبار الأمور بصغائرها. فكيف لرجلٍ صاحبُ شهامةٍ ومروءةٍ أن يجري نحو توافهِ الأمور ويصعِّر خدّه لعظائمها! فالرجلُ إن كان شامخ الرأسِ، عظيم المروءة، سامي الهدف لأصبح رجلٌ يستحقُّ الإكرام والإجلال. وفي كليلة ودمنة: "إن الرجل ذا المروءة يكرم من غير مالٍ كالأسد الذي يُخاف وإن كان رابضاً." ولقد شهدنا على بعض (الرجال) يتخلّون عن جلال الرجولةِ وينحدرون نحو سفاسف الكلامِ، ورخيص الأفعال، حتى إذا تولّى بعضهم منصباً إدارياً وجدته يترك المهام الكبرى، ليسترقَ السمع على موظفيه أو يرسل في إثرهم العيون. يتركُ واجبات عمله في الإدارة ليضيّع وقته في الأسئلة المتكررة: أين فلان؟ وماذا فعل؟ ولماذا خرج؟ فيصغر في عينِ مرؤوسيه، ويحتقرون صنيعه هذا. أين كمال رجولة هذا ممن يصفه شيخنا نور الدين السالمي:

والكامل الرجل الذي حاز المعالي واكتسب
دارت به العلياء من كل الجوانب والرتب

الرجولةُ ليست الذكورة ولا تقترن بالرجلِ إلاّ باقتران الصفات الراقية، والسمات المتميّزة، والأخلاقيات الفاضلة، فهي ليست زيّاً يتزيّا به كلّ من يدعي الرجولة، وليست مظهراً يتباهى به كل من يزعم أنه رجل، وهي لا تشترى بالمالِ ولا تقتنى بالجاه، إنّما بعلو الهمّة، وسمو الخلق، وجلال الأدب، ووضوح المسلك، وثبات الخطى، ونزاهة النفس عن الرزايا، وترفّعِ العقل عن الدنايا، ولذلك يحسبُ بعضهم أنّه رجلٌ لا يردّه أحدٌ إن خطب زوجةً له، ولا يحتقره أحد إن ألقى كلمة، وهو في هذا واهمٌ مغرور. عن سهل بن سعد، رضي الله عنه، أنه قال: "مر رجل برسول الله، ﷺ، فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حريٌّ إن خطب أن ينكح، وإن شفع أن يشفع، وإن قال أن يسمع. قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين، فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح، وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يسمع. فقال رسول الله، ﷺ: هذا خير من ملأ الأرض مثل هذا. رواه البخاري. وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره." (رواه مسلم). ولهذا فالرجلُ شيءٌ والرجولةُ شيءٌ آخر.

من قيمِ التعامل

السوقُ ليسَ ميدانَ بيعٍ وشراءٍ وحسب، بل أهمُّ من ذلك، هو ميدانُ قيمٍ وأخلاقيَّاتٍ اجتماعية، وطبائعَ شخصيَّةٍ. في السُّوقِ يمكنُ للباحثِ أن يستدلّ على أخلاقيّات مجتمعٍ، وعلى القيمِ التي يتّبعها، والسمات التي يتّسمُ بها، ولعلَّ الإسلامَ انتشر وعمَّ في كثيرٍ من البلدانِ من خلالِ السُّوق على أيدي تجّارٍ عرفوا أخلاقياتِ البيعِ والشّراءِ، وأظهروا من اللُّطفِ والسّماحةِ ما لم يُعهد من التّجار، وأبدوا من الرّحمةِ ما يُلفت.

يقضي المستهلكَ في الأسواقِ شطراً من حياتهِ مشترياً مؤونةٍ، أو متزوّداً بزاد، ولهذا يصبحُ السّوق ميداناً هامّاً من الميادينِ، التي على المجتمعاتِ أو ترعى تعاملاتها، وتعتني بما يحدثُ فيها، فلم يحذّر النبي، ﷺ، بقوله: "يا أيها الناس لا غش بين المسلمين فمن غشّنا ليس منّا."رواه إبن عمر، إلاّ بعد متابعةٍ لخُلق الباعة. إنّما يلفتني أن كثيراً من أسواقنا لا تعتني بأمورٍ أساسيّةٍ، أوّلها طرق التعاملِ مع المستهلك. فأنا لا أذكرُ إلاّ أمثلةً قليلةً في الطرقِ المُثلى التي على الموظّفِ أو العاملِ أو البائع أو المحاسبِ اتباعها. والظّاهرُ أن المؤسسات والشركات والمحلاّت لا تكترث بتعليم موظفيها أخلاقيات التعاملِ مع المستهلك قدر اكتراثها بالمؤهّلات أو القدرات على إنجاز العمل... أو أنها ضعيفةُ التركيزِ على ما يسمّى في الغرب "خدمات الزبون customer services. ولهذا تجدُ التّجاهلَ للزّبون، وعدم الاهتمام به، وعدم توجيه النصحِ إليه في ما يريدُ اقتناءه صفاتٍ واقعيّة في كثيرٍ من أسواقنا. ففي أحد المحلاّت الكبيرة سألتُ موظّفاً عن سلعةٍ ما، فقال لي وهو لا يبارحُ مكانه يملأ أحد الأرفف: "ربما هناك في الجانب الخلفي، أنا غير متأكّد." فردّدت عليه: "إذا كنت أنت غير متأكّدٍ، فكيف بحالي أنا!" هذا الموقف ربطني على الفور بموقفٍ مناقض حدث لي في إحدى الدّول الأوروبيّة، حينما كنتُ أسألُ موظّفةً عن سلعةٍ ما، فمضت لتريني مكان

البضاعة المطلوبة ثم نادت زميلاً لها، ليقرآ مواصفات الصنع حتى وجّها لي النصيحة لأفضل ما يمكنني إقتناءه. إن النصيحة التي توجّه للزبون في أدبيات البيع الغربيّة هي أساسٌ من أسس بناءِ علاقةٍ متينةٍ، ودائمةٍ مع الزّبون، بينما لا تجدُ من يوجّهها لك في أسواقنا. إنّما تسمعُ بدلاً منها: لا أدري...! فكم وجّه لي غربيُّون النّصيحة لشراءِ بضاعات أفضل أو سلعٍ أجود من محلات منافسة. وفي أسواقنا لا تجدُ من العاملين في المحلات – إلاّ قلّة – من يوجّهون لك النصيحةَ التي تحتاجها لشراءِ ما يناسبك من سلعة.

وفي حين تكون التّعاملات مع الزبون أو خدمته هي الميزة التنافسيّة في السوق، فإن الكثير من العاملين في المحلات الصغرى أو الكبرى لدينا لا يتقنون فنَّ التعامل مع الزّبون، ففوضاهم، وأصواتهم، ومزاحهم، وكلماتهم، وتجاهلهم، هي ما تظهر في الأسواق أكثرَ من غيرها. إحدى الموظّفات كانت تزنُ لنا الخضار والفواكه، دون أن تقطع حديثها إلى صاحبتها حول شأنٍ من الشؤون، ولم ترفع إلينا رأسها، ولم تلقِ لنا بأيّةِ نظرة، لكننا - رغماً عنّا - عرفنا قصّتها التي كانت تسردها من الألفِ إلى الياء. موظّفو المحاسبةِ هم أيضاً في هذا التيّار فلا تتلقّى ابتسامةً، ولا تحيّةً منهم، بل وجوهٌ واجمةٌ، أو أفواهٌ صامتة. إلاّ بالطّبع إن كانت تربطهم الأحاديثُ والمزاحات مع زملائهم. إحدى الموظّفات كانت حالة إستثنائيّة، ترينُ البسمةُ على وجهها، ابتسمت في وجوهنا. قلتُ لها: "شكراً لك لأنك تبتسمين في وجوهنا وتردّين تحيّتنا!" قالت: "هذا طبعي الذي أتعاملُ به مع النّاس، وأنكرُ عدم التطبّع به لدى بعض زملائي."

مرتادو السُّوق بشرٌ لهم مشاعرَ وأحاسيس، الأمر الذي يعني أنّ التعاطي معهم باللّطف وحسن والتعاملِ، والتقدير هو أمر بالغ الأهميّة والحساسيّة، لكن تظهر العملية وكأنّ البشر عند المحاسبة مجرّد آلات، واحدةٌ تعدُّ وتحصي البضاعة وتُجملُ مبلغها النهائي، والأخرى تدفع المبلغ المطلوب بصمتٍ، ووجوم. بل أن بعض المحلاّت تطلب من الزّبون إرجاع أيّة سلعةٍ غير مسعّرة واستبدالها بسلعةٍ يظهر فيها السّعر، وهو خطأٌ لا دخل للزّبون فيه. هذا المشهدُ لا يوجدُ في الغربِ، ذلك الذي يصفه بعضهم – ممن لم يعرف عنه – بأنّه فاقدٌ للمشاعرِ الإنسانيّة.

ولهذا فإن أهميّة التركيز على أخلاقيات التعامل مع الزّبون هي أهميّة لا مراءَ فيها، ومن هنا، فإنّه يتوجّب على القائمين في السوقِ – في شؤونه المختلفة – تعليم أخلاقيات خدمة الزّبون لعامليهم وموظفيهم، وترسيخ أهم المبادئ الأساسيّة للتعاطي مع المستهلك.

نحنُ أحرى من غيرنا برقّةِ التعامل، ولطفِ الأخذ والعطاءِ، وحسن التقدير في أسواقنا – كما في جوانبنا الأخرى – فديننا، باختصار، هو المعاملة، كما جاء في الحديث الشريف "الدين المعاملة". فأين هي المعاملةُ الحقّة، اللّطيفة، الراقيّة في كثيرٍ من أسواقنا؟!

عجباً من هؤلاء...!

أعجبُ كثير العجبِ من قومٍ ليسَ لهم من همٍّ سوى الانتقاد وحياتهم مليئةٌ بالمخازي الظاهرةِ والباطنة. يتشدّقون بما يجبُ أن يكون، وما يجبُ أن يحدثَ ولا ينظرون إلى أنفسهم، والنظرِ إلى النفس أوجب الواجبات. ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ الذاريات/21، تجدهم في كلِّ مجلسٍ ساخطين، يُظهرون أنفسهم على أنّهم أهلُ الإصلاحِ، والتغيير والتحديث وما هم إلاّ أهل الأهواءِ والمفاسد. أمّا نظرتهم إلى غيرهم فهي نظرةٌ دونيّةٌ كأن الغير جاهلٌ، لا يفقهُ في شؤون التغيير، ولا يعلمُ من أمر الإصلاح وهم العالمون، أصحابُ الرؤيةِ والدرايةِ. لكنهم كشأن الميزان، ففيه "ذو الفضل ينحطُّ وذو النقصان يستعلي." كما يقول الشاعر العباسي أسامة بن منقذ. فإذا خالطوا النّاسَ أكثروا في الجدالِ العقيمِ، وأوغلوا في التبريرِ السقيم، أسرفوا في التسفيهِ الدائم بآراءِ الخلقِ، ولهذا فإن الرّشيدَ يحفظُ عقلهُ في مجلسهم، وصاحبُ الأنَفَةِ يصونُ كرامته في حضرتهم، وكيّسُ الرأي يُنزّه نفسه عن الخوضِ في مقارعتهم، ومحاجتهم.

أعجبُ من قومٍ يرفعون شعار النقدِ ولغتهم وضيعةُ اللّفظِ، سفيهةُ الأسلوب... تعابيرهم مليئةٌ بأحطِّ العباراتِ، وأرخصِ الكلماتِ، لا يميّزون في التّصويرِ بين بذيءٍ مقذع، وحسنٍ بديع. فهم يشفُّون عمّا يعتملُ في أنفسهم من معوجِّ الفكرِ، ويكشفون عما استبطنَ ثناياهم من قبيحِ الخُلُق، ويعلنون عمّا خفي فيهم من منحرفِ السلوك. يتناقلُ الناسُ أقوالهم لا إعجاباً بهم، وإنّما زرايةً، وخفّةً، وتسفيهاً بهم. يرفعون شعار التغيير وكأنّهم أربابه، وهم في الأصلِ أهلُ الهوى المعوجِّ وزبانيته. يدوّنون في ما أتاحَ لهم العصرُ من صفحاتٍ رخيصةٍ، مجّانيّة الصفحات ما يكفي لتشخيص مرضهم النفسي، وانحرافهم العقلي. فهم ليسوا أهلاً – لعِلَلهم هذه – للصدقِ، فالصدقُ في بواطنهم يعني أنّهم مضطربون،

مشتّتون، يعانون العُقد النفسيّة التي تحتاجُ إلى علاج، ويصارعون الأفكار المرتبكةِ التي تحتاجُ إلى تقويم. يلاحظ ذلك اللّبيب، الأريب، كيّس النظر فلا يخفى عليه أن هؤلاءِ مرضى محتاجون إلى الشفقة، والإصلاح، فأيُّ فكرٍ يمكنُ أن يصدرَ من عقولٍ مضطربة؟ وأي تغيير يُنتظرُ من أنفسٍ معوجّة؟ تقرأ في كتاباتهم الناقدة، الساخطة ما تعفُّ عنه عين الباصرِ العاقل، وتسمعُ من أقوالهم ما تأنفُ منه أُذن السامع المترفّع، فتقولُ في نفسك ما قاله أحمد الشدياق:

كيف يدري شيا وما هو شيء إن هذا في حيز المستحيل

إن تحدّثوا لا يقيمون وزناً لمجلس مهما بلغت رفعته، وعلا مقامِ جلاّسه، فيطلقون ألسنتهم، كما تنطلق البُهائمُ في المرعى النضير. وإن نقدوا لا يراعون معايير الأدب، فقد انفلتت لغتهم من عقالِ الأدب و(تحرّرت) ألفاظهم من ربَق الخلق. سمعتُ أحدهم ينتقد في إحدى المحطّات وهو ممن يشتغلون في الأدبِ القصصي فقال كلاماً ساخراً يأنفُ السامعُ الكريمُ منه. وسمعتُ من آخر كلاماً متداولاً ينتقد فيه ما لم يرق له، فأبانَ في الكلامِ خزيَ نفسه، وأظهر فيه بذاءةَ طبعه. وما ذاك إلاّ لظنّه بتحرّرِ الفكر، وأيّة حريّةٍ هذه التي لا يضبطها الأدب، ولا يعقلها الخُلق. وقرأتُ لآخر ما يعتبره نقداً وأراهُ قذفاً وتسفيها وتجريحاً، سطّره بلغةٍ رخيصةٍ، ما صدرت إلاّ لتشفُّ عن علّتهِ، فانحرفت المعاني وإن استقامت الأسطر. وسمعتُ لآخر يقول هذا الجيلُ هو جيلنا فلا ارتباطَ بيننا وجيل آبائنا ولا وشائج ويعلنُ الإنفصالَ عن جيلٍ كان سبباً في وجوده على ظهرِ الأرض. مثل هذا المغرور هو من ضرب به المثل الفيلسوف زكي نجيب محمود بقوله: " دار بي الزمان دورته، حتى جاءت اللحظة التي أتلقى فيها خطاباً من طالب بإحدى كليات الهندسة في جامعاتنا، فوجدته في خطابه قد أجلس نفسه على كرسي الأستاذية، وأجلسني عند قدميه لأستمع بما يأمرني به من أوامر التعليم وتوجيهات التثقيف، مقرونةً – تلك الأوامر والتوجيهات – بضروب شتى من عبارات التقريع والتوبيخ." مثل هذا لا يدعو إلى الانفصالِ عن جيلِ آبائهم كأنهم في ضلالٍ مبين فحسب، بل لا يقيمُ وزناً لهم، فقد كان أحد هؤلاءِ في مجلسٍ بإحدى القرى، فدخل رجلٌ مسنٌّ نهض لمصافحته الجميع إلاّ هذا صافحه جالساً وهو في مقامِ ابنه.

وإذا كان المنطق يُجيزُ مبدأ إتاحة المجال للجيلِ الشاب ليأخذ أدواره في كرّةِ الحياةِ مجدِّداً، فإنّه لا يجيزُ إقصاء الجيل السابقِ مع انفصام العرى، وانقطاعِ الوشائج، فما لحاضرٍ إشراق دون ماضٍ عريق، وما لمعرفةٍ دون جذور، وما لخبرةٍ دون تجارب. وما أجمل أن تختلطَ همّةُ الشابِ بخبرةِ الشيخِ وتجربته، وما أطيب أن تتحّد حماسةَ الشاب الثائرة، بعقلانية الأب الناضجة. أمّا أن يدعو هؤلاءِ إلى انفصالِ الجيلين، فذلك من التهوّرِ الأحمق، والفكر الطائش.

أعجبُ من هؤلاءِ حين لا يُحسنون التّحدثَ مع من هم في مقامِ آبائهم، فهل يستحقُّ متحدّثٌ من هؤلاءِ أن يُرهفَ له السمع وهو لا يُحسنُ الاستماعَ إلى من يكبرهُ عُمراً، ويفوقه تجربةً، ويعلوه نضجاً؟ إن مثل هذا عليه أن يكون حريصاً على الاستماع أكثر منه على القول كما ينصحُ إبن المقفّع. فغرورُ النفسِ خيبة، وشعورها بالعظمةِ خسّة وضِعة. ولا أحسبُ عاقلاً يُقيم وزناً لجاهلٍ حمله جهله على الشعور بالفوقيّة على الآخرين.

أعجبُ منهم يتحذلقون في القولِ، ويتشدّقون بالمنطقِ، وهم لا يحسنون الجلوسَ في المجالسِ، حين لا يفرِّقون بين مجلسِ ندمائهم وقرنائهم ومجلسٍ فيه عليةُ القومِ خُلقاً وعلماً وأدباً ووجاهةً. فتجدُ أحدهم وقد تمطّى في المجلس وتمدّد، وترك رجليه على رسلهما تهتزان، كأنّما تنفضهما حمّى، وما يحرّكهما إلاّ هوى النفس، ولؤم طبعها. ويهزُّ منكبيه لأدنى حركة، ويستنفرُ عوده لأضعفِ صوت، ويفقد رزانة الرجولة، ويخل برصانتها. يقول الشريف المرتضى:

أين الألى طلعوا النّجادَ مهابةً وتسنّموا فلكَ النّجومِ سُموقا

الرّافعين مع السّماءِ رؤوسهم والضاربين إلى البحورعُروقا

وأعجبُ منهم ينادونَ بحريّةِ الكلمة، و"فك الأغلال" عنها، والحريّةُ في نظرهم إنفلاتٌ من قيودِ الحكمةِ والأدبِ والخُلق إلى فضاءات التجريح والتوبيخِ والتسفيه. فإن وضعت الضوابط ثاروا وزمجروا مندّدين بحجرِ الكلمةِ، وتقليص الحريّة. وإذا كان المنطقُ مع حريّة الرأيِ، فلا يمكنُ أن يساندَ جور هذا الرأي واستبدادهِ وسفاهته. تفوحُ عباراتهم برائحةٍ نتنة، تزكم الأنوف الزكيّة، كي يتداولها صغار العقولُ إعجاباً دون أن يعلموا أنّها مما يطنُّ عليه الذُّباب ويحط.

وأعجبُ منهم يلعلعون ناقدين ساخرين فإذا ما انتقِدوا ثاروا، وعربدوا، وجاروا. فكيفَ لمؤمنٍ بالحوارِ يتعالى حين يتكلّم، ويسخر حينما يُقصد؟ تختبرُ أحدهم فلا تجده إلاّ متحيّزاً لرأيهِ، متشدّداً لفكرهِ، معجباً بمنطوق لسانه. فأينُ هو من المنطقِ، وأدبِ الحوارِ، وحريّة الكلمة وهي ما يدعو لها؟

هذه النفوس المصابةُ بـ"داء الاستعلاء" هي نفوسٌ غير متصالحةٍ مع ذاتها، بل هي مضطربةٌ أشدَّ الاضطرابِ، وما استعلائها إلاّ دليل اضطرابها، وضعف إيمانها، والدليل على ذلك يتجلّى في حديث المصطفى، عليه أفضل الصلاة والسلام، كما ورد في مسند الإمام أحمد: "لا يستقيم إيمان عبدٍ حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه." وهؤلاء لا يؤمنُ لهم جانب، ولا يثق بهم صاحب، يقول أبوحيان التوحيدي: "وأما الكتَّاب وأهل العلم، فإنهم إذا خلوا من التنافس، والتحاسد، والتماري، والتماحك - فربما صحت لهم الصداقة، وظهر منهم الوفاء، وذلك قليل، وهذا القليل من الأصل القليل."

نحنُ والتأخير

أدمَنَتْ مجتمعاتنا التأخير فدفعت ثمنه باهظاً. التأخير لدينا نتيجةً لعدم تقدير الوقت الذاهب هدراً دون وعيٍ بقيمتهِ ودون تقديرٍ لأهمّيته. نعم إن السرعةَ هي التي تعتبرُ السبب الرئيسي للحوادث المروريّة في إحصائيات المرور، لكنّها في الأصلِ نتيجةً للتأخيرِ في كثيرٍ من الأحيان. لا يعي النّاس قيمة الوقت، فيتأخرون للخروج إلى مواعيدهم، أو قضاءَ أعمالهم حتى اللّحظات الأخيرة، فقد قاسوا في أدمغتهم المسافات وقدّروها بالأوقات، استخفافاً بمفاجآت الطرقات، فإذا بمعوقات غير محسوبةٍ تظهر لهم فجأةً، فتضيق أنفسهم ذرعاً، حينها لا يجدون ما يحلُّ لهم الأزمة التي أوقعوا فيها أنفسهم سوى الإسراع الحثيث، وهم مرتبكون، مضطربون، وهنا تكون المصائب التي تُزهقُ فيها أرواحهم، وأرواح غيرهم. ولو أنّهم بكّروا في الخروج، لساروا في طمأنينةٍ نفسيّة، لا يحثّها تأخيرٌ، ولا تدفعها عجلة. من هنا فإن التأخير هو سببٌ رئيس للسرعةِ، التي هي مهلكةٌ يلقي بعضهم من الناس أرواحهم وأرواح غيرهم فيها.

وإذا نظرتَ إلى أسباب التأخيرِ ستجدُ أن أغلبها يعودُ إلى هدرٍ في الوقتِ وليس استثماراً. هدرٍ في الكلامِ والثرثرةِ في ما لا ينفعُ العقل، ولا يُثري النفس، وليس استثماراً يفيدُ الإنسانَ، وينفع الأمّة. تنظرُ إلى أسباب التأخير فتجدها تعودُ إلى الفوضى في التعاطي مع الوقت، والعشوائية في قضاء المصالح، فكثيرٌ من النّاس يقررون القيام بقضاء مصلحةٍ أو القيام بزيارةٍ بصورةٍ مفاجئةٍ وهذا ما يجعلهم في حرجٍ وعجلةٍ لمواعيدهم الأُخرى. وعدتُ ذاتَ مرةٍ إنجليزياً وزوجته للقاءٍ في ساعةٍ معيّنةٍ بأحد الفنادق، فلمّا وصلت في الموعدِ تماماً، قال لي على الفور: لأوّل مرةٍ يواعدني أحد ويأتي في وقته. سررت بهذا وأسفت في الوقتِ نفسه. سررتُ لأنّه تنبّه إلى حضوري في الوقت كما اتفقنا، وأسفتُ لأن كثيرين جعلوه يلصق بنا فكرة التأخير. ومنذ أيّام كان عليّ أن ألتقي في المكانِ نفسه زوّاراً من

ألمانيا فكنتُ أحرصَ منهم على السبقِ للموعدِ فوصل كلانا قبل الموعد بنحو نصف ساعة.

إن الإنسانَ الناجح هو المخطط لوقتهِ والمهتم بقضاءِ مواعيدهِ دون تأخير، حتى وإن ازدحم جدوله بالأعمال، فكم من فارغٍ في الوقتِ يتأخّر، وكم من مشغولٍ يقدّم حضوره لموعده! ذلك لأن الأوّل لا يدرك قيمة الوقتِ في حياتهِ، والثاني يعي تماماً قيمته، فلم يُهدر منه ثانيةً. ذات مرّةٍ كنتُ على موعدٍ مع مسؤولٍ في مكانٍ خارج العمل، وهو بالإضافةِ إلى عمله عضوٌ بأكثر من خمس وثلاثين لجنة، ومع هذا وجدته قبل الموعدِ ينتظرني وقد حضّر لي ما يعتقدُ أنّه مفيدٌ للموضوع الذي كنتُ أقابلهُ لأجله. وبالعكسِ، وعدني أحد المهدرين للوقتِ بزيارةٍ وبعد أن تعدّى الموعد اتصلتُ به، فإذا هو لا يزالُ في فراشِ القيلولة.

والمحافظةُ على الوقتِ أساسها المحافظةُ على أداءِ الصلاةِ في أوقاتها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوۡقُوتًا﴾ النساء/103، فحين يؤدي المسلم الصلاةَ في أوقاتها فإنّه يستطيعُ أن يتعامل مع وقته على أساس التقسيمات الخمس وهي تقسيمات غير عشوائية، بل وراءها حكمةٌ إلهيّةٌ سامية، فيتصوّر الأوقات التي بين الصلوات على أساسِ أنّها خمسةُ جداول تفصلها استراحةٌ روحيّة تعطي دفعاً للنفسِ وبركة، وهمّةً وحماسة، وبهذا يستطيع دون شك أن يؤدي مهامه وأوقاته دون تأخير. لكن اختلط الحابلُ بالنّابل عند بعض النّاس فأخّروا وقت الصلاة أو تجاوزوها أو لم يصلّوها وبهذا لم يخرجوا بشيء.

إن إدارةَ الوقتِ لهي أعظمُ الهبات التي يُرزقُ بها إنسان، فهي إشارةٌ على وعيهِ، وعلامةٌ على حكمتهِ، ودلالةٌ على نضجه. فإنك تدلّل على نضوج المرء من طريقةِ تعاملهِ مع وقته، وتقيس مدى علمهِ أو جهله من خلال تعامله مع الوقت. وإنني لأتحسّر حينما أرى أُناساً يهدرون أوقاتهم على الشوارعِ أو المقاهي أو الأسواق في ما لا يجلبُ لهم المنفعة، ولا يحقق لهم المصلحة. أوقاتٌ تمضي من عمرٍ ينقص، عمرٌ لا يعود كموردٍ ناضب. لذلك كان الوقتُ في الإسلامِ مما يُسأل عنه المسلم، ولهذا كان من السلف الصالح أُناس لديهم حكمةٌ بالغةٌ في تقدير الوقتِ. فمنهم من وصل به الحال إلى اختيار نوعية طعامٍ لا تستهلك عليه وقتاً أطول من

نوعيةٍ أُخرى حتى لا يضيع وقته، ومنهم من لا ينامُ إلاّ بضع سويعات وهو مواصلٌ للعلم حتى في وقت طعامه.

أما لدينا فالطّعام يستهلكُ وقتاً طويلاً، والجلسات الفارغةُ تستهلك وقتاً ثميناً، واللقاءات التي لا تثمرُ عن شيءٍ تبيدُ لحظاتٍ غاليةٍ من عمر الإنسان، والمجاملات تستنزفُ عُمراً غالياً، والاجتماعات المتكررة تطول دونما مبرّر، فتتشعّبُ إلى حواراتٍ جانبيةٍ وأحاديثَ لا تمتُّ لمواضيعها بصلة، فلا يكون لمواضيعها المقرّرة إلاّ ربع الوقت، وحينها يتمُّ التأجيل لإجتماعٍ آخر! وهكذا يضيع الوقت، ويضيع العمر، وتتعطّل المصالح، وتتأخر المشاريع. ولو أننّا ركزّنا نقاشنا حول ما اجتمعنا له لاستطعنا تحقيق الفاعلية والكفاءة في وقتنا، ولو أنّا فعّلنا وسائل الاتصال الأُخرى كالهاتف والبريد الإلكتروني لقلّصنا عدد الإجتماعات ولأنجزنا الكثير من المصالح في وقتٍ قصير. يروى أن أحد الحطّابين كان منهمكاً في قطع شجرةٍ بفأسٍ غير مشحوذ فأخذ ذلك منه طاقةً ووقتاً، ومرّ عليه رجلٌ سأله: "لمَ لا تشحذُ فأسكَ؟" قال له وهو منهمكٌ في عمله: "ألا تراني مشغولٌ في عملي؟!" وهذا حال كثيرين تراهم يشتغلون دون تنظيم أو تخطيط، وحالهم كحال الحطاب فهذا الأخير لو شحذ فأسه لما استغرق منه العمل في قطع الشجرة كثيراً من الوقتِ والجهد، وهذا يعني أن الإنسان لو خطط ونظّم وقته لم استهلك إنجاز العمل وقتاً كثيراً، ولاغتنم وقته في ما يفيد.

ترى الشّاب الذي يحسبُ نفسه متحضّراً، وهو يتأنّقُ في طريقة لباسه، وكلامه، غير أنّه يتسكّع في المقاهي مهدراً وقته، فلا يتورّع، إن سألته ماذا يفعل، أن يقول: "أقتلُ الوقت!" يقول السير أوزبرت سيتول Sir Osbert Sitwell "في حقيقة الأمر، فإن قتلنا للوقت هو مجرد تعبير مقنع لواحدة من الطرق المتعددة التي يقتلنا الوقت بها." فما أكثر الأوقات المهدورة في أغلى وأهم مراحل الإنسان - مرحلة الشباب. يقتلون فيها الوقت في المقاهي والشوارع والأسواق والطرقات والمكاتب والوقت يقتلهم. فلا يخدعون سوى أنفسهم، فكم من شابٍ مضى عمره دون هدف، ودون غايةٍ.

الارتباكُ والاضطرابُ والسرعة هي نتائج للتأخير والتأخير نتيجةٌ لعدم إدارة الوقت بكفاءة. وها نحن ندفع ثمنُ التأخيرِ في شوارعنا، وفي مكاتبنا وفي بيوتنا وفي الكثيرِ من جوانب حياتنا. نحن والتأخيرُ إذن قصةٌ رابطةٍ لا تنصرمُ إلاّ بأن نستفيق على هذه الحقيقة وأن نبدأ التخطيط وإدارة أوقاتنا، والانتفاعِ بأعمارنا... وإلاّ غرقنا في مستنقع التأخيرِ في عالمِ سريع التغيّر والتبدّل والدوران.

نصف الحكاية

أغلبُ النّاسِ لا يملكون إلاّ نصف الحكايةِ، وهم مع ذلك أبواقٌ، وهواتفُ، وسعاةٌ لها قدرَ ما يستطيعون. نصفُ الحكايةِ المبتورِ الذي ما يكادُ أحدهم يحصل عليه مجزّأً، أو مضافاً إليهِ، أو مصاغاً بغيرِ حقيقتهِ حتى يهرعُ إلى تمريرهِ للآخر، الذي يقومُ بدوره وواجبه تجاه إعادةِ الصياغةِ، والإضافة، ثم يعيده إلى سلسلةِ التداول (ألسنِ الناس) حتى يغدو شيئاً آخر، لا يمتُّ بصلةٍ حتى للنصف المبتورِ من الحكاية. هكذا يتلذُّذُ أغلبُ النّاس بنقلَ نصف الحكايةِ دون يقينٍ أو تثبُّتٍ من نصفها الآخر، النصف الغامض والمجهول والمهمل وغير الحاضر. ولعلّ الكثير من المشكلاتِ والتعقيداتِ والأزمات والخصومات في عالم النّاس تعودُ إلى نصفَ الحكايةِ فقط، وهم يحسبونها الحقيقة كاملةً. أمّا متى تُعرفُ الحكايةِ بأكملها، فعند من اجتمعت لديه خيوطها، وتكشّف له سرّها، وتمكّن من معرفةِ خوافيها، هو وحده العارفُ بحقيقتها دون النّاس. لكن أغلبَ النّاس لا يجتهدون للتعرّف إلى النصف الآخر بل يكتفون بما حصلوا عليه. وهذا مسلكٌ لا يدلُّ على الرّشدِ، وتوجّهٌ لا يدلُّ على الحكمة. لأن المولى، سبحانه، يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ الحجرات/6، لكن أحد الوجهاء حينما ابتدأ بهذه الآية في مطلعِ كلامٍ له يلومُ فيه إحدى الصحفِ على نشرها كلاماً لآخر هو وحده في المقابلِ يبني قراراته على نصف الحكاية. فما إن يُنقلُ إليه عن أحد النّاس أمر حتى يسارعُ بالتصديقِ ويبادر إلى الحكمِ عليه دون رويّةٍ وصبر، أمّا حين يُنقلُ عنه فيلجأُ مسرعاً إلى الآيةِ الكريمة السابقة. وهذه ازدواجيّةٌ نفسيّةٌ تُظهر التناقضَ الداخلي. أخبرني آخر بلسانهِ أنّه تبنّى إشاعةً دون تثبُّت ودليلٍ، وهو صاحبُ مهنةٍ من أهمِ أركانها الدقّةُ والتروّي في الحكم، ثم حين تمت

مكاشفته بالنصفِ الآخر، الذي يُنقضُ نصف الحكايةِ لديهِ، وجد نفسه كالطيرِ الذي نُتِف ريشه. وأُخرى تُظهرُ نفسها مغبونةَ الحقِّ، فيتعاطف معها بعض النّاس، لكن لو علموا نصف الحكايةِ الآخر لأدركوا أنّها كانت تتقمَّص شخصيّةً مصطنعةً في سبيل تحقيق غايةٍ شخصيّة. وأخبرني أحدهم بأنّه أبلغ إحدى الجهات عن اشتباهٍ في سلوكِ أجنبي وبعد تلكّؤ تلك الجهةِ في المبادرة وإصرار الرّجل في المقابل تبيّن أن المشتبه به كان صاحبَ تهمة. ولم يكن ذلك ليكون لو أن الجهة قد أهملت النصف الآخر من الحكاية.

إن طبيعة الإنسان العجلى، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولاً﴾ الإسراء/11، هي التي تكمنُ وراءَ عدم تمحيصهِ الخبر، وتدقيقهِ في النبأ. فما أن يحصل على نصف حكايةٍ من طرف أو بعضاً منها حتى يصدر حكمه عليها. كيف ذلك وهو لم يعرف الحكايةَ كاملة؟ يُروي أن رجلاً قد ركبَ قطاراً ما لبث أن جلسَ إلى جانبهِ رجلٌ آخر مع أبنائه الذين ملأوا عربةَ القطار بالصخبِ والفوضى دون أن يحرّكَ والدهم شيئاً. فدارت في خُلدِ الرّجلِ تساؤلاتٍ غضبى وهو يرى الأب شاردُ الذهنِ، كأنّه لا يسمعُ ولا يرى ما يسبّبه أبناءه من إزعاجٍ للركّاب، فأصدر الحكم عليه بأنّه صاحبُ شخصيّةٍ ضعيفةٍ، وأنّه لا يقيمُ وزناً لراحةَ الآخرين، وأنّه يُطلقُ العنان لأبنائهِ كما يشاؤون. لكنّه حين عرف نصف الحكاية الآخر تغيّر حكمُه عليه رأساً على عقب. لقد اعتذر إليه الأبُ قائلاً: إنّه جاءَ للتوِّ من المستشفى حيث تُوفّيت زوجته أم أطفاله وهو في حالةٍ نفسيّةٍ مزرية لا يستطيع التفكير فيها بأي شيء. تعاطفَ معه ذلك الذي كان منذ قليل يتّهمهُ هو نفسه بضعفِ الشخصيةِ، وسوء الخلق، وعدم الإكتراث بالآخرين وتفهّم حالته وأخذ يواسيه ويعزّيه.

ولعلّ أغلب المصائب، وأكثر المشكلات إنّما تحدثُ لأن أغلب الخلقِ لا يتمهّلون في معرفةِ الحكايةِ كاملةً، فيصدرون الحكمَ على ما يردُ إلى أذهانهم من أخبار دون تروٍّ أو تدقيق. يقول المتنبي محذّراً سيف الدولة:

أُعِيذُها نَظَراتٍ مِنْكَ صادِقَةً   أن تحسَبَ الشّحمَ في من شحمهُ وَرَمُ

يتقوّلُ النّاس عن بعضهم بعضاً محدّثين بما يُنقلُ إليهم عنهم، فيقولون إن فلاناً من النّاس له من الصفاتِ كذا وكذا دون أن يشهدوا عليه بذلك، وأن البيت الفلاني قد شهد حالةً من الحالات وهم غير مطّلعين على أسراره. ورد في سنن أبي داود "بئس مطية الرجل زعموا،" أي تقوّله على آخرين بما زعم به آخرون. وفي الأثر "إن أفرى الفرى أن يُري الرجل عينيه ما لم تَريا!" قال لي أحدهم: "إن فلاناً هو صاحبُ خصلةٍ سيئةٍ." فقلتُ له: "هل تعرفه؟" قال: "لا، لكن (زعم) ذلك بعضهم." ثم تبيّن لي أنّه لا يعرفُ صورته كذلك؟! وقُبضَ على عصابةٍ من النّاس قد هجموا على بيتٍ من البيوتِ فوضعوا في السّجنِ المؤقت مع صاحبِ البيتِ الذي أطلق النار عليهم، فأخبرني والده بأنّهم كانوا يكيلون السِّبابَ على صاحب البيت وهو بينهم دون أن يعرفوه. وأخبرتني امرأة أنّ رجلاً كان يتحدّثُ عن أخيها بأنّه قد خدعَ أُناساً في بيعِ عقارٍ ونهبَ أموالهم. قالت: "كنتُ أتألّم وأنا أستمعُ إلى حكايةٍ مزيّفة ينقلها إنسانٌ عاقلٌ عن أخي." بينما تحدِّث الحقيقةُ أنّ أخاها كان هو الضحيّة الذي ضاعت أمواله نتيجةَ حسن النيّةِ بالناس. والإشكالُ هنا أن النّاس ينقلون ما يسمعون، والله، سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ الإسراء/36، وفي الحديث: "كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع." رواه مسلم. ويصدرون الأحكام دون معرفة النصف الآخر من الحكاية، ولعل في قصّة سيدنا موسى مع الخضر، عليهما السلام، مثلاً على ذلك، فقد كان سيدنا موسى يحكم على الأفعال الظاهرة من الخضر حين خرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، فقال له في الأوّل: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ الكهف/71 وقال له في الثاني: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ الكهف/74، ولامه في الثالثة على إقامةِ الجدار. لكنّ الحقيقة كانت شيئاً مختلفاً كليّةً، حين أفصح الخضرُ عليه السلام عن النصفِ الآخر من الحكاية، ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ الكهف/82، إذن فالمشكلةُ في عدم صبر الإنسان وتعجّله واقتفائه ما ليس له به علم وعدم تمييزه بين الزِّيف والحقيقةِ، وهذه معضلة، يقول المتنبي:

وَشَـــرٌّ مـــا قَنّــصَتْهُ رَاحَــتي قَــنَصٌ   شُــهْبُ البُــزاةِ سَــواءٌ فيــهِ والــرَّخَمُ

ولـو احـترز الإنـسان في كـل مـا يـسمع، ولم يقلـه إلاّ بعـد رويّة وصبرٍ وتـأنٍ وتـصوّر للعواقـب، وتقيـيم للمنـافع فإنـه سـيحفظ نفـسه مـن الأحكـام المـضللة، ولسانه مـن الزلـل، وعلاقاتـه مـن الانهيـار ولـربمـا امتلـك الحكايـةَ كاملـةً دون أن يجعل من نفسه مطيّةً لهوى الآخرين وزيفهم، وتضليلهم.

وجهات نظر...!

لحريّة الخطابِ حدود، وللرأي منطلقٌ ومنتهى وسببٌ وغاية وأسلوبٌ ومنطق، أمّا أن يتجاوزَ الخطابُ حدوده، وينفلتُ الرأي من عقالِ الخلْقِ والمنطق فذلك ما يشوِّهه، ويضفي عليه صبغةَ التحيُّز، ويخرجه من دائرةِ الأدب. بعضُ الناسِ حينما تواتيهم الفرص لإبداءِ آرائهم فإنهم ينفلتون من حدود الأدبِ، ويمرقون من حواجزِ الأخلاقِ، وينحرفون عن مسارِ المنطق. ولا أذكرُ أن منحرفاً عن جليل الأدب، منفلتاً من رقي الخلق أصلحَ شيئاً لقوةٍ في منطقهِ، وفصاحةٍ في لسانهِ، لأن الأدبَ هو أساسُ المنطقِ، والمنطقُ أُسّه الحكمة. ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ النحل/16، إنني لأشعرُ بالإستياءِ بل بالشفقةِ حينما أسمعُ أصواتَ أناسٍ، أو أقرأ آراءهم التي لا يراعون فيها منطقاً، ولا أدباً، ولا حكمة. يطلقون الرأي دون عنان، خبط عشواءَ يصيبُ هذا، ويجرح ذاك، فهو كالثور الهائجِ في شارعٍ مفتوح المسالك لا يميّزُ بين جارٍ وساكن. وأشعرُ بالأسفِ حينما يُبدى الرأي دون علمٍ ومعرفة وهذه المصيبةُ التي تشفُّ عن السَّفيهِ.

سمعت لأحدهم رأياً في مسألةٍ من المسائل، فإذا به يستخدمُ كناياتٍ بعيدةٍ عن الأدب للتعبيرِ عن رأيهِ، فأسقط كلامه مما قد يكون فيه من الصواب. وتساءلت هل من داعٍ له كي يستخدمَ هذه الألفاظ البذيئة للتعبير عن رأيه. وقرأت قصّةً منذ سنوات لكاتب، فإذا به يصوِّر وضعاً ما بطريقة لا تراعي فيها حرمةً، ولا شرف بل نزل بصورته إلى الحضيضِ. وتساءلت ألم تتوارد صوراً أخرى أكثر ملاءمةً من هذه الصورةِ البذيئة. وقرأتُ لشاعرٍ، فإذا به يستخدمُ مفرداتٍ ذات حساسيّةٍ بالغةٍ من الناحيةِ الدينية، وتساءلت ألم تخطرُ ببالهِ غير هذه المفردات ليصوّرها في قصيدته. وقرأت أن أحد الشعراء الهائمين في أصقاع الدنيا أدلى

بكلامٍ يصفُ فيه وضعاً ما وقد بثَّ فيه غوائله، ونفث فيه سمومه. وتساءلت ألم يكن لهذا أن يقول رأياً دون دناءةٍ في اللّفظِ، وانحدارٍ في المنطق. أبعدَ هذا يسمّى من لا يتقنُ فنَّ المنطقِ، وحسن الأدبِ، ولطف المقالِ مثقفاً؟ ومنذ أيام حضرتُ إحدى الأمسيات بعد سنواتٍ من البُعد أو الابتعادِ، واعتقدت أنني سأسمعُ آراءَ راجحة، تتحلّى بالحكمةِ، وتراعي الأدب في منطوقها، لكنني فوجئت بالعددِ الكبير من طالبي الكلام أمام النّاس ليسيئوا إلى أنفسهم، وقد حسبوا أن الوقوف أمام النّاس مفخرةٌ إن هم قَدَحوا في الآخرين وذموهم. فكان هذا يقصي أو يلغي رأي ذاك، وذاك يقذف عمل أو فكر هذا وكلّ ذلك يجري بعيداً عن أخلاقيات الرأي، ولطف الخطاب، وحسنُ التحلي بأدبياته.

إنّ البداهةَ لتفترضُ أن العلم ينير العقل، والعقلُ يقود المنطق، والمنطق يطلق اللّسان بالحسنِ من القولِ، والراقي من اللّفظ، لكن ما وجدته أن بعض المتعلمين لم يزدهم علمهم إلاّ جهلاً، وإخلالاً بالأدب. وليس ذلك بغريب إذا علمنا أن بعض من تحتويهم الجامعات من أساتذة قد بلغَ بهم الكبرياءُ مبلغاً عظيماً، حتى يغرّر بهم، فيلقون أوراق البحوث في وجوه طلّابهم دونما سبب. ولا يراعون الكلمة حينما تنطق بها أفواههم أن إساءة إلى طالبٍ أو طالبةٍ علم، متوهّمين أن كبرياء العلمِ سلطةٌ لها حقُّ الإنحدار بالخُلُقِ، وتسفيه الخَلْقْ. فهل يستحقُّ هؤلاءِ أن تكون لهم مكانةٌ في جامعة، ومنزلة تقدير عند طالبِ علم؟ فكيف إذا لم يتسلّح هؤلاءِ بحسنُ الأدبِ في إبداءِ الرأي، وتتهذب ألسنتهم، وتتواضع جوانبهم أن يرجى منهم صلاح، وترتقبُ منهم منفعة؟ إن الأوّلين ممن سبق الحديث عنهم قد يخرجون من عباءةِ الآخرين معلّميهم فلا يبحثُ المرءُ عن السبب.

إن بعضهم، الذي يعلي صوته يريد من الناس أن يسمعوه، وهو لا يملكُ من البرهانِ، والدليلِ، والحقِّ في ما يقول. فتفقدُ الكلمةُ في ألسنتهم قيمتها، ويضيّع اللّفظ معناه. ولو أنّهم أبدوا وجهات نظرهم وفق ما يرتضيه المنطق لاستقبله العقل استقبالاً لطيفاً، ولتمعّن فيه. أمّا أن يصادروا بوجهات نظرهم جهود الآخرين، وإبداعاتهم بمجرّد كلمة نابيةٍ، حاقدةٍ، جاهلةٍ، فذلك مما يسقطهم من أعين النّاسِ، وينحرف بهم عن جادّة الحق.

إن أغلبَ من يتهجّم على الآخرين، ويبدي الآراء، التي تؤذيهم دون مراعاةٍ لشعورٍ، أو عنايةٍ بحسن الأدبِ، هؤلاءِ لا يطيقون أن يبدي أحدٌ ما وجهةَ نظره – مع أنّها تفوق وجهةَ نظره في رقي الأسلوب، ولطفِ التأدّب – وقد شهدتُ على العديدِ منهم، شهدتُ على نقدهم الآخرين ثم رأيتُ الإمتعاض في وجوههم وهم يقلّبون أعينهم ضيقاً من سماعِ وجهات نظرِ الآخر. وبين هذين المتناقضين سقطوا. وبعضهم ليثورُ ويتهجّم ويتذمّر لغايةٍ في نفسهِ يريدُ لها أن تتحقق، فإن تحقّقت تحوّل إلى الصفِّ الآخر، وإن لم تتحققّ زاد من تهجّمه وامتعاضه. نشرَ أحدُ هؤلاءِ ما يحسبه تقريراً يوضح خللاً ما في إحدى المصالح، فتداولت كلامه المنتدياتُ والمواقع، وفي الحقيقةِ، التي لا يعلمها إلاّ قلّة، ما كتبَ الذي كتب إلاّ لأن له غاية لم تحققَّ، ومصلحةً لم تنجز. وكثيرون ممن حين تُعرفُ حقائقهم، وتكشف غاياتهم لا تكون آراءهم إلا هذراً، وأفكارهم شذراً.

في أحد المؤتمرات الدولية، في المملكة المتحدة، كنت أستمع إلى محاضرة لبروفيسور من شرق آسيا وهو ينتقدُ بعض السلوكيات لبعض نماذج القادة، وبعد المحاضرة سألته: كيف ستكون لو كنت مكانهم؟! ضحك وقال: ربّما مثلهم. وهذا يفتحُ المجال للكلامِ بأن بعض النّاس يجهلون الكثير من الحقائق فيطلقون ما شاءوا من الألفاظ ناقدين، مبدين تذمرهم وامتعاضهم من الوضع الذي ينتقدونه، ثم ما إن يكونوا في الوضعِ نفسه حتى يروا الأمر بطريقةٍ معاكسةٍ عمّا كانوا يرونه من قبل. وقد قرأت في إحدى الروايات الأجنبية أنّ المعارضة التي كانت تنتقدُ أداء حكومتها، فعلت الشيء نفسه، الذي كانت تفعله الحكومة، التي كانت محلّ انتقادهم، قبل أن يأتوا إلى السلطة.

ليس من الشرفِ – إذن – أن يُلقى الكلامُ على عواهنهِ وإن كان من فم لسنٍ لكنّه بذيءُ اللّفظ، سخيفُ اللّسان، لا يُدرك أبعادَ كلامه، ومنطوق جنانه، فـ "كلُّ إناءٍ بما فيه ينضح." إنّما الشّرف في مقولةِ رأي يغشاها الأدب، ويرتضيها الخُلق، ويستحسنها العقل، مع أنه قد لا يتّفق معها. ليس من الخُلق التباري على المنابرِ دون أن يتسلّح القائلُ بالكفاءةِ، وحسن الخلقِ، وسماحةِ العقل. فكثيرون قلبوا المنابر ساحة ذمٍ وقدح بل أن تكون ساحات تبادل رأيٍ،

وتناقل علمٍ. فهؤلاء كما يقول فيهم الشاعر أحمد فارس الشدياق:

ومن عجب الدنيا تبجُّحِ جاهل بما فيه بين الناس من آفة الجهل

وحين يسمعُ كلامُ هؤلاءِ المتبجّحين بجهلهم في المنابر يُكتفى بنصيحةِ المتنبي القائل:

وَمن البَليّةِ عَذْلُ مَن لا يَرْعَوي عَن جَهلِهِ وَخِطابُ مَن لا يَفهَمُ

... هؤلاءِ لا يقدّمون للبشريّةِ فكراً يتقدّم بها، إنّما يعيشون مشلولين، فاقدي القدرة على الإبداع، يجدون في أعمالِ الناجحين مادّة شهيّة، وليسوا هم في الحقيقة إلاّ كسوسة الخشب تنخرُ في خشب السَّاجِ الصقيلِ، الجميل.

قيمة الحياء

إذا كان الجِلْدُ كساءٌ للجسدِ، فالحياءُ رداءُ للنفس، وإذا كانت عظامُ الصدرِ حمايةٌ لمضغةِ القلبِ من الإصاباتِ، فإن الحياء حمايةٌ للمجتمعِ من الغوايات. الحياءُ عينُ الجمالِ، الذي تسكنُ فيه روعةُ الدلالِ، ورقّةُ المقال. هو الصّفو المبين كصفحةِ الشمسِ المنيرةِ التي لا يحجبها حاجب، أو بياضِ اللّبنِ الذي لا يخالطه شائب. الحياءُ عظمةُ النّفسِ، ورفعتها، لا ضعتها وابتذالها... رفعتها حين لا توقعُ نظراً لما ليس لها حقٌّ فيه، وابتذالها أن تُسقِطَ عنها أستارَ الحشمةِ والعفَّةِ فتوردُ النفسَ مواردَ الغوايةِ والإنحطاط. وحينما قلنا عنه أنّه لباسٌ فقد وافق ذلك بعضُ التفاسيرِ في آيةِ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ الأعراف/26، لأنّه باعثٌ على التقوى.

وإنّه ليدمي القلبَ أن نرى صوراً من تفسّخِ الحياءِ في مجتمعنا. صورٌ حيَّةٌ تتداعى أمام أعيننا في المراكز التجارية الشهيرةِ، في الشواطيءِ، في الأسواقِ، في المدارسِ والكليّات والجامعاتِ. صورٌ لشبابٍ يفترضَ أن يكون لهم دورٌ في قيادةِ هذا المجتمعِ في جوانبَ مختلفة، فهم وإن تعلّموا من علوم العصرِ شيئاً فليلقوا ما تعلّموه في البحرِ إن لم يتحلّوا بالأخلاقِ ورأسُ الأخلاقِ الحياء. الحياء الذي هو قطرة إن سقطت سقط الخلق، فابتذلت النفس، ورخصت. أشعرُ بالأسى وأنا أرى أفواجاً بعد أفواجٍ من بنين وبنات كأنّهم في معرضٍ من معارضِ الأزياءِ، أو صالونٍ من صالونات الزينةِ والتصفيف، يرفلون بالتقليعات الغريبة، والألبسةِ (الفاضحة، الرخيصةِ) التي لم نر بعضها في الغرب. يحسبون أن التحضّر يكمن في عدم التستُّر، وأن الحياءَ هو التحجُّر. وهذا الفكرُ منزلقُ الهاويةِ، ومنحدرُ السقوط. في المراكز التجارية، ترى الشاب فيعجبك منظره ثم تجده بعد هنيهةٍ وقد خلصَ من أعباءِ الدنيا كلّها فانتبذ ركناً ليرمي وسائطَ الغوايةِ في صنّارةٍ مسمومة من

هاتفه. فيسقطُ من عينيكَ وتندبَ في عينيهِ الشبابَ النَّاضحَ بالحيويةِ والنضارة، تندبَ في نفسهِ مستقبلَ الأمّة، ورفعتها وتقدّمها. وهناك تمرُّ عليك الأفواج ممن يُنسبون ظلماً وزوراً للشباب..! فقد رخُصَ الشباب عندما نُسبوا إليه ظلماً وعدواناً. حتى أنك تحارُ في التمييزِ بعض الأحيان بين فتىً وفتاة، من تقاربِ الشّبه بينهما ميوعةً وتغنُّجاً. فتيانٌ مائعون بأي حالٍ يتحمّلون ثقل المسؤولية، فقدوا الهيبةَ، وعزّة الشباب. فالحياءُ مهابة يقول فيه إبن زمرك الأندلسي مادحاً:

واقبـل مـا شـاب الحيـاء مهابـة يقلـب وجـه البـدر أزهـر باهيـا

وهناك- في المراكزِ التجارية - تقبلُ بعض الفتيات وهنَّ يرفلنَ في ما ينافي الحياءَ حشمةً وعفّة. حتى باتت هذه الأماكن – لديهم - مواطنَ عَرْضٍ للفتنةِ، لا عَرَضٍ للسلع. والمشهدُ لا يقتصرُ على هؤلاءِ فبعضُ المحلاّت تعرضُ خلف زجاجها ما ينافي أخلاقيات هذا المجتمع مما يخدشُ حياءَ الإنسانِ العفيف حينَ النظرِ إليهِ. ويبدو أن الجهات المعنيَّة لا ترى في ذلك ما يخدشُ الحياءَ الاجتماعي، ولا الخصوصيّة الأخلاقية. وإذا كنا نرى في الغرب مثل هذه المظاهر – حيث تعرضُ الدّمى البشرية عاريةً إلا من أوراق التوت، فنقولُ تلك أخلاقياتهم، إلاّ أننا نشعرُ بالألمِ وخدشِ العفةِ في مجتمعاتنا. يقول أحد الأصدقاء الذين درسوا في الغرب: "لقد رأيتُ مشاهدَ لم أرها في الغرب."

وفي آخرِ مرّةٍ، كنتُ فيها مصطحباً أُسرتي، فجعتُ بمنظرٍ لم أتصوّره إلاّ في الغرب. حيث استبيحت عفّةُ الشواطيء بأجسادٍ شبه عارية، فأيّةُ حريَّةٍ هذه التي تنتهكُ حريَّةَ الآخرين، الحريّة التي تحرسها – افتراضاً عندنا- القيم الرفيعة؟ وإذا كانت لكلِّ مجتمعٍ أخلاقياته، فإنّ له كلّ الحقِّ في صيانتها والذَّودِ عنها، وللآخرين من رافضيها المنتمين إليها أو الوافدين إليها الالتزام بها. لقد أعجبتني ردود معلّقين إنجليز على شابٍ بريطاني ينتمي لأسرةٍ مسلمة اسماً وليس سلوكاً سُجنَ في إمارةٍ عربيّة إثرَ ارتكابهِ مخالفةً أخلاقية في مكانٍ عام، بعد أن انهى مقابلةً كنتُ أستمعُ إليها في قناةٍ إذاعيَّةٍ إنجليزية، قال معظمهم: لكلِّ بلدٍ أخلاقياته، فإن لم تكن تلتزم بتلك الأخلاقيات فلا تلومنَّ ذلك البلد إن طبّق القانون عليك. لقد دُهشتُ من كلام الشاب المنتمي لعائلة مسلمة بعد طردهِ حين

قال: "رجعتُ إلى العالمِ الحرِّ - يقصدُ إنجلترا...! وزاد من دهشتي تفهّم الإنجليز لقوانين وأخلاقيات تلك الإمارة على الرّغم من أنّهم يخالفون تلك الأخلاقيات في بلدهم. أمّا تلك الأجنبيّة التي ألقتَ رداءَ السِّترِ والعفّة والحياءِ جانباً هي وصاحبها على أحد شواطئنا فقد عرّضت أخلاقيات الأسر، التي خرجت إلى الشَّاطيء بغيةَ النزهة للحرج. مثل هذه وغيرها ينطبقُ عليهم المثل القائل: "إن لم تستحِ فافعل ما شئت،" فلو استحت لسترت. لكن كما يقول إبراهيم المازني:

كيف يندى جبينُ من غاض منه كلّ ماءٍ وغارَ كلّ حياءِ

هذا يقودنا إلى القول بأهميّة مراعاة الأجنبي لأخلاقياتِ هذا المجتمعِ، وقيمه التي نشأ عليها ولا يضمنُ ذلك إلى الجهات التي ترعى السياحة أو الراعية لقوانين العملِ والإقامة وغيرها التي تحفظُ أخلاقيات الوطنِ قبل أن ينسكبَ الماء كلّه.

إن التّحضرَ لا يعني التفسَّخَ من القِيم، والتحّرر لا يعني رمي رداءِ العفَّةِ والسِّتر بعيداً. إنّما التحضُّر هو التحلّي بالقيم النبيلةِ والالتزام بالمقاصد العليا، والجديَّةِ في السَّعي لتحقيق الأهداف الكريمة. أمّا التقليدُ الأعمى للتقليعات والصرخات والسلوكيات الشاذة عن مجتمعاتنا فهو عينُ التخلُّف، بل هو الإنهزامية الذاتية التي يصبحُ فيها الإنسانُ تابعاً حين يكون مقلداً وكأن دوره قد اقتصرَ على المحكاة والتشبّه فحسب. يقول الشاعر:

وخلعتَ جلباب الحياء وقلت ذا حريةٌ، أخطأت في مرماكا

الحياءُ قيمةٌ عظيمةٌ يجبُ أن تفعّل في أنفس الناشئة. فكم هم الفتيان أو الفتيات الذين لا يعلمُ سوى اللّهِ ما تحمله هواتفهم من صورٍ ومقاطعَ مرئيَّة. وما يطّلعون عليه في الخفاءِ والسرِّ من مواقعَ أو أفلامٍ أو مسلسلات؟ وما تظهر بعض البنات على وجههن الغضّة من مساحيق وأصباغٍ وقد غادرن البيوت ووجوههن خالية منها. وما يرتادُ بعض الشبابِ المبتعثين من دور اللّهو والمجون خارج أوطانهم ويحسبُ أهلهم أنّهم منكبُّون على الكتب. إنّهم إنّما يفعلون ذلك لأن قيمة الحياءِ فيهم ضعيفة، فيحلفون بالقسمِ تلو القسم مدارين أكاذيبهم في مقابل أن يبقوا الشكوك بعيدةً عنهم. في نصيحةٍ يقول أبوحامد الغزالي في كتابه: **إحياء علوم**

الدّين: "وقل لها: إنك تدعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين من استجرائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده أو تخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى؟" وهذا على منهج الآية الكريمة: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا**﴾ النساء/108.

أخبرتني إحدى المعلّمات بأن هذه الطالبةِ تكشفُ أسرارَ الأُخرى والأهلُ في وادٍ مخدوعون بأكاذيب بناتهم وبنيهم حول دواعي الواجبات المدرسية والثقة المزعومة. **إن الجبل الجليدي ليطل جزءٌ صغيرٌ منه فقط على السّطحِ أما الجزء الأكبر فهو تحت الماء**. وما غير تفعيل قيمةِ الحياءِ وإذكائها في النفوس من وسيلةٍ لخلق الثقة المتبادلة، ولعلّ قدوتنا في الحياءِ هو رسولنا الأعظم الذي كان "أشد حياء من العذراء في خدرها"، كما ورد في صحيح البخاري.

تشاهدُ إحدى الأمّهات هؤلاءِ (المنسوبين للشباب) أولئك المنسدلة بناطيلهم من دُبرٍ: أوَ ليس لهؤلاءِ أهل يرونهم كيف يلبسو؟ لكن إن لم يكن للأهل كلمة ألا تكون لإدارات المراكز التجارية التي يُفترضُ بها أن تمنعَ هؤلاءِ من مزاحمةِ النّاس دون غَرضٍ سوى التسبُّب بالفوضى وخدشِ الحياءِ، وهتك الحِشمة.

إن المجتمع بشكل عام إن لم يُدرك بأن الحياءَ كلّه خيرٌ فلن يسعد بل ينجرفُ إلى دروبٍ لن يستطيعَ إصلاح اعوجاجه لاحقاً إلاّ بصعوبةٍ بالغة. وهذا ما يحدثُ في أوروبا التي تواجه بعض قوانينها التي تقتصرُ على تنظيم المساوئ والقبائح التي وقعت فيها مجتمعاتها في بعض الجوانبِ معارضةً شديدة. لهذا فهي أمانةٌ على المجتمعِ بأسرهِ مؤسساتٍ وأفراداً تستلزمُ تعظيم قيمةِ الحياءِ في النفوسِ، وتوضيحِ منافعهِ ومحامده. يقول النبي، ﷺ: "**إن لكل دين خلقا وخلق الإسلام الحياء**"[1] ذلك لأن الحياء يمنع النفس من إتيان القبائح ويبعدها عن التقصير في واجباتها. الحياءُ زينةُ المرأةِ ومكمنُ عفّتها وطهارتها وجمالها، وهو وقارُ الرّجلِ وموطن اعتدادهُ بنفسهِ ورداءَ رجولتهِ، وعزّتهِ وكرامته.

---

[1] رواه أنس وورد في سنن إبن ماجه

بين التبسّمِ والتجّهم

شـتّان بـين متبـسّمٍ ومـتجهّم. الأوّل يقابلـك بوجـهٍ طلـقٍ، بهـيِّ المحيَّـا، والآخـر يقابلـك بوجـهٍ كئيـبٍ، بـائس القـسمات. تـرى في الأوّل جمـال الحيـاةِ، وإشـراقات الكـونِ، وتألقـات المطـامح، وتـرى في الآخـر كآبـة الحيـاةِ، وسـوداوية الـشعور، وخيبة الآمال. فأين هذا من ذاك؟!

يومنا مقسومٌ بين هذا وذاك. من وجوهِ النّاس، يتكـوّن لـدينا الإنطبـاع الأوّل، والشعور الأوّل، فإمّا دافعيّةٌ وتحفيز، وإمّا تثبيطٌ وإحباط. يقول أحدهم: طقبل أن أناقش رسالتي كنتُ متوتّراً فمرَّ عليَّ أحدُ المتحنين فقال لي: هل تشعرُ بتوتر؟ يجب ألا تشعر بذلك لأنّك ستجتاز المقابلة. فكان كلامه دافعا كبيرا لي، وعلى العكسِ يقول آخر: كان من حظّي أن يكون ممتحني أحد المتجهّمين فنالني منه ما نالني من التوبيخ والتسفيهِ في ثلاث ساعاتٍ كنَّ كثلاثةِ أعوام." وفي امتحان الحصول على رخصة قيادة المركبة يقول أحدهم: "كان الممتحنُ متجهّماً يصدرُ الأوامر والنواهي من فمٍ جاف، فهو نذيرُ شؤمٍ لكلِّ من يجمعه حظّه به، فكثيرون رسبوا لأنّه أصابهم بالإرتباكِ وأشعرهم بأنّهم لن ينالوا رخصة القيادة حتى قبلَ أن ينجزوا امتحان القيادة. وعلى العكس: فهناك آخر من عُرف ببشاشته، ولطف أسلوبه، وأريحيّةِ حديثه، فهو مشجّعٌ، محفزٌ لكلِّ من يمتحنه حين يقول له: ستجتاز الإمتحان بنجاح إن شاء الله." وهذا ما يكون له أثره الإيجابي على الممتَحَن. وفي يومٍ من الأيّام كان لي موضوع في إحدى المصالحِ الحكوميَّة. فلمّا ذهبتُ لأجل قضائه قابلني موظّف بوجهٍ كالحٍ، لم يقم من كرسيه، فقلتُ لنفسي حين رأيتُ الرجل: لقد تعقّد الموضوع إذن. وعلى عكس طبعه كان مديره على درجةٍ عاليةٍ من الانشراحِ واللُّطف فأجاز الموضوع دون تعقيد كما فعل موظّفه. وحدّثني صديق بقوله: ذهبتُ إلى أحد المسؤولين في إحدى الجهات فلمّا رأيته يدخل مكتبه الضيِّق الذي حشر فيه نفسه وأغصان

شجر الزينةِ تكاد تتكسّر على كتفه، قلتُ لنفسي: إذا كان هذا قد ضيّق على نفسه أيوسِّع على غيره، وبالفعل لم أنل منه مرادي.

هذه طائفةٌ من الأمثلةِ تدلُّ على أثرِ التبسّم وانشراح الوجه في الآخرين، وعلى العكسِ منها أمثلةٌ تدلُّ على الأثر السلبي لانقباض الوجهِ، وانطفاء النضارةِ، وكآبةِ القسمات. حتى أن أحد الشعراء القدامى ويدعى إبن عبد الودود مبالغاً في أثرِ التبسّم أو التجهُّم:

تلـذُّ لَظَـىً لـي إنْ تَبَـسَّمَ مالِكٌ وأكـرهُ رَضْـوَى إن تجهَّـم رضـوان

المشكلةُ أن الكثير من الجهات لا تأبهُ بطبيعةِ الموظّف الذي يقابلُ الآخرين، فلا تلقي بالاً لطبيعة تعامل المعلّم مع طالبه، المعلمّ الذي يؤثّر تبسّمه أو تجهّمه على الطالبِ كثيراً، فقد يرسبُ أو ينجح بسبب وجهِ معلّمه. ولا تأبه لموظّف العلاقات الذي يجب أن يكون في أرقى درجات التعامل مع الآخرين لهذا فإن طلاقةَ وجههِ مسألةٌ لا يجبُ أن يُغفل عنها. يقول أحدهم: قلتُ لأحد المسؤولين أن الموظّف الفلاني يشكّل واجهةً للجهة التي تترأسها غير أنّه صعبُ الطِّباعِ، منقبض الأسارير، جلف التعامل. لكن المسؤول لم يكترث بل أنّه نقل أحد المهملين في أدائهم الوظيفي إلى دائرة تتعامل مباشرةً مع الآخرين من خارج الجهة. ولا يهتم بعض أصحاب الإدارات العليا بطباعِ منسقي مكاتبهم أو رؤساء مكاتبهم إن كانوا متجهّمين، يقابلون النّاس بوجهٍ صلف. وفي هذا الأمر إضرار بسمعة الجهة بسبب من يسمّون بـ"موظفي خدمة الخط الأوّل services front line هؤلاءِ يحملون سمعةِ الجهة الحكومية أو الخاصّة على أكفّهم وفي وجوههم ومنطق ألسنتهم. فإن كانوا موظّفين بائسين أثّروا سلباً في جهةِ عملهم. تقول ربيكا مزن Rebecca Mazin، وهي مسؤولة كبيرة في الموارد البشرية بإحدى المؤسسات الغربية: "إن جودة موظفينا جزء أساسي من ثقافة الشركة، أما الموظفون البائسون فليسوا جزءاً من المعادلة." وفي كثيرٍ من الحالات فإن هؤلاءِ الموظفين ينظرون إلى الجانبِ الفارغِ من الكأسِ مهما فعلت لأجلهم جهات عملهم، ولهذا يقول أحدهم: "نريد الفائزين لا النائحين We want winners no whiners."

وإن كانوا إيجابيين كان لهم أثرهم الجميل في سمعة الجهة التي يعملون فيها. يقول أحد النزلاء في أحد الفنادق: لقد مضى عليَّ عشرون عاماً أنزلُ في هذا الفندق لأنني ألقى معاملة لطيفةً من العاملين الصغار فيه، فهم يشعرونني بأنني أنتمي إلى أُسرهم. وفي أحد الفنادق قابلَنا أحد العاملين الشباب الذي لم يكمل العام في عمله بوجهٍ بشوش، باسم فأشعرتنا عنايته وكأننّا بمعيّة صاحب الفندق.

لقد كانت الابتسامة في ديننا الحنيف مُثابة "تبسّمُك في وجهِ أخيك صدقة." وقال جرير بن عبد الله: "ما رآني رسول الله إلاّ تبسّم."[1] لكن بعضهم يحسبُ أن الدّين تجهّم. ترى وجوههم كالحةً، وقسماتها منقبضة. حتى سمعتُ بعضهم يشتكي منهم عند بعض أهل الدّين. وكأنّما حرّمت الابتسامة في الدّين واستبدلت بالتجهّم. لهذا فقد أخطأ بعض الدعاةِ الذين لا تعرفُ الابتسامة سبيلاً إلى وجوههم الاتجاهَ، فقد كان عليهم أن يشتغلوا بما لا يناسبهم من أعمال بمنأى عن دعوةٍ يلقونها بوجهٍ متجهّم. يقول تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران/159.

ولقد أخطأت المؤسسات حين مكّنت معلّماً متجهّماً لا يفترُّ وجهه عن إبتسامة كي يغرسَ في النشءِ تربيةً وعلما. وأخطأت المؤسسات حين وظّفت على خط الخدمات الأوّل موظّفين بائسين لا يكاد يتحرّك لهم لسانٌ، ولا يرتفعُ لهم نظر إلاّ لما يوافقُ هواهم. وأخطأت المؤسسات حين عيّنت موظّفي علاقاتٍ عامّةٍ لا يتمتعون ببشاشةِ وجهٍ، وانشراحِه. وتخطئ المؤسسات حين تجعل من يواجه المراجعين أو الزبائن أو العملاء من لا يستطيع أن يرسم على وجهه ابتسامة، فإن فعل كان ذلك منه تصنّعاً وتكلّفاً غير مستملح. قلتُ أخطأت لأنها لم تعتنِ بالضرر السلبي الذي يمكن أن يلحقه موظفٌ واحد متجهّم بالمؤسسة كلّها.

---

[1] تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي

فلا هي اجتهدت في اختيار الموظف المناسب، ولا هي عملت على تغيير طباعه بالدورات التخصصيّة المساعدة، التي تغذّيه بالشحنات الإيجابية. فكما يقول أحد المفكرين: "ليس هو المكان، ولا الظروف لكنّما هو العقل الذي يجعل كلّ واحد مبتهجاً أو بائساً." وهذا يتوافق مع قول إيليا أبوماضي:

هشّت لك الدّنيا فما لك واجماً؟ و تبسّمت فعلام لا تتبسّم؟

إن كنت مكتئباً لعزّ قد مضى هيهات يرجعه إليك تندّم

أو كنت تشفق من حلول مصيبة هيهات يمنع أن تحلّ تجهّم

للتبسّم أو التجهّم أثرٌ في النفوسِ، إنّما أثرُ الأوّل فيه إسعادٌ للآخرين ودافعيّةٌ لهم، أما الطبّع الآخر؛ طبع التجهّم، ففيه إحباطٌ وتثبيطٌ للآخرين، لكن الأوّل هو مكسبٌ ووسيطٌ جميل للاتصال بالنّاس، أمّا الآخر فهو ضرر ووسيلةٌ سريعة وفاعلة لتدمير العلاقات. يقول أحد رؤساء الشركات الاستشارية ويدعى جيني شايد Jenny Schade : "طوال 25 عاماً من تقديم الاستشارات لـ 500 منظّمة كبيرة لم أصادف منظمة ناجحة بموظفين بائسين، إنما النجاح يُعزى إلى موظفين ملتزمين ذوي دافعية يترجمون ذلك في تعاملاتهم مع عملاء ملتزمين ذوي دافعيّة." وهكذا تؤثّر طباع الموظّفين سلباً أو إيجاباً على سمعتها وجودة أدائها بغضِّ النظر عمّا قد يقالُ عن الحالةِ السائدة داخل المنظّمة، الذي له دوره في تشكيل الالتزام والدافعية بلا شك، إنّما طباعُ بعض البشرِ هي المحور الرئيس فقد يبتسمُ موظّفٌ للعميل وهو غير سعيد، وقد يتجهّم مع أنّه يحصل على امتيازات كبيرة.

آفة الرأي...!

الرأي بيانٌ موجزٌ لما يعتملُ في العقلِ الظاهر أو الباطنِ للإنسان، يفصحُ عن اتجاههِ، وينضحُ عن فكره، ويكشفُ عن سرِّه، ويَبينُ عن طبيعته، ولهذا قِيل "المرءُ مخبوءٌ تحت لسانه." إذن لا يصعبُ على الحكيمِ تحليلُ شخصيةِ صاحبِ الرأي بما أبدى. وأعظمُ بلاءً أن يخالطُ الرأي هوى. وهذا فخٌّ يوقعُ فيه صاحبُ الرأي نفسه، لأنّه لم يملك قيادَ لسانهِ، فتركه ينطلقُ دون قيدٍ أو رَسَنْ، باعثاً عمّا في جوفهِ من تصوّراتٍ، ونوازع لم تُبْنَ على حقائق. يُروى أن كسرى تعجّب من فصاحة أكثم بن صيفي، وهو من أفصح خطباء العرب، فقال له: "ويحك، يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك! لولا وضعك الكلام في غير موضعه." فقال أكثم: "الصدق ينبئ عنك لا الوعيد." قال كسرى: "لو لم يكن للعرب غيرك لكفى." فقال أكثم: "رب قولٍ أنفذ من صول."

لا يدركُ بعض النّاس أن الرأي إن لم يُؤسس على حقائق، ويُبنَ على براهين، ويوثّق بأدلّةٍ ولد مهلهلاً، ضعيفَ البنيانِ، مهزوزَ الأركان، يسهل سقوطه، فإذا كان "تحطيم رأي عام يستغرقُ دهورا،" كما يقول الكاتب الفرنسي فولتير، فإن رأياً ضعيفاً يسقط من تلقاءِ نفسه، فور ولادته. إن بعض من تدفعهم أنفسهم لإبداءِ رأي في أمرٍ من الأمور، أو شخصٍ من الشخوص لا يتورعون عن قولٍ ليس له جذور. قول سقط على ألسنتهم لتوِّهِ فانطلقت به دون أن تعرضه على عقلٍ حصيفٍ، أو قلبٍ خبير، ولهذا يُحسب عليهم الكلام، فينتقصُ منه، ويودي بهم للاستخفاف. يقول المهلب بن أبي صفرة: "إن من آفة الرأي أن من يراه غير من يملكه." وهذا يعني أن صاحب الخبرة هو الأعلم بحيثيات الرأي في حين أن من يملكه قد لا يعي هذه الحيثيات الأمر الذي يعني في المجمل أهمية رجوع من يملك الرأي إلى صاحب الخبرةِ في شأنه.

"آفة الرأي الهوى"، كما قال أكثم بن صيفي، فإذا داخل الهوى الرأي أفسده. وفسادُ الرأي دليلٌ على فسادِ صاحبه، فالرأيُ إن بُني على ركائزَ واثقة، وأسسٍ واضحة، كان له اعتباره، واتزانه، وديموته، وصدقه، ورسوخه.. أمّا إذا بُني على هوى النفس ونزواتها عَطَنَ فور قوله، ونَتنَ لحظةَ إرساله. يقول جورج برنادشو: "يجب علينا أن نفكر بالأشياء، وأن نراها على حقيقتها، لا كما يروي عنها النّاس." قال رجلٌ لآخر: "لقد قال لي أحدهم إنك كالأفعى السّامة، وها أنا أراك غير ذلك تماماً." ليس السماع إذن كالرؤية. وحدّثني أحدهم قائلاً: "أن شاباً رمى له رأياً حول أمر من الأمور قائلاً: (ذلك أمرٌ فاشل)." فردّ عليه: "هل اطلعت عليه؟" قال الشاب: "اطلعتُ بالصدفة ذات مرة ولم يعجبني. وفوق ذلك سمعتُ من قال ما أقول." فرد عليه صاحبنا: "ذلك رأيٌ لم يبنَ على حقّ... فالسماعُ غير الرؤية."

وأعجبُ من قومٍ لا يقلبون آراءهم قبل إظهارها، فذلك أصونُ لأنفسهم، وأحفظ لكرامتهم، فإن بعث الإنسانُ رأياً أصبحَ مسؤولاً عنه، يكتبُ في صفحةِ عمله، ويتناقله الناس عنه، فلا يستطيعُ أن يتبرأ منه لاحقاً، وإن فعل كما يفعل بعضهم حين يستدركون بالتعليق اللاحق: "لقد أخرج النّص من سياقه." ويرمون بالتهمة على الوسيلة التي نقلت آراءهم. لقد اتبعوا الهوى في إبداءِ الرأي فهوى به فقد سمّي الهوى – كما يقول الشعبي- لأنه يهوي بصاحبه.

قال إعرابي مقولةً حكيمة، "لم أر كالعقل صديقاً معقوقاً، ولا كالهوى عدواً معشوقاً، ومن وفقه الله للخير جعل هواه مقموعاً، ورأيه مرفوعاً." وفي هذا أقول هذه الأبيات:

ما خالطَ الرأيُ الهوى ... إلاّ هوىَ بأَساسِهِ
فالكيِّسُ الذَّرِبُ الّذي ... تَعِبَ الهوى بمراسهِ
الرأيُ يرفعُ قامةً ... ويصونُ طِيبَ غراسِهِ
إن لم يخالطهُ الهوى ... في وردِهِ أو آسهِ

فحدّث...!

أن يُنعمَ اللّهُ على إنسانٍ بنعمةٍ فلا يحدِّثُ عنها قولاً أو فعلاً فذلك ظلومٌ لنفسه، إذ المنعمُ يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ الضحى/11، والمعضلة التي يوقعُ فيها الكثيرُ من النّاس أنفسهم هي عدم الإلتفاتِ إلى النِّعمِ التي وهبها اللّهُ لهم. حتى إذا فقدوها ذكروها. ولهذا يتكرر النداءُ في القرآن الكريم للناس"اذكروا نعمة الله" في العديدِ من المواضع، وما ذلك التذكيرُ إلا لخصيصةِ النسيانِ عند الإنسانِ، أو التكابر، ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الزمر/49. إذا فقد الإنسان نعمةً كانت ضمن ما أنعم الله عليه من النّعم فلم يكن يوليها قدرها شعر بها، وبكى على فقدانها، وتأسّف على ضياعها في غير منفعة، فمن أضاع نعمةَ الشباب قال: "خسرتُ شبابي." ومن أضاع صحته رأى أن "الصحةُ تاج على رؤوس الأصحّاء." وهكذا يمضي الكثيرُ من البشرِ يندبون حظوظهم في غير جدوى. وليس للحظوظِ من أسبابٍ عليهم، بل السبب أنفسهم ذاتها، هي التي تُربحهم أو تدفعهم للخسران. أعرفُ أناساً يملكون ثرواتٍ طائلةٍ لكن أحوالهم الظاهرة تعكسُ فقر أنفسهم. وليس ذلك زهداً وإنّما بُخلاً على أنفسهم وأسرهم، وأُناساً آخرين دائمي الشكوى والتّذمر من كلِّ شيء حتى يُشعروا المستمع أنّهم أتعسُ خلقِ الله في حين أنّهم يملكون ما يشتكون منه، وإنّما شكواهم من أجلِ المزيد. هؤلاءِ لا يرون ما أنعم الله عليهم من نعم، بل يرون ما يملك غيرهم وشأنهم كشأن الذين رأوا قارون، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ القصص/79، لكنهم تراجعوا عن أمانيّهم بعد أن رأوا ما حلّ بقارون

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ القصص/82.

إن الله قد أنعم على الإنسان بنعمٍ هي هدايا يجب أن تستغل، هدايا موهوبة من الخالقِ المنعم، لكي يتمتّع بها الإنسانُ تمتّعاً في غير معصية، فهو يحبُّ أن يرى أثرها عليه. قال رسول الله، ﷺ: "إن الله عز وجل، إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه." رواه البيهقي في شعب الإيمان، كمن يُهدى إلى إنسانٍ قريبٍ إليه ثوباً أو غيره فإنّه يراهُ وقد لبسه، وازيّن به، ويشعرُ بالإمتعاضِ إن أخفاهُ، وتجنّب إظهاره. فإذا لم يستغل الإنسان النعمة، وتركها مركونة في أعماق نفسه، مهملةً دون اكتراثٍ، ضمرت، وانحسرت، فهي كالثمرة اليانعة التي تتركُ في غصنها لا تقطف فتفسدُ. فاستغلال الشبابِ بالعملِ الجاد، واستغلال البصر بالقراءةِ، واستغلال العقل بالتفكّر والتدبّر، واستغلال الجسد بتوظيف قواه في الطاعة، واستغلال اللسان في قول الخير... وهكذا. يروي ديل كارنيجي عن رجل أعمالٍ أفلسَ فاسودّت الدنيا في نفسه، ومضى هائماً في الطرقات، فرأى رجلاً قد بترت رجليه يجاهدُ كي يدفع اللوح الذي يعبرُ به الشارع، حين نظر إليه هذا الرجل الذي فقد ساقيه وهو يبتسمُ قائلاً: أليس صباحاً جميلاً، يا سيدي؟ يقول رجل الأعمال: كيف لهذا الرجل الذي هو تعيسٌ في نظري أن يرى جمال الصباح وأنا الذي أتمتّع بكامل صحتي وعافيتي أن أراه مسودّاً، فعدت إلى مكتبي حيث استعدت نشاطي، وهمّتي وانتشلتُ نفسي من الضياع وعوّضت ما خسرت من أموال. ويروي عن آخر أنّه تأمّل جمال الطبيعة في الجبال فقط في طريقه إلى المشنقة، كأنّه يراها لأولِ مرّة في حياته. ويحكي أحدهم هذه القصة، التي يزعم أنها حدثت في مدينة خليجية، أنقلها للعبرة: "أعمل في أحد المستشفيات بإحدى المدن، وذات يوم قاربت فترة دوامي على نهايتها حين أبلغني المشرف أن شخصية ثريّةً تتعامل بمئات الملايين في الأسهم في الطريقِ إلى المستشفى وعليَّ استقباله، وإنهاء إجراءات دخوله، فانتظرت عند بوابة

المستشفى، ومن هناك كنت أرمق سيارتي القديمة جداً متذكراً الأقساط الشهرية التي دفعتها والخسائر الكبيرة المتوالية، عندها وصل الثري ليزيدني حسرةً فوق حسرتي، فقد حضر بسيارةٍ أعجز حتى في الأحلام على أن أمتلك مثلها، يقودها سائق يلبس ثوباً لا أستطيع شراء مثله، فأدخلني هذا المشهد في مقارنةٍ بين وضعي البائس وهذا الوضع المرفّه، وقلت لنفسي: هل هذه عيشة؟ لكنني شدهت حينما رأيت السائق وهو يدفع رجلاً على كرسيٍّ متحرّك مبتور الساق، عرفت لاحقاً أنّه جاء لموعد من أجل بتر الساق الأُخرى، اهتزت عواطفي وأدرتُ وجهي جانباً لأبكي، ليس على وضعه فحسب، بل على كفر النعمةِ الذي أصابني ويصيب بني الإنسان عند أدنى نقص في حاله، أو أقلّ خسارة، وسألت نفسي: هل أصبح مؤشر الأسهم هو الذي يقيس درجة إيماننا فيرتفع أو يهبط بناءً عليه؟ هل ننسى كل نعم المولى في لحظة ونستشيط غضباً، ونكتوي حسرةً عند أقل خسارة؟ تحسّست ساقيَّ السليمتين، وشعرت بصحتي فوجدتها تفوق أثمان الدنيا وقلت هذا غيض من فيض نعم الله المنعم علينا." وهكذا هو الإنسانُ في غالبه، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ الأحزاب/72.

والحالُ كذلك في النظرةِ إلى الوطن، فإذا سافرَ الإنسان إلى أوطانٍ غير وطنه، لم تلههِ الطبيعة الغنّاء عن الشتياق إلى الوطن، ولم تنسهِ الأجواء الباردة دفء الوطن. يستذكرُ عزّته وكرامته في وطنه، فيصمتُ عن أذيّةٍ خارج وطنه، ويكتم عبرته عن تهكّم، ويحتملُ بعض القسوةِ والجفوة إن نالته كيلا يلقى مصيراً لم يسافر لأجله. يقول أحدهم: كنتُ أقضي إجازةً في إحدى الدول وهناك كنت أتلقّى بعض الوقاحات بصمت، وحين وصلتُ وطني شعرتُ بأنني في بيتي الكبير، أحسستُ بدفءٍ وأمان. وقال أحد الشباب: موظفٌ في المطارِ يقول لي: "تركتَ ذلك الجو اللّطيف وعدت لهذه الأجواء الحارة،" فقلتُ له: "هو الوطن لا يساويه شيء في ثمنه." ولكم نستشعرُ بقيمة الأمنِ والأمان، والهدأةِ والاستقرار، فقد نجوب العالم إلاّ أن الوطن يبقى هو الملاذ الآمن، والحاني لنا.

إن الإنسانَ هو وحده الذي بمقدوره أن يحيلَ النعمةَ إلى نقمة بسوء نظرته وتدبيره وتفكيره وسلوكه. يقول بشار بن برد:

أبـا مـسلم مـا غيَّـرَ اللَّـه نعمـةً   علـى عبـده حتـى يغيّرهـا العبـد

وكـم مـن أنـاس وهـبهم الله الـذكاءَ فاسـتغلوه في مـا يجلـبُ لهـم المـصائب، وكـم مـن وهـبهم الـصحة فأضـروها بالـدّخان والـشراب والفـواحش حتـى خربـت، وكم من وهبهم قوّة الجسدِ فأحرقوهـا في غير صـالحهم، وكـم مـن وهـبهم المال فأضاعوه في إسراف وتبذير وسوء تدبير! يقول الشاعر:

إذا كنـت في نعمـة فارعهـا   فـإن المعاصـي تزيـل الـنِّعم

وهـكـذا فكـلُّ نعمـةٍ لا يـشكرُ الإنـسان ربّـه عليهـا ضـائعة، والـشكرُ هـو توظيفها لما وهبت له، والذي وهبت له لا شك جالبُ لها المنافع، دافعٌ عنها المضار، يقول إبن الرومي:

إذا جُـددتْ نعمـةٌ لامـرىء   فتكميلُهـا جـدَّةُ العافيَـة
وبالـشكر قُـدِّر تجديـدُها   وللّـه بعـدُ يـدٌ شـافيه

أن تـشعر بـالنّعمِ الـتي وهبـك الله إيّاهـا، جـسديّة أو فكـريّـة، وأن تستـشعر بالنّعم التي حولك من وطنٍ آمنٍ، ووالدين حانيين، وبيت عامر، ورزقٍ غامر، فأنت عبدٌ شـاكر. إذ لا خيرَ في إنسانٍ وُهِب النّعم فأنكرهـا وتعجّب لهـا، والعجـب، كما يقول الغزالي، في "إحياء علوم الدين"، هـو اسـتعظام النعمـة والركـون إليهـا مع نسيان إضافتها إلى المنعم."

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف:15]

صدق الله العظيم

ملاحظة:

من باب الأمانة الأدبية، القول بأن مادة هذا الكتاب قد نشرت على شكل مقالاتٍ صحفيَة، لهذا تمت الإشارة إلى مصدر المقولة أو المعلومةِ ضمن النصَ، أو تكون صادرة عن القراءات العامة، كحال المقالات الصحفية، ولذلك لم تتوفر قائمة للمراجع مذيلة في هذا الكتاب.

الفهرس

في ظلال القيم، أو في حديقة القيم / د. محمود بن مبارك السليمي........................ 5
تمهيد/ د. صالح الفهدي.. 9
الحسُّ الجميل 13
أصحابُ العطاءات السّخيَّة 15
القلوب الضيِّقة 17
المتواضعون 20
رسالة مفتوحة.. 22
الأيام المكرورة 25
سلامة الصدور... 27
القيم والمعاملات 29
غنيُّ النَّفس.. 31
العفوية.. 34
جزرٌ مبعثرة...! 36
داء مقيت...! 38
هؤلاء كم عددهم؟.. 40
خصائص 42
قيمة الآخرين 44
إنسانيات (1).. 46
إنسانيات (2).. 48
الحديقة.. 50
لا وقت للكراهية...!.. 52
واقعية العلاقة مع المرأة...! 55
الأسلوب عنوان المرء...! 58
فن التسويات 61
الحوار 63
هديَّةٌ ثمينة 66

الكلمةُ... الكلمةْ 68
مفاتيحُ القلوب...! 72
تغيير القناعات 75
عقدة (الأنا)...! 77
الثناءُ الجميل.. 80
معنى الرقي.. 83
سخاء الصوت.. 88
السلام... تحية ودستورا.. 90
مبدأ التحاور 92
ألا ما أمقت التَّسفيه... والمسفِّهون!.. 94
أصحاب الفأل السيء.. 96
كلمة شكر.. 98
قيمة الإستهلال.. 100
كلماتٌ بسيطة...!.. 103
الطابور مؤشر حضارة.. 106
هذا جناهُ أبي عليّ...!.. 110
ثقافة الرأي.. 112
صور لا تسقطها الذاكرة 114
لِم لا...؟!.. 116
المتنطِّعون 119
أسئلةٌ ملحّة.. 122
العلم والسلوك 124
التجديد في الفكر 126
إدراك الحكمة 128
تحوير الحقائق...! 130
النظرةُ نحو الأعمار.. 132
تقويمٌ فارغ...!.. 135
واثق الخطا 138
تطلّعات عمليّة 140
فلانٌ ذَهَبْ...! 142

حياةٌ ذات معنى...! 144
الرؤية 146
الانسكاب البارد...! 148
الأحكام الحاسمة...! 150
النظرُ المحدود...! 152
أحكامٌ منفعلة 154
مشهد يبهج الروح 157
المواهب الدّفينة 159
عالم مثالي 161
تصحيح النظرة نحو الآخر (1) 163
تصحيح النظرة نحو الآخر (2) 165
عقول مضطربة...! 167
إنتاج الأفكار 169
قافة التآمر 171
أشد أعداء الإنسان 173
آفةٌ بعض النّاس 177
قيمة التسامح 181
التفاصيل الصغيرة 185
قناعاتٌ جامدة 188
الحلماء 191
المواقف المحرجة 196
عش أنيقاً...! 199
أهل المصالح 202
صُنّاعُ المفاجأت 206
عقولٌ صغيرة 209
قيمة الاعتذار 212
قيمة الحياء 216
بين الحقيقة والوهم 220
بين المنطقِ والسُّخرية 223
تعالي بعض النفوس 228

رسالة إلى مُحاور 231
كلمة 236
لا 240
لو أدركوا قِصَر الحياة! 243
متعلمٌ جاهل...! 245
نقطةُ تحوُّل 248
الحاجة إلى الدين 252
فهْمُ الدِّين 256
الحواجز العاطفية...! 260
غاياتٌ مبتورة 264
الشعورُ بالحياة 267
بين الأشياءِ والأفكار! 273
قيمةُ الاحتفال 278
الذين من حولنا 283
المقتحمون 288
أثر الاسمِ على المسمَّى...! 294
الفرحُ الرَّزين 297
اللُّغةُ هويَّة 301
النظرةُ إلى المستقبل 305
في معاني الوطنِ والوطنيّة 309
رسالة إلى رجال المالِ والأعمال 312
بعض الظَن...! 316
حفاظاً على الهويَّة 321
دَرَجات 325
نقاطٌ وفواصل 328
وهم! 332
الدافعية 336
من قيمِ التعامل 339
الرسالة 342
القرار 345

النوايا والقرار 351
هَوسَ التَّعقيد 354
رسالة إلى مدير...! 357
ثقافة التعامل 359
الغوّاصُ لا يتكلّفُ الغوص! 362
قيمة الابتسامة 365
قيمةُ الإحسان 369
في معاني الإدارة... 373
الصف الثاني 377
الطاقات المعطلة 382
الكفاءات الخلاّقة 385
قيمة الترشيد 389
السحر المبين 392
الجهلُ المقنَّع 395
أدب الرأي 399
بين الطبّع والتّطبع 403
العاطفة 406
داءُ الغرور 409
من يستملحون الكّذب 413
ما يقطرُ عسلاً 416
مضلّلون 420
المتعة والتشويق 423
رسالة إلى معلّمي 426
الوطن 430
بين الحرية والتفلُّت 435
تنازلات 438
وسطيةُ الكلام 441
توافق... 445
رحماءُ بينهم 449
اللباس بين الذوق والهويّة 453

شريكةُ الحياة.. 459
ضمائر مكبوتة.. 463
علّمه الدرس 467
قمم 471
قيمة الإصغاء 475
قيمة الدعاء 482
قيمة الصراحة 487
قيمة الواقعية 490
لحظات إنسانيّة.. 494
نظرات 497
خطوات صغيرة.. 500
ما لا يَعني 504
لو فكّروا...!.. 507
قيمة الكلمة.. 511
في معاني الرجولة 514
من قيمِ التعامل 518
عجباً من هؤلاء...!.. 521
نحنُ والتأخير 525
نصف الحكاية.. 529
وجهات نظر...! 533
قيمة الحياء.. 537
بين التبسِّمِ والتجّهم 541
آفةُ الرأي...! 545
فحدِّث...!.. 547
الفهرس 553